

حديقة الزوراء في سيرة الوزراء

تاليـف

عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م



حديقة الزوراء في سيرة الوزراء

تاليف

عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي

حققه وقدم له وعلق عليه

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في يوم من أيام سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م استقبل رجلٌ في أواسط العقد الرابع من عمره، من أسرة علمية نبيلة، في بيته الواقع قرب رباط قديم في كرخ بغداد، عند شاطئ دجلة، مبعوثاً خاصاً أوفدته إليه سيدة مثقفة من سيدات مدينته، ينقل إليه رغبتها في أن يؤلف كتاباً مستقلاً في سيرة واليي بغداد، جدها الوزير حسن باشا وخالها الوزير أحمد باشا، وكانت هذه السيرة قد شغلت نحو نصف قرنٍ كاملٍ من تاريخ العراق. فما كان إلاّ أن وجدت هذه الرغبة ميلاً في نفسه، وتحقيقاً لذاته في أن يكتب تاريخ مدينته التي أحبها، وعاش مختلف ظروفها، حلوها ومرها. فأما الرجل، فهو الشيخ الأديب عبد الرحمن السويدي، النجل الأكبر للعلامة الشيخ عبد الله السويدي، ذائع الصيت، وأما السيدة فهي خديجة خانم بنت قره مصطفى باشا، العربي أرومةً[1]، وابنة أخت والي بغداد الوزير أحمد باشا، وأمها هي صفية خانم بنت حسن باشا، والي بغداد السابق، وأما من كتب من أجلهما هذا الكتاب، فهما الواليان المذكوران.

وفي الواقع فإن اختيار خديجة خانم للشيخ عبد الرحمن السويدي[2] لم يكن اختياراً سريعاً يفتقر إلى مبرراته، فهذا الرجل كان سليل أسرة

---

[1] حديقة الزوراء، الورقة ١٦٨أ.

[2] ترجمنا له بتفصيل، ونوهنا بمؤلفاته، في مقدمتنا لكتابه الذي حققناه بعنوان (تاريخ حوادث بغداد والبصرة)، بغداد ط١، ١٩٧٨، وط. ١٩٨٧، ص١٦- ٣٤، وفي مقدمتنا لديوانه (ديوان عبد الرحمن السويدي) بغداد ٢٠٠٠ ص٣-٢٩، فنحيل القارئ إلى هذين الكتابين.

عباسية النسب[٣]، تشعر بانتماء خاص لمدينة بغداد التي بناها أسلافه منذ قرون عديدة، وهي وإن نزحت من بلدة الدور إليها، إلاّ أن هذا النزوح جرى منذ قرنين قبل ولادة عبد الرحمن في سنة ١١٣٤هـ/١٧٢١م، وهي مدة كافية لتغدو أسرته إحدى الأسر العريقة في بغداد، أو في الأقل في الكرخ منها، حيث أقامت الأسرة في محلة خضر إلياس، من محلاتها القديمة، ونشأت بينها وبين الأسر الأخرى، ممن تشترك معها في عنايتها بعلوم العصر وآدابه، مثل الآلوسيين والشاويين والعُشاريين، صلات واسعة، وصداقات حميمة.

---

(٣) إن الشيخ عبد الرحمن هو ابن الشيخ عبد الله الذي عرف بالسويدي فعرفت أسرته بهذا اللقب من بعد، وهذا ابن حسين بن مرعي بن ناصر الدين، وهو أول من نزح إلى بغداد من بلدته الدور، فوثّق نسبه في محضر رسمي صادق عليه قاضي بغداد آنذاك، ابن الحسين بن علي بن حمد بن محمد المدلل، الجد الجامع لعشيرة ألبو مدلل العباسية، بن الحسين بن علي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي بكر بن الفضل [للمسترشد] بن أحمد [المستظهر] بن عبد الله [المقتدي] بن محمد [ذخيرة الدين] بن عبد الله [القائم] بن أحمد بن إسحاق بن جعفر بن أحمد [المعتضد] بن [الأمير] الموفق طلحة بن جعفر [المتوكل] بن محمد [المعتصم] بن [هارون الرشيد] بن محمد [المهدي] بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي. ذكر كاظم الدجيلي (مجلة لغة العرب المجلد ٢ [١٩١٢] ص٢١٩) أنه رأي النسخة الأصل من هذا النسب عند يوسف أفندي السويدي وتاريخها سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م وهي موقعة بتواقيع جماعة من العلماء المشهورين. وتوجد نسخة قديمة أحدث منها لدي السيد المحامي علي بن بدري السويدي ببغداد اطلعنا عليها.

وكانت منزلة أبيه عبد الله قد ذاع صيتها بسبب نبوغه في العلم من جهة[٤]، وللمكانة التي احتلها لدى والي بغداد أحمد باشا، فكان طبيعياً أن يتأثر الولد بأبيه، كما تأثر أخوة له أيضاً، فكان أن أتقن علوم عصره التقليدية، مما عرف بالعلوم العقلية والنقلية وهو لما يزل شاباً يافعاً، وأبدى ميلاً إلى علم الحديث الشريف، فحصل على أول إجازة بكتب الحديث الستة، وروايات متسلسلة أخرى، وبلبس الخِرقَة، وهي إحدى شعائر الطرق الصوفية التقليدية، من عالم حجازي كبير، كان قد قدم بغداد في ذلك العهد، هو الشيخ محمد بن أحمد بن سعيد المعروف بعقيلة الحنفي المكي (المتوفى سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م). ثم واصل دراسته، فانتظم طالباً في المدرسة الأحسائية بالجانب الشرقي من المدينة، ليدرس النحو على يد شيخ جليل سبق لوالده نفسه أن تتلمذ على يديه، هو الشيخ ياسين الهيتي، ثم ليدرس علوماً أخرى على أيدي كبار علماء بغداد، منهم والده، والشيخ فصيح الدين الهندي وغيرهم. وبعد تخرجه على أيديهم، وإتمامه مراحل

---

[٤] ولد عبد الله سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م، وتوفي أبوه هو لما يزل طفلاً فكفله خاله أحمد بن سويد، وأخذ العلم على كبار مشايخ بغداد والموصل، ثم تصدر للتدريس في داره، وفي مدرسة جامع الإمام أبي حنيفة، وفي مدرسة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وفي المدرسة المرجانية، واشتهر بتمثيله الجانب العثماني في مؤتمر النجف بحضور نادرشاه سنة ١٧٤٣هـ/١٧٦٠م. وبتأليفه كتباً ورسائل عديدة في الرحلات والأدب والنحو والتصوف، وله ديوان شعر. وتوفي في سنة ١١٧٤هـ/١٧٦٠م كتب سيرته الذاتية في مقدمة كتابه (النفحة المسكية في الرحلة المكية) وقد حققناه، وهو تحت الطبع. وفصلنا القول في سيرته في كتابنا: عبد الله السويدي، سيرته ورحلته، بغداد ١٩٨٦.

دراسته، عين مدرساً في بعض مدارس بغداد، وصار له، مع مرور الوقت، تلامذة كثر عددهم، بما ناله من صيت حسن بين معاصريه.

ولاشك في أن الشيخ عبد الرحمن طفق، بعد أن فوجئ بطلب السيدة خديجة خانم، يستعيد ذكرياته، ويرتب أفكاره، فلاحظ أن معلوماته عن السنين التي سبقت ولادته، أو التي لم يكن فيها يعي الأحداث لصغر سنه، مستمدة في أغلبها مما رواه له أبوه الشيخ عبد الله، ذلك أن هذا الشيخ كان قريباً من الأحداث، يرقبها بكل عناية، بحكم ثقافته الواسعة، ومشاركته بما عاصره من أفراح مدينته وأتراحها معاً. بل شرع عبد الرحمن يستذكر روايات كان قد سمعها من آخرين ممن قُيِّضَ لهم أن يكونوا شهود عيان على ذلك العصر، من علماء وموظفين وقادة عسكريين.

وتضم تلك الذكريات أحاديث مهمة عن حركات عسكرية عديدة كانت تقوم بها عشائر عراقية بعضها كان حديث القدوم إلى العراق، ويهدد وضعها القلق استقرار الحياة الاجتماعية في ريف العراق عهد ذاك. كما تضم أيضاً أحاديث أخرى، مفعمة بصور البسالة، عن الحملة العسكرية التي قادها حسن باشا، وشارك بها عراقيون كثيرون، فضلاً عن ضباط حسن باشا من مماليكه، إلى إيران، دفعاً لخطر التداعيات الداخلية والخارجية التي أخذت تهدد أقاليمها المحاددة للعراق بعد انهيار السلطة الصفوية. وكان فتح كرمنشاه على يد هذا الوالي، وفتح همدان على يد ابنه أحمد باشا، من أكثر اللحظات التي هزت وجدانه، بوصفها تمثل بداية عهد جديد من القوة والنهوض.

وإذ بدأت ذكريات أبيه تنفصل عن ذكرياته هو أيام كان طفلاً، فإنه تذكر ذلك الفيل العجيب الذي خرج إليه ليشاهده عن قرب، وهو الذي لم يكن قد غادر الثانية عشرة من عمره الغض، وكان ذلك الفيل هدية من أشرف خان الأفغاني حاكم إيران الذي وصل إلى السلطة بعد انهيار الصفويين.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس مشاعر الخوف والهلع التي عاشها يوم أخذت مدينته تتعرض بين حين وآخر إلى حصار إيراني قاس، يضربه عليها نادرشاه، ذلك المغامر الذي قُدِّر له أن يرث العرش الصفوي، والظروف الصعبة التي أُضطُرَّ أهلُ بغداد، ومنهم أهله ومعارفه، إلى عيشها في ظل ظروف الحصار. كما لم ينس مجريات محاولة الإيرانيين اقتحام السور الذي كان الكرخيون قد شادوه على عجل للدفاع عن جانبهم، ومشهد جموع أهل حيه وهم يخرجون بأسلحتهم لمواجهة جيش نادرشاه، ومنهم أبوه وأقاربه وأهلوه، الذين رووا له فيما بعد تفاصيل تلك الأحداث بدقة وتفصيل. وكان هو يشاهد، من على سطح داره، المعركة الدائرة بين مواطنيه والقوات المعادية. وهل يمكن لصبي وهو في تلك السن الغضة أن ينسى مثل ذلك المشهد الرهيب، حينما امتلأت الأرض الفضاء القريبة من سور الكرخ بالمتحاربين، من الفرسان والمشاة، فارتفع الغبار ليملأ السماء، واختلطت قعقعة السلاح بأصوات الهاجمين والمدافعين، مؤلفة هديراً صاخباً يثير الهلع.

لقد علّمت تلك الأحداث عبد الرحمن أن لا يُحجم عن أداء دوره الوطني كلما دعت الظروف إلى ذلك[٥]، وكان ذلك واحداً من ثمار الوعي الجديد الذي وجد طريقه إلى أذهان الجيل الذي قُيّض له أن يعيش كل تلك المتغيرات السريعة التي مرت على البلاد.

ولا شك في أن عبد الرحمن، خرج من بعد تصفُّحِه سجل ذكرياته المُفعم بالأحداث المهمة، والأحاسيس العميقة، بميل حقيقي إلى أن يجعل من رغبة خديجة خانم سبباً في أن يخرج على الناس بكتاب يؤرخ فيه، على السنين، تفاصيل ما سمعه، وما شاهده، وما اطلع عليه من وثائق، عن عصرٍ وجد من المهم أن يطلّع على مجرياته أهلُ الجيل الجديد الذي لم يكن قد عاش كل هذا أو رآه. ومع أنه كان مؤلفاً في أكثر من علم واحد، فإنه لم تكن له تجربة في كتابة التاريخ، فجميع مؤلفاته تبحث في الفقه، وفي الحكمة والعقائد والتصوف، وفي النحو والبلاغة، بل وفي علم الفلك أيضاً[٦]، بيد أنه لم يكن بعيداً عن دائرة الأدب، فقد ولع - كسائر

---

[٥] من ذلك أنه تزعم أهل الجانب الغربي من مدينته في أثناء الفتنة التي ثارت في بغداد حينما حاول أحد الإيرانيين أن يصل إلى السلطة معتمداً على رشوة المسؤولين العثمانيين، وكان له دور في تزويد المقاتلين باطلاقات المدافع التي كان الثوار يطلقونها على السراي حيث يتخذ الوالي العثماني مقر قيادته. بحثنا (مواقف سياسية وعسكرية لعلماء بغداد في العصر العثماني، مجلة الرواد، العدد الفصلي الأول، بغداد ١٩٩٧، ص ٤٢-٥١.

[٦] فصلنا القول في هذه المؤلفات ومواطن وجودها في دراستنا عن سيرته التي نوهنا بها آنفاً.

أترابه- بقرض الشعر، وقرأ من أجله الكثير من دواوين السابقين، وكتب الأدب، ولم تكن قراءاته تلك ببعيدة عن مجال الكتابة التاريخية، فالصياغة الأدبية كانت الطريق لإتقان الصياغة التاريخية على أية حال.

لقد كان عبد الرحمن أديباً بكل ما تعنيه هذه الكلمة في ذلك الزمان، وإذ لم تكن الفوارق تبدو كبيرة بين الأدب والتاريخ عهد ذاك، فقد شعر بأنه لا يقف بعيداً عما دعته إليه تلك السيدة النبيلة، وأنه قادر على أن يلبي رغبتها ويحقق ذاته مؤرخاً في الوقت نفسه. فلم يكن منه ألاّ أن يستجيب موافقاً على كتابة الكتاب المنشود.

ويمكننا الآن أن نتصور مقدار السرور الذي تملك خديجة خانم بعد أن تسلمت موافقة الشيخ، فهذه السيدة هي الأخرى كانت تمتلك، بحكم ثقافتها الواسعة وموقعها الاجتماعي، خزيناً ثرّاً من الذكريات التي تتجاوز حياتها الخاصة، أو حياة أسرتها الصغيرة، إلى أن يشمل تاريخ الحياة العامة في بغداد، بل وفي العراق أحياناً، على مدى نصف قرن تقريباً.

ولعلها مدّت بنظرها، من خلال نافذة قصرها، المطل على دجلة، قرب سراي الحكم، إلى جانب من المدينة، فتذكرت أحاديث جدها الوزير حسن باشا عن أسرته، ونشأته، ومناصبه السابقة في الدولة، قبل أن يتولى منصبه والياً على بغداد في ١٢ صفر سنة ١١١٦هـ/١٥ حزيران سنة ١٧٠٤م، وكيف بدأ هذا الوالي الذي تمتع بقدرات عسكرية وإدارية كبيرة، بإعادة النظام إلى بلد ابتلي بكل مظاهر الضعف والفوضى منذ قرون، فينشئ أول جيش محلي مدرب يرتبط به، بصفته رأس السلطة في بغداد، لا بالإدارة المركزية في الدولة العثمانية، وكيف استطاع أن يقنع هذه

الإدارة بمبدأ أن تكون الولايات العراقيـــة المختلفـــة، والإمـــارات شـــبه المستقلة، تحت إشرافه المباشر، فيضع من ثم الأســـس الأولـــى لتوحيـــد العراق الحديث.

ولاشك أنها تذكرت أيضاً تلك المُدد الطويلة التي كان جدها يغيـــب بها عن بيتّه ليخرج على رأس جيشه لقمع الحركات المناوئة، أو للقضـــاء على الحروب القبلية، أو لضرب قُطاع الطرق، أو عصابـــات الأريـــاف، الذين كان نشاطهم يهدد الطرق التّجارية، والنشاط الزراعـــي علـــى حـــد سواء، وهو الدور الذي تُوّج بتقليده القيادة العامة للقوات العثمانيـــة وقـــد أُنيطت بها مسؤولية السيطرة على الأقاليم الغربية من الدولـــة الصفويـــة السابقة، وكيف استقبلت بغداد نبأ فتحه مدينة كرمنشاه بالفرح، وما تملكـــها هي من شعور بالفخر والاعتزاز بذلك الجد الشجاع.

وإذ كان شريط الذكريات السارة يبدو حياً أمام ناظريها، فـــإن ثمـــة أحزاناً كثيرة لم تكن لتمحى من ذلك الشريط أيضاً، فقد تداعت في ذاكرتها صورة الحزن العميق الذي رانَ على أسرتها، وعلى قصر جدها، ثم علـــى بغداد كلها، يوم وصل النبأ المُذهل بوفاة حسن باشا، بين جنـــوده، وهـــو يحاصر همدان، ثم بصورة موكب نعشه يحيط به قادة الجيـــش، وتتقدمـــه أفواج المماليك، ليشق طريقه وسط حشود البغداديـــين المذهوليـــن علـــى الجانبين، ليوارى الثرى في مقبرة الإمام أبي حنيفة. فـــي تلـــك الســـاعة الحزينة افتقدت خالها أحمد باشا، الذي كان يتولى البصرة نائباً عن أبيـــه، فلما سألت عن سبب غيابه، قيل لها أن فرماناً صدر بتوليه قيـــادة الجبهـــة مكان أبيه.

وإذن، فإن تاريخ الأسرة لم ينته بعد، فها هو الوزير أحمد باشا، يسير على خطى والده، فيفتح همدان في واحدة من أشد الحروب ضراوة، ويمضي على رأس جيشه ليضم مناطق عديدة حولها إلى سلطته، وبدأت الأسرة تتلقى أنباء عميدها الجديد في كل حين، سلسلةً من الانتصارات المتوالية، التي باتت حديث القصر والشارع على حد سواء. وحينما عاد أحمد باشا إلى بغداد منصوراً كانت المدينة ترى فيه قائداً من طراز جديد لم تألفه من قبل، حتى أن أحد شعراء بغداد وصفه في قصيدة له بأنه (روح بغداد)[٧].

وبدأت سيدات القصر يتناقلن هذه المرة أخباراً ذات طبيعة مختلفة عما يدور في جبهة القتال، فهاهي خديجة خانم قد بلغت السادسة عشرة، أو السابعة عشرة، من عمرها، فلابد للفتاة من زوج يليق بمكانة أسرتها، وكونها ابنة أخت والي بغداد نفسه. وسرعان ما تناهت إليها جلية الخبر، لقد اختار لها خالها زوجاً من كبار قادته، هو محمد باشا، وهاهي تتذكر تلك الاحتفالات البهيجة التي عمّت القصر، بمناسبة زواجها، وما جرى في بغداد من مظاهر الفرح والزينة. ولم تمض سنتان، حتى زوج خالها ابنته الكبرى عادلة خانم من أحد أبرز قادته من المماليك الذين أحسن تدريبهم، وهو الزواج الذي سيكون سبباً في انتقال السلطة إلى هذا الصهر، ليبدأ عهد جديد من حكم المماليك في العراق.

---

[٧] حديقة الزوراء، الورقة ١٩٠أ.

وفجأة تغير كل شيء، وانقلبت موازين القوى، فقد نقل عيون أحمد باشا الذين في داخل إيران، نبأ صعود رجل يدعى (نادر) من قادة الشاه الصفوي طهماسب، على غير توقع أحد، من بين الأحداث، ليتولى قيادة سفينة الصفويين الغارقة، فيحقق أولى انتصاراته على العثمانيين، ثم ليقضي على الأسرة الصفوية نفسها، بالقضاء على آخر شاهاتها، وليعين نفسه شاهاً على إيران. وتدافعت الصور في وجدان هذه السيدة وهي تتأمل الماضي القريب، ولاحت من بينها صورة خالها الشاب أحمد باشا وهو يتولى قيادة مدينته في مواجهة حصار إيراني خانق لمدة سبعة شهور عجاف، وتذكرت ما كان يصل إلى أسماع من حولها من صمود المدن العراقية الأخرى أمام حصارات مشابهة، وفي الواقع فإنها كانت أياماً شاقة كئيبة، لكنها كانت في الوقت نفسه امتحاناً لأهل بغداد في صبرهم وتحملهم ومقاومتهم وقوة إيمانهم بقضاء الله.

وتذكرت كيف جُمع بينها وبين نساء أسرتها في زورق واحد استعداداً لمغادرة المدينة المحاصرة إلى البصرة، وما كانت تسمعه عن صور مدهشة من صمود الناس العاديين.

بيد أن شريط الذكريات لم يكن ليتوقف، فها هو نادرشاه يحاصر المدينة ثانية، وهاهو خالها يبرز من جديد ليؤدي دوره في التصدي للمعتدين. وما كاد الحصار الثاني أن ينتهي حتى فوجئت بخالها يُخبرها بنقله من بغداد ليصبح والياً على حلب، وهنا تضطر، وأسرتها، إلى مغادرة القصر الذي اعتاد ولاة بغداد اتخاذه مقراً لسكناهم، والمطل على دجلة، لتخرج في حملة مسلحة إلى مقر المنصب الجديد، ولم تكن هذه

الرحلة تخلو من مخاطر، فقد تعرضت إلى مهاجمة بعض القبائل في منطقة الجزيرة، ولكن شجاعة أحمد باشا، وقوة جنده، مكن الموكب من الوصول إلى حلب بسلام.

ولم تطل الأيام في حلب، فسرعان ما وصلت أنباء مقلقة عن اضطراب الأوضاع العامة في العراق، وعودة الفوضى من جديد إلى بغداد، وإعلان أفواج الينكجرية (= الإنكشارية) عصيانهم الوالي الضعيف الذي عينته الدولة، وهو أمر كان ينظر إليه بعين القلق على أساس أن أي ضعف من هذا النوع من شأنه أن يغري بتداعٍ جديد في الجبهة، وهو ما كان ينتظره نادرشاه بكل تأكيد ، فكان أن صدر فرمانٌ بنقله والياً على بغداد من جديد، ليتولى إدارة المدينة في ظل ظروف بالغة الصعوبة. وهكذا قُدر لخديجة خانم، وأسرتها الانتقال مرة أخرى إلى بغداد، حيث استقر مقامهم في قصر الولاة على دجلة، ومن هناك شرع أحمد باشا بتوطيد الأمن في ربوع العراق، وضرب التحركات التي بدأت تُنذر بعواقب وخيمة في تلك الظروف المُدلَهِمّة.

ولم تمض إلاّ سنوات حتى قدر للمدينة أن تواجه هجوماً إيرانياً جديداً، ذلك أن نادرشاه لم يكن لينسى مطامعه القديمة في أرض العراق، فدخلها بجيوشه الضخمة التي لم تُعرف البلاد مثلها عدداً وعُدّة من قبل، وضربت قواته حصاراً خانقاً على بغداد، وعلى البصرة، بينما توجه هو على رأس جيشه الرئيس إلى الموصل بهدف اقتحامها، لكن صمود المدينة الأسطوري، جعله يخفق في تحقيق هدفه هذا، ومن ثم الانسحاب منها، ومن المدن الأخرى، إلى داخل الأراضي الإيرانية.

وجاء اغتيال نادرشاه المفاجئ لينهي عهداً كاملاً من التوتر والقلق في المنطقة، وشهد العراق بعده نوعاً من الاستقرار، وظهرت ملامح الاستقرار في أسرة أحمد باشا نفسها، ففي ذلك العام جرى تزويج عائشة خانم، ابنة أحمد باشا الصغرى، من أحد مماليك أبيها البارزين، فعمّت الأفراح القصر، بعد عهد طويل من الحياة الجافة، بيد أن عمر الفرح لم يدم إلاّ لأشهر قليلة، فقد شاءت الأقدار أن يتوفى أحمد باشا نفسه، وهو على رأس حملة عسكرية له في نواحي ديالى، فينقل جثمانه إلى بغداد في موكب حزين، ليوارى الثرى قرب أبيه في مقبرة الإمام أبي حنيفة.

ولقد أدركت خديجة خاتون، وقد وصلت في ذكرياتها إلى هذه اللحظة الحاسمة، أن عهد الأسرة قد ولّى، فأحمد باشا لم يكن له عقب من الذكور يمكن أن يتولى منصبه من بعده، ومن ثم كان طبيعياً أن يأتي زمان يجري فيه إسدال الستار على ذلك العهد بما فيه من جلائل الأعمال، وجميل الذكريات، وها قد صحّت توقعاتها بسرعة، فقد تولى ولاية بغداد من بعده والٍ لم يثبت من الكفاءة ما يطمئن إليه أحد، وسرعان ما بدا للجميع، أن البناء الذي رفع قواعده حسن باشا وابنه أحمد باشا قد أمسى معرضاً للانهيار.

وفي هذه اللحظة، أدركت السيدة المثقفة، أن لا شيء يبقي الذكرى ماثلة في أذهان الأجيال، غير كتاب يؤلفه مؤرخ، فيحفظ فيه ما يمكن أن يكون نصيبه النسيان، ويسجل فيه من الوقائع ما يستحق أن يعيه الإنسان، وبهذا ولدت فكرة تكليف الشيخ عبد الرحمن السويدي، العالم المعروف،

والذي لم يكن غريباً عن أوساط قصر خالها، بتأليف (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء).

وعلى الرغم مما حفل به الكتاب من مآثر هذين الواليين وما قيل من أماديح بشأنهما، فإن الكتاب نفسه لم يكن مما يأمر به الولاة والحكام لتخليد أعمالهم، وسبب ذلك واضح تماما، فهو لم يكتب إلاّ بعد وفاة آخرهما، بل أنه كتب- في الحقيقة- في عهد اضطربت فيه الأحوال بعد استقرارها، ولم يكن أول مماليكهما[8] قد وصل السلطة بعد، وقد نوه عبد الرحمن بتلك الظروف المضطربة فيما سماه (استطراداً) أضافه إلى بعض صفحات الكتاب. ويمكن أن نفهم من هذا الاستطراد أنه لم يكن راضياً عما يجري من أحداث في أثناء عكوفه على أداء عمله. بل أن مجرد تأليفه الكتاب، وإطرائه سيرة الواليين اللذين حكما نصف قرن من تاريخ بغداد وتوابعها، يمكن أن يحمل معنى النقد الحقيقي للعهد الجديد، المتسم بالضعف والارتباك في مواجهة التحديات.

ولنا أن نلاحظ أنه ألّف، بعد نحو ربع قرن من تأليفه هذا الكتاب، كتاباً آخر في تاريخ بغداد في أثناء محنة سياسية تعرضت لها هذه المدينة، فكانت دوافعه إلى تأليفه فضح تقاعس المسؤولين عن ضياع البصرة حينما احتلها الإيرانيون سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م، وفيه نقد لاذع لوالي بغداد آنذاك عبد الله باشا، والمندوب العثماني المرسل لإنقاذ الموقف، سليم أفندي، حتى أنه سمّاه (لئيم أفندي) و (الكلب الرومي) فدلّ

---

[8] هو سليمان باشا المعروف بأبي ليلة، زوج عادلة خانم ابنة أحمد باشا الكبرى.

ذلك على ما كان يتوخاه من كتابة التاريخ، وهو نقد شخوصه، أو تقويم مواقفهم في أدنى تقدير[٩].

ومن المؤكد أن مهمة السويدي لم تكن ميسرة في ظل الظروف التي واكبت تأليفه (حديقة الزوراء)، فأبواب السراي لم تعد مفتوحة أمامه، كما كان يجري في عهد الوالي السابق، وكثيرٌ من قادة المماليك أبعدوا عن مناصبهم، ومن ثمّ لم يعد ممكناً أن يطلّع على الوقائع من صانعيها مباشرة، كما لم يكن ميسراً له الآن الاطلاع على الوثائق اللازمة لكتابة تاريخه، مما كان يحفظ عادة في أرشيف ديوان الإنشاء في سراي بغداد. ومما زاد الأمر صعوبة ما جرت به العادة من مغادرة أسرة الوالي السابق قصر الولاة الرسمي، ليحل به الوالي التالي، وفي الغالب فإن خديجة خاتون انتقلت مع أسرتها إلى قصر آخر قريب، في موقع نزه مطل على دجلة أيضاً[١٠]، إلاّ أنها في موقعها الجديد لم تعد قادرة على تزويد

---

[٩] عثرنا على هذا الكتاب في خزانة مخطوطات المكتبة القادرية ببغداد، في أثناء اشتغالنا بفهرستها، وحققناه وعلقنا عليه وعنوناه بـ(تاريخ حوادث بغداد والبصرة) إذ خلت النسخة من عنوان له، ووصفناه في الفهرس الذي أعددناه لمحتويات هذه الخزانة (الآثار الخطية في المكتبة القادرية، ج٤ [بغداد ١٩٨٠] ص١٢٧).

[١٠] كان كبار قادة أحمد باشا، ثم مماليكه من بعده، قد اتخذوا قصورهم في الأرض الشاطئية المجاورة للقصر المخصص لإقامة ولاة بغداد (مبنى وزارة التربية فيما بعد، فمجلس شعب محافظة بغداد اليوم) ومبنى سراي بغداد الملاصق له (مبنى مديرية الشرطة العامة فيما بعد) وهذه القصور هي التي تحولت بعد انقضاء عهد المماليك إلى ثكنات لإقامة الجند، ثم شيد عليها في منتصف القرن الثالث عشر مبنى للقشلة، الذي شغلته دوائر الدولة منذ عهد مدحت باشا وحتى اخلائه نهائياً في أواسط الثمانينات من القرن العشرين.

المؤرخ الذي كلفته بما يحتاجه من أوراق رسمية محفوظة فـي أرشـيف القصر.

بدأ عبد الرحمن السويدي عمله إذن وهو لا يملك إلاّ مصادره هـو، ولم تكن هذه المصادر تتجاوز في الغالب حدود ذكريات أبيه، ومدوناتـه، وشهادته هو على العصر الذي يكتب تاريخه، وسرعان ما اكتشف أن مثل هذه المصادر، وإن كانت تسد فراغاً لا بأس به من تاريخ بغداد، إلاّ أنـها غير كافية لمعرفة جوانب أخرى لا تقل أهمية، مثـل السيرة الإداريـة والعسكرية لحسن باشا وابنه أحمد باشا قبل توليهما حكم بغـداد، وأصـل الأسرة، وتفاصيل ضرورية لفهم تاريخ إيران بعد انهيار السلطة الصفوية، وتعرض البلاد إلى غزو أفغاني كاسح، وما جرى في أثنـاء ذلـك مـن اتفاقات ومعاهدات ومراسلات رسمية، وطبيعة العلاقـات المتقلبـة بيـن نادرشاه وبين الدولة العثمانية. ومن هنا أخذ يسعى لسد حاجته إلـى مثـل هذه المعلومات من مصادر شتى.

ولعل أول تلك المصادر كانت ذاكرة خديجة خـانم نفسـها، ففـي الكتاب معلومات عن أصل حسن باشا، ووظائفه الأولى، وسيرته المبكـرة في خدمة الدولة، مما لم يكن يعرفه إلاّ الخاصة من أسرته، والراجـح أن خديجة خانم لم تبخل بمثل هذه المعلومات عن جدها بأية حال. وممـا دل على أنها كانت تعتمد على ذاكرتها المستمدة مـن أقـوال خالـها وأبيـها مباشرة، أن هذه المعلومات، على أهميتها وجدتـها، جـاءت خلـواً مـن التواريخ التي تضبط أزمنة ما تحكي عنه من أحداث. ويصح ذلك أيضـاً على الحقبة الأولى من حكم حسن باشا في بغداد، فإنه اعتمد فيـها علـى

روايات أبيه، وشيوخ محلته ومدينته، فوجدناه يروي تفاصيل سبقت عـــهد حسن باشا معتمداً على ما سمعه من (الكهول).

ومع أنه لم يسجل لنا أسماء هؤلاء الذين أخـــذ عنـــهم، فـــإن مـــن الواضح أنه كان يختارهم ممن لهم مشاركة في حدث، أو شهادة عليه فـــي أدنى تقدير، ودليلنا على ذلك أنه استطاع أن يسجل من خـــلال رواياتـــهم تفاصيل ما كان في وسعه أن يسجلها لو لم يحسن اختيار شـــهوده. ففـــي أثناء حديثه عن حروب حسن باشا وأحمد باشا في إيران، ســـجّل لقرائـــه صورة مفعمة بالحيوية لحصار همدان، وقصفها، واقتحامها، ومـــا جـــرى في أثناء ذلك من شؤون، وإذا ما علمنا أن السويدي لم يصاحب الجيـــش، بل لم يغادر بغداد أصلاً حتى ذلك الوقت، تأكد لنا أن مثل هذه المعلومـــات كان يستمدها من ضُبّاطٍ كانوا برفقة حسن باشا، شاركوا فـــي الأحـــداث، وعاشوها بكل تفاصيلها، ومن ثم جاءت رواياتهم عنها دقيقة إلى حد كبير. فمن تلك الروايات ما نقله عن "بعض الإثبات"[11] و"من أثق به"[12] و"مـــن شاهده"[13] و"من شاهد الوقعة"[14] و"غير واحد من الكماة الذين كـــانوا أول الحملة"[15] و"بعض الجند"[16]. وهو لم يكن يثبت مما كان يتحصل عنـــده

---

(11) الأصل، الورقة ١٤أ.

(12) الأصل، الورقة ٥١أ.

(13) الأصل، الورقة ٧٦أ.

(14) الأصل، الورقة ١٠٩أ.

(15) الأصل، الورقة ١٠٩ب.

(16) الأصل، الورقتان ١١١ب و ٢٥٤ب.

من روايات إلاّ بعد مقابلة وتدقيق، فقد صرح ان "ما ثبت في هذا الكتاب هو رواية الأكثر"[١٧].

وفي الكتاب متابعات مهمة لما كان يجري في إيران من تداعيات سياسية وعسكرية، في أعقاب انهيار الحكم الصفوي، وتعرض البلاد إلى الغزو الأفغاني، بل أن فيه معلومات جديدة عن أسباب هذا الغزو كما بدت جلية في بلاد الأفغان ذاتها، وبالطبع فإن مثل هذه المعلومات كان يستند فيه إلى مصادر جيدة المتابعة والفهم لما جرى من أحداث.

ولما كان الأدباء والشعراء هم مثقفي ذلك العهد، وكان السويدي نفسه معدوداً منهم، فإنه رجع إلى المجموعات الشعرية التي ضمّت قصائدهم مما قالوه في مناسبات تاريخية مختلفة، مثل وصف حصار، أو حملة، أو تعمير جامع، أو القضاء على عدو ما، ومعظم هؤلاء الشعراء كان يميل إلى تسجيل تاريخ المناسبة التي يصفها بحساب الجُمل، وهكذا حصل عبد الرحمن على معلومات تاريخية لا يستهان بها من خلال تلك القصائد، ومن تلك المعلومات ما هو فريد في بابه، غزير في تفاصيله.

ولم يكتف مؤرخنا بهذا وحسب، وإنما سعى، بكل جد، إلى الحصول على ما يلزمه من وثائق تتضمن مراسلات رسمية جرت بين الجانبين الإيراني والعثماني، فحصل على نص رسالة أهل همدان إلى والي بغداد حسن باشا من أحد علماء بغداد، كانت تربطه بأبيه صلة الزمالة في الدرس، وقد أُعطي إياها ليرد عليها. ولا ندري كيف استطاع أن يحصل

---

(١٧) الأصل، الورقة ١٥٤ب.

على نصوص الوثائق السرية، ومنها نص رسالة أشرف خان الأفغاني إلى السلطان العثماني، حول مسائل تتعلق بأحقية كل منهما بالخلافة، وأمور أخرى. وبحكم صلاته بأدباء المدن العراقية الأخرى فإنه حصل، من خلال رسائله إليهم، على معلومات مُكَمِّلة لما يعرفه، مما تعرضت له تلك المدن، في أثناء حصار نادرشاه لها.

والمهم أنه استطاع أن يقدم من كل هذا الشتات من المعلومات صوراً تاريخية متتابعة، متكاملة من حيث مقدماتها ونتائجها، فأثبت بذلك أنه كان يمتلك قدرة فطرية، مما يتميز بها المؤرخون عن غيرهم، في (رؤية) الحدث الماضي، و (روايته) معاً.

وعلى الرغم من أن اختيار السويدي لعنوان كتابه، يوحي بأنه أراد أن يكتب سيرة واليين تعاقبا على حكم وطنه، فهذا هو ما طلبته منه خديجة خانم بالتحديد، إلاّ أن منهج الكتابة نفسه كان يلتزم ما تعارف عليه المؤرخون المسلمون عامة، وخلاصة هذا المنهج أن ترتب الأحداث على وفق تعاقب السنين، والأشهر أحياناً، ومن ثم يكفل المنهج توضيح الصلة بين سبب الحدث ونتائجه بوصفه يحاكي ما جرى في الواقع فعلاً.

وبحكم ميول السويدي الأدبية، والذوق الأدبي السائد في ذلك العهد، فإنه فضّل إن يكتب تاريخه بأسلوب أدبي مسجوع، لم يشذ عن التزامه إلاّ نادراً، ولا شك في أن هذا الأسلوب استلزم من مؤرخنا جهداً إضافياً شاقاً، إلاّ أن علينا القول بأن التزامه إياه لم يؤد إلى غموض في معنى، أو غمط لفكرة، أو أثقال القارئ بعبء فهم ما اختاره من ألفاظ، إلاّ قليلاً، وواضح أنه ما كتب ما كتب إلاّ لقارئ مثقف، يُحسن فهم الألفاظ وإن كانت تخرج

عما هو مألوف أو متداول من لفظ، ويقدّر الصياغة الأدبية وأساليب التعبير حق التقدير، وهنا لابد من القول بأن ثقة السويدي بحُسن ثقافة من سيُهدي إليها كتابه هي التي شجعته على بذل هذا المجهود، فهذه السيدة كانت بخلاف أكثر سيدات القصر، عربية الأرومة، كثيرة الاطلاع، وافرة العقل، كما يصفها هو في بعض تضاعيف كتابه.

ولنا بعد هذا أن نتساءل: هل قدّم السويدي صورة قريبة من الواقع فيما كتبه من سيرة هذين الواليين؟ أو أنه أخفى من هذه السيرة شيئاً رآه يُخل بتلك الصورة لدى قارئها؟، وللإجابة على هذا التساؤل فإننا لم نقابل كتابه على الكتب التي كتبها مؤرخون متأخرون، مثل كتاب (دوحة الوزراء في سيرة بغداد الزوراء)، الذي وضعه بالتركية الأديب رسول حاوي الكركوكلي[١٨]، أو (حروب الإيرانيين في العراق) الذي ألفه بالتركية أيضاً سليمان فائق[١٩]، مؤرخ المماليك، ذلك أن مؤلفي هذه الكتب نقلوا، بصفة مباشرة كما فعل أولهما، أو غير مباشرة كما كتب ثانيهما، من كتاب (حديقة الزوراء) نفسه، والتزموا مادته بصفة مطلقة تقريباً، ومن ثم فلا تصلح كتبهم لمقابلته عليها لهذا الغرض، وإنما قابلنا معلوماته على ذلك الكم من الوثائق العثمانية الرسمية التي لا تزال تحتفظ بها دائرة الوثائق الملحقة بمجلس الوزراء التركي، وهي ما تتضمنه الدفاتر المعروفة باسم (دفاتر مهمة) وتحوي نسخاً من الأوامر الرسمية التي كانت الدولة العثمانية تبعث بها إلى ولاتها، ومنهم- بالطبع- حسن باشا

---

[١٨] توفي سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م.

[١٩] توفي سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م.

وأحمد باشا، وعند قراءتنا لهذه الأوامر الصادرة في عهديهما لم نجد ثمة أمراً يناقض ما رواه السويدي، أو يقدم صورة مخالفة لما سجله، إلاّ نادراً، حينما يتعذر عليه اكتشاف سبب قرار ما لعدم اطلاعه على ما يخصه من وثائق.

ولا ندري ما إذا كان السويدي قد أهدى كتابه، بعد أن فرغ منه، إلى خديجة خانم أم لا، وسبب شكنا هو أن النسخة الأصل، التي كتبت بأمر منه، وقابلها هو بنفسه، ضمت تعليقات كثيرة، وإضافات متأخرة بخطه، ومنها ما يغير العبارة تماماً، أو يزيد تفصيلات جديدة، فلو كان الكتاب قد وصل إلى تلك السيدة، فمن أين له الفرصة في أن يغير ما يغير، وأن يشطب ويضيف من المعلومات كلما شاء ذلك؟ ألا يدعونا هذا إلى تصور أن هذه النسخة ظلت في خزانة كتبه يجري فيها قلمه كلما استجد عنده ما يدعو إلى ذلك؟ ولا يبعد أن تكون ثمة نسخة من الأصل، قبل إجراء هذه التعديلات، قد أهداها إلى خديجة خانم، لكنها فُقِدت فيما بعد فلم يُعثر منها على أثر.

وعلى أية حال، فإن نسخة السويدي هذه، وهي الأم بحكم أنه نظر فيها وصححها بقلمه، قد وجدت طريقها إلى مكتبة المتحف البريطاني، حيث استقرت فيه تحت العدد ADD. 18507 وحينما حصلنا على نسخة مصورة منها تبين لنا أنها كُتبت بخط نسخ مُجَوّد، مشكول الحروف، وهي تقع في ٢٢٥ ورقة مُجدولة، في كل منها ٢١ سطراً، قد كتب على الورقة الأولى من المخطوط عبارة (تاريخ بغداد لابن السويدي)، وفوقها تمليكات

كتبت بعد وفاة المؤلف[٢٠]، أحدها نصه (آل إلى نوبـة الفقـير إلـى الله السرمدي أبو الخير الحاج عبد الرحيـم بـن الشـيخ محمـد المعـروف بالسويدي عفي عنهما!) والآخر (انتقل إلى الفقير سليمان السويدي)، وثمـة تمليك ثالث ضُرِبَ عليه بالحبر على نحو طَمَسَه تقريباً لكنا اسـتطعنا أن نقرأ منه بعد التأمل العبارة الآتية (دخل في [نوبة؟] الفقير إلى ربه الغنـي، محمد بن المرحوم.. عبد.. في ذو الحجة سنة ١٢١٢ والحمد لله..)، فتأكد لنا من خلال هذه التمليكات أن النسخة لم تخرج من خزانة مؤلفها، لأنـها انتقلت من بعده إلى ورثته الشرعيين[٢١]. وتُزَيِّـن الورقـة الأولـى مـن

---

(٢٠) اتسمت حياة عبد الرحمن السويدي بعد وفاة أحمد باشا، بالدعة والاستقرار، وكـان له دور في إطفاء فتنة كادت أن تتحول إلى شر وبيل بسبب تنـافس سـبعة مـن الكتخدائية (مساعدي الوالي) على تولي الحكم بعد وفاة سليمان باشا الكبـير، ثـم اضطر، وهو في الثالثة والخمسين من عمره إلى أن يطلب النجاة مـن طـاعون جارف كان قد داهم العراق سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م، والانتقـال إلـى البصـرة فالكويت حيث مكث مدة يدرس العلوم الدينية وبخاصة الحديث الشريف، ثـم أنـه اختير قاضياً للبصرة، فلبث يتولى هذا المنصب نحو سنة أو أكثر، عاد بعدها إلـى بغداد حيث تزعم إذ ذاك أهل الجانب الغربي في أثناء الفتنة المعروفة بفتنة عجـم محمد، وقد أشير إليها من قبل، ثم انضم إلى زعامة آل الشاوي أمراء قبيلة العبيـد العربية، التي تولت قيادة ثورة البغداديين من أهل الجانبين الشرقي والغربي، وكـان له دور بارز فيها، وبعد انتهاء هذه الأحداث لبث في بيته مدة، قبـل أن يتوفـى- رحمه الله- في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٢٠٠هـ/١ شباط سنة ١٧٨٦م.

(٢١) أعقب ولداً ذكراً واحداً هو محمد وكان للأخير ولدان هما عبد الرحيم، وسـلمان (سليمان). تنظر شجرة آل السويدي، وثقها وحققها السيد علي بن بدري السـويدي، سنة ١٤٢١هـ.

النسخة (رأس لوحة) تتضمن زخارف نباتية ملونة. ويظهر أن أحد مالكيها عهد بها إلى مجلد ليجلدها، فلم يُحسن هذا المجلد عمله، لأننا وجدنا بعض الأوراق في غير مواضعها، مما استدعى منا أن نعيد ترتيبها على نحو ما أراده لها المؤلف.

ومن المؤكد أن السويدي قد بذل جهداً فائقاً في مقابلة النسخة على أخرى كانت لديه، وربما كانت مسودة الكتاب نفسه، فإننا وجدناه يكتب في مواضع من هوامشها عبارة اعتاد المؤلفون وضعها عند مقابلتهم ما ينسخه النساخ من مؤلفاتهم على أصولها، وهي (بلغ نظراً)، كما أن على هذه الهوامش كلمات، وعبارات، بل وفقرات كاملة، سقطت من النسخة، فأضافها بخطه هناك، مما دل على الناسخ وإن كان خطاطاً مجوداً كما سيظهر من جمال خطه وإتقانه، إلاّ أنه لم يكن حريصاً على سلامة ما ينقل من السّقط، ولو لم يتعهد مؤلف الكتاب بمقابلتها على النحو الدقيق الذي فعل، لبقيت هذه النسخة على ما هي عليه من سقط ونقص. ومما زاد في قيمة النسخة متابعة المؤلف لما أورده فيها من معلومات تاريخية، فإننا وجدنا يضرب على مواضع، وفقرات، وعدة صفحات أحياناً، ويكتب على هامشها نصاً بديلاً آخر.

وحينما انتوينا تحقيق الكتاب منذ نحو ربع قرن، بحثنا عن نسخ أخرى منه، فوقفنا على نسخة تحتفظ بها خزانة المخطوطات في مكتبة المتحف العراقي، ومنها نسخة مصورة في خزانة المجمع العلمي ببغداد تحت العدد ٢٥٥، تفضل المجمع الموقر بإهدائنا نسخة منها، فإذا بها تقع في ١٧٥ ورقة، في كل منها ٣١ أو ٣٢ سطراً، كتب في الورقة الأولى

منها ما يأتي "حديقة الزوراء في سيرة الوزراء للعلامة أبي الخير عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين الشهير بالسويدي رحمه الله تعالى" وهي بخط معتاد، دقيق الحرف، غير مشكول، وقد كتب في آخرها العبارة الآتية "وكان إتمام نسخه في اليوم السابع والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ من كُتُبْخانة شيخ الإسلام بمدينة خير الأنام صلى الله عليه وسلم"، وحينما قابلنا هذه النسخة على نسخة المتحف البريطاني تأكد أنها منقولة عنها نقلاً حرفياً.

وكان الدكتور صفاء خلوصي، الأستاذ في جامعة بغداد، رحمه الله، قد نَهَد إلى نشر الكتاب، فأصدر منه جزءاً صغيراً يتضمن القسم الأول، وهو الخاص بسيرة حسن باشا، معتمدا على نسخة المتحف البريطاني أصلاً له، فقابلنا نشرته على هذا الأصل، فتبين لنا أن المنشور يبلغ ٦٦ ورقة، أي نحو ربع الكتاب تقريباً، وأنه اكتفى في نشرته بشرح بعض الألفاظ شرحاً لغوياً مجرداً، فلم يوضح مصطلحاً، أو يعرف بأعلام الرجال أو المواقع، على كثرة من يحفل بهم الكتاب. وفي النشرة أخطاء غير قليلة في قراءة النص، وكلمات، وفقرات، سقطت بسبب قفز النظر من سطر إلى آخر، ومن ذلك ما يُخل بالمعنى ويُربكه[٢٢].

---

[٢٢] انتقد المؤرخ عباس العزاوي هذه الطبعة فقال: وطبع الجزء الأول منها (أي من مخطوطة الحديقة) ببغداد بمطبعة الزعيم، نشره الدكتور صفاء خلوصي، الأستاذ بجامعة بغداد، وهو خال من التحقيق العلمي، وغالب مراجعه غير معتمدة، ولم يرجع إلى نصوص معاصرة موثوقة. طبع طبعة سقيمة مشحونة بالأغلاط مما يدل على أن الدكتور الناشر لم يبذل العناية الدقيقة للمقابلة مع النسخة الأصلية، وليس=

ثم أن الشيخ محمد بهجة الأثري- رحمه الله- نشر مقتبسات انتقاها من القسم الثاني من الكتاب، في فصل عنونه (حملات نادرشاه على العراق في رواية شاهد عيان) من كتاب أصدره بعنوان (ذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحروب)[٢٣]، وأطلق على هذه المقتبسات، وهي تمثل فقرات، وصفحات متفرقة، من الكتاب، اسم (وثائق)، واعتمد في اقتباسه على مخطوطة المتحف البريطاني نفسها، مقابلاً إياها على نسخة المتحف العراقي، ولكنه لم يخرج من هذه المقابلة إلاّ بإثبات العديد من الأخطاء الإملائية التي وقع فيها ناسخ الأخيرة، وهو أمر منطقي لأن هذه النسخة غير أصيلة، وهي منقولة من النسخة الأولى كما ذكرنا من قبل، على أن من المهم قوله أن الشيخ الأثري رحمه الله شرح الألفاظ الغريبة، أو غير المألوفة، التي وردت في تلك المقتبسات المختارة، شرحاً لغوياً، وأطنب في التعليق على مثل هذه الألفاظ، مع أن موضوع الكتاب هو التاريخ، لا اللغة.

ونظراً لأهمية الكتاب، وكونه يتضمن معلومات جمّة عن جوانب من علاقات العراق بجيرانه، وأنه يلقي ضوءاً على تاريخ العلاقات الإيرانية الأفغانية، وتاريخ العلاقات الإيرانية- العثمانية، فضلاً عما يضمه من معلومات مفصلة عن حروب العثمانيين في إيران، وحروب

=فيها قائمة تصحيح، فلا يعول عليها في نصوصها ولا في ضبط تواريخها" (تاريخ الأدب العربي في العراق، الطبعة الثانية بتحقيقنا، بغداد ٢٠٠٢، ص١٨٨).

(٢٣) مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨١م.

الإيرانيين في العراق، ومن صور شائقة عن ثبات العراقيين وما أبدوه من بسالة نادرة في الدفاع عن مدنهم إزاء الحصارات الإيرانية المتكررة في عهد نادرشاه، ولما يلقيه من ضوء على علاقة السلطة المركزية بالقبائل، وتسجيله لأسماء عدد من القبائل العراقية ومواطنها في أرياف العراق وبواديه في ذلك العهد، ولما يتضمنه أيضاً من معلومات خططية وجغرافية وحضارية متنوعة، فقد قمنا بتحقيقه كاملاً، على وفق قواعد تحقيق المخطوطات المتبعة في هذا الشأن، متبعين الخطوات الآتية:

١- اعتمدنا نسخة المتحف البريطاني أصلاً في التحقيق، وأشرنا إليها بلفظ (الأصل)، أما نسخة المتحف العراقي، فهي منقولة عنها، وقد التزم ناسخ الأخيرة التزاما كاملاً بنقل ما ورد فيها من تغييرات أحدثها المؤلف، إلاّ أنه وقع في أثناء نسخه فيما يقع فيه النساخ عادة من أخطاء متنوعة، وأكثرها أخطاء في قراءة الكلم، أو أخطاء إملائية بحتة، وسقط لكلمة هنا، وعبارة هناك، فلم نجد أدنى فائدة في إثقال الهوامش بمئات من الأخطاء التي ارتكبها هذا الناسخ عن غير قصد. على أننا أفدنا من هذه النسخة في مرات نادرة، كان ناسخها قد صوب ما رآه من خطأ وقع في الأصل، فأثبتنا ذلك في مواضعه، ورمزنا لها بالحرف (ب).

٢- ضبطنا النص المُحقّق، وصححنا ما وقع به ناسخ الأصل من أخطاء إملائية، وبخاصة طريقة رسم الهمزة، والخلط بين الألف الممدودة والمقصورة، ونحو ذلك مما يكثر لدى الكتاب والناسخين المتأخرين.

٣- شرحنا معظم ما رأيناه مهماً من غامض اللفظ، شرحاً لغوياً مناسباً لمعناه في سياقه.

٤- عرّفنا بالمئات من أعلام الأشخاص الذين حفل الكتاب بأسمائهم، وأحلنا القارئ إلى مصادر ذلك التعريف. كما علّقنا على أسماء المدن والنواحي والمباني بتعليقات توضح مُبهمها، وأثبتنا ذلك كله في مواضعه من الكتاب.

٥- أثبتنا في المتن جميع ما ورد في هامش الأصل من إضافات وتغييرات بوصفها تمثل آخر ما انتهى إليه المؤلف، بينما نقلنا ما ضرب عليه في المتن إلى الهامش .

٦- تابعنا المؤلف فيما ساقه من أخبار، وما رواه من حوادث وشاهده من آثار، فقابلنا ذلك كله بالمصادر التاريخية المعاصرة، مخطوطة ومطبوعة، كلما اقتضى الأمر التحقق من روايات المؤلف وأخباره، وأفدنا بوجه خاص من مكنونات الأرشيف العثماني الذي يضم نسخاً من الأوامر الموجهة إلى ولاة بغداد لتوضيح ما أراده المؤلف، أو فاته أن يذكره لنقص في مصادر معلوماته.

٧- أثبتنا التاريخ الميلادي مقابلاً للتاريخ الهجري حيثما ورد ذلك في الكتاب، ووجه الفائدة في هذا التيسير على القارئ في متابعة الأحداث في المصادر والدراسات التي تلتزم التاريخ الميلادي وحده.

٨- علقنا على ما ورد في تضاعيف النص من كلمات ومصطلحات غير عربية، أو التي لها مدلولها التاريخي الخاص، بشروح تستوفي معانيها.

٩- قسّم المؤلف كتابه إلى فصول لكنه لم يضع لها عنوانات، فوضعنا لـــها ما يناسبها من عنوانات موضحة لمضامينها، وحصرناها بعضـــادات، كما أضفنا عنوانات أخرى، للغرض نفســـه، وحصرناهـــا بعضـــادات أيضاً.

ويطيبُ لي هنا، أن أتقدم بالشكر الوافر إلى أخي الأســتاذ الدكتـــور نزار عبد اللطيف الحديثي الذي كان له الفضل في تشجيعي علـــى إنجـــاز الكتاب، والى الأخ الحاج وليد عبد الكريم الاعظمي الذي تفضـــل بقـــراءة النص المحقق وإبداء الملاحظات المفيدة بشأنه، جزاهمـــا الله عـــن العلـــم وأهله خير الجزاء.

وأخيراً، فهذا هو كتاب آخر من أصول تاريخ العراق في القـــرون المتأخرة، نخرجه للباحثين والقراء أملاً في أن يجدوا فيه ما يفيدهـــم فـــي دراساتهم عن هذه الحقبة المهمة من تاريخنـــا الحديـــث. والله مـــن وراء القصد.

عماد عبد السلام رؤوف

١١ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ

١٦ تموز ٢٠٠٢م



تمليكات في أول الأصل المحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني


بسم الله الرحمن الرحيم

الورقة (١أ) من نسخة المتحف البريطاني

الورقة ١ب من نسخة المتحف البريطاني

الورقة ١٤١ب من نسخة المتحف البريطاني وتظهر عليها التغيرات التي أحدثها المؤلف

ولقد سئل ابن خفيف [illegible] أيها السائل إن ما ذكرته
هو حشو عشر التمر من ثمار هذين الوزيرين وحقائق
هذين [illegible] ولا [illegible]
[illegible] شمائلهما ولا تأملت حقائقهما ولا [illegible]
عن ذاتيهما ولا أجلت [illegible] ولكن ما ذكرته هو ما أنت مصدر
بنفسه مشهور حيث [illegible] ذهبت أمامه
وانتهت من [illegible] ونغنيك عن الاستشهاد
ما حققناه في الاستطراد فرحمهما الله رحمة [illegible]
ونفعنا بهما آمين وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين
والحمد لله رب
العالمين

الورقة الأخيرة من نسخة المتحف البريطاني



بسم الله الرحمن الرحيم

إن أحسن ما تحلى به عرائس الطروس، وأشهى ما ترتاح إليه
نفائس النفوس، وأجل ما يؤذن به [illegible]، وأكمل ما تحلو به مرآة
الضمير حمد من أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين
[illegible] حقيقته على أتم شكل وأحكم تكوين، فبسط الغبراء
على تيار الماء، ومد عليه رواق الخضراء، فوق محدب الهواء، فكثر نوعه
في الأقطار، وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار، حتى [illegible] في أمور
[illegible] بينهم بالانتعاش، نعلمهم العلم الوهبي، والإلهام
القلبي [illegible] يستندون إليه، ويكلون [illegible]
[illegible] الأسلاف مدى الدهور والأعوام
ولم تزل [illegible] وعلى عقيدتهم وملتهم إلى أن أرسل الله الرسل
مبشرين ومنذرين، ومحذرين من [illegible] تشرع الشرائع
بين الأنام [illegible] ولم تزل صلاة الله

الورقة الأولى من نسخة المتحف العراقي المرموز إليها بنسخة (ب)

٣٠

وانقيادهم، إن شيخهم فاضا وحسان [illegible] إلى وادي الموصيان، ووطا
إنقا [illegible] في الوحوش بيته، وحما عليهما أهل الحمية حمية الجاهلية فلما
نهاهما أن الوزير كاتبكم، ودعاهما أن نفعل بمن تقدم من أبنا [illegible]
أمثالهم وأحوالهم، فما زال أهل الفساد بيت بيت، وتهددنا بإضمار
الخراب كيت وكيت وصار أسدى سلطان، ذا عتو أعمى الغرور والمنار
أما الخير في الشؤم، فتقدم على رأس فرقة الجماعة فوقاص الرواز
إدمانه، وترك التصدي للعناية، هربا من النيازك الحارقة، وأما ما
فلما لم يشاهدوا حرب الضرغام عيانا، لم يلووا إلى الانقياد والاستسلام [illegible]
وطفقا بمن معهما ينهبون القوافل، ويقطعون عن السبل الرواحل، ويأخذ
أموال القرى، ويستخدمون كالأمراء كأنهم الورى، ودمروا من بقربهم من
النظام تدميرا حيث عدموا [illegible] نصيرا وظهيرا، وما لوذهم بالجموع
ومواقفهم عند الهيجة، فمنهم أهل الكرى أحوالهم على الشر [illegible]
وشكا أهل القوافل لدى الليث الغضنفر، فسار إليهم الوزير المنصور
بالخميس [illegible] الجرار، ورجال كماة، وأبطال رماة، وفرسان أمجاد، ونجائب
الطراد، وكتيبة إسكندرية، وعصابة [illegible]، وطاعنين بهم [illegible]
ونايب [illegible] الجيش [illegible] تبرا [illegible] المزاحم [illegible]، وانهم قبل أن [illegible]
[illegible] وكانوا [illegible] فهربوا [illegible] وتسللوا متخافين
أن الوزير جلس ساعة للاستراحة، واختلى فعرج للراحة
[illegible] طارق وسار كل إلى جهة بالأعداء لاحق فساروا
على [illegible] كل أخذ ناحية متفتشين الجهات عن تلك الفرقة
الباغية، فلما سار الوزير نحو [illegible] كان مسيره إلى ناحية
[illegible] فسار كل من تلك الفرق [illegible] ومقصده [illegible] لما أشرف
إلى [illegible] أثناء [illegible] شاهد خيام الأعداء فحلوا في أكنافها [illegible]
[illegible] قد [illegible] خيامهم [illegible]
[illegible] لذلك وشاهدوا سواد خيله [illegible] فتأهبوا للملاقاة
[illegible] سابق، وعبوا كتائبهم خيلا ورجالا، وصدوا دون
[illegible] بتارا ونبلا، فحاولت جنود الله المنازلة، ورامت المقاتلة
والمجادلة، أولئك الطغاة الشجعان والفرسان [illegible]
[illegible] العدو [illegible]
[illegible]
[illegible]

نسخة المتحف العراقي الورقة (٣٠)

نسخة المتحف العراقي الورقة الأخيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أحسنَ ما تُحلّى به عرائس الطُّرُوس، وأشهَى ما تَرتاح إليه نفائس النُّفوس، وأجمل ما يُرَدُّ به صَولة الدهر، وأكمل ما تَحلو به مَرارة الصَّبْر، حَمْدُ من أحسنَ كلَّ شيء خَلَقه، وبدأ خَلْق الإنسان من طين فأتمَّ ماهيَّتَه وحقَّقَه، على أتمِّ شَكلٍ و حكم تكوين، فبَسَطَ له الغَبْراء على تَيَّار الماء، ومَدَّ عليه رواق الخضراء، فوق مُحَدَّبِ الهواء، فكَثُر نَوْعه في الأقطار، وظَهَر ظهور الشمس في رابعة النهار، حتى كَثُر اللَّدَد[١] في أمور المَعاش، وظَهَر الخِصام بينهم بالانتعاش <٣ب>.

فعلَّمهم العِلْمَ الوَهبي، وألهَمَهُم الإلهام القَلبي الرَّبي، باتِّخاذ كل فِرقةٍ رئيساً يَستَبِدون إليه، ويَكِلُون أمرَهَم في الحُكومات عليه، حِرصاً على الإنتظام، وطَمَعاً بالائتلاف مَدى الدُّهور والأعوام. ولم تَزَل هذه شَنْشَنَتهم[٢]، وعليها عقيدتهم ومِلَّتهم، إلى أن أرسل الله الرُّسل مُبشِّرين ومُنذِرين، ومُحذِّرين من عَدَم اتباع هذا الدين، فشَرَّعوا الشرائع بين الأنام، وسَدُّوا الذرائع، ورَفَعوا مَنار الإسلام.

ولم تَزَل- صلوات الله عليهم وسَلامه- هذه سيرتهم، وعليها طُوِيَت سَريرتهم، ولا سيَّما خاتِم فَصِّ الرسالة، ومَعْدَن الجَلالة والبَسالة، محمود[٣] السيرة بين البَرِيَّة، حَسَن السَّريرة سليم الطَّوِيَّة، فإنه كان- صلى

---

[١] اللدد: الخصومة الشديدة.

[٢] الشنشنة: الخلق والطبيعة والعادة.

[٣] في الهامش عبارة (خبر مقدم).

الله عليه وسلم- محافِظاً على انتظام الأمور، مُواظِباً على الهِداية إلى نَفْعِ الجُمهور، حتى أبانَ في هذا المقام قَبَساً عن قابِس، وأنار الإسلام، وأزال حَلَك الشِّرك الدامِس.

ولم يَزَل يدعو القبائل إلى الدخول في سِلْكِ دَعوته، ويأمر الجَحافِل بالانتظام في سِمْطِ مِلَّتِه، فكان معهم بين واضِحٍ ومُشْتَبِه، مُتَمَثِّلاً ﴿يا أيُّها الرَّسُول بَلِّغ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ﴾[1] حتى قَبَضَ الله روحه الشريفة، ورَفَع إليه رَوْحانيته اللطيفة، إراحة له من وَعثاء الرِّسالة <٤أ> وإزاحة عنه غَوغاء البَسالة في طَلَب العدالة، اللهمَّ فَصلِّ عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأعوانه وأحزابه الذين ساروا بسيرته وأناروا مَنار دَعوته، فَعَدَلوا بينَ أُمتِه، ورَفَعوا عِماد الدين بإعلاء كَلِمَتِه، واقْتَفَوا آثاره، وتتبَّعوا أخباره. اللهمَّ فارضَ عنهم رِضاء الأخيار، واعلِ دَرَجَتَهم في تلك الدار، إنك الفاعِل المُختار.

وبعد، فيقول العبد الفقير، إلى مَوْلاه الغَني القَدير، أبو الخَير عبد الرحمن ابن الشيخ عبد الله بن الحُسين بن مَرْعي بن ناصر الدين الشهير بالسُّوَيْدي:

لما كان حُسْن السيرة الأمر المَحبوب، وكَمالُها مما تَرتاح له القلوب. وكان من المُقرَّر المعلوم، والمُحَرَّر المَفهوم، أن في الدَّولة

---

[1] المائدة، آية ٦٧.

الخاقانية[1]، ورجال الصَّوْلَة الإيلْخانيَّة[2] العثمانية، لم يأتِ مثل الوزيرَيْــن العادلين، والهُمامَيْن الكاملَين، الوزير حَسَن باشا، ووَلَده أحمد باشـــا، مــن حُسْنِ طَريقَتِهما، ومَلاحة سيرتِهما، فأحببتُ أن أذكــر أحوالــهما مُفَصَّلَــة مَجموعة مُكمَّلة، لِتكون تَذْكَرة لكلِّ كامِل، وقُــدْوة لكــلِّ مــاجدٍ فــاضِل، وسَمَّيتها "حديقة الزَّوراء في سيرة الوزراء".

إعلَمْ[3] أن المرحوم حَسَن باشا هــو الوزيــر الكبــير، والنِّحْريــر الشهير، ذو الآراء الثاقِبَة، والأفكـــار الصّائبــة، والفِراســة والسِّياســة، والحَماسة والحِراسة، والعدل <٤ب> والإنصاف، والحُكْم الفَصْـــل علــى أهلِ الخِلاف، الضِّرْغام الجاسِر، والنِّسْر المِقْـدام الكاسِـر، ذو الشَّـجاعة العَنْتَرية[4]، والصَّناعة الرُّستَميَّة[5]، سَـاق شَـوْكَة آل عثمــان، نِظـام[6] صَوْلَتِها على مَرِّ الزمان.

---

[1] خاقان لقب تركي قديم، عرف استعماله في العصر الساساني، وهو في الأصل لقب حكام الصين، ثم استعاره حكام المغــول والتتــار والــترك. وأردفــه الســلاطين العثمانيين بلقب (سلطان) الإسلامي، الذي أخذوه من التراث الســلجوقي، فعــرف احدهم بسلطان البرين وخاقان البحرين.

[2] الإيلخانية، من إيلخان، لقب تركي قديم، تلقب به حكام الدولة المغولية فــي ايــران والعراق، في القرنين السابع والثامن للهجرة (١٣ و١٤م) وانتهى استخدامه ســنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، ولم يجر استخدامه في عصر الدولة العثمانية.

[3] هذه اللفظة اضيفت في الهامش.

[4] نسبة إلى عنترة بن شداد العبسي، أحد فرسان الجاهلية وشعرائها، وقد ضرب بــه المثل في الشجاعة والإقدام. وفي ب: العنبرية.

[5] نسبة إلى رستم بن دستان احد ابطال الشاهنامه الأسطوريين.

[6] في الأصل (نضام) وفي المطبوع: نضار.

بيتٌ لمؤلِّفه [من البسيط][1]:

مِن آل عثمانَ أضحى ساقَ شَوْكَتِها   لَوْلاه ما فَضْلُها العالي بِمُشْتَهِرِ

الذَّاب عن بَيْضةِ الإسلام بِخَيْلِه ورَجْله، هيَّاب أعدائه الطغام بِسَيفه ونَبْلِه، قاصِم أهل الفساد، فاصِم عُرى البَغي والفَساد، حامي الذِّمار، مُحامي الدِّيار، عِزُّ الجار إذا الدهر جار. شعر لمؤلِّفِه [من بحر البسيط]:

حامي الذِّمار حُسامٌ مُصلَتٌ نَمِر[2]   في جَحْفَلٍ حينَ تَلْقاهُ وفي نَفَرِ

فكم له من غَزْوةٍ منصورة، وسَرِيَّةٍ مَحْبُورة مَجْبُورة، أراحَ بها القلوب، وقَضى حاجةً في نَفْسِ يَعقوب، ولاسيَّما الأعراب العِراقيَّة؛ ..، حين تَجَرَّأوا على الأخذ والإنتهاب، ودَخَلوا إلى الفساد من كلِّ باب، فَقَطَعوا الطُرُقات، وسدُّوا الجُّهات، فعَجَز عن خذلانهم أكثر العُمَّال، وأقَرُّوا بالخُسران والإذلال.

فلما وُلِّيَ هذا الجَهْبَذ بغداد، شَمَّرَ عن ساعِد الجِّد والإجتهاد، وقَصَدَهم وهم إذ ذاك أكثر من رَمْلِ عالِج[3]، بكلِّ شَهْمٍ فارِس وخِضَمٍّ مُحاجِج، فمَزَّقَ جَمْعَهم، وفَرَّقَ أجْمَعَهم، وأخمد أنفاسهم، وأطفأ نيراسَهم،

---

[1] ديوان عبد الرحمن السويدي، ص ٥٨.

[2] النمر: الشجاع، وقيل: هو الظريف اللبيب المعوان.

[3] عالج: موضع بالبادية بها رمل، أو هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض.

فتَفَرَّقوا أيدي سبا،وغَدَوْا شَذَر <٥أ> مَذَر، وتَمَزَّقوا على الوِهاد والرُّبــــى، وسَكَن أكثَرُهم الحُفَر. بيت [من بحر الطويل]:

كأنْ لَمْ يَكُن بَيْنَ الحُجُونِ إلى الصفَـا   أنيسٌ ولـــم يَسْـمُرْ بِمكَّــةَ ســامِرْ

فهو البالغ في الفِراسَة حَدَّ الإعجاز، والسَّالِك إلـــى السِّياســة علـــى الحقيقة لا المَجاز. وستأتي مناقِبه على التفصيل، وسَـتَبين مآدِبـه علـى الإيضاح والتَّكميل. شعراً لمؤلِّفه [من بحر البسيط]:

ما قُلْتُه صاحِ عُشْر من فضائلـــه   وليسَ مَدْحي عن لَغْوٍ وعَنْ هَـذَرِ

فرحمه الله رحمةً تَدَفَّقت حِياضُها، وتأنَّقت رِياضُها، آمين.

باب
في ذكر ولادته[1] وسبب سعادته[2]

مولده قَتْرين[3]، وذلك أن والده- رحمه الله- مصطفى بيك[4] كـــان

---

[1] في الهامش: مطلب في ذكر الولادة.

[2] في المطبوع: وسبب سعادة مولده. وما أثبتناه في النسختين.

[3] قترين Katerini قرية كانت، بحسب التنظيمات الإدارية العثمانية، مركزاً لقضـــاء باسمها في ولاية سلانيك، من ولايات الروملي (القسم العثماني من أوربة)، علـــى الساحل الغربي لخليج سلانيك. سامي: قاموس الأعلام ص٣٦٠٢.

[4] في المطبوع: بك.

من أهل سَنْجَقِ قُرْبَ ناحيةِ دَبْرَه[1]. وكان ثَمَّةَ مكانُ إقامَتِه، ودارُ سُـكناه وولادته، فظَهَرَ ما رُسِمَ من قِدَمٍ، وجَرَى به القَلَم، أن صـار فـي قُـربِ قَتْرِين ذا مَزْرَعة هَنِيَّة، من جُمْلَةِ الإسْباهِيَّة[2]، وهم عسـكرٌ للخُنْكـار[3] الأعظم، والسُّلطان الأفخَم، جَعَلَ لهم بعض الضِّيَاع، فيَكُـون لـهم منـها الإنتِفاع، على شَرْطِ أن يَذْهَبوا مع العساكر المنصورة، والجنود المَحْبُورة، حيثما كانت الأعداء، يَسْفِكون دُونَ بَيْضَةِ الإسلام الدِّماء.

ولما اقتضى أن يكون قُرب قَتْرِين مُقيماً في أكثر السِّـنين، أراد أن يتزوَّج فيها، ويَحط رَحْلَه بناديها، فقضى بارئ النَّسَـمات، بـأخذ بعـض

---

(1) دبره Dibra بلدة كانت تعد مركزاً لسنجق (لواء) باسمها تابع لولاية مناستر، مـن ولايات الروميلي، تبعد عن مدينة مناستر بنحو ٩٠ كم. قاموس الأعلام ص٢١١٨.

(2) سباهي كلمة فارسية الأصل، تعني حرفياً: فارس، واستخدمها العثمـانيون للدلالـة على الفرسان الإقطاعيين الذين كانوا يشكلون أولى القوات المنظمة فـي دولتـهم، ويتقاضى السباهي راتبه على شكل ضرائب من إقطاعه، مقابل أن يخرج بنفسـه، أو مع أتباع له، في أثناء استدعائه للخدمة العسكرية، وهو يتولى مسؤوليات ادارية في أثناء السلم بصفته أميراً لمنطقته، وحينذاك يعرف بلقب بك، وقـد تنـاط بـه مسؤولية الإشراف على عدة وحدات اقطاعية- عسكرية، فيعرف حينـذاك باسـم بكلر بكي، أي بك البكوات، وتنقسم اقطاعات السباهية، بحسب ما تدره من دخول، إلى ثلاث فئات، التيمار، وهو أدناها، ثم الزعامت، فالخاص، ويخصص الأخـير للسلطان بصفته قائداً عسكرياً أعلى ولكبار القادة في الدولة. ينظر جـودت باشـا: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الدنا، بيروت ج١ ص٩٩ وجب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ج١ ص٧٢.

(3) الخنكار: كلمة من التركية الأويغورية Unkar بمعنى الموفـق، وأصبحـت لقبـاً للسلاطين العثمانيين.

البَنات المُخدَّرات. وكان طالِع السَّعْدَين، واجتماع سَعد <٥ب> النيِّرَين، أن بَنى بالدُّرَّة المَصُونة، والجَوْهَرة المَكْنونة، فاطِمة قَاتون[١]، ذات الحَسَب الظاهِر، والنَسَب الفاخِر، من الحُور المَقصورات، والخُود الخدلجات[٢].

شعراً [من بحر الكامل]:

بِكْرٌ تَقُومُ تَحْتَ خُمُرِ ثِيابِها[٣] عَرْضُ الجُمالِ لِجَوْهَرٍ سَيَّالِ
رَيّانةٌ وَهَبَ الشَبابُ أديمَها لُطْفَ النَسيمِ ورِقَّةِ الجَرْيالِ[٤]

فبَرَزَ أوائل ما قَدَّره الحكيم، وظهر للوجود، وذلك تقدير العزيز العليم، أن جاءت بهذا الوزير الكبير، والعَلَم الشهير. وقد صَدَقَ في أبيه قولُ القائل، فكأنه عن حالِهِ ناقِل. شعراً [من بحر الطويل]:

تخيرتُها للنسلِ وهي غريبةٌ وقد أنجَبَت والمُنجِبات الغَرائِب

وقول الآخَر [من بحر الطويل]:

تَخَيَّرتُها للنسل وهي غريبةٌ[٥] فجاءت به كالبدر حُسْناً مُعَمَّما

---

[١] قاتون، وخاتون: هي لفظة تركية تعني: السيدة عريقة الأصل، أو السيدة مطلقاً.
وفاطمة هذه هي ابنة مصطفى باشا، وستأتي ترجمته.

[٢] الخدلجة: الرَّباء الممتلئة الذراعين والساقين، والممكورة.

[٣] في المطبوع: حمر. وما أثبتناه من النسختين.

[٤] الجريال: الخمر.

[٥] في المطبوع: تتجبتها. وما أثبتناه من النسختين.

وقد بَهَر القَمَر بجماله، وظَهَرت على الأثَرِ طليعة كَماله، تلُوح عليه العلامات من السعادة، وتتلألأ فيه أنوارُ الكَمالاتِ على الزِّيادة، مع ضخم بنْيَة، ومتَانة ساعِدٍ بلا مَرِية[1]. شعراً [من بحر الطويل]:

فتىً لم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قَرِيبةٌ ... فَيَضوى ولا يَضْوَى ولَيدُ الغَرائِب

فشبَّ في حُضن مُرَبِّيه على لبان أمه، ونشأ في حِصن أبيه بين خالِه وعَمِّه.

فصل

في بيان قَصَبَة قَتْرين

حَدَّثَ جُوّابُ الأقطار، وأصحاب الأسفار: أن قَتْرين هذه، قَصَبَةٌ من قَصَبات الرُّوم إيلِي، وهي <٦أ> وإن كانت مَوْسُومة باسم القُرى، مَشهورةٌ بذلك مَعلومة بين الوَرَى، إلاّ أنّها ذات السَّواد الأعظم، وفي حُسْنِ الأسلوب على طَرَفٍ أفْخَم، مع طِيبِ هَواء، واعتدال أمْزِجَةٍ وأنواء، مَشحونة بالبساتين العامرة، والمزارع الفاخرة الغامِرة، تُزْرِي بأُبُلَّةِ البَصرة وسُغْد[2] سَمَرْقَنْد، وتَنُوف قُصورُها على الخَوَرْنَق في هذا الحَدّ، فهي جَنّةُ المأوى، وزينة الدنيا، فلم يَتَّفِق مِثْلُها في الأقطار، حيثُ تَجري

---

[1] المرية: الشك والجدل.

[2] في الأصل والمطبوع: سعد، والصحيح ما أثبتناه، وهي ناحية كثيرة المياه نضرة الأشجار، قصبتها سمرقند. ياقوت، معجم البلدان، مادة السُغْد.

من تحتِها الأنهار، وتَسْرَح الظِّبا في نواحيــها علــى الشِّـيحِ والرَّنْــد[1]، وتسري الصَّبا في أراجيها[2] فَيَرِقَّ لرقَّتِها القلب الصلْد، وتــأخذ بالألبــاب نَسَمات أسحارها، وتأتي بالعُجاب المُستَطاب نَغَمات أطيارها، فكُلُّ أوقاتــها ربيع، وكل أزمانها أزمنة تَرْبيع، قد كُسِيَتْ أرضها- على الدوام- الأثواب السُّنْدُسيّة، وجُلْبِبَت- على مــرِّ الأيــام- الجلابيــب الخُسْــرَوِية، مُتأنِّقــة الرِّياض، مُتدفِّقة الحياض، قد أبدى الشقيق لألحان أطيارهــا حَبَّــة قَلْبِــه، ومَزَّق الورد الأنيق كسائر أزهارها حُلَّة ثوبه، فغَدَت رِياضها- كما قــال التَّنوخي- شعراً [من الخفيف]:

ورِياضٌ حــاكَتْ لَــهُنَّ الثُّرَيــا	حُلَلاً كــان غَزْلُــها للرعـــودِ
نَثَرَ الغَيْثُ دَرَّ دَمْـــعٍ عليهـــا	فتَحلَّــت بِمِثْــلِ دُرِّ العقـــود
أُقحُــوانٍ مُعــانِقٍ لشَـــقيقٍ	كثُغــورٍ تَعــضُّ وَرْدَ الخُـــدود
وعيونٍ مـــن نَرجِـسٍ تَـتَراءى	كعيــونٍ مَوْصُولــةِ التَّســـهيد
فكأن الشَّــقيقَ حيــن تَبَـــدَّى	ظُلمةُ الصُّدغِ في خُـــدودِ الغِيـد
وكأن النَّـــدى عليــها دمـــوعٌ	فــي جفــونٍ مَفْجوعــةٍ بفَقيـــد

<٦ب> هذا وأما أهلُها فهم أصحاب الشجاعة، وأربــاب البَراعــة، ذوو عقلٍ قَوِيم وخُلُق مُستَقيم، مشـــهورون بــالصِّدق والدِّيانــة، والعِفَّــة

---

[1] الشيح: نبات أنواعه كثيرة، كله طيب الرائحة والرند: نبات من شجر البادية طيــب الرائحة يشبه الآس.

[2] يريد: أرجاءها.

والأمانة، والنُّدبة إلى الجهاد، والأهبة إلى الإسعاف والإسعاد، والإقدام على الأمور الشاقة، وعدم الإحجام في الحروب الحادقة.

ومن خاصيّتهم عدم الخيانة لِمَن يكُونون بِخِدْمَتِه[1] حتى إن الوزير المذكور، لما كان- كما يأتي- بِرَسم السُّلطان رئيس البّوابين[2]، وكان بِيَده عُرُوض أحوال الرَّعيَّة، فيَعرِضَها على ذي الشَّوكة القَوِيَّة.

فبينما هو ذات يوم جالسٌ لأخذِ العُروض، حابِسٌ نَفْسَه على أداءِ هذا المَفْروض، إذ جاء في يده عَرْض حال، وكانت الشّكاية عليه من بعض الأحْوال، فبَلَّغه مع سائر الدَّساكِر[3] إلى رئيس الإكابِر الأكابِر، فلما نَظَر فيه وتأمَّلَ معناه، وعَلِم ما الغَرَض فيه من فَحْواه، قال: هذه شِكايةٌ عليكَ تَرِبَتْ يَداك! فكيفَ غَفِلْتَ، ولِمَ لَمْ تنظر إليه هناك؟ فقال:

---

(1) في الأصل: يكونوا.

(2) هذه هي الترجمة العربية للمصطلح التركي (قبوجيلر باشي) أو (قبوجيلر كهيه سي) وهو اسم وظيفة في البلاط العثماني ، وبعض الولايات العثمانية، يقابل كلمة (الحاجب) العربية، ويكون مسؤولاً عن تنظيم دخول أصحاب المناصب من الإداريين إلى الديوان الهمايوني، حيث مقر السلطان، والدوائر التابعة له، ويفهم من هذا النص أنه كان يتولى رفع مظالم الناس إلى السلطان أيضاً.

(3) الدساكر هنا تحريف تركي للفظ (التذاكر)، جمع (تذكرة) العربية، ويقصد بها اصطلاحاً الأوراق الرسمية المتداولة بين الدوائر في الدولة العثمانية، وهي تقابل كلمة (مذكرة) في الإدارة العراقية اليوم، وكان ثمة موظف خاص بمتابعة ما يصدر بسببها من قرارات، يسمى (تذكره جي). ينظر د. حسين مجيب المصري: معجم الدولة العثمانية، القاهرة ١٩٨٩، ص٥٤.

أطالَ الله بقاء أمير المؤمنين! إني أعرفه شكاية، وأدريه أتم دراية، إلاّ أنّ الأمانة أدنتني، ومَطيّة الصدق وعدَم الخيانة حَمَلَتني إلى أن آتيك[1] به لتُجري بيننا الأحكام، وتَحْكُم على أحدِنا بالإنتقام. فلما سمع الخُنْكار كَلامَه، عَلِم صِدقَه بلا سآمة، فأنعم عليه واجزل، وعفا عما جنى وفعل <٧أ>، فرحمه الله رحمة الأبرار، وأسكَنَه الجنّة دار القَرار، آمين.

فصل

[شجاعته وارتقاؤه المناصب]

ثم أنه لم يَزَل مُتَضلِّعاً بالكَمال، مُتَخَلِّقاً بأخلاق ذَوي الأفضال، إلى نَوْبةِ[2] السُلطان ابن السلطان، والخاقان ابن الخاقان، السلطان محمد خان[3]- طيَّبَ الله ثَراه، وجَعَل الجنّة مَرْقَده ومأواه- فاستَخلَصه وزير السلطان الأعظم، ودُستوره الأفخَم، مصطفى باشا[4]، وأدخَلَه في سِلك

---

[1] في المطبوع: أنبك.

[2] النوبة هنا بمعنى العهد، أو الحكم.

[3] هو السلطان محمد الرابع بن السلطان إبراهيم الأول، تولى العرش في ٧ جمادى الأولى ١٠٥٩هـ/ وعزل في ٢ محرم ١٠٩٩هـ/٨ تشرين الثاني ١٦٨٧م، وتوفي معزولاً في ٨ ربيع الآخر ١١٠٤هـ/١٧ كانون الأول ١٦٩٢م.

[4] تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان محمد الرابع اثنان اسم كل منهما (مصطفى باشا)، أولهما إيشير مصطفى (ذو الحجة ١٠٦٤- ٤ رجب ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م) والأخر قره مصطفى مرزونلي (شعبان ١٠٨٧-٦ محرم ١٠٩٥/١٦٧٦-١٦٨٣م)، والمقصود هنا هو الأخير، فقد كان قائداً محنكاً حقق انتصارات باهرة على النمسا، وحاصر عاصمتها فينا سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٣، ولكنه اضطر إلى الانسحاب منها بعد معارك ضروس شنها عليه ملك بولنده-

أقواته[1] الخاصّة، لما فيه من حُسْنِ الخاصّة، فذَهَب معه إلى السَّفَر، وسار في جُمْلَة العسكر.

ولما تَقَابَلت الجنود، وخَفَقَت البُنُود، وطارَتِ الكُبود، فعَـــدُمَ القَــرار والهُجُود، والشجاع حار، والجَبانِ جَنَح إلـــى الفِــرار، والدِّمــاء ســالت، والرايات مالَت، والخَيْلُ هَمْهَمَت، والإفْرَنْج دَمْدَمَت، والســيوف أبرَقَــت، والحُتوف أزْهِقَت. شعراً لمؤلفه [من الوافر]:

بِيَوْمٍ حــــارَتِ الأبصــــارُ فيــــه لِما قد جازَ مـــن كُـرَبٍ شِـداد

تَوفّى الله الوزير برحمته، وأسْكَنَه بَحْبوحة جَنّته[2]. فضاق الخِنــاق، والتفّت الساقُ بالساق، وفَرَّ الأكثَرُ مُدْبِراً، وغَدا الرُّعْبُ والخَوْفُ مُسْــفِراً. بيت [من الرجز]:

اللَّيــلُ داجٍ والكِبــاشُ تَنْتَطِـــح فَمَنْ نجــا بِرأسِــهِ فقــد رَبِــح

وبمِثْل هذا الوَقْت الحَنِق، والنَّفْس المُنْخَنِق، وَقَع السَّـــنْجَق[3] وَسَـــط اللُّجّة، وعَدَم الوصول إليه بكلِّ مَحَجّة، فَنَزَل أمام الوزير المذكور محمـــود

=سوبيسكي، فكان أن أمر السلطان محمد الرابع باعدامه .ينظر محمد فريد بـــك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت ١٩٧٧، ص١٣٧.

[1] في المطبوع: أقرانه.

[2] من الواضح أن هذا القائد لم يتوف في أثناء المعركة، وإنما أعدم بسببها كما قدمنا.

[3] السنجق، وترد في المصادر العربية صنجق: لفظة تركية قديمـــة بمعنـــى الرايـــة واللواء والعلم.

أفندي عن حِصانه، وذَهَب إلى إنقاذه بقُوَّة جَنانه، فقَبل أن يَصِل، أدركَه <٧ب> الأجَل، فرَكَل الوزير المُشار إليه فرَسَه، وذَهَبَ إليه فافترَسَه. ولم يَنزِل عن الحِصان بل استخلَصه بإعانة الجُوكان[1]، وأخرَجَه إلى السلامة، وأبقى العَدُو في نَدامة. شعراً [من الكامل]:

وإذا السَّعادةُ لاحَظَتَكَ عُيُونُها نَمْ فالمَخاوِفُ كُلُّهُنَّ أمانُ

واصْطَدْ بِها العَنْقاءَ فهي حَبائِلٌ واقتَدْ بها الجَوْزاءَ فهيَ عِنان

ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولما صَدَرَت منه هذه الحَرَكة البَهِيَّة، وصارَت مَعلومةً لدى الدَّولة العليَّة، أمرَ له بالجوائز، ومُنِح بِعَطاءٍ ناجِز. مصراع [من المتقارب]:

أتاكَ الرَّبِيعُ فَقُمْ واسْعَد

فأخَذَه السلطان إلى قُربِه، وأدخَلَه في سِلْكِ أعوانه وحزبه، وقَيَّض له من يَسُوسَه من أهل الكمال، ويُعلِّمه كلَّ ما يَدلُّ على أفضال، إلى أن ظَهَرَت عليه آثار الشجاعة، وقَصَرَتْ عليه أخبار هذه الصِّناعة، وتَأهَّلَ لكُلِّ مَنقَبَة، وتنزَّه عن كلِّ مَثْلَبَة، أُفرِزَت له مَقصُورةٌ في دار السلطان، ولاحَتْ عليه مَخايِل العِرفان، وذلك في سنة خمسٍ وتسعين بعد الألف[2].

---

[1] الجوكان كلمة فارسية الأصل، بمعنى: صولجان.

[2] أولها ٢٠ كانون الأول ١٦٨٣م.

فصل

[مناصبه في دار السلطنة]

ولما أرادَ الله إظهار ما قدَّرَه أولاً، دُفعَةً دُفعة، مُكَمَلاً مُفَصَّلا، كان في السابع والعشرين من ربيع الآخِر من سنة تسعٍ وتسعين بعد الألف[1]، جَلَس على دَستِ الأحكام، وترَدَّى بِرداء الخِلافة في هذا العام، السلطان ابن السلطان، عديم النَّظير في هذا الشأن، السلطان سليمان خان بن السلطان إبراهيم[2] <٨أ> خان- بَرَّد الله مَضجَعَه، وجَعَل إلى الرحمة مَرجِعَه- فأنعَمَ على الوزير المذكور، حيثُ جَعَله جِيفرجي باشي[3]، فبَقِي في هذا المَنصَب سِتّ سنين مَخصوصاً به إذ هو به قَمين، ثم ضَمَّ إليه مع هذا المَنصَب المنصب الأعظم، والجاه الأفخم، ألا وهو إمارة العَلَم، فبقي فيه سنة كاملة، من غَير مُخاصَمَة ولا مُجادلَة. مصراع [من البسيط]:

لمَّا تَخَلَّقَ بالأعلى من الشِّيَمِ

---

(1) في الأصل: ممني تسعة، ويوافق هذا التاريخ يوم ٢٩ شباط ١٦٨٨م.

(2) هو السلطان سليمان الثاني، تولى العرش بعد أخيه محمد الرابع، ولبث حتى وفاته في ٢٦ رمضان ١١٠٢هـ/٢٣ حزيران ١٦٩١م.

(3) لم يتوضح لنا معنى هذه الوظيفة، ربما كانت محرفة من الكلمة التركية (جاقرجي باشي) أي كبير المشرفين على البزاة، وكانت هذه الوظيفة قد غدت في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، مجرد وظيفة تشريفية من أنواع الخدمة الخارجية. جب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج٢، القاهرة ١٩٧١، ص٢٢٤-٢٢٥.

ثم أنه لم يَزَل في أوقات مَسَرَّة، خالياً من آفاتِ عُسْـــرَة، ملحُوظـــاً بالنظر السلطاني، مَزفُوفاً بالجَلال الرَّباني. شعراً لمؤلفه [من الكامل]:

في عِيشةٍ تَعْشُو الأنــام لِضَوئِــها ومَسَـــــرَّة الأوقــاتِ والأيــــام

إلى سنة ستٍ ومائة وألف، [إذ] بَزَغَت شمسُ السلطنة مـــن آفــاق الإقبال، وطَلَعَت أقمار الخِلافة من بُرْجِ الكَمال، ألا وهو جلوس الســـلطان ابن السلطان، مصطفى خان بن السلطان محمد خان[1]، على بِساط العَـــدل والإنصاف، وتَصَدَّر في صدر الديوان على سرير الائتلاف، ثمّ أن الوزير المذكور- ضُوعِفَتْ له الأجور- لما كان في دار السلطنة كمـــا أســـلَفْناه، وفي خِدْمة أهل المَيْمَنة كما قَرَّرناه، كان له مع حضـــرة هـــذا الســـلطان المُشار إليه نَوْعُ عِرفان، وله حُقوقٌ سابقة عليه في هذا الشأن، فأنشَدَ لِسان إقبال الوزير المذكور، ذات حال الخاقان المشهور. شِعراً [من البسيط]:

إنَّ المُلوكَ إذا ما أسهلوا ذَكَـــرُوا من كان يألَفُهم في المَنْزِلِ الخَشِـن

<٨ب> فبناءً على هذا، جَعَله رئيس البَوابين، وخَصَّه بهذا الفَضْـــل المَكين، فبقِيَ في هذا المَنْصب ثلاثة أعوام، مَحْبُـــوراً بخِدْمـــة الســـلطان

---

[1] هو مصطفى الثاني بن محمد الرابع، تولى العرش بعد سلفه السلطان أحمد الثـــاني في ٢٢ جمادى الأخرة سنة ١١٠٦هـ/٦ شـــباط ١٦٩٥م وعـــزل، إثـــر تمـــرد عسكري، في ٢ ربيع الآخر ١١١٥هـ/١٥ آب ١٧٠٣م، وتوفي في ٢٢ شـــعبان من ذلك العام/٣١ كانون الأول ١٧٠٣م.

الإمام، يَخدِمه الدهر مُنقاداً، ويقدُمه النصـــر إســعافاً وإســعاداً، ذا كلمـــة مسموعة، ومَنَصّة فوق السّماكَيْن مَرفوعة. شعراً لمؤلفه [من البسيط]:

فوقَ السّماكينِ مَعقـــودٌ مَنَصّتَـــه   النَّجمُ يَخدِمُه والسَّـــبْعة الشُّـــهُب

فصل

[توليه ولاية قونية]

ولما لم تَزَل تُوافِقه مَطالع الكمال، وتُرافِقُه طَوالِـــع الإقبـــال، إلـــى [الـــ]سنة التاسعة بعد المائة والألف[1]، قَدَّر ربُّ العباد، أن يُظْهِر في عـــالم الكَوْنِ والفساد، شمسَ سَعْدِه، ويبهر نيِّر مجده، ويَنقِش على جَبْهَتِه كواكـــب السَّعد، ويُحَلّى بِدُرَّةِ أُبَّهتِه تاج المَجد، فَعَطف عليه السلطان، ولَطَـــف بـــه بكل إحسان، حيثُ حَلاّه بِرِداء الـــوزارة، وردأه بِكَســـاءِ الإمـــارة، وولاّه منصب قُونْيَة[2]، لِعلمه أنه أهلٌ لهذه النِّية. شعراً [من البسيط]:

جاءَ الخِلافة إذ كانَتْ لـــه قَـــدَراً   كما أتى رَبَّهُ مُوسى علـــى قَـــدَرِ

---

[1] اولها ٢٠ تموز ١٦٩٧م.

[2] ولاية في وسط الأناضول، مركزها مدينة قونية التاريخيـــة (ايكونيـــوم Iconium البيزنطية) ضمها السلاجقة إلى دولتهم سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م فأصبحت عاصمـــة لهم منذ ذلك الحين، ثم انتقلت إلى إمارة قره مان التركية، حتـــى اســـتولى عليـــها العثمانيون حرباً، وأصبحت واحدة من أهم الولايات في دولتهم. تبعد عن اســـتانبول بنحو ٤٥٠ كم. ينظر ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمـــة بشـــير فرنســـيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤، ص١٨١ وقاموس الأعلام ص٣٧٨٢.

فَدَخَلَها وهي إذ ذاك خالية عن الأمان، مُتَداعية الجُدْران، من الظُلْم والطُغيان، فَجَلس في دار الحُكْم، وتَصَدَّى لِرَفْع الظُلم، وإعانة المَظلوم على الظالِم، وإغاثة المَلْهُوف وَرَدّ المَظالِم. مصراع [من الكامل]:

مــا المَجْـدُ إلاّ أن تَعُـفَّ وتَقْـدِرا

فرتَع أهلُها في وِديان الهَنا، ولَعِبوا في مَيدان الأمانِ زَمَناً، وحَسُن الحال بأيّامه، وأحسَنَ الدهر المَقال لِمَن هو تحت نِظامِه <٩أ>. شعراً [من الكامل]:

فالورْق تَصدحُ بهجةً وتَطَرُّباً ... والدَّوْح في وَرَقِ الغُصونِ يُصفِّقُ

وفي هذه السنة، عُيِّنت العساكر الإسلامية، والجَواسِر الكَواسِر الخاقانية، وعُيِّن معهَم، فحسَّن[1] اجمعهم على من كان[2] قُرب ناحيته، وتجاه حميته مِمَّن خرج عن الطاعة، وشقَّ عصا المسلمين والجماعة، فَسَقَوْهم كأس الرَّدَى، حيث فَسَقُوا على طول المَدى، وحكَّمُوا المَناصِل في الهام، وأحكَمُوا في المَفاصِل كل حُسامٍ غير كَهام[3]. شعراً لمؤلفه [من الوافر]:

وقامُوا كالأُسُود لَدى شَراها ... بكلِّ مُقَذَّفٍ ماضي الفُؤادِ

---

[1] كذا في الأصل، ولعله أراد: فحسن لهم.

[2] في الأصل: كانت، وضرب على التاء بخط مما دل على تصحيحها، وفي المطبوع: كانت.

[3] الكهام: الثقيل المسن الذي لا غناء عنده، وسيف كهام: لا يقطع..

وغنّى المُهَنّد على كُوَرِهِم[١]، وصَفّقَ العَسّال[٢] في ظُهورهم. شعراً لمؤلفه [من الكامل]:

هذا يُصَفّقُ في الظُّـــهُورِ وذا لَـــهُ   أبَداً على الهاماتِ نَغْمـــةُ مُنْشِـــدِ

وشدَّ البُنْدُق[٣] في أدبارهم، وأنشَـــدَ الســـعد المُغْلَـــقُ بادبـــارهم[٤]، وتداركَتْهم الضَّراغِمِ الإســـلامية، وتَبَادَرَتـــهم الضيـــاغم الإســـلامُوليَّة[٥]، فَتَرَكوهم فرائسِ العُقْبان والرَّخَم[٦]، ورَفَضُوهم لحماً على وَضَم[٧]، وقَـــلَّ

---

[١] الكور: القطيع الضخم من الإبل، وقيل من البقر.

[٢] الرمح العَسّال: مضطرب لَدْن.

[٣] في المطبوع: البيدق. أصله ما كان يقذف من كرات مـــن الرصـــاص أو الطيـــن ونحوه مما يشبه في حجمه واستدارته ثمرة البندق، بواسطة نوع من السلاح شـــاع استعماله في العصور الوسطى، ويعتمد في دفعه على قوس مشدود، وبعد استعمال البارود، تطور هذا السلاح ليقذف البندق من خلال أنبوبة بواسطة انفجار البـــارود، وإليه نسب السلاح المذكور، فعرف بالبندقيـــة. ينظـــر: دوزي: تكملـــة المعـــاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، ج١، بغداد ١٩٧٨، ص٤٥٠-٤٥١.

[٤] لعل إولاها جمع دبر،وهي العقب والمؤخرة، والأخرى إدبارهم من أدبر، بمعنـــى ولى.

[٥] مخففة من اسلامبولية، واسلامبول هو اسم لاستانبول شاع استخدامه في عهد الدولة العثمانية، بمعنى مدينة الإسلام.

[٦] الرخم: طائر أبقع على شكل النسر إلاّ أنه مبقع بسواد وبياض.

[٧] الوضم: ما يوضع عليه الطعام فيؤكل، ويقال تركهم لحماً على وضم أي أوقع بـــهم وذلّلهم وأوجعهم.

من نجا برأسه، وندر من ربح منهم بإبقاءِ أنفاسه ﴿أنْ تَقُول نَفْسٌ يا حَسْرَتي على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله وإنْ كُنتُ لَمِنَ الساخِرِين﴾[1]، فَرجَعت جنودُ الله رابحين، مَحفُوفين بالظَّفَر والنصر المُبين.

ثم بعد أن رَجعَ كُلٌّ إلى مَكانِه، ودار مُلْكه ومكان إسْكانِه، عَيَّن هذا الوزير المُظَفَّر، والهُمام الشهير الغُضَنْفَر، رئيساً على العسكر الظاعِن، والجُند الآمن، إلى قِتال كل باغٍ وطاغٍ <٩ب>، ولا سيما أهل بابـاداغ[2].

بيت لمؤلفه [من البسيط]:

فقـادَهُم جَحْفَـلاً سـالَتْ بمدْيَـه أباطح الروم ذاتَ السهلِ والجَبَـل

وذهب بأولئك الرجال، وأمَّهُم كما يَؤم اللَّيـثُ الأشـبال، وخَفَقَـت الأعلام يَمينه ويُسراه، وأزهَرَت الآكام فَرَحاً بما تَراه، وسـار[3] بِخَميـسٍ كأنه فَلَك الثَّوابِت في ابراق الأسِنْة، ومشى بِكُلِّ طَودٍ ثـابتٍ لـدى تقـابُل الأعِنَّة. شعراً [من الكامل]:

---

[1] الزمر، آية ٥٦.

[2] هو جبل (بابا داغي) في سنجق دكزلي في ولاية آيدين، من الولايات العثمانية في الأناضول، وهو جبل عظيم منفرد يجري في واديه نهر (مندرس). قاموس الأعلام ص٥١٣. وفي المطبوع: بابا داغ، بالياء.

[3] في المطبوع: أوسار

أُسْدٌ تَحيُّـــهُم الصّــوارِمُ والقَنــا   قَطَعوا بأنَّ النَّقْـعَ ليـلُ وِصــالِ
قبل البلوغ لَقَوا العِدا وتَقَمَّصــوا   بالزَّغْـفِ[1] وهي طويلةُ الأذيــالِ

فقابَلَ بهم الفئات الطاغية، وقاتَلَ بهم المِئات الباغية، وغَنَّى عندليب النصر على راياته، وغرَّد بُلبُل الظَّفَر بأبلغ نَغَماته، وتَلى السَّعْدُ مُترنِّماً: ﴿وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ الله رَمى﴾[2] فرجعَ منصوراً، وعاد بالمَسَرَّات مَحبُوراً.

ثم أنه بعد قَضاءِ وَطَرِه من ذِهابه، وصارَ سَفَرِه إلى إيابه. ودَخَل قُونْيَةَ دار عَدْله، وقَرار أُبَّهته ونُبْله، تصدَّى لبناء قُبَّة الولـي بـلا نِـزاع، والسِّرِّي بلا دِفاع، صاحب الكَرامـات الظـاهرة، والكمـالات البـاهرة، والمناقِب الزاهرة، والمآثر الفاخرة. شعراً، [من البسيط]:

نَفْسٌ من القُدْسِ في ذاتٍ مُجَـرَّدةٍ   بالعُرْفِ جاز عليها يَصدق الرَّجُلُ

الصالح العابِد، النَّاسِك الزاهِد، الكارِع مـن عَيْـنِ الجَمْـع نَـهَلاً، والشارِب بكأس القومِ والرَّبْعِ عَلَلاً، مَن ظَهَرت له الخَفِيَّات، وأسفَرَت لديه الخَبِيَّات، مِن غوامِض التَّوْحيد <١٠أ>، وعَويصات التَّجريد، فـي مَقـامِ التَّفْرِيد[3]، فظَهَر له كلُّ تحقيق مَعْنَوي، وأبدى كل تدقيق عُلْـوي، مَولانـا

---

[1] بفتح الزاي وتسكين الغين المعجمة: الدروع الواسعة الطويلة والمحكمـة الحسـنة السلاسل.

[2] الأنفال، من الآية ١٧.

[3] في المطبوع: التغريد، والتفريد: من مقامات التوحيد عند الصوفية.

جلال الدين محمد الرُّومي المَوْلَوِي[1]- قدَّس الله أسراره، ونفَعَنا بــه وزاد أنواره- فبَناها الدُّستور في غاية الإحكام، وجَعَلــها مَثَــلاً بيــن الخــاص والعام، وشيَّد أركانها وأعلى جُدرانَها، ورَفَع سَمْكَها[2] وسَــوَّاها، وحَكَــم عَمَدَها وأرساها، فجَزاه الله خيرَ الجزاء، ومَنَحه المِنْحةَ الحَسْناء. آمين.

فصل
في تَولِيَتِه حَلَب الشَّهْباء

وقد قضى بارئ النِسَم، وجَرى به القَلَم، وحَكَم قاضي الكَوْنِ بإظهار الأفراح، وإبراز ما في الألواحِ إلى الأشباح، ألا وهو أن الوزير المذكـور، في السنة العاشرة بعد المائة والألف[3]، أُلبِسَ حُلَّةَ الرِّضاء، ووُلِّــي حَلَــب

---

[1] هو الفقيه الصوفي الشاعر مولانا جلال الدين محمد بن محمــد البلخــي القونــوي الرومي، صاحب الطريقة المولوية المنسوبه إلى لقبه (مولانا) الذي اشتهر به فــي عهده وفيما بعده، ولد في بلخ سنة ٦٠٤هــ/٦٧٢، وعاش بعض سني عمره فــي بغداد، حيث نزل أبوه في المدرسة المستنصرية، ثم استقر في قونية سنة ٦٢٣هـ، وفيها تولى التدريس وعرف بعلمه وفقهه، ولكنه فضل فيما بعد التصوف واعتزال الدنيا، وله أشعار رقيقة بالفارسية، سماها (المثنوي). وكانت لطريقته تكيــة فــي بغداد عرفت بالمولاخانه، أو المولويخانه، وقد أعاد داود باشا والي بغداد بناءهــا لتغدو جامعاً سمي الأصفية، سنة ١٢٤٢هــ/١٨٢٦م. وينظر القرشــي: الجواهــر المضية ج٢ ص١٢٣ ودائرة المعارف الإسلامية، مادة جلال الدين الرومي، بقلــم كارا دي فو.

[2] السمك: السقف، وقيل هو من أعلى البيت إلى أسفله.

[3] أولها ١٠ تموز ١٦٩٨م.

الشُهباء، فَذَهَب إليها مَحْبُوراً بالهَنا، مَحفُوفاً بالمَسار[1] من هُنا ومِن هُنـــا. ولَمّا دَخلَها، وجلَس على بِساط العَدل، وتَصدّى للحُكمِ والفَصل، عَدَلَ ومـــا جار، وحَمَى الذِّمار والدِّيار. ونامَت الرَّعية رَغداً بأيّامِه، وأمِنَــت البَرِيَّــة نَكَداً بمقامِه.

وفي هذه[2] الأثناء دارُ الحكومة تَدافَعَت أركانُها، وأوشَك أن تَدّاعــى جُدرانها، وكاد أن تُتْلى عليها آيةُ السُّجُود، وقارب أن تَظهَر فيه صاعِقــةَ عادٍ وثَمُود، قد أخلَقَ الدَّهر أركانها، وأضعَـفَ بُنْيانــها. مصــراع [مــن البسيط]:

أخْنَى عليه الذي أخْنى على لبــد[3]

فجدَّد هذا الدستور بناءها، ومَهَّد أرضَها ورَفَــع ســماءها، وأحْكَــم أركانها وجُدرانها، وزَخْرَفَ أراجيها[4] وزَيَّنَ بُنيانها، ووَشَّحَها بالشُّــرُفاتِ من سِنْداد[5]، فصارَت تَحْكي[6] إرَمَ <، اب> ذات العِماد، ونَــافَت علــى

---

[1] المسار: جمع مسرة.

[2] في الاصل: هذا.

[3] عجز بيت للنابغة الذبياني، وصدره (امست خلاء وامسى اهلها احتملوا..)

[4] يريد: أرجاءها، وقد تكررت. وفي المطبوع: أراضيها.

[5] من عجز بيت للأسود بن يعفُر هو (والقصر ذي الشرفات من سنداد) يريد به قصراً تحج العرب إليه بين الحيرة والأبلة. ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص٢٦٦.

[6] في المتن "فقاق" وقد شطبت هذه اللفظة وعوض عنها في الهامش بـ "فصار يحكي".

الخَوَرْنَق وغَمَدان، ولَرِبْت على مُتَنَزَّهات طَبَرْستان. شعراً لمؤلِّفه، [من البسيط]:

أضحى كَمُدَّخِرٍ في الخُلْدِ مِن قِدَمٍ   لِمَن يُنزِّه رَبَّ العَرْشِ من مَثَلِ

فحكم فيها سنتَين مُتواصلتَين، وحَولَين كاملين.

فصل
في توليته مَنصب الرُّهَى

ثم أنه في السنة الثانية عشرة[1] بعد المائة والألف، وُلِّيَ منصب الرُّهى[2]، وحَصَل على ما رام واشتهى. وخَرَج من حَلَب، وأمَّ الرُّهى وطَلَب، فدَخَلَها بزينة بَهِيَّة، وشَوْكةٍ رُستَمِيَّة، وعسكرٍ جرَّار، وجَحْفَلٍ زَخَّار. فلما حَلَّ فِناها، وتَسَنَّم أعلاها، وباشَرَ سياسَتها فأحسَنَ حِمايَتَها وحِراستها، رأى أن قصر الحكومة غير واقعٍ في مَحَلِّه، ولا أهل لأن يسكن فيه من هو كمِثْلِه، لِضيق رِحابه، وبَخْرِ فنائه، وشؤم أعتابِه، وقِدَمِ بِنائه، وتَهَدُّم أرجائه، فبنى القصر الراسِخ ذا الشُّرفات، والسراي الشامِخ

---

[1] اولها ١٨ حزيران ١٧٠٠م.

[2] كذا يكتبها المؤلف هنا بالألف المقصورة، وسيكتبها فيما بعد بالممدودة، والمشهور أنها تكتب بالأخيرة. وهي أدسّا القديمة، سماها العرب الرها تحريفاً للإسم اليوناني كلرهو Callirhoe وتقع على أحد روافد البليخ، وقد عرفها العثمانيون باسم أورفه، وهو اسم محرف من الرهّا أيضاً، وعد بحسب التنظيمات العثمانية مركزاً للواء (سنجق) تابع لولاية حلب. قاموس الأعلام ص١٠٧٤.

من جميع الجهات، يَعجَز المُهندِسون عن تفصيله، وتَعْيَى المُنَجِّمون عن بيان طالِعه في تفضيله، فحلّي بِقاعَه، وزيِّن قِبابه ورِقاعه، وأجرى فيه جداول الزُلال، وأسالَ فيه أنهار الجريال، فتدفَّقت حِياضه، وتأنَّقت رياضه، وأغدَقَت أشجاره، وأيْنَعت أثماره، وتَرنَّمَت بَلابِله، وتَنَغَّمت عَنادِله، وأضاءَ مِصباحه، وحَسُن مَساؤه وصَباحه. يُذْهِب عن الدّاخل فيه ألم الرَّجاء، ويُبْعِد عن الناظر إليه وساوِس السَّوْداء، لما جَمَع من أنواع الصَّفا ما يَلذ <١١أ> الأبصار. وحَوى من أصناف الهَناء ما يُبْهِر الأنظار لدى الإبصار. شعراً [من الكامل]:

مَغنًى بِه تَهوى القُلوبُ كأنَّما بالطَّبْعِ تَجذِبُها حَصى مغرائِه[1]

أَرِجٌ حكى نَفَسَ الحبيبِ نَسيمُهُ يُذكي الهَوى في الصَّبِّ بَرْدُ هَوائِه

نَفَحاتُه تُبْرِي الضرير كأنما رِيح القَميص[2] تَهبُّ من تِلقائه

فصار حَسْرةً للأكابِر، إذ كلٌّ عن الإتيان بمِثْلِه قاصِر، فهو آيةُ المجد المُنَزَّهة عن التَّحَدّي، وبَيت الحمد لكل شآمي ونَجْدي.

ثم أنه في هذه الأثناء، أتاه الأمر السلطاني بالخروج من الرُّها إلى كَسْرِ شَوْكَةِ رؤوساء الأعراب المَوالي، حين تجَرَّأوا على الفَساد والخَراب، إذ غرَّتهم كَثرتُهم، وعاضَدَتهُم شَوْكَتَهم، ودَلَّهم إبليس على المكائِد، وجرَّأهم على المَفاسد، ﴿يُريدون أن يُطفِئوا نور الله بأفواههم،

---

[1] المغرة: طين أحمر يصبغ به.

[2] إشارة إلى إبصار يعقوب حين وضع قميص ابنه يوسف على وجهه.

ويأبى الله إلا أن يُتِم نوره، ولو كَرِهَ الكافِرون﴾[1]، فسـار إليـهم وزيـر الوزراء، وأمير الأمراء، بِجنود مَلأت الوَعْرَ والسَّهل، والوِهاد والجَبَـل. شعراً [من بحر الطويل]:

وسارَ بِنصرٍ، والخَميـسُ كأنَّـهُ مِنَ الحَزْمِ بَحْرٌ بِالعَجاجَةِ مُزبِـدُ

قد أثبَتَت الدِلاص[2] قَلْبَه، وصفَّقَت جَناحاه إلى كل هِمَّـة نَدَبـة[3]، وسَذَت[4] ساقَتَه، وأرهَبَت وأوْهَنَت طَلِيعتَه، فتراءَت الفِئتان، وبَـرَزَ مـن الجانبين الكُماة الشجعان، وأبرقَت الصَوارِم، وأزْهَقَت اللـهاذِم[5]، وبـادَرَ المُصادِم بكل بَتّار صارِم، وخَفَقَت الأعلام، وعلا القَتام، وغَنّت الصَقّـال[6] <١١ب>، ورَنَّمَت النِبال. شعراً [من الوافر]:

كـأنْ تَرَنُّـم الأوتـارِ فيـه أنين مَشُـوقَةٍ ذَكَـرَت فَحَنَّـت

---

[1] التوبة، آية ١٠.

[2] الدليص للبريق، والدلاص: اللين البراق الأملس، يراد به نوع من الدروع .

[3] الندب: الخطر

[4] سذت الناقة: تدرعها في المشي، واتساع خطوها.وفي المطبوع: شذت وفي هامشه أنه غير واضح في الأصل.

[5] اللهذم: كل شيء من سنان أو سيف قاطع، وسيف لهذم: حاد.

[6] جمع: صقيل، وهو السيف.

وسار الأسمر بين الأبيض والأحمر[1]، وسالت الدماءُ كسَيل السماء، وطارَت الرؤوس، وحارَت النُّفوس، وعُرِفَ الكَمِيُّ الشجاع، وأُنْكِر الجَبان المِرواع. هذا والوزير مُشَمِّرٌ عن ساعِد الشجاعة، كاشِفٌ عن ساقِ الجَسارة في هذه الساعة، يَجُولُ بين الصُّفوف، ويَصُول تحت بَوارِق السُّيوف. شعراً [من بحر الكامل]:

صَرَعت ثعالِبَه[2] الأسود فأصبحَت مَحشورةً بِحَواصِلِ الغِربانِ
بطلٌ يُريكَ اذا تَجلَّلَ درعَه أسَد العَرينِ بِحُلَّةِ الثُّعبانِ
رَشْفُ النَّجيعِ من الأسِنَّةِ عندهُ رَشفاتُ خَمْرِ بَوارِقِ الأسنانِ
يَرتاحُ مِن وقْعِ السيوف على الطلا حتى كأنَّ صليلَهنَّ أغاني
ويرى كُعوبَ السُّمرِ سُمرَ كَواعِبٍ وذُكور بِيض الهِنْدِ بِيضَ غَواني
لم يستطِع وتَراً يَلِذُّ له سِوى أوتار كل حَنيَّةٍ مِرنانِ

ولما شاهَدَت الأعراب حَربَ البَسُوس، وعَلِمَ أولئك الأحزاب بِسَعدِهم المَنحوس، حقَّقوا أن ما أبرَموه أصبح منقوضاً، وما رأوه كان رأياً مَرفوضاً، وإن ما تَمَسَّكوا به كان من حبائِل الشيطان، وإن ما استَنَدوا إليه كان مآله إلى حِرمان وخِذلان، فَنَدِموا على ما عَوَّلوا عليه، وراموا الخَلاص ولِلهَرَبِ مالوا وعَدلوا إليه ولاتَ حين مَناص. فما انقَشَعَت سَحابة العَجاج، وما أسفر <١٢أ> صُبح ذلك الليل الداج، حتى تَحكَّمَت

---

[1] الأسمر الرمح، والأبيض السيف، والأحمر الدم.

[2] في الأصل بالرفع وهو عكس المقصود.

المَناصِلِ في المَفاصِلِ، وتَسَنَّمتْ رؤوسهم اللّدان الذَّوابل، وغَـدوا طُعْمَـةً للسرحان[1]، وعِبْرةً لكلّ إنسان، ونَدر من نَجا، وقَلَّ من إلى الهَرَبِ التَجا.

ثم رَجِع الوزير إلى البَلَد المذكورة، بالعساكر المنصورة، فجاءه مـن الخُنكار الإنعام، ونالَه منه غاية الإكرام، أن أرسَل إليه خِلْعَةً سَراسـوية[2]، مُبَطَّنة بالفَرْوَة السَّمورِيَّة[3]، ومعها سيف صقيـل، عليـه مـن أصنـاف الجواهر إكليل. وكان حُكمه في الرُّهى سَنَتَين أيضاً.

---

(1) الذئب.

(2) سراسر: لفظة فارسية، تعني: تمام، جميع، كل، فيكون معنى الاسم: خلعة تامة، أو كاملة.

(3) السمور: حيوان بري يشبه ابن عرس لونه احمر مائل إلى السواد يتخذ من جلـده فراء غالية الأثمان، وقد جرت رسوم الدولة العثمانية أن يهدي السلطان إلى ولاته، عند تعيينهم أول مرة، أو تجديد مدد حكمهم، فرى من هذا النوع.

فصـــــــل
في تَوَلِّيه آمِد[1]

وفي رأس السنة الرابعة عَشْرَة بعد المائة والألف[2]، ولِّـــى آمِـد، المُعَبَّر عنها بديار بَكْر، فَشَدَّ رَحْلَ المَسير، ولم يَلْبَث في الرُّهـــا بعـدُ إلاَّ الزَّمَن اليَسير[3]، فَدَخَلها في أحسنِ آن، وأبْرَكِ طالعٍ وأهنأ زمـــان، وافَقَـه السَّعدُ والإقبال، فتَرَأس على الرِّجال الإقْيال[4]، وجلَس لِرَفْعِ المَظالِمِ إليـه، وإعانة المظلوم على الظالِمِ لَدَيه. وساسَها احسن سِياسَة، وحَرَسَـــها أتَـمَّ حِراسةَ، وحَفَظ باطِنها، وحافَظَ ظاهِرها، وعَمَّر خَرابَـها، ورَمَّـم وأبـدى للرعيَّةِ عَدْلَه، وأمر على الظُّلْمِ على البَرِيَّة بالرُّحْلة.

---

[1] آمد، هي آميدا Amida الرومانية، مدينة في غربـي دجلـة الأعلـى، اشـتهرت بحصانتها وبحجارتها السود، حتى عرفت بآمد السوداء، وازدهرت ازدهاراً كبـيراً في العهود الإسلامية فعدت قاعدة إقليم ديار بكر، وقد حرف العثمانيون اسمها إلـى قره حميد، فقره تعني: الأسود، ثم شاع تسميتها باسم اقليمها فعرفت باسم ديار بكر مطلقاً، وأصبحت مركزاً لولاية باسمها. ليسترنج ص١٤٢. وهي ليست أورفه كما ورد في المطبوع.

[2] أولها ٢٨ أيار سنة ١٧٠٢م.

[3] في المتن: إلا زمناً يسير قد شطب على اللفظتين الأخيرتين وذكـر فـي الـهامش التصحيح الذي أوردناه في أعلاه.

[4] جمع قيل، وهو في الأصل لقب لملوك اليمن من حمير دون الملك الأعظـم، ثـم سمي به كل ملك نافذ القول والأمر. يريد قادة جيشه.

وأطاعوه الأكراد المِلِّيَّة[1]، وسائر أهل الفساد أصحاب الحَميَّة، حَميَّة الجاهلية، طَوْعاً وقَهراً، وانقياداً وقَسْراً، فَغَدا مَسموع الكلمة، مُهاباً بين الأُمَّة، فأنشدَ لذلك، وللإقبال فيما هنالك. شعراً <١٢ب> [من الرجز]:

إنْ عَلَيَّ الله أنْ تُبايعا   تُؤخَذ كُرْهاً أو تَجيء طائعا

ولم يَزَل في هذا الحال الحَسَن، وعلى هذا المِثال المُستَحْسَن، بين عَدلٍ وإنصاف، وحُكْمٍ فَصلٍ على أهلِ الخِلاف، تَجْني الرَّعيَّة بأيامه ثِمار الأمان، وتَرتَع بمقامِه في وِديان العَدْلِ والإحسان، وتَجُرُّ أذيال الثروة مَرَحاً، وتَفْتَخِر على غيرها سُروراً وفَرَحاً، ومُدَّة حُكْمِه سَنَتان أيضاً.

فصل

[توليه بغداد]

ثم إنه على رأس السنة السابعة عشر[ة] بعد المائة والألف[2]، جاء إليه المُقَرَّر بتَولية بغداد، بِرَسمِ حِفْظِها عن أهلِ البَغي والفَساد، إذ هي قَبلَ

---

[1] كذا في الأصل، والمشهور: الملية، بكسر أوله وتشديد اللام: قبيلة كردية كبيرة كانت تسكن مناطق ماردين وطور عابدين وقره جه داغ، فتفرض سيطرتها على الطرق المؤدية إلى ديار بكر وحلب والموصل. ينظر محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص٢٢٠-٢٢١ وأحمد عثمان أبو بكر: أكراد الملي وإبراهيم باشا، بغداد ١٩٧٣، ص٢٠-٢٦.

[2] أولها ٢٣ آذار ١٧٠٨م. وقد تولىَ حسن باشا بغداد في ١٣ صفر سنة ١١١٦ كما في مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، ص٣١٧.

هذا التاريخ بعشرين سنة خَراب خالِيَة، وأهلها عِظام رفات بالِيَــة، لكَــثْرة فَساد الأعراب في نَواحيها، وإطالَتِهم أيدي الخَراب في أراجيها. وقد عَجَـز أكثر العُمَّال عن كَسْرِ شَوْكَتِهم، وجَبُنَت الرِّجال الأبطال عن حَــلِّ عُــرى حَمِيَّتِهم، بل دائماً يُجَهِّزون عليهم العساكر، فيَرجع الكُــلُّ منــهم خاسِــراً، وعن أثوابِ الوقار حاسِراً، فيأكلون الزُّروع، ويُخَرِّبون الرُّبوع، ويَقْطَعـون الجَادَّة، ويَصِلُون الفَسادَ بالفَسادِ على العادة. وأما الرعية فــلا تَسْلَم مــن شَرِّهم، ولم تَأمَن من مَكْرِهم وغَدْرِهم، حتى يُؤاخُوا أكثَرهَم، ويُسَلِّموا إليهم عَجْزهم وبَجْرهم، فيَعْطُون الجِزْيَةَ عن يدٍ وهم صاغِرون، فيــأكُلون مِــن تَحتِ أيدِيهم مِمَّا يَسْمَحون <١٣أ> بإسْدائه إليــهم، فكأنَّــهم- لعنــهم الله- أرباب المال، وكأنَّ أصحابه خُدَّام في أشَرِّ حال.

ولَم تَزَل هذه عادَتَهم، وعليها طُرِقَت جادتُهم، إلى أن أمَّ هذا الوزيــر بغداد، وقَصَدَها بِرجالٍ شُجعان، وفُرسانٍ أطْواد، فَدَخَلها وهي إلى العَــدْلِ والأمان صادِيَة، ودَفَع عنها كل مَظْلَمَة طارِيَة، فتَصَــدَّر علــى دَسْــتِ[1] الإمارة، وجلَسَ على بِساط الوزارة.

ففي أثناء هذه السنة، قَدِم من المَوصِل الطَّوف الكثير المُعَــبَّر عنــه بالكَلَّك، ومَعَهُم خيْرٌ غَزِير، من مأكول ومَشرُوب ومَلبوس وغير ذلك مــن كل مَحبُوب. فبينما هو سائر في دِجلَة وَسَط الطريق، إذ خَرَجوا على أهلِــه آل شَهْوان وآل غُرَيْر[2] من فِرَق الأعراب العِراقِيَّة، وجُملَــةِ الأحــزاب

---

[1] فارسية معربة، تعني هنا: قاعدة، مجلس، مسند.

[2] هذه أول إشارة إلى وجود هاتين العشيرتين في العراق. وأورد الخبر نفسه مرتضى آل نظمي: كلشن خلفا ص٣١٨ وقد وصف المؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله العمــوي هذه الحادثة في كتابيه غاية المرام في تاريخ محاسن بغــداد دار الســلام ص١١٧،=

المُنافِقِيَّة، فَنَهَبوا أكثر الأموال، وقَتَلوا غالِب الرِّجال. وجاء الباقون إلى بغداد يُنادون بالوَيْلِ والثُبور، ويَبثُّون للوزير هاتيك الأمور.

وفي أثناء هذه السنة أيضاً، قَطَع أُولئك الأعراب طريق كَرْكُوك، ونَهَبوا قُراها، وقَتَلوا وصَلَبوا رُوح من تَصَدّى لِحِماها، فجاءت السُّعاة بهذه الأخبار، وبِكَثْرة الأراجيف في هاتيكَ الدّيار، فجَهَّزَ الوزير عسكر[1] يَضيق عنها البَيان، كما أخبَرَ من شاهَدَ ذلك بالعيان. وسار تَخْفِقُ على رأسه ألوِيَة النصر، مُتَردِّياً بأرْدِيَة الغَلَبَة والقَهْر، بِخَمِيسٍ عَرَمْرَم، وجَيْشٍ كَبَحرٍ مُفْعَم، وسار بِخيول سَوابِق، ولُتوت[2] سَواحِق، وسيوف بوارِق <١٣ب> مَواحِق، ولدْان سَمْهَرِيّة خَوارِق. فسار بالخُيول وخَفَقَت الأعلام والبُنود، وأمُّهم لَيثُ العَرِين، عديم المِثل والقَرِين، ولِتَساويهم في لُبُوس الحرب، واستِتار المَلِك بِمَوكِب القلب، حَقَّ للمتَأمِّل فيهم أن يُنشِدهم ويُناديهم. شعراً [من بحر الكامل]:

=وعمدة البيان في تصاريف للزمان، مخطوط، كما وصفها في كتابه الآثار الجلية، لكنه عدها فيه من حوادث سنة ١١١٥ (زبدة الآثار الجلية بتحقيقنا، النجف ١٩٧٣، ص٧٩)، ويلاحظ أنه سمى العشيرتين ألبو حمدان، إذ قال في الآثار الجلية" أظهر العصيان عرب بني حمدان، وجعلوا يقطعون الأكلاك المارة في دجلة إلى بغداد، فتجهز بالعساكر والي بغداد الوزير حسن باشا.. الخ" ومثله في كتبه الأخرى. وفي (روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار) لمؤلف موصلي غير معروف، الورقة ٤١.

[1] في الأصل: عساكراً.

[2] أقران.

ابني السيوف المشرفية والسمر ... ماح السّمهرية والعديد الأكثرِ
مَنْ فيكم المَلِك المُطاع كأنّه ... تحت السّوابغ تُبّع[1] في حِمْيَرِ

فجدَّ بهم بالمسير، وطوى المَراحِل بلا فتور ولا تقصير، فقَبْل أن يَصِل إليهم سَمِعوا بِمَسيره، وكَثْرة عدَدِه ونَفيره، فأرسلوا إليه لِيُفتّروه، ولِيَغروه، بلِين الجانب ويؤخّروه، مائتي فارِس من دُهاتِهم وأكابرهم وساداتِهم، لجأوا[2] بالهَدايا والتُحَف، وتَرَدّى كل منهم بالإذلال والنَحف، وقالوا: ما سَمِعتَه كان افتِراءً، ولم نكن نحنُ أعداءً، بل نحنُ نتكفّل بحِفظِ هذه الجادة، ونَسلِك فيها أحسن العادة. هَبْنا أسأنا، وما قِيل فينا سلّمنا، ولكن قد تُبْنا، فَنَسألكَ[3] الأمان بِحُرمة من شُقّ له الإيوان[4]. فَعَلِم اللبيب بِمَكرِهم، ولم تَخف عليه سيرة غدرهم، وما قَصدهم ألاّ تَفتِير نِيّتِه، وتَأخير عزيمته، حتى يَخرُجوا إلى السلامة، إذ ظَهَرت فيهم النَدامة، لِعلِمِهم أن ما تَحَصّنوا فيه لا يَقِيهم، ولا تُحرَس فيه نِساؤهم[5] وذَرارِيهم، فجَعَل عليهم عُيوناً وحُرّاساً، وقَطَع منهم الرُعب أنفاساً.

---

(1) الأصل: تبعاً.

(2) في الأصل: لجاؤا.

(3) في الأصل: فنسئلك.

(4) المقصود الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي تصدع إيوان كسرى إيذاناً بمولده.

(5) الأصل: نساءهم.

وأما أهلهم فقد تَحَصَّنوا بالخانُوقَة[1]، وبِئْس الحِصن إذ <٤١أ> كانت هي الخانُوقة، وهي وَهْدَة[2] على شاطئ دجلة أمامها الماء وسِكْر[3] عظيمٌ من السُّكور القديمة، بِحَيْث لا يُستطاع العُبور إليها من شِدَّة جَرَيانه، كما لا يُمكن المرور عليه، بل يُفْضي على المار بالغَرَق من آنِه. وغَرْبيها غِيلٌ[4] مُلْتَف، وشَجَر مُحتَف، وخَلْفُها وشرقيها جِبالٌ باذِخة، وكُهوفٌ شامِخة. وهذه تَقرب من الموصل بِثَلاثِ مَراحِل.

فلما جاء الوزير إلى هذا المكان، وشاهَدَ هذا الشأن، أرسل من خَلْفِ هذه الأسوار، ثَلاثة آلاف تَمنَعهم من الفِرار. ولما لم يُمكِن العُبور إليهم لحَيْلولة دِجلة، ولم يُمكن الوصول إليهم والرِّحلة، سِوى طريق حَرَسوها بالبَنادِق، وقَطَعوها بكل حُسامٍ فالِق، صَعَدَ[5] الوزير المذكور إلى مُرتَفَعٍ من الكهوف، فصاروا مَطْمَح نَظَرِه، ومِلْقاء بَصَرِه، فَعَلِم أنه من

---

[1] في المطبوع: الخافوقة.

[2] الوهدة هي المطمئن من الأرض، والمكان المنخفض كأنه حفرة، بينما وصفها العمري في غاية المرام ص١٧٧ بأنها "قلعة خربة"، وفي الآثار الجلية (زبدة ص٨٠) بأنها "جبل على شاطئ نهر دجلة بين الموصل وبغداد"، ومثله في (روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار) مخطوط، الورقة ٤١، وفي كلشن خلفا ص٣١٨ أنها قلاع حصينة. وسينوه المؤلف فيما يأتي بوجود أسوار لها، وما يزال هذا الموضع معروفاً باسمه هذا حتى اليوم ويقع في شمال قلعة الشرقاط الأثرية.

[3] السكر: سد الشق ومنفجر المياه، وقيل المسناة، وجمعه سكور.

[4] الغيل: الشجر الكثير الملتف، وقيل: مما ليس بشوك، وقيل: الغيل جماعة القصب والحلفاء، والأجمة.

[5] في الأصل: فصعد.

هناك بِأخذ الإنتقام، وبِكسِر شَـوكَة الأعـراب الطغـام، فرَكّـب عليـهم الأطواب[1] الرّعْدية، وأدخلَ عليهم العَذاب والبَليَّة، فـتَراكَموا وتَدافَعـوا، وكادوا أن يتّهازَموا ولا يُدافِعوا.

ولم يَزَل بَنادِق الأطواب[2] تَنُوشَهم، وتَصليهم وتَحُوشَهم[3]، فَصعَدوا من طريق من الجَبَل، لم تَنَلْهُم من تلك القَلَل[4]، يُريدون الغيل ليَتَحَصّنـوا فيه كما قِيل. فلما صاروا أسفل، أتاهم الصرْصَرَ[5] الأول. وقد نَقَل بعـض الأثبات مِمّن شاهَدَ هذه الوَقعات أن عدد العدو كـان حينئـذٍ ثلاثـة آلاف فارس، وسبعة آلاف راجِل بِنار البَنادِق حارِس، <٤١ب> وإن الحقّ الـذي نَعرِفُه أن الواحد منهم يُقابِل خمسين فارساً لما مارَسـوه مـن الشـجاعة، وتعلّموه من غَريبِ هذه الصناعة، انتهى.

ثم إنهم لما شاهَدوا هذه الأطواب، وأبصَروا منها كل أمرٍ عُجـاب، وإن أكثرهم قضى نَحْبه، وفارَقَ أهله وصَحبه، قالوا: إذا نَخرُج من هـذا الغيل، ونَقتَتِل قتال من لا يريـد الإنتِقـال والرَّحيـل. فَوَقَفـوا صُفوفـاً،

---

[1] جمع طوب، وهو المدفع. ينظر دوزي: تكملة ج٧ ص٨٦.

[2] مما يلفت النظر استخدام المؤلف كلمة بندق للدلالة على اطلاقـات المدافـع مـن الكرات، على اختلاف موادها، وهو استخدام جديد، لأن كرات البندق المسـتخدمة عادة هي ما شابه حجم البندق، الثمر المعروف، وقد تقدم التعريف بها.

[3] حشأه بسهم: رماه به فأصاب جوفه.

[4] القلل، جمع قلة، وهو هنا أعلى الجبل.

[5] الريح الصرصر هنا: شديدة الصوت، يريد الإطلاقة الأولى للمدفعية.

واصطَفُّوا وقُوفاً، وركَبـــوا العِــراب[1] المَسُــومة[2]، وامتطـــوا الجِيـــاد المُلأمَةَ[3]. وأرادوا قِتال من يُدافِع عن نَفْسِه وعِرضِه، وأثاثه في أرضـــه، وإنهم تحالَفُوا وتَقاسَموا[4] أن لا يَتَخالَفوا ولا يتَهازَموا. فثَبَتوا علـــى هـذه النيَّة. واحمَرَّ في عُيونهم جَمرُ الحَميَّة. شعراً [من الطويل]:

فَراعِنَـــةَ هَمــتْ بِـــهِ فَتَلَقَّفَــتْ   عَصا عَزْمِه ما يأفكُون من المَكْـرِ

لكن إقبال الوزير غالِب، وتَدبيره صـــائب، ونَجـم طالعـه ثـــاقِب، والدَّهر على خِدمته مُواظِب، فلم يَثْبت الأعداء إلاّ زهاء[5] ثلاث ســـاعات، وتأهَّبوا للفِرار في الأقطار والفَلَوات، وطريق فِرارهم عليه الرَّصَد- كمـــا أسلفناه- وفيه العُدَّة والعَدَد- كما حرَّرناه- فصار أكثرهم طُعْمَةً للســيوف، وغالِبهم نُهْبَةً للحُتوف. وسَلَبَت الدِّجلة أكثر نسائهم وأطفالـــهم، وغَرقَــت غالِب خُيولهم وجِمالهم، ومُسِك على شَيْخِهم قَعْدان[6] أسيراً، وأذاقوه هَوانـاً عسيراً، وطَلَب الباقون الأمان، حين أبصَروا فِعال الفُرسان.

ثم أنَّ الوزير- رحمه الله- مع شجاعته وجَوْدَةِ ساعِدِه <١٥أ> فـــي صناعته، عَفُوٌ غَفُور لدى اشتباك الأمور، فَحَقَن دماءهم، وأرجـــع إليـــهم

---

[1] الخيل العراب: العربية السالمة من الهجنة.

[2] الخيل المرسلة: المطلقة.

[3] الملأم: المدرع.

[4] تبادلوا القسم.

[5] في الأصل: إلاّ زهى، وفي المطبوع: الآن هي.

[6] كذا هي مجودة الخط والشكل، وقعدان هو اسم علم لشيخهم، وورد في المطبوع: اللفظة غير واضحة (وهي فقدان).

نساءهم، إلاّ أن مالَهم ذَهَب شَذَر مَذَر، وتَلَفَ في أيدي العسكر، ورضُوا بصيانةِ عِرْضِهم، وحِماية نسائهم، فهو جُلُّ غَرَضِهم، ولم يتَعرَّض أحدٌ من عسكَرِه لواحدةٍ من نسائهم، ولم يتَجرَّأ أحدٌ لأخذِ أطفالهم وإمائهم، بل جَمَعَهم الغَيُور الجَسور، ومَدَّ عليهم الرُّواق كالسور، ثم بعد إخماد نار الحرب، وزَوال العَناء والكَرْب، أطلَقَهم وأطلَقَ من معهم من الرِّجال، والفُرسان الأبطال، لِما حَواه من الخِصال المَرْضيَّة، والشِّيَم العربية، والأخلاقِ الحَسَنة، والأوصاف المُستَحْسَنة، وقد صَدَقَ فيه قَول القائل، شعراً [من الكامل]:

سَمَحٌ أياديه لنا كَمْ أوْضَحَت | من غُرَّةٍ لِجبينِ خَطْبٍ أدْهَما
حَسَنٌ أُزِيدَ به الزمان مَلاحةً | فَحَلَت مَلاحتُه وكانت عَلْقَما
تَلْقاه في الأيام أمّا ضارِباً | أو طاعِناً[1] أو مُعطِياً أو مُطْعِماً
طَوْراً تَراه لُجَّةً مَورودةً | عَذُبَت وآونةً شِهاباً مُضرِماً
لبس العُلى بَعْدَ القِماطِ وقبلما | خَلَعَ التمائم بالسَّماحِ[2] تَخَتَّما

فأمَّر عليهم شيخاً جديدا، وصار كُلُّهم أرِقّاء عبيداً، لِما أنعَمَ عليهم من حِفْظِ حَرَمِهم، وعَدَم انتهاك حُرَمِهم. ومن هذا التاريخ إلى يوم وفاته- رحمه الله- هم أرِقّاء نِعَمِه، وعبيد كَرَمِه، وخَدَم شِيَمه <٥١ب> مُلازِمين

---

[1] في المتن: أو طائعاً وقد صحح في الهامش على الوجه الذي أوردناه.

[2] في المطبوع أنها وردت في الأصل السماج، وصححها في المتن بالسماح، مع أنها هكذا مجودة الخط في الأصل.

بابه، خادمين سُدَّتَه[1] واعتابه، لم يَظْهَر منهم فَساد، ولم يَصدر أنكاد على قُصَّاد ووُرَّاد.

ولما سَمِع سائر الأعراب، فيما فَعَله من الجميل لِهؤلاء الأحزاب، لانَت عَرِيكة أكثرهم، وجاؤا إلى الطّاعة بِعَجرِهم وبَجرِهم[2]، إذ ما[3] تقدَّم هذا الوزير من الوزراء الأكاسير، والأُمراء الأكابر، كانوا إذا ظَفَروا بهم، وقَدروا على هَتْكِ حَرَمَهم يأسرُون النّساء والشُّبَّان، والإماء والصّبيان، ويَبيعونهم في الأسواق، ويَسُومُونهم الخَسْفَ والمحاق. لكن هذا الوزير الكبير لم يَرَ رأيهم، ولم يَجْرِ جَرْيَهم، فكان رأيه هو الصائب، وفِكْره في العَواقِب هو الثاقِب، إذ ما رآه[4] أولئك الأكابِر، هو السَبَب للفِتَن والمَلجئ للثائر على سَيْرِه في هذا المُنَن. ولم تَزَل- رحمه الله- هذه سيرته، إلى أن تَوفَّاه الله، ورَحَمه واسعة في الدنيا والآخرة.

فصل

في مراسلته الأعراب

بعد قُفُوله عن أولئك الأحزاب، يأمرهم بالطاعة، ويَنْهَاهم عن شَقِّ عَصا الجماعة، وصورة الكِتاب:

---

[1] السدة: الظلة تكون أمام باب الدار أو الصفة أو السقيفة.

[2] العجر والبجر: الأمر العظيم.

[3] لعله (من).

[4] في المطبوع: إذا

بَعد حَمدٍ من خَلَقَ العِباد في عالَم الكَونِ والفَساد، والصلاة والسلام، على خَيْرِ الأنام، محمد المُرْسَل لِقَمعِ أهل البَغي والعِناد، والتَّمادي في الفَساد، وعلى آله وأصحابه الذين شَيَّدوا الأحكام، وسَدَّدوا أُمور الأنام.

فهذا كِتابي وارِدٌ عليكم معاشِر أهلِ البادية، لِكُلّ عشيرة مُسلِمة وفِئة باغية طاغية، قد أُمِرتُم بِطاعة <١٦أ> السلطان منذ أزمان، ونُهيتُم عن الفساد والطُّغيان، فَفَرَّطتُم في الفساد، ونَصَرتُم جيش أهل البَغي والإفساد، واشتَكَت الناس من ضُرّكم، حيثُ أُضرِمت نار بَغيكم وشَرّكم، فكأنما أُمِرتم بالعَكس حتى نُهبتم الأموال، وأبحتم قَتْلَ النّفس، ولم تَرعُوا شعائر الإسلام، حيث هَتَكتُم حُرمات الحُكّام، فقد صَحَّ عندنا خبر بَغْيكم، وثَبَت لدينا نبأ فَسادِكم في سَعيكم، فالبِدار[1] البِدار إلى الدخول في الطاعة، والحَذار الحَذار من عَدَمِ الإنتظام في سِلْكِ الجماعة، وإن كان عن دَعْوتِنا تَماديتُم، ولِمَن في سِلكِنا أضرَرتُم وآذيتم: [من البسيط]

فالسيف أصدَقُ أنباءً من الكُتُبِ   في حَدّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدّ واللَّعِبِ[2]

وإن انقَدتم لَدعوتنا، وأطَعتم وأجبتم لكلمتنا، فابشِروا بالسلامة، وبخَلْعِ الرّضى والكرامة، وإلاّ فمَنْ أنذَر حَذَّر، ومَنْ حَذَّرَ فما قَصَّر، ولا تَغرَّنكم كَثْرَتكم، فَسَيفُنا صقيل، ولا يأمنكم شُطوطكم ونَبْوَتكم[3] فَرِمحنا

---

[1] أي أسرعوا.

[2] البيت لأبي تمام.

[3] الشطوط، جمع شط: جانب النهر والوادي، والنبوة: المرتفع من الأرض.

طويل، وقد صَحّ في الكتاب وتَوَضّح إن من كان ظالماً فما أفلح، وقد أفتى العُلماء بهَدْرِ دمائكم، وسبي نسائكم وإمائكم.

وإن عَزَمتُم على القِتال، فاعلَمُوا أن قد دنَت مِنكم الآجال، فلا تَعتَقِدوا أن خُيولكم سُبق، فإنّ بالحقّ وإعانة الله نُجَبنا أسبق، فإن هَرَبتم إلى الأقطار القاصية، وذَهَبتُم إلى الأمصار النائيَة[١] فالوصول <١٦ب> إليكم غير بعيد، وحَصْدُ رؤوسيكم ليس علينا بأمرٍ جَديد، فإذا ظَهَر أضرار جَهْلكم، وبدا إصراركم على فِعْلِكم، فاعلموا أن قد ابتَدَرَتكم الجنود المجندة والعُدَد[٢] المُعدَّة، وسيف سلطاننا صقيل، وسُمهري خاقاننا طويل، ولم يَرْعَنا كثرة عَدَدَكم، ولم نَهَبْ مَلاحة عُدَدِكُم، فإنْصِفوا وارحَموا أنفُسكم ﴿ولا تلقوا بأيديكُم إلى التَّهْلُكَة﴾[٣] ولا تخوضوا كل مَخاضَة مُهلِكَة، وبادِروا إلى الطاعة، وإلاّ فقد قامت عليكم السَّاعة، ﴿وما كُنا مُعَذبين حتى نَبعَثَ رَسولا﴾[٤] ﴿وإذا أرَدْنا أنْ نُهلِكَ قَريَةً أمَرْنا مُترَفيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عليها القَولُ فدَمَّرْناها تدميراً﴾[٥].

فلما بلَغَهم الرسول، وتَلَوْا ما هو مَرسُولٌ، منهم من تذَكّر فِعله من آل غُرَيْر وشَهْوان، فانقادَ إلى الطاعة والزَّجر عن العِصْيان، ومنهم من

---

[١] في الهامش الشامعة.

[٢] في الأصل والعديد المعددة.

[٣] البقرة، من الآية ١٩٥.

[٤] الإسراء، الآية ١٥.

[٥] الإسراء، الآية ١٦.

ظلَّ على فَساده، ودام على بَغْيِه وعِناده، وكان الكتّاب عنده كَصرير بــاب، أو طَنينَ نباب، فعَنْ قريبٍ قَضَى نَحْبَه، وفارَقَ من أحبه.

فصل

في بيان زياراته

مشاهد الصُلَحاء ومراقد الشهداء الأولياء

فبعد ذلك، تَوَجَّه إلى زيارة أفضل أهل فارس علـــى الإطــلاق[1]، وأكملها الصادق المِصْداق، مَنْ ألْحقَه النبي- صلّى الله عليه وسلم- بآلِـــه، وشَرَّفه بمقاله، فنالَ السعادة وتَهَنَّى، حيث قال في حقّه (سَلمان مِنّا) ،فبَقــي هناك أربعة أيام <١٧أ> مُلتَجِئاً إليه بِحَطِّ الأوزار والآثــام، وأنعَــمَ علـــى خُدّامه بأصناف التُحَف، ومَنَحَهم الطُرَف والظُرَف.

وبَقي في مُدّتِه هذه على اصطِيادِ أطيار، وحُصولِ أوطار، واقتِناص الظِّبا، واستِنشاقِ أرواح الصَّبا، حيثُ تَهُبُّ علـــى الخُزامـــى[2] والرَنْـــدِ، وتَجْري حيث تَسري على أصنافِ الأزهار وأنواع الوَرْد، إذ من المُقَـــرَّر المَشهور، والمُحرَّر المذكور، انَّ وِدْيانَ هاتِيك الأرض، مَعْمُورة بـــالرَّبيع الغَض، فكأنَّ الربيع هناك دار إقامَتِه، ومكان سُكْناه، ومَدار استِقامته، لمـــا حوَت من رِحابِ طَيِّبة الهواء، شَهِيَّة الأرجاء، بِنَمـــير المـــاء، جَداولُـــها

---

[1] يريد الصحابي الجليل سلمان الفارسي، المتوفى سنة ٣٤هـ، والمدفون في المدائن، إلى الجنوب من بغداد بنحو ٣٥كم.

[2] عشبة طويلة العيدان، صغيرة للورق، حمراء الزهرة، طيبة الريح.

جارِيَة، وأنهارُها سائِرة سارِيَة، فكَساها الربيع أثواباً من الوَشْـــي وجِلْبابـاً من الكَلأ الأخضر، فهي كما قالَ ابن لَنْكَك البَصري[1]. [من الوافر]:

وروْضٍ عَبْقَريّ الوَشْـــي غَـضٍّ   يُشاكِلُ حينَ زُخـــرِفَ بالشَّـقيق
سماءَ زَبَرجَدٍ خضـــراء فيهـــا   نُجومٌ طالِعـاتٌ مِــن عَقيـــق

وفَتّحت فيها الصَّبا أزرار وُرُودِها بِجَرَيانها، وأغنَـتْ بـها الضبـا لانشراحها بِصُدُورها ووُرودها لِعُذوبةِ مكانها، فمَن أبصرَ تلـك الرِّيـاض قال: هذه هي الجَنّة! ومَن نَظَر إلى هاتِيكَ الغِياض قال: إنها عن الأكـدار والأنكادِ هي الجُنّة، فانشرَحَ صدر الوزير برؤيتها، وَوَدَّ أن يُقيم بِرَحْبَتِـها، لكن الإشتغال <٧١ب> بأعباء الوِزارة أزْعَجَه، والإمتِثال لأمـرِ الخِلافـة نَفى قَرارَه فأقلَعه، فَقَفَل راجِعاً إلى الزَّوراء، بعـد اغتِنامـه طيـب ذلـك الهواء.

وفي شوّال هذه السنة، رَفَع اللِّواء بالمَسير إلى كَرْبَلاء، لزيارة سَـيِّد الشُهداء، وإمام الصُلَحاء، قُرّة عَيْنِ أهل السُنّة، وسَيِّد شباب أهـل الجنّـة، أبي عبد الله الحُسين، رضي الله عنه. وإلـــى زيـارة اللَّيـثِ الجَسُـور،

[1] البيتان في يتيمة الدهر للثعالبي ج٢ ص٣٥٥، طبعة دار الفكر ببيروت، وابن لنكك هو محمد بن محمد بن جعفر البصري النحوي الشاعر الأديـب، المتوفـى سـنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م، هجا المتنبي وأكثر شعره في شـكوى الزمـان، وتوفـي سـنة ٣٦٠هـ. الثعالبي، يتيمة الدهر، الموضع أعلاه، ويـاقوت، معجـم الأدبـاء ج٧ ص٧٧-٨١.

والشُّجاع الغَيُور، قاطِع الأنفاس، من كل ضالٍّ كالخَنَّـــاس، أبـــي الفضـــل العبّاس.

فدَخَل كَرْبَلاء، وزارَ أصحاب العَباء، وأُطلِقَت المَبـــاخِر، وظَـــهرَت المَفاخِر، فأجزَل على خُدّامِها، وأجْمَل في فُقَرائها، ودعا بحُصول المُـــراد، وزَوال الأنكاد، ودُعِيَ له بما يَرُوم، وأُنْجِح سَعْيَه بـــالقُدوم، وبقـــي يومـــاً واحداً لِضيق القَصَبة بأحزابِه وأعوانِه وأصحابه.

ثم ارتَحَل قاصِداً أرضَ الغَرِيِ والنَّجَف، رائماً زيارة الوَلِي الـــهُمام، المُعتَرِف سيف الله القاطِع، وحُسام دين الله الرَّادِع النَّافِع، ابن عَمِّ الرَّسُـــول مِن ربِّ العالمين، زَوْج ابنَتِه البَتُول، صاحِب الشرَف المُبيـــن ذا المـــآثِر، والمَناقِب والمَفاخِر، الشِّهاب الثاقِب، سيدنا أمير المؤمنين علي بـــن أبـــي طالب، فزَارَ واستَجار، بِرَبِّ الدار، من كَيْد الفُجّار، ورَفَع يَدَيْـــهِ بالإنابـــة، وفُتِحَت لديه أبواب الإجابة، مع إخلاصِ نِيَّة، وصفاء سريرة وطَيَّة. وبقـــي <٨١أ> ثلاث ساعات واقِداً مجامِر العُودِ والعَنْبَر، ومَباخِر النَدِّ[١] والمِسْـكِ الأذْفَر[٢]، حتى قُرِئَت سورة الفَتْح وياسين، وأهدى شَرَفهما لصاحِبِ المَجـد المَكين.

ثم بعدَه، خَرَج مِن الحَضْرة، مَشمُولاً بأنواع المَسَرَّة. وكَسا خُدّامـــه الحُلَل البَهِيَّة، ووصَلَهم بالعَطِيَّة الحاتَمِيَّة، وجَبَر قُلوب الفُقَراء، وسار صَبْـحَ اليوم الثاني مُشَيَّعاً بالدُعاء والثناء.

---

[١] ضرب من الطيب يدخن به.

[٢] الأذفر: الطيب الرائحة.

وأقام يوماً بِنَهرِ الشاه[1]، مُتفرّجاً على رِياضِه وتَدَفُّق المِياه، بعد أن مَرَّ على مسجد الكوفة، فصلّى فيه رَكْعتَين، وزارَ سيدنا ذا الكِفْل- على نبينا وعليه الصلاة والسلام-.

ثم أنّه قَفَل لابِساً حُلّةَ الثّناء، ودَخَل حِلّةَ الفَيْحاء، وجلّس فيها يوماً للإستِراحة. ثم رَفَع في اليوم الثاني لِواء المجد والسَّماحة، وقَصَد دار السلام، وسارَ بِسَلام، فلما وَصَل إلى المَرْحَلة الوسطى المُعَبَّر عنها[2] بِبِئر[3] النِّصف[4]، رآها خالية، وأبْصَرَ جُدرانَها هاوِيَة خاوِيَة، قد انهَزَم

---

[1] هو النهر الذي حفره الشاه صفي سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م، وكان يأخذ مياهه من حوالي الحلة إلى مسجد الكوفة ومنه إلى النجف حيث يدور في شوارعها حتى ينتهي إلى المشهد العلوي، وقد ارتفع مستوى الطمى في مجرى هذا النهر فتوقف عن اداء مهمته منذ زمن بعيد. ينظر: جعفر آل محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، النجف ١٩٥٨، ج١ ص١٩٤.

[2] في المطبوع: منها.

[3] في المطبوع: بئر.

[4] بئر النصف: بئر مشهورة كان عندها خان ينزله المسافرون. أشار إليها الرحالة بيدرو تكسيرا في أثناء مروره بهذا الطريق سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٤م (مشاهدات تكسيرا ترجمة جعفر خياط، مجلة الأقلام ج٤ ص ١٩٦٤) ونوه بها الشاعر حسين بن علي العشاري سنة ١١٨٥هـ/ (ديوان العشاري، بتحقيقنا ووليد الأعظمي، ص٢٤٢) ويذكر بكنكهام، وقد مر بالخان الذي عندها سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م، أن الأتراك يسمون هذا الخان بخان أورطه (أي الخان المغطى) وتسميه العرب خان يونس، لتصورهم أن النبي يونس (ع) كان يستقي من البئر التي عند الخان أثناء سفرلته من نينوى وإليها (رحلتي إلى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١ ص٢٣٧). كما ذكرها المنشي البغدادي في رحلته (ترجمة عباس العزاوي ص٩٧) وقال أنها تبعد عن بغداد بستة فراسخ، وكانت هذه البئر على ما يصفها الآثاري بج سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م ذات غور عميق ينزل إلى مائها على درجات وتبدو جد قديمة=

حرّاسُها من الأعراب، وذَهَبَت ناسُها وسوّاسُها واعتَراها الخراب، فـأمَرَ[1] بتَجديد بِناها، وإرجاع حُرّاسِها إلى فِناها.

ثم ارتَحَل عنها، ونَزَل الدّورة[2] بالجَماعة، وهي مَرْحَلة بينها وبيـن بغداد سَيْر ساعة، فخَرَج لاستِقباله النّحارِير، من العُلماء والجماهير، مـن الأُمراء والفُضلاء، فدَخَلها بِسَكينة، ووَقارٍ وزِينة. <١٨ب>

فصل

في بيان غَزْوَة بني لام

وفي هذه السنة، غَزا بني لام[3]، وهؤلاء قومٌ من الأعراب، شَرقي دِجلـة، ذَوُو صَولَة، وأصحاب حَمِيّة وحَمَلَة، عُصاة عُتاة، وبُغـاة طُغـاة، دائمـاً

=وشكلها يوحي أنها من آثار القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد (٤ و٥ للـهجرة). (واليس بج: رحلات إلى العراق، ترجمة فؤاد جميل ج١ ص١٢١). قلنا: وتقع هـذه البئر في موقع مخفر الشرطة الحالي الذي لم يزل يسمى بهذا الاسم نفسه بين بغـداد والحلة.

[1] سقطت (فأمر) من المطبوع.

[2] ربما كانت هذه أول مرة يرد فيها اسم (الدورة)، تلك المنطقة التي يحيطها دجلة مـن جهاتها الثلاث، في جنوبي بغداد، وتعد اليوم واحدة من ضواحيها الوسيعة.

[3] بنو لام قبيلة طائية المحتد، يمنية الأصل، نزحت من مواطنها حوالي المدينة المنـورة وفي أنحاء نجد إلى أطراف العراق الجنوبية في نهايات القرن التاسع للـهجرة (١٥م) حيث دخلوا في جملة من التحالفات القبلية، ثم ما لبثوا أن أعلنوا استقلالهم عنهم، وفي مطلع القرن الثاني عشر (١٨م) اتخذوا منطقة الكوت (حيث بنيت مدينة الكوت فيمـا بعد) قاعدة لحكمهم القبلي، وامتد نفوذهم من جنوب دجلة الشرقي اعتباراً من مصـب نهر ديالى إلى منتهى حدود محافظة العمارة من هذا الجانب. ينظر كتابنـا: الأسـر الحاكمة، بغداد ١٩٩١، ص٤٣٥-٤٣٨.

يَنْهَبون قوافِل العَجَميَّة، ويأخُذون الرَّواحِل الرُّوميــــة[1]، حتـــى أنَّ قُـــرى شَرقي بغداد لم تَسلِم من شَرِّهم، ولم تأمَن مَدى الزَّمان من ضُرِّهـــم، بـــل دائماً يَشِنُّون الإغارة، مِن المَنْدِلي[2] إلى جَصّـــان[3]، ويُعــامِلون الرَّعيـــة بالخُسران والهَوان، ويَذْهَبون إلى نواحي الجَوازِر[4] والبَصْــــرة، وكذلــك الحُوَيْزة[5] فهي منهم في ضيقٍ ووقت عُسرة، لم يَخلُّوا من الفِتَن ســــاعة،

---

[1] يريد بالرومية: التركية.

[2] هي بندنيجين كما عرفتها البلدانيات العربية في العصور الإسلامية، وقد تحرف اسـمها إلى بنذليجين، ومندليجين، فمندلي. عدت في التنظيمات العثمانية الأولى في العـــراق ناحية تابعة إلى (لواء قزانية) أحد الألوية الحدودية لولاية بغداد. وهي بلدة قديمة تبعـد عن بعقوبة، مركز محافظة ديالى، بنحو ٩٣كم شرقاً، وتعد اليوم مركز قضاء باسـمها في محافظة ديالى. ينظر: ياقوت: معجم البلدان ج١ ص٤٩٩ وليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص٨٨.

[3] جصان بلدة تألف منها، ومن بلدة بدرة (بادرايا العباسية) في القرن الثالث عشر للهجرة (١٩م) لواء بدرة وجصان، ثم ألغي هذا اللواء في عهد مدحت باشا، واستحدثت ناحيـة بدرة سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م لتكون احدى نواحي قضاء كوت الإمارة، وربطت بـــها بلدة جصان.

[4] في المطبوع: الجوائر، والجوازر، وهي البطائح كمـــا عرفتـــها المصــــادر البلدانيـــة الإسلامية، وعرفت في مصادر القرن التاسع للهجرة (١٥م) بالجزائر، ولبثت تعـــرف باسمها هذا حتى العصر العثماني، ثم سميت بالجبايش، جمع: جبشة، وهي الجزيـــرة، وهي أرض تحيط بها الأنهار للترع من كل الجهات، ونهرها الرئيس الفـــرات، وقـــد سكنتها القبائل العربية القوية، وشكلت خطراً يهدد طرق المواصـــــلات بيـــن بغـــداد والبصرة.

[5] الحويزة مدينة في بلاد الأحواز، في ايران اليوم، قريبة من الحدود الايرانية العراقيـــة، وقد عدت في القرن التاسع للهجرة (١٥م) مركز الإمارة المشعشعية.

ولم يَزالوا في شَقِّ عَصا الجَماعة، بل مِن وقت الفَتْح[1] إلى هذا الوقت لم يتّبِعوا أحداً من العُمّال، ولم يَطيعوا الكُماة الرِّجال. وفي بعض الأوقات يُوافِقُون المُنْتَفِق[2]، ويُسالِمونَهم ويؤاخُونهم، ولا يُحارِبونهم، فتزداد أشرارهم، ويَكثُر رَماد الفِتَن وتَعلو نارُهم، لِكَثْرة عَدَد المُنْتَفِق وعُدَدِهم، ومُناصرتِهم ومُعاضَدَتَهم في مَدَدهم.

فسار الوزير المذكور، بالجند المنصور، وتَبِع آثارهم، واستَتْبَع أخبارهم[3]، وطَفِقَ يؤم الجحافِل، ويقصد الأعداء بكل بَطَلٍ مُقاتل، فلما بَلَغ دِيارهم، لم يجد إلاّ آثارهم، ولم يَرَ غير أثَرٍ بعدَ عَيْن، قد حَدا بهم حادي البَيْن، إذ لما سَمِع أولئك الحِزْب المحيل[4] بِقُدوم هذا الليث تأهَّبوا للرحيل، وساروا هاربين في البَيْداء، قائلين سنأوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمنا من الماء، لعِلْمِهم أنه لا طاقةَ لهم على مُقاوَمَتِه، ولا قُدرة لهم على مُحارَبَتِه <١٩أ>

---

[1] لا نعلم ما إذا اراد الفتح الإسلامي، أو الفتح العثماني للعراق.

[2] بنو المنتفق قبيلة عدنانية قديمة كان لها شأن سياسي في منطقة البصرة والكوفة منذ القرن الرابع للهجرة (١٠م) وحتى القرن التاسع للهجرة (١٥م)، ثم أطلق اسمها على اتحاد قبلي كان يتألف من عدة قبائل عربية، سيطر على منطقة الفرات الأوسط وبادية البصرة منذ القرن العاشر للهجرة (١٦م) وحتى القرن الثالث عشر (١٩م). تزعمته أسرة شبيب التي عرفت في القرن الثاني عشر للهجرة بآل سعدون، بينما كان لكل قبيلة في الاتحاد زعامتها الوراثية الذاتية. يعقوب سركيس: مباحث عراقية ج١ ص٧٢-٩٠ وكتابنا الأسر الحاكمة٤٢٠-٤٢٨، وحميد حمد السعدون: إمارة المنتفق، عمان ١٩٩٩.

[3] عبارة (وتبع آثارهم وتتبع أخبارهم) مضافة في الهامش.

[4] المتغير.

ومُصادَمَتِه، لِما حوى من القُوَّة ولُطف التدبـــير، والإقـــدام علـــى الأمـــر الخطير، والهَيْبَة التي ملأت أكباد أعاديه رُعباً، وأحلَّت في فـــؤاد مُناويـــه ومُجاريه[1] حُزناً وكَرْباً، مع صُحبتِه الأطواد الطَّاوية، والفُرسان الآســـاد العادية. شعراً [من البسيط]:

بُشراكَ، بُشراكَ إنَّ الرُّعْبَ مُهلِكُهُم   على الدَّوامِ ولَوْ فَرُّوا إلـــى عَـــدَنِ

فذَهَبوا إلى جبل شامِخ، وطَوْدٍ باذِخ راسِخ، لم يكـــن لـــه مَنْفَـــذ إلاَّ طريق واحدة، ولم يُمْكن الصعود إليه إلاَّ من تلك العساكر الواردة، وقالوا: إذا قَرُبَ مجيء هذا الأسَد، جَعَلنا على فَمِّ هذا الطريق الرُّصد، وحَرَســـناه بالتُّفَك[2] والنِّبال[3]، وعبَّيْناه بالرُّماةَ الأبطال.
ولما سمع الوزير بِمَكرهم، وتَحَصُّنهم في جُحْرِهم، عَقَّب الرِّجالـــه وراءه، وشَنَّ الإغارة بالفُرسان وعقَد لِواءه، ودَهَمَهم على غَفْلَة، وفاجـــأهم علـــى وَهْلَه، فلم يشعروا إلاَّ والعسكر دخل الطريق، فنادى بَيْنَهم مُنادي التفريـــق، ورَمَوا بالنِّيازِك والصواعِق، وحُرِموا النجاةَ عن وَقْعِ اللَّتوت[4] والبَـــوارِق، ولم يَلبَثوا في القِتال إلاّ ريثما نَفَس الإعياء، أو تَنَفُّس الصُعَـــداء. واغتَنَـــم العسكر جُلَّ أموالـــهم، وذَهَـــب فـــي هـــذا الازدحـــام غـــالِبُ نِســـائهم

---

[1] في المطبوع: محاربه.

[2] التفك: لفظة تركية بمعنى البندقية، وقد تلفظ بزيادة النون بعد الفاء، فتكون تفنـــك، والواحدة تفكة وتفنكة.

[3] في المطبوع: التفك النبال، بإسقاطَ واو العطف.

[4] اللتوت، جمع اللت: وهي الرمية.

وأطفالهم، وأُخِذَ طريفهم وتليدهم، ونُبِذَ في العَراء كَهْلُهم ووليدهم، وهَــرَب من كان بَقِيَة السيوف إلى أرض العجم، والتَجَؤا إليها مما حلَّ بهم وهَجَــم، فبوصولِهِم إلى تلك الديار، وحُصولِهم فيها على استِقْرار، هَجَمت عليــــهم جموع الأعاجم، <١٩ب> ونَهَبَت بَقِيَّة السَّالِم، وقَتَلــوا غــالب رجالــهم، واستأصلوا جُلَّ أطفالهم، لِما كلَّموا أفئدتَهم بِنَهْبِ الأمتعة، وأخذوا مائدتـــهم برسم المَنَعَة، وغَصَبوا أموال قوافِلِهم، وقتلوا رِجال رَواحِلِـــهم، فجَــوَّزوا الصاع بالصاع، والرِّجال بالرجال، والمَتاع بالمتـــاع، فــأَمِنَت الطُرُقــات الشرقية من جميع الجِّهات عن كلِّ بَلِّية، ولم يبقَ فيها خَطَـــر، ولــم يَنَــل التُجار في مَسيرهم الضَّرَر، ورَجَع الوالي قَرير العَيْن، مَحبــوراً بِغَنيمــة اللُّجَيْن، وصافي العَيْن[١].

فصل

[في العثور على ماسة ثمينة][٢]

وفي السنة السابعة عشرة بعد المائة والألــف[٣]، رأى فــي الحِلَّــة المِزْيَدية رجلٌ من الجَسّارين[٤]، شيئاً ذا سَناءٍ مُبين، فابتاعه لِبَعضِ النــاس، بِثَمَنٍ بَخْس، لِعِلمه أنه من الزُّجاج النَّحْس. ثم أن ذلك الرجل عَرَضه علــى

---

[١] اللجين: الفضة، والعين: الذهب.

[٢] أورد هذا الخبر مرتضى آل نظمي: كلشن خلفا ص٣٢٠.

[٣] اولها ٢٥ نيسان ١٧٠٥م

[٤] الجسار: من يعنى بالجسر ويشرف على شؤونه، مــن شــد حبــال زواريقــه، أو إرخائها، وصيانتها، وما إلى ذلك.

بعض اليهود، ليَعلَم حاله من أي العقود، فلما أبصرَه اليهودي أخذه بزيـادة على ثمَنه، وغَشّه وعامله بغبنِه.

ثم لما كان كل سرٍّ جاوزَ الإثنين شاع، وكل ما أُحِسَّ بـالعَين ذاع، وملأ الأسماع، فانتشر هذا الخبَر في الحِلّة، حتى إنَّ السَّمعَ أمَلّه، فسمِع بـه ضابِط القَصَبَة، فأخَذَه وقلّبه، وعرَضه على أهل العِرفان، فقالوا: إن هـذا العِقد الماس من غالي الأثمان، وإنه لم يوجد إلاّ في خزائن الملـوك، وإن ثمَنه من الدراهم اللُّكُوك[1]. فعَرَض بواقِعة الحال إلى الوزير المُشار إليـه، وأرسله صُحبةَ العَرْض هديّةً صادرةً <٢٠أ> عليه. فلما نَظَر إليه الوزيـر صاحِب الفِكر الغزير، رأى جُرْمه بِقَدَر الباقِلاّء، في غاية الصفاء والبَـهاء، فإذا هو خَمسَةَ عَشَرَ قيراطاً، أو أربعة عشر تقريباً واحتياطـاً[2]. ثـم أن الوزير أرسَلَه هديةً إلى الدولة العثمانية مع البَريد، حيثُ رأى قيمته علـى الألوف تَنُوف وتَزيد.

[زيارته سامراء]

ثم أن الجَناب المُستطاب ركَب مَطيّة الحَزْم، وتَدَرَّع بِدِرع الجَـزْم، وسار بِمَن قَرُب ونأى، يُريد ناحيةَ سُرَّ مَن رأى، قاصِداً زِيارة الـهُمامَين، والسَّنَدَين السيِّدَين الإمامين، فَرْعَي دَوحة الرِّسالة، وغُصنَي شَجرة الجَلالـة والعَدالة، صاحِب المناقِب الفاخِرة، والمآثر الزّاهِرة، سيِّدي الإمـام علـي

---

[1] جمع لك، بضم اللام، وهي لفظة هندية شاع استخدامها في العراق وتعنـي مائـة ألف.

[2] في كلشن ص٣٢٠: ووزنه خمسة وعشرون قيراطاً ونصف.

الهادي، وسيِّدي الإمام الحَسَن العَسْكَري، صاحبي الشَّرَف البادي، الفـائِقَين على كل سَرِي. فعَفَّر بتُرابَيْهما[1] الخَد والوجَين[2]، ومَسَـــح بأعتابيـــهما[3] شَرِيف الجَبين، وتوَسّل بهما لِحُصول المُــــراد، وابْتَـــهَل بالدُّعـــاء علـــى استعداد، فأمَّنَت لدُعائه المَلائكـــة المقَرَّبـــون، وردَّدت بالتـــأمين أعوانـــه المُسْلِمون، حيثُ كان قَصْده النُّصْرة لإعلاءِ كلمة الدِّين، ومُـــراده النجـــدة لنفع المُسلِمين، فأنعَمَ على خُدَّامَيْهما بالحُلَل الصَّائفية، وبَثَّ في ســــاحَتَيْهما النقود النُّقْرة[4] الصافية. وخَرَج إلى صحراء تلك الناحية، يصطاد الظِّبـــــا <٢٠ب> القاطنة في تلك البادية، فبعد قضاء وَطَرِه رَجَع عن سَفَرِه.

فصـــل

في ذكر سلمان الخَزْعَلي

وفي أثناء هذه السنة، كان صاحب المَشْوَرة على البغي والعِصيـــان، والمُحَرِّض الأعراب على الفَساد والطُّغيان، والمُحَزِّب الأحزاب الخَزْعَلـــي سلمان[5]، كان وقِح الوَجْه، بادي السَّفاهة، وكان في أحوال الإفساد علـــى

---

[1] في المطبوع: بترابهما

[2] كذا في الأصل، لعلها: الوجهين.

[3] في المطبوع: بأعتابهما

[4] النقرة من الذهب والفضة: القطعة المذابة، والنقرة: السبيكة.

[5] هو سلمان بن عباس الخزعلي، رئيس عشيرة الخزاعل والعشائر المتحالفـــة معـــها في عصره، ابتدأت رئاسته في عهد أبيه عباس، واستمر كذلك حتى ما بعـــد ســـنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م، ولا نعلم تاريخ وفاته. ينظر حمود الساعدي: دراســـات عـــن عشائر العراق، الخزاعل، النجف ١٩٧٤، ص١٢-٢٧.

نَباهه، أفسَق مِن فَأر وأفسَد، وأسلَط من العَيّار وأشَــد، ذا حيلــة ودهــاء، وديمةٍ[1] ذَميمة في المَكر وَطَفاء. شعراً [من الخفيف]:

كلمـــا طـــالَ عُمْــرُه زادَ شَــراً فهو كالصِلِّ مِنْ بَنــاتِ الأفــاعي

وسبب بَغْيه وعِناده، وشِقَاته في إفساده، أنه في أثناء السنةَ الخامســة بعد المائة والألف، حُبِسَ في القَلعة على أداء الخانَة، ورُهِن فيها خَوْفاً مــن المَكر والخيانة. فلما مضى عليه في الحَبْسِ يوم، شَرَع مع نفسه بــــاللَّوْم، مُفَكِّراً في انقيادِه، وعدم إنقاذه وإسعادِه، مع قُدرتَه على الفرار والــــهرب، قبل حصوله في دار البَوار[2] والعَطَب. ولم يَزَل يستنتِج الأفكار، ويَسْـتَمنِح الأقدار، ويُبدي لنفسه الأعذار حتى ولَّى النَّهار، فظَهَر له سبب الخَــلاص، وبدا له المَناص، عن ضيقِ الأقفاص، فصبَرَ حتى جَنَّ عليه الليــل، ونــام الحُرّاس، فحَنَّ إلى <٢١أ> امتطاء الخَيْل بعد هدوء الأنفاس، وفَتَح بـــــاب سِجنه على غَفلَة، وصَعَد الشُرفات من ناحية دِجلة، وفَكَّ حَديــده الحَديــد، ونَزَع عنه كل ثوبٍ خَلَقٍ وجديد[3]، وعبر دجلة إلـــــى الجــانب الغربــي سابِحاً، وصار إلى أعوانه وأحزابه غادِياً ورائحاً، فبَادَر إلـــى العِصيــان، وشَرَع في البَغْي والطُغيان، ومَتّنت الخَزاعِل بعد ضَعفِها، وكَـــثُرت بعــد قِلَّتها في صِنفِها، لَمّا عاشَرَتهم العشائر الخائنة، وناصَرَتهم القَبائل العاصيــة غير الآمِنة، فاشتَهَر هذا المَنكُوب بالصَوْلةِ استِدْراجاً، وأعطـــى الله خَيْلَـــه

---

[1] الديمة: المطر الدائم في مكون، يريد العادة الدائمة.

[2] في الأصل البواري ومعنى البوار: الهلاك والكساد، ودار البوار: جهنم.

[3] في المطبوع: وحديد، بالحاء.

ورَجِله رَواجاً، وحاول الارتقاء على سلَّم المَوالي، ورام الجلوس في فِناء الأمراء على بِساط المَعالى، وادّعى بِبَغيه وطُغيانه عَدَم النظير في خَدِّه وشأنه، واستَعمَل الحِشْمة والتّوقير، وسار سيرة الملوك، فجلس على سَرير، وصار ذلك الفقير الصُّعلوك، ذا دولةٍ عليّة كالملوك، وسار الدهرُ بِركابه، ودَخل في جُملة أحزابه، وملّكَ غالب ضِياع بغداد، وعَدم أهلُها الانتفاع بوجود هذا الفساد، قائلاً: إنها مُلكي جَزْماً، ملَكتُها قوةً وحَزماً!.

جامعاً عشائرَ كثيرة، لِمُصاهَرَتِه لهم، وأخذِه نساءً غزيرة، حتى قِيل أن نساءه المَنْكوحات عُشرون امرأة من الخَوْدِ[1] الخُدَلّجَات، لما حَوى من فساد الإعتقاد، وخُبث <٢١ب> سَريرة الفؤاد، ألا وهو اتِّخاذُ تُرّهات قَوم مَذهباً، وجَعْله أباطيلهم إلى النّجاة سَبَباً، فأحلُّوا له تِسعة، ولم يَرَوا مَنْعَه ورَدْعَه، فَعَدَل عن كلام فُقَهائه، وجعلَ عشرين من نِسائه، ومُتِّنت ساقَتُه، وخَفَقَت رايتُه، وتجمَّعت عليه الأحزاب الطاغيّة، والأعراب الباغيّة، حتى أن غَزِيَّة وشَمَّر عنده بَرَسم العبيد، فاعلين مُنقادين لما يُريد.

ولما نَظَر إلى قومه، وشِدّة صَولَته وحَزْمِه، سَوّل له الشيطان أنه يأخذ بغداد، ويحكُم في العِباد والبلاد. ورَكِب في رِكابه عشرة آلاف، مُكَمّلو[2] السِّلاح ذَوُو ائتلاف، مع بقيّة من يَمشي خَلْفَه من الجنود، وبَقِي أيْنَما سار تَخفِق على رأسه البُنود، ورَسَم لهم العُلوفة، وجَعَلها لهم مَعروفة، وقَطَع النَّظَر عن سائر الأعراب، واكتفى بِمَن انتَخَبَه من ذوي الأحساب والأنساب، واجتمع عليه خَلْقٌ كثير، وجَمَع لديه جَمٌّ غَفير. وجاء

---

[1] المرأة الشابة.

[2] في الأصل مكملون السلاح.

إلى الحَسَكَة، وهي أحسن ضياع العراق، وأنفَع القُرى على الإتّفاق، فأظهر ظُلمه، وجَعَل على أهلها غمّه.

فلما سَمِع صاحب الغيرة بفِعاله، ورُوِيَت له جميع أحواله، وحُدِّث بكَثرة عَدَدِه، وتَقَوِّيه في عُدَدِه. ولما وقَف على صِحّة هذا الخبر، وقُوّته بذلك العسكر، لم يتلبّث حتى عَزَم على حَرْبِه، وحلَّ عُرى <٢٢أ> قُوّته في حِزبه، وسار إليه بِجَمعٍ آساد، وقَصَدَه رِجالٌ غِلاظٌ شِداد، وطَوى إليه المَراحِل، فَقَصُرت لذلك الرَّواحِل. وشنَّ الإغارة من بغداد، أربعة أيام بثَلاث لَيال.

فوَصَل إلى الحَسَكَة بهذا الحال، فلم يَرَ للمَلعون أثراً، ولم يَدرِ له خبراً، فحُكي له أنه انْهَزَم بجنوده إلى السَّماوة[1]، وخَلّى بين نفسه وهذه العَداوة. ثم إن ذلك المُفسِد، والزِّنديق المُلحِد، حينَ وُصُوله إلى السماوة، جَمَع أعوانه، ونادى أحزابه، لأجل المُشاوَرَة والتدبير، في المُعاضَدَة والمُناصَرَة، حيثُ سَمِع أن الطَّلَب واصِل، وعَلِم به انه في الحَسَكَة نازِل.

---

[1] السماوة: بلدة تقع على عمود للفرات بين الكوفة والبصرة، نشأت بعد سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م واتخذها العثمانيون سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م مركزاً لأحد ألوية أيالة بغداد وقاعدة لقوة عسكرية محدودة، وازدهرت البلدة بعد سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م حينما تحول إليها مجرى للفرات، فنزحت إليها جماعات من القرى المجاورة، وأمست محطة للقوافل القادمة من الجنوب إلى الرماحية ومنها إلى النجف والحلة، ثم أنها أصبحت مركزاً لجباية الرسوم، وفي سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م عدت السماوة قائممقامية ملحقة بلواء الحلة، وهي اليوم مركز محافظة المثنى. ينظر حمود الساعدي: بحوث عن العراق وعشائره، النجف ١٩٩٠، ص١٧٨-١٩٣.

فلما استشار أعوانه، وأصحابه وإخوانه، وهم إذ ذاك في قلــــوب خافِقَـــة، وعُيونٍ شاخِصَة، وألْسِنَة غير ناطِقَة، لما عَلِموا من فَتْكِ هذا الضِّرْغـــــام، ولاسيِّما فِعلُه في بني لام، قالوا له: إن الدِّينَ النصيحة، والحــذار الحــذار من هذه الفضيحة، نحنُ لا قُدرة لنا على مُقابَلَتِه، ولا طاقةَ لنـــا بِمُبارزَتـــه ومُقاتَلَته، لِما ثَلَّج في صُدورنا، وتَبَلَّجَ تَبَلُّج هذه النَّفْـــس بيـــن دُورنـــا، إن شَوْكته قوية، وقُوَّته رُستَمية، فَنَخْشى أن يَفْعَل بنا ما فَعَل ببنــــي لام فـــي الأمس، ويجعَل في هذا العام أجْمَعَنا في رِمْس، ونحنُ مهما كُنّا ذَوي عَــدَد وقُوة وعُدَد، فنَحنُ مَغلوبون، وقَومُنا هم المَنْكوبون، إذ ذلك الرَّجل الخَـــيِّر دَعانا قبلُ إلى طاعته، والدخول في زُمرة جَماعته، وراسَـــلَنا بالمُســـالَمَة، <٢٢ب> وأمَّن علينا مُراسَلَةً ومُكالَمة، فأبَيْنا غاية الإباءة[1]، ورَفَض كــــلٌّ منا صحيفَتَه وراءه، وتَسَنَّمنا غارِبَ الفساد، واستَنَدنا إلى البَغــــي والعِنـــاد، فعلى كلِّ حالٍ الباغي مَكْسور، والوالي عليه منصور، ثم إنّـــا في مُقابَلَتِـــا معك، ما يُصيبُنا فائدة، أو منفعة إلينا عائدة، كلا! فلم نَنَل غـــير الجِـــراح، ونُعْدَم الأرباح والنَّجاح، فهذا أنتَ وهذا من عَصَبَيّته، فَتَوَلَّ قِتالَ مَن لم تُطِع أمره وأبَيَتَه.

فسارت جميع البَدْوُ من بين يَدَيْهِ، وتَفَرّقوا في الدَّوْ[2] فَنَدِم على مـــا عَوَّل عليه، ولم يبقَ معه أحَد[3] إلاّ أتباعه، ولم يَلْبَث بعد تَفَرُّق العشـــائر إلاّ ساعة، وترك الوَلَد والمال، والأهل والعيال، وهَرَب بأنفاسه، ونجـــا بـــأم

---

[1] كذا كتبها المؤلف مراعاة للسجعة، والأصح: الاباء.

[2] البيداء.

[3] لفظة أحد أضيفت إلى هامش الأصل.

رأسه. فاغتنم الوزير أمواله، وأسَرَ عياله وأطفاله، إلاّ أنه- يَرحمُـــه الله- لِكَثْرة شَفَقَته، وازدياد رأفته وغيرته، أطلَقَ الأسارى من النساء والوِلْــدان، فظلُّوا حَيارى في بُطون الصحارى والوِديان.

وأرسل إلى من أطاع الخبيث خَوْفاً وقَهْراً، وكتب إلى من كان تابَعَه طَوعاً أو قَسْراً، أن يَرجِعوا إلى أوطانهم، ويَعُودوا إلى مكـــان إسـكانهم، وأمَّنَهم على أموالهم وعيالهم وأطفالهم ورِجالهم، فعادُوا آمنين، وانقـــادوا طائعين، قائلين: لا نعود لِمثْلِه أبداً، ولن نُبْدي[1] ما دُمنا ضَرَراً ولا نَكَـدا. فألْبَس شُيوخَهم حُلَل الرِّضاء، وأمَّنَهم في سُكنى تلك البَيْداء، وأمـر <٢٣أ> بنقل الطَوْب إلى سور الحَسَكَه لأجل حِمايته، وأمر مــن يُحـافِظ السـور خَشيةَ هجوم الخبيث وصَوْلَته.

ثم بعد تَفَحُّصِه بِسؤاله، وكَشْفِه عن أحواله، جاءه الخبر أنه مُقيمٌ فــي أرض السَّماوة، (باقٍ على تلك العداوة، يتسمَّع الأخبار، ويحزِّب الأحـزاب، ليُخرِّب الديار، جامعٌ عليه أهل البغي)[2]، مُتَّخِذاً معه سبيل الغَـــي، وإنــه كالأول[3] استولى على مُقاطعاتها.

فَجَمَع ذلك الصِّنديد، كل مُحيل عنيد، وكالحالةِ الأولى، شَــنَّ عليـــه الإغارة، بِخُلَّصِ أعوانه، وأمَّ السَّماوة ولم يَلْبَث في مِكانه.

فلما بلغ ذلك الشيطان خبر هذا الطَلَب، أيْقَــن بــالتَلاف والعَطَــب، وتَفرُّق ذلك الائتلاف، وتَلافي الــهَرَب، ودَخَــل ذلــك الخِــنْزير الغِيْــل

---

[1] في الأصل: ولا نبد

[2] ما بين قوسين سقط من المطبوع.

[3] أي كالسابق.

واحتَجَب، وسَرابُ جنوده اضمَحَل، وشَدّاد بُنوده انحَل. ثم أنه لما لم يُمكِنه البقاء في الغِيل، لكثرة المياه وضيق السبيل، أرسلَ ولَدَه وبعض رِجاله، يُعلِم الوزير بجُملة حاله، ويَطلِب منه الأمان، والإبقاء في مَكان، وأنه لم يَعُد[1] بَعْدُ إلى مَكْرِه، ولم يَرجِع إلى حيلته وغَدْرِه. فقال الوزير: أما يَجيء إلي بِنَفسه، وآمِنه على أُمّ رأسه وأهلِه وعياله وسائر رِجاله وأطفاله، وأما يَخْرُج للحرب والنِّزال، ويَلْقى الكُماة الأبطال، وإلاّ فأنا لا أُقِرُّه في مَكانِه، ولا أنفَكُّ عن خذلانه وهَوانِه.

ولما كان الخائِن خائفاً، والغادِر لم يكن مُوالِياً مُوالِفاً، خَرَج من تلك الأهوار <٢٣ب> مُتَخفِّياً على نُجُبٍ سُبَّق، وهَرَب إلى البصرة، وبِمانِع شيخ المُنتَفِق التَحَق، وطَلَب منه الإجارة، فآواه وأجاره. ثم أن الوزير بَعْدَه مَهَّد تلك القُرى، وجَدَّد وُلاتها لنَفْعِ الوَرى، وجعل فيها بعض الأعوان، تَحْميها عن مُوجِبات الهَوان، وسار إلى بغداد راجِعاً، ولأصناف الـهَنا جامِعاً، وقَرَّت عُيون أهل العراق، حيثُ اضمَحَلَّ أهل البَغي والنِّفاق، وازداد سُرورهم، وزالَت عنهم شُرورهم، إذ لم يُؤمِلُوا هذا النصر العظيم، والسَّعد القَويم العميم، ولم يَخطُر بالبال أنه يُمَزِّق ذلك الجَمْع بأربعين ألف خيّال، لكن الله إذا ارادَ سعادةَ رَجلٍ حَفَّه بِظَفَرِه، وقَرَن بـه نَصْـرَه، في إقامَتِه وسَفَرِه. وإن الوزير لما كان ذا نِيَّة صادِقة، وطَوِيَّة عن الصَفاء لا الرِّياء ناطِقة، كان منصوراً على الأعداء، مُساعِدةً له الأنواء.

---

[1] كان الأفضل ان يقول المؤلف: انه لن يعود إلى مكره، ولن يرجع إلى حيلته، وهو ما يقتضيه سياق الكلام.

وكان رجوعه في أواخر جُمادى الآخِرَة[١]، وكانت نيَّته أن يبقى بعد مُدَّة في تلك الأطراف، يتفحَّص عن أهل البَغي والخِلاف، إلاّ أن الوزير خليل باشا وُلِّي البصرة على رَسْمِ الحِراسة، والحِفظ عن صَوْلَة الأعراب والسِّياسة.

ولمّا وَصل في طريقه إلى بغداد، جلَس للإستراحة وأُهبة المِتاع لنفُود الزّاد. ثم أنَّ واليها القديم رَجَع عن البصرة الفَيْحاء، ذا قلب كَليم، فلما قَرُبَ من بغداد ثلاثَ مراحِل، صار إلى رحمة الله راحِل، ونُقِل إلى قُرب الإمام النُّعمان بن ثابِت، وقُبِرَ هناك وطُمِسَت نُجُومه الثَّوابِت.

فلما سَمِع الوزير <٢٤أ> بِمَوته، ومُضِيِّ وَقْتِه، رَجَع إلى بغداد وضَبَط أمواله، وحاسَبَ رِجاله وعُمّاله، وابتاع أمتِعَته، وقَوَّم بين أهل الدِّراية لأجل الشراء لِنَفْسِه أسلحته، وعَرَض بذلك إلى السلطان، فقُبِلَت منه هذه الأثمان، وحُمِدَ على هذا العِرفان، وشُكِر[٢] على فِعْلِ الإحسان، فأرسَلَها صُحْبَة رِجاله، وحَمَلها على خَيْلِه وجِماله.

فصل

[ولادة محمد بن السلطان أحمد الثالث]

وفي رَجَب هذه السنة[٣]، ظَهَر للوجود من صُلْبِ سلطان السَلْطَنة ولَدُه النجيب، ونَجيبه الحسيب النَّسيب، ألا وهو السلطان الشّاه زاده محمد

---

[١] من سنة ١١١٧هـ ويوافق أواسط تشرين الأول سنة ١٧٠٥م.

[٢] أمام هذه العبارة في هامش الأصلَ عبارة: بلغ نظراً من مؤلفه، وهي بخط المؤلف.

[٣] أوله ٥ تشرين الثاني سنة ١٧٠٥م.

خان، واستَلْقَى على مَهْد الوجود، فاستَرَّت به الكَبُود، وأنارَ الكَوْنُ لِقُدومـه، فأزْهَرَت الأيام بِهُجومه. ولله دَرُّ شِهاب، حيثُ يقول في نَظِير هذا البـاب. شعراً [من الكامل]:

في بَيْتِـه المَعْمُـورِ مُنـذ وِلادِهِ نَشَأ السُّـرور بـه وكـلُّ هَنـاءِ
نَجمٌ أتى مِـن نَـيِّرَيْنِ كِلاهمـا وَهَبـاهُ أيَّ سـعادةٍ وضيـاءِ
خَلَعَ القِماطَ فَفازَ في خُلَعِ العُلـى وسَعَى فـأدْرَكَ غايَـةَ العُقَـلاءِ
لله طينَتُـهُ أكـانَت نُقطَـةً وَقَعَـتْ بِبِسْمِ الله تَحْـتَ البـاءِ

وفي سَلْخِ رمضان هذه السنة، جاءَت للوزير الكبير من الدَّولة العَلِية فَرْوَةٌ سَمَوُّرِيَّة، وخِلْعَةٌ سَنِيَّة بَهِيَّة، وحُسام مُكَلَّـل[1] بـاليَواقيت البـاهِرة، والجواهر الفاخِرة الزاهرة، مَصحوبةً بالبِشارة بِمَوْلِد ذلك الخَيِّر، وبُـزوغ ذلك البَدْر النَّيِّر، وحُلوله في أُفُق الكَمال، وإشـراقه علـى ذُروة تَدْويـر الإفضال. فلما حلَّت البِشارة دار السلام، حَصَل الهَناء والحُبُـور للخـاص <٤٢ب> والعام، وأمر الوزير بِزِينَةِ الأسـواق، ومَـدَّ علـى الجُـدران والأراجي من المَفاخِر رِواق، وثَلَّثَ العِيدان[2]، واستَوى الجَديـدان، فـي الإشراق والضِّياء، والبَهاء والسَّناء. شِعراً [من البسيط]:

قد زَيَّنَ الكَوْنَ فازدادَ الوَرى فَرَحـاً وعَمَّ البِشْرُ مِنْـهُ جُمْلَـةَ البَشَـرِ

وبَقِيَت الزِّينة عشرة أيام، لازدِياد سرور الأنام.

---

[1] في الأصل: وحساماً مكللاً.

[2] أي عيد الفطر وعيد الأضحى.

فصل

[حصول البرد والثلج في بغداد]

وفي اليوم الثامن من رمضان هذه السنة[1]، ظَهَرَ في قُطر العـــراق البَرْدُ العظيم، والشتاء الذي لم يتّفِق في الآفاق مثله في إقليـــم، هــذا مــع حرارة قُطر العراق، وقُرْبِ شَمْسِه من دائرة السّماوات بالاتّفـــاق، فكـــأنَّ مُدير الشمس قارَبَ الأُفُق الحقيقي في الدَّوْر، أو كُرَة الزَّمْهَرير نَزَلَت فَلَــك القمر، حتى تكاثَف البُخار وازداد هُتون الأمطـــار فـي الليــل والنّـــهار، وساوى الليل النهار في الظلام، وصار السَّيلُ إلى الرُّبَى والآكام، وجـــاءت السماء بِمَطَرٍ كأفواه القِرَب، وجادَت الأنواء فنَالَ الأكثر العَطَب، هذا مـــع أرياحٍ شديدة، وبَرَدٍ أخَذَ أرواحاً عديدة، فوكَفَت[2] السُّقوف، وأيقَـــن أهــلُ العراق بالهَلاك والحُتُوف، وتلا عليهم الرَّعد الـــهتّون[3]، وخَـــرَّ عليـــهم السّقفُ مِن فَوقِهِم، وأتاهم العَذاب من حيثُ لا يَشْعُرون، فلم يَزالـــوا بيـــنَ سَحاب هامِع[4]، وبَرَدٍ قاطِع، وسَيْلٍ قالِع، وبَرقٍ لامِع. شعراً [من المديد]:

فكأن الـــبَرقَ مُصحـــفُ قـــارٍ ... فانطباقـــاً مَـــرّةً وانفِتاحـــاً

لـــم يَـــزَلْ يَلْمَـــع بـــالليلِ حتـــى ... خِلتُـــهُ نبـــهَ فيـــــه صَباحـــاً

وكـــأن الرّعـــد فَحْـــلُ لِقـــــاحٍ ... كلمـــا بَعَجَـــه الـــبَرقُ صاحـــا

---

[1] الموافق ٢٣ كانون الأول سنة ١٧٠٥م.

[2] وكف السقف: تقاطر الماء منه.

[3] الهتّون صفة المطر إذا ما انهمر مدّراراً، لا البرق.

[4] همع الماء: سال وهطل.

<٢٥أ> وما أحسَن قول الآخَر [من الرمل]:

عارِضٌ أقبَلَ في جُنْــــحِ الدُّجَــى   يَتَــهادى كَتَــهادِي ذي الوجـــا[١]
أتلَقَت ريـــحُ الصَّبـا لُؤلُــــؤه   فانبَرى يُوقِــدُ عَنْــها سُرُجـــا
وكأنَّ الرَّعْــدَ حــادي مُصْعَـبٌ   كلمــا صــالَ عليــهِ وسَــجا[٢]
وكــأنَّ الــبَرْقَ كــاسٌ سُــكِبَتْ   في لَــهاةِ المُــزْنِ حتــى لَــهَجا
وكــأنَّ الجَّــوَّ مَيْــدانٌ وَغــىً   رَفَعَتْ فيــهِ المَذاكــي[٣] رَهَجــا

ثم عَقَبَه الثلج والجَمَد، ورَسَخَ على الأرض وجَمَد، وكُسِيَت الأرضُ الحُلْةَ البيضاء، وكادَت أن تَكوُن السَّاهِرة[٤] تلك الغَبْراء، للتَنُوخــي [مــن البسيط]:

أما تَرى البَرْدُ قــد وافَـتْ عســاكِرُهُ   وَعَسكر الحَرُّ كَيفَ انصـــاعَ مُنْطَلِقـا
فالأرضُ تحتَ ضَريبِ الثلجِ تَحسَــبُها   قد أُلبِسَــت حُبُكــاً أو غُشِّــيَتْ وَرَقــا
فانــهَضْ بِنــارٍ إلــى فَحْــمٍ كأنَّــهُما   في العَيْنِ ظُلْمٌ وإنصــافٌ قــد اتَّفَقــا
جاءت ونَحنُ كَقَلْبِ الصَّبِّ حينَ سَلا[٥]   بَرْداً فَصِرْنا كَقَلْبِ الصَّــبِّ إذ عشَــقا

[١] الوجا: أن يشتكي البعير باطن خفه والفرس باطن حافره.
[٢] سجا أي سكن.
[٣] المذاكي من الخيل ما تم سنها وكملت قوتها.
[٤] الساهرة: القمر.
[٥] الأصل: سلى.

ولم يَزَل يَهيْنُ الثلج كالعِهْنِ المَنْفُوش، ويتَجَمَّد فوق الأرض كالصَّفاءِ[1] المَفْروش، حتى بَلَغ ارتفاعُه عليها ذراعين، كما شُوهِدَ ذلك بالعَيْن، وبقي جَمْدَه خمسة عشر يوماً، ثم بعد ذلك انْحَلَّ إلى الماء، وسال على الغَبْراء، وملأ بُطون الأوْدِية والوِهاد. وكادَ لولا جَري دجلة أن يُغْرِق بغداد، وماتَ بعده من شِدَّةِ البَرْد الأزْمان[2]، لِعَدَمِ اعتيادهم عليه في تلك الأزمان. وحَدَثَت الأمراض النَّوازِل، وسائر الأعراض من كلِّ بَلاءٍ نازِل. وماتَ- لِتَكاثُف الثلج وانجِماده، وشِدَّةِ بُروده، وزَمْهَريرِيَّة رَذاذه- أكثر الأُصُول، من النخل والكَرْمِ والنَّبْق والتُّوت والأُتْرُج والنَّارِنْج <٢٥ب> والليْمون، وغير ذلك من أشجار الفَواكِه ونالَها العَطَب، وصارت من جُمْلَةِ الحَطَب، والحمد لله على سَلامة البِلاد من العَذاب، فكاد أن يَنال العِباد من ذلك خِذلان الأحزاب.

فصل

[في قمع قبيلة شمر]

وبعد قضاء الأوطار، من سَفَر الخَزْعَلي الغَدّار، شَرَع في تمهيد الزوراء، وتشييد سور حِراسَتها عن الأعداء[3].

---

[1] الصفاء هنا: الحجارة.

[2] ذوو الامراض المزمنة.

[3] من الواضح أنه يريد تشييد سور الجانب الغربي، أما الجانب الشرقي فله سوره الحصين الذي شيده الخلفاء العباسيون المتأخرون بين القرنين الخامس والسابع للهجرة.

وفي السنة الثامنة عشرة بعد المائة والألف[1]، نَجَم شَرُّ أشَرّ الأعراب، أهل الفساد وأصحاب الخَراب، ألا وهم قبيلة شَمَّر، وهؤلاء قبيلةٌ شَرٌّ قبيلة! يأخذون الأمان من الوُلاة، وعلى هذا مَكرٌ وحيلة، ثم يأخذون إليهم سائر العشائر، بعضهم تَرْغيباً، وبعضهم تَخويفاً وتَرْهيباً، ويُثيرون نار الفِتَن، ويَبقَون على الفساد مدى الزَّمن. وسَبَبُ نُجوم فَسادهم، وعَدَم طاعتهم وانقيادهم، أن شَيْخَيْهم غانِماً وحَسّان[2] صارا إلى وادي[3] العِصْيان، وحَطّا أثقالهما في أرضِ الشّامية[4]، وجَمَعا عليهما أهلَ الحَمِيّة، حَمِيّةَ الجاهلية، ظَنّاً منهما أن الوزير كأمثاله، وزَعْماً منهما أن فِعلَه بِمَن تَقدّم هو النادر من أفعاله وأحواله، فنازَلا أهلَ الفسادِ بَيْتَ بَيْتَ، وتَحدَّثا بأخبار الخَرابِ كَيْتَ وكَيْتَ، وصارا أفسَدَ من سلمان، واعتَراهُما الغُرور والطُّغيان.

---

[1] اولها ١٥ نيسان ١٧٠٦م.

[2] ذكر عباس العزاوي أن في هذا النص خطأ صحيحه (شيخهم غانم الحسان)، وقال: وهذا أصل نسبهم المحفوظ. تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص١٦٩ وعشائر العراق ج١ ص٢٠٧.

[3] الأصل: واد.

[4] الشامية أرض على الشاطئ الأيمن للفرات، بين الخناق والرميثة والكوفة والكفل، كانت جزءً من (ديرة الخزاعل)، وعند ضعف هذه الزعامة، انتزعتها الحكومة العثمانية سنة ١٢٦٠هـ عادة إياها قضاءً من أقضية لواء الحلة- الديوانية. العطية: تاريخ الديوانية ص١٥٣ وكتابنا: الأسر الحاكمة ص٣١٤.

أما الخَزْعَلي المَشُوم، فقد جَرَّ على رأسه خِرقَة الجبانة، خوفاً من البَوارِق الفالِقة، وتَرَك التَصدّى للخيانة هَرَباً من النَيازِك الحارِقة[1].

وأما هما فلَمّا لم يُشاهِدا حرب الضِرْغام عَياناً، لم يَلْوِيا إلى الانقِياد والاستِسلام عِناناً. وطَفِقا بِمَن معهما يَنْتَهِبون القَوافِل، ويَقْطَعون عن السُبُل الرْواحِل، <٢٦أ> ويأخُذُون أموال القُرى، ويَستَخدِمون كالأمراء أكابِر الوَرى. ودَمَّروا من بِقُربهم من الفقراء تدميراً، حيثُ عَدِموا عن رَدّ صَوْلَتِهِم نصيراً وظَهيراً، وعاملوهم بالجَفْوَة، ومُؤاخذَتِهم عند الهَفْوَة.

فَعَرَض أهل القُرى أحوالَهم على الشَهْم المُظَفَّر، وشَكا أهلُ القَوافِل لدى اللَّيْثِ الغَضَنْفَر، فسارَ إليهم الوزير المنصور، بالخَميس المُظَفَّر المَجْبور، ورِجالِ كُماة، وأبطالِ رُماة، وفُرْسانٍ أجياد، ونَجابَةٍ أطواد، وكَتيبةٍ إسكَنْدَرِيّة[2]، وعِصابَةٍ رُستَمِيَّة. ولما عَبَر بهم جِسرَ الرَضْوانِيَة[3]، وقارَبَ مَحَلَّ الجَمْعية. مصراع [من الطويل]:

رأى الدّارَ قَفْـرا والمَـزارُ بَعيـدا

[1] في المطبوع: الخارقة.

[2] نسبة إلى الاسكندر المقدوني.

[3] سماه عباس العزاوي: الجسر الرضواني، والرضوانية أرض في الجانب الغربي من بغداد لما تزل معروفة، ولكن ليس واضحاً موقع هذا الجسر، والظاهر أنه كان منصوباً على نهر الفرات، بدلالة ما ذكره مرتضى آل نظمي (كلشن ص٣٢٢) من أن الوالي المذكور "عبر نهر الفرات واتجه نحو تجمعاتهم" وتجمعاتهم تلك كانت تقع غربي نهر الفرات.

وإنهم قد أُنذِروا بقُدومه، وخافُوا صَوْلَةَ هُجومه، فَهَرَبوا خائفين، وتَسَلَّلوا مُتَخافِتِين.

ثم إن الوزير جلَسَ هُنَيْأةً للاستراحة، واختَلَس غَفْوةً للرَّاحة، وجَعَلَ العَسكر أربَع طرائق، سار كلٌ إلى جِهَةٍ بالأعداءِ لاحِق، فساروا على شاطئ الفُرات، كلٌ أخذ ناحية، مُفَتِّشين الجُّهات عن تلك الفِرقَةِ الباغية. فلما سار الوزير بِخَواصه الفُرسان، كان[١] سَيْرُه إلى ناحية المَشْهَد[٢]، كما سارَ كُلٌ من تلك الفِرَق إلى جِهَةٍ ومَقْصَد.

ولما أشرَفَ بِجَمْعِه على ذلك المكان، شاهَدَ خيام الأعداء تَعْلو في أكنافِها النِّيران، وأبْصَرَهم نُزولاً رأي العَيْن، قد سَدَّت خِيامُهم بذلك المكان الخافِقَيْن، وهم أبصروه كذلك، وشاهَدُوا سَواد خَميسه الحالك، فتأهَّبُوا للتَّلاف، وامتطوا خُيول السباق وعَبَّوْا كتائبهم خَيْلاً ورَجِلاً، ورَصَدوا دون منازلهم بَنادِق[٣] ونَبْلاً. فحاوَلَت جنود الله المُنازلة، ورامَت <٢٦ب> المُقاتَلَة والمُجادَلَة، أولئك الكُماة الشُّجعان، والغُزاة الفُرسان، المُبدون عند لِقاء العَدُو الاستِبْشار، المُفصِح عن حالِهم قولُ بَشّار. شعراً [من الطويل]:

---

[١] في المطبوع: وكان.

[٢] لم يذكر أي مشهد يعني، والراجح أنه مشهد علي (ع)، في مدينة النجف، ولكن عباس العزاوي يذكر أنه "وصل إلى منزل مشيهد فحط ركابه"، فهو هنا بالتصغير، وعلى وفق سياق عبارته يكون مجرد منزل، أو محطة، على الطريق.

[٣] الأصل بنادقاً.

وكنـــا إذا دَبَّ العَـــدُوُّ لِسُــخطِنا ورَاقَبَنــا فــي ظَــاهِرٍ لا نُرَاقِبُـــه
رَكِبْنـا لــه جَــهْراً بِكُـلِّ مُثَقَّــفٍ وأبْيَضَ تَسْتَسْـقِي الدِّمــاءَ مَضارِبُـه
وجيشٍ كَجُنْحِ الليلِ يَزْحَفُ بـالحَصى[1] وبالشَّوكِ والخِطِّــي حُمْــراً ثَعَالِبُــه[2]
غَدَوْنا له والشَّمسُ في خَــدرِ أمِّــها[3] نُطالِعُها[4] والطَّــلُّ لــم يَجْــرِ ذائِبُــه
بضربٍ يَذُوقُ المَوتَ من ذاقَ طَعْمَــه وتُدْرِك من نَجّــى الفِـرار مَثالِبُــه[5]
كــأنَّ مُثَــارَ النَّقْــعِ فَـوقَ رؤوسِــنا وأسـيافَنا لَيــلٌ تَــهاوى كَواكِبُـــه
بَعَثْنا لـــهم مَــوتَ الفُجــاءةِ[6] إنّنـــا بنو المَوْت خَفَّاقٌ[7] علينـــا سَــبائبه[8]

فلم يأذَن الدستور لأحَدِهم، ولم يَعتَنِ بِعَدَد الأعــداء وعُدَدِهــم، بــل تَرَدَّى بِدِرْعِه، وعَدا دونَ رَبْعِهِ، آخِذاً بِغِمْدِه اللَّدِين السِّنان، مُتَجَــرِّداً سَــيْفَه الصقيل اليَمان. وبَرَز كالطَّوْدِ الطاوي، وخَرَج من بَيْنِ الصفوف كــالضَيْغَم العادي، وصار في المَيدان يَجُول، ويَكِرُّ على الأعــداء ويَصُــول، يَنْظِــم

[1] الأصل: الحصا وهو كناية عن وفرة عددهم.
[2] في رواية أخرى: حمر ثعالبه.
[3] الأصل: خدراتها.
[4] في رواية اخرى تطالعنا.
[5] الأصل: وتدرك من نجي القرار مثالبه.
[6] الأصل: الفجأة.
[7] في رواية أخرى: خفاقاً.
[8] أي بنوده.

الأبطال بأسمَرِه، ويَنشُر هامَ الرجال بأبيضه[1]، ويقضي على العَدُوَّ بِقَطْعِ أبْهَرِه. شعراً [من الكامل]:

قالوا: ويَنْظِمُ فارِسَيْنِ بِطَعْنةٍ يومَ اللِّقاء ولا أراه قليلاً
لو كانَ في الهَيْجاء طُولَ قَناتِه ميلاً إذاً نَظَمَ الفَوارِس ميلا

ثم تناوَشَتهم[2] الضَّراغِم مِن كلِّ جانِب، وتَراجَعَت عليهم الأبطال من كل مُبارِز مُحارِب، فَرُوِيَ الأسمر بعد ظَمَاه <٢٧أ>، وشَبَع الأبيض بعد السَّغَبِ من هامِ أعداه، ونُثِرَت الرؤوس، وأُزْهِقَت النُّفُوس، وقامَتِ الحرب على ساق، وظهر في الأعداء الانْمِحاق، ونَدِموا على ما عَوَّلُوا، وعاتَبَوا نُفوسهم على ما فَعَلوا، وهَرَبوا مِن بين النَّاب والظُّفُر، وحَفَّ الله الأحزاب بالنصر، ورَمَى أهل الخراب بالذُّلِ والقَهْرِ، وكَشَّر لهم الشُّوم عن نابِ مُكْفَهِر، وتَرَكوا الخَيْلَ والأطفال، وصارت الجمال والأغنام، وسائر الثَّرْوَةِ بيد الاستِغنام[3]، ولَجُوا إذ ولَجُوا في غيلٍ صَعْبِ الدخول، لا يُمكن إليهم الوصول، طُولُه مِقدار أربعة فَراسِخ، وعَرْضُه مِقدار فَرْسَخ، وتَرَكوا نِساءهم فَرائس الأشبال، وفَدَوْا أنفسهم بالعِيال والمال.

ثم لمَّا عَزَم المُظَفَّر على الرحيل، والرَّجْعة بعد قضاءِ الوَطَر على التكميل، لَطَفَ بالأطفال والبَنات، والنِّساء الثَّيِّبات، وأطلقهم، ووَجَّههم إلى ناحيةِ أهاليهم، وبِمَن نجا ألحَقَهم. فيا لله دَرُّه من رَجُلٍ سعيدٍ ذي سُعود!

---

[1] الأسمر: الرمح، والأبيض: السيف.

[2] في المطبوع: تناوشهم.

[3] يريد أنها صارت غنيمة للجند.

ويا حبّذا مُتَخلّق بأخلاق المكارِم والجُود! ولم يَتّفِق مثل هذا الظّفَر، مُنذ فَتْحِ بغداد إلى هذا السّفَر، وأقرّ أعداؤه اللّئام الأبطال، بأنهم ما شاهَدوا قط هذه الأهوال، من غَيره في صَفّ القِتال. على أنهم قاتَلُوه قِتال مُشْتَدِ، وصالُوا عليه صَوْلَةَ مُحتَدِ، خَوفاً على عيالهم وأنفسهم وأولادهم. وإن أسراءَه الصّغار والكبار والنّساء الثّيّبات والأبكار، حين أرجعهم يَحْمِدُون شِيَمَه[1] أجمعهم.

ثم أنّه رَجَع إلى بغداد، وخرج لاستِقْباله العُلماء والأُمراء، والأكابِر والرؤساءَ ولما <٢٧ب> صار داخِل السور، اشْتَغَل بأُمور صَلاح الجمهور، وألْبَس الرؤساء من الجنود الحُلَل الفاخِرة، وكَسا الأُمراء من العُمّال الملابِس الباهرة الزاهِرة، وصَرَف وَقْتَه في تدبير البَلَد، ونام إذاً الرَّعِيّة على فِراش الرّغَد، إلى أن انْقَدَحَت شُعبة الخِلاف، وانصدَعت صَخْرة الائتلاف، وأتى لِشِكاته[2] الحال شيخ القَشْعَم[3] شَبِيب، وسائر الأعراب، من فِعْلِ آل غَزْيَة ...، وإن آل حُمَيْد وآل ساعِدَة وآل رُفَيع

---

[1] الأصل: شيمهم.

[2] في المطبوع: لشكابه.

[3] القشعم: اتحاد قبلي قوي اتخذ اسمه من القبيلة التي كونته بعد نزوحها إلى العراق في القرن الثامن للهجرة ١٤م ، وفرض هذا الاتحاد سيطرته الكاملة إبان القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (١٦ و١٧م) على منطقة تمتد من نواحي الحلة شمالاً إلى السماوة جنوباً، وقد اصطدمت بالقوات العثمانية غير مرة، إلاّ أن قواها أخذت تضعف منذ منتصف القرن الثاني عشر للهجرة (١٨م).

أغاروا على أموالِهم ومَواشيهم، ووضعوا كل رفيع، وإنهم خرجوا عن خِطَّة الانقياد، وأفسدوا في البِلاد.

فلما بَلَغ الوزير هذه الشِّكاية، ونِكاية الأعراب هذه النِّكاية، بَقي بَيْنَ مُصَدِّق ومُكذِّب، ومُسَفِّه رأي شَبيب ومُصَوِّب، إلى أن أتاه من ضابط الحِلَّة رُقْعة، تتضمَّن أخبار أولئك المُفْسِدين في تلك البُقعة، وأنَّ خَبَرَه طِبْق خَبَر شَبيب، وأن ما نُصِح الوزير به نُصْحَ حبيبٍ قريب. فلما حَقَّق المُظَفَّر الخَبَر، وتوَضَّح عِنده الأثَر، أرسل إلى عُرْبان الشامِيَّة من كل مُسالِم، وأمَرَهم بالرحيل إلى الحِلَّة لِكُلِّ مُقاوِم، فامتثلوا ما أمَر، وقَصَدوا الحِلَّة على الأثَر.

ثم أن الوزير رَكَب جَواد العَزْم، واحتَزَم بِمَنْديل الحَزْم، وسار بِعَساكره وجنوده، ووافَقَ رُكوبه طالِع سُعُوده، ووَصَل إلى قُرب الحِلَّة، وحَطَّ هناك رَحله، ريثما سَقَوا الخَيل الماء، وأكلوا بعض الغِذاء. وعَبَر الفرات على جِسْر النَيْحاء، وقصد تلك الجهات الأعداء، وطَفِقَ يَطْوي شِقَّة البَوادي، سائلاً عنهم كل ظاهِرٍ وبادي. ثم لما عَلِم بِقُربه من مكان غُزَيّه الأشرار، سارَعَ قبل أن يَصِلَهم <٢٨أ> الإنذار، وانتَخَب من تلك العساكر، مِقدار ألف فارس جاسِر. ثم إنه انتَخَب من أقَوابَه[1] الرِّجال، وخَواص خُدّامِه الأبطال، رجلاً رأسَهُ على مِقدارٍ من جنوده، وعَقَد له لواءً من بُنوده، وأرسَله على ساعِدة، ودعا الله أن يكون ناصِرَه ومُساعِده.

---

[1] في المطبوع: أغواته.

ثم أن الوزير سارَ بما انتَخَب، واشتَدَّ عليه الحَزْمُ قَلَجٌ في الطَلَـــب، فلما أشرف على ديارهم، رآهم ذاعنين[1] لإنذارِهــم، وأن رحيلــهم كــان صُبْحَ ذلك اليوم. فَعلِم أنه يُدْرِك القَوْم، إذ سَيْرهم بالأثقال غير بعيـــد، وأن سَيْرَهم على خمس عشرة ساعة لا يَزيد، فشَنَّ الإغارة عليهم كــل الليــل، إلى أن كادت أن تُقْصر الخَيل. فلما بدا الفجر كذَنَب السِّرحان، وظَـــهَرت حُمرة الغَسَق كالأرجُوان، أبصر جموعهم، وشاهَدَ رُبوعهم. فلمــــا أيقَــنَ الأعداء بالهَلاك، وقَفوا للقِتال نادمين على تلك الأفعال، وكان قَصْدُهــم [أن] يُشغِلُوه بالهَيْجاء، حتى يُبْعِد ظَعنُهم في البَيْداء، وتَسلَم أموالُهم، ثــم تَــهرَب رِجالهم، لكنهم لم يستقِرُّوا إلاّ نُهى جَذْبِ المُهَنَّد عن جفْنه، وفَتَح المُسَـــهَّد جَفْنَه عن جَفْنِه، وغَدَوا طُعمةً للسيوف، وأكلَةً للحُتُوف. وغرَقَ أكثرُهم فــي الفرات، وصار أُكلَةً للآفات، واغتنمت العساكر الخيل والأغنام، والجمــال والخيام، والغيد الحِسان والبَنات والصِّبيان، وجُمِعَت أمام الغَيث الجَسُــور، والأسَد الغَيُور، فأطلَق النساء كما هو السابِق من عاداته، والغالِب عليه في جميع غزَواته.

ثم قَدِمَ عليه العسكر الذي أرسله إلى ساعِدة الخِذلان، وآب من سَفَرِه الجند المرسول إلى تلك العُربان، منصوراً مجبـــوراً، مســروراً بالغنــائم <٢٨ب> مَحبُوراً. ثم أن الوزير أرسل الفَيء والغَنيمة بعد إطلاق النِّســاء إلى قَصَبة الحِلّة الفيحاء، ثم عَطَف عِنان الرجوع، وسار بتلــك الجُمُــوع،

---

[1] الأصل: ضاغنين.

فلما وصل الرُّمَّاحية[1]، ظفر بشيخ بني حُمَيْد رأس هذه القَضيَّة، ولم يكـن في البال، ولم يَدرَ له حال، ولكن السَّعد والإقبال ظَفَّره بـأُولئك الأنـذال، وبِشَيْخِهِم أبي لَهَب.. فكم خَرَّب معموراً، وكم هَتَك سُـتُوراً، فـي زمـان استناده إلى سلمان، واعتِماده عليه في زَمان. فلما كُسِرَت سَوْرَةُ حَميَّة ذلك الفاجِر، بِهِنْدُوانِيَّة[2] المَلِك الناصر، طَلَب هذا الكلب أماناً، وحَلَـف أن لا يعود وغلَّظ أيْمَاناً، ولكنه كما قال الشاعر. [من السريع]:

والشـيخُ لا يَـتْرُكَ أخلاقَـهُ   حتى يُوارى فـي ثَـرى رِمْسِـه

فعادت جُملته، واقتَضَت جِبِلَّته، أن خَرَج عن رِبقَةِ الإنقياد، وشَـرَع في العِصيان والفساد، وتغلَّب على القُرى والضِّياع، ومَنَع الـزرَّاع عـن الإنتفاع، فلم يَشعُر الخَسيس الملعون، إلاّ والخَميـس أحـدَق بـالحُصون، وأغارَت عِبادُ الله بكل بَتَّار عَضيب[3]، وقَبَضوا علـى الشـيخ السَّـعِل[4]

---

[1] الرماحية بلدة قديمة ورد ذكرها في القرن التاسع للهجرة (تاريخ الغيـاثي، تحقيـق طارق الحمداني، بغداد ١٩٧٥، ص٣٩٤) وازدهرت في أول العصـر العثمـاني، لكنها هجرت بعد سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م بسبب تحول مجرى نهر الفرات عنـها إلى جهة نهر ذياب، وهو مجرى نهر الديوانية الحالي، فورثتـها بلـدة الحسكة القريبة، ولا تزال خرائبها ماثلة على بعد نحو ثلاثين كيلـو متراً مـن غربـي الديوانية، وأهم تلك الخرائب سورها. ينظر حمود الساعدي: مدينة الرماحية، مجلة البلاغ، العددان ١ و٢، بغداد ١٩٧٦.

[2] الهندواني: السيف.

[3] العضب: السيف القاطع.

[4] في الأصل: السعد، والسعل: الشيص اليابس.

الصَّعب، وأغلُّوا إلى عُنُقه يَدَيْه، وقُتِلت رِجاله، وأسِرَت عيالـــه، ونُـــهبت أمواله، وبُؤسَت أحواله.

ثم أن الشهم الباسِل أمَّرَ شيخ القَشْعَم شَـــبيب علـــى ألفـــي فـــارِس، وأرسَلَه إلى هَوْرِ نَجْمٍ بكل بَطَلٍ حارس، لتأديب آل مَعْدان، حين نَجَم منـــهم العِصيان، فأغاروا من مَحَلِّهم، ودَخَلوا الهَوْرَ بِكُلِّهم، وهَجَموا على أولئـــك العُصاة، واحدَقُوا بِخيام الطُّغاة البُغاة، ودارت الحرب بينهم قَدْر ساعة، ثـــم افتَرَستهم تلك الجماعة، واغتَنَموا الأمـــوال، وقَتَلـــوا الرِّجـــال، ولَحِقُـــوا بالوزير[1] في أهنأ حال <٢٩أ> فلِلَّه دَرُّه من بَطَلٍ طأطـــأ رؤوس أولئـــك الفُجّار، ولا يَبْعُد لو قيل: كفار، لاستِحلالِهم السِّفاح، وتَرْك غالبهم النكـــاح، يقتلون من يقول: ربِّي الله! من غير ذَنْب جنـــاه، ويقطعـــون الطُّرُقـــات، ويشُنُّون الإغارة في سائر الجِّهات، سالِّين سيف الإغتنام، الصَّادِق عليـــهم حديث: من شَهَر حُساماً بين الإسلام، وقد ملأت أخبارَ فســادهم الدفـــاتِر، وجَفَّت لِعَدِّ مفاسدهم الأقلام، ويَبِسَت المَحابِر، فلا حاجةَ إلى إطلاق عِنـــان الأقلام، مع أن المقصود ذِكْر[2] سيرة هذا القَمْقام[3]. ثم أن دليلَ الوزير قـــد ضَلَّ ونجم سَعْدِ الخِرِّيت[4] كادَ أن يأفل، فاضلُّوا الطريق، وخَبَطـــوا فـــي البَيْداء خَبْط راكِب عَمياء، في لَيلةٍ ظَلْماء. فلما نَشَـــر الصبـــاح أعلامـــه،

---

[1] الأصل في الوزير.

[2] في المطبوع: ذكره.

[3] القمقام: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل.

[4] الخريت الدليل الحاذق الذي يهتدى إلى اخرات المفاوز، وهي مضايقـــها وطرقـــها الخفية.

وشاهدوا وِهاد ذلك البَرّ وآكامه، بانَ لهم شيء كالفَلَك الأطلس، ألا وهـو[1] قُبّة ذي الشرف الأنفس، لَيْث بني غالِب[2]، مولانا أمير المؤمنين علي بـن أبي طالب، فازدادَ حُبور الوزير، لاغتِنامه زيارةَ ذلك الهُمام الكبير، وعفـا عن جُرم الدليل، وقَصَدَ زِيارة ذلك الفَضيل. ولما قَضى من الزّيارة مأربـه وأوطاره، نَهَض إلى حِلّة دُبيس بن مِزْيَد[3]، وشدَّ إليها رَحْلَه، واعدَّ وبـاتَ فيها ليلةً للاستراحة، ثم قام وصيّر إلى جِهةِ بغداد رَواحَه، وأشرف علـى الدَّوْرَة وقت الضُّحى، ثم دَخَل دار السلام، واستَرَّ لِقُدومِه الخاص والعام.

فصل

في بيان غزوة زبيد، واذلال كل ذي قوة عنيد

وهذه الغَزْوة تحتاج في البَيان إلى بَسْطٍ مُقدّمـة، وفـي الإيضـاح والبَيان إلى ذِكر مُتَمِّمه، وهو أنَّ هؤلاء الأشقياء <٢٩ب> ومن والاهم من أهل الفساد في تلك البيداء، كآل جُحَيْشٍ وآل سَعيدٍ وآل عـامِرٍ وآل خـالِدٍ

---

[1] الاصل إلا وهي.

[2] في المطبوع: طالب.

[3] الصحيح أن الذي مصر الحلة هو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيـس بـن علي بن مزيد الأسدي، المتوفى سنة ٥٠١هـ، وكانت قبله آجاماً، سنة ٤٩٥هـ وكان بنو أسد قد أسسوا امارة مستقلة هناك، وامتد نفوذها إلى مناطق واسعة مـن جنوبي العراق ووسطه.

وآل دُلَيْم وآل نَوْفَل[1]، أظهروا الاعتزال، وخَرَجوا عن طاعـــة العُمـــال، واجتمعوا في مكان، وصارت كَلِمَتهم واحدة، لا يختلف فيها اثنان، وأبـانوا شَرَراً، وأبْدَوا نَكَداً وضَرَراً. فاعترى الزوراء كل عَناء ولأواء، وقَـــهَروا العُمَّال بِشَوكتِهم، وقَصَموا الأبطال بِسيوف صَوْلَتهم، فكم ســـارت إليـــهم الجَحافِل، وقَطَعَت لدى طلبِهم المَراحل، فرجعوا خائبين، وآبوا علـــى مـــا فعلوا نادمين.

ففي السنة السادسة بعد المائة والألف[2]، حصل لـــــهم مـــع شَـــمَّر المُقاتَلَة الهائلة، والمُجادَلة القاتِلة، فَقَهَروا شَمَّر بِعُدَدهم، وكَسَروا صَوْلَتــهم بكَثْرة عَدَدَهم. ولما غَلَبوا على شَمَّر، وأن البَيْنَ عن ساعِدِ تفريقهم شَـــمَّر، وطلبوا النَّجدة من والي بغداد، والتَجَوْا إليه، وجَعَلوا عليه الاستناد، فجَـــهَّز لهم من الجنود الخَلْق الكثير، وأرسل معهم الجم الغفـــير، وســيَّرهم إلـــى أعدائهم، فهَرْوَلوا إليهم، وبالَغوا في عدائهم. <٣٠ب>

---

[1] تحدد وثيقة عثمانية رسمية مواطن هذه العشائر في ذلك الوقت على النحو الآتـــي "عشائر دليم وعقيدان (عقيدات) وجبانين (جنابيين) القاطنـــة علـــى جـــانبي نـــهر الفرات، بين العنة (عانة) و (الدير)" وتتهمهم بأنهم كانوا يهددون ســـلامة الســـفن النهرية التي كانت تنقل الأخشاب إلى البصرة. دفتر مهمـــة ١٢٩، ص٢٦٠-٢٦٢، أواخر ذي الحجة ١١٣٢هـــ.

[2] أولها في ٢٢ آب ١٦٩٤م.

ولما سمعت بهذا الحال زَبيد[1]، جمَعوا كل طارِفٍ وتَليد، وذَهَبــوا إلى الأمير عبّاس[2]، يَستَمِدُّونه في بعض الحُماة الحُرّاس، فَجَــهَّز معــهم الفئات، واعطاهم من الجنود المئات، فحصلَ لهم القُوَّة القــاهِرة، والنَجــدة الغالبَة الناصيرة، فالتقى الفئتان، وتأهَّبوا للحرب والطِّعان، وطَلَبَت الفُرسـان الفُرسان، وقامت الحربُ على ساق، وبدا من الجــانبين صليـل اليَمــان، وطارت الأرواح، وعُدِم المساء والصباح، بكثرة العثير[3] لــدى الكفــاح، وعثَرَت الخيل بالأعنَّة، وبَرَقت للويلِ أطراف الأســنَّة، وســالت الدمــاء جداول، وصالت الأعداء ونادَت: هل مِن مُنــازِلٍ؟ وشــدا المُــهنَّد فــي الجَماجِم، ورنَّم النَبلُ المُسدَّد من كل بَطَلٍ مُقاوِم، وثَبَــت آل زَبيــد ثَبــات أطواد، ورَسَخ منهم كل بَطَلٍ صِنديد تامٍّ الإســتعداد، وأحــسَّ آل شَــمَّر البَوار، وصَوَّبوا رأيِ الفِرار، فنجا من نجا، وعلى الهَرَب صار الإلتِجــا، وغدَت عساكر الوالي طُعْمةً للصوارِم، وأُكلَةً للُّتوت اللهاذِم.

ولما أبصرت زَبيد أن فيهم هذه الشِدَّة، عَلِموا أن في سيوفهم جِــدَّة، وصالوا على ضُبّاط القُرى، فهَربوا مِن بيــن أيديــهم هَــرَب الفِــرى[4] واستولوا على الرَّعية، وآذَوا جميع البَريَّة؛ هذا وأما شَمَّر فمنهم من التَجــأ

---

[1] كذا يكتبها المؤلف بفتح الزاي في كل موضع وردت فيه في كتابه، والمشهور أنــها بضمها.

[2] لم تتوضح هوية هذا الأمير، وطبيعة إمارته.

[3] التراب والعجاج.

[4] فرى: قطع وشق للافساد.

إلى الخَزْعَلي سلمان، ومنهم من تَدارَك العِمران، ومنهم مـن سـار إلـى البصرة قالعاً على شَتَات شَمْلِه حَسْرَة.

ثم إنهم في السنة العاشرة بعد المائة والألف[1]، أصرُّوا على بَغْيِـهم وغدرهم، وأضَرُّوا العِباد بِغَيِّهم ومَكرِهـم، وعَجَـز والـي بغـداد عـن مُصادَمَتِهم ومُحاربتهم ومُقاوَمَتِهم، فآل الأمر أن عَـرَض جميـع ولاة دار السلام، إلى السلطان صاحب المَمالك ورئيس الحُكّام، يَطلُبون منه النُّجـدَة والخَلاص، لتضييق هؤلاء اللِّئام[2] عليهم الأفحاص[3]، فأرسل إليهم وزيراً جليل الشأن، ثابت الجَنان، صُحبَة الأكراد، وسائر أتباع[4] بغداد، وحـاصل عدد العسكر خمسون ألفاً أو أكثر، كلُّهُم فوارِس وأبطال، ورِجـال أقيـال، ذَوُو استعداد للقِتال، وأهْبَة للنِزال، فلما تقـابلوا صفّيـن، وصـاروا مـع <٣٠ب> العدو جَمْعَيْن، واشتَعلَت بينهم نيران الهَيْجاء، ورُجَّت من صـوت الطّوب والتُفَك البَيْداء. شعراً [من الوافر]:

كـأنَّ البُنْـدُقَ الزُّغـاجَ عيـسٌ   سَرَتْ، والطّوبُ في الهَيْجاءِ حادي

وحنَّت الصيقال في نُحور الأبطال، وصـالَت الكُمـاة وحـالَت دون الآجال، ونُثِرَت الرؤوس، ودارت على البَيْنِ من المَنِيَّة الكؤوس، وكَبَـت الخَيل بِفُرسانها، وطَفِقَت تَعثُر في عِنانـها، والقَتـام عَلاهـم، والعَجـاج

---

[1] أولها ١٠ تموز ١٦٩٨م.

[2] الأصل اللام.

[3] المواضع التي تسكن.

[4] في المطبوع: أبناء.

وأراءهم، وسالت الدماء، ومالت الأعداء، وتلا الْبُنْدُق الْهتوف، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. فطلبت أعداء الدين الخلاص، ورامُوا الفرار ولاتَ حينَ مَناص، لكَونِ أمامهم أنهاراً جارية، وجداول تتدفّق في تلك الناحية، وأهواراً هائلة، ومياهاً حائلة، فصار أكثرهم فرائس أولئك النسور، وقِرَى للوحوش والطيور، ورجَعَت جنود الله غالبة، وآبت عباد الله رابحة كاسِبَة، واعتَرى أولئك الأعراب الذُّلُّ والهَوان، وتنَبّهوا من هاتيك الأحزاب الأمان، فبقَوا يُظْهِرون الذِّلة، ويُبدون القِلَّة، ويُؤدون الجِزْيَة عن يدٍ وهم صاغرون، ولم يَظْهَر عليهم عِصيان، ولم يَبْدُ منهم الطُّغيان.

ثم لما وُلِّي هذا الباسل بغداد، واستمرَّت شَجاعته وفِراسَته في كل واد وناد، ولما كان كلٌّ من الفِرَق الأعرابية قَصَد صيراعه، وخوَّل جَحْدَرَته[1] على حَمِيَّة، ليَفوق على الجماعة، ويكون رأساً للأعراب، ومَظْهَراً للفساد والخَراب، تَذَكَّرت هذه الفِرقة شَجاعتها الماضية، وفِراسَتها[2] بأُسُودها العادية، وأنَّهم أقدر مِمَّن سواهم <٣١أ> وأبلغ في الفِراسةِ ممَّن ناداهم، وأنَّهم إن أذَلّوا عِزَّه، وفَلّوا حَزْمَه، ملَكوا العِراق بحَذافيرها، وتحكَّموا في الآفاق على صغيرها وكبيرها، وسَوَّل لهم الشيطان، وزَخْرَف لهم هذه الأباطيل في هذا الشأن.

---

[1] جحدره: صرعه.

[2] الفَراسة والفروسة والفروسية، بمعنى واحد. والفراسة بالفتح: مصدر قولك رجل فارس على الخيل، وإذا كان فارساً بعينه ونظره، فبكسر الفاء.

وكان في السنة التاسعة عشرة بعد المائة والألف[1]، طفقوا يستعِدُّون، وعلى كل فساد يَستَعدون، وأحالوا على الزُّراع، وصالوا على كل مُسالِم في تلك البِقاع[2]، وبلغ الوزير بخيال مفاسِدهم، وخَبُرَ بحِبال مصائدهم، فأرسل إليهم يُبدي لهم النصيحة، ويُحذّرهم من الفضيحة، إذ ربُّما تَصطلِح بعض أحوالهم، وتُحقَن دماء رجالهم، فأبوا إلاّ العِصيان، والانقياد لأوامر الطُّغيان، وكأنما في آذانهم عن استماع إرساله صَمَم، وعلى أذهانِهم لدى تَفَهُّم مَقاله بَكَم، وحال بينهم وبين خَشيته، وزادهم شُموساً عن الإنقياد إلى دَعْوتِهم. فلما حقّق منهم عدم الطاعة، وتيقَّنَ تَرْكُهم الدخول في جُملة الجماعة، جَمَع عساكِره، وأرسل إلى الأطراف دَساكِره، فأتاه من كل فَجٍّ عميق، كلُّ بطل في الحروب صديق، ووافتهُ الأكراد بفُرسانها، والعُمّال للإمداد من بُلدانها وأوطانها، فسار إليهم بخَميس مَلان بكلِّ ثابت جَأش وقَوِي جنان.

فلما بلَغ بهم إلى المَحاوِيل[3]، أتاه الرسول من أُولئك المَخاذِيل المَحاوِيل[4]، وعقّبَته رؤساؤهم، وذوو آرائهم وأُمراؤهم، وطلبوا الأمان،

---

[1] أولها في ٤ نيسان سنة ١٧٠٧م.

[2] في كلشن ص٣٢٢ أسماء البقاع التي تغلبوا عليها، وهي: الباشية، والسيب، والأهوار.

[3] بلدة بين بغداد والحلة، نشأت عند خان قديم شيد على نمط خان الإسكندرية، مر به الرحالة بكنكهام سنة ١٨١٦م. تنظر رحلته، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١، ١٩٦٨، ص٢٤٠-٢٤١.

[4] جمع مُحوِل، من حال لونه أي تغير واسود.

وأن يلْوي عن قصدِهم العِنان. وتوسّلوا إليه بكلّ وسيلة، وتضرّعوا وعلى هذا مكرٌ وحيلة! إذ قصدُهم تَفْتيره عن نِيّتِه، وفلّ عسكره وأهل حَمِيّتِه، فقالوا له: بعد اليوم إن عُدنا فعلَينا اللّوم في أوسع الحل <٣١ب> من سَفْكِ دمائنا، ونَهْبِ وهَتْكِ أطفالنا ونِسائنا، وحقّاً كنّا قبلُ عُتاةَ بُغاة طُغاة، والآن قد رجِعنا إلى سبيل الرّشاد، وتركنا طريقَ الفَساد، وجميع أمرِكَ مُطاع، ونحنُ عبيدك في هذه البِقاع، ومِن هذه الساعة لن[1] يتعرّض منا أحد لِقَطع طريق، ولن[2] نَشِنّ[3] الإغارة على عدو أو صَديق.

فلما سَمِع الوزير هذا المقال، علِم أنه عَيْنُ المُحال، لكنّه قال: ربما يَصدُق الكَذُوب، وربما كان قصدُهم الراحة من هذه اللُّغُوب[4]. فقال: قد عَفَوتُ عما مضى، ولكن قَصَدَ اختِبارهم، فطلَب منهم أشرارهم، وقال: إن كُنتم فيما ادّعَيتم صادِقين، فأتوني بأُولئك الخائنين. فقالوا: سَمعاً وطاعةً! نحنُ نأتيك بهم في مثل هذه الساعة. فرَجَعوا إلى أخبِيَتهم، وصاروا في أنديتهم، وظنّوا أن الوزير قد رَجَع بجنوده، وانقَشَع سَحاب بُنوده، وقالوا: إنه لم يشعر بقَضايانا، وعَدَم مجيئنا بما أراد وإتيانِنا إلاّ وقد تفرّقت عساكره، وذهب مُناصِره، ونُبْعِدُ[5] أهالينا في البِيد، ونُبقي الرِجال عن العمران غير بَعيد، فإن قاتَلَنا كان لنا الخِيار، في الثَبات والفِرار. وإن غَلَبنا كُنا أعلى كلمة وأكثر العُربان أُمة.

---

[1] في الأصل لم، والصواب ما أثبتناه.

[2] في المطبوع: تشن.

[4] التعب والإعياء.

[5] في المطبوع: ونبعد.

لكن الوزير حَدَس هذا الرأي، فلم يُبالِغ عنهم في النأي، ولم يَرْجِـع إلى مكانه، ولم يذهب عنه غالبُ أنصاره وأعوانه، بـل بَقِـي فـي تلـك الصحارى مُتنقِّلاً، ودام في هاتِيكَ البَراري مُتعلِّلاً، حتى أتاه الخبر اليقيـن، بِنَقْضِ عهد أولئك المَساكين، فَركب بِجنوده، وسار بِضَياغمـه وأُسـوده، وشَنَّ عليهم الإغارة، ومن حِدَّةِ السَّيْر أبْدَت حوافِر الخَيْـل كـل شَـراره <٣٢أ>، فوافاهم نصف النَّهار، علـى خيـول تَسْـبِق الظَّلِيـم والنَّـهار، وبادَرَت- كما قال العَميدي[١]- جنود الله إلى اقتِناصِـهم، ومـن يُرسـي الجبال إذا تَزَعْزَعت رِعانُها[٢] ومَناكِيـها، ويُمْسِـك السـماء إذا تـهاوَت نُجومها وكواكبها، ويَرُدُّ عواصِف الرياح (إذا استَقَرَّ سُلطانها، ويتعـرَّض لِصُدور الرماح)[٣] إذا استَمرَّ مِرانها[٤].

فلما رأى المَداثير[٥] رجال الدولة مُستَظلِّين بظِلال الألوية الخافِقـة بالنصر والإظهار، والرايات الناطِقَة بالغَلَبة والاقتِـدار، والبُنـود الهاتِكـة لأستار أولى الغدر والخَتَر[٦]، والجنود المالِكة لِرقاب أهل البدو والحَضَـر، وأبصروا معهم في بُقْعَةٍ واحدةٍ كل سامٍ من بني حام حُماة الدِّين، والذَّائدين

---

[١] هو محمد بن أحمد العميدي، اديب منشئ، تولى ديوان الانشاء فـي مصـر، ولـم مؤلفات جمة في الادب والبلاغة وتوفي سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م. يـاقوت: معجـم الادباء، ج٧، ص٢١٢.

[٢] جمع رعن وهو أنف يتقدم الجبل..

[٣] ما بين قوسين ساقط من المطبوع.

[٤] الرماح اللدنة في صلابة.

[٥] جمع داثر، وهو الهالك.

[٦] الختر شبيه بالغدر والخديعة، وقيل هو أسوء الغدر وأقبحه.

عن حَرِيمه، وأنصار الحق المُجَرِّدِين لتَشييده وتعظيمه؛ تَحقَّقوا أن النـافِثِين في عَقَدِهم، والمُستكثِرين لقليلِ عَدَدهـم، خَدَعوهـم بالمُحـال والبـاطِل، وغَرُّوهم في الرأي الفائل[1]، وأنهم شَهِدوا مَشْـهَداً للثبـاتِ فيـه غَـرَر، ووَرَدُوا مَورِداً ما عنه صَدَر، فاستَقْتَلوا وقد انقَرَضَـتْ[2] آجـال أولئـك الأعمار، وهَلَكوا وقد انقَضَت أعمار أولئك الأغمار، حيثُ اظلَّـمَّ النَّـهار، وزاغَت الأبصار، وعَزَّ الثَّبات، وخَشَعت الأصوات، وطـارت العُقـول، وحارت الخُيول، وضاقَ الخِناق، ومالَت الأعناق، وسالت الأحـداق مـن المحاجِر، وبلَغَت القلوب لدى الحَناجِر، وتَقاطَرَت عليهم السِّـهام، رُسُـل الحِمام، مُقصَدَه وقاصِده، ونابَت السُّيوف عـن نُـوَب الأيـام، راصِـدةً وحاصِدةً، واكتَسَت السماء من القَتام ملابِس حِداد، وثَبَتَت أنصـار الديـن وأشياعِه ثَباتَ أطواد، وطَفِقَت سَوابِق الخيل تَعثُرُ في جِجالها، وتَكِرُّ وتَفِـرُّ بين الرؤوس بأبطالها، وصُمَّت الأسماع <٣٢ب> من صليـل المَنـاصِل، ونَبلت النفوس من السُّمْرِ النَّوابِل، فلم يَكُ إلاّ بمِقدار مـا رَعُفَـت أسـنَّة الرماح من أحشائهم، واختَضَبَت ظُبا الصِّفاح بدمائـهم، حتـى تَزَلْزَلَـت أقدامُهم، وتنكَّسَت أعلامُهم، فولّى الأرْجاس هَرَبًا، ولم يَقْضُوا غـير فَقْـدِ الأنفاس أربا، ورَجَع عنهم رابِحاً، وآبَ وقد قَرَن بهم سَعْدا ذابِحاً، وسِـماكاً رامِحاً[3]، مُغتنِماً جُلَّ أموالهم، مُرجِعاً إليهم- كالعادة- كُلَّ عِيالهم، وعَمَّـر

[1] الرأي الفائل هو المخطئ والضعيف

[2] في المطبوع: تعرضت.

[3] سعد الذابح: نجم صغير ومنزل من منازل القمر، والسماك الرامح: احد السـماكين، وهو معروف من الكواكب قدام الفكة وليس من منازل القمر.

ما خَرَّبه الأشرار، ومَهَّد النَّواحي، وجدَّدَ حَفْر الأنهار، وأرْجَع مَن هَـــرَب خَوفاً من أولئك الأرجاس، كُلاً إلى مَكانه، وأعادَ القاصي خَوفاً من ضَـــرَرَ أولئك الأنجاس إلى أوطانِه.

وقَصَد دار حُكْمِه، ومكان حِلْمِه، وحَسُنَ الحال، وابتَـــهَجَت الأيـــام وأنارَت اللَّيال، واستوى الغَني والفقـــير، ومـــاوى ذو القليـــل ذا الكثـــير، بالإنشراح والهَنا، والأفراح لِزوال العَنا. وبَقِيَت الناس على هـــذه الحالـــة، مُستَظِلِّين بذي البَسالة والعدالة، إلى سنة عشرين بعد المائة والألف[1].

فصل

في بيان وقائع البصرة

ونحنُ نَقتَصِر على ذِكر الغَزو الذي باشَرَه، والحَرْب الذي كان هـــو ثائره وناصِيره[2]، ونَدَع غَوْغاء مائج مع الـــولاة، وعِصيانَـــه فـــي تلـــك الجِّهات، إذ شَرْحُها يَطُول، ويَمِلّ الأسماع على أنَّه فُضُـــول، ومـــن أراد الإطِّلاع على تلك القَضيَّة، وقَصَد الخبر الجَلِـــي، فلـــيَرجع إلـــى الســـيرة الحَسَنِيَّة للناظِم المَولَوي[3]، فنقول:

---

[1] أولها ٢٣ اذار سنة ١٧٠٨م.

[2] هكذا وردت في النص والصحيح ثائرها وناصرها لان الحرب مؤنثة.

[3] هو كتاب قويم الفرج بعد الشدة، في سيرة الوزير حسن باشا، ألفه يوســـف عزيـــز المولوي المتوفى سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م وأهداه إلـــى للوزيـــر المذكـــور ســـنة ١١٢١هـــ/١٧٠٩م. كتابنا: التاريخ والمؤرخون فـــي العصـــر العثمـــاني، بغـــداد ١٩٨٣، ص١٠٢-١٠٣.

بَيْنا الناس في أحسنِ عشرة، إذ نَجَم الفساد من ناحية البصرة، وهـو أنَّ شيخ المُنْتَفِق مُغامِس بن مانِع، مَدَّ يد البَغْي <٣٣أ> والغَصْبِ من غـير مانِع، وتَرَك الإطاعة لوزيرها خليل باشا[١]، وحاكى فِرْعَون في الضَّلالـة وماشى. وتَغَلَّب على نواحي الجَّوازِر، وأظهر الفساد بِكُلِّ عـاصٍ مـاكِر، وكلما عُيِّنَت عليه العساكر من طَرَف ذلك الوزير يَرجِعون بِزِيٍّ خاسِـر، ويؤوبُون بالتدمير. وكثرت[٢] الأراجيف في الفَيْحاء، وصارت ذا[ت] قَحْطٍ ولأواء. ولم يَزَل كلٌّ من أعوانه مُتَقَلِّداً للفساد عَضْباً، ولم يَبْرَحوا يـأخذون كل سفينة غَصْباً.

فلما سَمِع الوزير المذكور - ضُوعِفَت له الأجـور - بِفِعـل أُولئـك الطُّغاة، وسَدِّهم على البصرة السُّبُل من جميع الجِّهات، خـافَ أن تَمَتَّـن شَوكَتُهم، وتَقْوى حَمِيَّتهم فيأخُذون البصرة في الزمن الأقـل، ويُخرِجُـون الأعز منها الأذَل، فأمَدَّهم بعساكر رِجال[٣]، وأرسَـل لـهم مـن القُـوت الأحمال. فلما بلَغوا إلى البصرة بما معهم، وحلَّ فيها أُولو النَّجدة والنُّصْـرة أجمعهم، قَوِيَت قلوب أهل البصرة، وزال عنهم زمن العُسْرَة، واسـتَرْوَحوا رَبيع الأمان، واستَيْقَنوا السَّلامة من تلك الغُربان.

ثم أن الوزير المذكور كتَبَ إلى الدولة بِخُصـوص هـذه الوَقْعَـة، وحَرَّضَهم على فَلِّ عِصابة المانِعِيَّه الرَّادِعة المانِعة[٤] .فلما بلَغهم الكِتـاب،

---

[١] تقدمت الإشارة إليه.

[٢] كذا في الأصل، فعل ماض متصل بتاء تأنيث من كثر، وفي المطبوع: كثرة.

[٣] في المطبوع: رحال.

[٤] في المطبوع: المالعة.

أمروا والي بغداد المذكور أن يكون رئيسَ الجنود الوارِدة إلى تلك الأرض للمُقَاتَلَة والمُعاضَدَة.

ثم بعد الزمن القصير، والأمَد اليسير، قَدِم والي[1] كُتاهْيَة الوزير حسن باشا، ومُحافِظ دِيار بكر الوزير رجب باشا، ووالي كَرْكُوك الوزير يوسف باشا[2]، بجميع عسكرهم، وقَدِموا بغداد بِعَجْرِهم وبَجْرِهم. ثم <٣٣ب> قَدِم والي الموصل[3] على استعداد، وقَدِمَت بَعْدَه عِصابة الأكراد، وصار في الجانب الغربي مُعسكرهم. وحلّ على شاطيء نهر مَسْعُود[4] ثُقْلهم وعسكرهم.

---

[1] في المطبوع: إلى

[2] تولى يوسف باشا ولاية شهرزور (مركزها كركوك) مرتين، أولهما من ١١١٧ إلى ١١٢٠هـ/ ١٧٠٥-١٧٠٨م ثم عاد إليها بعد فكان فيها والياً سنة ١١٢٤هـ/١٧١٢م. الأسر الحاكمة ٢٣٩.

[3] هو محمد باشا الشهسوار، تولى الموصل من ١١١٩ إلى ١١٢١هـ/١٧٠٧-١٧٠٩م.

[4] هو نهر المسعودي، شقه الخواجه مسعود بن سديد الدولة منصور بن أبي هارون الشافعي، و كان من أكابر بغداد في القرن الثامن للهجرة (تاريخ الغياثي ص٩٤)، وقد لبث هذا النهر جارياً في بغداد الغربية، حتى أوائل القرن العشرين، ثم اندرس، وكان يأخذ مياهه من نهر الخر الآخذ مياهه من هور الصقلاوية، ويمضي جنوباً، في الفضاء المحيط بسور محلات الكرخ، ليصب في دجلة، ويحتل جانباً من أرض مجراه اليوم شارع مطار المثنى سابقاً.

وجهّزَ الوزير الكبير والي بغـداد العساكر الغزيـرة، والجمـوع الكثيرة، وأخذ صُحبة أولئك العسكر من مُحـافِظي بغـداد أهـل الغـيرة والحَميَّة، ألا وهم أولو النَّجدة والأمداد الكَتِيبة اليَنْكَجَرِية[1].

[1] ذكر في كلشن أن الدولة أصدرت أوامرها إلى القوات الينكجرية في بغـداد بانفـاذ خمسمائة جندي من المتصفين بالبسالة والإقدام، والينكجريـة (وتعنـي: الجنـود الجدد)، وتلفظ ينيجرية (وحرفها الأوربيون إلى الانكشارية مع أن الكاف بالتركيـة لا تلفظ) جيش أنشأه العثمانيون في عهد السلطان أورخـان (٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ويتألف في أساسه من ١٠١ أورطه (= فوج) مع أفواج أخرى ملحقة بـه، وعـدد منتسبي كل فوج يقدر بنحو خمسمائة جندي، وهم موزعون فـي أرجـاء الدولـة المختلفة، ويتبعون بصفة مباشرة (آغا الينكجرية) الذي يحضر الديوان الـهمايوني (السلطاني) بصفته قائداً عاماً للجيش. وكان منتسبو هذا النظام يؤخذون في الأصل من بين أطفال القرى المسيحية في أوربة الشرقية، حيث يعتنقون الإسلام صغـاراً، وينالون تدريباً عالياً، وينتمون إلى الطريقة البكتاشية التي أسسها الحاج بكتاش أحد صوفية عصره، بيد أن ضعف المركزية في إدارة هذا الجيش، أدى إلـى توقـف امداده بالجنود، ومن ثم فتح المجال لتسرب فئات اجتماعية مختلفة إليه، حتى بـاتت أفواجه تمثل السكان المحليين، مع فقدان تام لروح الضبـط العسـكري، فكـثرت حوادث التمرد التي كان يقوم بها قادة هذه الأفواج، في الوقت الـذي زادت فيـه خسائرهم في المعارك ضد الجيوش الأجنبية، وأصبحوا حجر عـثرة أمـام كـل محاولة لإصلاح المؤسسة العسكرية، حتى اضطر السلطان محمود الثاني إلى الغاء الينكجرية بالقوة المسلحة، فيما عرف بالتاريخ العثماني بـ(وقعة خيريـة) سـنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م. وأنشأ بدلها جيش جديد أخذ بالنظم العسكرية الحديثة. ينظـر دائرة المعارف الإسلامية، مادة انكشارية، بقلم كليمان ايوار.

ثم سار بهم في أوائل رَجَب من سني عشرين بعد المائة والألف[1]، ورَحَل بهم الجَمْع يتلو الجَمْع، والصَّف يَقْفو الصف، ونَزَل بهم قَصَبَة الحِلَّة، وكانت سبعة أيامِ الإقامة والحَمْلَة. ثم سار مُتوجهاً إلى مَقصُوده، تَخْفِق على رأسه ألْوِيَة جُنوده، وتُحْدِق به الوزراء، وتَحِفُّه الأكابر الأمراء، يَقْطَع الروابي والوِهاد، والأغوار والأنجاد. فكلّما قَطَع عَلَماً بَدا عَلَم، وكلما بلَغ أكَماً تراءى أكَم، حتى بلغ بجيشه العظيم، وجَأشه الثابت القَويم، قلعة العَرْجَة[2]، وأقام فيها طلباً للراحة، لكَونِها ذات بَهْجَة.

ثم رَحَل عنها يَقْطَع المَهامِه والقِفار، وسار شاناً للإغارة فيمن سار، فَدَخل أرض البصرة، وامتَطى الصحارى بتلك الكَثْرة. ثم لكَثْرة مياه هاتيك السِّباخ حَصَل للجنود النَّصَب، إذ كل قَدَمٍ هنالك ساخ، فأشرَف على البَلدة المذكورة، بتِلك الجحافل المنصورة، وابتَغى مكاناً للمُعَسكر، ونَزل الجُند والعسكر، وخرج لاستِقباله الوالي وسائر الأعيان، للفَرَح المُتوالي وابتِهاج الزَّمان.

ثم إنه تَجَسَّس أخبار <٣٤أ> ذلك الكلب، فأُخبِر أنه بمكان الوصول إليه صَعْب، لحَيْلُولة المياه والأنهار، وكَثْرة الغيل والأشجار بَيْنَه وبين العسكر، ولاسيما الكبير المُسمَّى بنهر عَنْتَر، ولكنه هناك مُتأهِّب للقِتال، مُتصلِّب بالرجال الأبطال، جامِعٌ مع عشيرته أكثر الأعراب، من أهلِ

---

[1] ويوافق منتصف أيلول من سنة ١٧٠٨م.

[2] بلدة كانت تبعد عن مدينة الناصرية شمالاً بنحو ثلاثة كيلومترات، على الضفة اليمنى لنهر الفرات. وهي اليوم مِّن المدن المندرسة وإن كانت خرائبها لما تزل مرئية حتى الآن . ينظر يعقوب سركيس: مباحث عراقية ج١ ص٣٩.

نُجدته ونُصرته، زاعِماً أنه إن عَبَر عليه العسكر، ونَصَب هناك المُعَسكر، يَتْرُكهم طُعمةً للسيوف، ونُهبَةً للحُتوف، وإنه إن قَطَع عليهم العَقَبات وصار معهم في أوسَع الجُهات، ربما ينجو البعض بأنفاسه، ويَسْلَم بأمِّ رأسه. هكذا ألقى الشيطان في رَوْعِه، وغرَّه بِكَثْرة جُموعه، ولم يَدْرِ أن حزب الله غالب، وأن أسَد الله له طالب.

فلما سَمِع الوزير الهُمام، من المُتَجَسِّس هذا الكلام، ازدادت شَجاعته، وهاجَت للقِتال جَماعتُه، حيثُ أن ذلك الخَسيس، لم يَعتَنِ بهذا الخَميس، وأنه مُحقِّقٌ خِذْلانَهم، وأنه نَزَل هناك كي لا يُسَلِّموا أبدانهم.

ثم أن الوزير أبقى والي البصرة في مَكانه، وقَصَد هذا الخبيث بأنصاره وأعوانه، ورفَع لِواء النصر والظَّفَر، حتى بَلَغ بِسَيْرِه نهر عَنْتَر، وإذا[1] هو[2] صَعْبٌ عُبوره على الجنود، ولا يُمكِن قَطْعه بأولئك البُنود. ثم أنه لِشِدَّةِ العَزْم والحَزْم، عَوَّل على السَّدِّ والرَّدْم، فأتى بالحِبال الغِلاظ، والحَطَب الكثير من تلك الغِياض، فعُمِل له البَطْخات، وهي حَطَبٌ مَنْسوجٌ بقُوَّة ومَتانة، وبِثِقَلٍ ورَزانة، حتى إن الواحدة لا يَحمِلُها إلاّ نحو الخمسين رَجُلاً، ولا يُقِلُّها إلاّ نحو الأربعين بَطَلاً، <٣٤ب> فأمر بإلقائها في النهر، وشَدِّها من الجانِبَيْنِ بالحِبال، وأرسى عليها الجِبال، من الحَطَب والتُّراب والرِّمال، وسَدَّه سَدّاً مُحكَماً في يومين، وجَعَلَه في الأثقال كَسَدِّ ذي القَرْنَين.

---

[1] في المطبوع: إذ هو

[2] في الأصل: هو من صعب.

وعبَرت عليه جنود الله، وصارت حيث سارَت بين العَدْوَيْن، الأعراب والمياه. فأشْرَفت عليهم الجُموع من الأعراب، وقَصَدَتهم بالنَبْلِ الهَمُوع والزُّرق الحِراب، فَعَدَّل اللَّيثُ جُموعه، وأبرَزَ كلَّ كَتيبةٍ مَجمُوعه، وقاتَلَهم زَحْفاً، ونازَلهم ألفاً ألفاً، وحَمي الوَطِيس، واتَّقَد عَزْم ذلك الخميس، وجالَت خُيول الله بين الصفَّيْنِ، وحالَت بين المَرْءِ وأجله بقُربِ الحَيْن. وكشَّرَت المَنيَّة عن نابِها، وأسرعت أُسُد الحَمْيَة عن غابِها، وحَنَّ الصقيل من الجانبَيْن، ونَعَبَ بين الجَمْعَيْن غُراب البَيْن، وتصارَعت الضَّراغِم، وتَمارَغَت على الغَبْراء الضَيَّاغِم، وذَرَفَ العَسَّال بِدَمْعٍ قَانٍ، وضَحِكت الصقَّال في وجوه العُربان، وصال الوزير غارِقاً في بِحار الدِّلاص[1]، فضيَّق على العدو واسع الأفحاص، وكَرَّ وحَمَل، وقَصَم كلَّ بَطَل، ونَظَم الفوارِس بطَعناته، ونَثَر الهام تحت القَتامِ بِضَرَباته، وسَجَدَت الرؤوس- وإن عَزَّت- لِحُسامه، وطارَت النُفوس واستَفزَّت هَرَباً من نِسر إقدامه. شعراً [من الخفيف]:

سَيْفُ حَتْفٍ إلى نُفوسِ الأعادي حَمَلَتْهُ حَمائِلُ التأييدِ

وكَرَّت تَقْفوه عِصابَتُه الضَّراغِم، من كلِّ بَطَلٍ مُراغِم، وطلبوا الأعداء طَلَبَ المُصطاد للظِّبا، وبارَزوا الأشقَياء فَمَحَقُوهم <٣٥أ> بأشفار الضُّبا[2].

---

[1] البراق اللين كناية عن الدرع.

[2] الضبا، جمع ضُبَة: حد السيف والسنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك.

ولما شاهَدَت الأعراب هذا الرَّهَج، تَمزَّقَت منهم المُـــهَج، وزاغـت منهم الأبصار، وحقَّقُوا أن لا نَجاة إلاّ بالفِرار، فَلَوَوْا أعِنَّتهم وأمُّوا خيامــهم وأخبِيَتهم، وهَرَبوا على تَجلُّد، وأبْدَوا الحَزْمَ المُتَصلِّد. ثم لم تَزَل جنــود الله معهم كل يومٍ بين تقديمٍ وتأخير، وقِتال واصطِدامٍ كثير، والوزيــر يَمشـي عليهم زَحفاً، ويَسُومُهم وَبالاً وخَسفاً[1]، ويَغْصِب منهم كـل يـومٍ مَكانــاً، ويَستَوطِن منهم كل ساعةٍ أوطاناً، حتى بانَت الخِيام، مــن خِـلال القَتام، بحيثُ التُّفَكُ الكبير والطُّوب تَصِل أخبِيَتهم، فتَزَعزع من أهلها القُلوب.

ولما أبصَر لهداء الله هذا الإنكسار، وأحَسُّوا بالخُســران والبَـوار، وأنّهم إنْ هَرَبوا وقتَ الإصطِدام، وفَرُّوا في مَقام الإعـــتِراك والازدحـام، تَوْسَر الثَّيِّبات والبَنات، وتَبقى أنفُسُهم عليهن حَسَرات، عَزَمـــوا علـــى أن يَبْذِلوا في القتال جُهدهم، ويَتَجاوَزوا في مُصارَعة الأبطالِ حَدَّهـــم، فـإن نُصروا فيها ونِعْمَت، وإلاّ شَغَلُوهم بالطِّراد، وألهُوهم بالمُنازَلة آحاد، حتـى يَجُرَّ الظلام عليهم الأستار، فيهرَبوا بالعيال ويَعبُروا لُجَّ الأبحار.

فلما أسفر الفجر عن صَباحه، وأبدى الصباح سناء مِصباحـــه، وامتَطَـوا الخيول العاديات، ورَكِبوا الجِياد الغاديـــات، وذَهَبُـوا للـــنِزال، وقَصَـدوا مُقارَعة الأبطال، فقامَت جنود الله قِيام الأُسْد من الشَّرى، وتَلاقَيــا علــى وَغساء[2] الثَّرى، فكأنَّ رِجال الدولة لم يشهَدوا نَصَباً، ولم يَلْقَوا من حربهم بالأمس <٣٥ب> تَعَباً، بل عَبُّوا جُموعهم، واصطَدَموا في تلك الوَغســاء، وسالَت مـــن الجـانِبَيْنِ الدِّمــاء، وجـالَت الفُرســان، وحمَلَـت الكُمـاة

---

(1) الأصل: سخفاً.

(2) الوعس: الرمل الذي تغيب فيه الأرجل .

باللدُونِ واليمان، وعلا القتام، وكثُر الازدحام، وزُلزلت الأقدام، وصعَّب على نار الهيجاء الإقدام، والعقول حارت، والعيون زاغت، والأماق غارت، والخيل تعثُر بالرجال، وتكبو بالرؤوس تحت الأبطال، وثبتت جنود الله ثبات الجبال الراسخة، وعلت كلمة الله علاء الأطواد الشامخة، وحنت الصقال البارقة، ورنمت النبال المارقة، وصفق العسال على ظهور الفرقة المنافقة، والأطواب أبرقت، والبنادق أحرقت. فياله من يوم عبوس، جرّعت فيه للمنية كؤوس، ودارت رحى حربه على أبطال، وفوارس أقيال.

هذا، والوزير يُحرِّض جنده على القتال، ويحثُّ حزبه على تكرار النزال، ويعدو على أعدائه، فيغدو بين أرض القتام وسمائه، ويصول ويجول، ويروم في جموع الأعداء الدخول، فكم نثرَ هاماً، ونظم أبطالاً لثاماً، وهو في سماع مُطرِب، وغناء مُعجِب، ألا وهو ترنُّم الأوتار، وغناء صليل البتّار، فهو كما قال القائل. شعراً [من الكامل]:

رَيحانُهُ سُمرُ الرِّماحِ ووَردُهُ حُمرُ الصوارمِ والبُنودُ الزَّنبَقُ
وغِناهُ صَلصلةُ الحُسامِ وعُودُهُ الـ ـسَهمُ المُفَوَّقُ والصقيلُ المُقلَّقُ

ولم تزل جنود الله تحت القتام، بين كرٍّ وفرٍّ إلى أن أقبلَ الظلام، وجَيشُ النهار أدبَر، فعَدَل كلٌّ إلى مكانه، وآبَ كلٌّ إلى أوطانه، وباتت

خيل الله تُراقِب الصباح، وتَستَبْشِر بالنجاح <٣٦أ> في الغَداة والأربـــاح، لمّا حقَّقوا[١] مما حلَّ بأعدائهم أمس، وتيقَّنوا أن أكثرهم حلَّ في الرّمْس.

فلما أصبح الصباح، وجيوش الظلام غارَت على أداهم[٢] وأشـــرَق الفَجر ولاح، والكواكب فُكَّت عنها الأداهِم[٣]، قامَت أُسود العَرِين، محفوفَـةً بالظَّفَر المُبين، وتأهَّبُوا للمُبارزة، واعتَدُّوا للمُجادلـــة والمُـلازَزَة[٤]، فلـم يجدوا للقوم أثَراً، ولم يَعْرِفوا لهم خَبَراً، ولم يَبْقَ في الـــدار إلاّ الأثقـال، وهَرَب خوفَ الأسْرِ والعار، الرِّجال بالعِيال، وخاضُوا المياه فـــي جُنْـحِ الليل، وهَرَبوا ونساؤهم على القَتْلى تَنْدُب بالوَيْل[٥] وحَقٌّ للمَلِــك أن يُنْشِـد لدى الإيابِ، ويُخاطَب بقولِ شِهاب [من الطويل]:

بَقِيتَ بقاءَ الدَّهــرِ يـا بَهْجَـةَ الدَّهْـرِ   وهُنِّئ فِيكَ العَصْرُ يا زِينـــةَ العَصْـرِ

ولا بَرِحَت رِيحُ الوَغى لَكَ فــي اللِّقـا   تُفَتِّـحُ أزهـارَ الفُتُـوحِ مـعَ البِشْـرِ

ولا بَرِحَ الجَيْـشُ الـذي أنْـتَ قَلْبُــهُ   يَضُمُّ جَناحاهُ[٦] على بَيْضَـــةِ النَّصْـرِ

أتَـى الله بـــالفَتْحِ المُبِيـــنِ نَبِيَّـــهُ   ونَصَرَكَ هذا أنْجَـزَ الوَعْـدَ بـالأمرِ

لقَد سُرَّتْ الدنيـــا بِنَصْـرِكَ والعُلــى   وأصْبَحَ دَسْتُ المُلْكِ مُنْشَرِحِ الصَّـــدْرِ

نَشَأتَ ونَفْسُ الجُودِ في قَبْضَةِ الـرَّدى   فأنْقَذْتَها فـــي بَسْـطِ أنمُلِـكَ العَشْـرِ

وأحْدَثْتَ في وَجْـــهِ الزَّمـانِ طَلاقَـــةً   وَوَرَدْ خَدّ المجدِ في بِيضِـــكَ الحُمْـرِ

---

[١] كذا في الأصل، وفي المطبوع تحققوا.

[٢] جمع أدهم: وهو الفرس.

[٣] القيود، سميت به لسوادها.

[٤] شدة الخصومة.

[٥] في المطبوع: الويل.

[٦] في المطبوع: جناحاها، والصواب: جناحيه.

ورنّحت أعطاف الرّماح كأنّما   مزجت دماً سقيتها منه بالخمر

قدود المعالي ما هززت من القنا   وأحداقها ما قد هززت من البتر

عضدت بحسن الرأي عضباً مهنداً   فأغرب عند الضرب عن معجم السّر

شفعت بماضي العزم منك غراره   فأدركت وتر المجد بالضربة الوتر

وفلقت فيه هامة طالما غدت   متوّجة في غرة الغيّ والكبر

<٣٦ب>

وأهزمت أحزاب الضلال ولو دنوا   لألحقتهم في إثر من كان ذا غدر

وأخرجتهم في رغمهم عن ديارهم   وما اعتقدوا هذا إلى أول الحشر

همُ عزموا أن يمكروك بكيدهم   فحاق بأهل المكر عاقبة المكر

وألقوا حبال المنكرات وخيّلوا   فعارضتهم في آية السيف للسحر

كفى الله فيك المؤمنين لدى الوغى   قتال العدى حتى سلمت من الأزر(1)

ولو لم يكفّ العفو بأسك عنهم   لعدت وقد عاد الحديد من التبر

وما لبثوا إلا قليلاً فكم ترى   بهم من ظليم فرّ عن بيضة الخدر

تولّوا مع الخفاش في غسق الدجى   وخافوا طلاب الشمس في عقب الفجر

إذا لهم عقبان راياتك انجلت   أعيروا من الغربان أجنحة الغرّ

رميتهم في فيلق قد تفرّدت   به طائرات النجح في عذب السّمر

به كل شهم من سلالة هاشم   من الحيدريين الغطارفة الغرّ

إذا ولجوا في معرك كاد نفعه   لطيبهم يربي على طيّب العطر

أسود كفاح بأسهم في رماحهم   كسمّ الأفاعي في أنابيبها يجري

وكم قبلهم صبّحت قوماً بغارة   فلم يحتموا منها ببرّ ولا بحر

---

(1) الأزر: الالتفاف ولعلها هنا الأسر.

فرَجَع إلى البصرة بعد عِمارة ما خَرَّبه أُولئك الفُجّار، وإرجاع سُكّان تلك النواحي إلى الديار. ثم أنه بعد رُجوعه بعساكره، ورُجُوعه جُموعه،[1] أتى الأمر السلطاني والإنعام الخاقاني، بِتَولِية البصرة لعامِل كُوتاهيَه الوزير حسن باشا[2].

ثم أنّ الخليفة المنصور، والأسَد الجَسُور، بعد إلقائه أعباءَ النَّصَب، وحُصول الرّاحة وزَوال التّعَب، سار بِخَمِيسه المذكور، يَؤمُّ مدينة المنصور. وسارَ بهم من وَسَط ناحية الجُزائر، في طريقٍ <٣٧أ> وعِرٍ لا يُمكن فيه السَّير لِكُلِّ سائرٍ، لِما فيه من الأنهار المُتَدَفِّقة، والمياه المُتَرَقْرِقَة، والشَّجَر المُحتَف، والغِيل المُلتَف، لكنه شَقَّه بجماعته، وعَبَر فيسه بكَمال صِناعته، إذ كل يومٍ يَعْمَلُ في طريقه من القَناطِر ما لا يُحَد، ويُسَوِّي الجُسُور للعُبور لكلِّ أحد، فصار طريقاً، المُرورُ فيه سَهلٌ بلا نَصَب، والعُبور على قناطِره وجُسوره مُمكِنٌ من غير تَعَب، وفي ذلك إرهابٌ لأعدائه، وتخويفٌ وتَرْويعٌ لخُصَمائه، إذ في مثل هذه الأهوار، وعلى هذه المياه والأنهار، يَشُنُّ طريقاً جادّة، ويَشْرَع سبيلاً خارِقاً للعادَة، فإذن لا يُمكِن من بأسه لدى الفِرار التّحَصُّن، ولا يَقْدِر من خافَه في[3] بُطون الأهوار أن يَأمَن فيَمكن، بل اعتَقد عَدُوُّه أنه لو عَزَم على سَدِّ شَطِّ العَرَب لَسدَّه من غير كُلفة ولا نَصَب.

---

[1] لعلها ارجاعه جموعه.

[2] تولاها من ١١٢٠ إلى ١١٢١هـ/١٧٠٨-١٧٠٩م كما في كلشن ص٢٢٥، وفي محمد ثريا: سجل عثماني ج٢ ص١٤٦ أنه تولاها سنة ١١٢١هـ.

[3] في المطبوع: من.

ثم أنه لم يزَل يَطوي الصَّحاصِح[1]، ويَستَهِل الضَّحاضِح[2]، حتـى بلَغَ قَلْعَةَ العَرْجا، فنَزل هناك وقطع التَّعَب عنـهم عَجّـا، فلمـا اسـتَوفَى بِعسكره الراحة، رَحَلَ بهم يقْطَع كل مِيلٍ من الأرض ومِساحة، ودَخَـل دار السلام، وزادَت بِقُدومه بهجة الأيام، وازدادَ حُبور الأنام، وحَصلَت المَسَـرَّة للخاصِ والعام.

فصل

[غارات مغامس]

وفي السنة الحادية والعشرين بعد المائة والألف[3]، ظَهَر مُغـامِس المذكور، من خَلْفِ السُّور، وتَجلَّدَ للخُصومة، وجلَـب إليـه كـل قبيلـةٍ وجُرثومة، ووافَقَتْه غزيَّة الأشرار، إذ في قلب كـلٍّ- كمـا تقـدم- مـن مَضَض الإنْدِمار نار، فأغاروا على قُرى بغداد، وحَرَقوا الـزُروع وقـد قارَبَت الحَصاد، ونَهَبوا القَرية الرَّمّاحِيَة[4]، وأودعوا في قلوب أهلها كـلَّ حيَّة، حيثُ <٣٧ب> غَصَبـوا أثاثَـهم ومَواشـيهم، وفرّقـوا أصُولـهم وحواشيهم، وحَرَقوا جميع زروعهم، وخرَّبوا غالب رُبُوعهم. فبَلَغ الوزيـر المذكور هذا الخَبَر، فبادَر الغَضَنْفَر الغَيور على الأثَر، أن يَبعَـث بعـض

---

[1] جمع الصحصح وهو الأرض الجرداء المستوية ذات حصى صغار.

[2] جمع الضحضح وهو الماء الضحل.

[3] أولها ١٣ آذار ١٧٠٩م وفي الأصل: السنة الحادي والعشرين بعد المائة والألف.

[4] تقدم التعريف بها.

الجنود إلى الحِلّة لتَحفَظ مَزارعها، وتَحرس مَواشيها، وتحمي مَراتِعها. وأرسل إلى نهر الشاه[1] أمثالهم، وأمَرَهم أن يفعلوا في الحراسة أفعالهم.

فلما ورَدَت العساكر إلى هذين المكانَيْن، كاد أن يَنعَب بأولئك الأعداء غِراب البَيْن، ورفعوا أثقالَهم من ذلك المكان، وحالَفوا من الأعراب من هو بَينَ البصرة وبُغْذان[2]، ودَخلوا الجَوازِر، وقَطَعوا السُبُل ونَهَبوا الأقوات والذخائر. ثم خَرَجوا منها ونَزَلوا بين العَرْجَة والأهوار، وأوقَدوا للفساد كل نار.

ثم أن الوزير المذكور أرسل إلى السلطان، يُخبِره بخصوص هذا الشأن، بأنهم عادوا إلى ما كانوا عليه، ورجعوا إلى ما استَنَدوا إليه، فكأنّهم طالبو ثارٍ منذ سِمْناهم الخُسف[3] والبَوار، فعُيِّنَت معه تلك العساكر الماضية، ووُجِّهَت إليه هاتيك الضَراغِمِ العادية.

وفي سلْخِ رَجَب هذه السنة، رُفِع اللواء للرحيل، وقَصَدِ الأعداء بكل باسِلٍ قَيل. ولما وصل السَماوة، بلغ الأعداء قَصْدَه، وتعجيل سَيْرِه وقَصدِه، فعَزَموا على الفِرار، إلى ناحية الجوازِر وراء الأهوار، لِعِلْمِهم بعدم مُقابَلَتِه، واعترافهم حينئذٍ بعَجزِهم عن مُجادلَتِه. فلما أحسَّ الوزير المذكور بِفِرارِهم، وتَحَصُّنِهم بأهوارِهم، ارْمَغَلَت[4] جنوده في الطَلَب، ولم

---

[1] تقدم التعريف به.

[2] يريد: بغداد.

[3] في الأصل: السخف.

[4] إرمغل: تتابع.

يَمنَعُهم الماء عن حُصول الأرَب. وعَبّروا إليهم أنهارهم، وخاضُوا عليهم <٣٨أ> أهوارهم.

وفرّقَ الوزير عساكره على كل فِرقَة، وسارَ بِكَتيبته على حِلَّةِ ذلك الماكِر لِيُعَجّل حَتْفَه وخَنْقَه، فهرب من هَرَب، ونال الباقي من الأعراب العَطَب، وتشتّت أموالهم على الآكام، وضاعَت عِيالهم وأطفالهم في الآجام، إلاّ أن مُغامِس الشّقِي فرّ مما لَقِي، وتغيّب تغيُّب المارِد، بعد أن كان بصفة كفء مُضادِد، فَرَجَع عنهم للضّرغام، وقد تَرَكَهم كالأنعام، لا يَهتَدون سبيلاً، ولا يَعرِفون عَدُواً ولا يُمَيِّزون خليلاً.

[حركات الجوازر]

وفي أوائل رمضان هذه السنة[1]، جاء الإنعام من السلطان بإضافة تَولِيَة البصرة إليه، لاعتِماد الخُنكار في مُهِمّاتِها عليه، فأرسلَ إليها بعض النُّوّاب[2]، وعيّن لِسياسَتِها بعض الأصحاب، وذلك في ذي القِعدة من السنة الثانية والعشرين بعد المائة والألف[3]. فلما بَلَغ النائب دار الحُكومة، ورُفِعَت إليه كل دَعوى وخُصومه، وكان حينئذٍ بعض طوائف الأعراب

---

(1) أي ١١٢١هـ/١٧٠٩م.

(2) هو صهره مصطفى آغا، وكان واحداً من (كتخدائيته) أي نوابه ومساعديه. ينظر كلشن ٣٢٧، وفي سالنامة البصرة ص٦٣ أنه تولاها سنة ١١٢٠ ولا يصح هذا، لأن إناطة الدولة تعيين المتسلمين بحسن باشا جرى بعد انتصاره على مغامس لا بعده.

(3) أي سنة ١٧١٠ للميلاد.

من طَرَف الجُوازِر مَدَّ يدَ الخَراب، ورفَع لواء العِصيان، فأرسل النائبُ إلى الوزير بهذا الشأن، فَركَب أيضاً عليهم بنجدته، ولم يتكاسَل لفَرطِ هِمَّتِه، فَدَمَّرهم تدميراً، وأفنى منهم خَلقاً كثيراً، وغَرَق الأكثر في الماء، وأُسِرَ غالبُ النساء، وتَرك في البصرة بعض العسكر، وعاد إلى بغداد.

فصل

[تعيين والي البصرة]

وفي السنة الرابعة والعشرين بعد المائة والألف[1]، عُيِّن الوزير عثمان باشا والياً على البصرة[2]، بعد أن أزالَ هذا الوزير عنها كلَّ مَضَرَّه، فلما ذهب إليها رآها[3] مُنْقادَةً بعد الجُمُوح، وأعرابها <٣٨ب> من كثرة فَتْكِ الوزير المذكور بهم جَسَداً بِلا رُوح، فَغَنَّاه طائر السَّعْدِ وغَرَّد[4]. مصراع [من المتقارب]:

---

[1] أولها ٩ شباط سنة ١٧١٢م.

[2] وكان حسن باشا قد عين متسلماً قبله هو قوجه حسن باشا، حكمها من ١١٢٢ إلى ١١٢٤هـ/١٧١٠-١٧١٢م، كما ورد ذلك في سجل عثماني ج٢ ص١٤٨، أما عثمان باشا، فهو آخر من تولى البصرة بصفته والياً، كما يذكر المؤلف. ينظر كلشن ٢٢٨.

[3] لفظة رآها في الهامش.

[4] جاء في الأمر الصادر من الدولة إلى عثمان باشا (دفتر مهمة ١٢٠ ص١٤٧-١٤٨، أواخر صفر ١١٢٦هـ) "أن بعضاً من مقاطعات البصرة كان قديماً في يد شيوخ العربان، ولا سيما مقاطعة الجزائر (الجوازر) التي هي أحسن مقاطعة في البصرة، كانت في يد مغامس بن مانع، وعندما حصل شيوخ العربان على القوة=

فصل

[حَرَكات البَلْباس]

وفي السنة السادسة والعشرين بعد المائة والألف[1]، ظَهَرَ - كما قيل - من عشائر البَلْباس بعض العِناد والفساد، والإباء عن الانْقِياد، وتَعَتَّوا على الرَّعايا التي قُرْبَهم تَعَدّياً ظاهراً، وتَجَرَّؤا على الفساد وصارَ بعضُهم لبعضٍ ناصيراً، فركب الوزير عليهم بِكَتائبه، وأُولي نُصرَتِه وأقاربه، فأبادَ شَمَلَهم، وأكثر قَتْلَهم، وفَرَّقَ جَمْعَهم، ومَزَّقَ رَبْعَهم، وعادَ بالغنائم، ورجع وفي قُلوبهم الأحقاد والسَّخائم[2].

=والغنى من ريع هذه المقاطعات، جمعوا حولهم طائفة للغربان، واستولوا على نواحي البصرة، وأوقعوا فيها خسائر فادحة، وأثاروا الفتن والقلاقل، مما أدى إلى تسيير الجيوش عليهم لاطفاء فتنتهم وثورتهم.. حتى تفرق جمعهم وتشتت شملهم، ثم دخلت عربان منتفق في دائرة الطاعة والانقياد للدولة العلية، كما قطع مغامس بن مانع عهداً على نفسه بأن لا يدخل في مقاطعات الجزاير فيما بعد، وتم تعيين مرتب له يتقاضاه من الدولة، وبذلك تقرر الأمن والنظام في المقاطعات".

[1] أولها ١٧ كانون الثاني ١٧١٤مَ.

[2] السخائم ج سخيمة وهي الضغينة.

فصل

[حركات أكراد البَبَه]

وفي أثناء هذه السنة، عصى بَكر بيك[1] من سَناجق أكراد البَبَـه[2]، التابعة لشَهرَ زُور، حيثُ أظهر الخِلاف، وتَغَلَّب على الأطراف والأكناف، ولم يَنقَد لوُلاة شَهرزُور، ولم يَتَّبع كلمة الجُمهور، فكم قَتَل رِجالاً، وهَتَكَ حيث سَبى عِيالاً، وأزْهَقَ تحت سَنابك خيله الأطفال، فَسَقى إذ فَسَق أهل القُرى كؤوس الزَّوال. فقَصَد الوزير عالي الهِمَّة، الكَشْفَ عن المسلمين

---

[1] هو بكر بك بن الفقيه أحمد بن كاكه شيخ بن بير بوداق بن أمير بك بن الشيخ حيدر المكري، تولى زعامة إمارته (مركزها في عهده داريشمانه، وهي قرية في منطقة بشدر) سنة ١١١٥هـ كما في كلشن ٣٢٨ ورحلة ريج ص٢١٥. وكان أمر قد وجه إلى والي بغداد حسن باشا بتاريخ أواخر رجب ١١٢٦ (دفتر مهمة ١٣٣ ص١٣١) يتعلق "بالنشاطات التخريبية التي يقوم بها الشقي بكر بن بيه في قرى كوي من مضافات شهرزور"، والتأكيد على وجوب "القضاء عليه وتخليص البلاد والعباد من شروره بالسير عليه بقوة عسكرية ومقاتلته إذا اقتضى الأمر ذلك".

[2] يريد الأسرة البابانية الثالثة والأخيرة التي حكمت منطقة قلا جولان وتوابعها، وكانت أسرتان حملتا الاسم نفسه قد حكمتاها في القرن العاشر، وقد أخذ اسمها من لقب (بابا) الذي يعني شيخ، أو أب، الذي كان يطلق على زعماء هذه الأسر في المرحلة الأولى من تاريخها، دلالة على غلبة العلاقات القبلية عهد ذاك. وقد عرفت هذه الأسر بـ(البَبَه) نسبة للقب (بابا) وبابان جمعاً له. ينظر البدليسي: شرفنامه، ترجمة جميل بندي الروزبياني، بغداد ١٩٥٣، ص٢٧٦-٢٧٧، والأسر الحاكمة ٢٤٨-٢٦٢.

لهذه الغُمَّة، وعَطَفَ عِنان عزيمته عن مكان إقامته، وطَلَبَ ذلك الجبَّار رأس الجَبابِرة والفُجّار، ولكن الخبيثَ الفاسِق مُتَحصِّنٌ بِكُلِّ جبل شاهِق، لا يُمكِن الوصول إليه، ولا يَقْدِر أحدٌ الهجوم عليه، مُتَصلِّدٌ بأتباعٍ جَعَلَهم لــه جُنَّة، ومُتَجلِّدٌ بِعساكر لا تخلو عن ضَرَرِهم الإنس والجِنّة، عددهم رَيْثُ[1] الرِّمال، وعُدَدِهِم تُزَعزِع بِضَرْبِها الجبال، لكن الوزير مُذ شاهَدَ <٣٩أ> اعتِقاله بتلك المَعاقِل، واعتِضاده بأولئك الجَحافِل، لـم يَـرَ الخُمـول ولا الفُتور، وقَصَدَ إليهم العُبور، بِكُلِّ بطل غَيور، ولم يَهَبِ الجبال وحِجارتَها، ولم يَخَفْ صَوْلَةَ الرجال وجَسارتَها. فلما أشرف عليهم بصُعوده، أبصَرَهم أضعافَ جنوده، ودارت عليهم رَحاة الحرب، حيث بَرَزَ إلى قِتالِـهم كل بَطَلٍ نَدْب، فلم يلبَث العدو زهاء[2] ساعة، إلاّ وقد تَفَرَّقت الجماعة، واحْتَزَّ القَتْلُ فيهم، واغتَنَمَت الجنود جُلَّ ذَراريهم ومَواشيهم.

وأما بكر بيك، الفاجِر الخائِن الخاسِر، فقد نجا هرباً، واتَّخَذَ البَيْداء للنَّجاة سَبَباً، لكن الله أعمى بَصيرته، وقَيَّضَ له خِذلانه وحيرته، فَعَدَل بعد هزيمته إلى نواحي بغداد، وجَعَل عليها للنَّجاة الاعتماد، فأحسَّ به بعض الجُنود، وقَبَض عليه وأوثَقَه بالقُيود، وذهب به إلى الوزير المذكور، فأمَرَ بعض الجنود أن يُخْمِدَ أنفاسَه، ويُعَطِّل حَواسَّه، فكفى المسلمين شَرَّه، ورَفَعَ عنهم نَكَده[3] وضَرَّه.

---

[1] الريث: الإبطاء، ولم نقف على وجه استعماله لها هنا.

[2] في الأصل: زهى.

[3] في المطبوع: نكره.

وفي السنة السابعة والعشرين بعد المائة والألف[1]، جَمَع عبد الله خان[2] أمير الحُوَيْزَة الخَوانين[3] الكثيرة، والجنود الغزيرة، وقَصَدَ بأولئك الأعجام قَبيلة بني لام. فلما سَمِعوا بِمَجيئه تَحَصَّنوا منه بِجَزيرة الجَوازِر، وخافوا دَهْمَةَ ذلك الغادِر الماكِر، وقد حَصَل منه التَّعَدِّي على بعض الرَّعية، فأرسل الأُمراء والعُمّال إلى ذي النَّجدة والحميَّة، بِخُصوص هذه القَضيَّة، يَطلُبون منه تخليص بني لام من صَوْلَةِ أُولئكَ اللِّئام، وتأمين القُرى من حالِ الورى.

فأمر الوزير المذكور <٣٩ب> عساكره التي في تلك الناحية، أن يَمِدُّوا بني لام ويُعاضِدُوهم على تلك الفِئَة الباغية، إذ [أنَّ] إهمال أمرِهِم، وتَرْك الأعداء بِغَدْرِهم ومَكْرِهم، خَلَلٌ في الحكومة، ومَطْمَعَة للأعداء في الخُصُومة، وكيفَ لا؟ وبنو لام مُتَحَصِّنون بِحِصنِه، مُعتَقِلون بمَعاقِل أمنه، ولو ظَهَر منهم بعض التَّعَدِّي لَقَصَم هو منهم كلَّ من هو للفساد مُتَصَدِّي، كما فَعَل بهم زَماناً، وأعدَمَهم مكاناً وإسْكاناً، لكن لم يَظهر منهم في هذا الشأن ما يوجب الخِذلان والحِرمان.

---

[1] أولها في ٧ كانون الثاني ١٧١٥م.

[2] هو المولى عبد الله خان بن فرج الله بن علي خان بن عبد الله المشعشعي، أمير الإمارة المشعشعية في الأحواز (عاصمتها عهد ذاك بادة الحويزة)، تولى الإمارة من ١١١٤-١١٢٥هـ. ينظر علي نعمة الحلو: الأحواز ج٢، بغداد ١٩٦٩، ص٢٣١.

[3] جمع خان، فارسية بمعنى أمير أو حاكم. ويذكر كلشن ص٣٢٩ أن ممن حالف عبد الله خان المذكور حاكم كردستان، ولم يذكر من هو وربما كان أحد أمراء أردلان، وعدد من حكام العجم.

فلما بلغ أمر الوزير تلك الجنود، خَفَقَت علـــى رؤوســـهم البُنـــود، وساروا يقصدون بني لام، بكل سامٍ من بني حام. فلما بلَغوا الدِّيار، حَصَلَ لبني لام الفرح والاستبشار، وقَوِيَ عزمُهم، واشتدَّ على مقاومـــة العَجَـم حَزمُهم. وبقُدوم الفُرْسِ للنزال والمُبارزة للأبطال، لـم يَلْبَثـوا إلاّ قليـلاً، وهَرَبوا قيلَ يقُو قيلاً، فكثر فيهم القتل، ولم يَسلَم الأكثر من وَخْزِ البُنـدُق وبَقْرِ النَّبل، وتَركوا الخيام، وهَرَبوا من تحت القَتـام، فـاغتَنَمت الجنـود أموالهم وأقتابَهم[1] وأحمالَهم، ورَجِعوا مَحفُوفين بالظَّفَر مُشـيَّعين بالغَلَبَـة على من خَدَع ومَكَر.

وفي السنة المذكورة، ظَهَر عِصيان أهل سِنجار، ونَجَم طُغيانهم فـي الليل والنهار، وهؤلاء قومٌ يُقال لهم اليَزيديَّة، يُحبُّون زَيْـد بـن علـي[2]، ويُعَظِّمون الشيطان ويَعضُدونه، ويَنْهَون النَّازلين بهم عـن أن يَشْـتِموه أو يَعيبُوه <٤٠أ> وحتى أنَّ المُنْلا حَيْدَر[3]، رجلاً[4] من علماء الأكراد، كـان

---

[1] أي رحالهم.

[2] لا صحة لما ذكره المؤلف، وإنما هم يحبون يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، إلـى حد الغلو والتأليه. ينظر مثلاً: صديق الدملوجي: اليزيدية، الموصل ١٩٤٩، ص٧ وسعيد الديوه جي: اليزيدية، الموصل ١٩٧٣، ص١٣٢.

[3] لعله أحد علماء الأسرة الحيدرية التي توارثت العلم والتدريس والتأليف فـي قريـة ماوران، من أعمال اربيل، عدة قرون، ويترجح أنه الملا حيدر بن محمد بن حيدر بير الدين ولي الله، من معاصري العلامة ابـن حجـر الـهيتمي (ت ٩٧٤هـ/١٥٦٦م)، أو حفيده حيدر بن أحمد بـن حيـدر (١٠٣٦- ١١٢٩هـ/١٧١٦م)، وكلاهما كان له تلامذة كثيرون. ينظر محمد سعيد الراوي: تاريخ الأسر العلميـة، بتحقيقنا، بغداد١٩٩٧، ص١٣٠ و١٣٤.

[4] الأصح وهو رجل من.

يَغزُوهم بتَلامِذته وأهل ضَيْعتِه[1] وقَرْيَتِه، وهم مُتحصّنُون بذلك الجبل الشامِخ، مُعتَقِلون بمَعْقِله الباذخ، ولم يَجْرِ عليهم حُكم حاكِم، ولا يتّبعون قول عالِم، يُنكِرون الشريعة الغرّاء، ويَعتَقِدون المسلمين من جُملة الأعداء، وقد عَجَزَت عنهم العُمّال، وذلّت دُونَ صَولَتِهم الرجال.

فلما كَثُرَ إضرارُهم، وزاد على نَهْب القُرى إضرارُهم، غَزاهم المَلِك المُظفَّر، والأسَد الغَضَنْفَر، بعساكر كالسَّيْل، وجَحافِل رِجالٍ وخَيْل. فلما قارَبَ جَبَلَهم، وكاد أن يَصرِم من احتِضانهم به حَبْلَهُم، ابتَدَرُوه بالنِّزال، وقابَلُوه بالحِراب والنِّبال، وقاتَلُوه بالأحزاب والأبطال، فاشتَعَلت بيْنَهم نيران الحرب، وكَثُرَ بين الفريقَيْنِ الطَّعْن والضَّرْب، لكن ﴿حِزب الله هم الغالِبون﴾[2]، و ﴿أولياء الله لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون﴾[3]. فَفَرّت أعداء الله من بين أيْديهم، وولّت هَرَباً تارِكين تَليدَ أموالهم وطريفَ ذَراريهم، وصَعَد الدستور بنفسه على الجَبَل بحُماته، وكَثُرَ الرَّهج والقَتل في أعداء الدين وعُصاتِه، فمَنْ نجا منهم بعيالِه وخَيْلِه ورِجاله ذَهَب إلى قلعةٍ صغيرةٍ هناك يُقالُ لها الخاتُونيَّة، أهلُها مسلمون، وفيها المساجِد العامِرة، على ما ينقلون، لكنها لما كانت في تلك الناحية، كانت تحتَ تَصرُّف فِئَة باغية[4]. فتَحَصَّن من نجا فيها، وحاصَر بناديها، فقابَلَها

---

[1] في المطبوع: صنيعته.

[2] البقرة من الآية ٥٦.

[3] الأنعام، الآية ٤٨.

[4] الأصل: الباغية.

الوزير من جميع جِهاتها، وأرى العَطَب لِمَن كان في حِماتها[1]، بالطُّوب <٤٠ب> المُزعِج، والتُّفَكِ المُزهِج. فخرج أهلُها المسلمون بأطفالهم، ودَخَلوا[2] على الدستور بِعيالهم وأموالهم، فأمَّنَهم وآواهم إليه، وعَذَرَهم عمَّا عَوَّلوا عليه.

ثم أن أُولئك الأنجاس البُغاة هَلَكَ أكثر خَيلهم والرِّجال، من بُندُقِ التُّفَك ورَشْق النِّبال، فدَخَل القرية عنوةً ومَحَقهم بِسَيف الانتقام، وحَصَلَ بذلك للمسلمين الإنتِظام، وأسَرَ النِّساء والأطفال، واغتَنَم الجند الأموال، وابتاعوا نساءهم وامتَطوا بناتهم وإماءهم، وعاد الوزير منصوراً، مؤيَّداً مَحبوراً مُسَدَّداً[3].

[تولية أحمد باشا ولاية شهرزور]

وفي السنة المذكورة، وُلِّي شَهرَزور ولَدَه النجيب، ونَجيبه الأديب الأريب، أحمد باشا، وهي أول مَنصَبٍ تَوَلّاه، ومن حينئذٍ خَرَج من عِشِّه وفارَقَ أباه.

---

[1] الأصل: حماتها.

[2] أي طلبوا (الدخالة) منه، بمعنى (الحماية) التي يتطلبها العرف القبلي.

[3] أضاف كلفش ص٣٢٩ هنا أن حسن باشا عين عليهم شيخاً جديداً عليهم من قبيلة طي المقيمة في تلك الجهات.

[استرجاع جزيرة مورة]

وفي هذه السنة[1]، قدِمَ البشير بِفَكِّ عساكر الإسلام جزيرة مــورَه[2] واستخلاصها من أيْدِي الكُفَّار، فزُيِّنَت أسواق بغداد، وزُخرفــت طُرُقُــها، واستَرَّ أهلها لنُصرة المسلمين، شاكرين على ذلك رَبِّ العالَمين.

وفي السنة الثامنة والعشرين[3]، قَصَد الكُفَّــار[4] هــذه الجزيــرة، ونَقَضُوا عُهودهم، فجهَّزَ عليهم الخُنْكار الجُند الوافِر، والعسكر المُتَكــاثِر، ورُئِّسَ عليهم علي باشا[5]، فماتَ في الطريق، فرَحِمه الله، وعادت الجنــود بلا فائدة، ولا مَنْفَعة وعائدة.

---

[1] ١١٢٧هـ/١٧١٥م.

[2] هي شبه جزيرة Moree في القسم الجنوبي من اليونان، ضمها العثمـــانيون إلـــى دولتهم في عهد السلطان محمد الفاتح. واحتلها البنادقة، ضمن ما احتلوه من سـاحل دالماسيا، في أخريات القرن السابع عشر، واضطر العثمانيون إلى التخلي عنها فـي معاهدة كارلو فج سنة ١٦٩٩، ولكنهم سرعان ما استردوها حرباً، على نحو مـــا بشر به البشير فيما ذكره المؤلف. ينظر: قاموس الأعلام ص٤٤٦٧ وعبد الرحمن شرف: تاريخ دولت علية عثمانية ج٢ ص١٤٦.

[3] أولها ١٥ نيسان ١٧٠٦م.

[4] يريد البنادقة.

[5] هو علي باشا الداماد، الصدر الأعظم، وقد استشهد في معركـــة بـتروادين سـنة ١١٢٨هـ/١٧١٦م، فدفن في بلغراد. محمد فريد: تاريخ الدولة العليـــة العثمانيـــة ص١٤٥ وفي قاموس الأعلام ص٣١٨٧ أنه دفن في جامع السلطان سليمان فـــي بلغراد.

وفي هذه السنة، جُهِّزَت عليهم العساكر مرّةً أخرى، ورُئّس عليهم الوزير خليل باشا[1]. وأرسل السلطان إلى بغداد وغيرها من البلاد يَطْلِبون[2] من العمّال الإمداد، فأمدّهم الوزير المذكور بالرِّجال <41أ> الأبطال، وفرسان الطِّراد والنِّزال، ورأّسَ عليهم كَتْخُداه[3] عبد الرحمن آغا[4]. ثم أنَّ هذا الرجل- بعد أداء خِدْمَتِه- ولِّي مَنْصَب شَهْرَزُور، فرَجَع إلى مَقَرِّ حُكمه بالعسكر المنصور.

---

[1] هو خليل باشا الألباني، ترجمته في قاموس الأعلام ص ٢٠٥٨.

[2] الاصح يطلب.

[3] كتخدا (وتكتب في المصادر العثمانية كاخيا، وكخية، وكهية: وكاهية، بقلب الخاء هاء بحسب اللفظ التركي) لفظ تركي محرف عن الفارسية: كد خدا، وتعني صاحب البيت (كد: بيت، خدا: صاحب) وتطلق بوجه عام على من بيده تصريف الأمور، كالمختار، والعمدة، والحاكم، والزوج. وفي النظم العثمانية تطور هذا اللفظ ليطلق على مساعد الوالي ونائبه، فهو بمثابة الوزير للوالي، والمرشح لتولي الحكم بعده.

[4] في الأمر الموجه إلى حسن باشا(دفتر مهمة ١٢٥ ص١٣١-١٣٢، أوائل محرم ١١٢٩) أن عليه مد الجيش الهمايوني بخمسمائة فارس من خيرة فرسانه، على أن يلتحقوا به في صحراء أدرنه في أوائل الربيع. كما جاء في الأمر نفسه أن أمير لواء كوي (كوي سنجق) قد كلف أيضاً بالاسهام في الجيش بخمسمائة فارس من فرسانه. هذا بينما يذكر كلشن ص٣٣٠ أن والي بغداد أرسل استجابة لطلب السلطان نحو خمسمائة جندي من منطقة كردستان وسفرهم بعد تجهيزهم بما يحتاجون من عتاد وسلاح، وجعل الكتخدا عبد الرحمن آغا قائداً عليهم. ومما دل على أن حسن باشا اكتفى بارسال الفرسان الكرد دون أن يرسل ما عليه ارساله من بغداد، ما جاء في الأمر الموجّه إليه في أواخر ربيع الأول من السنة نفسها (دفتر مهمة ١٢٥ ص١٩٨). حيث نص على أن فصل الربيع قد حل، وأن القوة

وفي السنة التاسعة والعشرين بعد المائة والألف[1]، هَجَم عَلى بيك باجلان عثمان بيك[2] كُرْدُ العَجَم[3] على غَفْلَةٍ منه فقتلوه، وقتلوا اثنَيْن من أتباعه[4]، ونَهَبوا الأموال، واستَفَزّوا النساء والأطفال. فلما سَمِعَ الوزير

-العسكرية المطلوبة من بغداد لم تصل حتى الآن إلى صحراء أدرنه، وأنه قد حصل عتاب على والي بغداد لتراخيه وتكاسله في تنفيذ المهمة التي كلف بها. وعبد الرحمن هذا (باشا فيما بعد) هو زوج فاطمة خاتون بنت حسن باشا، وقد تولى ولاية شهرزور من محرم ١١٤٣ إلى ١١٤٥هـ، وعين محافظاً لهمدان في مدة السيطرة العثمانية على غربي إيران (دفتر مهمة ١٣٦، ص١٥٤، أوائل محرم ١١٤٣هـ)، وهو الجد الأعلى لآل المميز، الأسرة المعروفة ببغداد، وابنه محمد صالح بك هو الذي عينته عادلة خاتون، بنت أحمد باشا، متولياً على وقفيتها على جامعيها ببغداد، وهي المؤرخة في سنة ١١٧١هـ ينظر نص الوقفية في كتابنا: عادلة خاتون، صفحة من تاريخ العراق، بغداد ١٩٩٧، ص٥٢-٥٥.

(١) أولها ١٦ كانون الأول سنة ١٧١٦م.

(٢) كان عثمان بك أميراً لقصر شيرين من مضافات بغداد عهد ذاك.

(٣) يحدد في كلشن ص٣٣٠ هوية هؤلاء الكرد بأنهم من أكراد الجاف التابعين لقوات القزلباش (الصفويين)، ولكن وثيقة عثمانية رسمية تشير إلى أن هذه العشيرة، يعني الجاف، "هي من عشائر بغداد في الأصل ولكنها بسبب شقاوتها نزحت إلى إيران وتوطنت هناك منذ سنين" وتشير هذه الوثيقة إلى أن هذا الاعتداء حصل بتحريض خان (سنه) الإيراني، في السادس والعشرين من شعبان سنة ١١٢٩هـ (دفتر مهمة ١٢٦، ص١٦٥-١٦٦).

(٤) في كلشن أنهم قتلوا حاكم باجلان كما قتلوا عثمان بك وبعض رجاله. وفي الوثيقة المشار إليها أن عدد القتلى جاوز المائتين، نصفهم من النساء والأطفال، قتلوا ظلماً وعدواناً، وإن عدد الأسرى زاد على مائتي أسرة، وأنهم ذهبوا بهم، وبالرأس المقطوع لعثمان بك إلى خان سنة الإيراني مع الأموال التي نهبوها.

بذلك، ركَب عليهم، فلما أحَسُّوا به، هربوا وتَفَرَّقوا في الجبال الشاهقة، ولم يَنَل شيئاً لصُعوبةِ المُرتَقى ونَبْو المُلْتَقى، فعاد عنهم، وأرســـل إلـــى شـــاه العَجَم[1] يُخبِره بهذه القضية، فَعزل الشاه الخانات التي فـــي قُـــرب أرض دار السلام، وعاتَبَهم وعَزَّرَهم على تَمكينهم الأكراد من دخولـــهم حِمَـــى بغداد.

[في اصلاحات وتعميرات شتى]

ولم يَزَل الوزير مُؤَيَّداً في جميع أموره، ومُسَـــدَّداً بانتِظـــام أُمـــور جُمهوره، وما عدا شَجاعته وفَراسَته وحِمايَته وحِراسته، له توفيـــقٌ لِفِعْـــل الخَيْرات، وبناء المساجد والرِّباطات، فقد عَمَّر قَنْطَرة آلطُـــون صُويـــي[2] بعد خرابها. وهذا الماء جارٍ بِحَدِّه بين الموصل وكركوك، فعَسُرَ العُبـــور

---

[1] وكان عند ذاك الشاه حسين الأول بن صفي سليمان بن عبـــاس الثـــاني الصفـــوي (١١٠٥-١١٣٥هـ/١٦٩٣-١٧٢٢م).

[2] في المطبوع: صوبي، بالباء الموحدة. والتـــون صويـــي تعنـــي المـــاء الذهبـــي، والمقصود به نهر الزاب. ويذكر عباس العزاوي: والزاب يظهر ان أصله الذهـــب، فلحقه التصرف باللفظ، وسمي نهر الذهب وقنطرته عرفت به (تاريخ العراق بيـــن احتلالين ج٥ ص١٩٤)، ومما يدل على أهمية تعمير هذه القنطرة أن الدولة أمـــوت حسن باشا بتعيين شخص من أهل الكفاءة ليكون مسؤولاً عن جسر آلتون صويـــي (الماء الذهبي) برتبة مير لواء، وأن يقوم باسكان بعض العشـــائر الواقعـــة بيـــن كركوك وأربيل لحراسة القنطرة، فضلاً عن الاشتغال بالفلاحـــة والمســـاهمة فـــي عمران المنطقة وازدهارها. (دفتر مهمة ١١٩، ص٢٧٠، أواســـط صفـــر ١١٢٥ ودفتر مهمة ١٢٢ ص١٥٩ أواسط شعبان ١١٢٦هـ)، وقد عرفت هذه القنطـــرة بآلتون كوبري (القنطرة الذهبية) هي اليوم بلدة عامرة.

على المسافرين، وصَعّب المُرور على المـــارّين، فأرسـل إلـى الدولـة بخُصوص هذا الأمر، فأتاه الرّضى من الخُنْكار ابتغاءً للأجر، وأن تكـون مصارِف العِمارة من بيتِ المال، وأن يُحْكم بناءها بِجَزيل النّوال، فباشَــرَ عِمارتها، وأحْكَم حِجارتَــها فــي الطّــول والعَــرْض، ووَصَــل الأرضَ بالأرض. وجعَلَ هناك مأوى لأبناء السَّبيل، وعَيَّنَ <٤١ب> للنزول ثَمّــةَ من الرُّعية الجَمْعَ غير القَليل.

ثم أنه أيضاً جدَّدَ قناطِر الأنهار، الواقِعة بين الموصل وكركوك، من ماله، فأحكم بُنيانَها، وشَيَّدَ أركانها.

وبنى أيضاً المُسنّاةَ التي يُرْسَى عليها الجسر في بغداد[1]، حين رآهـا قليلة العَرْض، تُسامِت الأرض في الخَفْض، مُتهَدّمة الأكنــاف، مُتداعيــة الأطراف، فأحكَم بناءها من مالِه، وأتْقَنَ أركانها وسَوّاها بِقُوّةِ حاله[2].

ورَفَع أيضاً المَظْلَمَتين القبيحتين، والخَصلَتين الشنيعتين، إحداهما المُســمّاة بالباج[3]، وهو أن يُجْعَل في كلّ باب من أبـــواب ســور بغــداد، رجــلٌ

---

[1] هو جسر بغداد الوحيد طيلة العصر العثماني، وأول اشارة إليه هنــاك وردت فــي أثناء فتح السلطان سليمان القانوني بغداد سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م (كلشــن ص١٩٩). وكانت هذه المسناة تحت جامع الأصفية الحالي (دار القــرآن المســتنصرية فــي العصر العباسي) وهي امتداد للمسناة الضخمـــة التــي كــانت تحــت المدرســة المستنصرية.

[2] ينظر كلشن ص٢٣١.

[3] الباج، لفظة عثمانية مأخوذة من الفارسية (بخشــيدن) ومعناهــا العطــاء والهبــة والأجرة، فيكون معناها العطاء عن العبور. وهي ضريبة كانت تفرض على السلع التي تباع في المدن، وتختلف هذه السلع بحسب طبيعة انتاج كل مدينة وما اســتقر عليه العرف الضريبي.

يأخذ من كلِّ مارٍّ بِيَدِهِ شيءٌ[1] شيئاً من الدراهم، حتى أن الفلاّحيات[2] يَدْخُلْنَ البَلَد لِبيعِ بعض البَيْضات، فيأخذ من كل واحدة بَيْضَة. والثانية المُسمّاة بالطَّمْغَة[3]، وهو أن يأخذ رئيسُ القَلْعة من الكِلاك الآتية بالحَطَب إلى بغداد، مِقداراً من الحطب من كل كَلَك، وغيرهما من المَظالِم كرَفْعِ الدِّيَة عن المَحلَّة إذا قُتِل فيها قَتِيلٌ جُهِل قاتِلُه، فإنها وإن كانت مشروعة، إلاّ أنَّ العُمال يأخُذون الدراهم الكثيرة من أهلِ ذلك المكان على طريق الجَبْر والعُدوان.

وله أيضاً من تعمير الجوامع والمساجد، وإجراء المياه إلى الأماكن البعيدة عن دجلة في جانِبَي بغداد، ما لا يُعَد ولا يُحصى.

وتَجْدِيد بناء قُبَّةِ مَولانا أمير المؤمنين، علي بن ابي طالب رضي الله عنه. وأحْدَث هناك مُسَقَّفاً لطيفاً، مُرتَفِعاً مُنيفاً[4].

وأيضاً جدَّد مُسَقَّفَي الإمام الشهيد الحسين، والإمام موسى الكاظم حين أبصرَهُما مُشْرِفَيْنِ على الوُقوع، <٤٢أ> لِبِلاء الأخشاب، وخَوَى

---

[1] عبارة (بيده شيء) في الهامش.

[2] يقصد الفلاحات.

[3] الطمغة والتمغا، كلمة تركية الأصل، تعني العلامة والسمة، ويراد بها الختم الضريبة، وتفرض على أصناف معينة من البضائع والمصنوعات المحلية. ينظر عباس العزاوي: تاريخ الضرائب العراقية ص٤٦-٥٣.

[4] في المطبوع: منيعاً.وفي كلشن ص٢٣١ أنه جدد الصندوق الموضوع على ضريحه الشريف.

الجُذوع[1]. وله في جانبَي بغداد الشرقي والغربي من الخانات في الطُرقات، والمُسافِرْ خانة[2] في تلك الجِهات، وسائر الخَيرات، ما شاعَ وذاعَ، وملأ الأسماع، فلا حاجةَ إلى بَيانِه[3].

وفي هذه السنة وقَع في أراضي العَجم الاختِلال والقَحط وغَلاء الأسعار، فالتجأ[4] أكثَرُ أهلِها إلى بغداد، وصار فيها منهم ما لا يُعَد ولا يُحصى، فَحَسُنَ حالُهم، واعتَدَلَت أحوالُهم.

وفي هذه السنة، كَثُرَ في بغداد البِناء والهَناء من الجانِبَيْن، وازداد السُرور والحُبور في العِراقَيْن.

فصل

[حوادث بني لام]

وفي السنة الثلاثين بعد المائة والألف[5]، أرسلَ سَرِيَّة على أعراب الحُوَيْزَة. وسَبَبُ ذلك أن شيخ بني لام السابِق عبد العال قد ظَهَر فَسادُه، وعُرِفَ عِنادُه، فقُبِض عليه، وأُتِيَ به إلى الوزير المذكور، فسَجَنَه، ثم بعد

---

[1] في كلشن أنه رمم الأواوين في صحني الإمام الحسين والإمام موسى الكاظم رضي الله عنهما.

[2] كلمة مركبة من العربية والتركية، تعني منزل المسافر، وتقابل كلمة فندق.

[3] أضاف في كلشن أنه شيد خاناً ما بين النجف وكربلا وعين له بعض الحراس لمحافظته، وجدد صدر الحسينية ووسعه وسهل بذلك مرور نهر الفرات منه.

[4] في الأصل: فالتجوا.

[5] أولها ٥ كانون الأول ١٧١٧م.

إبقائه في السِّجن، بُرْهَةً من الزمن، عفا الوزير عن جُرْمِه، وألحقَه بقَوْمِه، لكن لِبناء جِبِلَّتِه على الفساد، وانْعِجان طينته بماء الخيانة والأحقاد، حالَف[1] أعراب الحُوَيْزَة، وأغار على شيخ بني لام الجديد، وذلك قُرْبَ قرية جَصَّان عنها غيرَ بعيد، فَنَهَب التُّجار القادمين من ناحية البصرة، وعَثَا في بعض القُرى وتَرَك أهلَها في كل مَضَرَّة، ثم الْتَجَأ إلى الحُوَيْزَة.

فأما الوزير فحين سَمِع بمَكْرِه وخِداعه وغَدْرِه، جَهَّزَ رِجالَه، وأرسل عليه أشباله، ورأَّس[2] عليهم- لعدم اعتِدال مِزاجه- كَتْخُداه، ووجَّهم إلى جِهة أعداه، وقال لهم: إن انتَصَر لهم أمير الحُوَيْزَة فجِدُّوا في قِتاله، وإلاَّ فاتْرُكوه في حاله.

فلما بَلَغوا <٢٤ب> أرض الحُوَيْزة، نَزَلوا على شاطئ ماء الكَرْخ[3]، وقد نَدِم عبد الله خان أمير الحُوَيْزة على إيوائه شيخ بني لام، حينَ أبصر عساكر الإسلام، قد ملأت الرَّوابي والوِهاد والأغوار والأنجاد، فأرسل إلى الوزير المذكور، يَستَعْفيه عن جُرم شيخ بني لام. وأضافَ ذلك العسكر كَمْ يوم، وأمَدَّهم بالأرزاق وخَلَّى بينهم وبين القَوْم، والأعداء حينئذٍ في الجانب الآخَر من الكَرْخ، بمسافة ثلاث ساعات.

---

[1] في المطبوع: خالف، وبه ينقلب المعنى.

[2] في الأصل: رئس.

[3] يريد: نهر الكرخا في بلاد الأحواز، وعليه تقع مدينة الحويزة، عاصمة الإمارة المشعشعية.

فعَبَر السَّرْدار[١] بالجنود ذلك الماء، وقَصَد بحزب الله ديار الأعداء، فحين أشرفوا على الأخْبِيَة، وقاربوا تلك الأندية، أسرعَت الأعراب إلى القِتَال، وصارَت صفوفاً للأبطال، فلم يلْبَثوا إلاّ اليسير، حتى عَزَموا على الهَرَب، وقُتِلَت أبطالُهم، ونُهِبَت أموالُهم، وغَرِقَ الأكثر في المياه، وفُلَّ عَزْمُهم، وانْحَلَّ حَزْمُهم، وتفرَّقوا تفَرُّقَ بنات نَعْش، بعد أن كانوا كالثُّرَيا، وتَمَزَّقوا تَمَزُّقَ نافِرات الوَحْش عند مُشاهدتهم حِبالاً وعِصِيّاً. ولما رجَع السَّردار أنعَمَ عليه الوزير المذكور، بأنْ ألبَسَه خِلْعة سَمُّور وأعلى[٢] قَدْرَه، وشَهَرَ بين الأنامِ فَخْرَه.

في بيان اختلاف بني لام[٣]

وفي السنة الحادية والثلاثين بعد المائة والألف[٤]، وقَعَ بين بني لام الإختِلاف وعَدَم الإلتِئام، وقاتَلَ بعضُهم بعضاً، وأبدى كلٌّ لعَهْدِه نَقْضاً. فَرَكَب الوزير المذكور عليهم، لإلْفَةِ جَمْعِيَّتهم، وانتِظام كُلِّيتهم، فرأى شيخهم الشيخ فارِس لا يَقْدِر على ضَبْطِهم، ولا يَطيق على انتِظامِهم ورَبْطِهم، فَعَزَله من مَنْصِبِه، وشَيَّخَ عليهم الشيخ عبد السَّيدي[٥]، من سُلالةِ

---

[١] السردار، لفظة فارسية، تعني: قائد الجيش.

[٢] الأصل اعلا.

[٣] هذه العبارة في هامش الأصل.

[٤] وأولها ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م.

[٥] هو عبد السيد بن بلاسم بن فرج بن نصير بن حافظ بن براك، وتجعل بعض الروايات المحفوظة مدة حكمه سابقة على هذا التاريخ، بينما تجعل ابنه مشعل (أو مشعل بن جماس) هو الشيخ في المدة من ١١٠٥ إلى ١١٤١هـ/١٥٩٦-

المَشايخ الأكابر، ورؤساء <٤٣أ> الأفاخِر، وأدَّبَ من كان يَعْبَث للفساد، ويَنْبَعِث للعِناد والإفساد، ورَجَع[1] إلى دار السلام.

وفي أثناء الطريق أمَّرَ والي كركوك المار ذِكْرُهُ على بعض الجنود، وعَقَد له الرايات والبُنود، وأرسله إلى تأديب البَلْباس، حين تجرَّؤا على بعض الناس. فلما ذهب العسكر إليهم، جازاهُم الصنَّاع بالصنَّاع، وأخذوا بالمِيَّاع المَتاع، وشتَّتوا شَمْلَ البَلْباس، وأبادوا وعادوا، مُظفَّرين بما أرادوا.

في عصيان بكر بيك[2]

وفي هذه السنة، تَغلَّب بكر بيك من أكراد سَنْجَق البَبَه[3]، على بعض الأراضي، ولم يكن بِنِعْمَتِه بالرَّاضي، وصارت له الشَّوكة والصَّولة والجَوْلة والحَمْلَة، فرَكِب إليه الوزير بعساكره، وسار بجميع أمرائه وأكابِره، فأباد جَمْعَه، وخَرَّبَ رَبْعَه.

=١٦٣١م. ينظر محمد باقر الجلالي: موجز تاريخ عشائر العمارة ، بغداد ١٩٤٧، ص١١ وعبد الكريم الندواني: تاريخ العمارة وعشائرها، بغداد ١٩٦١، ص٣٦-٤٣، والأسر الحاكمة ٤٣٧.

[1] في المطبوع: رجع.

[2] هذا عنوان أورده المؤلف في الهامش.

[3] تقدم التعريف به.

في غزوة الوزير الصَّاجِلْيَة[1]

وفي هذه السنة، قَصَدَ الجهاد في سبيل الله، وغزا الصَّاجِلْيَة، وهم فِرقَة من اليَزِيدية، فَقَتَل الرِّجال، وأسَرَ العيال، واغتَنَم الأموال، ورَجَع عنهم بأهنأ حال.

في وفود سلمان الخزعلي بعد هزيمته

وفي هذه السنة، كان الطَّريد الشَّريد سلمان الخَزْعَلي في بلاد العجم هارِباً، ولأهلِها مُسالِماً ومُصاحِباً، فضاقَ به العَطَن[2]، وحَنَّ إلى الوَطَن، فخرج من تلك البلاد، ودَخَل خِفْيَةً بغداد، قائلاً: كلُّ ما[3] قَدَّره الرحمن مفعول، ولَستُ إنْ قَرُب الأجل في هذا الزمان بأول مقتول! فهَجَم على الوزير، مُبْدِياً العُذر بالإقرار بالتقصير، وطَلَب أن يَغْفِر ذنبه، وأن تُفتَح له باب التَّوْبة. فقَبِل الوزير إنابته[4]، وعفا عنه وقَبِلَ مَتابته، فبقي في أحسن حال، وأسلَم بال.

---

[1] هذا العنوان في الهامش، وفي المطبوع: الصاحلية، بالحاء المهملة. وضبطها العزاوي بجيم مثلثة، وهو يذكر أن هذه الواقعة هي التي أدت إلى انقراض فرقة الصاجلية بعد أن حفلت المصادر السابقة بذكر الشيء الكثير عنهم. تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص١٩٧.

[2] العطن هنا: البروك والربض.

[3] في الأصل: كلما.

[4] في المطبوع: انا.

في وفود شيخ بني لام بعد هربه

وفي هذه السنة أيضاً، قَدِم الشقي الجبَّار، والغادر المكّار، ذو العَهْد البالي <٤٣ب> شيخ بني لام عبد العال، حين رأى من العِصيان العَطَب، ونالَ من السِّياحة في نَواحي[1] البَوادي النَّصَب، وفكَّرَ في نَفْسِه: أنّي أُقْدِمُ على هذا الكريم، فأما قَتْلَة مُريحة، أو تَوبَة مُزيحة[2]، فصمَّمَ على هذه النِّية، ودَخَلَ بغداد وواجَه صاحِب الحَمِيَّة، فعفا عن جُرْمِه، وتَجاوَز عن إثْمِه. لكن لكثرة نَقْضِه للعُهود، لم يُرِئِّسَه[3] على عشيرتَه، بل رأس أخاه عبد القادر، لِعَدَم سَيْرِه على ميرتَه، فعاد مسروراً، مجبور الخاطر محبوراً.

وبناءً على هذه التَّمْهيدات بادَرَ الأعراب إلى الزِّراعة، والدخول في سِلْك المسلمين والجماعة، واشتَغَلوا بأُمُور مَعاشِيهم، وجَرُوا على رأسهم خِرقَة الجُبانة، وأبْدَوا الصَّلاح والدِّيانة.

في التجاء والي الحويزة بالوزير

في هذه السنة، قَدِم والي الحُوَيْزَة عبد الله خان على بغداد، مُلْتَجِئاً بالوزير جاعلاً إليه الإستِناد، لجِنايةٍ جناها استَوْجَبَت عُقوبة الشاه، واستَحَقَّت تَمْزيق أحشاه. فأتى بعياله، ورِجاله وأثاثه وماله، فآواه الوزير إليه، وتَعهَّد له بِرَدِّ الحُوَيْزَة عليه، وبتَخليصه من عقوبة الشاه بالشَّفاعة،

---

[1] في المطبوع: فواحي.

[2] أي مزيحة للذنب، وفي المطبوع: مُربحة.

[3] الأصل: يرأسه.

وأن يُدخِلَه في سِلْكِ تلك الجماعة، ولم يُعاتِبَه على خيانته المـار ذكرهـا، فكأنَّهُ صديقٌ حميم، أو صاحِبٌ قديم، وما ذلك إلاّ من عُلوِّ الهِمّة وحُسْـنِ الأخلاق، وصفاء الخاطِر وطيب الأعراق.

أقول: هذا الخان هو من كِبار مُنْصِفِي علماء الشيعة، له مع الوالِد[1] المُناظَرات العظيمة، والمُحاضَرات العميمة، في بحثِ الكلام وغيره. وكثُر <٤٤أ> بينهما نَشْرُ الأدِلّة وطَيُّ مَسْألة؛ لكنه كثير الإنصاف، بعيد الجُـور والاعتِساف، فحَمَّه[2] الوالِد فانفَحَم، وألْزَمه بالدلائل القَطْعِيَة فانلَزَم، عَرَبـي الأصل يحفَظ دواوين المتقدّمين، ويأتي منها بالسِّحْر الحَـلال المُبيـن، ذو شِعْرٍ مطبوع، وعِلْمٍ معقول ومسموع، أديبٌ أريب، كامِلٌ لبيب. مِن شِـعره [من الكامل]:

ظَبيٌ يَتيه على الأُسـودِ بِفَتكِـهِ ... ويُريكَ بَدْرَ التِّمِّ عنـد شُـروقِهِ
ثَملانُ من خَمْرِ الـدَّلالِ كأنّمـا ... كأسُ الحُمَيّا رُكِّبَـتْ بِعُرُوقِـه
يَختالُ في حُلَـلِ الشـباب كأنّـهُ ... قَوسُ السَّحاب بدا خِلال شُـرُوقِه
لا والذي أوْلاهُ صَعْـبَ مَقـادَتي ... وأذاعَ عِلْمَ السِّحرِ من مَنْطُوقِـهِ
ما حِلْتُ عن سُنَنِ الوِداد ولم تَكُنْ ... نَفْسي مُهْمِلَـةً لِبَعْـضِ حُقوقِـهِ

ومن شعره [من مجزوء الرَّمل]:

ذَكَـرَ العَـهْدَ فَـهامْ ... وجَفـا الجَفْـنَ المَنـامْ

---

[1] يقصد اباه الشيخ عبد الله السويدي (١١٠٤-١١٧٤هـ/١٦٩٢-١٧٦٠م)، وقد تقدم التعريف به في مقدمتنا لهذا الكتاب.

[2] الاصح افحمه.

وفــؤادٌ ضــاعَ مِنِّــي ... بيــن هــاتيكَ الخِيــامْ
لستُ أنسَــى عَـهْدَ ظَبْــي ... نــاعِمٍ حُلْـــوِ الكَـــلامْ
بيـــنَ لَحْظَيْــــهِ سِــــقامٌ ... وشِــــفاءٌ للسَّـــــقامْ
فعَلَيْـــهِ وعلــى لَحْـــ ... ــظَيْـهِ مــا عِشْـتُ السَّـلامْ

ومن شعره [من الطويل]:

ولستُ ملــولاً للأخِـلاَّءِ جافِيـاً ... ولا مُحْصِياً منهم ذُنُوبــاً أعُدُّهــا
سريعٌ إلى دَعَواتِهِم إن هُمو دَعَـوْا ... وإن بَدَت العَوْراء مِنْـهُم أسُـدُّها

وقد دخل عليه والدي، وصاحبه الشيخ حسين الراوي[1]، وهو يَنْظِم قصيدةً هائيةً عند قولِهِ منها: شعراً <٤٤ب> [من البسيط]:

إن كنتُ أزْمَعْتَ هَجْراً أو وَلِعْتَ بِهِ ... مِـنْ بَعْـدِ وُدٍّ فإنّــا حَسْــبُنا الله

فقال لهما: أتَرْويان الشعر؟ قال: نعم، وتَنْظُمه، فأنشَدَه الشيخ حسين الراوي قصيدة[2] ارتجالاً على بحر قصيدته ورَوِيِّها. مَطلعها شعراً [من البسيط]:

---

[1] هو الشيخ حسين بن عمر الراوي، من العلماء والشعراء ببغداد، سماه عبد الله السويدي "العالم الفاضل والمحقق الكامل"، وأخذ عنه بعض أثبات علماء الحديث. وهو الذي نحت اسم (السويدي) لقباً لعبد الله المذكور فعرفت أسرته به. كتابنا: عبد الله السويدي ص٣٩.

[2] عبارة (الراوي قصيدة) في الهامش وتختلف قصيدة الراوي عن قصيدة عبد الله حسن بكونها ضربها مقطوع "فاعل" في الأولى، بينما هو مخبون في الثانية.

عُجْ بالمَطِيِّ فإنَ السَّـــعْدَ وافــاهُ   والمَجْدُ يَعْــرِف مَغْنــاهُ ومَــأواهُ

فاستَحْسَنها الخان، وحَصَلَ لهم الأُنس في ذلك المكان.

في بيان كلام الشيخ عبد الله السويدي في شرح الدلائل[1]

قال الوالِد في شرح الدلائل[2]: اجتمعتُ مع هـــذا الخـــان فـــي دار الأكرَم الأمجد علي جلبي هَزيم زادَه حين دعاه للضيافة، ودَعـــاني معـــه، دونَ صاحبي الشيخ حسين الراوي، فتَفاوَضْنا الحديث وانجرُّ إلى مســـائل تَتَعلَّق بأشعار المُتقدِمين والمُتأخِرين، حتى جرى بيننا التفضيل بيـــن أبـــي الطَّيِّب المُتَنَبي وأبي تمَّام الطائي، ثم انتقلنا إلى بحث الرؤية[3]، فَذَكـــر أن الشيعة كالمُعتَزِلة في عدم اثباتِهم إيّاها.

وتَسلسَلَ الكلام إلى المُناظَرة في هذه المَسألة[4]، ولم نَزَل معه في محـــاورة ومُعارَضـــة ومُباحَثَـــة ومُناقَضَـــة، إلـــى أن آلَ أمـــره إلـــى الإفحـــام،

---

[1] هذه العبارة في الهامش.

[2] هو الكتاب الذي عنونه (أنفع الوسائل في شرح الدلائل) شرح فيه كتـــاب (دلائـــل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار) للشيخ محمـــد بـــن سليمان الجزولي المتوفى سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م. منه نقول في مجموعة خطية فـــي مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد برقم ٣٧٩٧.

[3] في المطبوع: الرواية، وفي هامشه :الكلمة غير واضحة فقـــد تكـــون الرؤيـــة أو الرواية والارجح الثانية. قلت: الصواب ما أثبتناه، والمقصـــود مســـألة رؤيـــة الله تعالى في الجنة.

[4] الأصل المسئلة.

وسلّم[1] ما اثبتّه بالدلائل العِظام، وأظهرَ صريحاً أنه في ربقة الإلتزام، وإنما لم أذكر تفاصيل هذه المناظرة وأبيِّن جزئيات هذه المباحثة والمذاكرة ممّا قال وقلتُ وجالَ وجلتُ، لأنها ليست خارجة عن كُتب الكلام، ولا زائدة على الدلائل التي نَصبَها العلماء الأعلام، لأن الشُبه التي أوردها مذكورة في الكُتب عن المُعتزِلة، فأجبتُ عنها بعَيْن ما أجاب عنها أهل الكلام في هذه المسألة <٤٥أ>.

ثم بعد مُدّة أيضاً اجتمعت به مع جماعةٍ من أهل السُنّة والجّماعة، وكان في ذلك المجلِس رجلٌ عليه عَلامةُ بني هاشِم، فَكلّمه الخان، وأشار إليّ قائلاً: هذا فلان الذي ذكرته لك! فَنَظَر إليّ وحيَّاني، وقال: أثبت عندكم هذا الحديث، وهو قوله- صلى الله عليه وسلم- لعلي أنت مِني بِمَنزِلة هَرون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي قلت: نعم: هو حديث صحيح.

فقال: إذاً ثبَتَت الخلافة لِعلي بهذا الحديث، لأنه- صلى الله عليه وسلم- لم يَستَثنِ إلاّ النُبوة فبقي ما عداها.

فقلتُ: هذا الحديث لا عُمومَ له في المنازِل، بَل المُراد ما دلّ عليه سياق الحديث، أن علياً خليفةٌ عن النبي- صلى الله عليه وسلم- مُدّة غَيْبَته بِتَبوك، كما كان هرون خليفة عن موسى في قومه مُدّة غَيْبَته عنهم للمُناجاة، كما حكاه الله عنه بقوله: ﴿اخلُفني في قَوْمي﴾[2]، فلي حمل عليه دون غيره.

---

[1] في المطبوع: وتسلم.

[2] الأعراف، من الآية ١٤٢.

فقال: ذَكَر الأُصوليون أن العِبرة بعموم اللفظ لا بِخُصوص السبب.

قلتُ: نعم! إلاّ أن هذا عام مخصوص، إذ مِن مَنازِل هرون كَوْنُه أخاً نَبِياً، والعام المخصوص غير حُجَّة في الباقي، أو حُجَّة ضعيفة على الخلاف بين اهل الأصول، على أن هذا الحديث خَبَر آحاد، وأنتم لا تَرَونه حُجَّة في الإمامة كما نُقِلَ عنكم، سَلَّمنا أنه حُجَّة، لكنه لا يُقاوِم الإجماع، لأن مَفادَه ظَنّي ومَفاد الإجماع قَطْعي، فَثَبَت أن ليس المُراد من الحديث إلاّ إثبات بعض المنازِل الكائنة لِهرون وموسى، وسياق <٤٥ب> الحديث وسببه يُبَيِّنان ذلك، ويقول البعض لما مرَّ انه إنما قال ذلك لِعَلي حين استَخلَفَه. فقال علي: أتُخَلِّفني في النساء والصبيان؟ كأنه استَنْقَص لِتَركِه وراءه، فقال له: ألا ترضى أن تكون مِني بِمَنزلةِ هرون من موسى، يعني حيث استَخْلَفه عند توجيهه إلى الطُّور، قال له: اخلِفْني في قومي.

ثم لما عَرَف أنه أُفحِم، وتحقَّق أنه بِلِجامِ الإلزام أُلْجِم، أخذ في المُكابَرة والنِّزاع، وقال: لا أقول بِحُجِّية الإجماع، فلابُد من جواب نتَّفِق عليه ونَرجِع لدى المُعارَضة إليه.

فقلتُ: كَذِبْتَ! بل أن الإجماع حُجَّة عندنا وعندكم.

فقال المَولى: نعم! الإجماع حُجَّة بالإجماع، وقال لِصاحِبه: هذا منك مُكابَرة يجب اجتِنابها في المُناظَرة.

فقال: سلَّمتُ أن الإجماع حُجَّة، لكن كيف أمكنَ اجتِماع مَنْ هم في البلاد الشاسِعة، كالهِند واليَمَن في سقيفة بني ساعِدة، حتّى أنهم اجمعوا على الخلافة.

فقلتُ: هذا الكلام إن لم يكن منكَ مُغالطةٍ فهو من أعظم الأمـــارات على جَهْلِكَ بالأُصول، لأن الإجماع هو اتّفاق مُجتَهِدي العَصْر على حُكمِــهِ دون غيرهم من العَوام، فإنّه لا يُعتَد بخِلافهم في مثل هذا المقــام. كيــف! وقد كان في هذا الإجماع أجِلَّة الصَّحابة وأفاضِلها، بل العشرة المبشَّـــرون بالجنة، ومنهم الإمام علي فإنه بايع واعتذر عن تَخلُّفِه، وهذا معلومٌ عندنـــا وعندكم.

ثم قال: آية المُباهَلَة صريحة في أنَّ الإمامة لعلي، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فيه من بَعْدِ ما جاءَكَ من العِلْم فَقُــل تَعــالَوا <٤٦أ> نَــدْعُ أبناءنا وأبناءَكُم ونِساءَنا ونِساءكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم، ثم نَبْتَهِل فنَجْعَل لَعْنَــةَ الله على الكاذبين﴾[1]، فقد جَعَل نَفْسَه- صلى الله عليه وسلم- عبارةَ عـــن نَفْس أصحاب الكِساء، ومنهم الإمام علي. فقلتُ: هذا كلام يُنادي على قائِله بالعَجَب، ويَدْعو الناس إلى جَهْلِه المُرَكَّب، فقد صرَّح أهــل الأُصــول: أنَّ مُقابَلَة الجَمْعِ بالجَمْع تَقتَضي انقِسام الآحاد على الآحاد، فيَكون لِكُلِّ واحــدٍ نفسٌ على حِدَة، على أنك لِمَ خصَّصْتَ الإمام عَلِيّاً بمــا قلــتَ دون ســائر أصحاب الكِساء، وهم فاطِمة والحَسَنان، فليتَ شعري أهــم شُــرَكاء فــي الإمامة في زَمَن واحِدٍ أم على التَّعاقُب، وإذا كان على التَّعاقُب فهل تَصِــحُّ إمامة النِّساء مع فَطْمِهِن عن الولايات، فإن قلتَ فاطِمة مُستَثناة قُلنا صــارَ إذاً العام مخصوصاً، وقد قدَّمنا أن العام المَخْصوص لا يكون حُجَّــةً فــي الباقي، بل الآية نَزَلَت على عادة العرب في المُبَاهَلة، بأن يَذكُــروا فيــها

---

[1] آل عمران، الآية ٦١.

المُباهِل وأقاربهُ دون غيرهم، فلا يقتضي ذلك إلاَّ يكُون غيرهم أفضل منهم، أو بأن الدُّعاء بحضرة الأقارب يقتضي الخشوع المُوجب للإجابة، لما فيهم من المَحبَّة الطبيعية، وهذا لا يقتضي أن لا يكون غيرهم أفضل وأحبَّ إليه- صلى الله عليه وسلم- محبّة اختيارية، وهي المحبة الدينية المطلوبة، محبّته تعالى ومحبة رسولهِ صلى الله عليه وسلم، ألا ترى إن الإنسانَ يُحِبُّ نَفْسَه وولَده مَحبَّةً طَبْعية مع اعتقادِ أن غيره أفضل وأولى، وهذا ظاهِر البَيان لا يَخفى على من له عَيْنان.

ثم قال: آتِ أنتَ <٤٦ب> بدليلٍ دون الإجماع يَدُل على أحقِّية أبي بكر بالخِلافة.

قلتُ: قوله- صلى الله عليه وسلم- كما ورد من طُرق: ما طَلَعت الشَّمسُ ولا غَرَبَت على أحدٍ بعد النَّبيين والمُرسلين أفضل من أبي بكر.

فقال: لا أقول بِصحّة هذا الحديث، فأتِ بغيرِه!

قلتُ: أمرُه- صلى الله عليه وسلم- بتَقْديم أبي بكر للصلاة أيام مَرَضِه- صلى الله عليه وسلم- فصلّى بالناس إماماً ثمانية أيامٍ والوحي يَنْزِل أوضح دليلٍ على أن الصِّدِّيق أفضل الصحابة على الإطلاق وأحقّهم بالخِلافة وأولاهم بالإمامة، حتى قال الإمام علي بن أبي طالب: لقد أمَرَ النبي- صلى الله عليه وسلّم- أبا بكر[1] أن يُصلِّي بالناس وإني لَشاهِدٌ ما أنا بغائب، وما بي مَرَض، فرَضينا لدُنيانا ما رضيه النبي- صلى الله عليه وسلم- لديننا.

---

[1] لفظة (أبا بكر) في الهامش.

فقال: صدَقتَ، ولكنه عَزَلَه.

قلتُ: الأحاديث كلها مُصرِّحة ببقائه إماماً يُصلِّـي إلـى أن تُوفِّـي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- على أنَّ إمامته بالناس بأمره- صلى الله عليه وسلم- باتِّفاقٍ منا ومنكم، فمَنْ ادَّعى العَزْل فَعَلَيه البيـان، لأنـه خِلاف الظَّاهِر المُحقَّق، وأنَّى بذلك، فهو أعزُّ من بَيْضِ الأَنُوق[1].

ولما انتَهَيْتُ إلى هذا الدليل، قال لي بعض طَلَبة العلم، ممَّن يَدَّعـي أنه من أولاد أبي بكر: دَعْنا من هذه المُباحثة.

وقلتُ: كيف أترُكُه وهو مُقيمٌ على المُعارَضة، فو الله لا أدَعُهُ حتـى أُلزِمه إلزاماً صريحاً يتبين لأهل المجلس إلزامه.

ثم نظرتُ إليه، وقلت: الدليل القاطِع الذي لا يقتضي التأويل، أن أبـا بكر لما سَبَى بني حنيفة، أخذ الإمام علي جاريـةً مـن السَّـبي فوطِئـها واستَوْلَدها محمد <٤٧أ> بن الحَنَفيَّة، فلو لم يكن الصدِّيق إماماً حقاً، لمـا ساغَ للإمام علي وطَء[2] الحَنَفيَّة، لِعَدم صِحة السَّبي حينئذٍ.

فقال: لا عِلْمَ لي بهذه القصة، ولا أعلم أُم محمد مـن سَـبي بنـي حَنيفة، بل لا أعلم أنَّ أبا بكر سبى بني حنيفة.

فقلتُ: كَذِبْتَ! فوالله إنَّكَ لَتَدري ذلك وتَعلَمه عِلماً يقيناً، لأنه بلغ مـن الشُّهرة حَدَّ التَّواتر، فإنكار مثل ذلك إنكارٌ للضروريات الأوليَّات.

فقال الخان أمير الحُوَيْزَة: لِمَ لَمْ تُنْصِف، وقد ثَبَتَ عندنا أنَّ أم محمـد من سَبي بني حنيفة، وأنَّ السبي كان في خلافة أبي بكـر، فاسْـكُت فقـد

---

[1] مثل يضرب للندرة. راجع كتاب الامثال للميداني.

[2] في الأصل: وطئ.

أُلزِمْتَ فلا جوابَ لك عن هذا الدليل. فَسَكَتَ على مثل الجَمْــــر، يَــوَدُّ أن تَسُوخ به الأرض.

فقال له بعضُ أهل العلم من العَجَم، مُعنِّفاً له: إذا أنتَ لم تَقْدِر علــى المُناظَرة فلا ينبغي أن تُعَرِّض نَفْسَكَ لها فإنكَ قد أُلزِمتَ في هذا البحـــث مِراراً عديدة ولا جواب لك سوى المُكابَرة والمُغالَطَة.

ثم قال الخان: إذا كان أبو بكر سبى بني حنيفة فلِمَ رَدَّ السَبي عمـــر في خِلافته؟ وهل هذا إلاّ تناقُض؟ فقلتُ: كل منهما مُجتَهد رأى المصلحـــة، فما أدَّى إليه اجتهادُه فَعَمِلَ به لأن المُجتَهِد لا يُقلِّد لمُجتَهِد.

فقال الخان: صَدَقْتَ والله! إن هذا الســؤال والجـــواب لَمَسْــطُوران عندنا في الكتب، وإن السائل شيعي من كِبار الشيعة، والمُجيب سُنِّي مـــن كِبار السُنَّة. ثم تفرَّق المَجلِس والحمد لله علــى أن جَعَلَنــا مــن الغــالِبين ونَصَرَنا.

في بيان مناظرة الشيخ المذكور

ومما مَنَّ الله بِه عليَّ أنيْ لما قصدتُ زيارة رَيْحانة النبــي- صلـــى الله عليه وسلم- أبي عبد الله الحسين <٤٧ب> بن علي مع جماعـــة مـــن طَلَبَة العِلم، وذلك سَلَخ اثنين وثلاثين ومائة وألف[1]، رَأينا حِذاء باب القـــبر المُنَوَّر شيخاً أعور، فجاء سائل يسأله عن تَرْكِ مَسْحِه الرِّجْلَيْن.

---

[1] أولها ١٤ تشرين الثاني ١٧١٩م.

فقال له :اعمل بالتَّقِيَّة واغسِل رِجلَيك. وهو مع ذلك لم يَشْعر بنـــا، فنَظَر إليَّ وعَلِم أنه أُسقِطَ في يده، وقال: قد وَرَدَت التَّقِيَّة في القــرآن فــي قوله تعالى: ﴿إلاَّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُم تقاة﴾[1].

فقلتُ: هذا يَعني ما قُلنا لأنَّ الآية نَزَلَت في التَّقِيَّة من الكُفَّار.

فلما تَحقَّقَ أنه لا قُدرةَ له على البحث في ذلك اعتذر وقال: أنا شـيخٌ كبير، ومع ذلك استَولى عليَّ المَرَض، وأخذ يُحدِّثنا بما رآه في التواريـــخ إلى أن إنجَرَّ الكلام إلى ذِكرِ النحو، فقال: إن في كتاب سِـــيبَوَيْه بيتـاً إن رَكَبتَه فأنتَ الإمام في النحو، وامهِلَكَ حَوْلاً كامِلاً وميعادُنا مِثل هذا اليــوم من العام القابِل.

والبيت قول الرَّاجِز، شعراً:

قد سالَمَ الحيَّـــاتُ مِنْـــهُ القَدَمـــا   الأفْعَـوانَ والشُّـــجاعَ الشَّـــجَعا

وقال: ذَكَره سيبَوَيْه في الكتاب، ورُوايتنا بِرَفْعِ الحَيَّات.

فقُلتُ: فأين الإشكال إذ ذاك؟

قال: في ابدال الأفعوان المنصوب من الحَيَّات المَرْفُوع.

فقلت له: إن الروايةَ التي تَلَقَّيْناها عن المشايخ إنمـــا هـــي نَصْـبُ الحيَّات وعليها يُستَشْكَل نَصْب (القَدَم) مع كَوْنِـــه فـــاعِلاً، وأُجيــبَ عنـــه

[1] آل عمران، من الآية ٢٨.

بوجوهٍ، منها أن القَدَما مُثنًى حُذِفَت نُونه للضرورة كقولِ الشاعر[1]. [من الكامل]:

انــي كُلَيْــبٍ إنَّ عَمَّــي الَّلـــدا قَلا المُلــوكَ وفكّكــا الأغْــلالا

وقوله: <٨٤أ> [من الرجز]:

همــا اللتّــا لــو وَلِــدَتْ تَميــمٌ لَقِيــلَ فَخْــرٌ لَــــهُمْ صَميــمُ

ومنها أن للعرب في إعراب الفاعِل والمفعول أربـــع اســتعمالات، أحدُها وهو الفصيح رَفْعُ الفاعِل ونَصْبُ المفعول، وثانيها بالعكس، وثالثــها رَفْعُ الاثنين، ورابعها نَصْبُهما، وهذا مِنْهُ، صرَّحَ بذلك ابـــن هُشــام فـــي مُغْنِيه[2] وغيره، ولم نَحفَظ روايةَ الرَّفْع، فقال: قد قدّمتُ لـــك أن سِــيبَوَيْه قال: "ورُوايتُنا بالرَّفْع" انتهى. وأما رواية النَّصب فلم أحفظها. ثم فـــارَقتُ ذلك المجلس لأتدَبَّر البَيْت، وكان اليوم يوم جُمعة.

فبيناً أنا أُجري قَواعِد النحو على خاطِري، واتفكَّر بذلك، إذ وَرَدَ في خاطِري القاعِدة في فاعَل من أنه يقتضي اسمَيْن، أحدهما فاعِلٌ صريحـــاً مفعولٌ ضِمناً، وثانيهما بالعكس، وذلك قبلَ أن أُصلّــــي الجمعـــة. فكتبــتُ الجواب له في رُقعةٍ وحاصِلُه إن الحَيَّات وإن كان فاعِلاً صريحـــاً، لكنــــه

---

[1] البيت للأخطل.

[2] هو كتاب (مغني اللبيب عن كتب الاعاريب) تأليف عبد الله بن يوسف ابن هشـــام الانصاري المتوفى سنة ٧٦٢هـ.

مفعول ضِمناً، فجاز إبدال المنصوب منه باعتبار أنه مفعولٌ ضِمناً والله أعلم.

ولما وَقَفَ على الرُّقعة استَحسَنَ سُرعة الجواب في مثل هذا الزمن اليسير. وقال: والله كَمْ سألتُ مَنْ يَدّعي عِلْم الأدب عن هذا البَيْت، فما أجاب ولا أعرَب، والحمد لله على ذلك.

في مباحثة الشيخ المذكور بعض أمور النحو

ومما مَنَّ الله به عليَّ أني اجتَمَعتُ بِرجل من النجف يُدعى بابن طُرَيْح[1]، في رِحلَةٍ إلى حِلَّة ابن دُبَيس، وذلك في عام التاسع والثلاثين بعد المائة والألف[2]، فجرى الحديث في معنى المَلأ، فادَّعى أنهم الأشراف، وأن المُفَسِّرين فَسَّروه بذلك <٤٨ب> في قوله تعالى: ﴿قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾[3].

فقُلتُ: ذَكَر علماء اللغة: أن المَلأ هم الخَلْق، ولا مُنافاة بين هذا وبين ما قاله المفسّرون، لأنه في الآيةِ عامٌّ مخصوصٌ بالأشراف بِقَرِينةِ

---

[1] هو عبد الرسول الطريحي النجفي الأصل، الحلي المولد والمسكن. ترجم له المرادي فقال "الأديب الفاضل الشاعر النحوي الكاتب، كان بارعاً بالأدب والمعاني والبيان والعروض والنحو والشعر ويتعاطى الكتابة مع خط حسن ونظم بديع ونثر حسن عجيب، وكان معروفاً بالخلاعة والمجون والمداعبة.. وله شعر كثير، وكانت وفاته مطعوناً في الطاعون الكبير الواقع في بغداد سنة ١١٨٦ وأُخذ للنجف ودفن بها عفا الله عنه" (سلك الدرر ج٣ ص٢٤ و٢٥)

[2] أوله ٢٩ آب سنة ١٧٢٦م.

[3] المؤمنون، من الآية ٣٣.

ال العَهْدِيَّة، فلا يقتضي كلام المُفَسِّرين أن هذا معناه في كل مَوْطِن، بل أنَّه في هذه الآيةِ فقط بهذا المعنى الخاص. فَسَكَتَ بعد ان سَلَّم ما قُلْتُه[1].

ثم سألتُه: ماذا يُستَعمل عندكم من الفُنون والكُتُب؟

فأخذ يُعَدِّد الفنون المُستَعمَلة عندهم، وكُتُبَها، إلى أن قال: ويُستَعمل عندنا في النحو (شرح ابن الناظِم على الخُلاصة)[2].

فقُلتُ: أتى ابن الناظِم في شَرْحِه بِقَولِ الشاعِر:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ

شاهداً على حَذْفِ المرفوع من جُزْئي لاتَ، فكيفَ يُؤخذ الشَّاهِد من هذا البيت؟ فقال: أصله ولاتَ صُلح أوانٍ، فحُذِف صُلح، وبقيَ أوان على حاله. فقُلتُ: هذا مع كَوْنِه غَلَطاً يقتضي حَذْفَ الجُزئَيْن، فتَنَبَّه لذلك! واشتَدَّ غَيْظُه حيث غَلَط، فأراد أن يُجيب، فوقَع من شِدَّة الحَصْرِ بأعظَم من الأول، وقال: بَلْ أصلُه أوانُ صُلْحٍ، فَحُذِفَ صُلْح، وجُرَّ أوان بإضافةِ لاتَ إليه.

فقلتُ له على الفَوْر: تأمَّل! فإن الحَرْف لا يُضاف.

---

[1] الاصح: سلم بما قلته.

[2] يريد: الخلاصة في النحو، وهي منظومة في ألف بيت لمحمد بن عبد الله ابن مالك الطائي النحوي (ت ٦٧٢هـ)، وتعرف بالألفية، والشرح لابنه محمد (ت ٦٨٦هـ).

فلما تَنَبَّه ورأى أنه غلّط هذه الغَلْطَة التي لا تخفى على الأولاد في المكاتِب، احْمَرَّ وَجْهُهُ وعَرِقَ جبينه، وتمنّى أنه لم يُخلَق، فتأمَّل كثيراً، وقال: حُذِفَ صنلح وأُقيم المُضافُ مقامَه، فأخَذَ حُكْمَه من الجَرِّ.

فقُلتُ: الذي ذَكَره علماء العربية أن المُضاف يُحذَف، ويُقام المُضاف <٤٩أ> إليه مقامَه، فيأخُذ حُكْمَه، لا العكس كما ذَكَرْتَ!

فقال: ولِيَكُنْ هذا البيت شاهداً على ما قُلتُ.

فقُلتُ: مع كَوْنِها مُصادرة على المَطلوب دَعْوى عظيمة لم يَدَّعِها سيبَوَيْه وأضرابه، فهل يُعقَل أن تُختَرَع قاعدة من قواعد النحو لم يَقُل بها إمامٌ من أئمَّةِ النحو، بل يَقتَضي أن كل ما وَرَد مُخالِفاً لظَواهِر القواعِد، نَختَرِع له قاعدة، ونقول: هذا دليلٌ عليه، ولم نَحتَج إلى أن نُجيب أو نُؤوِّل أو نَقول: هذا ضرورةٌ أو غيرَ ذلك مما يُجابُ به.

ثم أنه قال: لم يَحضُرْني الجواب في هذا الوقت.

فقُلتُ: الآن أنصفْتَ، واتَّبَعتَ طريقة العُلماء وسَلَكْتَ. وفي هذا المِقدار كِفاية لِمَن له أدنى دِراية، وإلاّ فالمُباحثة مع أولئكَ كثيرةٌ مُشتَهِرة.

انتهى كلام الوالِد- حفظه الله تعالى- في شَرْح الدَّلائل.

[فصل]

في بيان تعمير الوزير طريق الحاج

رجع: وفي هذه السنة، عَمَّر طريق الحاج الـذي سَـنَّتْهُ زُبَيْـدَةُ[١]، فَذَهَب الحُجّاج فيه، وجَهَّزَ معهم العَسكر الكثير، والنَّفَر العميـم الغزيـر، وأرسَل إلى الدولة بوَقف (عشرين)[٢] سقَّاء[٣] يَسـقُون الحُجّـاج المـاء، ويَحمِلونه في القُلَل على الجِمال، يتَفقَّدون به الفُقراء. وجَعَل لهؤلاء السُّـقاة مَرسوماً يأخذُونه من والي بغداد، أيِّ والٍ كان.

[وفاة عائشة خانم زوجة الوزير حسن باشا]

وفي مَظانِ ليلة القَدَر، في العشر الأواخِر من رمضان هذه السـنة، انتَقَلَت إلى رحمة الله، الدُّرَّة المَصونة، والجَّوْهَرة المَكنونة، ذات الحَسَـب الطاهِر، والنَّسَب الفاخِر، رفيعة المَحتِد[٤]، إسـلامْوليّة المَولِـد[٥]، ابنـة

---

(١) السيدة زبيدة زوج الخليفة هـارون الرشـيد، وأم الخليفـة الأميـن (توفيـت سـنة ٢١٦هـ/٨٣١م)، ومن مآثرها الجليلة تعميرها طريق الحاج. قال ابن جبير في رحلته (ص٢٠٨ طبعة ليدن) "وهذه المصانع والبرك والآبار التي من بغداد إلى مكة، هي من آثار زبيدة ابنة جعفر، انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنـافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سُلكت هذه الطريق".

(٢) سقطت من المطبوع.

(٣) في المطبوع: سقاة.

(٤) المحتد: الأصل.

(٥) أي مولودة في استانبول التي كانت تعرف في عهد الدولة العثمانية باسلامبول.

المَوْلى القُمقام، والشجاع الهُمام، مُصاحِب السلطان، أحمد خان، تاج أهـل الكمال والعِرفان، الوزير الشهير مصطفى باشا، وزَوْجة الأسَـد المِقْـدام حسن باشا، ووالِدةَ الشِّبْل <٤٩ب> الضِّرْغام أحمد باشا، فهي فـي كَيْفِيَّـة زُبَيْدَة في النَّسَب، والرِّفْعة والحَسَب، وفي عِفَّة مَرْيَم، وسِيرة سارة، ومَنْقَبَـة رابِعة، عائشة خانِم.

كانت رَحومةً للمساكِين، شفيقةً على الفُقراء العاجِزين، فدُفِنَت فـي الجانب الغربي، في مَقبرة[1] الشيخ معروف الكرخـي، بِحَـذاء صاحِبـة الخَيْرات، كثيرة البَرَكات، زوجة هارون الرشيد، السيدة زُبَيْـدَة، رحِمَـها الله[2]، فَبَنى لها الوزير العادِل، والهُمام الكامِل، في تلك البُقْعَة التي دُفِنَـت فيها، مَدْرَسَة لطيفة، ذاتَ حُجَرٍ مُنيفة[3]، وأجرى بِها الماء لأبناء السـبيل،

---

(1) في المطبوع: مقربة

(2) دفنت السيدة زبيدة في مقابر قريش، إلى جانب ابنها الخليفة الأمين، فلا صلة لـها إذن بالضريح الفخم ذي القبة المخروطية الماثل في مقبرة الشيخ معروف الكرخي، والقرائن العديدة تشير إلى أنه ضريح السيدة المحصـنة زمـرد خـاتون، زوجـة المستضيئ بأمر الله وأم الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ. ينظر مصطفـى جواد: العمارات الإسلامية العتيقة، مجلة سومر، ج١ (كانون الثاني ١٩٤٧).

(3) يوافق موقع هذه المدرسة مدرسة الأصحاب التي أنشأتها السـيدة زمـرد خـاتون وافتتحتها سنة ٥٨٩هـ، فقد كانت مجاورة لتربتها قرب قبر معـروف الكرخـي، وقد نوه المؤرخون بذكر هذه المدرسة وضخامة بنائها وسـعة الإنفـاق عليـها، واستمر بناؤها ماثلاً حتى القرون المتأخرة (كتابنا: مدارس بغـداد فـي العصـر العباسي، بغداد ١٩٦٦، ص١٢٣-١٣١) وقد أشار السيد محمود شكري الألوسـي إلى مدرسة كبيرة في هذا الموقع كانت موجودة إلى أوائل القـرن الثـالث عشـر للهجرة، ثم نقضها والي بغداد سليمان باشا الكبـير (١١٩٤-١٢١٧هـ/١٨٠٢-

فغَدَت جَنَّةَ الدنيا بلا نظيرٍ ولا مثيل، وعَيَّن فيها المُدَرِّسين، ورَسَم لهم مُوظفاً يأخُذُونه[1] في كلِّ السنين. ووظَّف لِطَلَبَة العِلْم الساكِنين هناك كل يومٍ مَطبوخاً يُطبخ لهم غُدْوَةً وعَشِيَّةً، وعَيَّن لهم بعض الدراهم الجُزْئِية. وهذه المدرسة في بغداد مشهورةٌ باللَّطافة، مَعروفةٌ بالحُسْنِ أتَمٌّ عِرافة، لطيبِ هَواها، وحُسْنِ مَأواها، حيثُ كانت في البَرِّ المُطلَق، وبِكَنَفِها نهر مَسْعُود يَتَدَفَّق.

فصل

في بيان وقوع الطاعون في بغداد

وفي أواخِر هذه السنة، وقَعَ في بغداد الطاعون، فكَثُر الهَلاك، وازداد الإهلاك، حتى عُدَّ المَوتَى في كل يومٍ، فَخَرَج العدد ألفاً أو يَزيد، وهَرَبَ أكثرُ أهل بغداد إلى الصَّحاصِيح الشاسِعة، والمَهامِه الواسِعة، والتَجأ أكثرُهم إلى القُرى، وحَصَل الاضطِراب، وزُلْزِلَت عقائِد الوَرى، وخَرَج الوزير خَشْيَةَ أن يَتفَرَّق عسكره، وصار ما بينَ سُرَّ مَن رأى وبغداد مُعَسكره.

=١٨٠٧م) لضرورات اقتضتها أعمال بناء سور بغداد الغربية آنذاك (مساجد بغداد وآثارها، بغداد ١٣٤١هـ، ص١٢٥) فنرجح أن يكون ما قام به حسن باشا هو تجديد، أو إحياء، لهذه المدرسة بعد أن توقف التدريس فيها في عهد سابق.

[1] الأصل: يأخذوه.

ومات في بغداد من العلمـــاء النّحـــارير، ومِــن <٥٠أ> الأُمـــراء المشاهير ما تَضيقُ عِندَ عَدِّهِم صَحاري الدفاتِر، وتَجِــفُّ لــدى سَــرْدِهم جداول المَحابِر.

ثم في أثناء السنة الثانية والثلاثين[١]، ذَهَب عن أهل بغــداد الوَخْــزُ والطَّعْن، فتَرَاجَع الهارِبون بعد الظَّعْن[٢].

فصل

في بيان حفر الوزير خندق بغداد

وفي السنة الثالثة[٣] والرابعة والثلاثين بعد المائة والألــف[٤]، أمَــرَ بتجديد حَفْرِ خَنْدَق دار السلام، خَشْيَة هُجوم الأعداء الطَّغام[٥]، وذلك حيــن

---

[١] أولها ١٤ تشرين الثاني ١٧١٩م.

[٢] الظعن: التحول من بلد إلى بلد.

[٣] أولها ٢ تشرين الثاني ١٧٢٠م.

[٤] أولها ٢٢ تشرين الأول ١٧٢١م.

[٥] يشير الأمر الصادر من الدولة إلى حسن باشا (دفتر مهمة ١٣١ ص٤١ في أواسـط ربيع الآخر ١١٣٥هــ) إلى وجوب تعمير وترميم الجوانب المشرفة على الخــراب من قلعة بغداد، ويأمره بالكشف عنها، وتثبيت المصاريف اللازمة لتعميرهـــا دون تبذير أو تقتير، وقد خصص مبلغ ٥٠ ألف قرش لهذا الغرض. وفي الأمر الصادر بتاريخ أواسط رمضان ١١٣٥ (دفتر مهمة ١٣١ ص١٧٤) ما يشير إلى أن أعمال التعمير أوشكت على الانتهاء في أوائل رمضان، وأن تنظيف الخنادق من الأتربــة والأحجار المتراكمة فيها يتطلب مصاريف كبيرة، ولذا فقد نص الأمر على تكليـف الناس بتنظيف هذه الخنادق كما جرت العادة من قبل، صيانة للأموال الأميرية.

تَغَلَّب ابن أمير أوَيْس[1] على أرض فارِس، وغَصَب أصبَهان بِكُل بطل فارِس، وأوْهَن قُوى شاه العجم[2]، وخَرَج عن الطاعة وعلى هاتِيكَ البلاد هَجَم.

فلما سَمِع به آل عثمان، خَشَوا هُجُومه على بُغْدان، فأمَروا الوزير بالتَّحَصُّن، والإتقان المُتَمَكِّن، إلى أن تأتي جنود الرُّوم الرابِحة، وعساكِر إسلامبول الضَّابِحة[3] الذَّابِحة.

في بيان سبب انقراض دولة العجم

وسببُ ذلك أنَّ دَوْلَة العجم آلَتْ إلى الزَّوال، وصارت إلى الاضمِحلال، حيثُ أن سَبَّ الأصحاب قد كَثُرَ فيما بينهم، بحيث صارَ لديهم قُرْبَةً بها يَتَقَرَّبون، وعِيادةً بِزَعْمِهم الفاسِد بها يَتَعبَّدون، وشاعَ ذلك في بيوتهم وأسواقهم وحَوانيتهم وطُرُقاتهم. بلْ أنَّهم يَعتَقِدون تكفير الصَّحابَة- رضي الله عنهم- ويَتكلَّمون على السيدة عائشة الصِّدِّيقة- رضي الله عنها- المُبَرْأة بِنصِّ القُرآن، حَبيبة المُصطفى سيد ولد عدنان،

---

[1] هو الأمير محمود بن أويس الأفغاني، من قبيلة غلزائي. وكان أبوه الأمير أويس قد استولى على قندهار بعد أن كانت تحت النفوذ الصفوي سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م، واستطاع هو أن يقيم من نفسه حاكماً قوياً مستقلاً في أفغانستان حتى احتلال نادرشاه حاكم ايران قندهار سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٨م. دائرة المعارف الإسلامية، مادة أفغانستان.

[2] هو الشاه حسين الصفوي.وقد تقدم التعريف به.

[3] ضبحت الخيل في عدوها: اسمعت من افواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة.

بكلامٍ لا يَصدُر بنَص القرآن، إلاّ من الكافرين، ولا يَظهَر إلاّ من القوم الخاسرين. ومع ذلك كلّما ورَد في حقّ الأصحاب من الآيات الدّالة على شرَفهم أوّلوه، وكلما جاء حديثٌ صحيحٌ في فضائلهم لم يَقبَلوه. واختَلَقُوا أحاديثَ نَسَبوا[1] <٥٠ب> فيها النقص إلى الأصحاب المَحمُودين بالسُنَّة ونصِّ الكِتاب، وغيَّروا الأحكام، واستحدثوا شريعةً لم تأتِ عن سيِّد الأنام، ولم يَقُل بها آله وأصحابه الكرام. بل أن الحديث من الكتب الستة إن وافَقَ رأيَهم قالوا بصِحّته، وإلاّ تَركوه وقالوا لا نقول بحُجّيّته، وهذا دليلٌ على غَباوتِهم[2]، وآيةٌ دالّةٌ على كثرة حَماقتِهم، فتبّاً لهم ما أجهَلَهم، وتُعساً لهم ما أغفَلَهُم، فمِن حَماقتِهم أن بعضَهم كَفَّر الإمام عليّاً حيثُ لم يأتِ بما يُوافِق طَبْعَه الفاسد، وعقلَه السخيف الكاسِد.

ومما انهمَكوا فيه تغييرهم الأحكام الشرعية، وتعاطيهم الفُجور المُحرَّم في المِلّة المُحمديّة، وذلك أن من عادة شاه العجم أن يجمع نساء البلد إليه، ويُلبِسهم الأقْبِية[3] القصيرة المُوازِية للأرداف، ويَنثُر عليهم الدنانير، فإذا انحَنَيْنَ لالتِقاطها نَظَر إليهِن، ويَعِدُّون ذلك فيهم مَكرُمةً ومَفْخَرَةً يَفتَخِرون بها، وبِمثلِ هذه الفِعلة[4] القبيحة كان سبب خرابِ مملكتِهم، وانقِراضِ دولتِهم.

---

[1] لفظة نسبوا مكررة في الأصل.

[2] في الأصل: غباواتهم.

[3] الأقبية مفرده قباء ثوب يلبس فوق الثياب

[4] في المطبوع: العقلية.

في بيان استيلاء أويس الأفغاني على قندهار

وقصة ذلك باختصار: أنَّ الأمير أُوَيساً الأفغاني دعا الكَرَج خان[1]، خان قُنْدَهار إلى بعض الولائم، وهم أهلُ خيامٍ وأخبِيَةٍ في البادية، فرأى أختَ الأمير أُوَيس فأعجبَتْه، فاحتال في الوصولِ إليها، بأن أظهَرَ أنَّه يُريد أن يَخْتِن أولاده فدعا الرجال والنساء إلى الوليمة، الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، وفيهِنَّ أختُ الأمير أُوَيس، فَحَجَر عليها ولم يُسَلِّمها لأهلها حتى تَصرَّف بها. فأراد <٥١أ> أهلُها قتْلَها، فقالت: أتَقْتُلوني بِذَنب أنتم فاعِلونه، لأنَّكم لَمَرتُموني بالذهاب مع جُملة النساء إلى الوليمة، ولولا أمرُكُم ما ذهبتُ! فتَعقَّلوا قَولَها، وعَفَوْا عنها، عِلماً منهم بأنها لا ذنبَ لها في ذلك.

ثم أن الأمير أُوَيساً ذهب إلى شاه العجم يشكو الخان، فلم يَعبأ بشِكايَتِه، ولا أخذ بِيَدِه، فذهب إلى الحِجاز يُريد الحَج. قال صاحبُ الوالد، الشيخ حسين الراوي[2] رحمه الله، المُلتَجِئ إلى حَرَم الله المكّي: لما دَخَل الحَرَم المَكّي، سألَ العلماء السّادةَ الحَنَفيَّةَ عن قِتال العجم، وأخذِ أموالهم وسَبْي نسائهم وأطفالهم. فأفْتَوه كُلُّهم بذلك إلا الفقيه عبد الكريم السِّنْدي.

فلما قضى حَجَّه، وأتى المدينة المُنوَّرة، استَأذنَ أن يَبِيتَ[3] في الشُّباك النَّبَوي، وأعطى على ذلك مالاً جَزيلاً، فباتَ فيه على نِيَّة قِتال العَجَم، فرأى المصطفى- صلى الله عليه وسلم- وأنه قَلَّدَه بسيفٍ، فانتَبَه

---

[1] هو كوركين خان الكرجي أمير قندهار، وكان عاملاً للدولة الصفوية.

[2] تقدم التعريف به.

[3] في الأصل: يبات

فَرِحا مسروراً، وتأوَّل الإذن من المصطفى- صلى الله عليه وسلم- في قِتالهم وسبي ذَراريهم وأخذ أموالهم. انتهى.

قال بعضُ مَنْ أثِقُ به: ولما وَصَل الأمير أوَيْس إلى محلّه، احتَال في فَتْحِ قُنْدَهار، فدعا الكَرَج خان إلى حِلّتِه، ورغَّبَه في المَبِيت، وتَواطأ[1]هو وعشيرتُه على قتلِه وقَتْلِ من معه. فلما نَزَل الخان في الحِلَّة، وتَفَرَّق أصحابُه في الأخبِيَة، وثَبوا عليه وعلى جماعته فقَتَلوهم على بَكْرِة أبيهم[2].

وركَب الأمير أوَيْس وجماعتُه في تلك الساعة، ودَخَلوا قُنْدَهار، وأعمَلُوا السيف فيهم، فأطاعوا، وسلَّموا المدينة، واستولى عليها أوَيْس، وذلك في الحادي والثلاثين بعد المائة والألف. وبقي <٥١ب> فيها أميراً إلى أن مات[3]، فتَوَلَّى بعده ولده الأمير محمود، فسارَ فيهم سيرة أبيه[4].

---

[1] في الأصل: وتواطئ.

[2] الأصح: عن بكرة أبيهم.

[3] توفي سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠م.

[4] يرى لوكهارت أن محمود كان مقاتلاً شجاعاً طموحاً، لكنه ينقصه دهاء والده مير ويس.

Lockhart, L., The Fall of the Safave Dynasty, p., 55

في بيان حصار الأمير محمود بن أُوَيْس لأصفَهان

وجهَّزَ جنوده نحو كُرْسي مملكة العَجَم أصفَهان[1]، وحاصَرَها نحوَ عامَيْن، قَطَع عن أهلها المِيرة، وسدَّ عليهم الطُرُق والثُغور، فَخَرجوا إليه مَرَّتَيْن في عسكرٍ كثير العَدَد، مُتواصِل المَدَد، فقاتَلهم قِتالا شديداً، وهَزَمَهم، وقَتَل أبطالهم، وأبادَ رجالهم، فتحصنُوا بالبلد، ولم يَخْرُج بعدُ منهم أحد، فقلَّ طعامُهم وارتفع سِعْره إلى أن كادَ أن لا يُوجد، فأكلوا الدَواب، وباعوا بالأثمان الغالية الكِلاب، حتى قِيل أن بعضُهم أكلَ بعضاً.

في بيان أخذ الأمير محمود أصفَهان

فلما رأوا حُصونَهم غير نافِعة، وأبطالَهم غير دافِعة، سلَّموه البلد[2]، وأطاعه كلُّ أحد، وانقَضَّ على الشاه حسين وقيَّدَه بالأداهِم والأغلال، وسَجَنه في مَوضعٍ لا يصِل إليه الأهل والآل، وبقي في السجن مُدَّةً، إلاّ

[1] يذكر الأمر الصادر إلى والي بغداد باشا (دفتر مهمة ١٣٠ ص٣٦٣ في أوائل رمضان ١١٣٤) أن "ابن مير أويس محمود خان، وابن عمه قاسم خان، وأمراء طاغستان، هاجم كل منهم على رأس قواته، الممالك الإيرانية لفتحها وتسخيرها، وأن القوات الإيرانية انكسرت أمامهم وتشتت شملها كرت راجعة، وتم حتى الآن فتح قندهار، وهراة، وكرمان، ويزد، وشماخي، ويهدفون إلى فتح وتسخير مقر الحكومة الإيرانية أصفهان وسائر الضياع والبقاع".

[2] استولى على أصفهان في ١٥ محرم ١١٣٥هـ/٢١ تشرين الأول ١٧٢٢م تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص٢٠١. و Lockhart, L., Op. Cit., P.; 55.

أنه يُكْرِمه بالمآكِل المُختَلِفة الألوان. وقد نَقَل غيرُ واحدٍ أنه تَزَوّج ابنتــه، ورَبَط بذلك نِسبَتَه.

في بيان كتاب الوزير إلى الأمير محمود

ثم لما شاعَ ذلك وذاع، وملأ الأسماع، أرسل له المذكور، ضُوعِفَت له الأُجور، رسولاً بِكتاب يُهَنِّيهِ بهذا الفتح المُبين، ويُثني عليه، حيث نَصَر المِلَّة والدِّين، فَرَجع الرسول مِنه مُكَرَّماً، مُبَجَّلاً مُعظَّماً[1].

في بيان كتاب وزير الأمير محمود إلى الوزير

وأرسل وزيرُه محمد صادق خان معه كتاباً مُفَصَّلاً إلــى الوزيــر، وصُورته[2]: استَفْتِح الرَّقيم، بما أُلقي إلي كتابٍ كريم ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[3].

---

[1] يذكر رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء ص١٦، أن حسن باشا كتــب إلــى محمود الأفغاني كتابه هذا "يسبر به غوره ويستوضحه نواياه وما يقصده من هــذه التحركات"، وليس لمحض التهنئة كما يذكر المؤلف، وفي أمر صادر إلــى حســن باشا (دفتر مهمة ١٣٠ ص٣٩٦-٣٩٧، أواخر رمضان ١١٣٤هـ)، فــي أثنــاء حصار أصفهان إلى "أن الوقت لم يحن بعد للقيام بتحركات عسكرية تهدف إلى فتح وتسخير بعض الضياع والبقاع الإيرانية المجاورة لحدود الدولة العليــة والقريبــة منها، والتي كانت قديماً تحت تصرف الدولة العلية، ويأمره بــالتريث والانتظــار حتى يفتح محمود خان أصفهان ويتبين هدفه بعد فتحها".

[2] انفرد المؤلف بإثباته نص هذه الرسالة المهمة، ونجد خلاصة لــها فــي مصــادر أخرى، منها دوحة الوزراء ص١٦.

[3] النمل، الآية ٣٠.

اللَّهُمَّ يا مَن شَرَحَ مَراشِدَ الدِّين، علــى مَفــارِقِ المُســلِمين <٥٢أ>، وقَرَعَ قلوبَ المُبَشَّرين تحت الشَّجَرةِ بِمُبايعةِ خاتَمِ النَّبيين، وشَيَّدَ قُبَّةَ الإسلام على قوائمِ الأركانِ الأربعة، بوجود الخلفــاء الراشــدين الذيــن شَــوارِقُ أنوارِهم في مَشارِقِ الأرض ومغاربــها، كالشــمس فــي رابعــة النَّــهار ساطِعِين، ونَصَبَهم للهِداية كالأعلام ما دام دوام الســماوات والأرَضيــن. نسألُكَ أنْ تُذِلَّ رِقابَنا في طاعة أُولي الأمر خاضِعِين، كما وَفَّقْتَ بِطاعتِــهم وقُبول إطاعتِهم عِبادكَ الصالحِين، من جُملَةِ المَهْدِيين المُكلَّفين آمين.

فالمعروض إلى ذِرْوَةِ جَناب المُتَرَدِّي بِرِداء الجَلالة، المُتعالي بِعُلُــوِّ المجد والنَّبالة، شمس فلَك الدولة، وبدر سماء الصَّوْلة، مَوْرِد المجد الأثيل، ومَعْدِن[1] الجَوهر الجليل، المُتناهي إلى ذِروة حِجابِــه، سُــمُو المعــالي، والمِقْدار المُباهي بمَماس بابِه، مَفارِق الاعتبار والاقتِدار، الجــامِع لجميــع المَكارِم في كل باب، الغَني عن تعريف الألقاب. الدســتور المُكــرَّم، وذو اللواء المُفَخَّم، من لم يَنَل كَمَناله أحد من أقرانه وأمثاله، الوزير المُشــير، الذي لا شبيه له ولا نظير. شعراً [من الطويل]:

فإنَّ قَميصاً حِيكَ مِنْ نَسْجِ تِسْــعَةٍ وعِشْرِينَ حَرْفاً في عُلاه قَصــيرُ

حامي حِمى الإسلام، من دار السلام، إلى وادي السلام، ما زالَــت الأيام خادِمة لحِجابه، وآمال الأيام مُناخَه إلى تُراب بابِه.

إن الداعي لإيواء الدولة القاهرة قبــل ارتحــال الخــان المــبرور،

[1] أضاف المؤلف فوق هذه الكلمة لفظة (معا) يعني جواز فتح الدال وكسرها.

والسلطان المنصور، المستور بِسِتْر التَّجَرُّد من عالَم الشُّهود، المسرور من البَقاء بِدوام الوجود، الرَّاقي إلى مَدارِج الجِنان <٢٥ب>، والقاعِد مع الحُور والوِلْدان. المُنَزَّه في رفيع ذِروة المَلَكُوت، الواصِل إلى رحمة ذي الجود والجَبَرُوت، أعني والِد الماجِد، سلطاننا زَيْن الأماجد، كُنتُ من المُلْتَقِطِين فرائِد تجريده، المُنْخرِطِين في سِلْكِ الدَّاعين لتأييده. ونحمد الله المُتَعال، مِن أول صباح عُرُوج سلطاننا المؤيَّد إلى يومنا، هذا ما دَعَوْنا لِنَصْره إلاّ استَبْصَرنا بأنه مقرونٌ بالإجابة. ولم يَزَل سيفه العاضِب عالياً[1] على مفاخِر الجبَّارين، وأعناق المُتَمَرِّدين، سافلاً بالسقوط عنده وله خاضِعِين. وبهذا البرهان القاطع، والدليل الساطع، عَرَّفنا أنه المُؤَيَّد من عند الله، المُتوكِّل على الله، المنصور بالله، فقُلنا ﴿الحمدُ لله الذي هَدانا لِهذا وما كُنَّا لِنَهتَدي لولا أنْ هَدانا الله﴾[2].

فلما شاعَ وفُور الظُّلم والاعتِساف، وقُصور العدل والإنصاف، في ممالك العجم، عَلِمنا باليَقين أن المُلك يبقى مع الكُفر ولا يبقى مع الظُّلْم، فقام مُرشِدُنا بخروج السيف العاضِب[3]، على الجِّهاد الواجِب، فَطَرَقْنا على المُتخلِّفين عن تحت لِوائه كالشِّهاب الثاقب، وإنَّا ما بَرِحنا مَفارِقنا عن استظلال رايةِ إجلاله، حتى توجَّهَت وطَلَعَت شوارِق إقباله من مَشْرِق قُنْدَهار، إلى تسخير ممالك الفُجَّار، فإنَّا هاجَرْنا تحت لوائه، وإن لم نُعَد من المُهاجِرين والأنصار، وتَلَوْنا عند خروجنا مناسِياً لأحوالنا بما قال الله

---

[1] في الأصل: (عال) وقد صلحت اللفظة في الهامش فصارت (عاليا).

[2] الأعراف، من الآية ٤٣.

[3] العاضب: القاطع.

تعالى ﴿وما لَنا ألاّ نُقاتِل في سبيل الله وقد أُخرِجْنا من ديارِنـــا وأبنائنــا﴾[1] حتى وَرَدْنا على القريةَ الموسومة بالجُلُون آبـــاد[2] <٥٣أ>، وهـــي مـــن حكومة أصفَهان، فَصادَفْنا جَـــمّ غفـــير، وجَمْـــعٌ كثـــير، مـــن طَوائـــف القَزْلْباش[3]، المسرورين قُلوبهم بوفور الانتعــــاش، واشـــتعلت نوائـــر[4] حروبهم إلى كُرَة الأثير، وفلَكُ الأفلاك من تَمَوّج سَفْكِ الدماء كاد يُشْـــرِف على التدمير. ونادى عليهم مُنادي الفَناء: هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تســمع لهم رِكْزاً[5]، ولم نُبْقِ لهم جاهاً ولا عِزّاً، فلا يَجِـــدوا كـــهفاً ولا جـــرْزاً. ومِمَّن بقِي من سيوفنا العاضِية، ورِماحنا الغالبة، المشهورين في المشـــارِق والمَغارِب، انهَزَموا مِنّا بإذن اللّه تعالى، وتوجَّه إلينا نصرُ اللّه. وازدَحَمــوا بعد الفِرار،وتحصَّنوا بِحِصار تلك الديار.

---

[1] البقرة، من الآية ٢٤٦.

[2] في المصادر الإيرانية: كلنآباد، بالكاف الفارسية، وهي قريـــة تبعـــد عـــن مدينـــة أصفهان بـــ١١ ميلاً.

[3] القزلباش: لفظة تركية النجار، مكونة من (قزل= أحمر) و(بـــاش= رأس) فيكـــون معناها ذوو الرؤوس الحمر، ويقصد به أتباع الطريقة الصفوية التي نشـــأت فـــي أردبيل بإيران في القرن التاسع للهجرة، وكان الشيخ حيدر بن جنيد، الـــذي طـــور هذه الطريقة الصوفية لتغدو شيعية إثنا عشرية، قد أمر أتباعه بأن "ترتفع من وسط عمامتهم، ذات المكورات العديدة، قطعة مدببة على هيئة الهرم، مقسمة من قمتـــها إلى أطرافها إلى إثنتي عشرة شقة تذكر بعلي وأبنائه الاثني عشر" (كامل مصطفـــى الشيبي: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، بغداد١٩٦٦، ص٤٠٥)، وبهذا أصبـــح اسم (القزلباش) يطلق للدلالة على الدولة الصفوية وأتباعها.

[4] مفردها نائرة أي العداوة والشحناء.

[5] الركز: بكسر الراء: الصوت الخفي.

ثم توجّهت راياتُ سلطاننا مع الآيات الباهرات، إلى البُستان المُسمّى بِفَرَح آباد[1]، وهي الرّوضة التي بناها السلطان المُولَع بالزّيب[2] والزّيْن[3] شاه سلطان حسين، في أيام خلافته، وعهد سلطنته، لأن يعيشَ فيها بِنَشاط النِّياط[4]، ويُزيِّن عَريشها بِبساط الانبساط، فاعتبروا أيها الملوك! أين بانُوكَ وأينَ ساكِنوك؟ العُمر وإن طال فما تَحتَه طائل، وكل نعيم لا محالةَ زائل، سفينةٌ تَسْري وما تدري، ولكلٍّ غائب قُفول، ولكل طالعٍ أُفول.

الحاصل، غِب[5] ذلك العِراك، تهاجَموا من خارج البلدة بفاصِلة اثني عشر فَرْسَخاً، صناديد الألْوار[6] والأكراد، ومن تبعهم من عُظمائهم وأُمرائهم وقبائِلِهم وعشائِرِهم حيثُ لا يُعد ولا يُحصى، فتَصفّفوا في ذلك الصّفْصَف[7] للقِتال، زائدين عَدَد الرّمال <٥٣ب>، كأنهم منذ يوم خُروجنا

---

[1] بلدة من أعمال مازندران، على بحر قزوين، عرفت بقصورها الفخمة التي شادها السلطان حسين الصفوي لتكون منتجعاً له.

[2] الزيب والازيب: الغريب والامر المنكر.

[3] في المطبوع: والزي.

[4] للنياط: الفؤاد.

[5] غب: بعد وعاقبة.

[6] يريد: اللور (أو اللر، كما في المراجع العربية). شعب له خصائصه القومية يسكن في إقليم لورستان بإيران وإليهم نسب الاقليم. ويرى المؤرخ الكردي محمد أمين زكي أنهم يتألفون من عناصر شتى ليست من اللور، إلا من حيث المساكنة، والعنصر اللوري الأصيل بينهم هم الفيلية، الذين ينقسمون إلى بشتكوه وبيشكوه. خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، القاهرة ١٩٦١، ص٤٢٣.

[7] الصفصف: المستوى من الارض، قاع صفصف: مستو مطمئن

من القُنْذهار، شرَعوا بالإجماع لمُعاضَدَة سلطانهم، فحاصَروا في ذلك اليوم بهذا المِنوال، فتَضرَمُوا الحرب نارَها، (وتَحُطُّ أوزارها)[1] وتَرَوْنَ شَرارَها[2]، فابتَلَوْا منا بأعظم داهية، وما أدراك ماهِيَة؟ نارٌ حامِيَة.

فبعد ذلك جاءت جُيوش الفارِس[3]، وهو من بلاد مَديدة، وله وِلايات عديدة، فاجتمعوا علينا كتَراكُم غَمائِم المَطَر، وأحاطوا عَلَينا[4] إحاطة الهالَةِ بالقَمَر، فقامَت الحرب على ساقِها كقيام المَحْشَر، فاقتحموا أحزابُها وانهزموا أصحابُها[5]، ففَرُّوا من لُيُوثنا كَحُمُرٍ مُستَنْفِرة، فرَّت من قَسْوَرَة[6]. فعلى هذا المِنوال من حروب الكُلِّية العظيمة التي اتَّفَقَت في خارج البَلْدَة في الشُّهور التِّسعة أربعة كَرائر[7]، في تَلْوِ الغَزايا الكُلِّية، لم يَزَل أبدأ أوزار الحرب عن شُغْلِ العِراك مع المحصورين في ذلك العارك[8] الخالية[9]، والحمد لله في كل المَعارِك كانوا هم المغلوبين وإنّا كنا غالِبين، بإعانة رَبِّ العالمين.

فلما امتَدَت أيام المُقاتَلة والمُحاصَرة في ذلك الفَيْلَق مع التوفيق إلى

---

[1] الزيادة من الهامش.

[2] الصحيح: فاضرمت الحرب نارها وحطت اوزارها ورأو اشرارها.

[3] يريد جيوش فارس، أو الفرس.

[4] الصحيح: وأحاطوا بنا.

[5] يريد أن الأحزاب هم الذين اقتحموا، فإنه رفعها كونها فاعلاً، والصحيح: فاقتحم احزابها وانهزم أصحابها.

[6] القسور: الأسد.

[7] لعله يقصد كرات أي هجمات.

[8] المكان الاجرد من المرعى.

[9] في المطبوع: الخالي.

تِسعة أشهر، ولم يَغِض جَرَيان الدماء كالسيول، من مجاري السيف المسلول، فجرى عليهم ما جرى؛ وغَشِيَهم من اليَمّ ما غَشِيهم. ولعَمْرك في تلك الشهور لما استرحنا وما سُدِّلَت ذُيولنا غِب التشمير في ساعة لا بالليل ولا بالنهار، إلاّ وقد وكَحنا[1] معهم في القتال في كل الأوان، وحكّتنا بهم بألسِنَة السيف والسِّنان. حتى اتّعَظَت نفوس المحصورين بأن خيولنا بَرْقية، وسيوفنا مِصرية، وأسنّتنا يمانية، ولُيوثنا شديدة المَضارِب، وسِهامنا <٥٤أ> كالشِّهاب الثاقِب، وفرساننا لُيوثٌ إذا ركِبت، وأفراسُنا لواحِق إذا طلَبَت، لا يَهُولُنا التخويف، ولا يُزعِجنا التَّرْجيف، وإن عَصَيناهم فنِعْمَ الطاعة، وإن قتَلْناهم فنِعم البضاعة، فاستَدْعوا من سلطاننا– أيّده الله بنَصْرِه الجليل– أن يكونوا[2] في حِصن حمايتِهم دَخيل[3]، فقَبِل منهم الاستئمان، وانشَرَح ظِلّ حِمايته عليهم للأمن والأمان، وزيَّن من عِزِّيه الغرّاء أريكةَ الخلافة العظمى في قصر السلطنة الكبرى. فقُلنا: الحمد للّه الذي شرّفنا بالوصول عند عُروجِه إلى سرير السلطنة القاهرة، وجُلوسه على مسند الدولة الفاخِرة، حيث ظلّت أعناق الناس لها خاضِعين[4]، وذلّت صِعاب الأمور لحُكْمِه المتين، فسمعتُ مُنادِياً يُنادي للإيمان، فيقول: يا مَن جَعَل خُطبة الخُطباء الألسنة على مَدارِج المَخارِج

---

[1] وكحه أي وطئه وطأً شديداً.

[2] في الأصل: ان يكون.

[3] جيء بالمفرد لغرض السجع.

[4] الصواب: خاضعين.

باسم بِرّه، وصيّر دنانير الأثنية[1] في دار الضَّرْبِ الأفواه مَسكوكة بألقاب شُكْرِه.

رَبِّ! كما نوَّرْتَ وجه الأرض بشُعاع سيفه العاضِب، ونَثَرْت جواهِر زَواهِر حمده في أركان المشارق والمَغارِب، اجعل خاطِرَه بإفاضةِ إلهامِك مَحسوداً للعقول العشرة، ووجوه رايته في تسخير الممالِك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾[2].

وحين استواء شمس فَلَك الخلافة في سَماء الجلالة، وَرَد سفيركم الحَقِيق بالتعظيم، ورسُولُكم الحَرِي بالتكريم، المُتَحلّي بالمَكارِم المُحسَنَة، المُتَزَيّن بالأخلاق الحَسَنَة، كريم السَّجايا والخِصال، وحُسن المزايا والفِعال، الموصوف بتكريم الذات، المعروف بحُسْن الصِّفات، الحاج الحَرَمَيْن الشَّريفَين، الحاج عثمان، لا زال مُمَتَّعاً بالنِّعم، مَدْفوعاً عنه النِّقَم، بمحمدٍ وآله وأصحابه سادات الأُمَم <٤٥ب> عند العرب والعجم، وتشَرَّف بكَرَّات عديدة بدخول المجلِس المُنيف الأعلى، الذي لِمُعايَنَته تقاعَس كل مُتطاوِل إلى أدنى مَراقيهِ العَلِيَّة، ورَجَع بَصَر المُحدِق خاسئاً من سَواطِع أنواره البهيَّة، وامتَدَّت أطيابه على قمر الأفلاك، وتَرافَعَت على الفَرْقَدَيْن والسِّماك، وحُرِسَت ثُغوره من جميع أنحائها بِسَيَّارات الكواكب، وثَواقِب الأفلاك.

كيف لا؟ وهو كُرسي المملكة العظمى، وسماء الخلافة التي طلَعَت

---

[1] يريد: جمع ثناء.

[2] عبس، الآية ٣٨. وفي الأصل (مستبشرة) فإما أنه لم يقصد أن يستشهد بآية، وأما أنه أخطأ في اختيار اللفظ الصحيح من الآية.

من آفاقها كواكب المجد الأسمى، وإنه من أُفُق الرِّسالة طلّع، ومِن نَبْع الجلالة نَبَع، ومن شجرة النُّبُوّة فَرَع، رَفَع اللّه عِماد مُلكه بِدَوام الصُّعود، وقِوام سُمُوّه بالإكرام على مقامٍ محمود، أدام جواهِر أيام السُّعود، منظومةً في سلْكِه، ولا زالت رِماح النّصر مُستمِرّةً لجاري خُيوله وفَلَكِه، وثَبَتت قواعِد مُلْكِه في التُّخوم، ورُفِع مقامِه وإن كان عالياً حتّى تصير في خدمتِه مُمَنْطَقات النجوم، وأمضى أحكام سيوفه في أهل العِناد، ولا بَرِحَ قائماً بحقوق الدين حتّى تَضمَحِل بنوره ظُلُمات الفساد، ففي تلك المجالِس المُنيفة، استنارت وَجَنات آمال أمير الحاج المُشار إليه، باقتِباس لوامِع أنوار مَراحِمِه البَهِيَّة.

وإنّا لما استَشْمَمنا فوائح ائتلافِكم، وروائح صحيفة إخلاصكم، من رِياض خُلوص عقيدتكم لدولة خاقاننا المنصور المؤيَّد، فكلُّنا المُستَظِلُّون المعتكِفون[1] تحت لِوائه من أرباب السيف والقَلَم، لا سيما من السادة وطلاّب العِلْم، ومعالي الشِّيَم، من صميم القلب <٥٥أ> وطيب الخاطِر، صيَّرنا في زُمْرة مُحبّيكم، والمُعتقِدين لجنابكم، الداعين لدولة سلطاننا وسلطانكم، وهو صاحِب العدالة التي لا يُذكر معها أيام كِسرى، والجلالة التي وَقَفَت الآمال دون مَبْلَغها حَسْرى، والبسالة التي لها ذلّت رِقاب الصِّيد، وخَضَعَت لِهَيْبَتها جِباه الصناديد، قد أجراه ربُّه على ما أمَرَ به من العَدل والإحسان، وأجمل ذِكره في منازل الكُرماء ومَصارِع الفرسان، وحلَّ من المعالي مَحلَّ الإنسان من عَيْنِ الإنسان، وألِفَ المَجْد إلْف

---

[1] في الأصل: المستظلين المتعكفين.

الطَّرْفِ للوَسَن، وامتَزَج بالمُكْرَمات امتِزاج الـــرُّوح بـــالبَدَن، وأصبحــت فضائل السَّعادات عليه مَوقوفة، ووظائف الجلالة إليه مَصْروفـــة، أعنـــي السلطان بن السلطان، والخاقان بن الخاقان، سلطان الـــبَرَّيْن والبَحْرَيْـــن، خادِم الحَرَمَيْن الشَّرِيفَيْن، ما بَرِحَت أوتاد سَلْطَنَته مشدودةً بأوتاد الخلـــود، ورايات خِلافته مَنُوطةً بآيات الأُبُود[1]، فَلِمَ لا يكون كذلك وكلُّنا فـــي هـــذا الأوان إخوان الدين، السالِكون على منهج اليَقِين، فمُغاير المِلَل فـــي تلـــك الأيام مَنْقوص، ومُخالِف المَذْهَب عندنا كالمَبْرُوص.

فمِن الواجِب علينا وعليكم التَّشْييد في مَبانِ الخِلَّـــة بيـــن الدولتَيْـــن، وتأسيس أساس الائتِلاف، وارتِفاع الخِلاف من البَيْن، حتى امتدَّت أنيـــال القِباب[2] الى عَرَصَةَ القِيام، وتكحُّل تُراب هذا الباب إلى مدى الأيام، ومـــا أُثْبِت دِعائم هذا المَرام إلاَّ بقوائم الخِلَّة في البَيْن والوِداد من الجانِبَيْن.

ومِن اليقين <٥ب> أن الائتلاف إنْ لَم يكن ظاهِراً أَزْيَدَ من أيـــام دولةَ المُخالِفين السالِفين، فامتَنَع الفِهمُ أن يكون أنقص، فالعِلْمُ عند اللّـــه رب العالمين، فنسأل اللّه أن يَجْعَلَنا وإيَّاكم مـــن التـــائبين، وأن يَعْصِمنـــا مـــن وساوِس الشياطين، من الأنس والجِنّ أجمعين.

فالباعِث لإساقَة[3] هذه النُّميقة الوثيقة، فَيَضان الخِلَّة التي بصدور المَحَبَّـــة مُلتزَمة، ومَيَعان المَودَّة التي في أنهار العُروق جارية، واعتَـــذِر فـــي أداء قُصور العِبارات بوُفور سَـــجِيَّات تلـــك الـــذات، لأن الحَسَـــنات يُذْهِبْـــنَ

---

[1] جمع أبد.

[2] القِباب: الأسد. وقرأها في المطبوع الضباب.

[3] يريد: سَوْق، أي: إرسال.

السيئات، فاللّه تعالى يُبَيّض بأنوار وجودكم الأيام السُّود، ويُعيد بِعِزّكم كلَّ مفقود، ويَقضي على أعدائكم بالسقوط، وعلى دولتهم بالهُبوط.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. انتهى الكتاب.

في بيان غزو الوزير ديار العجم

ثم أن الرسول ذَكَر أن أراضي العجم سَهلٌ فتحُها غنيمةٌ باردةٌ رِبْحها، فأرسله الوزير إلى الدولة العَلية، والحضرة الجليلة السَّميَّة، لا زالت مَرْبوطةً بأوتاد الآباد، مَصُونةً عن الانتحال والفساد.

ففي السنة الخامسة والثلاثين بعد المائة والألف[1]، صَدَر الفَرْمان السلطاني، والأمر المُحَتَّم الخاقاني، بالغزو لِديار العجم، وفَتْح بقيَّة ما دَمَّرَ اللّه من ممالك تلك الأمم، وألاَّ يتعرَّض للأمير محمود بن أُوَيْس الأفغاني، وإن الوزير المذكور هو الرئيس على الجنود المنصورة[2].

---

[1] أولها ١٢ تشرين الأول ١٧٢٢م.

[2] نص هذا للفرمان في دفتر مهمة ٣١٣ ص١٩٠ بتاريخ أوائل شوال سنة ١١٣٥هـ، ومما جاء فيه أن السلطان منح صلاحيات تامة لوالي بغداد حسن باشا في تقرير ما يجب عمله إزاء توسع الأفغان في إيران، وأكد الفرمان على أنه لا يجوز التعرض على الأماكن الواقعة تحت تصرف محمود خان الأفغاني "ولكن يجب التفكير أيضاً في ماذا سيكون موقفه من قيام الدولة العلية بفتح وتسخير بعض الممالك الإيرانية، وكذلك الأمير الإيراني طهماسب إذا اكتسب قوة واستطاع أن يجمع جيشاً كبيراً، فما هي النتائج المتوقعة من ذلك؟"، وينتهي الفرمان إلى القول "على الوالي حسن باشا المبادرة في العمل من أجل فتح وتسخير بعض الممالك الإيرانية المجاورة للدولة العلية والقريبة منها قبل أن تمتد إليها يد محمود خان باحتلالها..". ويوضح الأمر الصادر بعده بأسبوعين السبب الذي دعا بالدولة العثمانية إلى التدخل العسكري بأن "إذا وقعت الأماكن والبقاع القريبة من حدود شهرزور وبغداد في يد محمود خان فقد يؤدي ذلك إلى وقوع فتن واضطرابات على حدود الممالك المحروسة العثمانية فيجب الإسراع في احتلالها قبل سقوطها في يده" (دفتر مهمة ١٣١ ص١٩٧، أواسط شوال ١١٣٥).

في بيان فتوى شيخ الإسلام

بحل سبي العجم

ومع ذلك سطّروا إليه فتاوى من شـــيخ الإســلام، مُفتــي الديــار الرُومية، الشيخ عبد اللّه مُفتي القَسطَنْطِينيَّة المَحْمِيَّة[1]، بِقتال العجم، وأخـذِ أموالهم وسَبي نسائهم[2] وأطفالهم. وصورتها في اللغـــة <٥٦أ> التركيـــة هذه[3]:

بومسئله أئمة حنفية فتَده جواب ندر؟ شاه إسماعيل أولادنك تحــت حكمنده اولان ديار عجمده متمكن اولان (خذلهم اللّه تعــالى) أبــو بكــر وعمر وعثمان خلفاء على الحق أولدقلري اقرار ايده من كفار ايدوب مــا عدى حضرت علي اكثر اصحاب كرام رضوان اللّه تعالى عليهم اجمعيــن حضراته عائشة صديقه رضي اللّــه عنــها حضــر تلرينــه مرتدلــردر ومنافقلردر ديو علما سب ولعني وعائشه صديقـــة رضـــي اللّــه عنــها حضرتلرينه قذف كندولره عبادت بيلوب قرآن عظيم الشاندن نيجه أيـــات كريمة، قواعد عربيدن خارج دارزنادقه اوزره راي فاسدلري ايله معنىلر ويروب كفره ومنافقين حقلرنده اولان أيــات قرأنيــةيي أصحــاب كــرام مذكورون حقلرندن درديوب مسلمينك قتلرنى مباح ونساء لرنـــدن اســير ايتكلرينك بلا نكاح وطيلرني حلال بيلوب مؤمنيك جنتــه رويــة اللّــهي

---

[1] هو عبد الله أفندي يكيشــــهرلي، لـــه "بهجــة الفتــاوى" مطبــوع، توفــي ســنة ١١٥٦هــ/١٧٤٣م. قاموس الأعلام ص٣٠٩٨.

[2] في الأصل: نساعكم

[3] نص هذه الفتوى في دفتر مهمة ١٣١ ص١٧ بتاريخ ١١٣٥هــ.

انكارومحالدرديوب علماء ضاله سي بو وجـــه اوزره فتــوى لرويـــروب رئيس لري اولان شاه وسائر حكام كمراهلري وسائر تابع لري بو اقــوال كاسده وافعال فاسده بي حق اعتقاد يلبسه لر بومقوله اقوال وافعالى اعتقـاد ايدن ملا عينك تمكن ايتكلري ديارلري دار الحرب اواوب كندولــر اوزره احكام مرتدين اجراء اولنورمـــي؟ الجــواب: ديـــارلري دار الحـــرب در واوزرارينه احكام مرتدين اجراء <٥٦ب> اولنور.

في بيان إرسال الوزير سَرِيَّة الى نواحي هَمَدان

وقد بَقِيت فَتْوَتَان لم أنكرهما لتضمُّن هذه إياهما، فتأهَّب للتَرحـــال، وجَمَع رِجاله الأبطال، وسارَ بخميس أرْهَبَت راياتُه، وأوْهَنَت مُذ أعجـزت آياته. فلما بلَغَ كَرْمان شاه[1]، خَرَجَت إليه أُمراؤها لِتَتَلَقّـــاه، فـألْقَت إليــه مفاتيح البلد، حيث عَلِمت أن لا طاقةَ لها بِخِصام ذلك الأسد[2].

في بيان نهب تلك السرية قافلة للعجم

ثم إنّه لما حَلّ ناديها، ومَلّك دانيها وقاصيها، وجّه سَـــرِية لبعـض المقاصِد، ورأسَ رجلاً يُقال له تَيْمور على أولئك الفرسان، فَظَفَــروا فـــي

---

[1] كذا يكتبها المؤلف، وسيكتبها أيضاً كرمان شاهان، وهو أصل اســمها، ويختصـر اسمها عادة إلى كرمنشاه، وعربها العرب قديماً باسم قرميسين، مدينة شهيرة فـــي غربي إيران، تعد مركزاً إدارياً مهماً لمنطقة تحادد الحدود العراقية، وتعد همـــدان أهم توابعها.

[2] دوحة الوزراء ص١٧.

طريقهم بقافِلة عظيمة، وراحِلة عميمة، قد خَرَجَت من أصفَهان تُريد بعض العِمارات من تلك الجِّهات، وفيها من نساء الأشراف الأكابر، وبنات الأمراء الأفاخِر، من يَسمُو على دُرَّة الغَوَّاص، ويَنُوف على ظَبْيَة القَنَّاص، ومعها أيضاً المال الجزيل، والأثاث الجليل، فقتَلوا رِجال تلك القافِلة، وأخذوا كلَّ راحِلة. وسَبَوْا النساء، واستأصلوا الإماء، لكنهم لما شاهَدُوا النساء مُبالِغين في الاحتِجاب، مُواظِبين على التَّستُّر بكل حِجاب، تَلوح عليهن سيماء الكَمال، وتَبين منهن علامات الإجلال، عَلِموا أنَّهُن نساء أكابر، وصاحِبيات أماجِد أفاخِر، فخَشَوْا من الدستور الأكرم، والوزير الأفخم، إذ ربما لم يكن له مَيْل إلى أسرِهن، ولم يَجْنَح إلى سَبْيِهِن بأسرِهن، أما لكونهن مُسالِمات،[1] وأما من أهل الحرب، لكن كانوا خَوْفاً من بأسِه عليه قادِمين. وأما لكون عادتِه القديمة حِفْظَ النساء، ولم يَرَ سَبْيَهُنْ وإن <٥٧أ> كُنَّ من أشدِّ الأعداء؛ فأخذوا الأموال، ولم يتَعَرَّضوا للعِيال، لكنهم جاءوا بِهِنَّ إلى كَرْمان شاهان لدى حضرة رئيس الفرسان، فلما أبصَرَهن رِجال دولته، ولَنْتَقَدَهُن صَرَّاف أُبَّهتِه وبَسالتِه، عَلِموا أنَّهُن نِساء أُمراء وخَوانين وكُبَراء، فسَألوهُنَّ، فوَافَقَ جَوابُهن الفِراسة، فعامَلوهن بأحسن مُعامَلة وأتَمِّ سياسة، ووضَعُوهُنَّ مع عِيال ميرزا عبد الرحيم، حيث كان من أهل كَرْمان شاه، وبِها مُقيم، إلى أن يأتِيهم الخبر اليقين، وتَرِد عليهم جَلِيَّة الخبر على التَّعيين. فقَبْلَ أن يَنْوي الدستور السَّفَر

---

[1] في الأصل: مسالمين

والنَّفير من ذلك المكان، أتاه سِفرٌ مع سَفيرٍ من سادات هَمَدان، حين سَمِعوا بأسر هؤلاء النساء، وأحَسُّوا باستئصال الأموال والإماء.

في بيان مضمون كتاب أهل همدان

مضمونه: أن هؤلاء النساء أكابر السادة الفاطميين، وأبناء أهل السيادة الحُسينيين والحَسَنيين، وابن النبي- صلى الله عليه وسلم- قد قال: إني تاركٌ فيكم خَلَفاً لو تمَسَّكتم به لن تَحيفوا أبداً، كتابَ اللّه وعِتْرَتي أهل بيتي. وقال تعالى: ﴿قُل لا أسألُكُم عليه من أجرٍ إلاّ المَوَدّةَ في القُربى﴾[1]. فنَتَوسّل إليكم بالرسول الكريم، والنبي الشفيق الرحيم، أن تتفضّلوا على أولاد أصحاب العَباء، وأطفال من كان تحتَ الكِساء بالإطلاق، وأن تُعامِلوهم بِحُسن الأخلاق، وتَدَّخِروا الفَوزَ عند جَدِّهم الشفيع المشفع، يوم يَشيب الوليد مما يَرى ويَسْمَع.

في بيان كتاب الوزير إلى هَمَدان

فحين وَرَد الكِتاب، أمرَ الجَناب <٥٧ب> المُستَطاب، مُفتي الأوردي[2]، الشيخ حسين الراوي، أن يُجيبهم بما هو واقِع، وأن لا يُماري ولا يُدافِع، فأنشأ كِتاباً لم يَخطِر بالبال سوى معناه، ولم يَبْقَ في ذا الحال غير فَحْواه، وهو أن سبب غَزْوِنا بِلادكم، إنما نشأ عن كُفرِكم وعِنادكم

---

[1] الشورى، من الآية ٢٣.

[2] الاوردي، والأوردو: لفظة تركية بمعنى الجيش.

وانتهاكِكم حُرْمَةَ الصَّحابة، وتمسُّكِكم بِوَسْمَة[1] القَرابة، وسَبِّكم الشَّيْخَين بِكُلِّ مَسَبَّة، وقَذْفِكم الصدِّيقة بِما برَّأها مِنهُ رَبُّ الكعبة، لكن حين وُسِمتم باسم القَرابة من خير المُرسَلين، يبقى لكم علينا الإكرام المُجَرَّد، كما إنّا نُكرِم الآيةَ المنسوخةَ الحُكْم بأن لا نُجَوِّزَ قِراءتها لصاحِب الحَدَث الأكبر، ونحو ذلك مما يجب أن يُراعى في سائر الآيات دون العمل، ونحنُ إن شاء اللّه ما نُقَصِّر في ذلك مُراعاةً لهذا الاسم الشريف.

وثانيا من المعلوم المقرَّر عند أهل العِلم وأرباب الدِّراية والرُّواية أنه لما نَزَلَت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وأنْذِر عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين﴾[2] جَمَع أهلَ بيته، ومن جُملتهم فاطِمة- رضي اللّه عنها وأرضاها- التي هي بِضْعَةٌ منه، ومن جُملة ما قال في إنذاره لهم: يا فاطمة بنت رسول اللّه لَستُ أُغني عنكِ من اللّه شيئاً، يا علي، يا فُلان، إلى آخر أهل بيته- رضي اللّه عنهم وأرضاهم- لا أُغني عنكم من اللّه شيئاً. وكذلك تأمَّلوا ما وَرَد من قوله صلى اللّه عليه وسلم: (من أبْطأ به عَمَلُه لم يُسرِع به نَسَبُه) وكذلك تأمَّلوا في قَرابةِ أبي لَهَب، وبُعد سلمان الفارسي- رضي اللّه عنه- وكيف ذمَّ اللّه تعالى أبا لَهَب بِقَوله عزَّ من قائل: ﴿تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾[3] إلى آخر <٥٨أ> الآية. وكيف قال صلى اللّه عليه وسلم: (سلمان مِنّا أهلَ البيت). وهل هذا إلاّ بسبب عِناد أبي لَهَب، وإغماضِه الحقّ، وإذعان سلمان واتّباعه الصِّدْق، وكثيرٌ من

---

[1] الوسمة ورق للنيل أو نبات يختضب بورقه.

[2] الشعراء، الآية ٢١٤.

[3] المسد، الآية ١.

هذا لو فَصَّلْناه عليكم لَكَلَّت الأقلام من كلام النُّبُوَّة والآيات وكلام العلمــاء، كقول ابن الوَرْدي[1] رحمه اللّه. شعراً [من الرمل]:

لا تَقُلْ أصلي وفَصلـــي[2] أبَــداً   إنما أصلُ الفتى ما قَــد حَصَــل

إنما الورد مـــن الشَّــوكِ ومــا   يَحْصلَ[3] النَّرْجِس إلاّ من بَصَل

هذا كلُّه يَدُلُّكم على فهم ﴿إنَّ أكْرَمَكُم عِندَ اللّه أتقاكُم﴾[4]. ولكن يبقى لكـــم علينا أن تُطيعوا اللّه ورسولَه، وتُعظِّموا أصحابه، وتَكُفُّوا لِســـانكم عَمَّــن مَدَحَهم اللّه تعالى في كتابه العزيز حيث قال وهو أصدق القائلين: ﴿مُحَمَّــدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذينَ آمَنَوا مَعَهُ أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحَمَــاءُ بَيْنَــهُم تَراهُــم[5] رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ ورِضْواناً﴾[6] (الآية)، فإذا فَعَلْتُــم ذلــك وأقبَلْتُم علينا بهذا الأمر المطلوب يكون لكم مالَنــا، وعليكــم مــا علَيْنــا، وتَطلبون ما طَلَبَه أبو سُفيان- رضي اللّه عنه- من رسول اللّـــه- صلـــى اللّه عليه وسلم- يومَ الفَتْح، أعطاه العَطاء الجَزيل حيثُ أمَّنه وأمَّنَ جميـــع من يُؤمِنُه أبو سفيان، ونحنُ- إن شاء اللّه تعالى- نَقْتَدي بِفِعله- صلى اللّـه عليه وسلم- ونَفْعَل معروفاً بِسَبَبِ استِنادِكم إلى اسم السِّيادة، نَدْخِرُه عنــد

---

[1] البيتان لزين الدين عمر بن الوردي في لاميته.

[2] في الأصل: وفضلي وقد صححت في الهامش بكلمة (فصلي).

[3] وفي رواية: ينبت.

[4] الحجرات، من الآية ١٣.

[5] في الأصل: تريهم.

[6] الفتح، من الآية ٢٩.

اللّه وعند رسوله، نرجو خَيْرَه في ذُرِّيتَنا وفينا في الدنيا والآخـــرة [مــن الطويل]:

(وكلُّ إناءٍ بــالَّذِي فيــهِ يَنْضَــحُ)[1]

وإلاّ فأسلافُكم لم يَتَنَعَّموا مع أسلافنا خيراً، لمّا أَقْدَرَهم اللّـــه تعــالى على الاستيلاء على <٥٨ب> بلد السلام، كيفَ صَنَعوا مع السادات الذيــن هم من نَسْلِ الحَسيب النَّسيب الشيخ عبد القادر الكَيْلاني[2]- قَدَّس اللّه سِرَّه العزيز- من الأمور التي تُبكي الحَجَر لو كان له أُذن يَسْمَعُها.

وإن شاء اللّه تعالى أحوالُنا وأفعالُنا ليست كأحوالِكم وأفعالكم، عَمَــلاً بقوله صلى الله عليه وسلم (ولا تَخُنْ مَنْ خانَك) وطلباً للإصـــلاح عمــلاً بقوله تعالى: ﴿إنْ أُريدُ إلاّ الإصْلاح ما استَطَعْتُ وما تَوفيقي إلاّ باللّـــه﴾[3] (الآية) فإذا عَلِمتُم هذا فاعلموا أيضاً أن رئيس العلماء الأعــلام، ومُفتــي الأنام، وشيخ الإسلام- أيَّدَه اللّه المَلِك العَلاّم- قد سَطَّرَ إلينا فتاوى مُذَلَّلَـــة مُصَرِّحة لنا بأمورٍ إلى الآن ما فَعَلْنا معكم بعضها، إذ من جُملتـــها القَتْـل

---

[1] هذا مصراع في بيت للحيص بيص.

[2] هو السيد محيي الدين عبد القادر الجيلي او الجيلاني ثم البغدادي الحســني (٤٧٠-٥٦١هـ) ولد في جيلان، وقدم بغداد شاباً، فتعلم وقرأ، وجمع بين العلم والحديث، وبين الزهد والتصوف، وتولى التدريس في مدرسة القاضي المخرمي، وألف كتباً عدة، فطار صيته، وحينما توفي، دفن في هذه المدرسة، فتحولت مع مر الزمن إلى جامع كبير، وأصبح مرقده مزاراً للمعجبين به، والمنتسبين إلـــى طريقتــه التــي عرفت بالقادرية نسبة إليه.

[3] هود، من الآية ٨٨.

استئصالاً، ووافقه على ذلك علماء الروم، وقبله سلف أسلافه أبو السعود[1]- رحمه الملك المعبود- نقلاً عن رواية الإمام أبي حنيفة- رضي الله عنه- كلُّ ذلك بتنقيصكم قوماً كراماً مدحهم الله تعالى بقوله ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الآية[2]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الآية، وكذلك قولكم بالإفك الذي عظّم الله أمره بقوله عزَّ من قائل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الآيات[3] نحو الأربعة عشر آية[4]، أو أزيد، كلّها تدل على البراءة، وأنتم تؤوّلونها، ما هذا إلاّ عناد وضلال مبين ومصادمة[5] للقرآن العظيم، فبهذا نفعل معكم ما نفعل. وأما قولكم ما دعوتمونا قبل هذا، ليس

---

[1] هو الشيخ أبو السعود أحمد أفندي بن محيي الدين مصطفى العمادي، نسبة إلى موطنه مدينة العمادية في العراق، عرف بالتفسير والفقه والعقائد، وتولى منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م وله تفسير مشهور سماه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم) وتوفي سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م قاموس الأعلام ص٧٢٢.

[2] التحريم، آية ٨.

[3] النور، الآيات ١٥-١٧.

[4] الصواب: نحو أربع عشرة آية.

[5] في المطبوع: معرضة.

هذا أمراً بُيِّتَ ليلاً، ولا جَرَّ الدَّيْجُور عليه نيلاً. قـــد شـــاعَ وذاع، ومَـــلأَ الأسماع، ولم يأتِ أحدٌ من طَرَقكم مع إنّا لا نُؤذي مَنْ تَوَجَّه إلينا نَحتَفظُـــه من جميع ما نَحتَفَظ منه أنفسنا، عملاً بقوله تعالى: ﴿وإن أحَدٌ مِنْ المُشرِكين استَجارَك فأجِرْهُ حتى يَسْمَع كلام الله ثمّ أبلِغهُ مأمَنَه﴾[1] <٥٩أ>

الحمد لله قد مَلأَ اللّه قلوبَنا شَفَقَةً ورحمةً، وبحمده تعـــالى نســـاؤكم اللاتي ذَكَرتُموهن في كتابِكم لم يَطْرِق إليهِنَّ طارِق للحِفظ والأمـــان، مـــع عيال مُحِبكُم ميرزا عبد الرحيم وبقَية أخبارِهنَّ فهو يُنهيها إليكـــم، فـــأقبلوا ولا تَخافُوا ولا تُراعوا، وإن شاء اللّه تعالى ما يكون إلاّ ما يُرضيكم أنتـــم ومن يتّبِعكم، ليسَ لكم مِنّا إلاّ الحِماية والرِّعاية إن شاء اللّه تعالى.

ثم جاء منهم كتابٌ يتضمَّن رَدَّ الجواب، مَشْحوناً بالتَّقيَّة، مُســـتعمِلاً بالتَّوْرِيَة الظاهِرة الجَليَّة، وصورته:

بعد البَسْمَلَة، نحمد اللّه ونَستَعينُه ونُؤمِن به ونَستَهْديه، ونشـــهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريكَ له، وان محمداً عبده ورسوله، أرسلَه بالـــهُدى ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدين كله ولو كَـــرِهَ المُشْـــرِكون، وأهـــل بيتـــه المُطَهَّرين، وخُلفائه الرّاشِدين، وأصحابه المَرْضيين، خيرَ أهل بَيْتٍ وخُلفاءِ وأصحابٍ رضي اللّه عنهم وأرضاهم، ونُؤمِن بملائكة اللّه وكُتُبِه ورُســـله واليوم الآخِر، وبالقَدَر خيرِه وشرِّه، وان اللّه عزَّ وجَـــلَ لا يُســـأل عمّـــا <٥٩ب> يَفْعَل، ونحنُ مسؤولين.

---

[1] التوبة، الآية ٦-٩.

أما بعدُ، فقد أُلقي كتابٌ كريمٌ من عزيزٍ كريم، إلينا، مَعاشِر الذُّرِيَّة المُصطَفَوية وباقي المُسلِمين المُسلِّمين المُنقادين. لَعَمْرِي حقيقٌ أن يُكتَب بالنور على خُدود الحُور، وقد وَضَح الصُّبح لذِي عَيْنَين، وقد أشَوتُم- أدام اللّه تعالى أيّامَكم- بأنكم تَجْرُون مَنْ وَجَدتُموه محكماً على ما يجب له من العمل بِوَصِيَّة النبي الكريم صلى اللّه عليه وسلم، وتَعْنُون بالمُحْكَم من بَقِي على شريعتِه واتَّبَع هَواه وسُنَّته وعَظَّم أصحابه وفِرقَتَه. فها نحنُ- بحمدِ اللّه- نُقِرُّ بشريعته ونَتَّبِع سُنَّته ونُعَظِّم أصحابه وفِرقَتَه، ونَبْرَأ إلى اللّه مِمَّن يَتَّبِع غيرَ سبيل المؤمنين، ومن شَقَّ القلوب، وشَرَح الصدور، وأظهرَ المَستور، حتى عَلِم أنَّ قولنا قول الزُّور، وأنَّ اللسان غير مُوافِق لما في الصدور، وقد قال اللّه عزَّ وجلّ: ﴿ولا تَقُولوا لِمَنْ ألقى إليكُم السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً﴾[1].

ولا يَخفى عليكم- حَرَسَكم اللّه- إنَّا نَشَأنا في دارِ قَومٍ لا نستطيع الخروج من بين أظهُرِهم لأجل الذَّراري والأموال، فنَحنُ نُداريهم ما دُمنا في دارِهم، ونُرضيهم ما دُمنا في أرضِهم، ولنا بِعَمَّار بن ياسر- رضي اللّه عنه- أُسوة حسَنَة، وأما الآن فقد ظَهَرَت الحُجْة، ووَضَحت المَحَجَّة، فإنْ يَسَّر اللّه- تبارك وتعالى- الوصول إلى خِدْمَتِكم، والفوز بِرُؤيتِكم، وهو المُيَسِّر لكل عسير، فهو المُبتَغى والمطلوب، وإلاَّ فلنا عليكم العَهدَ والذِّمام، ويجب عليكم لنا الإكرام، فإن المسلمين يدٌ على مَن سِواهم، ويسعى بذِمَّتِهم أدناهم. وعلى <٦٠أ> ما عَرَضنا عليكم تنفَعنا قرابة

[1] النساء، الآية ٩٣.

الرسول- صلى اللّه عليه وسلم- ولَسْنا من أبي لَهَب، ولا أبو لَهَب مِنّـــا، بل سلمانُ منا أهل البيت.

وأما أفعال الأسلاف مع السادات الذين هم من نَسْلِ الحسيب النَّسيب الشيخ عبد القادر الكيلاني- قُدِّسَ سِرُّه العزيـــز- فـــلا تَـــزِر وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى، ﴿أفَتُهلِكنا بِما فَعَل المُبْطِلُون﴾[1].

وأما قولكم- دام مجدكم- فإذا فَعَلْتَم ذلك، وأقْبَلتم علينا بهذا الأمـــر المطلوب، يَكُون لَكَم مالنا وعليكم ما علينا، وتَطلِبون مِنّا مـــا طَلَبَـــه أبـــو سُفيان رضي الله عنه، من رسوله اللّه صلى الله عنه، ولكم به صلوات الله عليه أُسْوَة حَسَنَة، لكنَّا الآن لَسْنا كأبي سُفيان قَبْلَ يوم الفتح، فنحنُ إخوانكـم في الدين، ومَواليكم قديماً وحديثاً.

وأما فُتْيا الفاضِل العَلاّم، والبازِل[2] القُمقام، رئيس العلماء والأعلام، شيخ المسلمين والإسلام- أيَّدَه اللّه تعالى عليهم- قلْنا لا علَينا، لأنّا نقـــول ونَعتقِد أن من نَقَّصَ أصحاب رسول اللّه- صلى الله عليه وسلم- وفِرقَتـــه فهو في النار.

وأما حديث الإفْكِ فحاشا للّه ما علِمْنا عليها من سُـــوء، فَمَـــنْ قـــال بالإفك مِنّا أو مِن آبائنا أو من أبنائنا[3] أو مِن إخواننا، أو مِـــن عشـــيرتنا، فعلَيْهِ لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين. سبحان اللّه! كيف نَجتَرئ علـــى

---

[1] الأعراف، الآية ١٧٢.

[2] البازل: الرجل الخبير.

[3] عبارة: (أو من أبنائنا) في الهامش.

هذا البُهتان العظيم، وقد قال اللّه، وهو أصدق القائلين ﴿الطّيِّباتُ للطّيِّبين والطّيِّبون للطّيِّبات﴾[1].

وأما قولكم قد ملأ اللّه قلوبَنا رحمةً وشَفَقةً، فلا نرجو منكم إلاّ هذا، فقد سبَقَكم الكريم بن الكريم، حيثُ <٢٠٦ب> قال لأخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم اليومَ يَغفِر اللّهُ لَكَم﴾[2].

وأما أمر الأسَراء والعِيال والأطفال، وكونُهُم محفوظين آمِنين، فليس هذا بِبَدْعٍ من أهل النُّجدةِ والكَرَم، حَفَظ اللّه- تبارك وتعالى- ما حَفِظتُموه مِنّا، وأحسنتم وأجَدتُم حيث قُلتم:

(وكلُّ إناءٍ بالّذِي فيه يَنْضَحْ)

وأما العبد ميرزا آقا مير فهو، واللّه الذي لا إله إلاّ هو، عالِم الغَيْبِ والشْهادة، إنه لَمَريضٌ، قد رَكِبَته الحُمَّى بعد ما دَخَل هَمَدان، لا يَقْدِر على الرُّكوب والحركة. وأما ميرزا محمد باقِر، فَصَبِيٌّ لا رأيَ عنده، ولا هو ذو حَزْمٍ، ولا هو يَعقِل، وأخواه الكبيران غائبان، وحرَكَتُه مَوقُوفة على حركة ميرزا آقا مير، وكُلّ ميرزا آقا مير قَرِيبَه الأمير[3] ميرزا محمد

---

[1] النور، من الآية ٢٦.

[2] يوسف، الآية ٩٢

[3] في الأصل: الأمين، وقرأها ناسخ ب: الأمير، وهو الصحيح.

حسن، والصوفي محمد يوسف، في استخلاص الأسراء[1]، وكـذا سـائر السادات والمسلمين، قد وكلوهما، فيدهما يدهم، وقولهما قولهم، والمرجـو منكم الفضل والإنعام والإكرام بالإتمام، فإن رأيتم- أدام الله ظلكـم علـى مفارق المسلمين[2] أن تكتبوا عهداً وأماناً بجمع من السادة الذين يعتقـدون فيكم الخير، وهما السيدان المتقيان، السيد رضى والسيد إبراهيم وإخوانـهم وبنو أعمامهم وذراريهم ونسوانهم من أولاد علي بن موسى بن جعفر بـن محمد بن علي بن الحسين ريحانة رسول الله صلـى الله عليـه وسـلم، ورضي الله عنهم، بأن لا يعترض أحدٌ من عساكركم المنصورة لهم بسوء شاخصين كانت السادات إليكم، أم مقيمين لعذر في همدان وغيرهـا مـن البلاد والقرى، وسواء كانت العساكر تحت حكم الأميرين العظيمين محمـد باشا والحاج عثمان، أو تحت غيرهما، فقد تمت النعمة <٦١أ>، ولكم عنـد جدهم صلى الله عليه وسلم يدٌ منه ومنة، والسلام عليكـم ورحمـة اللـه وبركاته، وعلى من انتسب إليكم وحلَّ لديكم.

ما كُتِبَ على ظَهْرِ كِتاب سادنِ هَمَدان

هذا كتابُهم، والذي على ظَهْرِه: شَرُفَ هذا الكتاب بلحـاظ إنسـان العَيْن، وعَيْنِ الإنسان، الأمير الكبير، عُمدةِ الوزراء العِظام الكِرام الفِخـام،

[1] من الواضح أن كتابا من والي بغداد قد اشترط أن يتولى ميرزا آقا مير، وهو فيمـا يبدو من سراة همدان، تعلم الأسرى الإيرانيين، إلاّ أن الكتاب المقدم منه لم يشـر إلى هذا، ويمكن أن يكون هذا الطلب قد بلغ شفاهاً.

[2] على مفارق المسلمين: عبارة في الهامش.

باسِطِ بِساط العدل والأمان، وحافِظ قواعد الإسلام والإيمان، زينةِ مَسْندِ الإمارة بدار السلام، أيّده اللّه المَلِك العَلاّم. انتهى.

مَطْلَب تُهمةِ تَيْمُور

وبسبب هذه القافلة المأخوذة، أُتُهِمَ تَيْمُور المذكور بمالٍ جزيل، فَخَشِي على نَفْسِه، والتَحَق بدار الأفغان، فأمر الوزير المذكور، ضُوعِفَت له الأجور، مُفتي العسكر الشيخ حسين الراوي، بأن يكتب للأمير محمود كتاباً يَذْكُر فيه أن لا يَقربَ تَيْمور ومَنْ مَعه، ومع ذلك يُشير لهم إلى كَثْرةِ الجنود، وإلى فتح كَرْمان شاهان وما ولاها من الحدود.

مطلب كتاب الوزير للأمير محمود

فكَتَبَ بعد البَسْمَلَة: الحمد للّه الذي أطْلَعَ نجمَ الإقبال في أُفُق الزمان، وأنار مَنارَ الإيمان في سائر الآفاق والأركان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث بأشرف الأديان، وعلى آله وصحبه الفاتِحين لأعظم القِلاع والبُلدان.

أما بعدُ، فسلامُ اللّه وتَحياتُه الوافِرة، وتوفيقُ اللّه وإمداداته المُتَكاثِرة، تُهدى إلى ذِروة المجد الشامِخ، وسَنامِ العِزّ الباذِخ، وقُلَّة عَلَمِ السَّعدِ الرّاسِخ، من حُمِدَت سيرته فأصبح محموداً، وطابت سريرَته فكان مُؤيَداً مشهوداً، صاحب الهِمَم، وثابِت القَدَم، لا زالَ سيفه قارِعاً هامَ أهلِ الضلالِ ما طلَع <٦١ب>، نجمُ السعود والإقبال.

وبعدُ، فالداعي إلى نَمَق حروف المِداد، في طرسِ المحبّة والـوداد، هو أنه لما استَوَيْتُم على حَوْزةِ أصفَهان، ونَشَـرتُم فـي أرجائـها أعـلام الإيمان لِكُفرانِها بنعم اللّه، وخَوْضِ من فيها بما لا يُرضي اللّـه، تَشَـنَّفَت لذلك أسماعُنا، وطابَت لذلك قُلوبنا، عملاً بقوله[1] صلى اللّه عليه وسلم: لا يَكْمُل إيمانُ أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه. فلذلـك وجَّـهنا إلـى حضرتكم سفيرنا الأكرم، ورسولنا الأقدم، الحـاج عثمـان آغـا، مُـهنِئاً مُخاطِبا. فلَعَمْرُك ما سَمِعت أذنه بأحسن مما رأى بَصَـرُه، فلـم تَمْـضِ الأوقات، حتى تَوَجَّه قافِلاً من حضرتكم بجميل ما سَمِعته أُذنـاه، ووَعـاه قلبُه ورأته عَيناه، وارتَضاه لُبُّه، إلى أن جاء إلى هَمَـدان الفـاجِرة، ذات الأديان الدّائِرة، فمَنَعوه مِن الوصول فوراً، وأعاقوه بِحَبائِل مَكْرِهم وبَغْيِـهم كالمَسجون في كارْبان سَراي[2]، يُرهِبونه ويُخَوِّفونه، حتـى يسـتَخلِصوا كتابكم الكريم، ويُهدِّدونه بالعَنَت الأليم، فلم تأخذه في اللّه لَوْمةُ لائم، وكـان كما قيل شعراً[3]. [من الطويل]:

وأثبَتَ في مُستَنْقَعِ المَـوتِ رِجْلَـهُ   وقالَ لها مِنْ تَحتِ أخمَصكِ الحَشْـرُ

---

[1] في الأصل: عملا لقوله.

[2] كذا كتبها المؤلف، والمشهور (كروان سراي)، لفظة تركية مركبة من (كـروان- قافلة) و (سراي- قصر، مقر منزل) فيكون معناها: منزل القوافل، وتطلق عـادة على الخانات التي تكون في الطرقّ الخارجية.

[3] البيت لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي.

إلى أن صارت أرواح التشجيع بأخباره إلينا، فتأجَّجَت نـارُ الغيرة والحَمِيَّة، وبَعَثَتنا بواعِث المجد والسَّجِيَّة، إلى تجهيز جيشٍ خَميس، مع لَيثِ العَرِيس[1]، تحتَ عَجاجَتِه كلُّ قَرْمٍ[2] إلى لُحومِهم قَرْمٍ[3].

فلما وَصَل الجيش حدود كَرْمان شاهان، وأخبرَتهم عُيونهم بما سيكون وما كان، لم يَسَعْهُم إلاّ تقطيع <٦٢أ> حبائل مَكْرِهم، وإطلاق المُشار إليه من وَرْطَةِ أسرِهم سالِماً لم يَبْلُغوا منه مُراداً، فلما وَصَل إلينا بالأخبار السَّارَة، والأفعال البارَة، حَقَّ علينا أن نقول له شِعراً. [من البسيط]:

ناشَدتُكَ اللّهَ يا راوي حَديثِهُمُ حَدِّثْ فقد نابَ سَمْعي اليوم عن بَصَري

فحَدَّثَ إلى أن ملأ القلوب سروراً، وأظهر نِعمَةً وحُبوراً، فوجَّهناه بما حَمَل إلينا، وبَثَّ لدينا، إلى السُّدَّة العليَّة، والحضرة الأحمديَّة، والدولة المَحْمِيَّة، مُشَيَّدة الأركان، قَوِيَّة البُنيان، لازالت محفوفةً من اللّه بالأمن والأمان، فأنهى إلى الحضرة العلية ما أنهاه، وبَثَّ ما سَمِعَه وأبداه، ذاكراً مَحامِد محمود، ناشِراً ذَمَّ أهل الدين المردود، بما لا يَسَع الطِرْس ذِكره.

فلما عَلِمتُ بالملاعين، وما هُم عليه من الضَلال، دَرَّت عُروق الحَمِيَّة غَضَباً عليهم، واهتِماماً بِقَمْعِ كَيْدِهم، آمِرين لنا بالقيام على ساق الانتِصاف، وإخماد نار أهل الاعتِساف، لأن يكون البدء محموداً والعَوْدُ

---

(1) العريس: مأوى الأسد.

(2) القَرم من الرجال: السيد المعظم.

(3) القَرِم الذي اشتدت شهوته للحم.

أحمدُ، مُساعَدةً للدين، ومُسارِعةً لمُوافَقَةِ المُحِقِّيــن، بمُوجِــب (المُؤمِنــون كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً) فلما ورَدَ علينا المَّقِير الخبــير، شَــمَّرنا عــن ساعِدِ الجِدِّ والاجتِهاد، نافِرين إلى الغزو والجهاد، خَوْفاً مــن أن يَصْــدُق قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مالَكُم إذا قِيلَ لكم انفروا فــي ســبيل الله اثّاقَلْتُم إلى الأرض﴾ الآية[1]. وإن شاء اللّه تعالى المَسْعى واحِد، والمَقْصَد واحِد، وغيرة الدين حامِلةٌ لنا ولكم على ذلك إلى أن ننظُــر <٦٢ب> مــا آخِر أمرِ المُفسِدين، ولا شك أن العاقِبة للمُتَّقِين.

فلم تَزَل سيوفنا تعمل في رِقابِهم إلى أن نُدْخِل[2] في حَوزَتِنا ما كــان تحتَها قديماً من القِلاع والبُلدان، مما أدخَلوه في حَوزَةِ إيران، من الممــالك التي ألهانا عنها أولاً العَمَلُ بما هو أهم، من مُكافَحة كَفَرَةِ الأصل[3]، حتــى وضَعنا[4] لذلك مع شاه العجم صُلْحَ مُشارَكة إلى وقتِه المَعلوم.

فالآن آن طُلوع فجر الإيمان على ظُلُمات لَيْلِ الضَّلال والطُّغيــان، فَلِتَعمل سُيوفنا كما عمِلَت سُيوفكم من الجانِب الآخَر إلــى أن يُطَــهِّرَ الله الأرض من مُلَوِّثات الكُفر وقاذُورات الضَّلال، وتكون كلمة الله هي العُليــا لأنهم طَغَوا وبَغَوا وطَعَنوا في الدين، وحكَموا بكُفر المسلمين، فــأْذَنَ الآن في قِتالهم بموجب قوله تعالى[5] ﴿وإن نَكَثُوا أيمانَهُم وطَعَنُوا فــي دِينِكــم

---

[1] التوبة، من الآية ٣٨.

[2] في المطبوع: تدخل.

[3] يريد الحرب على الجبهة الأوربية.

[4] في المطبوع: وصفنا.

[5] سقطت (تعالى) من المطبوع.

فقاتِلُوا أئمَّةَ الكُفْرِ أنَّهُم لا أيمان لهم لَعَلَّهم يَنْتَهُون﴾[1] فالحمد لله قد استولينا بِنَصر الله على حَوْزَةِ كَرْمان شاهان، وكثيرٍ من أعمال هَمَــدان، وأنحــاء صاوُق بُولاق[2]، وبعض أعمال لُورِستان، وبعض بِقاع وبُلدان عَنْوةً فــي بعضٍ، وتأميناً في بعضٍ بموجب: ﴿وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجنَح لها وتَوَكَّــلْ على اللّه﴾[3]. وعملاً بقوله تعالى: ﴿وإن أحَدٌ مِن المُشْــرِكين اســتَجارَكَ فأجِرْهُ حتَى يسمَعَ كَلامَ اللّه﴾[4].

فالآن قد دَخَل ما ذُكِر من البِقاع تحت بيعة سلطاننا الأعظم، وإمامنا المُقَدَّم، وخاقاننا الأكرَم، ظِلُّ اللّه في أرضه، سلطان الــبَرَّيْن والبَحْرَيــن، خادمِ الحَرَمَيْن الشَّرِيفَيْن، المُبايَع من السواد الأعظم والمِصرَيْــن، القــائم بأعباء الخِلافة الكُبرى <٦٣أ>، الذي هو بكلِّ مَنْقَبَة أحقُّ وأحــرى، لا زالَ مُؤيَّداً بِنَصر اللّه الكريم، مَصُوناً من كَيْدِ كُلِّ شَيطان رجيم، فلمــا دَخَلــوا

---

[1] التوبة، الآية ١٢.

[2] يفهم من الفرمان الصادر بتاريخ أوائل شوال سنة ١١٤٣هـ أن صــاوق بــولاق كانت قد أصبحت- بموجب التنظيمات العثمانيــة فــي أثنــاء الحــرب العثمانيــة الإيرانية- لواءاً أوكل إلى أمير اللواء فرهاد محمد باشا زاده (دفــتر مهمــة ١٢٦ ص٤١) وورد اسمها في أرجوزة السيد فتح الله القادري (نشرها الأســتاذ سعيد الديوه جي في ملاحق منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، الموصــل ١٩٥٥، ص٢٤٩) بلفظ (صادق بولاغ) وقال الأستاذ سعيد الديوه جي في تعليقة له: هـــي مدينة صاو بولاق، أو صاوجيلاق، إحدى مدن إيران الغربية القريبة من الحــدود العراقية.

[3] الانفال، الآية ١٢.

[4] التوبة، الآية ٧.

تحت بَيْعَة الحق، وظَهَرَت منه أمارات الصِّدْق، عُمِّرَت المساجد، وأظهر عِبادَته العابِد، وأُقيمت الجُمَع والجماعات، وحَكَمَت فيهم العُلماء والقُضاة، حتى جَرَت فيها الأحكام، وفُرِّق بين الحلال والحرام، ذلك فضلٌ من اللّه علينا، وإن شاء اللّه تعالى في صَدْرِ الربيع الأزهر، وطيب الهواء الأعطَر، نُجَهِّز الجُحفَل الأكبر، والبحر الأزْخَر، جيش الإيمان والإسلام المنصور من العليم العلاّم إلى تسخير هَمَدان ولُورستان وما يتبعهما من الأماكن والبلدان.

نحنُ من هذا الطَّرَف المذكور، بهذا الجيش المنصور، ومن طَرَف تَفْليس[1] الوزير المُفخَّم، والدستور المُكَرَّم، المُشار إليه بأنامِل العِزّ والإقبال، الحاج مصطفى باشا محافِظ أرْضَ رُوم[2]. ومن طَرَف وان

---

[1] مدينة في اقليم جرجستان (كرجستان)، استولى عليها العثمانيون سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، ثم تنقلت بين حكم الروس والإيرانيين، حتى استولت عليها روسيا سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م فأصبحت قاعدة لكرجستان، ومركزاً للإشراف على بلاد القفقاس. قاموس الأعلام ص١٦٥٨.

[2] يستفاد من الوثائق الرسمية العثمانية المعاصرة لهذه الأحداث أن مصطفى باشا كان والياً على الموصل آنذاك، وقد أمر بالالتحاق، على رأس جيشه، بقيادة والي بغداد حسن باشا. (دفتر مهمة ١٣٠ ص٣٦٤ أوائل شعبان ١١٣٤هـ) وأن إبراهيم باشا الداماد، والي أرضروم، هو الذي كلف بقيادة الجيش الزاحف على تفليس، بعد أن تأكد للجهات العثمانية أن خان تفليس شق عصا الطاعة على الشاه الإيراني وقتل عدداً كبيراً من الرجال ونهب أموالهم، وبات يهدد سكان المنطقة، وبخاصة اللزك الذين كانوا موضع عطف الدولة. (دفتر مهمة ١٣٠ ص٤٥٨، أوائل محرم ١١٣٥هـ). وينظر أيضاً تاريخ جلبي زاده ص١٧ وعبد الرحمن شرف: تاريخ دولت علية عثمانية ص١٦١ وسليمان فائق: حروب الإيرانيين في العراق، الورقة٩.

الوزير الثاني، رفيع المَباني، الوزير عديم النّظير، عبد اللّه باشا محـــافظ الكُبْرِلّي[1]- رحمه الله تعالى- بجيوشٍ وافِرةٍ، ولُيوثٍ مُتكاثِرةٍ، فإن شـــاء اللّه تعالى إذا تَلاقَيْنا يَحقُّ علينا أن نتأسّى بقوله صلى اللّه عليـــه وسـلم: (اللّه أكبر! خَرِبَت خَيْبَر). إنّا إذا نَزَلنا بساحةِ قومٍ ساءَ صَباحُ المُنْذَرِيـــن، وكأنّا إن شاء اللّه تعالى بوقوع ذلك لَمُحقّقون.

هذا، وقبلَ هذا التاريخ، قد حَصَلَ فيما بيـــن بعـضِ خَدَمِنـا مـن المُعسكر بعض مُنافرةٍ، وذلك مثل رجلٍ يُقال له تَيْمُور، والآخَـر حسـين ونحوهما، فخانوا اللّه ورَسولَه والإسلام، وخَرَجوا بـلا إذن مِنّـا لِخُبـثِ طَوِيَّتِهم، ومَرارَةِ فَرْعِهم[2]، فتَوجَّهوا <٦٣ب> إلـى طَرَفِكـم، ونحـنُ لا نتأسّف عليهم، لأن بِحَمْدِ اللّه تعالى ممالكنا كـالبحر، لا يُنقِصـه غَـرْفُ الدِّلاء، ولكن أخبرناكم خَبَرَهم تحرُّزاً من إلقاء الفِتْنَة بين جيـش الإسـلام مِن مِثل هؤلاء اللئام، فالأحسن أن تتحققوا أن من نَمَّ لكَ نَمَّ علَيك، ومَــنْ خانَ أخاكَ في الدين سيخُونك، فالأولى أن يكونوا[3] عندكم من المَرْدُودين، وهذه شيمة المُسلمين، إلاّ تَنظُروا إلى قِصَّة المُغيرة بن شُعْبَة لما وَقَعَ لــه قَبلَ إسلامه، أن خانَ بِرِفْقَتِه من مُضر، وفَعَلَ بهم ما فَعَـــل، وفَـرَّ إلـى

---

(1) هو عبد الله بن مصطفى باشا الكوبريلي، قائد عثماني كبير، فتح تبريز، ومنـــاطق واسعة من شمالي إيران، وقتل سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٢م عرف بأنه كان عالماً أديبـاً وله أشعار بالعربية. عثمان عصام الدين العمري: الروض النضر، بغـداد ١٩٧٥، ص١٧٧-١٨٦، وقاموس الأعلام ص٣٩٠٩.

(2) في هامش الأصل: أصلهم.

(3) (ان يكونوا) إضافة من هامش الأصل.

النبي- صلى اللّه عليه وسلم- لديْه، كيف قال له النبي، فإنه قال ما معناه: (أما الإسلام فنقبَله، وأما الخيانة فلا نَقْبَلُها، وقال صلى اللّه عيه وسلم: (أعوذُ باللّه مِن الخيانة فإنها بِئْسَتِ البطانة)، وإن شاء اللّه سَيَرَوْن وَبالَ ما فعلوا، ويكونون حينئذ (مِن المُذبذَبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)[1].

وأما ما بيننا وبينكم، ما كانَ للّه فهو باق، والخُلوص يَغلِبُ النِّفاق، والمؤمنون أُخوة فكونوا عِباد اللّه إخواناً. كيفَ لا؟ وما مقصدُنا ومقصدكم إلاّ الذّب عن ساحة الخلفاء الراشدين، الذين أناموا الأنام في ظِلِّ عَدْلهم وأمنِهم، وأقاموا الدين بِقَولِهم وفِعلِهم، حتى رضيَ اللّه عنهم ورَضوا عنه، فقال فيهم عَزَّ مِن قائل: ﴿محمدٌ رَسُولُ اللّه والذينَ مَعَهُ أشدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماء بينَهُم﴾ الآية[2].

فالحاصِل لا يكون إلاّ ما يُرضي اللّه تعالى من الطَرَفَيْن، إلى أن تَخمُد نارُ الكُفر ويظهر نور الإيمان، وما ذلك على اللّه بعَزيز. ولقد ظَهَرَت أمارات ذلك، وتَحقّق <٦٤أ> مجيء النصر والفتح من الجانِبَيْن، فَحقَّ الآن أن يُتلى قَولُه: ﴿إذا جاءَ نصرُ اللّه والفَتْح ورأيتَ الناس يَدخُلُون في دينِ اللّه أفواجاً فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ واستَغفِرهُ إنَّهُ كانَ تَوّاباً﴾[3] انتهى.

---

[1] النساء، الآية ١٤٢.

[2] الفتح، الآية ٢٩

[3] النصر، الآية ١.

مطلب في بيان وفاة الوزير رحمه الله

ثم أن المَنيّة في هذا العام اختَرَمَت الوزير الهُمام، والليثَ الجَسُور المِقْدام، ولم يُدفَن في كَرْمان شاهان خَوفاً من أن يَنبِشه أهل الضَلال والعُدوان، بلْ شُقَّ صَدره، وغُسِلَت أمعاؤه غسلاً لطيفاً، (وحُشِيَت بالمِسْك والعَنْبَر والكافُور الأذْفَر، وغُسّل، وصُلِّي عليه، وكُفِّن وأُدرِجَ في صَندوق هو في الحقيقةِ قبره)[1] وأُتي بِه إلى بغداد، ودُفِن بِحذاء سراج العلماء، وتاج الفقهاء، المُجتَهِد الأقدم، والإمام الأعظم، سيدي ذي القَدَم الرّاسِخ الثابِت، أبي حنيفة نعمان بن ثابِت، فَدُفِن بِقُربِه، وقُبِر في أرضِهِ وتُربِه[2]، قُبَيل صلاة الجُمعة. شعراً [من الطويل]:

وغُيِّبَ مِنهُ في الثَّرى نَيِّرُ الهُدى ... فغارَت نُكاهُ الدِّينَ وانكَسَفَ البَدرُ
وماتَ النَّدى فَلْتَرثِه ألسُنُ الثَّنا ... وليثُ الوَغى فَلْتَبكِه البِيضُ والسُّمرُ
فحقّ المَعالي أن تَشُقَّ جيوبَها ... عليهِ وتَنعاهُ المَكارِمُ والفخرُ
فلا تَحسَبَنَّ الدّهرَ أهلَكَ شَخصَهُ ... ولكنّهُ في موتِه هَلَكَ الدَّهرُ

وحَصَل في بغداد الحُزْن العميم، والمأتم العظيم، ونَدَبَه الرجال والنساء، وبكاهُ الأطفال والإماء. وتأسَّفُوا على ما فاتَ من أيام عَدلِه، وتَحسَّروا ولم تُجدِ الحَسَرات على أعوامِ حُكمه وفَضلِه.

---

[1] الكلمات الموضوعة بين قوسين كلها من الهامش.

[2] وكان دفنه في الممر المؤدي من رواق المسجد إلى الحضرة. وليد الأعظمي: أعيان الزمان وجيران النعمان، بغداد ٢٠٠١، ص٨٩.

ولما خرّ عَمود سَطوته، وهوَت للسجود منْسَأةُ[1] أبْهَتـــه، وتَبَيَّــتَ[2] الأعراب اللِئام، على انتهاز الفُرصة فـــي هـــذا العـــام؛ وأيْقَنـــوا بِتَجديـــد الخَراب، وتَهيَّؤا لِجَمْعِ الأحزاب، وشَنُّوا الإغارة غَوْراً ونَجْـــداً، وقَطَعـــوا طُرق المارةً عَمْداً وقَصْداً، ورَجَعوا إلى ما كانوا عليه، قائلين إنَّـــه ديـــنْ آبائهم، وعَدَلوا إلى الفساد، واستندوا إليه مُتَثَرِّين[3] <٦٤ب> للقَتلى مـــن آبائهم وأبنائهم.

وهذا وأما جنوده- رحمه اللّه- فقد بَقِيَت في حِراسة كَرْمان شاهان، مُنتَظِرين أمر السلطان، وقد رثاه من العلماء الكثير، ومن الشعراء الجَمْـــعُ الغفير، لكن لم يَخْطِر بالبال سوى مرثية السيد عبد اللّه أمين الفَتْوى فـــي بغداد[4]، مُضَمِّنا غالِب أسماء سُوَر القرآن، ومُشيراً إلى الباقي بآيَـــةٍ مـــن تلك السورة، وسمَّاها:

المقامَةُ الحَسَنِية في رثاء ذي السَّجايا المَرْضِيَّة

---

[1] المنسأة: العصا.

[2] في المطبوع: وثبت.

[3] متثرين: آخذين بالثأر.

[4] لم نقف على ترجمة له، ولكن علمنا أن له ولداً اسمه عبد القادر كـــان حيــاً ســنة ١١٧١هــ/١٧٥٧م، ففي وقفية السيدة عادلة خاتون المؤرخة سنة ١١٧١هــ نقــرأ أن أحد شهود الوقفية هو السيد عبد القادر بن السيد عبــــد الله النـــائب (أي نـــائب الفتوى) سابقاً. ومن شهد عليها أيضاً الشيخ عبد الرحمن الســـويدي مؤلـــف هـــذا الكتاب.

وهي هذه[1]:

الحمدُ لِمَن له الإماتَة والإحياء، والصلاة على سَيِّد الأموات والأحياء، وعلى آله الذين لم يطرأ لِنَوعِهم الفَناء، ما دامَت الأرض والسماء على بقَاء.

وبعدُ فالمعروض بعد الرِّضاء والإنقياد، لِقَضاءِ رَبِّ العِباد، ما حَلَّ بالعامَّة من مَوْتِ هذا الضِّرغام، المُنتقِل إلى دار المقَام، نَوَّر اللّه مَضْجَعه إلى يوم القِيام، فيومَ قُدِمَ بِنَعْشِهِ إلى بغداد، لَزِمَت العامَّة له الحداد، وكَثُر العَوِيل والنَّحِيب، وكان اليوم العصيب، وما منهم إلاَّ وهو في فِعله مُصيب، إذ يَحِقُّ لأهل دار السلام، أن يبكوه مدى الأعوام، طالما حَمى الأنام، وقَمَعَ فَسادَ اللِئام، بسببه أُقِيمَت الفُروض، وحُفِظَت الدراهِم والعُروض، وصِينَت الأنفس والعُرُوض، وقَوِيَت شَوْكَة الشَّرع، وثَبَت للأصل الفرع. أقام الحدود بنِيَّتِه الخالصة بين العوام والخَواص، واستوفى بِشَوكَتِه القَوِيَّة القَصاص فتَوَفَّر على كافةِ الناس، من غير مُماراة حياتهم، لقوله تعالى ﴿ولكُمْ في القَصاصِ حَياة﴾[2].

بمَوْتِه كَثُر الاختلال، وزال الأمان، وحلَّ الخوفُ في كلِّ مكان، حتى احتاجت البقرة إلى آل عمران، لتُحْفَظ من <٦٥أ> النَّهب وتُصان، وكَثُرت الاضطراب، خُصوصاً في النساء لِطَلَب الطعام، وانقطعت

---

[1] تتجاوز هذه المقامة أن تكون مجرد مرثية لوال قضى نحبه، إلى أن تسجل، على نحو معبر، أحوال بغداد والعراق في أثناء المدة القصيرة التي أعقبت وفاة حسن باشا، وقبل تولي ابنه أحمد باشا الحكم.

[2] البقرة، الآية ١٧٩.

المائدة عن دار السلام، فلا سَمْنَ ولا لَحْمَ ولا أنعام، فكـأنَّ النـاس فـي الأعراف مُتَحيِّرون، وأما الغَيْر ففي الأنفال مُتَنَعِّمون، وفي أماكنهم التـي هي دار العِدى آمنون. كيف نكونُ في هذا الحال ونحنُ في دار السـلام؟ وما ذلك إلاَّ لِقِلَّةِ الرجال وعَدَمِ الحُكّام، ولهذا وَجَب علـى كافـة الأنـام المُهاجَرة من بلدةٍ ليس فيها إمام، كَثُر الهَرَج واختلَّـت الآراء، واسـتَنَّت الفِصال حتى القَرْعاء، وأبدَت ضِبابها النافِقاء، فَرشَح كلُّ قلبٍ بما فيه مـن القروح، ولم يبقَ للتَوْبة منهم باب مفتوح.

بِمَوتِه ارتُكِبَت الآثام والوِزر، وقد كان قبل الكـامِن فـي الصـدور والمُنْحَجِر. أخفاه العَجْز، ومِن العِصمَة أن لا تقدر، فظَـهَر مـن بعـض القلوب غِلُّها، والعاقِل يتلو ﴿وجَزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾[1]، سُلِبَت الحِجى فلا رأيٌ مُصيب، وإنَّ ﴿هذا الشيء عَجيب﴾[2]. وكم من شخصٍ يتراءى أنـه نبيل، ركَبَ مَتْن[3] عَمياء ضَئيل، وسَوَّلَت له نفسُه أمراً فصبرٌ جميل،وكـم من يزعم أنه يفعل الأصلح، وقد أفسد ما أصلَح، وكم من تأجُجَ ناراً ورَعَدَ وبَرَقَ الأنام، وما كانت إلاَّ كنارِ إبراهيم- عليه السلام-، ومنهم من نالـه من الحَجَر ما حصلَ له به الوِزر، فما هم في هذه الطريقة التي عليـها إلاَّ كالنَّحل قُرْصُها يُوجِب الحَتف إليها.

لحِق الإسلام من الذلَّة ما لَحِق بني إسرائيل، بموتِ هـذا الكَـهْفِ الظَّليل. طالما حَفَظ حَوْزَة الإسلام بِهِمَّتِه العالية، وحَماها وأحيـا مَراسِـم

---

(1) يونس، من الآية ٢٧.

(2) هود، من الآية ٧٢.

(3) في المطبوع: من.

الدين بعد اندِثاره، وشَيَّد أركانه وبَناها <٦٥ب> فَمَحَت أمةُ عيسى من كنائسهم صورة مريم لتأييده شريعة طه بأيامه السعيدة، سكنَت الدَّأداء، وحَصَل للناس زِيارة سيد الأنبياء، فجاءَ المؤمنون إليه بعد الحجِّ باطمِئنان، وشاهدوا النور من حُجرة من أنْزِل عليه الفُرقان، فلو أنَّ الشعراء في الرِّثاءِ له نَسَجَت عدد النَّملِ البُيوت، لاستِقصاء القَصَص الحميدة، لكانت في الوَهن كَبَيْتِ العَنكَبوت.

أُوتي حِكمةَ لُقمان فلَحِقَ الرُّوم به مَهابةٍ ونُجدة. وكم من أنفِ أنوفٍ رَغمهُ، وطأطأ رأسه للسجدة. قَطَّعَ الأعداء أرَباً إربَاً، وفَرَّق أحزاب المارِقين وسبى، وأعانه فاطِر السموات، بما أعان ياسين من الفُتوحات، وأيَّد سَراياه وبُعوثه بالصَّافات، فصادَ بِدَقيق تدبيره منهم الشارِد، وأكرَم بثاقِب رأيه منهم الوارِد، فلذلك غُمِرَت الجُّهات، وأُحيِيَت الأراضي المَوات.

ساقَ زُمَر الملحِدين إلى أقصى البلاد، فارتاحَ وانجلَى قلبُ كل مؤمن صادٍ، فيا صاح لو فَصَّلْتُ أحوالَ أتباعِه لرأيتَ كُلاً منهم في الحروب بصيراً، ومن غريبِ اتِّفاقهم أن أمرَهم بينهم شورى.

زُخرِفَت بلادنا به وبأتباعه، لِما حَصَل لها منا الأمان، ويومَ فَقْدِهِ فَقِد الرَّخاء، فكان يومه من الذي تأتي فيه السماء بِدُخان، فَتَرى في الأسواق كلَّ أُمَّةٍ جاثيةٍ لطلب الامتِيار، كأنها كانت على كثيب من الأحقاف. وبِمَوته انهارَ نصير دين محمد- صلى الله عليه وسلم- فَحَصَل له ما حَصَل من الفَتْحِ، وكَمْ من مسجد خَرِبٍ عَمَّرَه واتَّخَذَ فيه الحُجُرات، وأجري عليه العَطِيَّة والمِنَح.

أما صيته فطارَ إلى قاف[1] من الربْعِ المعمور، ثم حَمَلَته الذَّاريــات بلا خِلاف إلى الطُور، فكثَر ما بينها الخِصْب وزال <٦٦أ> الغَلاء، ونَمــى النجم في الغَبْراء، وحَصَل للَّيالي بنورِ هذا القمر ضيــــاء، فــو الرحمــن لَواقِعة موتِه- رحمةَ اللَّه عليه- أورثت الحُزنَ الشديد، وكلَمــت القلــوب بِحَدِّها الحديد، وأظهرت المُجادَلة في المِصر بعد تلــك المَأمَنَــة، وســيقَ الناس من الأطراف فظَنَّ أنه أول الحَشْر، فكم من نَفْسٍ مُمْتَحنَــــة قَوِيــت بأيامه السعيدة شَوكة الدين، واستقام الصفُّ يومَ الجمعة مــن المســلمين، فتَمَزَّقت لذلك أكباد المنافقين.

سَكَنَت الأعراب الأشقياء منازِل السُعَداء، فَحَقَّ أنْ يُقال: هــذا يــوم التَّغابُن! وكم من دَهقانٍ طَلَّقَ بالتَّحريم نَوْعَــه، ونَبَــذَه بــالعَراء، واتخــذ لأعوانِه في المِصْر مَساكِن يَزْعُم أنها الواقية له والمُنْجِية مــن المــهالك، تَرِبَت يَداه وخَسَر! أنَّى يتأتَّى له ذلك؟ ما المُستجير بــــها مــن القِفــار إلاّ كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنار. ما أهلُها فيها إلاّ كَذي النُّون، إذ نادى فــي الظُّلُمات من هذه الحاقَّة التي خَرَّبت المعمور، وعمَّت الجُهات.

فواها على دار السلام، أضحت بعد تلك النِعَم والإنعام، والأدهـــان والألبان السَمالِج،[2] مُقفِرة باستيلاء الأعراب على أطراقِــــها، واتِّخــاذِهم رَساتيقها مَعارِج.

---

[1] جبل كان الأقدمون يتصورون أنه يمثل نهاية الربع المسكون من الأرض.

[2] السمالج: اللبن الحلو.

بِمَوتِه انفَجَرَت منهم القُروح، فما هم في أذاهم الإسـلام إلاّ كقـوم نُوحٍ، طالما ألزَمَهم الطاعة واستعملهم استعمال القِن[1]، فحرَثوا واطمـأنّ الناس، فلما خَرَّ تَبَيَّنَت الجِنُّ أيُقاوِمُ هؤلاء المـارقين مُزَمِّـل بالجبانـة، أم يُصادِمهم مُدَّثِّر بالزَّمانَة. هَيْهَات وهَيْهَات أن تأتي بالحَسَـن اللُّوَيْـلات[2]، فَلِتَبْكِه الباكيات حَسْرةً ونَدامة إلى يومِ القِيامة.

أسَمِعتَ هل أتى طُول الزَّمَن <٦٦ب> مَنْ بِشَجاعَتِه، ومَن بِهَيْبَتـه، ومَنْ ومَن؟ فو المُرسِلات أن لم يَتَدارَك الباري البلاد بنَجلِه الأمجد، ويأتينا النبأ بوزارة أحمد، وبأتباعه الذين كلٌّ منهم في أمرِه مُسَدَّد. لَتَموتَنَّ البـلاد مع الأطراف من الحَشَرات لأنها الآن منهم في النازِعات، عَبَسَ المُزَمِّلُون مِن قِلَّةِ النَّفَقَة، وكَوَّر المَلِّيُون عنهم الشَّفَقَة، وانفطَرَت قلوب أهل التوحيـد من أحوال المُطَفِّفين، وانشَقَّت مَرائِر أهل الغيرة والدين أسفاً علـى هـذا القمر، الذي أفلَ في البُروج السُّفلى، والطَّارِق الذي ترك الأنام في ظُلمـات الأوهام، وعَرَجَت رُوحه إلى الأعلى، ما مَوتُه يا أخي إلاّ الغاشية، أورثَت المسلمين القَهْر، وحَصَل لِدُمَّل قلوب أعداء الدين الفُجُّر.

فَتَح طُرقَ هذا البلد بعد الانغِلاق والطَّمْس، وأطلق أهله من مضـايق الحَبْس، فظَهَر شِعار الإسلام لِقُوَّتِه ظُهور الشمس، فأزال ظُلْمة ليلِ الجـهل ومحا، وأثبتَ الظلال للمُسلِمين كالضُّحى. شَرَح اللّه صدره مَسَـرَّة، فعمـر

---

[1] القِن: العبد.

[2] لعلها: اللييلات، جمع لُيَيْل، وهو تصغير ليل.

ببغداد الجامعين[1] واجرى لهما المياه العذبة لا عن عين، وبعد موته شرح أخرى فثبت له شرح الصدر مَرَّتين، طالت أيامه فكثر الأمن والإنصاف، وعُمِّر الغامر في الأطراف حتى اتَّخَذَتْهُ أربابُه مزارع وبساتين، وغَرَسَت فيه من أنواع الشَّجَر والتِّين، فَزَكا[2] الزَّرْعَ وأثمر النَّخلُ المغروس، وكَثُرَ الخِصب وطابَتْ النُّفوس، وصَدَقَ لِمَوته المَثَل (لا عِطْرَ بعدَ عَرُوس)[3].

---

[1] أحدهما جامع جديد حسن باشا الواقع إزاء مدخل مباني القشلة ببغداد، وقد عرف بجامع جديد حسن باشا تمييزاً عن جامع سابق شيده وال آخر هو الوزير حسن باشا على شاطئ دجلة، عرف بجامع الوزير فحسب. وذكر السيد محمود شكري الآلوسي أنه كان قبل تعميره اياه مسجداً صغيراً مشرفاً على الخراب (مساجد بغداد وآثارها ص٣١) وكنا قد استرجحنا، بحسب معطيات خططية وقرائن، أنه مسجد سوق السلطان الذي أمر بإنشائه الخليفة الناصر لدين الله في آخر سوق العميد (سوق الهرج الحالي). مقالنا: تاريخ جامع السراي، جريدة البلد، بغداد في ١٩ أيلول ١٩٦٦. أما الجامع الأخر، فهو جامع الشيخ سراج الدين الواقع في المحلة المنسوبة إليه في شرقي بغداد، شيده عند ضريح أحد علماء بغداد سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م، وأوصل إليه الماء بواسطة قناة تأخذ مياهها من دجلة. مساجد بغداد ص٤١.

[2] في الأصل: فزكى.

[3] لا عطر بعد عروس: قالته أسماء بنت عبد الله العذرية. كان لها زوج يقال له عروس فمات وتزوجت من رجل اسمه نوفل وكان بخيلاً نميماً ابخر فحدث ان سافر بها فمرت بقبر زوجها الأول فبكته وعرضت بزوجها الجديد فلما نهضت سقطت منها قارورة العطر فقال لها زوجها: (خذي عطرك) فأجابت (لا عطر بعد عروس) فذهبت مثلاً.

بِمَوتِه كَثُر القَلَق، وحَلَّ في القُلوب الفَرَق، ولم يَصْفُ ماءٌ لوارِدٍ عن عَلَق<٦٧أ> آهاً لِيَالٍ مَضَتْ ما كانت إلاّ كَلَيْلَةِ القَدْر في المَيْمَنة، وهذا من البَيِّن لا يحتاج[1] إلى البَيِّنَة، كم من مرَّة بَغَتَ المارِقِين ودَهَمَهم صُبحاً، فيَحصُل لهم الزِّلْزال قبل الوصول من العاديات ضَبْحاً، فتأخذهم القارعة بقَوارِع السيوف، فمِن شارِدٍ منهم ومذبوحٍ ومَكْتوف. أما يَحِقُّ لنا التكاثر في هذا العصر به وبأعوانه الأبطال، ونُعرِض عن أقوال الهُمَزَة الأنذال، ألم تَرَ كيفَ فَعَل هو وأتباعُه بأهل البوادي والجبال، أكرَم قُرَيْشاً وبَجَّلَهم وأمَّنهم من خَوْفِ الأعداء، ورَفَّع محلَّهم، وأغناهم عن الماعون، ونَزَّهَهم، فجازاه الله بالشفاعة والكَوثَر على كَيْد الكافرين إذا جاء يوم الدين، وتَبَّت يدا[2] المُشرِكين، ونَجَّى أهل كلمة الإخلاص من المُوَحِّدين.

قَدِم بغداد فَبَذَل فيها الجُهد الجَهِيد، وأباد كلَّ مُتَمَرِّد مُكابِرٍ عنيد، ثم صَرَفَ الهِمَّة إلى إصلاح الطُّرُق، برأيٍ غزير، فبدأ أولاً بِغزو البُغاة، فذَبَّحَ الأرض بأبدان كلِّ شيخ منهم وأمير، ثم استعمل المُغايَرة للرأي الثاقب والتَّدبير، فأردفَهم بغزو قُطّاع الطريق مُراعاة للنظير، فعاتَبُوا النَّفس، واستَدْرَكوا بالحَواس لهم ولأجناسهم المُراجَعة له والاستئناس، لما شاهَدوا من شجاعته أنها لا تَستَحيل بالانعكاس، فاختاروا الرجوع إليه، وأظهروا الامتِثال والمُوافَقَة فواخى بين قبائلهم المُتَضادة، فانظُر إلى حُسن هذه المُطابَقَة، فهل نَحا[3] هذا النحو من <٦٧ب> الولاة أحد، أو أعرَبَت

---

[1] في الأصل: لا يحتاجوا.

[2] في الأصل: يدى.

[3] في المطبوع: نجا، ورجح في الهامش أن يكون الأصح: أنجب.

تواريخ الإسلام بمثل شجاعة أبي أحمد؟ كم رفع مخفوضاً على التُّراب، وكم نَصَب خطيباً وأقامه في المِحراب. حلَّت في الضَّمائر محبَّته، ونُكِّسَت أعلام الخارجين إشارته، فالمقطوع عن طاعتِه عادتُه نِقمتُه، والموصول بها عادَت إليه صِلَتُه، فَرَفع مَحلَّه وعلَت مَنْزِلته. فكم من رجال مُنكرين لَبِسوا اللاَّم، وقاموا بالخِدمةِ بين يَدَيه، فحَصَل لهم التعريف بالإضافة إليه.

جوهرة الزمان! فهل له أشباهٌ ونظائر، خُلاصة الإنسان، وبذلك تَشْهَد له الضَّرائر، دقائق فكرِه لا تنفَد، فكأنَّه كنز الدقائق، رَسَخَت عنده حقيقة كل إنسان، فلا يَحتاج إلى قَيْدِ الحقائق. كم اهتدى به كلُّ ذي فساد وغَواية، فكانَ فيه هؤلاء هِداية.

اللهمَّ انقل هذا السعد إلى وَلَدِه النبيه، واجعله سِرَّ أبيه، واستخدِم له الليالي والأيام، بالتوفيقات الجِسام، واحرِسه بِعَيْنِك التي لا تنام، من بين الولاة والحُكَّام، لأنَّه ابن المُؤيَّد ومُشتَمِل الأحكام، وأعِذه من شَرِّ كلِّ عَيْن، بِذَواتَي قُل المُعوِّذَتَين، واجعله لِرَفع هذه النَّوازِل والمُعضِلات فاتِحَه، وارحم أباه، وأوصِل إليه سورة الفاتِحة، فلا يخفى على العلماء ما صرَّحَت به الفقهاء من قَولهم لا بأس بالرِّثاء، فهاكَها فريدةٌ زُفَّت إلى كفء خالية[1] عن التعقيدات والكُلَف، وإن كانَ الزمان في المأتَم، فرَحِم اللّه الذي ماتَ وأبقى الخَلَف[2].

---

[1] في المطبوع: حالية، بالحاء.

[2] في المطبوع: خلف، وقال في الهامش: ضرورة السجع اقتضت عدم جعل اللفظة خلفاً.

خاتمـــة

مات- رحمه اللّه- عن ذَكَرٍ وابنتين. أما الذَّكَر فهو الوزير الشـهير، والمَوْلى الكبير، أحمد باشا، كان والياً حينئذٍ على البصرة. وأمـــا البنتـــان فهما الدُّرّتان المَصونتان، والجُوهَرَتان المكنونتان، فاطِمة خـــانِم. زَوَّجـــها أبوها الهُمام، من عبد الرحمن باشا، وكان إذ ذاك من جُملـــة أغواتـــه[1]، وخاصَّةِ أهل نَجْداتِه، ثم لم يَزَلْ يَرقى بِخِدمته لهذا الوزير على صَـــهَوات المناوب[2]، ولم يَبْرَح بانتِيابِه إلى هذا المَولى الكريم، تُحمد منه المَنـــاقِب، حتّى صار وزيراً كاملاً ورئيساً فاضلاً رحمه اللّه[3].

والصالحة الزكية والعابدة التقية المتضلعة بـــالعلوم الجامعـــة بيـــن المنثور والمنظوم المتخلقـــة بـــالأخلاق الحَسَـــنة، والمُتَطبِّعـــة بالطِّبـــاع المُستَحْسَنَة، زوجة المرحوم المبرور الساكِن من الجنّة في أعلى قُصـــور، الوزير العادِل، والإمام الكامِل، الآخِذ من الكامِلات بالحظ الأوفى، الوزيـــر الشهير قَرَه مصطفى باشا، ذي المآدب، والمَفاخِر والمناقِب، التي فاقَ بـــها على الأمراء والأكابِر. وكيف لا؟ وهو من أولاد العرب، وكفاهُ فَخْراً هـــذا النَّسَب. وسبب بُلوغِه مَراتِب الكَمال، وعُروجِه إلى سَناء الأفضـــال، أنـــه انتَسَب إلى الوزير المذكور حين غَزْوَتِه إلى بابـــا داغ[4]- كـــما تقـــدَّم- وصار عنده كاتب الديوان، لِطُول باعه في هذا الشأن.

---

[1] يقصد أغواته.

[2] لعله يريد المناوبة فالأصل غير واضح فيه حك.

[3] وقد ولاه كركوك، وتقدمت الإشارة إليه فيما سبق.

[4] في المطبوع: بابا داغ.

ثم في أيام توليه هذا الوزير منصب الرُّهى، جَعَلَه عنـــده كَتْخُـداه، وبقي كذلك إلى أن وُلِّيَ هذا الوزير بغداد، فرآه أهلاً لكل كمال، حَرِياً بكُـلِّ إفضال، كُفواً لأن يُزَوِّجه بهذه الجوهرة المَصونة، ويَشْـفَعه بـــهذه الـدُّرَّة المكنونة، صفِيَّة خانِم، فزَوَّجه بها في السنة الثالثة مـــن تـاريخ <٦٨ب> تولِّيه بغداد[١].

ثم لم يَزَل يُرقِّيه مراتِب الكمال، ويُعَرِّجْه إلى ذِروة الإفضال، حتـــى صار وزيراً يُشار إليه بالأصابع[٢]- رحمه الله تعالى- وله منـــها الآن دُرَّة الغَوَّاص، وظَبْيَة[٣] القنَّاص، ذاتَ الحَسَب الطاهِر من الطَّرَفَيْن، والنَّسَـــب الباهِر من غير مَيْن، العارِجة إلى سماء الفضل بمِعراج الفضائل، والرَّاقِيَـة ذِرْوة المجد على سلَّم الفَواضِل، العالمة العامِلة، والكامِلة الفاضِلة، والتَّقِيَّـة الوَفِيَّة، والطاهِرة الزَّكِيَّة، خَديجة خانِم، صاحبة الخير الوافِـــر، والعَطـــاء المُتكاثِر، والشفقة على الفقَراء، والصدقة في السراء والضراء. شعراً [مـن المنسرح]:

لا غَرْوَ إذ فاقَتْ الأمائِل فَضْـــلاً   رُبَّما حُـــرَّةٌ تَفُـوق الرِّجـالا[٤]

---

[١] أي في سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م

[٢] تولى ولاية اناطولي، ثم عينته للدولة قائمقاماً (نائباً) لبغداد لتســـيير دفـــة الحكـم وضبط شؤونها في أثناء صدور الأمر إلى حسن باشا بالتوجه فوراً إلـــى همـــدان بتولي قيادة القوات العسكرية في المنطقـــة (دفـتر مهمـــة ١٣٦ ص١١٠-١١١، بتاريخ أواسط ذي الحجة ١١٤٢هـ).

[٣] في الأصل: ضبية (بالضاد).

[٤] في آخر البيت سبب خفيف زائد عن الوزن المعتاد للمنسرح.

كانت[1]- حفظها الله- هي السبب في تأليف هذا الكتـــاب، حرصـــاً منها على حِفْظِ السِّيَر والأنساب، وفَّقَها اللَّه لطاعاته، وعامَلَها بِمَرضاتِـــه، وأنبَتَ ولَدَيها الحُسَين بيك وعلي بيك نَباتاً حَسَناً، ووَفَّقهما لأن يَخْلُفـــا فـــي السيرة حَسَنا، إنسانا العَيْنِ وعَيْنا الإنســـان، وأُنْســـا الخـــافِقَين الكوكبـــان النيِّران، حفظهما اللَّه من شرِّ العَيْنِ وموابِق[2] الحَدَثَان، وأبقاهمـــا لِبَـــذلِ العَيْنِ ما تَعاقَبَ الجديدان، ومَدَّدَ أُمور والِدهما الوزير محمد باشا وأعلـــى مَقامَه، وشَهَرَ ذِكره بالجميل إلى يوم القِيامة، ووفَّقَه لِما يُحِـــب ويختـــار، وعامَلَه باللُّطف إنه الفاعِل المُختار، آمين آمين آمين، والحمـــد للَّـــه ربِّ العالمين[3]

---

[1] الحديث مستمر عن خديجة خانم، لأنه سيذكر أن زوجها هو محمد باشا، بينما زوج صفية خانم هو قره مصطفى باشا.

[2] جمع موبق وهو كل شيء حال بين شيئين.

[3] إلى هنا ينتهي الجزء الذي نشره الدكتور صفاء خلوصي على ما اشرنا إليـــه فـــي المقدمة.

بسم الله الرحمن الرَّحيم

باب

في بيان سيرة الوزير بن الوزير، والهُمام الباسِل الشُّهير، أحمد باشا بن المرحوم المذكور، ونجل المأجور المغفور.

فنقول:

إنّه الرجلُ الّذي جُمِعَ فيه العالَم، والهُمامُ الذي حـاز فـي عصيـره فضلَ بني آدَم، فهُو القَردُ الكامِلُ عندَ الإطِـلاق، والفَـذُّ الفَـاضِلُ طيِّـب الأخلاق. قَد حاز قَصَبَ الرِهَان، في مِضمار المفاخَرَة وجَنى جَنِيٌ قُضُـب الإحسان، حَيثُ كانَ فَرعَ تِلكَ الشجرة الطاهرة، فَفاقَ كلَّ هُمـام، ونـافَ عَلى كُلّ امام، ذو الأبَّهةِ والجلالة وَالعَدالـة والبَسـالَة. الأسَـد المُظَفَّـر، والشُجاعُ الغضَنَفر، والبَطلُ الّذي أساوِدُ لَدنه[1] وَأفاعيه، تَذَرَ الأسودَ فـي الوغَى فَوائد السِّرحان ومَن يجاريه. ذو الراحةِ الّتي كُتبَتْ عَليها آيةُ الوَعْدِ والوعيد، والعَزَم الّذي يَوْمَ اللِقَآء يَقُومُ مقَامَ الجحفَل العَديد، فَتَنَفّسَ الصُعَـداءَ خَوفَ صِيعاده[2] مهج الأعداء فتَذُوب بالتصعيد[3]، وَعَـدِمَ الشُـريك فـي العلاء فَنَزه عَنْ اضدَاده، واكتَسبَ الثَناء حَيثُ قَضَتْ لَهُ كُلّ فضيلة بمزيـةِ التَوحيد.

---

[1] اللدن: الرماح

[2] الصعاد: جمع صعدة وهي القناة المستقيمة.

[3] التصعيد: الاذابة.

قد نضنضت[١] أسنة الموارق السنا، منهن السنة الردى تتبلج، وتشحذت بعزمه البيض البوارق، فمضت وكاد كهامها يتسرج. فيه أينعت حدائق الدولة العثمانية، ومنه أزهرت شقائق الملة النعمانية، وقوى ركن الدين المنيف، وأعلا مناره، وانتصر للشرع الشريف < ب>، فجلا أنواره، وذب عن بيضة الإسلام بكل صقيل، وحمى حمى الاسلام بكل أسمر أسيل. قد وافى بغداد بعد أبيه من بعد طول تأود[٢]، فأقام ما فيها من التأويد[٣]، وتعطلت بئر النوال بعد أبيه السامي المحتد، فظفر العفاة لدى قدومه بالعذب المورود والبحر المديد، فاذا انتجع العفاة بنانه هطلت سحائبها بغير رعود، وإذا استمنح المقل احسانة جاد بما يشرح الصدر ويسر الكبود. ولم تزل يمينه مشغولة على كل حال، تارة بمقارعة أبطال، وطوراً ببذل نوال، فلو أبصره حاتم طيء لترك دعواه الكرم، ولو رآه حامي عبس[٤] لسال حسدا من أجفان عنم.

قد فاق الأوائل والأواخر، وحاز الفضائل والمفاخر، وحفظ دار السلام بحد حسامه، وردع أعداء الدين الطغام فلجأ الكل إلى استسلامه، ولا سيما صولة أهل فارس، فكم كسرها بكل حارس فارس، وكف أذاهم عن أهل العراق، وخرب حماهم ومالت له إذ ذاك من كماتها الأعناق.

---

[١] النضنضة الاظهار والحاصل.

[٢] التأود: التزن والتمهل.

[٣] التأويد: الاعوجاج.

[٤] يريد: عنترة العبسي.

ذو الرأي الّذي يُغنيهِ عَن جحافِل، والتّدبير الّذي يقوم مقسامَ البطــل المقاتل، أقرّتْ عيُون الدينِ بأيّامه، واكتحلت بأحسَن أثمدٍ[1]، حَيـثُ فـرّت جمُوعُ الباغيَن مِنْ ليوثِ آجامِه، وذهبَتْ إلى كُلِّ مَقصدٍ، فطارَ نَسُر فَخْـره في الآفاق، وملأَ يَمُ ذِكْره صحاصِح الدّفاتِر وبَطـون الأوراقْ، فقصَدَتـه الأفاضل، وحطّت بأعتابه رِحال كُلّ فاضل، واتخـذه الخنكـارُ ساعداً، واختاره <٧٠أ> مُعضِداً ومَساعِداً، واختارَ ما يَختاره ابن الحَسَن، واتّبَـع آراءهُ على مَرِّ الزّمَن شِعراً [من البسيط]:

خَليفَةٌ وَرِثَ المعروفَ عَنْ خَلَـفٍ ... فَحبّذا خَلَفٌ حازَ العُـــلا وأبُ

حُرٌّ إذا افتخَرُوا قَوم بِمرتبَـــةٍ ... فَفي أبيهِ وَفيهِ تَفْخـرُ الرُتَـبُ

العالِم العلامَة، والبحرُ الفهّامَة، الجامِع بَيَن الفضيلتَيْن السّيف والقَلـمَ، المؤلفُ بَيْنَ الدولتَيْن الروم والعَجم، ولِلّهِ در القائل فيه شعراً [من الكامل]:

لا يُدْرِكَنّ مَديحــه لَمِبنٌ ولَـوَ ... نَظَمَ الكواكب في قلائدِ شِعــرِهِ

لِلّـهِ بَيْـنَ بَيانـــهِ وبَنانـــه ... كَـنزٌ أفـادَ السـائلينَ بِـدُرّهِ

لَو كَانِ للبحــرِ الخِضيــمَ سَـماحَةٌ ... لَم يَخزِن الـدُر اليتــم بِقَعَـرِهِ

سَمح لو أن النَـيِّرات جواهــرٌ ... قذفت بها للوفــد لُجّـة بحـره

خَطَبَ العُـلا فتلطّفـتْ أموالــه ... ومِنهُ وزوجَهُ النـّوالُ ببِـكره

تَاللّهِ ما سَيفُ الرَدى بيـدَ القضـا ... يَوماً بأفتكَ مِنْ نَــداهُ بوفـَره

لَوْ تَلْمسَ الصَّخر الأصَم بِمينَــهُ ... لتفجرتْ بالعذْبِ أعَيْنُ صَخـــرِهِ

فَطِنٌ يَكادُ اللّيلُ يُشرِقُ كــالضُحى ... لو أن فطِنَتَه تمـــرُ بِفــكْرِهِ

---

[1] حجر يكتحل به.

تَرَكَ المواهِبِ كالكواكب فــاهتَدى   فيهنْ مَنْ يَسْرِي لمِشْرقٍ يُســـــرِه
غَيْثٌ يَكادُ التِــبْرُ ينبــتُ بــالْربى   كالنورِ لَوْ وُسمَـــتْ بلؤلؤ قَطــرِه

فَصلٌ في بيانِ ميلادِهِ وبزُوغِ طالِعِ اسْعادِهِ

فَنَقُول: ولِد يَومَ الجُمعةِ وقْت طلُوْعِ سُهَيل، في قَصبَــةٍ يُقــال لَــها جِفلِكَة، فَوقَ اسِلامبول برُبعِ فَرسَخ، يَخرُجُ اليْها النّاسُ للتنَزّه، فشَــبَّ فــي حُجوُرِ المَراتِب <٧٠ب>، ورَبِيَ على صَهَوات المَناقِبْ، وارْتَضَــعَ ثَــدْيَ المجْدِ منْذ فِطامِهِ، ولبِسِ ثوبَ الحَمْدِ مُنْذُ بزُوُغ بدرِ تَمامِه، وتخلَّــقَ بكِــلَّ خُلقٍ جميل، وتَأهّلَ لِكلِّ اكرامٍ وتَبْجيل.

ولَما طَرَ سيالَه، وظهَر مِنْ آفاقِ الطفوليةِ كَمالَهْ، سَرى مَعَ والدِه فــي اصطدامِ الفُرسان، ومقَارعَةِ الأبطالِ والشجعان، وتعوَّد كَفُّهُ نَظْمَ الأبْطــالِ، واَعتَادَ سَيفُهُ نَثْر هامِ الرجَالْ، ومارَسَ الحُروُب، وتَمَـــرَّنَ علَــى تَحمُّــل النَّصب واللّغوُبْ.

[توليه شهرزور]

ولَمّا تأهّلَ للاستِقلال، وتردّى بردآءِ الكَمالْ، عَرَضَ لَهُ والــدُهُ الَــى الدولَةِ بإفرازِهِ ببعض الأعمال، فاتاهُ البريدُ بامارةِ شـــهرَزُوْر[١]، بشَــرْط الحِراسةِ عن كُلِّ طاغٍ جَسُورْ. فجَهَز والدُهُ لَهُ الجنوُدْ، وعقَدَ لَـــهُ الاَعْــلامَ وَالبُنُود، وودّعهُ وشيَّعَه، ومَنْ شِدّة فِراقِهِ بتنفَيسِ الصَعْداَءِ أتبعَه.

---

[١] يريد ولاية شهرزور. وقد سبق أن ذكر بأنه، أي أحمد باشا، قد تولى شهرزور في سنة ١١٢٧هـ.

فلما دخَلَ البَلدَ المذكورَ نشَرَ العَدْل وأتقَنَ الائتِلاف، وطَوى شُقَّةَ الجور وأوهَنَ الاعتِساف، وسهَّدَ الرعية بتَدبيره، وأرْهَبَ أهْلَ البَغْي والحميَّةَ بَزئيرهِ، ورعيت الرعيَّة كَلأَ العَيْش رطيباً، بَعْدَ أنْ كانَتْ تأكلهُ هشيماً قشيباً، وأزْهرَتِ الأيَّام بنَيِّر عَدْلهِ، واغتَنَمتِ الأنامُ فرصَةَ[1] الطَّغامْ بقُوَّةِ خَيْلهِ ورَجْلهِ، حتَّى ودُّوا أن يكَوُن حكمَه فيهم مُؤبدا، وتَمنوا أن يَبْقى حاكماً علَيهم مَدَى الدَّهَر مُخلَّدا، لِحُسن طِباعِه، وجميل اصطِناعِهِ، ووفور حلمِه واعتِدالِ حُكمهِ وقِلةِ ظلمِه وكثْرةِ وَرَعِهِ وَعِلْمِه، مَعَ كَرم يَجلبُ قلُوبَ <٧١أ> الأعداء، وشَيمٍ تغْبطهُ علَيها الأقرباء.

[تولِّيه قونية]

وفي هذِه السنَةَ أيضاً- كَما تقَدَّم- أُلبِسَ جلبابَ الوزارَة، ورُدِّيَ برِداءِ الإمارة، فَوُلِّيَ قُونْيَةَ مُيمِمَّاً جِهَةَ مقصِدِه، جامِعاً الجحافِلَ مَا عَدا أعوانهِ وحَشَدِه، وطوى إليها المفاوِز، وأسرَعَ امتِثالاً للأمرِ في العَدَاءِ والتجاوز، حتَّى قَدِمَ عَلَيها وتسوَّرَ محُيطَ أراجيها[2]. فدخلَها بزينَةٍ بَهيَّة، وجَلالةٍ رَسميَّة[3]، وجلَسَ على دست الأحكام، فَرُفِعَتْ إليهِ الجنايات والإجرام، وعَدَل بَين الرعيَّة وتَصدَى لرَفْعِ الجَورِ عَنْ تِلْكَ البَريَّة، وحُمِدَت سيرتُهُ الحَسَنة، وشُكِر على تلك الأخلاق المُستَحْسَنة. وجاد الدهرُ بكلّ مَسَرَّة، وذهب عن أهل البلد زمان العُسرة، فاجتَنوا ثَمَر الأمان،

---

[1] الفرصة: الوقت المناسب والنهزة.

[2] تقدم شرحها.

[3] كذا في الأصل، وهكذا نقلها ناسخ ب، ولعلها: رستمية.

واقتطفوا زهر الإحسان، حيثُ أذلَّ بصولتــه أهــل الخِــلاف، واضعــف بجلالته في بسالته شَوكةَ أهل الجور والاعتساف.

[توليه حلب]

وفي سلخ سنة التاسعة والعشرين بعد المائة والألف[1]، تُوِّج بتــاج الرضاء[2]، ووَلّي حلب الشهباء، فارتحل من قُونْيَة وقد مَلأ رِحابَها عــدلاً وأماناً، وسار عنها وقد محى عنها الجَوْر وخلَّف فيها مآثر حِساناً، فطــوى المَهامِه والقِفار، والأنجاد والأغوار، حتّى بَلَغ حَلَبــاً، وأدركَ مــا طَلَبــا، فخرج لاستقباله السّادات والأمراءُ والقُــوّاد والرُؤســاء، فدخلــها بوقــار وسكينة وجلالةٍ وزينة، فعمَّر دارِسها، وقيَّضَ حارِسها، وأكرَمَ علماءهــا، وقَرَّبَ أمراءها، ورفع لواء رأفته، وأبدى منشور شَفَقَته، فرُفِعَــت <٧١ب> إليه الأحكام، من الخاص والعام، فحكم بمقتضى الشريعة، غير جاعِلٍ إلــى الجَّوْرِ والحَيف وسيلةً ولا ذريعة، بل عَدَلَ عَــدْلَ عمــر، ورَدَعَ أعــداءهُ وقَهر، فشكره أهل حلب، حيث نتجت بأيامه قضايــا الأرب، وزال عنــهم بمقامِه العطب، وعدم فيهم اللُغوبُ والنَّصب.

---

[1] أي أوائل سنة ١٧١٦م.

[2] الرضاء: الاسم من رضي.

[توليه البصرة]

وعلى رأس السنة الحادية والثلاثين بَعْدَ المائـــة والألْــف[1]، ولّـــي البصرة الفَيْحاء[2]، لإذلال ما[3] في أراجيها من الأعداء، وارهاب الفئـــات الطاغِيَة، وترويع الأحزاب الباغية[4]، حيث حقّق الخُنْكار أنه أهلٌ لذلـــك، وإن غَيْرَهُ وغيرَ أبيه لا يُطيقُ حِراسة تلك الممالك. فلَوى عِنان حَزْمِه عـن حلَب وأمْ البصرة وطَلَبْ، وسار بِعَساكِر عديدة، وجنود مديـــدة، وأبطـــال ضَيَاغِم، ورجالٍ أعاظِم، قد سدّ الخافِقَين جَناحا خَمِيسِه، وملأ الجُهتَين قَلـبُ جَحفله في تألّفه وتجنيبه، وسالت بأعناق ساقَتِه[5] الأباطِح، وسارت كتيبـــةُ مقدِّمته بكل أسَدٍ رامِح[6]، وكبشٍ ناطِح.

ولما بلغ بِسَيره العراق، نادى مُنـــادِ الاجتمـــاع والتّـلاق، بوالـــدِه المُظفَّر، ولِبيه الغُضنَفَر، فحصل اجتماع الشّبْل بالأسد، وزال عـــن الكُـلّ

---

[1] أولها ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م.

[2] يظهر مما ذكره المؤلف هنا أن هذه هي أول مرة يتولى فيها البصرة نائباً عن أبيه، بينما الذي في كلشن ص٣٢٨ وسجل عثمـــاني ج٢ ص١٤٨ وســـالنامة البصـــرة ص٦٣ أنه تولاها أول مرة من سنة ١١٢٨ إلى ١١٢٩هـــ، ثم نقل إلـــى حلـــب، وتولاها من بعده متسلمان، حتى أعيد إليها ثانية سنة ١١٣١.

[3] الأصح لو قال: من.

[4] يوضح الأمر الصادر إليه، وإلى أبيه حسن باشا (دفتر مهمـــة ١٢٧ ص٣٨١ فـــي أوائل جمادى الآخرة ١١٣١هـــ)، طبيعة ما كلفا به، وهو القضاء على النشـــاطات التخريبية في البلاد، واستئصال جذورها، وتقرير النظام والسكون فيـــها، وتوفـــير العدل والرفاه لجميع السكان .

[5] ساقة الجيش: مؤخره.

[6] الرامح: ذو الرمح، أي أسد طعان.

حُرْقةُ الكَبِد، وكحّلا العَيْن بأثْمَد الاجتماع، وطُوِيَت شُقّة البَيْنِ من البَينِ بيد اللّقاء في تلك البِقاع.

ثم أنه بعد أن أخذ من الراحة نصيبه، وشاهد كل حبيب حبيبه، امتطى مَتْنَ الحَزْم، وتقلّد حُسام العَزْم، وسار بتلك النُصْرة، وأمّ بَلَد البصرة. ولمّا دخلها أبصرها مُشْرِفَةً على التّلاف <٧٢أ> ، لِجَـوْرِ أهـلِ الخِلاف، وعدم الائتلاف، وضُعفِ عُمّال البصرة عن مُقاوَمةِ أعرابها، وقوة أهل الفترة[1] وكثرة أعوانها وأحزابها. فشمّر عن ساعِدِ الجِّد والاجتِهاد، ورغبةً في انتظام أُمور العِباد، وبدّد شَمْلَ المارِقين، وشتّتَ جَمْعَ المُعانِدين، فنَشَر لواء العدل، وأكرم أهل الفَضْل، فشكرت الرعيّةُ طِباعه، وأقرَّ له العَدُوُّ بالغَلَبَة والشجاعة.

وفي السّنة الثانية والثلاثين[2]، أتاهُ الكتاب السُّلطاني باقرار مَنْصَب البصرة عليه هذه السّنة، فامتدحه مُهنئاً له، المُلاّ سلمان البصري[3] بقوله. [من الكامل]:

بُشرى فَقَدْ وَرَدَ السُّعُودُ يُبَشِّـرُ	بدوام حكمٍ للمليك ويُخبِـرُ
انّ المُقرَّر للحكومة قَدْ أتى	في كُلّ عامٍ للوزير مُقَرّرُ
قَرَّت عُيونُ الخلْق فيه وعَمّهم	فرحٌ وطيبٌ والخلائقُ تشكُرُ
لله ربّ العالمين لأنّهُ	أبقى لَهُمْ حكُمَ الوزير النيّرُ

---

[1] الفترة: الضعف والإنكسار، يريد ضعف القوي وقوى الضعيف دلالة على انقلاب الأحوال.

[2] أولها ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٧١٩م.

[3] لم نقف له على ترجمة.

شمسُ العُلا قمرُ السعادة والنُّهى ... نورُ الوزارة وللمُشير الأفخرُ
العادلُ الملكُ الّذي من شأنهِ ... بَذْلُ النّوال وهمّةُ لا تقصُرُ
بالحمدِ خُصّ لذاك سُمِّي أحمداً ... فلَهُ المحامدُ في المحافلِ تنشرُ
سَعد الزّمان وعينُهُ إنسانه ... شخصُ العُلا والقلب بل والجوهرُ
طابَ الزمانُ بِحُكمِهِ ووجوده ... لم لا وفيه على المَواضي يَفخرُ
طابت بهِ الفيحا وحقّ لها الهَنا ... بالعدلِ حيثُ به البصيرة تَعمرُ
أمِنَتْ وأهلُوها بأمنٍ دائم ... بوجودهِ حتى غَدَت تتبَختَرُ
شابتْ فلمّا حلّها عاد الصِّبا ... للبصرةِ الفيحا فها هي تنظرُ
فالدّوحُ يرقص والسحاب مُنقِّطٌ ... والرّعدُ طبلٌ والرياحُ تُزمِّرُ[1]
والبَرقُ يلمعُ والزُّهوُر ضواحِكٌ ... والمُزنُ تبكي والبسيطة تزْهرُ
وترى الرياض جداولاً من سيلها ... تجري وخلجان المجرّة كوثرُ
والبُلبُلَ الصدّاحُ غرَّدَ ساجعاً ... في الدّوح يُشجي والأراكة مِنْبَرُ
والطيرَ تدعو باختلاف لغاتها ... قد أغرَبَت باللحن وهي تُكرّرُ
لِدَوامِ دولة أحمدٍ تاج العُلا ... ومحافِظ الفيحا الهُمامُ القسورُ
مَلكٌ لدى يوم السّماحة حاتمٌ ... لكنّهُ عنْد الزّعازع عنترُ
كالشمس تبدو والملوك كواكبٌ ... تخفى النجومُ إذا تبَدّى النيِّرُ
ذو همةٍ حسنيةٍ وشجاعةٍ ... وبسالةٍ فكأنّهُ الاسكندر
إنسانُ عينٍ للزمان وساعدٌ ... للدولة الغرّا وسعد اكبرُ
كالبحر جوداً والسحاب مكارماً ... تهمى وروض الجوُد منهُ يزهرُ
ذو راحةٍ تنهلُ في بذل الندى ... ويعطُ منها بالنّوال العبهرُ

---

[1] في الهامش عبارة للمؤلف هي (بلغ نظراً).

يُمنى بها يمنٌ وأمنٌ للذي … يخشى الزّمان وبحر فضلٍ يزخرُ

ما قُبّلتْ إلاّ واغتنتْ بالعطا … لمُؤمّلٍ وبنانها يستقطرُ

بمكارمٍ ومغانمٍ وعنائمٍ … وكرائم وسوائم تتفجّرُ

بأبيه مصباح المعالي والعُلا … تاج الملوك به الممالك تفخرُ

دانت لسطوته الممالكُ كلُّها … فكأنّهُ مَهديُّنا المُستنصِرُ

الرافعُ الرايات بالفتح الذي … حَرمَ العِدى فغدت تُجرُّ وتُكسَرُ

سبّاق غاياتٍ ألى أعلا الهدى … من دونُها هامُ السُّهى والنيّرُ

أردى البُغاة مع الطُغاة فأصبحَت … دار السلام كاسمها تتبخترُ

فَخَرَت على مصرٍ وشامٍ فاغتدى … كلٌّ يُقِرّ لها وفيه المفخرُ

ثُم انثنتْ تلحو البصيرة تزدهي[1] … وتقول هل لك في التفاخر منظرُ

<أ٧٣>

فأجابت الفيحاء كلانا بالسوا … والفرعُ مثلُ الأصلِ لا يستنكرُ

أو ما علمتْ بأن أحمد حاكمي … وأباهُ حاكمك الأجلُ الأكبرُ

كالنيّرين تشابها وتشاكلا … والعين بالنجل المنور تُبصرُ

لمّا الخوالد قد تعّو احدّهم … وبدا خلافهم وهُمْ ما استبصروا

جَهلُوا وما فطنوا بأنّك ضيغم … يخشى الفوارسُ بأسهُ والقَسْورُ

ظنّوا المقام ببرّهم ينجيهم … هيهات لا برٌّ ينجي وابحرُ

صيحتهم بعرمرمٍ وفوارسٍ … شوس لهم في الحربِ باس يذكرُ

لما رأوا رايات جيشك أقبلتْ … تخفقُ ويقدمها اللّواء الأخضرُ

طلبوا الفرار وأدبروا بهزيمةٍ … شنعا غداة لهم تبدّى العسكرُ

---

(١) لحا: قشر، يريد تجلو.

تركوا السّوام وأرخصُوا أبنــــاءهم ونســـاءهم والكُــلُ منــهم مدبــرُ
فكــأنّ ذاك اليــوم يــوم قيامـــةٍ من عظم بلِيك والخلائـــقُ تحشــرُ
نظروا إلى بَرْقِ السُــيوفِ كأنّــها لمعُ البوارقِ والصّــوارم تمطــرُ
وكسى البسيطة من دِمــاهم بُــردةً حيث النجيع بـــها وثــوبٌ أحمــرُ
فعفوتَ عنـــهم عفــوَ مُقتــدرٍ رأى نصرَ الإلــه فقاتــــل يتشــكرُ
وتلوْتَ فيـــه شيمـــــــةً أبويّــةً حسـنيّة فلـذاك أنـــت مُظفّــرُ
مهما ترجـــهم يحــفُ بجيشـــكمُ نصر الآله وعـــزّهُ والعســـــكرُ
دارُ السلام لها الممـــالك أذعنَــت حتّى الملوك عَنَتْ ومنـــها تحـذرُ
من خشيةٍ من بأسٍ والـــدك الــذي لولا الغُلوّ لقلُـــتُ ذا الاســـكندرُ
دانت لهُ كُــلُ الممـــالك هَيْبَـــةً وبــه الممـــالكُ بالأمــان تُعمّــرُ
والبصرة الفيحـــا فــأنت وليُّـــها ومليكها السّامي الأجــلُ الأفخـرُ
بــالعدلِ قــد قوّمتـــها فتعدّلــتْ والأمن والبـــأسِ الشـديد الأكــبرُ
هذي هي الهممُ التي كبُرت علـــى كسرى ويقْصُر عن مداها قَيصــرُ
هِممٌ تُدكُ لها الجبـــال ودأبهـــــا نصر الشرْيعة للحقيقـــة مظهــرُ
للمِلّـــةِ السـمحاء أقَمتُـم سُـــنّةً للمصطفى الهادي وفيـــها المفخــرُ
ورفعتمْ البِدْعـــاتِ عنـــها بالــهُدى والاقتدار بكـــم تســـامى المنـبرُ
وعمُرتمُ منها المســـاجد فـــاغتدَت تدعو لكم فيها الجميـــــع وتذكــرُ
أحيَيْتم منـــها المَـدارِس بعدمـــا دُرِسَت فعاد العلـــمُ فيـها ينشــرُ
فلذاك أهلُ الارض تدعو[1] دائمــاً بـــدوام دولتكـم وعمـر أوفــــرُ
والله ربّ العرش نســــــلهُ لكــم عــزٌ ونصــرٌ ثـم سـعدُ اكـــبرُ

---

[1] الأصح لو قال: يدعون.

ويديمْ دولتك ويصحبكم بها حظاً وتوفيقاً ومجداً أفخرُ[1]
ويُمنُ بالألطافِ في أعمالكم بالطَّولِ ثم الطولُ منها أجدرُ
واستجلِ يا تاجَ المعالي غادةً بِكراً عروساً كاعياً تتبختَرُ
غرّاء خُدلجةً رَداحاً حُرّةً حسنا برَهْرَهةٍ إليك تُسيَّرُ
زُفّتْ إليكَ يقُودها مِنّي الرجا تختالُ في حُلَلٍ حُلاها الأسطرُ
ببديع حُسنٍ للمعاني[2] جامعٍ حيثُ البيانُ للفظها متكرّرٌ
بفصاحة وبلاغةٍ بنظامها حُلوُ انسجام السَّبك فهي الجوهرُ
وبقيت ما بقِيَ الزَّمانُ برِفعةٍ ومكانةٍ تسمو وحظٌ أنورُ
بسعادةٍ وسيادةٍ ما ضوّعت نشر الرياض صَباً وفاح العَبْهرُ
مسكُ الختام صلاةُ ربي دائماً تغشى الخيام بيننا وتُعطّرُ
والآل والاصحاب منهل الحيا واخضرَّ روضٌ في المغاني يزهرُ

فعمَّر من البصرة ما عفى، ونبَّه فيها من أنواع المسرّة ما غفا، واينعت الأُبُلَّةُ[3] بعد أن اعتراها الاندراس، وزال ايحاشُها الطارئ

[1] الصواب كلها بالرفع، خط وتوفيق ومجد.
[2] في الأصل: للمعاني، وما أثبتناه هو الصواب.
[3] خبر إحياء أحمد باشا للأُبُلّة يلفت نظر الباحث في خطط البصرة القديمة، فالأُبُلّة: بلدة كانت قرب البصرة، على شاطئ دجلة الصرة العظمى (شط العرب)، ترقى إلى العصر الأكدي، واشتهرت في العصر الإسلامي بزراعتها وتجارتها، وكان يخترقها نهر باسمها، وقد باد اسمها منذ القرن الثامن للهجرة فلم يعد يذكرها البلدانيون والسياح، والراجح أنها كانت تشغل الأرض التي يقوم عليها اليوم حي العشار الحديث على شط العرب (ينظر محمد طارق الكاتب: شط العرب وشط=

<٧٤أ> فَغَدَت كما كانت ذات ايناس، وصارت البصرةُ بأيّامه حدائق ذات بهجة تجري من تحتها الأنهار، مُترنّمةٌ عنادلها بأحسن لهجة على الشقائق واصول الأزهار، كلُّ أوقاتها ربيع، وكل زمانها أزمنة تربيع.

ولم تَزَل الرَّعيَّة بأيّامه بين عدلٍ وانصاف، ومَسَرّة تَقْضي بالانتظام والائتلاف، إلى السّنة الخامسة والثلاثين بعد المائة والألف[1]، [إذ] جاءهُ البريدُ بخبر وفاة والده وفَواتِه[2]، ومُضيِّ أزمانه وأوقاته، وإنّه قد انتقل إلى دار الخلُود، وسارع إلى الجنّة راكياً مُتُون اللحود. وأن صُحبة البريد منشور السلطان الأعظم، وصكُّ الخُنْكار الأفخم، بتَولية بغداد مكان أبيه، وأن يَذْهَب إلى قِتال العجم، ويحث السّير على تلافيه، إذ- كما تقدّم- مات أبوه قبل انجاز أمر الأعاجم، وقبل تتميم ما هو عليه قادم، وأن جُند أبيه في الانتظار، محافظين- كما تقدّم- تلك الدار.

والحمدُ لله ما هذه إلاّ عــزّةُ الملّــة الحنيفيــة، ونُصــرة الشــريعة المحمدية، فما اختصّ به من الحضرة العاليةِ العثمانية، والسُّدة المُشرفة الخاقانية، من وسيع الترحيب، وزُلفى التقريب، ولطفُ اللطائف، وانــهمار سُحُب العوارِف، وتفويض مقاليد ممالك بغداد إليــه بحذافيرها، وربــط حكومة العراق في يده وجمعها له وتوفيرها، إلــهامات إلهيّــة، وعنايــاتٌ سابِقة في الأزل وأقْضيةٌ سماويَّة، أُريد بها نُصرة هــذا الديــن الحنيــف،

=البصرة والتاريخ، البصرة ١٩٧٢، ص٩٣)، فإشارة السويدي تدل على أن اسم الأبلة ظل معروفاً إلى عهده.

[1] أولها ١٢ تشرين الأول ١٧٢٢م.

[2] وكان وصول خبر وفاة أبيه في غرة شعبان ١١٣٦هـ/٢٤ نيسان ١٧٢٤م.

واقامة مَناره العالي المنيف، وايمُ الله ما ضلَّ من اختصّه بما اختصّ <٧٤ب> به وما غوى، وما نَطَق كتابُ تقليده له عن الهوى، وقد صدق فيه قول من قال شعراً [من الطويل]:

بصيرٌ بتدبيرِ الأمورِ وحاملٌ   من الكلّ ما لا يَحمِلُ الشُمّ كاهِلُه
ولا هو في الدنيا محصلُ نصيبِهِ   ولا غرضُ الدّنيا عن الدين شاغِله

بل انه من حينئذٍ شدَّ رَحْل التّرحال[1]، وسار بالفرسان الأبطال، وأمَّ جِهةَ بغداد بجحفل كأنّهُ من الحَزْمِ بحر بالعَجاجة مُزْبِد. وقَصَد ناحيةَ مَقْصَده، بخميسٍ من العزم لدى اصطدام القَوم لِلصَّريخ مُنْقِذٌ مُنْجِد. ودخل بغداد وقد انشرحت لقُدومه الصُّدور، وسُرَّتْ به الأكباد وحصل لها الحبور.

---

[1] يذكر الكركوكلي، دوحة ص١٩، أنه أودع إدارة البصرة إلى من يقوم مكانه وهو صهره عبد الرحمن باشا. والأخير هو الذي دبر ترشيحه والياً بعد وفاة حسن باشا. تاريخ كوجك جلبي زاده ص١٨٠، بينما ذكر ياسين العمري أن حسن باشا تمرض ومات فأخفى موته كتخدا محمد كاهية، وأرسل إلى البصرة يستدعي ولده القسور، الليث المظفر أحمد باشا، فقدم على خيل البريد، وتولى أمر قيادة الجيش، وأظهر موت والده حسن باشا، فشيعه وأرسله إلى بغداد، ودفن في تربته". الدر المكنون، الورقة ٢٩٠. وفي الأمر الموجه إلى عبد الرحمن باشا والي شهرزور السابق المؤرخ في أواخر جمادى الآخرة ١١٣٦هـ أنه عين والياً على البصرة خلفاً لأحمد باشا الذي تم تعيينه والياً على بغداد وسر عسكر على جانب كرمان شاهان وهمدان خلفاً لوالده المتوفى حسن باشا (دفتر مهمة ١٣١ ص٤١٢).

وقد هنّأهُ الشعراء الأدبية، ومدحه أهل الأدب العربية، لكثرة شغفه بالأدب، وقِلّة اعتنائه بالشعر إلاّ بشعر العرب[1]. فمَدَحتهُ الشعراء فرحاً به ومسرة، حيث حققوا أنه سيزول بمقامه زمن العُسرة، وعلموا أنه كأبيه في التمهيد، ومعاملة أهل الفسادِ بالتبكيت والتنكيد، إلاّ أنه لطول العهد وتخلُّل الأنكاد، لم يخطر بالبال سوى داليّة السيّد عبد الله أمين الفتوى في بغداد، حيث يقول [من الخفيف]:

أقبل السّعدُ والامانُ تجدّدْ   بَسُمَ الدّهر ثغرهُ عن منضدْ
ذهب الرّوعُ والأذى زال عنّا   ونمى عودُنا اليبس وورّدْ
وبدا طالعُ الزّوريرا ينادى[2]   ابشِرُوا بالنّجاح أمةَ أحمد
إن خيراً نوى وأدْبَرَ عنّا   عن قريبٍ يعودُ والعود أحمد
ابشِروا ابشِروا بأمنٍ ولُطفٍ   ونجاح الأمورِ فالحال أحمد

<أ٧٥>

بينما النّاسُ يرتجونَ نجاةً   إذا أتانا رسول سلطان أحمد
طوّل الله عمرهُ وحبانا   تحياتٍ له وحكماً مؤبد
قال: إنّ الإمام أمّر فيكم   نجل مولاكم السعيد المؤيّد
فوّض الحُكم والأمور إليه   واجتباهُ من الولاة وأكّد
ما رسول هذا بلى وبشير   بشر الناس في ولاية أحمد
نعم فِعلاً أسداه مَولى البرايا   لرعاياه حيث ولّى وقلّد
إنّ ظِلّ الإله ألهمهُ الله   بأن أنقذ الأنام وسدّد

---

(1) إن زوجة أحمد باشا هي ابنة لأمير عربي. ينظر لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، الملاحق.

(2) الزويراء: تصغير الزوراء، اسم لبغداد.

مَنْ فضلاً على عبادٍ تلاشى ... حالهم واحتمالهم قد تبدَّد

بعد موت الوزير الحسن الفعل ... كريم الخصال ذي الحظ والجد

بشجاعٍ لا شكَّ سِرُّ أبيه ... هكذا جاء عن رسولٍ مُمجَّد

إنَّ دار السلام غابة ليث[1] ... فلذا تُطرَدُ الذئابُ وتبعد

غاضَ بحرُ الفساد حين تولّى ... واستوى مجده عليه وأنجد

عمّ جمع الورى سرور وبشر ... اكمَدَ الحاسدين والشّر أخمد

بانَ رأسٌ طغى وبالقَطْعِ كُوفِيءْ ... مُذ تولّى العراق أهلاً بمشهد

شمَّر الجِدُّ ساعديه لغزوٍ ... جِدٌّ أنفاً وفضَّ فاهاً تزبَّد

فقضى نحبهُ الفسادُ وولّى ... وبكى آلُهُ عليه وعدَّد

قَرَّ عيناً دار السلام وفوهي[2] ... بدعاءٍ لظلِّ فَردٍ مُوحَّد

جلب الأمنَ والأمان إلينا ... نِعْم أمر أتى ونِعم المُقلَّد

فابشري بلدة السلام بِمَن قد ... فاق جَمْعَ الولاة بالأب والجَد

حَسَنُ الوجه والفِعال كريمُ ... الخُلق والخَلق جودهُ جاوز الحد

كاملٌ عقلهُ سريعٌ رِضاهُ ... وافر الحظ باسط الكف بالمد

نَحْوُهُ مُقربٌ عَطا فلهذا ... لا يرى الصَّرفُ عندنا وبه يُعهد

قد حوى منطقاً تحلّىً بفقهٍ ... ضاق عنه التعريفُ بالرسم والحد

حَسَن الأصل قد زكى فلهذا ... طاب فرعاً وفاح عرفاً على النَّد

كيف يَسْتطيع أن يفوه لسانٌ ... بسجايا له تجاوزت العد

دام في رتبةٍ تسامي الثّريّا ... والعِدى في حضيض الأسفل تُلْحَد

---

[1] في الأصل: غابت.

[2] ربما أراد فاه بالكلام يفوه فوها نطق ولفظ به. وقرأها ناسخ ب: نوهي.

أنـــا عبـدُ لله والقطـــب جـــــدّي	سِبْطُ ذا الغوث صرتُ ادعى وأُنْشَد
ما أتى في مديحكم مـــن قريــض	فهو فيه أصلٌ ومـــن ذلـــك المـدّ
ألـــهمِ الله لــــي بإتمــــام مَدْحـــــي	أشــكر الله ذا الجــلال وأحمـــــــد
إن صفّى القلب واســتتار وأبــدى	وارداً قال لــــي وحــثُ وأكــــد
نـــزّه الفَـــرْد وادْعَــــــونَ وأرّخ	ثم بِحُكم تســـود فيـــه وتُحمـــــد

ثم انّهُ لم يستقرّ إلاّ ريثما أخذ الراحة، وصيَّر إلى جهة الفُرسُ ذِهابهُ ورَواحه.

فلما وصل قريبَ كَرْمان شاه، تَلَقّاهُ في طريقِه عمر باشا[١] راجعــاً، ومن عسكر أبيه كان الجمع الكثير جامعاً، حين وُليّ البصرةَ مكــان هــذا الأسد[٢]، فجمع عندهُ هذا العسكر والحَشَد. فلما نَظَر إلى غالِب عسكر أبيـه قافِلاً، وأنه مع هذا الوزير صار راحِلاً، أرجَعَهم معـــه طَوْعــاً وقَسْــراً، وانقياداً وقَهْراً. فلمّا بلغ كَرْمان شاهان أبْصَر فيها من جنود أبيه الجحــافل،

---

[١] من مماليك والده، قائد عرف بالشجاعة والبطش والطموح، وصار (كتخدا) لسليمان باشا أبي ليلـــة أول ولاة الممـــاليك فـــي بغـــداد، وتولـــى ولايـــة بغـــداد ســـنة ١١٧٦هـــ/١٧٦٢م، ولبث فيها حتى مصرعه سنة ١١٩٠هـــ/١٧٧٦م. وهو زوج عائشة خانم ابنة أحمد باشا. ينظر عبد الرحمن السويدي: تاريخ حــــوادث بغــداد والبصرة، بتحقيقنـــا، بغــداد ١٩٧٨، ص٤٢ ودوحـــة الـــوزراء ص١٣٧-١٥٣ وتتاثرت أخباره في مصادر العصر.

[٢] يجب أن لا تفهم هذه العبارة على أن الذي تولى البصرة عمر باشا مكـــان أحمـــد باشا، لأنه عمر لم يتولّها أصلاً، ويظهر أنه يريد بالأسد حسن باشا، لأنه هو الـــذي اختار ابنه أحمد مكانه في حكم البصرة.

من كل صِنديدٍ مُقاتِل، يضيق عنها العَد، ولا يحصرها الحد، فضمُّوا إلـــى عسكره وجُنده، ودخلوا في زُمرةِ أعوانه وحَشدِه، وســـار بـــالجمع إلـــى هَمَدان، حيث راسلهم فلم يفعلوا إلاّ العصيان، فقصدَها <٧٦أ> مُخلصيـــن النيّة في الجهاد، مستعيناً ومستغيثاً برَبِّ العِباد. شعراً [من البسيط]:

من استعان بغير الله في طلـــبِ   فان ناصره عجـــــز وخــذلانُ

فلما اشرف عليها بأبطاله، وشاهدها مع حُماتِه ورجالـــه، أبصرهـــا ساجمةَ النجّوم في الارتقاء، راسخةً في التخَوم فكأنّما أُسِّسَت علـــى تيـــار الماء، مُحْدِق بها سوران، أدناهما نار البنادق محيط بها حارِسان، أوهَنَـــهما الحُسام الفالِق، وأنَّ أهلها قد انحجروا فيها وتحصَّنوا بقوة سورها وحَصانـــة ناديها، وانّهم أرسلوا الرُسُل من البلد إلـــى الشـــاه أن يتداركـــهم بـــالمَدَد، فأحدقت بها جنود الله إحداق الضيوف بالوليمة، وأحاطت بـــها الضَراغـــم إحاطة الملّهُوف على النَفل والغنيمة. هذا والأســـدُ الغَضَنَفـــر، والشـــجاع المُظفّر، يُحرِّضُ العسكر، ويطوف على الجند في المعسكر. شعراً: [مـــن الكامل]:

مُتكشِفاً لِعِداتـــهِ عـــن سَـــطْوَةٍ   لو حلَّ منكبها السماء لزعزعـــا

ولم يزل الطَوب يرعُدُ ويبرق من الجانبين، والبندقُ من البين يئـــنُّ أنين، من رَوْع بالبَيْن، لكنّ السور - كما أخبر من شاهده - عالٍ في الغايـــة،

عريضٌ في النهاية، يقرب عُرضُهُ من عشرين ذراعاً بذراع الكِرْباس[1]، وان بناءهُ باللَّبِن لم يَنَلْهُ من وَقع الأطواب باس، والوزير المذكور يُحوِّضُ القوم، ويدور عليهم كلّ يوم، لم يجد الرَّاحة، ولم يعرف السِنَة ولا النوم، بل مُتجلِّل بداوُديّة، مُعتقِل بِسَمْهَرِيَّة، متقلِّد بهِنديّة. شعراً <٧٦ب> [من الكامل]:

متعودٌ لبس الدُرُوع يخالها   في البردِ خَزّاً والهواجِرَ لاذا[2]

هذا وأما الأعداء فيتلونون تلوّن الحَرباء، تَارة يُخرِجون منهم العُلماء في طلبِ الأمان وابتغاء الإحسان، وتارةً يُراسِلون في هذا المعنى حامي شَوكة آل عثمان. شعراً [من البسيط]:

تخرّقوا بأكاذيب مخرّقة   وزوّقوا زُخرُف الأقوال تزويقا

وتارةَ يَستَروِحون رائحة المَدَد من الشاه، فيَدّعُون اتكالهم على الله، ويُظهِرون الشِّقاق، ويُبدون النِّفاق[3].

---

[1] ذراع الكرباس: مقياس للطول، كان يستعمل لذرع الخيش الأبيض، ويساوي الذراع العامة، المعروفة بالسوداء أيضاً، وطولها ٤٠ر٥٤ سم. فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٧٠، ص٨٩.

[2] اللاذ: ثياب حرير تنسج بالصين.

[3] كان ولي العهد الصفوي طهماسب ميرزا قد أرسل قوة عسكرية إلى همدان لفك حصارها إلاّ أن القوة اضطرت إلى الانسحاب إثر هزيمتها أمام القوات العثمانية. ينظر تاريخ جلبي زاده ص٤٧.

فرأى الوزير المذكور أن يبقر عليهم اللُّقُوم[1]، ويهتك عرْضَهم المكتوم، ويهدم سورهم، ويُذهِب سرورهم. واللُّقم عبارة عن الحفْر تحت الأرض إلى أن يبلغ الحافِر مكان الذي يُريده، فيُجوِّفه مربع الأركان، ويجعل في كل ركنٍ إيوان، ثم يُعبِّئ الجميع بالبارود والرَّصاص، بعد أن تُدك الأرض دكّاً شديداً، خشية نزوله عند احراقه في الأرض وعدم صعوده، ثم يُسدّ المنفذ ويُجعل له ثقباً تُرمى منه النار، فإذا رُمِيَت فيه اشتعل. ولإفراط قوّتِه يَحمِل ما فوقه من البناء إلى عِنان السماء.

فأمر الوزير المذكور [يحفر] اللُّقام، ونَصْبِ على موضعٍ بقْرِه بعض الخيام، خشية أن يَعلَم بذلك من يُخبر الأعداء فيصبُّ لُقّامهم[2] على موضع تأسيس هذا اللقام الماء، لكن الأعداء أيضاً بصدد حفر لَقْم على المعسكر، واحراق الجند والعسكر. فكلما حفر لُقّامُنا لَقماً التقى بلقامهم، ويرجع كل منهما هارباً من الآخر، ولم يزل الأمر كذلك حتى حُفِرَت ألقلم كثيرة، وبُقِرَت أراض غزيرة.

---

[1] جمع لقم، وقد تجمع أيضاً لقام، وهي متفجرات توضع في أنفاق، أو حفر، ويسد عليها، فيؤدي انفجارها إلى إحداث ثغرات فيما يراد نسفه، على ما وصفه المؤلف وصفاً بيناً هنا، وقد تجمع بألقام أيضاً، وقد سماها المؤلف أيضاً (اللغم) وهو ما يعرف به اليوم ضرب من المتفجرات توضع في حفر مستورة لتنفجر عند وطئها، والصحيح أنها بالقاف، فلقم الطريق وغير الطريق يلقمه لقماً سد فمه.

[2] اللُّقام: من يقوم باعداد اللقوم.

ثم حُفرت عليهم ثلاثة ألقام، لم يَعْرِف بها أحد من الأنام، ففي اليوم الذي يريدون <٧٧أ> أن يوقدوه ويهجموا على العدوّ ويَفْقِدوه، أمر الوزير العسكر من الليل أن تترك ظُهور الخَيل، وان يترَجّل كل أحدٍ، وأن يتـلَهّبوا للحَملة على البلد، وكل هذا بتدبير ذلك الإمام، وقوة فكرة ذلك الـهُمام.

شعراً [من الطويل]:

إمامٌ عظيمُ الباس لو أن بأسَهُ أصابَ ثَبيراً ما استقلَّ بِهِ قُطْرُ[١]

فلمّا أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح، حُملت السّلالم، وصُفّت الضيّاغم، وبرز المصادم، بكل بتّار صارمٍ، فجعلوا ثلاثة[٢] جُموع تَجاه كل لقم جَمْع، فأُضرِمَت الألقام، وعلا الغبار والقَتام، وطار بمن فوقه ومن تحتَه من السور مقدار ثلاثين ذراعاً بذراع الكِرْباس، من كُلّ لَقمٍ. فخمدت من العَدوّ الأنفاس، لكن مات من الإسلام[٣] ذلك اليوم خَلْقٌ كثير، وجَمْعٌ غزير، لم يعرفوا عادة اللَّقم، بل حين أبصروا الفُرَج الكُل على السُور هَجَم، فلمّا وصلوا إلى موضع الهَدْمِ، نَزَل عليهم التّراب الطائر، وعاملهم بالردم.

ثم أن أُسود الله هلّلُوا وكبّروا وأسرعوا نحو البلد، وقدّموا وما تأخّروا، وأمّهم الأسد الصوّال، وتَقدّمهم كما يتقدم الليثُ على الأشبال،

---

[١] ثبير: جبل بمكة

[٢] في الأصل: ثلاث.

[٣] يريد من أهل الإسلام.

واشتد الحرب في الفَتَحات، ودام فَلْق البَيْض[1] في البَيْضـات[2]، وضـاق الخِناق، و ﴿والتفَّت السَّاقُ بالسّاق إلى ربّك يومئذٍ المَسَاق﴾[3]، ووَقَع بـأعداء الدين الانمحاق، ومالت الأعناق، وسالت الأحداق، والسُّيُوف رَعَفَت بدمـاء الأعداء، والأراجي غرقت بسَيْل الدماء، وشابَ الوليـد، وذابَ مـن حَـرِّ الوطيس كل حديد، وخَلَق من الأبدان كل جديد، وذهب من الأرواح كـل طارفٍ وتليد <٧٧ب>، ولُطِّخت بالدم الأسوار، فابتهجت طيبـاً، ولـولا دِماء القوم لم تَطِب تلك الديار.

وحفَّ الله عسكر الإسلام بمَدَده، وأنزلَ عليهم السـكينة ونَصَرَهـم على ما هم بِصَدَده، وأذلَّ أعداء الدين الطَّغام، وأعَـزَّ أنصـارُ الإسـلامِ الإسلام، فدخلوا البلد وقد عَمِل في الأعداء الحُسام، ولم يبق من رؤسـاء الفُرْس أحد، بل انقرضوا ساعة الاصطِدام. ولم تَزَل أسُـود الله تفـترس الرؤوس، وتبدى حرب البَسُوس، لم يلتفتوا إلى متاع، ولم يميلوا إلـى مـا فيه الانتفاع. شعراً [من البسيط]:

إن الأسُودَ أسُـود الغـاب همّتُـها يوم الكريهة في المسلوب لا السَلَبِ

بل دأبهم القتل والرَّهج، وشأنهم بتكبير الله وتهليله العَجُّ والثج، مـن صباح ذلك اليوم إلى وقت الظُهر، فأخرجهم الوزير إلـى الخيـام، طلبـاً للرّاحة من تعب الاصطدام، لكن بقيت محلّةٌ فيها يُقال لها مَخسـتِران، قـد

---

[1] جمع أبيض، وهو السيف.

[2] البيضات جمع بيضة، وهي الخوذة.

[3] القيامة، الآية ٣٠.

تحصّن فيها كل ماردٍ شيطان، لم تُفتح ذلك اليوم لاشتغال الأسود عنّها في بقيةِ القَوْم، فخرجوا عنها، وقد توطّأت هضابها وتذللّتْ صعابها، وظهر لها من المنيّة ظُفُرها ونابها. وكان هذا اليوم ثاني عيد الأضحى، أول يوم من أيّام التشريق، ولعمري إنّه بهذا الاسم لحقيق، إذ شَرِقت فيه لحوم الأعداء، وفصّلت منهم الأعضاء. شعراً [من خفيف]:

واستراحت من السُهادِ عيونٌ واطمأنْت جوانحٌ مُرتاعة

<٧٨أ>

فأشرقت بأعلامنا المنصورة جوانبها، وتحلّت بالدين المُحمّدي مناكبها، فأمست بقلاع الإسلام المحروسة أُختاً، بعد أن كانت لفَرط المَضرَّة ضَرَّة، وأصبحت ذليلة الحال بعد أن كانت بالأمس بأعوانها ورجالها مُعتزّة.

ثم أنه صبيحة اليوم الثاني دخلها بِجَمْعٍ خَميس، وليوثِ عَريس، وعلّت الرماح الخطيّة، وأخذت الأرواح بالسيوف الهندية، والبنادق النارية، والأطواب الرّعدية، والقنابر التي كالشُهُب المحميّة، وتَسَوّروا محلة مختران، وأحدقت بها الشجعان، فافتضّوا بُكارتها، وأزلوا عَذارتها، وقُتِل من كان هناك من الشياطين، وسُفِكَت دماء العُتاة الماردين. وأُسِرَت النواهد والكواعِب، وسُبيت الخرائد من الملاعِب، وأبرَزَت همذان حِسانها، وأبدت الحِسان من خلال جدرانها[١].

---

[١] يفهم من القصيدة التالية للشيخ حسين الراوي أن أحمد باشا لم يأسر النساء وإنما تركهن دون أذى على عادته ف حروبه الأخرى.

ولم يزل السيف حاطياً، ولم يبرح الخطِّي علــى الطعــن مواظبــاً، والصِفاح تَنهَب الأرواح، والرجال تذهب دَرَج الرياح، إلى أن وقــع فــي مدة ثلاثةَ أيام مقدار مائتي ألف فارِس من فرســانها العِظــام، فاســتَغاثوا بالوزير عديم المثَلِ والنّظير، فأغمد عنهم سيفَ الانتقام، وخـــيرْهم بيــن الرّحيلِ والمُقام. وكان مدة حصارها اثنين وستين يوماً[1]، فبقي الوزير فــي همذان مدةً من الزمان يصلح شؤونها ويشيد حصونــــها. هــذا وسَــراياه مشغُولةٌ في فتح القلاع، وتسخير القرى والضّياع، ففتح بعضـــها عنــوةً، وبعضها طوعاً لا دعوة، فالذي فُتِح عنوة: كَــزاز[2] كَرْهُــوت، وزَنْكــاه سلطان، وكَرَنْت، وسنقر[3] وصمُون، والذي فُتــح بالأمــان لُــولُ كِــرْد، وتوي[4]، وتوسَركان[5]، ولهونْد[6]، وخير ماوات، وسينة[7] <٧٨ب>

---

[1] ينص الأمر الوارد إلى حسن باشا بمناسبة فتح همدان، إلى أن المدينة لم تســقط إلاّ بعد محاصرة شديدة دامت ٥٨ يوماً. دفتر مهمة ١٣٢ ص٩٢ في أوائــل محــرم ١١٣٧هــ. وكان أمر قد صدر إليه في أواسط ذي الحجة من ســنة ١١٣٦هــ (دفتر مهمة ١٣٢ ص٧٩) يشتمل على تعليمات قاطعة بالبقاء والاستمرار علــى المحاصرة وعدم التراجع إلى الوراء خطوة واحدة إلى أن يتم الفتح وتســقط قلعــة همدان في يد القوات العثمانية بإذن الله تعالى وعونه ونصره حتى ولو أدى الأمــر إلى قضاء فصل الشتاء فيها".

[2] بلدة من أعمال همدان.

[3] في دوحة الوزراء ص٢٠: سنقور.

[4] لعلها: نوي، بلدة قرب مريوان.

[5] بلدة من أعمال همدان، وهي في البلدانيات الإيرانية: تويسركان.

[6] هي لهون، بلدة على بعد ١٢ فرسخاً إلى الجنوب من سننذج.

[7] بعض هذه الأسماء لم يذكرها الكركوكلي، ولكنه أضــاف: بروجــرد، ونــهاوند. والصحيح ما تذكره الأوامر الرسمية، ففي الأمر الموجه إلى حسن باشا في أوائل=

وفي هذه الأيام امتدح الوزير الشيخ حسين الـــراوي شـــعراً [مـــن الوافر]:

أبارقـــةً بــــالأبرقين تُشــــامُ   عَليكِ من المُضنَى الكئيـــب سَـلامُ
ويا هضَبات الحَيف هل جادَك الحَيا   وصـــوّبَ بيـــن المـــأزمين ركـــامُ
فلولا وزير الخير ما جفّ مدمعـــي   ولا طاب في ارض العراق مُقـــامُ
فتىً في غمار الطعن روى حُسامهُ   وليـــس لـــه إلاّ القَتـــامُ لُعـــامُ[1]
يقولون في تبريزَ جالت عســـاكره   وأبرق بيـــن الفِرقتيـــن حُســامُ
وكم لأبى نصرٍ بــايران مشـــهد[2]   مُحقّـــقٌ أن الأبلقيـــن تُـــرام
وفي نفرٍ كم حـــاز مجـداً مؤثـلاً   وخـــيرت لديـــه ثُلّـــةٌ وســـوامُ[3]
ولو شاء ما شاء الغزاةُ لأصبحـت   حلائلـــهُمْ للمفلســـين تُســـامُ
ولكن نَمَتْـــهُ شـــيمةٌ أحمديـــةٌ   إلى المنزلِ الأعلى فليـــس يُضـــامُ
له همةٌ تـــأبى السّـماكين مـــنزلاً   ولا فَخـــرَ إلاّ وهـــي فيـــه مبـــنامُ

=شوال سنة ١١٣٦ (دفتر مهمة ١٣٢ ص١٩) أن عليه بعد فتح همدان أن يســير لفتح مدينة نهاوند، وفي الأمر الصادر إليه في أوائل ذي الحجة ١١٣٦هـــ (دفـــتر مهمة ١٣٢ ص٦٧) يطلب منه الآن العدول عن السير إليها والتوجه إلـــى تـــبريز بجميع القوات العسكرية العاملة تحت قيادته.وفي الأمر المؤرخ في أوائل محـــرم ١١٣٧ (دفتر مهمة ١٣٢ ص٩٤) أن الحفاظ على قلعة همدان لا يتـــم إلاّ بفتـــح لورستان وتسخيرها للقوات العثمانية، فعلى الوالي أحمد باشا التوجه إليـــها علـــى رأس قواته قبل القيام بأي عمل آخر، وعليه أيضاً أن يدعو أهالي لورســـتان إلـــى الطاعة

[1] اللعام: اللعاب.

[2] أبو نصر: كنية اختارها الشاعر لأحمد باشا.

[3] الثلة: الأبل، والسوام: كل ما رعى من المال في الفلوات.

به افتخـــر الآبـــاءُ الفخـــرُ منـــهمُ   مزيـــدٌ عليـــه والجميـــع كِـــرامُ

فيا ماجداً قد زاد بــــالحليم مَجْـدهُ   قد اشـــتدُّ فـــي نحـــو اللقـــاء أُوامُ

فلا انقضي عن باب وفـــدِك إننـــي   علـــى طلبـــي لُقيـــاك لســـتُ أُلامُ

لسائلكم حقٌ ولـــــو جـــاء قـــاصداً   على فرسٍ هـــذا الحديـــث تَمـــامُ

قالها بأمرٍ من الوزير حين وردت من عبد الله باشا قصيدة تحمُّــس لنفسه وهو نازلٌ على تبريز على هذا البحر والـــرَّوي، ولـم يبـقَ فـي خاطري منها إلاّ قوله [من الطويل]:

يعانق مفتوق الغرارين مصلتـــا[1]   ويأبى عناق البيض وهـــو يُـــرام

<٧٩أ>

فأمر الوزيرُ الشيخ المذكور أن يعارضها، لعمري حقّ فيه قـــولُ القائل. مصراع:

لقد حكيتَ ولكـــن فـــاتكَ الشَّـنَبُ

إذ هي قصيدة بليغة تعجز الشعراء عـــن الإتيـــان بمثلـــها، وهـــي المُعجزة في تفرّدها بفضلها. وعبد الله باشا هـــذا هـــو المشـــهور بـــابن الكَبْرَلّي[2]، شاعر مُفْلِقٌ، وعالمٌ مُحقق، وله ديوان رأيتُ بعضه[3].

---

[1] الغرار: حد الرمح، والمفتوق: الحاد.

[2] تقدم التعريف به.

[3] وديوانه هذا بالعربية، وقد نوه به إسماعيل باشا البغدادي في ذيلـــه علـــى كشـــف الظنون ص٥١٧، وأورد عثمان عصام الدين العمري مختارات جيدة منه. ينظـــر الروض النضر ج٣ ص ١٧٧-١٨٦.

ومن شعرهِ قوله [من متقارب]:

عرفـتُ الدِّيـار كرَقْـم الكُتُـبْ ... قَوَاءَ المغاني خَلَـت مـذ حُقَـبْ

ألحّت بها الرِّيـحُ حتـى عفَـت ... وكلـي أجـشٍّ مُلِـث مُـرِب

لليلـى إذا هـي مثـل المـها ... منُعَّمـةٌ فـي جـوارٍ لَعِـب

حِسانِ الوجوه لطافِ الخصـور ... شُـم العرانيـن جُـمّ القَصَـب

فـهاج الفـؤاد هـوىً بعدمـا ... سلوتُ الصِّبـا وقَلِيـتُ اللَّعِـب

وقد كنـا أيـام ربـع الشـباب ... نصبـو إلـى الغوانـي العُـرُب

يَصلْـنَ حيـالى ولا لومـةَ ... أخـافُ لا خشـيةً ارتقـب

فاصبحتُ أعرضت عن ذِكرهـن ... وذو اللـبّ أجـدرُ أن يتـأب[1]

وعدت كـان لـم يكـنْ الـهوى ... وعدُتُ كان لم نكُـن نصطحِـب

وقوله:

كثُرتَ موانعُ وصلِ دُرَّة واحتمى[2] ... بلقائـها قـومٌ علـيّ غِضـابُ

إن يغضبوا فلقد فضـت خلجاتنـا ... ولقـد أسـأنا ظنَّـهمُ وارتـابُوا

وقوله:

يا سنّيةَ النفْس اللجوج تَخَوّفـي ... في مهجةٍ كادت عليـك تـذوبُ

أبداً يزيدُ بنا هـواك مـرارةً ... ولديك ثم شـفاؤنا مطلـوبُ

---

[1] يتأبى: يترفع عن الدنايا.

[2] في الأصل: واحتما.

وقوله: <٧٩ب>

أحبُّكِ يا درُّ حتى الممات   وقلبي بكم مستهامٌ كئيبْ

وما فوق حُبي إليك هوىً   وليس لذاتي سواكم طبيب

ونِعْم المُنى أنتِ لولا النوى   ولو لم تُعِقْني عنكِ الخُطُوب

وله غير ذلك مما وقفتُ عليه من نظمه الرائق، وشعره الفائق، لكن لم أذكره خوف الإطناب، وحذَر الإسهاب، بما ليس من موضوع الكتاب.

[غزوة بني جميل]

ثم أنه لم يَزَل يَطرِق سَمْعه ما أحدث الأعرابُ اللئام، في أطراف بغداد دار السلام، يحاربون الله ورسوله، ويَسْعَونَ في الأرض فساداً، ويقاتلون الناس على أموالهم عِصياناً وعناداً، فأخذته الغَيرةُ والحَميّة، وسار إلى بغداد المحمية، فهنأه بقدومه إلى بغداد السيد عبد الله أمين الفتوى في بغداد [من السريع]:

أهلاً وسهلاً بطويل النِّجادْ   وناصرِ الدين كثير الجهادْ

بغداد من نُورِكَ قد أشْرَقَت   وأورَقَت قُضبان عُود الفؤاد

حُيِّيتَ يا مولاي من قادمٍ   قدومُهُ قد كان عين المراد

قد ذهبَ الرَّوعُ وزال العَنا   وانقمع البغي وأهل العِناد

بغداد فيكم قد سَمَتْ رُتْبَةً   وأمنها قد فاق أمن البلاد

قد مسَّها الضُرُّ أيا سيدي   مذ شاهد الأعداءُ طول البعاد

فأنتَ حِصنٌ لجميعِ الورى | أقامكَ الله لحفظ العِباد
قد لازم الجودُ بساحاتكم | شجاعةٌ تشهد فيها الأعاد
كتَوْأمَي[1] رقٍ لراحاتكم | كالعبد يثوي لمَعاشٍ وزاد
العربُ في غيبتكم افسدوا | والله ربي لا يُحبُّ الفسادْ

<١٨٠أ>

بنو جميلٍ أفسدوا خالصاً[2] | ما ريقهم إلاّ كَريقِ الجراد
كم مرةٍ قد شمرُوا جمعهم | وباشروا تقياً يفمتَ الجَماد
بنو لئامٍ كُفرهم ثابتٌ | في غابرِ الأزمان كُفر ارتداد
لا تَقبلِ التّوبة مِنهم فهم | لا دينَ لا عهد لهم لا وداد
فلعنةُ الله على جَمْعِهم | فمِلّة الكفر سوى في اتحاد
فطهّر الارضَ باقنائهم | فهم محل للغزى والجِهاد
واثْخِن الأرضَ بقتلاهُمْ | وانهِ عن الأسر بأن لا تُقاد
فالكلّ منهم يستحق الفَنا | إلاّ صغيراً ليس يعلو الجواد
كذلك الحُكمُ بنِسْوانِهم | مباشراتِ الحرب بالانقياد
أيدك الله على جَمْعِهم | بنصرةٍ تشفى قلوب العباد
فانتَ منصورٌ بلا ريبةٍ | أدامك الله ليوم التّناد
جودك كالغيث لفَقر الورى | وسيفك الصّمصامُ يفني الأعاد
ونحوك المعرُبُ آمنا فمن | وافاهُ مذروعاً[3] ترقّي وساد

[1] التومة: اللؤلؤة.

[2] يريد: الخالص، المنطقة المعروفة في شرقي بغداد، وكانت مأوى بني جميل.

[3] لعلها من ذرع تذريعاً: وهو المقيد.

فكيف أستطيع ثنا من حوى   مكارم الأخلاق طُراً وزاد
أم كيف لي حَصْرُ سجايا له   تجاوزَت في الحَصْرِ طَوْقَ العتاد
ليس عَجيباً ما حَوَت ذاتكم   ولا غريباً بل لذا الاستناد
شَنْشَنَةٌ بالإرث قد حزتَها   من حَسَنٍ تُعرف بين العِباد
فحيثما سِرْتَ فَسِرْ آمِناً   فلا كبا بِك فرسٌ يا جواد
قد قالَ ذا سِبطُ الولي الشهير   قُطْب الورى الحامي لدار الثّناد
العبد لله سُمَيّ بالأمين   في خدمة الولي القويّ العِماد

<٨٠ب>

فدُم بِعِزّ دائمٍ سَرْمَداً   ونُصرَةٌ تَمْحَقُ أهلَ البَواد

وقيل فيه أيضاً [من الطويل]:

خليليّ قوما فالصباحُ تبسما   وهذا سفيرُ القادمين تقدّما
واخصَبَ ربعُ الأُنس بعد نُحولهِ   وهبَّ نسيمُ الوصل من جانب الحِمى
وقد زارنا الظبي الذي طالما رنا   وجاد علينا باللقاء وسلّما
غزالٌ رأيتُ البدر من وجههِ بدا   وشاهدت منه جنّةً وجهنّما
مليحٌ كأن الحسنُ كان محبةً   نحاكَ له ثوباً من الحسنُ مُعلَما
بدا وعروسُ الصُبحِ يغسلُ كحلَهُ   فلم أرَ أنّ الدُرّ يحكيه مبسما
أدار علينا من يديه مُدامةً   مُعتّقةً من عهدِ عادٍ وجُرهما
سُلافٌ إذا قام السُقاة تصبها   رأيت شعاع الشمس أومى مُسلّما
رعى الله أياماً جَنَوْنا ثمارها   فما كان أبهاها وأحلى وأنعَما
ليالي مرَّت والزمانُ مساعدٌ   وساق الحُمَيّا بالحُمَيّا تكرّما

فلا تعذلاني إن بَكيتُ صبابةً واصبحتُ مسلوبَ الفؤاد مُتَيَّما
خليليَّ قد هاج الغرام وشاقني شذا بلبل فوق الغصون تَرَنَّما
لعل خيام الحي منا قريبةً فانشد أشعار السرور وانظما

<٨١أ>

سقى حَلَباً صوب الغمام فانها بلاد بها كان الحبيب مخيِّما
وحيَّا رياضاً بالعراق نسيمها أذاع لنا من نَشْرِه إذ تنسما
أحاديث ركب القادمين الألى جرت لفقدهم عيني مدامعها دَما
أقول لدهري حين صار مُعاندي ودانَ على قتلي وما كنتُ مُجرما
تبيحُ دمي من غيرِ ذَنْبٍ يحله لك الله من دهر أباح المُحرَّما
ألم تخش في قتلي الإله وبطشه ولم تخش في ذاك الوزير المُعظَّما
وزيرٌ أتانا بالقدوم بشيره وجدد للأفراح عيداً ومَوْسِما
على حين ودَّعنا السرور وفرَّقَتْ يد الدَّهرِ شَمْلاً كان قبلُ مُنَظَّما
قعدنا نصبنا حين جاء بشيرهُ بمقدمه الميمون للخير مأتما
وزيرٌ له في المجد أصلٌ ومولدٌ وعِرقٌ عريق في الفَخار إذا انتمى
مليك له فوق السماكينِ منزل هُمام إذا ما همَّ بالأمر أحْكَما
إذا حلَّ خَطْبٌ أو تراكم حادثٌ رأيتَ له عزماً من الدهر أعظما
شجاع له عند الحروب مواقعٌ ورأي مصيب للذي كان أقوما
ضَرُوب لهام الضاربي الهام في الوغى شديدٌ إذا أجرُّ الخميس العرمرما
يكاد يصيب الشذيء من قبل رَمْيه وينفذ فيه السمهري المُقوَّما
على أدهَمٍ كالريح يدرك ما مضى يُسابق فيه الطير مُسرَّج مُلجَما
جَسورٌ إذا الأبطال ولَّت هزيمةً يلاقي العدى يوم الوغى متبسما
له هِمَّةٌ أمضى من السيف حدها يكاد بها يبرى الحسام المُصمَّما

هِزَبْـر دَمُ الـهيجا حيـض سـنانه	يصول إذا ما الفارسُ القِـرْم احجمـا
اذا ذُكِـر الفرسـانُ فـهو إمامـهم	وإن نزلـوا الميـدان كـان المُقدَّمـا
وموضعه في العـزّ والعـزُّ بيتـه	كموضع شمس الظُهر في قبة السـما
يسير فيمشي النصـر تحت لوائـهِ	ويسـعى إليـه السعد إيّـان يمّمـا
تُقبِّـل أفـواه الملـوك بِسـاطه	قيامـاً لـه إذ كـان أشـرف تسـنما
كـأن العِـدى فـي أرضـه خلفـاؤه	فان شـاء جازاهـا وان شـاء سلّما
إذا جال في الـهيجاء فالأسْـد دونـه	وإن جـاد بـالكفَّين فـالبحر منـهما
يجود لدى الاعسار كالغيث في النـدى	يعلم بـذل المـال يحيـي[1] المعَلّمـا
إذا مـا أتـى راجيـه يرجـو نَوالَـه	رأى بحرَ جـودٍ بـالمواهب مُفعَمـا

<٨١ب>

ولولاه أم الفضل والمجـد لـم تَـزَل	لفَقْدِهمـا ثكلـى تنـوح عليـهما
حليـمٌ فمـا قيـس لـه بمشـابهٍ	مـهيب إذا لـم يبتسـم لـن يكلمـا
تموتُ ليـوثُ الغـاب عنـه مهابـة	ويخشاه بَهْرام[2] إذا سـلَّ مخذمـا[3]
ولما خَطَبْنـا فـي المنـابر باسـمه	غدا الجَوْر مقضـي البنـاء مـهدما
يَجِلُّ عـن التشـبيه بـالبدر وجهـه	وما البحر كفيه ومـا هـو ضيغمـا
رأيت ملوك العصر في الفضل دونـه	كمـا أن آبـار الفـلا دون زمزمـا
فيـا أيـها البـاغي منـالاً لشـأوه	إليـكَ فليـس الأمـر إلاّ تَوَهُّمـا
فمن ذا يداني مجـده وهـو شـامخٌ	وهل يجد الراقي إلـى الجـو سُـلّما

---

[1] في الأصل: يحيا.

[2] يريد بهرام جوبين، قائد ساساني اشتهر بشجاعته، حارب ضد بيزنطـة، وتولـى العرش في ايران سنة ٥٩٠م.

[3] المخذم: القاطع.

ولا عَجَبٌ إن جاءه الدهـر خاضعـاً ... فكم من قـوي جـاء أحمـد مُسلِما
من القوم لولا الغيث يحكـي أكفَّهُم ... لما راح فـي كـل البـلاد مقسَّما
لهم سؤدد يعلـو علـى كـل سـؤدد ... ومُلكٌ مطاع صـار للدهـر أنجُما
ومجـدٌ أثيـل وارتفـاع وقُـدرةٌ ... وحَـزمٌ ورأيٌ لا يـزال مُحَكَّما
وعزم إذا مـا حـلَّ خَطـبٌ لِهَولِـه ... يعود بياض الصبـح أسـود مظلِما
وحلـم ولكـن ذاك فيـهم سـجية ... فما حلم قيسٍ وهـو كـان مُحلِّما[1]
يـا ملكـاً مـا أن مَدَحـتُ صفاتـه ... بنظـم ولكـن فيـه نظمـي تكرُّما
يـهنيك بـالزوراء قـومٌ وإنمـا ... أهنئ بك الـزورا لكونـكَ أعظما
فجد لـي بسـيبٍ يـا فديتـك انني ... جعلتُ مديحي فيـك ثوبـاً مُرَشَّما
بقيـتَ بقـاءً لا يـزال مخلـداً ... وذكرك محمـوداً وقـدرك أفخَما
عليـك سـلام الله جـلَّ جلالـه ... ورحمتـه فرضـاً علينـا محتَّما

ثم أنه غزا بني جميل صبيحة قدومه، وصبَّحَهم ثالث ليلةٍ بأبطالـه وقُرُومه، فحكَّم المناصل في المفاصل، واعمل الذوابلَ <٨٢أ> في ظَـهرِ كل صنديدٍ مقاتل، ودَهَمَهم بخميسٍ ارهبـت ضياغمـه، وبغتـهم بليـوث عريسٍ طالما نصرت الدين وقاومت من يقاومه، فاستولى على الأمـوال، وأحاطت لِيُوثه بالعيال، وقتل اكثر الرجال، والباقون فرّواً إلـى الروابـي والطِلال، بعد قتالٍ يُشيبُ رأس الوليد، وغِبُّ جِدالٍ أذهب من الأرواح كـل طَريفٍ وتَليد. ولِغيرته على النساء، أطلقهنَّ وسيَّرهنَّ في البَيْـداء، خوفـاً

[1] يريد قيس بن عاصم المنقري السعدي التميمي احد امراء العـرب فـي الجاهليـة، اشتهر بالحلم حتى ضرب المثل به، توفي سنة ٢٠هـ.

عليهن من الفساد، ورجع قافِلاً إلى بغــداد[1]، فامتدحــه السـيد عبـد الله المذكور بقولهِ [من الطويل]:

تلى الكونُ مُذ عاد المكــرَّم أحمــدُ ... من الغزو يشــدو بالثنــاء وينشــدُ

جهادُك مقبـــولٌ وسَــعْيُك يُحمــدُ ... وفعلك محمــودٌ وحزمــك أحمــدُ

قَدِمْتَ إلى بغـــداد بعــد اختلالــها ... لما مَسَّها بؤسٌ من العــرب كــامدُ

أتيــتَ إليــها مغضبــاً كغضنفــرٍ ... لتنقذهــا ممــا رماهــا المُعــانِدُ

فمذ حلَّ في قطر العراق وأرضــهِ ... ركابك فــاضت أنعــمٌ وموائــدُ

وأشرقت الأرجاء منـــه وأيْنَعَــت ... قلــوب وأبــدان وَهَــت وجلائــدُ

فمن اعظم الالطاف موت جورهــا ... وكم نعمةٍ بــانت وبــانت مفاسـدُ

دخلتَ إلى الزّوْرا فزّال ازوِاراهـــا ... وأضحَتْ عروساً بالبَـــها تتواجَـدُ

أعيذك بالرحمن من شــرّ حاسـدٍ ... ومن عائنٍ أو ساحرٍ لــك يرصـدُ

فكيف ولم تلبَثْ بــها غـير ليلـةٍ ... وأنتَ على جمرٍ من الحرص يوقـدُ

لما حلَّ في الزوراء من كَيْدِ عُربـها ... ذوي البغي أعرابٌ طَغَوْا وتقاصدوا

فمن يَــكُ هــذا قصــده ومــرادهُ ... فلا شك في كل الأمــور مُسـدَّدُ

وثَبــتَ عليــهم وثبــةً حَسَــنيةً ... دَعَتْ كل معلــولٍ يفــر ويرعـدُ

وفرَّقتَــهم أيــدي ســباً وســبيتهم ... فلو دام هذا السبي ما زال يحمــدُ

ولكــن حُكــم الله أجــراه هكــذا ... له حِكمــةٌ فيــه تكــون وتُوجَــدُ

فلا تأْمَن الأعراب فالخبث فيــهم ... كمين ولو رُدُّوا لعادوا وافســـدوا

فطهِّر لنا قطــر العــراق بقتلــهم ... فقاتِلُــهم لا شــك غــاز مجــاهدُ

بُغاةٌ وقُطّــاع الطريــق وكفرهُــمُ ... صريح فلا اشكال فيــه مُشــاهَدُ

---

[1] دوحة الوزراء ص٢٠.

عليك بخير الدين فتـــواه فيـــهم[1] تزيد هذا القـــول منـــا وتعضـدُ

فسيفك ذا الصمصام لا زال لاعبـاً بأعناقهم يبرى الركـــاب ويحصـدُ

أبِدْ جَمعهم مولاي فرّق جيوشـــهم فهم شر مخلوقٍ عَتَوْا و تَمَــرَّدوا

أقامك ربُ الناس للديـــن حاميـاً تَذِبُّ ولولا أنــت هُــدّت مساجدُ

فمــد إلـــهي فــي حيـاتك مُــدَّةً فإن قلت ألفا قــال ســرِّي أزيـدُ

فأنتَ مَلاذ الخلق والنـــاس كلــهم عيالٌ لتلك الــذات أتبــاع أعبـدُ

لمدحك عبـــد الله مـــن قــدم لــه قصيدٌ ومدحٌ فهو حسّـــان احمـدُ

فلا زلت منصوراً وسعدك غالبـــاً يذب عن الدين الرزايــا ويطـردُ

دعوت بإخلاصٍ وقلـــتُ مؤرخـــاً تسودُ بحكـــم فيــه مــدٌّ وتُحمـدُ

وامتدحه الشيخ حسين الراوي بقوله [من الكامل]:

طِب يا زمانُ فغصنُ سعدك قد طـوا ونديُّ روضك بالبشـــام تعطّـرا[2]

فلـــك الـــهناءُ بقـادمِ ملــك العـــلا كالبدر في فلك الحميــة قــد سَــرا

حمــداً لأحمــد ثــم مَدْحــاً بعـــده ورأيتني فـــي الحـــالتين مُقَصِّــرا

مذ غابَ عن بلد الســـلام تباشَــرَت أهلُ الفساد فأوقعوا ما قـــد جـــرا

بك يا وزير قد اســـتغاثت ارضنـــا والأمر أشكل والخَـــلاص تعسَّــرا

فـــأجبتَ داعيـــها بهمـــة مـــاجدٍ تأبى المكارم أن تـــراكَ مؤخَـــرا

<183أ>

ونهضتَ من أرض العراق مشـــمِّراً وبنَفَــرٍ أصبحـــتَ تَطلـــب نَفَـــرا

---

[1] لم نقف على هوية المفتي خير الدّين هذا الذي أفتى بحربهم.

[2] البشام: شجر طيب الرائحة يعرف حبه بحب البلسان.

أصبحت ساحَتَهم فساءَ صباحهم وبذي الصبيحة يحمد القوم السُّرى

لو عاين العبسيُّ يوم نزالكم والخيل تخترق العَجاج الأكْدَرا

والبيض تلمع والأسنة شُرَّعٌ ودم الملاحم بَلْ أطراف الثرى

والخيل تعثر بالرؤوس من العِدى والجون اصبح من دماهُمْ أشقرا[1]

ورأى جزاءه أحمدٍ وثباته وقدومه حين الجريّ تأخرا

ما قال انـي كفؤ عبلة خائفاً من فعل أحمد عندها ان يُذكرا

لله دركَ يا وزير أغِثْتَنا ورحمت قلباً كاد أن يتفطرا

دانوا فدينوا ثم زيدوا حَضْوةً وعتوا فجوْزوا إلاّ جدال ولا مِرا

فكأنما سلبوهُ من نعمائنا دين عليهم في الذمام تسطّرا

والسيف منك كفيل ذلك كله أدّى الكفالة بالتمام واكثرا

هاتيك ساحتهم وذاك محلُّهم خفقت به ريح الدَّبور فأدْبَرا

فلقد ملكت نساءهم وحريمهم ومننتَ حاشا أن تروم مُحقّرا

لازلت تقدر ثم تعفو منةً ما المجد إلاّ أن تعفُ وتقدرا

هذي بقية حدِّ سيفك كلهم وضعوا الأكف على الذقون تحيرا

انعم ولُذْ فإنما هو نازل ببني جميل سوف يَنزِلُ شمّرا

وأنا الذي أروي ثناك مسلسلاً فدُعيتُ بالراوي على ملأ الورى

---

(1) الجون: الأسود.

فصـــــل

[وقعة ذي الكفل]

وفي أوائل السنة الثامنة والثلاثين بعد المائة والألف[1] غزا الغـزوة المشهورة بوقعة ذي الكِفل[2]، وهي غزوة عظيمة لم يتّفق مثلها، وذلـك أن شمّر وبني لام وساعِدة تقاصدوا[3] واجتمعوا مع من والاهم من كل القبائل والعشائر، <٨٣ب> بحيث تعجز عن ضبطهم أقلام المحــابر، فأغـاروا على القُرى والضياع، ومنعوا الزُرّاع مـن الانتفـاع، وأهلكـوا الحـرث والنسل، وقطعوا الطرق وسدوا السُبُل، وهم إذ ذاك عديد معدّدة، وجنـود مُجنّدة، فغزاهم الغزوة الكبرى التي أذلّت الأعراب، وغـدت بعـد ذلـك حسرة، وذلك في غرّة رمضان هذه السنة[4]. وقد انشده قبل تقوله السـيد عبد الله المذكور بقوله [من البسيط]:

الكون ضاءَ سـناءً منـه ديجـورُ ... والوقت رقّ صفـاءً منـه مكـدورُ

والبشر والأمن والأفراح قد مـلأت ... قطـرَ العـراق فلـلأرواح تبشـيرُ

---

[1] أولها ٨ أيلول ١٧٢٥م.

[2] بلدة على شاطئ الفرات، فيها مزار للنبي ذي الكفل على مـا هـو مشـهور فـي العراق، وهو عند اليهود النبي حزقيال، وفي ذلك أقوال، ويظهر ان بنـاءه القديـم كان على جانب عظيم من الفخامة على ما وصفه بعض السياح في القرن السـادس للهجرة، وقد عمره السلطان أولجايتو خان محمد خدابنده في أوائل القـرن الثـامن الهجري (١٤م)، وبنى فيه قبة ومئذنة فخمة ما تزال قائمة حتـى اليـوم. رحلـة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، ص١٤٢، ورحلة المنشي البغدادي، ترجمـة عباس العزاوي، ص٩١).

[3] أي قصد بعضهم بعضاً.

[4] ويوافق ٢ أيار ١٧٢٦م.

والدهر أبدى علامات أسر بها كأنما هو في ذا الفعل مأمورُ
ما كان تعهد هذا الفعل من زمنٍ له بأبنائه فتكٌ وتدميرُ
فما وفى ورفى في صدق خدمته ولا أتى بصنيعٍ فيه مشكورُ
إلاّ لمقدِم مَولى الناس أجمعهم والي العِراقَين من بالفضل مشهور
أبو المكارم مَنْ ذُلّت لهيبته أُسُدُ الشرى وبنو ساسان واللُّور
مَنْ نَحْوُه مُعربٌ أمناً لقاصدِه فما يُرى عند من يَدْنُوه محذور
أحوال تمييزه في كل معرفةٍ منعوتةٌ رفعه المخفوض منظور
ونصبُه النفس في درء الفساد غدا مُشاهداً وهو بين الناس منشور
أضحى عَرُوضاً لظُلم الخَلْق أجمعهم كأنه وتدٌ للناس مقرور
وفاصلٌ للورى بالعَدل مَنزِله أسبابه فُتِحَتْ من ياتِ منصور
طويلٌ فكرٍ مديدُ الباعِ مقتضبٌ خَبَلُ الأعادي بسيط الكف مشكور
أهزاجه[1] أورثت أعداءه رجزاً[2] فبينُهم منه منهوكٌ ومشطور
لا يبصر الزحف في منظوم دولته وشأن شانئه المخبول مبتور

<٨٤أ>

قد زانَ مَنطِقَهُ بِقةٌ فليس يُرى للصرف عن بابه للناس ناطور
كنزُ المقلّين مُحيي المُرسلين عطا للجود من كفهِ وقعٌ وتأثير
معمَّدُ الخُلْق محمود الخصال لذا واحمد الله منه الفعل مبرورُ
من أصله حسنٌ طابت محامدهُ فالفرع أحمدُ إذ بالحُسنِ مغمورُ
فالله أحمدُ قد أولاكَ من نعَمٍ منها الجهادُ ومنها أنكَ منصور

---

[1] جمع هزج الفرح وصوت مطرب
[2] الرجز ضرب من النظم جاز ان يقع فيه المشطور وهو الذي ذهب شطره والمنهوك وهو الذي قد ذهب منه أربعة اجزاء، وبقي جزآن.

يا ناصر الدين سِر بالله معتمداً فالوعد بالنصر في التنزيل مسطورُ
من كان مصدق قول الله جل علا (إن تنصروا الله ينصركم) مسرور
فجاهِدِ العَرَب الجُهلاء واغزهم واغلظ عليهم فمأواهم تنانيرُ
وحرّض المؤمنين التابعين على قتالهم فلهم بالنصر تبشيرُ
هذا الجهاد فلا تأخذك لائمةٌ في الله فيهم ففي ذا أنتَ مأجورُ
كم أظهروا في الورى بغياً ومفسدةً وكم لهم في القرى نهبٌ وتدمير
هل بعد أفعالهم يرثي لهم أحدٌ استغفر الله! هذا الأمر محظورُ
لَعَسكرٍ أنتَ صرت تَقْدُمُه والسرُّ فيك لذاك الجيش منصورُ
إنْ شمر وبنو لام وساعدةٌ ومن له بطريق الشر تدبير
قد أجمعوا كَيْدهم يبغونَ مفسدةً فابشر فذو البغي مقهور ومكسور
أيزعمون كلاب البرّ أنَّ لهم قلباً يقاوم من بالله منصورُ
هل يستوي من غدا الدين ينصره ومن يحاربه الفرقُ منظورُ
أيطفئون بأفواهٍ لهم نتنت نور الإله؟ تعالى الله ذا زور
الدين يعلو ولا يعلوه ذو سَفَهٍ فابشر لأنت بهذا الفتح مسرورُ
حسّان مدحك عبد الله من قِدَم على مديحك مجبول ومقصور
فدُم سعيداً بإقبال يلازمه فتحٌ ونصرٌ وإقبالٌ وتدبيرُ

<٤٨ب>

ثم أنه قفل من دار السلام، قاصداً أولئك الطغام، بجحفل تُرجع الطرف خاسئاً من إشراق الأسِنَّة، ويضلُّ فيها الطِّرف[1] زاهياً من فوقه، متبختراً يلوك الأعنَّة، وجيش سالت بمبرته البادية، وقربت لدى طِلْبَتِه

[1] الطِرف، بالكسر: الحديث من الناس، الذي لا يثبت على صحبة أحد.

الأقطار النائية، دأبهم في الحرب الكّر لا الفـر، والثبـات تحـت القتـام والمقر. فطوى بهم المهامه النائية، وامتطى منهم ظهر كل قفـراء باديـة، فوافاهم بذلك الخميس آخر الليل وقت التعريس، قرب مرقـد سـيدنا ذي الكِفل- عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام- فأغـار علـى الخيـام، وبَغتَهم وهم نيام، فاستيقظوا لضبوح الخيل[1]، ونـادوا بـالثبور والويـل، وفرّت خرائدهم من الملاعب، وظهرت من الأخبية النواهـد والكواعـب، وطفقن يشجعن رجالهنّ في يا ابن أم يا ابن عَم، حيث قـامت الداهيـة[2] بينهم على ساقٍ وقدم، وقامت الحرب على ساق، وضاق بأولئك الأعـراب واسع البر لضيق الخناق، فابتدرتهم جنود الله كالأسود الضارية، وطلبتـهم عباد الله طلب الضياغم العادية، وصاروا بين ليلين الدجـى والخميـس، ووقفوا بين مفترِسَيْنِ: بيض الضبا وحر الوطيس، ففُلِّقتْ منهم الجمـاجم، بكل بتّار صارم، وسالت الدماء على الغبراء سيل الجداول، ونادت جنـود الله على الأعداء: هل من مبارزٍ أو مُنازِل؟.

هذا والوزير يخترق الصفوف، ويقرب للأعـداء الحُتـوف، يَنظِـم الرجال بطَعْناته، وينثر الأبطال بضَرْباته، حتى صَمَّت آذان الأعداء، فلـم تسمع لصليل حُسامه، وعَميت عيون الفرسان لكثرة ما تدمع خوفـاً مـن جرأةِ إقدامه <٨٥أ>، وسالت الآماق، ومالت الأعناق، وغدا الكمي[3] بلون

---

[1] ضبحت الخيل: أسمعت في عدوها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة.

[2] الداهية: المصيبة والأمر العظيم.

[3] الكمي: الشجاع المتدرع بالدرع والبيضة.

جادٌ[1]، مما لاقاه من البواتِر الحِداد، فذهَوا منا الليوث الكواسِر، بأعظم داهية ورزِية، وبلوا من الأسود العوابس الجواسِر بأجل بلية، فاستتار فجو النصر على جنود الوزير، واظلّمّ لِيلُ الخِذلان على الأعراب من غير نكير، وبَرَدَ حَرُّ حماسهم بعد وُقُوده، وخَمَد صوت شُبَيْلِهم[2] وضِير غامهم بعد زئيره ورُعوده، فلو لم يَحُلَّ الليل لذاق كلهم الهول والويل، ففَروُا كالحُمر المُستَنفرة إذا فرَّت من قَسْوَرَة، وتركوا بيوتهم خاوية يُخْبِر حالُها عن الأيام الخالية، ونجوا بالنفوس قائلين: لا عِطْر بعد عروس[3]. فقُتِل بعضهم، وهَلَك الآخر من النفير، لشِدَّة الظمأ وحَرِّ ذلك الهجير.

ثم أن الوزير رجع إلى بغداد محفوفاً بالنصر والسَّداد، وهُنِئ بالقصائد البليغة الرائقة، القوافي الفصيحة الفائقة، منها قول الوالد -حفظه الله- وقد أجاد [من البسيط]:

بُشرى فذي مِنّةٌ من أعظَمِ المِنَنِ ... لم تتفق لوزيرٍ قَطُّ في زمَنِ
فهي المحامِد لم تُدرك نِهايتها ... وهي المَفاخِر لا ثوبان من قطن
زالت بهِمّةِ العلياء ما رَمِدَتْ ... به العُيون من الأسْواءِ والمِحَنِ
وطالما قبلَ ذا كانت مُسَهَّدةً ... ترعى نجوم الدُجى من وحشةِ الوَسَنِ
لله دَرّك هذي هِمةٌ حُمِدَتْ ... لو لم تكن قبل هذا ضَيِّق العَطَنِ
وزُيِّنت فرحاً دار السلام وقد ... فاقت على سائر الأمصار والمُدُنِ
هذي السعادة قد جاءتك مقبلةً ... منقادةً أبدا طَوْعاً بلا رَسَنِ

---

[1] الجاد: الزعفران.

[2] الشبيل، هو أحد زعماء شمر كما سيأتي.

[3] مثل تقدم شرحه.

ورِثتَ والدك المحمود سيرتَه	بل أنت أحمد في ذا المشهد الحَسَن
فيالها سُنةٌ غراء مُشرقةٌ	حتى حَكَت غُرَّةً في جبهة السُّنَن

<٨٥ب>

رفَعتَ بالأمن ما بالقلب من ألَم	من الهموم وما قد كان من دَرَن
ما نال نُصرَتك الأمثال في زَمَنٍ	كلا ولا نالها سيفُ بن ذي يَزَنِ
فما مكارِمه إذ قال شاعره:	هذي المكارم لا قعبان من لبن[1]
ولا وقائع ذي قارَ وشُهرتها	من البَريَّة في شامٍ وفي يَمَنِ
وما روايةُ تحلاق الرؤوس وما	حربُ البَسوسِ ولو ذاعا لدى قَرَن
وما كفاحُ ذوي الغبرا و داحِسها	أعلى طريقاً أتى من هذه السُّنَنِ
شمَّرتَ عن ساعِدِ الإقدام فانهَزَمتْ	كُماة شَمَّر أميالاً عن الوطن
أطعمتَ حِمامهم نارَ الهياج وفي	نار البنادق ما يُغني عن الجُبن
لما تلألأ نور النُصرَةِ انمَحَقوا	ونجمهم غاب لم يَطلَع ولم يَبِنِ
ولَّت بنو لامِهم وغراً على حنقٍ[2]	وما رَعَتْ عهدَهُم فيهم ولم تَبِنِ
وجسُّ جَسَّاسهم نيران معركةٍ	ولم يَطِق نجدةً ولى ولم يُعَنِ
وما شُبَيْل سوى كلبٍ بمَزبلةٍ	يعوي على حِزْبِه في السر والعلنِ
وقد كَسَرتَ جموع البدو قاطبةً	وهي الحَرِيَّةُ بالتكسير من مِحَنِ
ساءت تدابيرهم مما بهم فَركاً	حتى رأوا حسناً ما ليس بالحَسَنِ
ظنُّوا على زعمهم أنَّ النجاح لهم	ما دلَّهم رأيهم إلاّ على غَبَنِ
جُعِلَتَ قبرهم جوفَ الأسود مع	العُقبان لكنهم موتى بلا كفنِ

---

[1] من بيت للنابغة الجعدي:

تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعاد بعد أبوالا

[2] الوغر: احتراق الغيظ.

خلعتَ أفئدةً باتت على وجلٍ   ظلّت مُسامِرةَ الأحقادِ والإحَنِ

تشفّعَ الليلُ فيهم حيث يشبَهُهُم   غدَرْتَ بالليلُ ليتَ الليلَ لم يَكُنِ[١]

وكم لديهم له من نعمةٍ حَسُنت   فالمانَويَّةُ في سهوٍ عن الفَدَنِ[٢]

ما نصركم كان إلاّ عيد أضحيةٍ   وهم ضحاياه صرْعى في زُبى[٣] الدمنِ

عيد الأضاحي أتى قبلاً ومن عَجَبٍ   أضحيته قبل عيد الفِطر في الزمنِ

<أ٨٦>

قَرَيْتَ وحشي الفَلا والطير صادحةً   شكراً لدعوتك العظمى على فَنَنِ[٤]

ليتمتَ أبناءهم أيّمتَ ما نكحوا   وابْتَعْتَ أرواحهم لكن بلا ثمنِ

خابَتْ روايتهم دَعْوى مُصادمةٍ   وهم لأكذب في الهيجاء من رَتَنِ[٥]

غنّى المُهنّدُ والعَسّال صفّق في   ظهورهم فغدوا هَلْكى وكم زَمِنِ[٦]

وكم قتيلٍ على الغبراء مُنْتَفِخٍ   يظنّه جاهلٌ شحماً من السِمَنِ

باتت نوائحُهم تبكي مُعرسَهم   ينديْنَ من لَوْعةِ الأحزانِ والشَّجَنِ

على بناتٍ على بَعْلٍ على ولدٍ   على أثاثٍ على مالٍ على سَكَنِ

أحسنتَ في قتلهم والله إنّهمُ   أضرُّ من عابدي الطاغوت والوثنِ

بشراك بشراك إنّ الرعب مُهلِكُهم   على الدوام ولو فَرّوا إلى عَدَنِ

---

[١] اشارة إلى أن أحمد باشا سار تحت جنح الظلام ووصل إلى معاقلهم دون أن يشعروا به، وكانوا يظنون أن الليل ساترهم.

[٢] المانوية: قوم ماني، والفدن: البناء المشيد.

[٣] الزبي: الحفرة.

[٤] الفنن: الغصن.

[٥] الرتن: الأمطار الخفيفة.

[٦] الزمن: المبتلى.

ومنها قول السيد عبد الله أمين الفتوى ايضاً: [من الخفيف]

أحمد الله والصلاة على أحمدْ حيثُ فضلاً قد مَنّ في عَوْدِ أحمدْ
ذا السجايا محمودةٍ ليس تُحصى حُمِدَ القول منه والفعلُ أحمدْ
نَصَرَ الدين فيه مَولى البرايا واستقامتْ به شريعةُ أحمدْ
فغدا الناسُ آمنينَ بخير واطمأنَّ القُلوب والحالُ أحمد
فاقَ جَمْعَ الولاة بالسيف فخراً وكذا جوده الذي جاوز الحَد
لا تَسَلْ سَيْلَ جُودِ كَفَّيْهِ أصلاً عَجَباً كيفَ لا تُمَلُّ من المَد
رَحِمَ الله أهلَ بغداد فيه وزوى عنهم البلايا وابعد
وأزالَ الرَّدَى واصلَحَ فيه شَعَثَ الدين واحتوى ما تبدَّد
حينَ عُرْبُ العراق أبدوا فَساداً وعَتَوْا وجمْعوا من تمرُّد
ضمروا الشرَّ بينهم وتناجوا واستمدُّوا من كل باغٍ إلى نَجْد

<٨٦ب>

فأتاهُم جَمْعُ طُغاة بُغاة كل فردٍ منهم لعينٌ ومُرتَد
حُشِرَ المجرمون من كلِّ فَجٍ ظَنَّ لا ريب أنَّه فُتح السَّد
ما سَمِعنا بمثل ذا الجَمْعِ أصلاً كلُّ جَمْعٍ لهم رئيسٌ ومَسْنَد
شمَّروا ساعِداً وراموا قتالاً واستعدوا لحرب أمة أحمد
أيظنَ الكلاب أنَّ قُلوباً قاسياتٍ لهم تُقاوِمُ أحمد
بشجاعٍ ذَلَّت له قومُ كِسرى فمحا دينهم وللنار أخمد
أو نور الإله يطفيه أفوا ه من أبْطَنَ النفاق والحد
أوَ دين الإسلام يعلوه غيره حاشَ لله أن يكون ويُوجد
إن دين الإسلام يعلو يقيناً هكذا جاءَ عن رسولٍ مُمَجَّد

فالتقاهم بِصِدْقِ عَزْمٍ وحَزْمٍ ... في جَلالٍ كأنه الأسد الوَرْد[1]

فرمى الله رُعْبَه في قُلوبٍ ... قاسياتٍ لهم تشابه جلْمَد

فتَوَلَّوا هاربين منه حَيارى ... في البراري والكُلُّ منهم مُشْرَد

فمحى كلَّ مَن بغى وتمادى ... في فسادٍ بسيفه المُرْهَفِ الحد

وأبادَ البُغاةَ بالقطع فيه ... حبّذا سيفه ونعم المُقلَّد

شقَّ هاماً منهم وقطَّ رؤوساً ... كَتَب السيف فيه أمناً ومَهَّد

كم طريحٍ غدا له في البراري ... ثاوياً لم ينَل من الأرضِ مَلْحَد

هزَمَ الأحزاب منهم مَهْزَم ... الأحزاب يوم الأحزاب في نصر أحمد

ما سَمِعنا مَثيلَ ذا النَّصرِ أصلاً ... منذ فَقْدِ النبي لم يكُ يُعهد

هذه نُصرةٌ كنُصرةِ بدرٍ ... ضمَّ فيها العِدى قَليبٌ محدَّد

فغدا الدين في ذَراها أميناً ... عامراً منه ما وَهى وتجدَّد

شكرَ الله سعيه في غَزاه ... مُذ حَباه بالنصر فيه وأيَّد

<أ٨٧>

لا تَخَلْ جانب الوزير مُخلّى ... أولياء للعراق تأتيه بالمد

هِمّةُ الغَوثِ أدركته حقيقاً ... بأمثالها غدا القطب يُنشِدُ

الذي قال إنْ دعاني مُريدي ... مستميذاً أجبته لبيك تُنْجَد

كيف لا يُرتجى لأمثال هذا ... وله شُهرةُ التصرُّف في اللحد

والوزير الكريم دام سعيداً ... حُبُّه واعتقادُه فيه يشهد

وله في ضَريحه صدَقاتٌ ... نامياتٌ مآثِر ليس تُجْحَد

---

(١) الورد صفة للأسد، حين يكون لونه بين أحمر يضرب إلى صفرة.

عمَّرَ الصُفَّـةَ العظيمـةَ فيـه وأزالَ العتيـقَ منـها وجَـدَّد[1]

جـدد الله عُمْـرَهُ كـلَّ يـومٍ ما شدا الورق في الغصون وغـرَّد[2]

فبأسـمائك العِظـام إلـهي مِد في عُمرِه مـدى الدّهـر سَرمَد

إبقِـهِ وليـاً علينـا فانَّـا فـي مقـام الفنـاء لـولاه يـا فـرْد

أحمـد سـيدي أحمـدِ الله حَمْـداً هو من نَجِـد سـائر النـاس أحمـد

حيثُ خُصصتَ في خصـالٍ عـوالٍ كـم فتـوحٍ كـم نصُـرةٍ لا تُعَـدَّد

كـم هجـومٍ علـى العِـدى فـتراهم طَعْمَ صَمصـامك الصقيـل المـهنَّد

عبدُكـم عبـدُ اللهِ قـد نـالَ فَخْـراً فهو في مدحكـم كحسَّـان أحمـد[3]

دمْ بِعِـزٍ ورفعـةٍ ووقـارٍ وبِسَـعدٍ فـي كـلِّ يـوم مُمَجَّـد

فصـل

[غزو شـمر]

وبعد أن حلَّ في دار السلام، واستبشر بِحُلوله الخاص والعام، أتـاه الخبر أن عَرَب الجزيرة شمَّر، بعـد فِرارهـم قـد تَحَصَّنُـوا بالفيـافي النَّوازِح[4]، واعتقلوا بمتون السَّوابِح[5]. وانهم يشنون الإغارة على القـوى،

---

[1] إشارة إلى تعمير أحمد باشا لجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي قام به في هـذه السنة، وسيذكره المؤلف فيما يأتي.

[2] جمع ورقاء وهي الحمامة.

[3] يريد حسان بن ثابت شاعر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

[4] النوازح: البعيدة.

[5] السوابح والعابحات: الخيل

وينهبون أموال الورى، قائلين: إن[1] قصدَنا هذا الأسد، هربنا على مُتــون السابحات في القَدْفَد[2]، <٨٧ب> وإلاّ فها نحنُ على ظهور الخيل نَدَعُ كُـلاً من الأنام في هَولٍ ووَيْل. وأما أهلنا فقد بعدوا في دَو[3] الصَّحاصِح، وشـطَّ بهم المكان في الفيافي ربات الصحاصح، ولا سيما الشامية السَـبروت[4]، والقفر التي من سلَكها يموت.

فلما تحقق الوزير منهم هذا الكلام، وجَّه إليهم سَرِيةً تحت الظــلام، وكتيبةً كُتِبَ على بُنودها السَّعد، وسُطِّر على جِباه أسودها آيُ المجد. لــم يشعر بهم أحد، ولم يظفَر بهم رَصَد، بل ساروا أسرع من هُبوب الريــح، ومن نِكاح أم خارجة[5] بكل بَطَلٍ في الحرب للهموم مُزِيح، فـــي غُمـار النَّقْعِ يُرهِب منازله ومُعالِجه، فلم يشعروا إلاّ وجنود الله قد دَهَمَتهم، ولــم يُبصَر إلاّ عِباد الله قد بَغَتَتْهم، فبانَ لهم أن رأيهم كان سِفْسافاً[6]، وأن مــا فعلوه كان فاسِداً خِلافاً، ولكن لم يكن لهم بُدٌّ من القتال، حيــث أدركتــهم الرجال، بالسُّمرِ العَوال، فوقفوا صفوفاً، واصطفُّوا مئات وأُلوفــاً، وبَــرَزَ للهيجاء من الجانِبَين، كل بطلٍ يَقَرّبُ لمُصادمة الأجل والحَيْــن، وأُضــرِم

---

[1] في الأصل: من، وشطب عليها وكتب فوقها: إن.

[2] وقدقد: ربما أراد القدقدة وهي صوت كالحفيف، حكاية صوت الخيل السابحات.

[3] الدو: الفلاة.

[4] السبروت: الأرض القفر.

[5] يقال أسرع من نكاح أم خارجة، وهي امرأة من بجيلة ولدت كثيراً في قبــائل مــن العرب، كانوا يقولون لها: خِطب! فتقول: نِكح!.

[6] السفساف: الرديء من كل شيء.

بين الفريقَين الوطيس، وقامت حرب العَوان[١] من الطائفتين، هياجاً لأسود العَريس، فغنّى الصقيل وصفّق ألاّ سبيل، ورَغت السّهام، وعلاهم العثير والقَتام، ونُظِمَت الأبطال بألسِنة الأسِنَّة العَوال، ونُـثِرت، هـامُ الرجـال بالبيض الصقّال، وحارَبَ الشجعان، وجالَت الفرسان، وَوَدَّ الكميُّ الـهرب، من ذلك الهَولِ والعَطَب.

فلم تنقشع عن الأعداء سحابة القَتام، ولم تدبر عنهم بظهور الفجـر جيوش الظلام، إلاّ وقد حُكِّمَت المناصل في مفارِقِـهم <٨٨أ> ، ودعت الذّوابل المُناضل[٢] يقفو إثر هاربهم ومُفارِقهم، وانهزَمَت أبطال الأعـراب وفُلَّت جموع أولئك الأحزاب، واغتنم الجند الباقي من أموالهم، وأسَرَ أكثر نسائهم وأطفالهم. ثم أنهم عفَوا عن العيال، وأخذوا الأموال تَبَعـاً لسيرة سيِّدِهم، واقتفاءً بطريقة مُسَدِّدِهم، ثم قدموا إلى بغداد رابحين، ولأعدائـهم ذابحين.

ثم أن الشيوخ[٣] أولئك الفَجَرة، ورؤساء جبابرة الكَفرة، جاءوا إلـى الوزير ذي المروءة الباهرة، والسَّجيَّة الظاهرة الزاهِرة، واستأمنوه علـى أنفُسِهم وعيالهم، واظهروا التَّوبةَ من سيئ فِعالهم، فأمَّنـهم علـى ذلـك، وعُمِّرَت الطرق والمسالك.

وقد رأيتُ في بعض مجاميع أهل الأدب قصيـدةً للشـيخ حسين الراوي يمدح فيها الوزير في هذه القَضية، والصحيح خِلافـه إذ فحـوى

---

[١] حرب عوان: كان قبلها حرب.

[٢] المناضل: المباق في الرمي.

[٣] ربما أراد شيوخ..

القصيدة ومنطوقها يدلاّن على أنها كانت في غزوة ذي الكِفل المتقدم ذكرها[1]. والقصيدة هذه [من البسيط]:

يا دارُ ميَّة بين الرَّند فلَكاد ... من الحَجُون إلى أكناف اجياد

سقاكِ صوبُ السَّواري وابل هطل ... من شَمْأَل رائح لا زَعزَع غادي[2]

هَل الطُّلول من التنعيم عامرة ... وهل أُريدَ بها أيام إسعادي

وهل قواعي الربى بالفج يانعة ... بكل غصنٍ رطيب الفرع مياد

وهل إذا حُز ذاك الشِعب مغدقة ... وامشر الطلح في مستنقع الوادي[3]

وهل حجيج دمشق الشام مُنحدرٌ ... من الثنيَّةِ يحدو إثره الغادي

وهل مشاعِر ذاك الحي عامرةٌ ... بمُحرِمٍ حالقٍ أو ناجرٍ فادي

نعم مَشاعِرُها لم تَخْلُ من سَكَنٍ ... وكل أيامها أيام أعيادي

<٨٨ب>

قد كنتُ فيها قريرَ العينِ واجده ... لم أشكُ قِلَّة ملبوسٍ ولا زادِ

حتى غدَت عيسٍ ترحالي تؤم بنا ... أكناف دجلة من أطلال بغداد

فلا رعى الله حاويها ولا وَرَدت ... ميجنَّةً لا ولا فازت بأنجادِ[4]

---

[1] ومما يؤكد أنه نظمها بمناسبة معركة ذي الكفل، ما ذكره السيد محمد سعيد الراوي، وحسين الراوي هو أخو جده الأعلى، أنه قد نظم هذه القصيدة بمناسبة انتصاره على عرب الجزيرة الذين عاثوا فساداً بقطعهم السبل وشنهم الغارات عند مقدمه من البصرة إلى بغداد، وذو الكفل موضع معروف على هذا الطريق. تاريخ الأسر العلمية ص٤٧.

[2] السواري: المرتفع، والشمال: ريح الشمال، والزعزع: الريح الشديدة.

[3] أمشر الطلح: اخضر الشجر.

[4] موضع بأسفل مكة على أميال.

قد خلّفتني غريباً في مواطنها ... وإن حُففتُ بأحفادٍ وأولادِ

ثَكِلتُ فيها سروري وافتقدتُ بها ... أنسي فها أنا في أيام إحدادي[1]

بغدادُ داري ونجدٌ مُنتهى أربي ... وبالشُبيكة اسعافي واسعادي[2]

عَزَّ الدواء لإسعافي وتسليتي ... إلاّ إذا عَطَفَ المُستنصر الهادي

شبلٌ بدا ضيغماً من تحت سابغةٍ ... طودٌ بدا شامخاً من فوق أطواد

عاثت بحوزته الأعراب باغية ... وشفّعوا البغي افساداً بإفساد

فعاف كلُّ لذيذٍ من معيشته ... حتى يرى أمرهم في قيد مُقتاد

واستقدح الحرب من عُوده، حميته ... وباشر الطعن فيهم غير مرعاد

وظل يعمل في التدبير همته ... تحت السوابغ[4] لا يلوي إلى الناد

حربٌ عوانٌ تولاّها فانتجها ... أمنا تعقبها في غير ميلاد

لما أدار رحاها قال قائلهم ... هذا المُهلهل أم هذا ابن شدّاد[5]

أبو الفتوح حليف النصر ساحته[3] ... مناخُ عيسٍ لورّاد وقُصّاد[6]

مذ حيعل السيف لبّتهُ جماجمهم[7] ... تسعى لحضرته من غير أجساد

وصار أسنى افتخارٍ عندهم هَرَبٌ ... لما رأوا أحمد منهم بمرصاد

---

[1] الإحداد: الحزن وترك الزينةعلى ميت.

[2] ماء او موضع بطرق الحجاز.

[3] في الأصل: خليف.

[4] السوابغ جمع سابغة وهي الدرع.

[5] المهلهل، هو عدي بن ربيعة التغلبي، خال امرء القيس الشاعر، وأحد شجعان العرب. وابن شداد، عنترة العبسي.

[6] هذا البيت مكانه في الاصل بعد قوله (عز الدواء لاسعافي..) وقد نقلناه إلى هنا لاتفاقه وسياق القصيدة.

[7] حيعل: قال حي على..

صارت ثُريّاهم فـي كـل هاويـةٍ بنات نَعشٍ بـلا طَـوقٍ ولا هـادي
واستوطنوا البيد كالاورال نـافرةً[١] تـؤم قَفـراً بـلا مـاءٍ ولا زادِ
أو كالنعام وصَوْبُ الريح مقْصَدهـا مُستَنفَراتٍ بـدداً خـوفَ صيَّـادِ
لامَتْ بنـو لامِ حَمامـاً وغانِمـها[٢] أضحى غنيمةَ أعـرابٍ وأكـراد[٣]

<٨٩أ>

سيوفه أفترت شـهر الصيـام بـهم فكـان افطارُهـا تفطـير أكبـادِ
ما المِهْرَجانُ وما النَّيروزُ يوم غـدَتْ رؤوسهم جمعاً مـن غـير ميعـاد
هذا جزاء رُغاء البُهْمِ مـذ خرجـوا وبدّلـوا طاعـة المَولـى بإلحـادِ
أدامـكَ الله يـا مـن جُـلُّ هِمّتـه حمايـة الحـق لا تبكيـتُ حُسّـادِ
يا روحَ بغداد رِفقاً بالقَطين فهم[٤] بـلا حُضـورِكَ أمـواتٌ بألحـادِ
ويـا سِـراجَ رُباهـا لا تخلّفـها بظُلمـة الجَـورِ للمُسـتَتبِع العـادي
ويا خَفـير حِماهـا كيـف تتركـها فريسةَ الحاضِرِ الأهلـي والبـادي[٥]
يا خالقَ الخَلْق مَكّنْ رُكن دولته كمـا تَمكّنَـتِ الغـبرا بأوتـادِ
واجعل مواطِنَهُ دار الســلام وكُـن لـه المُعيـن بألطـاف وأمهـادِ
ودَعْ عُبَيْدكَ ذا الـراوي بحضرتـه يروي مفـاخره فـي خـيرِ إسـنادِ

---

(١) جمع ورل دابة على خلقة الضب إلاّ أنه اعظم منه يكون في الرمال.

(٢) اشارة إلى بكر الحمام وغانم الحسان من شيوخ شمر، وقد وردت بعض أخبارهما في هذا الكتاب.

(٣) هذه اشارة إلى ان جيش أحمد باشا كان مؤلفاً من العرب والأكراد.

(٤) القطين: جماعة القطان الذين يقطنوّن موضعا لا يبرحونه.

(٥) الحاضر: المقيم في المدن والبادي: المقيم في البادية.

وقد رأيتُ في بعض المجاميع أيضاً مدح الشيخ المذكور الوزير بأبيات مُهملة مكتوب في صدرها: ولما مدح السردار[1] المُكَرّم هُمام العصر أحاد المُدَّاح الكُمّل، وصار طِرْسُ مَدْحِه مُهمَلاً تام الرَّوْع، مَدَح المادِح والممدوح مع الحصير[2] والكَلال، والله المُمِد المُمَهِّد للأحوال.

والأبيات هذه [من الوافر]:

حُسامُ الرَّوْعِ سَلَّ كما أرادا   وكم طَرَدَ العدى سَرْداً طِرادا[3]

ورامَ محامِداً ودَرَأ أموراً   ورَدَعَ مارِداً أمرَدا وكادا

وسارَ وأمَّ أعداءً وساما   مُلوكاً كادَها كرماً وسادا

أُحاوِلُ مَدْحَهُ لما أراهُ   واعدم طِرس مدحك والمِدادا

وهاهو صارَ ممدوحاً لكلٍّ   ومُهْمَل مَدْحِهم صار المُرادا

<٨٩ب>

ودُرُّ المَدْحِ عاذِلُه دَواماً   وساعَدَهُ الكلام كما أرادا

عَداكَ الله مَدّاحاً لطَودٍ   لكلِّ مؤصِّل الأعلام عادا

أأحمدُ كلُّ لاسمِك كُلُّ مَدْحٍ   ولو طاعَ الكلامُ له وَهادا[4]

وأهلُ العِلم لو راموا كلاماً   لِمَدْحِكَ ما رَوَوْا إلاّ وِحادا[5]

---

[1] رتبة عسكرية تعني: قائد الجيش، وهي تماثل كلمة سر عسكر التي نالها أحمد باشا هذه الرتبة بوصفه قائداً عاماً للجيوش العثمانية التي توغلت في إيران آنذاك.

[2] الحصير: المحبس.

[3] السرد: المتتابع.

[4] هاد الرجل: رجع إلى الحق، وربما أراد: تهود هوادة وهو اللين والترفق.

[5] أي أفراداً.

وكم لـكَ حاوَلَ الإطراءَ راوٍ   ومَهَّدَ للمرام لـه مِهادا
وما وَصَلَ المُرادَ وما دراهُ   سِواه وَرَدْ عَوْدُه وِدادا
وأصدَرَ وِرْدَ مَنْحِكُم دُعاءً   وساعَدَهُ الدُّعاءُ كما أرادا
ودام الله سَعْدَكَ طُولَ دَهْرٍ   وعَوْدَكَ السُّرُور كما أرادا

وقد عارَضَها المُنْلا سليمان الكُردي بقوله [من الوافر]:

سُعُودُك دامَ مَوْصُولاً مُرادا   وحُكْمُك مُحكَماً حالكَ مُرادا
وعُمرك طَولَ المَوْلَى مَداهُ   كعدٍّ للعُمْرِ أعواماً عِدادا
وسعدُك سامَ للأطوادِ طُولاً   على هامِ السُّها علا وسادا
حُسامُ المُلكِ صارِمُه المُسمَّى   لذا كل الملوكِ الكُلَّ كادا
أُولي الأمرِ الملوك رأوه أهلاً   ولما سُلَّ صار لهم سُدادا
وساسَ المُلك والأمصار طُرّاً   وللإسلام مَهَّدها مِهادا
هو السَّردارُ أحمدُ والمُسمَّى   حُسامُ المُلكِ صارِمُه المُرادا
نَواهُ لوى العِدى كُرهاً وأمناً   له كل العِدى والسِّوى ودادا
أما وعساكِرِ الإسلام أولا   سواه للعساكر والسَّوادا
وكل مُطَهَّمٍ طَودٌ عُلاه   له الكُردوس أهلكَهم طِرادا
صوارِمُهُ لَها لِلهامِ فَتْكٌ   له ركع العِدى وذُعُوا رَمادا

<١٩١>

وحُمر السُمر صار لـــــها طـلاءً	دمُ الأعـداءِ وعـادَ لـها مِـدادا
وكل مُطهَمٍ لو صــــار صبعـــلاً[1]	وامسى الـدرع مكسـوا سَـوادا
وحِس الأُسْدِ صارَ له ارعِــواءٌ[2]	رعـوداً والرمـاح لـــها رِدادا
وسَـــنٌ سوارِمـاً للـرّوْعِ لمّـــا	عـدا الإسـلام املاكـاً عِـدادا
وطار كَرى على ما صادَ رَوْعــاً	وحـوّل للكَـرى أمْـداً منـــهادا
لُمـاه كـــالمُدامِ وكـأسُ راحٍ	لآلٍ ميـــــمطةٌ دُرَرٌ عِــــدادا
أطـالَ هَـواه آمـالٌ وهَـــولٌ	لِسَـردار العسـاكر والمُـــرادا
هو السَـــردار والمَلِـكُ المُسـمى	حُسامَ المُلكِ مَسْـعَد المُلـك عـادا
كمالُ العصر كم اعطــى لُكوكـاً	وحمـراً كمُـلاً مـلأ عـــدادا[3]
وكَوْمـاً لاعِـدادَ لـها ودهمـاً[4]	وأملاكـــاً وأمـــوالاً مِـــدادا
عطاهُ على المَـلا كَرَمـا مَدامـاً	هو الميهطالُ كم أروى عِـــهادا[5]
مكــــارمِ أحمـــدٍ حمــــدٌ دوامٌ	محامِدُ حصرهـا أحصـاهُ عـادا
سرى سار إلى الأمصـــار عـادٍ	لـــه دول العســاكر مـــا أرادا
حوى كل الممــالك وهـو سـاعٍ	لإدراك العــلا أمســى عمــادا
وكـل السـؤل أدركـه هُمـــامٌ	مـع المـأمول أولاه والمـــرادا
لـــه دار السـلام حكمـاً حماهـا	وســمناها ومـــهّدها مـــهادا

---

[1] الصبعل هنا: الحمار الذاهب الوبر.

[2] ارعوى ارعواءً: كيف وانزجر.

[3] لكوك، جمع لُك: وقد تقدم شرحها، والحمر الكُمل: النقود المضروبة ذهباً.

[4] الكوم: كل ذي حافر من بغل أو حمار.

[5] العهاد: مواضع الوسمي من الأرض.

ملوك العصر اسماهم محلاً سمى طُرّاً له الاسعاد عادا

ودارُ جِماه حارِسُها أسود وأسماء الإله لها عِمادا

وطه والدهر والطُّور عمّا ورُوماً والرعد هوداً ومادا

سوراً سواراً لأحمد كل ساعٍ أحاطوا للحمى رصدا مهادا

وكل السوء والمكروه ولّى بحمدِ الله والأسماءِ عادا

<٤٩ب>

فيا مَوْلى الورى والسؤل مَهْلاً هداكَ الله أوْلاك المُرادا

لك مملوكٌ أهدى سِمط مدحٍ لأنْ كله دُرَر عتادا

هو المُلاّ مُرَصّعها لأنْ هو السِّحر الحَلال حُلاً وعادا

عروس المدحِ ماسَ لها دلالٌ وكاس الراح مهما دار دادا[1]

كلام علَّلَ السُّمار طُرّاً وسامِعه ومُورِده حدادا

وأهل العصر والعلما أرادوا لإدراكِ ولَذَّ لهم لِدادا

كما الحكماء الأولى راموه دهراً وما وصلوا وما حصلوا مرادا

وهاك رواح معطارٍ لمدحٍ مُخَرَّزَة له أهدى وعادا

ودُم واسلم وسم واسمح لداعٍ وَصِيلْ آمال مملوك مُرادا

وصلى الله مع أكرم سلام على مَولى لرُسلِ الله سادا

محمد أحمد طه رسولٌ رسول الله مأمولُ المَعادا

وعَمّْ الآل سادات كِراماً له دانوا وأوْلاهُم سَعادا

---

[1] داد: صار فيه الدود.

مدى مــا ســحَّ هطَّــال هَمُــوعٌ   على الأطلال أمطــاراً عِـدادا[1]

فصـــل

[تعمير جامع الشيخ عبد القادر]

وفي السنة التاسعة والثلاثين بعد المائة والألف[2]، عمَّــرَ الوزيــر المذكور صُفَّةَ امام المُوَحِّدين، وتاج الفاتِحين، الهَيْكَل الصَمَداني، والنــور الرُباني، سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني، قدَّسَنا الله بأســراره، وأفــاضَ علينا وعلى المسلمين أشِعَّةَ أنواره، فأحكَمَ منها الجُــدران، وشَــيَّد منــها الأركان، فَغَدَت جَنَّةً مُزَيَّنَةً بالأصطُوانات، مُزخرَفَةً من جميع الجهات[3].

وقد عَمِلَ لهذا البِناء السيد عبد الله أمين الفَتْوى تاريخين، وهمـا الآن منقوشان على جِدارها[4]، مُكتَنِفاً باب<٩١أ> الحَضْرة، أحدهما قوله [مــن الخفيف]:

إنَّ فَحلَ الرجــال قُطــبٌ سَــديدٌ   وعليــه رَحــى الأنــام تــدورُ

---

[1] العداد: العطاء.

[2] أولها ٢٩ آب سنة ١٧٢٦م.

[3] يريد بالصفة الظلة التي كانت تشغل أرض الرواق الشرقي في جامع الشــيخ عبــد القادر الكيلاني، وكان مصطفى الجراح، وكيل الخرج في ولاية حسين باشــا قــد اتخذها في الجامع عند تعميره اياه (الغرابي، عيون أخبار الأعيــان، مخطــوط)، وكانت هذه الظلة مسقوفة بجذوع النخل، فقام أحمد باشا برفع السقف على أعمــدة ربما كانت نفسها التي ترى الآن.

[4] لا أثر لهما الآن، وقد أثبت الكركوكلي بيتي التاريخ فقط من كل قصيــدة. دوحــة الوزراء ص٢١.

وكراماتُـــهُ مـــدى الدَّهــرِ تُتلــى ولــهام العــدى لــها تكســـيرُ

قد وَهَــت صُفَّــةٌ لـــه وتداعــت لسقوطٍ والسَّقْف كـاد يطــيرُ[1]

بَقِيَتْ بُرهـــةً مـــن الدهــر هــذا شــأنها والعقـول فيــه تحــيرُ

كلُّ مـــن جــاء زائــراً لِيُصلّــي خافَ وارتـــاعَ واعــتراه نُفــورُ

وإذا الحــقُّ رامَ انسَـعاد شــخص اجتبــاه لكـــل خـــيرٍ يصـــيرُ

فــالوزير الســعيد أحمــد باشـــا حَسَن الأصلِ والشجاع الجســـورُ

قـــد رآهــا مختلــــةً تتــــهادى لسقوطٍ مُــذ جــاء يومـــاً يــزور

مُذ رآها الضِّرغام قال: اعمُروهــا فَبِنــا الأمــر للبنـــــاء ينـــورُ

تــم تعميرهــا وقَــرَّت عيـــونٌ وقلــوبٌ سَــرَت وزاد حبـــور

فإذا قيــل: هــل جــزاءٌ لــهذا؟ قال ســبط الولــي: أجــرٌ كبــير

للمكافــاة أفصـــــحَ التـــاريخ: الجزا بالجنـــات قصــرٌ وحــورُ

وثانيهما قوله رحمه الله تعالى

صُفَّة القُطْب قديماً وَضعُها وَضعٌ حَسَن لكن الدهرُ دَهاها ومحا منــها الحَسَــن

وتداعت لسقوطٍ وانحنت منها الجــذوع واستمر الدهر خوفاً سالكاً تلك السُّــنن

كلما رامَ لها القُوّام تعميراً رأوا أمرهـــا صعباً شديداً ليس يخلـــو عَــنْ مِحَــن

مذ أراد الله تعميراً لــــها حيــن أتــى وقتُها سخَّرَ سرداراً كريمـــاً ذا مِنَــن

<٩١ب>

أحمدَ المحفوفَ بالألطافِ من ربِّ العُلا حَسَن الأصل كريماً ومُشـــاراً مؤتمــن

جاء يوماً زائراً شوقاً إلى قُطبِ الرجـال فرآها في اختِــلالٍ وانحِنــاءٍ ووَهَــن

---

[1] في الأصل: والسقط.

مذ رآها جادَ في تعميرهـا مُستبشـراً وسخا بالمال بالتعمير أفضـالاً ومَـنْ

تممـت والحمـد لله علـى إتمامـها فغدت في حينها تَحكي قصوراً في عَدَنِ

من رأى تعميرها يدعو ويتلـو قولـه باعتقاد إنّمـا يعمـر بيـتَ الله مَـن[1]

فارفَع الكَفَّيْـنِ وادعُ قـائلاً: تاريخـها عَمَّر اللهم ربّي عُمَـرَ أحمـد الحَسَـن

١١٤٠

[في إثباته النبل]

وفي هذه السنة رمى هذا الأسَد الضِّرغام، والشـجاع المِقـدام، ذو المتانة التي جاوزت الحَد، والقوّة التي أرْبَت على قوة الصخر الصلْد، نَبْلَـةً نَشِبَت في الحديد، على أن الضرب كان من بعيد، وما ذلك إلاّ لقوة بَنانـه، ومتانة يده دون أخْدانِه، بل ما ذلك إلاّ لوفود هَيْبَةٍ فلانَ لها الحديد فَرَقَـاً، وتكاثر أبَّهته حتى امتطى بها صَهْوةَ ما يريد ورقى، علـى أنّـه مشـهورٌ بجَودة أنواع الشجاعة، معروف بين الفرسان بحُسْنِ هذه الصناعة، حتـى أنه يجعل القِرْطاس مُعلّقاً في الهواء[2] من فوق، فيضربـه بالحُسـام مـع اضطرابه وعدم استقراره، فيقطعه نِصفَين كأنه قُصَّ بمِقَص.

ومن عجيب مَتانته أنه يَبِل اللبد ويَدْرُجُه فيضربه بالسيف فيقطعـه. وأنه يُجيد الطَّعْن بالسَّمهرية، ويُحْسِن اللعب فوق الخيول العِرابية، حتـى إنه الغاية في هذا الشأن، والمُفرد في هذا النوع ليس له ثان. وقد أبصرتُـه

---

[1] في القرآن الكريم ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ (التوبة، آيـة ١٨).

[2] في الأصل: الهوى

حين خَرَج لاستِقبال بعض السرايا إلى هَوْر <٩٢أ> عقَرقُوف[1] بوُجوه عساكره وجنوده، وأعيان أُمرائه وأعلامه وبُنوده، وخُلفائه من الأعراب ونُدمائه والأصحاب، فأبصرتُه ذلك اليوم لَعِبَ مع الفرسان، وجالَ مع الكُماة والشجعان، فلم أرَ في ذلك الجُحفل من يجيد اللعب بالسِنان، غير هذا البطل. وقد أرَّخ السيد عبد الله المذكور[2] رَمية النبل بقوله [من الطويل]:

لداود إن لانَ الحديدُ كرامةً   فقد لان فولاذٌ لأمةِ أحمدِ

وزير رمى سهماً بقوة ساعدٍ   إلى نحو فولاذٍ صقيل مُمَرَّدِ

فلان له جسم الحديد مهابةً   لضاربه السيف الصقيل المُهنَّد

وزيرٌ أطاعت أمره كلُّ مِلةٍ   أعاجم أعرابٌ حَوَوْا كل مُقْصِد

فساعد ربّي ساعداً قد رمى به   ليرمي دهراً في الورى كل مُعتَدِ

فلا شكَّ هذا الرمي منه لقوة   بساعده الفتّاك في كلِّ مُلحد

ولكن لهذا الرمي في الكَوْنِ حِكمةٌ   تدلُّ على نصرٍ عزيزٍ مؤبد

وأن شديد الباس طوعاً بكلفه   كما طاع ذو باس شديد لساعِد

فمن كان للتاريخ أهلاً وقوله   سديداً به تقفو الرواة وتهتد

---

[1] عقرقوف، برج عال مبني باللبن والبواري، يبعد عن بغداد شمالاً بـ١٧ كم، يمثل لب المعبد المدرج (الزقورة) الخاصة بمدينة دور كوريكالزو، التي شيدها الملك الكاشي كوريكالزو الأول (١٣٨٠-١٣٧٠ق.م)، وهذا البرج يقف على ربوة مرتفعة يحيط بها منخفض كبير (هور) كانت تكثر فيه آجام البردي نتيجة لانسياب نهر الفرات إليه في القرون المتأخرة.

[2] من الواضح أنه أمين الفتوى المتقدم.

ففي مثل هذا الرَّمْي يشدو مؤرخا[1]: لقد ذابَ جِسْم من حديــدٍ لأحمــدِ[2]

فصـــل

[حرب الأفغان]

وفي هذه السنة، بينما الناس في السرور الأعظم، والحُبــور الأتــم، والراحة عن النَّصَب والإزاحة للهموم والوَصَب[3]، وإذا بالبريد السُّــلطاني قادمٌ بالكتاب الخاقاني آمراً للوزير بالمَسير إلــى قِتــال البُغــاة الأفغــان، وبالفتح للمدينة العُظمى أصفَهان، وذلك أن الأمير محمــود <٩٣ب> لمــا مات استولى الأمر من بعده من بني عمّه أشْرَف خان، فجلس على كُرسي الامارة[4] وملّك حَوْزَةَ أصفهان، وراسَلَ السُّــلطان الأعظــم، والخليفــة الأقدم، يطلب منه البلاد التي استولى عليــها، والقُــرى والضِّيــاع التــي حَواليها، مُدَّعياً أنه أحقُّ بهذه البُلدان، لاستيلائه علــى كُرســي المملكــة أصفهان.

---

[1] في الأصل: مارخاً.

[2] حساب الشطر ١١٣٩.

[3] الوصب: الوجع والمرض.

[4] اختار رؤساء القوى الأفغانية التي كانت تحتل أقليم ايران الشرقية الأمير أشــرف في العاصمة الصفوية السابقة أصفهان ١٥ رجب ســنة ١١٣٩هـــ/٢٢ نيسان ١٧٢٥م بعد أن قتل عمه الأمير محمود، وكبار المقربين إليه، وما أن تسلم السلطة حتى نقض ما كان سابقه من معاهدة مع الدولة العثمانية، فطالب بالقسم الأعظم من غربي إيران وآذربيجان، على ما سيذكره المؤلف. ينظر عنه تــاريخ جلبــي زاده ص٧٣-٨٧ و Lockhart, L., The Fall of the Safavi Dynasty, 350.

ووَرَد مع البريد إفتاء شيخ الإسلام في هذا الزمان[1]، بقتال البُغـــاة الأفغان[2]، فسار الوزير بجَحافِل أكثر من الأولى عَدَداً، وأوفَرَها معونـــةً ومَدَداً، والتقى العسكران بين هَمَذان وأصفهان، وقامتِ الحربُ على ســاق، وقُطِعَت إذ ذاك رِقابٌ وأعناق، وحمي الوَطيس، ورَجف الجيش الخميـس، وكثر القتل في الأفغان، وولُّوا هاربين نحو أصفهان.

فبيناً العسكر في أمَنَة عظيمة، وبُشرى جسيمة، وإذا بقبائل الأكـــراد ولَّت على أدبارها، واقتفى بعضُ الجنود على آثارها، من غـــير مُضايَقَـــة لذلك، ولا ضرورة داعية لما هنالك. فلما علـــم الوزيـــر هـــذا الخَطْـــب الخطير، شَهَرَ سَيْفه لِيَرُدَّهم، وضَرَبَهم ليَرْدَعهم، فلم يجد لذلك نَفْعـــاً، ولا أوْجَب زَجْراً ولا رَدعاً. ولم يَزَل البعض يَتْبَع الآخر إلى أن لـــم يبـــقَ إلاَّ الوزير وخاصته، فلما لم يُمكِنه المُقام في ذلك المَقام، رَجَع كاظِمـــاً علـــى جَمْرِ الغَضا، قد ضاقَ من شِدَّةِ غَضَبه عليه الفضاء، مُتَكَدِّراً بوقـــوع هـــذا الأمر العظيم، مُتَحيِّراً في كيفية اتِّفاقِ هذا الخَطْب الجسيم، حتى قيل أنـــه لَيَتَمَنَّى الموت العاجل، ولا رأى مثل هذا الأمر العاطِل.

وجاء إلى كَرْمان شاهان، والأفغان- كمـــا تقَـــدَّم- <٩٢أ> تَرَكـــوا خيامهم، وهربوا نحو أصفهان. هذا واختلف الناس في الداعي للتولي مـــن غير ضرورة تدعو لذلك، فقيل: أن الأفغان سَحَرُوهم، وقيل: أن الأكـــراد أُوشُوا فخانوهم. وقيل: أن الوزراء الذين هم تحت طاعة الوزير الأمجـــد،

---

[1] هو عبد الله أفندي المعروف بوصاف، توفي سنة ١١٧٤هـــ. قـــاموس الأعـــلام ص٣٠٩٩.

[2] ينظر نص الفتوى في تاريخ جلبي زاده ص ٨٩.

أبي الفتح الوزير أحمد، حَسَدوه على هذه الرِّياسة العامة، والدولة الفاخِرةَ التّامة، فدبَّروا هذا الأمر الباطل، وزيَّنوا بالغَدْرِ والخيانة جيد حَسَدِهم العاطِل. وقيل، وهو القريب: إنهم أُصيبوا بالعَيْن، والعَيْن حق[1].

قال والدي- حفظه الله-: والأقرب عندي أن عساكر[2] استندوا إلى قُوَّتِهم، واعتَمَدوا على كَثْرَتهم، واستعانوا بشوكتهم، ولم يعبأوا بالأعداء لِقِلَّتِهم، حتى أنهم ليقولون: مَن الأفغان حتى يِقابِلُونا؟ ومن أين لهم قلوب حتى يقاتلونا؟ فوكَلَهم الله إلى أنفسهم، وهذه عادته- تعالى- مع من يستند إلى قوته، ولم يُفَوِّض الأمر إليه تعالى وإلى مشيئته، وإلاّ فالأفغان بالنسبة اليهم كالشّامةِ البيضاء في الثور الأسود، ومع ذلك لا مَعرِفة لهم بأحوال الحرب وتدبيرها، بل أنهم- كما قيل- لا يَعرِفون الكَرَّ ولا الفَرَّ، ولا غير ذلك مما يتعلق بأحوال الحرب، فإنّا لله وإنا إليه راجعون[3].

---

[1] تشير وثيقة غير مؤرخة، صادرة في تلك الأحداث فيما يبدو (دفتر مهمة ١٣٢ ص٨) موجهة إلى القضاة العاملين في ولايات بغداد وشهرزور والموصل وضباط الطوائف العسكرية فيها إلى "أن بعض الجنود من الذين يقومون بغارات على بعض المواقع، يغتنمون فرصة عودتهم منها لترك الخدمة العسكرية والعودة إلى أوطانهم، يدعون أن مهمتهم قد انتهت. وقد نص الحكم على عدم السماح لهم بالمرور وارجاعهم إلى وحداتهم العسكرية ما لم يكن بأيديهم رخص وتصريحات عامة بعودتهم إلى أوطانهم من والي بغداد وسر عسكر جانب همدان أحمد باشا".

[2] هنا كلمة غير واضحة.

[3] وسبب ذلك هو أن أشرف خان أخذ يبث دعاته في الجيش العثماني داعين إلى عدم وجود مبرر لحرب الأفغان، وهم الذين لا يختلفون عن العثمانيين ديناً ومذهباً، ومن ثم فإن حرب كهذه غير شرعية. ينظر تاريخ جلبي زاده ص٨٨-٨٩.

ثم لما بلغ الأمر لأمير المؤمنين- أدام الله ظِلَّه علــى المسـلمين- أرسل يسأل الوزير عن هذا الأمر الخطير، ووَعَــده بالعســاكر الكثــيرة العَدَد، المتواصلة المَدَد، والنَّفَقَة الجزيلة، والميرة الكثيرة الجليلــة، وأنـــه العام <٩٣ب> القابِل، يُقابِلهم بالجيوش والجُحافِل، أضعاف الأول بكَــرَّاتٍ عديدة، وأزيَدُهم شَجاعة وقوة شديدة.

ولما قَرَأ هذا الفَرمان المُشتَمِل على مزيد الانعام والاحسان، التَمَــس شيخ الإسلام، المُفتي ببَلَد السلام، العالِم العَلاَّمة، الحَــبْر الفهَّامــة، شــيخ العِراق على الإطلاق، ذو التحرير المُبين، مولانا الشيخ ياسين[1]- رحمـــه الله رحمة تَدَفَّقَت حِياضها ونافَت رياضها- من والدي- حفظه الله تعــالى- أن ينشئ[2] له كتاباً لحضرة هذا الوزير، مُشتَمِلاً على التســلية، وجامِعــاً أصناف التَّهنِية، فأنشأه كتاباً هو السِّحر الحَــلال، تُضــرَبُ لـــه نواقيــس الأمثال، إلاّ أنه- لطول العهد- لم يبق في ذِكْري منه شيء يُعْهَد.

---

[1] ترجم له معاصره عصام الدين عثمان بن علي العمري الموصلي (الروض النضر، ج٣، بغداد ١٩٧٥، ص٧٢-٧٣) ترجمة لم تتضمن إلاّ أوصافاً في مدحه، وجـــاء فيها أنه "إمام في العربية"، وسكت عن تاريخ وفاته. وهو غير ياسين بن محمـــود المفتي مفتي الموصل المتوفى سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م.

[2] في الأصل: ينشأ.

فصـــل

[الحملة على الأفغان]

وعلى رأس الأربعين بعد المائـــة والألـف[1]، تكـامَلَت العسـاكر والجنود، وعَزَموا على ذلك الفتح المقصود، فلما وصلوا أصفـــهان، رأى أولئك الأفغان، أن لا قِبَل لهم بهذه الجحافل، وتيقّنوا أنْ لا طاقَة لهم علـى بعض هذه القبائل، فتَوَسّلوا بالخليفة أمير المؤمنين، وتضَرّعوا إليه مُنقادين (وطَلَبوا الصلْح (والصلْح خيْر)[2]، وعَدلوا عن المُكافَحَـــة والضّـير)[3]، فتحركَت السّجايا المَرضية، والخِلال الزّكية، بمُتاركَتِهم وتَرْكِ مُعارَكَتَـهم، (واصطلحوا وحدّوا الحدود فيما بين المملكتين، وكتبت سـجلات مشـتملة على شروط فيما بين الدولتين، والتزم الفريقان تلك الشروط، وكانت سـبعة على ما شوهد في السجلات[4]، ولما تم الصلح)[5] رَجَعَ الوالـيـــا- رحمـه الله- إلى كَرمان شاهان، بتلك الأبطال الفرسان.

تَتِمّة: وكانت فتوى الأفغان، الدّاعيا <١٩٤أ> لهم إلى هذا العِصيـان، مضمونَ قولِه صلى الله عليه وسلم (الأئمـة مِـن قُرَيْـش)، وهـا نحـنُ

---

[1] أولها: ١٩ آب ١٧٢٧م.

[2] النساء، من الآية ١٢٨.

[3] لم ترد في المتن وإنما أثبتها المؤلف في الهامش.

[4] نص المعاهدة في معاهدات عمومية معاهدة سي، استانبول ١٢٩٤هـــ، ص٣١٢-٣١٥.

[5] ما بين قوسين أثبته في الهامش، بدلاً من عبارة شطب عليها ونصها (وعفـا عمـا ارتكبوه، وصفح عما اكتسبوه، وهذا من شيم الملـــوك؛ بصـــدون عـن عـوراء الصعلوك).

قُرَشيُّون، نسبتنا ثابتة إلى خالد بن الوليد بالاتّفاق، فنحنُ أحـــقُ بالإمامــة منكم وأولى، ولا يَجِب علينا لتّباعُكم ولا إطاعتَكم، لِكَونِكم جائرين علـــى غير حقٍ في دعواكم، إذ من شَرْطِ الإمام كَوْنه قُرَشيّاً مُجتَـــهداً، وهــذان الشرطان مفقودان فيكم. على إنّا نقول: لا إمامة واجبة عقلاً وسمعاً، لقولـه صلى الله عليه وسلم (الخِلافةُ بَعْـدي ثلاثــون سـنة، ثـم تكـون مُلْكـاً عَضنُوضاً).

وأما قوله- صلى الله عليه وسلم- فالآن نحـــنُ بمُقتَضـــى الشَّــرْع الشريف لا يجب علينا بعض إطاعتِكم، ولا الإقرار بإمامتكم، بـــل نقـــول ونعتقد: أن الإمامة لنا لا لكم. ونفعل في هذه الأمصار والبلدان ما يجـــب على الإمام العادل في هذا الشأن.

وأما فُتيا آل عثمان فمضمون قوله صلى الله عليه وسلم (إذا بُويــــع لِخَليفتَيْنِ فاقتُلُوا الثاني منهما). وإن سلطاننا- دام ظلُّه- هو المُبـــايَع الأول، وإنه في هذا الشأن هو ذو الطَّولِ الأطول، فيجب علينا معاشِر الإســـلام[1] أن نقاتلكم حتى نَّقتل إمامكم، ونحارِبكم حتى نقطع عـــن ذلِ منكـــم، هـــذا كلامكم!

وأما حديث (الأئِمّةُ من قُرَيْش) فهو صحيح عندنا، لكن نحتاج فـــي إثْبات نَسَبِكم إلى دليلٍ، ولا يقنعنا في ذلك قالَ عن قِيل <٩٤ب>

سلّمنا ما ادعيتموه لكن نقول: إن عادتنا- معاشِـــر الـــروم- وقـــت المُبايَعة، أن نُبايع نقيب الأشراف، وهو يُوكّل سلطاننا في الإمامة، فصـــدّق

---

[1] يريد أهل الإسلام.

علينا الحديث صدقاً جليّاً لا كما صدَق عليكم- كما تزعمون- صدقاً خفيّاً، على أنه مُعارَضٌ بقوله صلى الله عليه وسلم (اسمَعُوا وأطيعُوا وإن ولّي عليكم عبدٌ حَبَشي) فما وجه الجَمْع؟ وما يكون الجواب عنه لو استدللنا به؟ فسُلطاننا هو ذو الصَوْلَةِ والأُبّهة، والقوة البالغة في الذبِّ عن المسلمين، فهو أحقُّ بالإمامة. وكيف يَثْبُت ما ذكرتم وقد جوَّزَ أهل الشرع إمامةَ غيرِ مُستَجمِعٍ لشروطها ولو فاسِقاً أو جاهِلاً إذا حَصَل به النِّظام، حتى بالَغَ بعض الشافعية فقال: ولو امرأةً. وإن استدللت بظواهِر الأحاديث فنحنُ نُثْبِت لكم أشياءً كثيرةً فيها يأباها الشرع والعقل.

وأما قولكم لا إمامة واجبة عقلاً وسَمْعاً إن كان مُطلَقاً فدليلُكم لا يَدُلُّ عليه، وهو مردود بأنه قد يتواتر النقل عن إجماع المسلمين في الصدر الأول بعد وفاة[1] النبي- صلى الله عليه وسلّم- على امتناع خُلُوِّ الوقت عن خليفةٍ وإمامٍ، حتى قال أبو بكر- رضي الله عنه- في خُطبَتِه المشهورة، حين وفاته عليه السلام: ألا أن محمداً قد مات، ولابد لهذا الدين عمَّنْ يقوم به. فبادَرَ الكُلُّ إلى قَولِه، ولم يقل أحد: لا حاجةَ إلى ذلك، بل اتفقوا عليه، وقالوا: ننظُر في هذا الأمر. وبكَّروا إلى سقيفة بني ساعِدَة، وتَرَكوا له أهمَّ الأشياء وهو دفنه- صلى الله عليه وسلم- وأخلافُهُم في التعيين لا يَقْدَحُ في ذلك الاتِّفاق، على أنَّ في نصب الإمام دفع ضَرَرٍ مظنونٍ وإن دَفْعَ <٩٥أ> (الضَرَر المَظنُون واجبٌ على العِباد إذا قَدِروا عليه. ألا تَرَوْنَ إنّا نعلم علماً يُقارِب الضرورة أن مقصود

[1] في الأصل (وفات).

الشارِع فيما شَرَعَ من المُعامَلات والمُناكَحات والجهاد وغيرها إنما هو مصالح عائدة إلى الخَلْق مَعاشاً ومَعاداً، وذلك المقصود لا يتم إلاّ بإمام يكون من قَبيل الشارِع، يَرجعون إليه فيما تَعِنُّ لهم فإنهم مع اختلاف الأهواء وتشتُّت الآراء قلَّما ينقاد بعضهم إلى بعض، فيُفْضي ذلك إلى التنازع والتَّواثب، وربما أدى إلى هلاكهم جميعاً، ويشْهَد لهذا التجربة.

وإن كان مُرادكم ما دَلَّ عليه دليلكم من انقطاع دور الإمامة بعد الثلاثين، فمُجابٌ عنه بأن المُراد الخِلافة الكامِلة التي لا يَطْرُقها جَوْرٌ لا مطلقاً للقَطْع بخِلافة سيدنا معاوية وغيره. والحاصِل جميع ما لكم من الشُّبَه مُجابٌ عنه، فإذا لم تُقْنِعكم هذه المقالة فنقول شعراً [من البسيط]:

السيف أصدق أنباءً من الكُتُبِ   في حدِّه الحَدّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

ثم أنهم لما شاهدوا كَثْرة عساكر الإسلام، ارتاعوا وطَلَبوا الصُلْح والصَّفح، ولَنْ أميرهم يكون وكيلاً عن السلطان في تلك البلدان كآحادِ الولاة والعُمّال)[1]. <٩٥ب>

---

[1] ما بين قوسين ورد في الهامش، وكُتب في آخره كلمة (صح، صح) مما أكد أنها إضافة من مؤلفه.

فصل

[ورود هدايا من أشرف خان]

وفي هذه السنة، أرسلَ أشرَف خان، إلى الخُنْكار السلطان، رسولاً أعظم ما يكون من الرُسُل، إذ صُحبتِه عساكر وافِرة، وبِمَعيِّته خُدّام مُتكاثِرة، مَرسولاً بالهدايا لتأكيد المحبّة، وتقرير الصُلح والصُحبة. وكان من جُملتها فيلٌ عظيم، وزَنْدَبيل[1] جسيم، فَخرج إلى رؤيته جميع أهل بغداد بحيث لم يبقَ فيها رجلٌ ولا امرأة إلاّ خَرَج لِرؤيته، إذ لم يَرَوْا الفيل، بل يَسْمَعون أوصافه قالاً عن قِيل.

قال الفقير: خَرَجتُ مع من خَرَج لرؤيته قبل يوم الزِّينة، وبِتُّ تلك الليلة في قَصَبَة سيدنا الإمام الأعظم، ولما قَرُبْتُ إليه مع صاحب لي أبصرنا شيئاً عظيماً هَيأة البيت الكبير، وشيئاً كَفَمِ القِرْبَةِ مُدلّى لم يزل يضطرب. ثم لما قدِمنا عليه أبصرنا جُثّةً عظيمة وجُثماناً مَهُولاً، وإذاً قد صَدَق فيه قول أبي الحسن الجُوْهَري [من الرجز المذيل]:

يزهو بخُرطومٍ كَمِثْلِ	الصَوْلَجان يَرُدُّ رَدّا
مُتَمَدِّدٌ كالأفعَوانِ	تَمُدُّه الرَّمضاء مدّا
أو كُمِّ راقصةٍ تشيرُ	به إلى الندمان وَجْدا
وكأنّه بُوقٌ يُحَرِّكُه	لينفخ فيه جِدّا
يسطو بشارِبَتي لُجَيْن	يُحطِّمان الصخر هدّا

---

[1] الزندبيل: الفيل، كما سيشرح هذه اللفظة فيما يأتي من الكتاب.

ثم خرج الوزير استقبال الرسول، وجلس على مُسقَّف باب الشجرة المُسمَّى الآن بباب المُعَظَّم[1]، فجلِّل الفيل بالحُلَل الفاخِرة، وغُشي بالمناديل الناظرة، ووُضِع على <٩٦ب> ظهره سريرٌ عظيم هيأة القُبَّة، وركب عليه السُّواس، وجلس منهم على رأسه ثلاثة او أربعة، وقُدِمَ به على الوزير. فلما أبصر الوزير وَقَف وسلَّم إيماءً بخُرطومه، ولم يرجع حتى أخذ الجائزة من الوزير ما يُذهِش الخَواطِر، ويَحار لديه ذوي البصائر.

ويكاد أن يكون صحيحاً زَعمُ الهِند أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لتكلَّم! لكنه لم يصل إلى السلطان، بل مات في طريقه في آمد بَرْداً، لاعتِياده على الأماكن الحارَّة، ولا سيما قُطْر الهند، ولما دخل قُطْر الرُّوم أضرَّه البَرْد فمات، ولكون مجيئه سَلْخ السنة الأربعين، جَعَل تاريخَ مجيئه بعضُ الشعراء في الحادي والأربعين بقوله من أبيات [من الرمل]:

---

(1) هو الباب الشمالي لمدينة بغداد منذ أواسط القرن الخامس للهجرة، كان أحد أبواب السور الذي بدأ بإنشائه الخليفة العباسي المستظهر سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م وأتمه المسترشد سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م وجدده الناصر سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، وسمي بباب السلطان نسبة إلى السلاطين السلجوقية الذين أقاموا دار سلطنتهم في شماله، ثم سمي في العصور التالية بباب المعظم أو باب الإمام الأعظم لأنه يفضي إلى الشارع الذي يؤدي إلى مشهد الإمام أبي حنيفة، وكان الباب يقع بين قاعة الشعب وجامع الأزبك على يمين الداخل إلى بغداد، وبين الجهة المقابلة من الشارع، وما زال جزء من السور مما كان يليه موجوداً شاخصاً بين القاعة والجامع المذكورين، وقد أزيلت بناية الباب سنة ١٩٢٣ لتوسيع مدخل بغداد. أما تسمية المؤلف له بباب الشجرة فهي تسمية لا نعرفها، ولا نعرف في أي عهد عرف الباب بها.

جـاء والفيّـالُ يعلـو فوقـه قائلٌ تاريخه (فيلٌ عظيـمْ)![1]

فصـــــل

[تزويج خديجة خانم بنت الوزير]

وفي هذه السنة زوّج ابنة أخته[2] خديجة خانم، الـدُّرة المصونـة، والجوهرة المكنونة، ذات الحَسَب والجمال، والنَّسَب والكمال، الفريدة في المعرفة والأدب، واليتيمة في الافضال وعلاء النَّسَب، ذات الجمال الذي يبهر ذُكاءً، ويفوق البدر في الإشراق والسناء، والورع والعِفّة اللتان لم يتّفِق مثلهما في حُرّة، والديانة والأمانة اللتان أورثتا قلب المُستَوصِف مَسَرَّةً، وصاحبة الذكاء والفكرة النقّادة، والذهن الصافي دون النساء والعِلم على خَرْق العادة، من كتخُداه الليث الجَسور <٩٧أ> والشجاع الغيور، كريم الشمائل، جميل المُحيَّا والخصائل، ذي الشهامة والرياسة، والكرامة والحراسة، الأكرم الأمجد، والمفرد الأوحد، الأمير محمد باشا. فعمل لهما عُرْساً لم يوجد مثله في الأمصار، ولا عُهِد شبيهه في الأقطار، فُرِشَت له الغبراء ببُسط العسجد، ووشّيَت بأصناف الجواهر وأنواع الزَّبَرْجَد، وحُلِّيَت بالشموع الكافورية، وزُيِّنَت بالمَسارج المضيئة البهية، فكأنها الخضراء لِما حوت من نجوم اللآلي ما يزيد على نجوم السماء في السناء، قد أظهرت الدنيا زينتها، وأبدَت الأخرى علامتها، إذ لم يتّفِق مثل هذا العُرس في زمان، فلم يوجد نظيره في هذا الشان، حيث ظهر فيه كل

---

[1] حسابه ١١٤٠.

[2] يريد أخته صفية خانم.

عجيبة مطربة، وبَدَت فيه كل ظريفة للأحزان مُذهبة، فلله دَرُّه من قِـران، حلت فيه الشمس برج الأسد، ولله أبوه من زمان جاء بأنواع المسرّة ممـا لم يعهد.

فصـــل

[عودة الوزير إلى بغداد]

وفي السنة الحادية والأربعين بعد المائة والألف[1] توجَّـه إلـى دار السلام، واستَرَّ لقدومه الخاص والعام، وقد مدحه المُنْلا سليمان البصـري مهنئاً له بالقدوم بقوله:

بُشرى فقـد جـاء البشـير يبشـرُ ... بالسـعد والإقبـال نغـمَ المخـبرُ[2]

بقُدومِ سَعْدِ العصـر وهـو مُظفَّـرٌ ... يختـال يَقْدُمُـه اللـواءُ الأخضـر

متيمِّمـاً دارَ السـلام يؤمـه ... نصرٌ مـن المَولـى وسَـعْدٌ أكـبر

فاهتزَّ مِـنْ دارِ السـلامِ غُصُونـها ... فرَحـاً وطـابَت فـهي لا تتحسَّـر

<٩٧ب>

من حيثُ يومَ فِراقه حنَّـت أسـى[3] ... شـوقاً لـه ودموعـها تتحـدرُ

فسـرى بِهمَّـةِ ضَيْغَـمٍ مـا عاقَـهُ ... عمـا يـروم هـوىً ولا متغـيرُ

حتـى رآه الدولـة الغـرا لـها ... سيفاً هـو المـاضي بـه تسـتنصرُ

فلـذاك قُلِّـد الأمـور جميعـها ... بـوزارةٍ سَـرْدَارُها لا يُكسـرُ

---

[1] أولها ٧ آب سنة ١٧٢٦م.

[2] في الأصل: الخبر.

[3] في الأصل (أساً).

تَـمَّ النظـام بــها وأمـن طُرقــها وأعارهــا بألبــاس لا تتكــدرُ
ثـم انثنــي مُتبَجّحــاً بفِعالـــه يثنــي لــه كـل الأنـام ويشــكرُ
سُـمِّي نظـام الملـك لـولا بأســه لتضَعْضَعت منـــه قصـورٌ تُعمـر
قد رامت الــوزرا يكـون نظامــها لــهم وذا حَسَـد بـــهم وتجــبرُ
عجزوا وباءوا بعـد عجـزٍ ظــاهرٍ إن النظــام لــه حُســام يشــهرُ
فَعَتَـوْا لــه كُرهــاً وسَلَّ حُسامه وأتــى لِيَغمِـده إلـى مـا ينصــرُ
فـالحمد لله الـذي أعطـــاه مـــا يرجــوه ثـم حَبـاه حـظ أوفــرُ
غُـم الحسـود بفعلـــه ومعـــاند فضلٌ مـن المولـى وسـعد أكـبر
ألفُ المعـــالي حــاء حُكمٍ دائمــاً ميـم الممــالك والسِّراج النـــيرُ
للدولــة الغــراء أصبــح دالـــها وحسامها الماضي الـهِزَبْر القَسـورُ
وكريمـــها وزميمـــها وعظيمــــها وجسـيمها و فهيمـــها والأفخــــر
والمُـدرك الغايـات فـي حَلَباتــها يــوم السـباق هــو المُقـدَّم يَنظُــرُ
يا صاحِ كُن لي ســـامعاً ومســاعداً أدِرِ الزجاجـة فالريـــاح تزمّـــرُ
والبرق يلمع كالصوارم في الوغـــى والسُحبُ تَهْمى والرعـــود تزمجـرُ
والمُزن[1] بيـــن لربابــه مجلـوذ[2] مغـدودقٌ مـهرورقٌ سُـــخنفر[3]
فاذا استهلَّ رأيــتَ بحــراً زاخــراً والراسـيات للجاريـــات السُّـيَّرُ
فكأنمــا تلــك البَـــواذِخ سُــفْنه وكأنمــا تلـك الـهِضاب الأنــهر
تبكـي السـماء بـــأدمعٍ مُنهلَّـة والأرض تضحــك مـن لآلٍ تُنــثرُ

<٩٨أ>

(١) في ب: والسحب

(٢) مجلوذ: مسرع في السير.

(٣) كذا في الأصل، وفي ب، وربما كان صوابها: سحفر، وهو الماضي السريع.

فاح الخُزامى والعرار ورندها | وأقاحها وشقيقها والعنبرُ
والرعد حنَّ مجلجلاً محرنجماً | إذ روضها معشوشبٌ متعطرُ
من قهوة صبرف سُلاف قرقف | صهبا مُشعشعة رحيق أحمرُ
ومديرها رشأ كأنَّ بخده | من كاسه شبهاً أغنّ أحورُ
أترى جرى من خده في كأسه | او بالصفا انطبعت فذا لا ينكرُ
يا حبذا من روضةٍ أزهارها | عطّت شذاً وبها النديم الجُوذر
فاذا النسيم سرى يفوح أريجها | ويروق ناظرك الغزال الأعفر
فكأن بهجتها ونفْحَة طيبها | مَمْشى الوزير يفوح منه العنبرُ
كرماً وجوداً لا يزال على المدى | طول الزمان بها النوال موقرُ
وبنانه تمتد خمسة أبحرٍ | في كل أنملةٍ خضم يزخرُ
في راحة تندى بجودٍ فائضٍ | وبها الرياض الجود زاهٍ يَزهرُ
ما أمسكت من صارمٍ إلاّ عتت | قمم العدى كرهاً إذا ما يشهرُ
ماضٍ إذا عاينت ماءً فرنده | أبصرت ماءً او شهاباً يُحذرُ
هذي هي الهمم التي كبرت على | كسرى ويقصرُ دونها الاسكندرُ
ما حازها الرتمان[1] قبلُ وتُبّع | كلا ولا شدادُ قبل وقيصرُ
ملكٌ تشيعهُ النسورُ إذا غزا | وكذلك العقبان حتى القسور
أنصاره منصورةٌ إمّا غزا | وله الإله بكل خطبٍ ينصرُ
رفعت له الرايات بالفتح الذي | حزم المُعادي فالأعادي تكسرُ
ملكٌ لدى يوم السماحة حاتم | لكنه يوم الزعازع عنترُ
يا خادماً ما معنُ ما فضلُ وما | يحيى وما الأوسي السخيُّ وجميرُ
أحيا المروءة بعد ان درس اسمها | ولدى حديث المكرمات محرر

---

[1] هكذا في الأصل، وقرأها في ب: الريحان.

فمخيَّرٌ ومسيَّر ومُهجرٌ ومنظَّمٌ ومُرقم ومُسطَّرُ

فمدائحٌ ومفاضلٌ ومفاخرٌ جِيد الزمان بها تَحلّى يفخرُ

قد حازَها الملك المؤيد أحمد تاج الملوك هو الوزير الأكبر

تهديك أنوار المحيا إن بدا نور السماحة والجبين الأزهرُ

وإذا لثمت يمينه نلت الغنى يمنى لها بالمكرمات تشهرُ

وأناملٌ تنهلُ بالكرَم الذي عنه العبارة والإشارة تقصرُ

في راحةٍ طُبِعَت على بَذلِ الندى ويفوح منها للمُقَبِّل العنبرُ

ملك إذا رَكَبَ الجواد كأنه وأعيذه بالله طَودا كبَّرُ

من أنسها نم حينها من عائنٍ يرعاه ربُّ العرش حيث يسيرُ

وكأنما الشمسُ المنيرة أشْرقت من درعه والبدر منه المِغفَرُ

والمُزن تهمى من يديه معارفاً وعوارفاً ومكارماً لا تُحصَرُ

لولا الغلو لقلت مهدي الورى عَمَرَ الجوامع فاستقام المنبرُ

متفردٌ بزمانهِ متوحدٌ بفضائل ومفاخرٍ لا تنكرُ

قد طبعت أذكاره وفخاره أقطار كل الأرض فهي النيرُ

من مغربٍ ولمشرق يحدو بها حادي المطايا تستعارُ وتسطرُ

غنَّى بها إنسٌ وجنٌ حبذا منها أحاديث تسرُ وتجبرُ

إذ كان من ساد الملوك بجودهِ وببأسه كفاه حوضٌ أكبرُ

ما في الملوك نظيره من حاكم ممن مضى كلا ولا متأخر

فضل من الله الكريم ومنة ومواهب سبقت فلا تتغيرُ

إن كان ساد أبوه أرباب العلا وسما على الأقرانِ نهر النيرُ

<١٩٩أ>

فلقد سما هام السهى شأن العلى تاج الملوك هو الوزير الأفخرُ

سـردارُ دولتـها المؤيـدُ أحمـدٌ	سعد الزمـان الفـارس المتصـدرُ
يا أيها الملـكُ الـذي مـن طبعـه	بذل النّدى ولـه المـهيمن ينصـرُ
بل يا ضيـا الدنيـا وبهجـة أهلـها	وسـراجها الوهـاج فيـها الانـورُ
صَرّح بريد الطّرف أصـدق رائـد	في نظـم عبـدك فـهو درٌ جوهـرُ
إن زيّـف النقّـاد عسـجد نظمـها	إنـي إذاً يـا سـيدي لَمُقَصّـر
واستجل بكر فصاحـةٍ مـن مـاهر	خَطَرَت تميس بها الجمـال مُصـوَّر
تَختالُ مـن حُسـن البَـها بدلالـها	لكنـها بثيابـها تتعـثَّر
واسـلم ودُم بسـعادةٍ وسـيادةٍ	وبطـولِ عُمـرٍ دامَ لا يتغـير
ثـم الصلـوة علـى النبـي محمـدٍ	خير الأنـام هـو البشـير المنـذر
والآل والأصحاب ما انـهلَّ الحَيـا	واخضرَّ روضٌ فـاح منـه العَنْـهَر

فصـــل

[غزو الحويزة]

وفي هذه السنة، سار بعساكر مُتَواصِلة المَدَد، كثيرة العِدَّة والعَـدَد، وجيشٍ خميس، وليوث عَرِيس، وكُماة أبطال، ورجال أقيـال، وشـجعان وفرسان، وأهل نجدة وأعوان، على خيول سوابق، ونُجُب لواحق، بِلتُـوُت سواحق، ولدانٍ موارِق، وصيِقال فوارق، وبنادق بوارق، قام بذلك الجيـش العرمرم، وقصد بهذا السواد الأعظم، بلد الحُوَيْـزَة حيـن بـالَغَت فـي الطغيان، وتابَعَت في فِعْلِها همذان[1].

---

[1] جاء في الأمر الموجه إلى والي بغداد أحمد باشا، المؤرخ في أواخر ذي القعدة سنة ١١٣٩هـ/أواسط تموز ١٧٢٧م "إن مصلحة الدولة العلية تفرض عليـها ضـم-

ومن غريب ما وقع له في الطريق، أنه نزل في أرض مُخْصَبَة الأراجي والجهات، إلاّ أنها كثيرة الأفاعي والحيّات، بحيث لم تخلُ خَيْمة من الخيام عن عديد الحيّات العِظام، فعجز العسكر <٩٩ب> عن القتل وأعياهم إهلاكها. ولم تزل الحيّات تخرج من كل فَج، وتسعى بين الخيام مكثرة العَج، تُسالم من كل بطل القدم، وتصافح الأخمص منها الشجاع الشجعم، ولم تؤذ أحدا من العسكر، ولم تتعرض له بالضرر في ذلك المعسكر، ذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد قال بعض أهل النفاق: إن أفاعي ذلك المكان لم تؤذ كل حيوان فضلاً عن نوع الانسان، وهو مردودٌ بما شاهَده من سافرَ تلك الديار، ونحا تلك الأقطار، فقد قال: إن ذلك المكان لا ينام أحد من المارين، ولن يستطاع المرور به ليلاً للسالكين، لشدة لَسْع تلك الأفاعي، ولو كان المار ولد السيد أحمد الرفاعي[1]، إذ لسْع تلك الحيّات لا يُجدي معه الدواء، بل

-حويزة إلى أراضيها، فيجب انتزاع موافقة الجانب الأفغاني على ذلك' (دفتر مهمة ١٢٥ ص١٤٧) وفي الأمر المؤرخ في أوائل ربيع الأول ١١٤٢هـ/ أواخر تموز ١٧٢٩م أن بعض المتمردين من عربان حويزة هربوا إلى الأفغانيين والتجأوا إلى أشرف خان، فعلى الوالي أحمد باشا أن يطالب بردهم إلى خان حويزة بناء على مواد وشروط الاتفاق المعقود بين الطرفين (دفتر مهمة ١٣٥ ص٤٥٨).

[1] هو العارف بالله السيد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني (٥١٢-٥٧٨هـ/١١١٨-١١٨٢م)، الذي تنسب إليه الطريقة الرفاعية، إحدى أشهر الطرق الصوفية، واشتهر أتباعه بكرامات منها قدرتهم الفذة في السيطرة على الأفاعي.

في الحال يُمَزّق الأمعاء ويفرّق الأعضاء، ولكن قد صَدَق في الوزير قـول القائل شعراً:

وإذا السعادةُ لاحَظَتــكَ عُيونُــها نَـم فالمخـاوف كلُّـهُن أمـــان

ولما أشرف على بلد الحُوَيْزَة، عَلِم أهلها أن لا طاقة لهم بقِتالـه، ولا تثبت رجالُهم لمقاومة رِجاله، فَخَرَجوا إليه بعديدهم، وطارِفِــهم وتليدهــم، واستقبلوه طائعين، وانقادوا لِهَيْبَتِه خاضعين، فسلَّمُوه مفاتيح البلد، وســألوه أن يولّي عليهم بعض الحَشَد. وغَمَروه بالهدايا، فجلَّلــهم بِحُلَــل الإكــرام والعطايا، وولى عليهم أميرهم القديم المَولى محمد خان[1]، لوُفور معرفتــه بأمور تلك البلدان، ثم رجع إلى دار السلام <١٠٠أ>، آخــذاً معــه مــن الحُوَيْزة الأطواب العِظام، ولما دخلها أشرقت بنور عدله، وأضاءت بسـناء وفور فضله، واستبشر الأنام بقدومه، وأُقرّت أعين الإسلام بسلامة لُيوثــه وقُرُومه.

وفي هذه السنة امتدحه بعض أهل العصر مُستَمْنِحاً بقوله [مجــزوء الرجز]:

هــل مــن مُخــبرٍ سُـــعدى مــن لَحْـظِ ظَبــي أغيَــدِ

---

[1] هو المولى محمد بن المولى عبد الله بن المولى هيبة (أو هبة الله) بن خلف، وكانت الدولة العثمانية قد عينته والياً على الحويزة سنة ١١٣٢هـــ، العــزاوي: تــاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص٢٢٣، ولكن عزله الإيرانيون بعد ذلك، وعينوا محمـد خان من قبيلة واخشتو خان والياً من قبلهم، فشاعت الفوضى. ينظر جاسم حســن شبر: تاريخ المشعشعيين وتراجم أعلامهم ص١٧٦-١٧٧.

ومـــن صـــدود غـــادةٍ تَخلِفُنـــي فـــي المَوعـــد

أصنمَت فـــؤادي فـــي الـــهوى ولـــم تُعـــاهِد مَعْـــهَدي

ألحاظـــها فتّاكـــةٌ ترمـــي بـــها فـــي كَبِـــدي

كـــم مـــن شـــجيٍّ قتلـــت بصدِّهـــا ولـــم تـــد

ولـــم يَـــزَل مـــن هجرهـــا قلبـــي بِجَمْـــرٍ مُوقَـــدِ

مكانـــها مـــن مُـــهجتي مكانـــها مـــن جَسَـــدي

وإنمـــا الأولّـــى بـــه رِق المُعنّـــى المكمـــد

أعنـــي الوزيـــر المُنتقـــى لكـــن أتـــت بـــاللّدَد[1]

وإنمـــا الأولّـــى بـــه شـــرعاً وعُرفـــاً ذو اليـــد

أعنـــي الوزيـــر المُنتقـــى سَـــميّ طـــه أحمـــدِ

رَبُّ العَطـــاءِ والبَـــها ثـــم العلـــى والســـؤدد

فتـــى الكِفـــاح والصِّفـــا ح والرِّمـــاح الأُودِ

هـــو الـــهُمام المقتفـــي إثـــر أبيـــه الأمجـــدِ

قـــد مـــهّدَ المُلـــك لنـــا نَفديـــه مـــن مُمَـــهِّدِ

مشـــهورُ فضـــلٍ ونَـــدى كســـيفه المـــهنّد

<١٠٠ب>

ليـــس لـــه غِمـــدٌ ســـوى هامـــةِ كـــلِّ مُعتَـــدي

كـــم فِـــرَقٍ فرّقـــها بعزمِـــه المؤيَّـــد

كـــم عُصَـــب جمعـــها برأيـــه المُســـدَّدِ

---

[1] اللدد الخصومة الشديدة.

فياله على العِدى　　　من صارمٍ مُجرد

فلاّق هامات العدى　　　قامع كل مُفسِدِ

مقتحم نار الوغى　　　إلى سَناها مهتَدي

سبّاق غايات العُلا　　　بالمُكرُمات مُرتَدي

بحرُ نَوالٍ قاذفٌ　　　دراً لكل مُجتَدي[1]

له يد مذ خلقت　　　علَتْ على كل يد

عطاؤه مُعجَّل　　　لا أُجِلَّ إلى غَدِ

لا غروَ إن فاق الورى　　　في كرم ومَحتَد

فالمجد إرثُ جَدِّهِ　　　ثم أبيه الأمجد

لا بل له من نفسه　　　غنى عن المُسوُد

أخلاقُه مُنبِئةٌ　　　عن مجده المُسيَّد

أعداؤه من بأسه　　　أمسَت بِعَيشٍ نَكِدِ

وأولياؤه غدت　　　في خَفضِ عيش رَغَدِ

فَرَضٌ على مدحه　　　وهو أجَلُّ مَقصَدي

وقَفٌ عليه فكرتي　　　فغيره لم أحمَدِ

ولم يَجُل يوماً سوى　　　مديحه في خَلَدي

وكيف لا وهو الذي　　　غَمَرَني بالرِّفَد

وجاد لي حتى لقد　　　أكمد قلب حُسَّدي

<١٠١أ>

---

[1] المجتدي السائل.

نعـــم وأعـــــلا رُتبتــــــي مــن فــوقِ فَـــرْقِ الفَرْقــد
حتـــى سَــلَوْتُ عِنـــــده أهلــي ومــن فـــي بلـــدي
وليس عنــدي مـــا بـــه أجـــزي جَنــاب ســـيدي
ســـوى دعـــاء خـــالِصٍ فـــي جُنـــحِ لَيْــلٍ أسْـوَدِ
أقــول يـــا مَولــى الـــورى يـــا أحـــداً لـــم يَلِـــدِ
زِدْه عـــلاً وكـــن لـــــه يـــا ربـــي خـــير مُنْجِـــدِ
بجـــاه طـــه المصطفــــى شــفيع يــوم الموعــــد
وآلـــــه وصحبــــــه ذوي التُقــــى والرَّشَـــــدِ

فصــل

[القبض على شبيل وشبلي ودندل]

في هذه السنة، قُبِضَ على شُبَيْل وشِبِلي ودَنْدَل[1] رؤســـاء الفســاد، وحلفاء البغي والعِناد، فكم أضرموا لحروب الفِتَن ناراً، وكم أفسدوا علـى مَرِّ الزمن جِهاراً، وكم جَهَّزوا الجحافل إلى قتال المسلمين، وكـم هدمـوا أركان المحافِل بكل عـاتٍ متين، منهمكين بسوء الأخــلاق، مُتَسَـرْبِلين بِسَرابيل النِّفاق، ينتهزون الفرَص، ويَرتقبون دفع الغُصَص. فكلما حَصَـل لهم نوع قوة شمَّروا عن ذراع الفساد، وكشفوا عن ساق العِناد، وقَطَعــوا الطرقات، وسدُّوا الجهات، فلم توجد فتنة إلاّ وهم مثارها، ولم تتفق مِحنـة

---

[1] سيرد في بعض ما يلي من قصائد: دندن، وبهذا سماه محمد سعيد الراوي (تــاريخ الأسر العلمية ص٤٦).

إلاّ وعلى رؤوسهم عاقِد غُبارها. فلما لم يفد معهم الجميل، ولم يؤلف قلوبهم العطاء الجزيل، احتال بهم وقَبَضَهم.

أما شُبَيْل فقَبَض عليه بعض الجُند حين خلا به فأتى به مكتوفاً. وأما شيلي فَمَسَكه بعض الأكابر في عانة وأتى به <١٠١ب>. وأما دنْدل فقُبض عليه في بغداد، فعانقوا الحِبال بأعناقهم، وصافَحُوا الأخشاب، وسال للعَذاب عليها ماء إحداقِهم، وأُذِلَّ بصلبهم عابدو الصليب، وأمنت الشاة بإهلاكهم صولة الذئب، وأسرة[1] الأنام بحتفهم، وأُنيرت الأيام بمضيِّهم وفَوتِهم إلاّ أن صلبهم وإن كان في عام واحد لكنه ليس على الترتيب، بل زمن كل إلى زمن الآخر قريب، فأول من صُلب شُبَيْل، ثم دَنْدل ثم شيلي[2].

وللوالد- حفظه الله- مهنئاً الأجل، والهُمام الكَهْف الأظل في صَلْبِه شُبَيْل، حيث يقول[3] [من الرجز]:

حمداً لِمَوْلانا المُعِز الخافِض	إذ بات ذو التقوى بعيشٍ خافِضِ
لله من سادَتْ بِهِ آباؤه	من كل قَرم بالمعالي ناهض
بشرى فهذا السَّعْدُ وافى مُقبِلاً	في خِدْمَةِ المَوْلى الهِزَبْر الرابِض
راضَ العدى واقتاد أشرار الورى	لله دَرّ المُستَجار الرائض
بادت لِصَلْبِ الشُبْل أعراب الفَلا	ذعراً فأرغم كل أنفٍ غارض

---

[1] كذا، ولعلها (وسرَّت).

[2] ذكر الكركوكلي (دوحة الوزراء ص٢٤) أنه تمكن منهم وجاء بهم واعدمهم علناً. وسيرد في القصائد التالية أن صلبهم كان على خشبات جسر الحلة.

[3] القصيدة في ديوان عبد الله السويدي، الورقة ٢٠-٢١.

فتحٌ عظيمٌ ما سمعنا مثله في كل خَطْبٍ بيِّنٍ أو غامض
كم مرة أعرضتَ عن غدراته عفواً فأبدى كل عارٍ عارِض[1]
قد ذاقَ ما قد ذاقه من بَغْيه والبغي يقضى للجِمام الباهض
أقررتَ عين الدين يا عين العُلا أمْناً لها من كل باغٍ باغض
والله ما نال الذي قد نِلْتَه أهل النُّهى من كل ليثٍ خائض
قد كان هذا حَسْرةَ الحُكّام إذ لم يرتَدِع من كل شَهْمٍ جاهِض[2]
دانَت لكَ الأعراب أيضاً كلها من كل جواض جنطي فارض[3]

<٢٠١أ>

أعظم بحَبْلٍ قد أباه أولاً من خُبثِه ثم التَوى في العارِض[4]
فِعلُ المَواضي ما يُحاكي فِعلَه بله القنا من كلِّ رُمحٍ دافض[5]
أجرى سُلاحَ الكلب في سيقانِه بل ذا سُلاح من كُلَيب وارض[6]
حتى كان السَّلحُ في أثوابه حيضاً توالى من عجوز حائض[7]

---

[1] العارض هنا ما يعرض للمرء من الجن او المرض او غيره.

[2] الجاهض من الرجال: الحديد النفس.

[3] الجواض: الفار من القتال او العادل عن الحق. والجنطي: كذا في الأصل والديوان، ولعلها الجنصي: وهو الهارب من الفزع، وهو ما يمليه السياق. والفارض المسنة من الابل.

[4] في هامش الديوان تعليقة توضح معنى هذا البيت، نصها (معنى قوله أباه الخ هو أن شبيل المذكور لما صلب أباه الحبل وانقطع به ثم صلب أخرى).

[5] دفضه: كسره وشدخه.

[6] الوارض من رمى بغائطه وأخرجه بمرة.

[7] في الأصل، والديوان: حيض.

عاني اضطراباً هارباً من حتْفِهِ		هيهات ذا نبْأً له من داحِضِ
أملى له استدراجه فاغتاله		واغترَّ جهلاً بالبريق الوامِضِ
هذا الوزير الفَرْدُ هذا أحمد		ذا فعله في كل جانٍ جانض[1]
حاربتَ ربَّ الناسِ يا شبل فلم		ينفعك دفعٌ بالدليل الداحِضِ
كم ذا نقضتَ العهد يا كلباً عوى		في حزبه هذا جزاء الناقضِ
وكم رفضتَ الشكر عمداً مُعْرِضاً		عن رِفْدِ مولانا الوزير الفائضِ
فالشنقُ بالتعليق يبقى دائماً		تاريخُهُ وهو جزاء الرافِضِ

ولبعض أهل العصر مؤرخاً أيضاً [من الطويل]:

شدا بُلْبُل الأفراح تَوَقاً إلى الوَكْرِ		سُحَيْراً و نادمه الهَزار مع القُمْري
وهيَّج ما في القلب وداً وحرقةً		بدَتْ شبه موجٍ هاج بالريح في البحرِ
بذكر حبيب زاده الله في الورى		فِخاراً وعزّاً قبل ما جاز في العشرِ
أنارت به الزوراء بعد ظلامها		وطالت وزال البؤس عنها مع الضُرِّ
وزيرٌ بصيرٌ باسطُ العدلِ واحدٌ		مُقلَّدٌ بالآيات والفتح والنصرِ
أنامله بالبذل سُحْبٌ وكم بها		حياة ومنها منزل الغيث والقَطْرِ
وفي ذِمام ليثٌ حَربٌ مجرِّبٌ		جزيل العطايا بالسخا حاتم العصرِ
فتخشى أُسْد الفلا وثَباتِهِ		وترهبُه الأبطال مع خيلها الضُمَّرِ
تقول كُماة الحرب عند اقتحامه		لمعمعة الهيجاء: إنا لفي خُسْرِ
وإن ثار سوق النَّقع واشتبك القَنا[2]		له حَرْبَةٌ في الحرب تَلْهَب كالجمرِ

---

[1] الجانض من حاد عن الحق.

[2] النقع: الغبار.

<٢٠١ب>

وفي فتحه البلـــدان والفُـرسُ عُصبـــة   سقى جيشهم كأساً أمرُّ مـــن الصبرِ

وقد زعموا في الحرب يؤتون نُصــرَة   فكان هو المنصور قـد فـاز بـالفخرِ

ومذ شـــاهدت يـوم المـهول طِعانـه   جبابرة الفرسان مـالت إلـى الكَسْرِ

فَسَل عنه لَدْنَ الحرب بالطَّعْنِ كـم لــه   مناقبٌ في الأكباد تُروى وفي الصــدر

هُمام سقى الفُرسان في حَوْمةِ الوغـــى   كـؤوس حُتـوف بالمُثَقَّفَـة السُّــمر

وكم ساق جيش العُرب طوراً واصبحوا   كأنهم الأغنـــام فـي المَهْمَـه القَفْـر

ويشكو الظمـا يـوم الـهياج حُسـامه   ليسقى الدما فـي فَلْقِـه الـهام بـالكَرّ

كفى رؤســاء العُـرب بـالذُّلّ قـادَهم   بما خالفوا في أمرهـم والـي الأمـر

وأثقلـهم قيـداً وكـــان جزاؤهـــم   بما عملوا صلْباً على هامـــةِ الجسـر

وفي صلبهم بـــالنظم قلتُ مؤرخـــاً:   وصلبُ شُبَيلٍ حـــلَّ بـالرفع والجـر

وللشيخ حسين بن عمر الراوي أيضا قوله [من الطويل]

أرى النصرَ مَجنوباً مع المجد والنصرِ   يُقادُ بفَضْلِ الله بـــالطَوْعِ فـي أسـرِ

يوم حمى الزوراء مُـــذْ قـام أحمـد   يؤيـد ديـن الله بـالبيض والسُــمرِ

يَظُـنُّ رعـاء البُـهم أنَّ اقتناصـــه   ببابل طَـير الـبرّ أو سَـمَك البحـرِ

ومـا هــذه إلاّ وســـائل مـــاجدٍ   تقيّد باغي البغي فـــي رِبقَـةِ الفكـر

من الطَّفّ نادى سـيفه هامَـة الـذي   توطن أرض الشام فـي مَهْمَـه قفـر

فَلَبَّتْهُ كُرهـــاً ثـم أضحـت طريحـةً   بِحِلّيَّةِ الفيحـــاء فــي ذَنَـب الجسـر

حماك الذي أعطـــاك مجـداً مؤثَّـلاً   بياسين والأنعـــام والطُّـور والقـدر

شـنقتَ شُـبَيلاً ثـم دَلَّيْـتَ دَنْدَنـاً[1]   ومزّقـتَ شِـبْلِياً بقاصِمـة العُمــر

---

[1] هكذا مجود الخط في الأصل، وسيرد الاسم باللام في القصيدة نفسها.

وطهّرتَ أرضَ الله من ســوء فعلــهم   أمدّك بِر الخلق بــالمصطفى الطُّــهر

<١٠٣أ>

وفي القلب شيء يقصر النطق دونـــه   أداوي فؤادي منه بالشــكر والصــبر

فإن زدتَهم في أربــعٍ قُــلْ مؤرخــاً:   شُبَيْل وشيلي ودنـــدنُ فــي جَمْــرِ[١]

فصــــل

[هدوء الأحوال]

وفي السنة الثانية والأربعين بعد المائة والألـــف[٢]، تفــرَّغ لبَسْــط الأحكام، وتشييد قواعد الإسلام، وإزالة المظالم، وإعانة المظلـــوم علـــى الظالم، وأمِنَت الأنام صَوْلة الأعادي، واستضاءت بنور عدله البادي، وعــمَّ البريَّة السرور، وشمل الرعية جملة الحبور.

واشتغل الدستور بلعب الخيل والاصطياد، مُسَرِّحاً طَرْفَــه وطَرَفَــه بين الرياض والغياض من أكناف بغداد، تمتدحه الشعراء، وتتمنـــى عليـــه العلماء، وتخدمه الأكابر والأمراء، وتُراسله الوزراء الفضـــلاء، فيعطـــي الجزيل ويُبدي للوفد الجميل. ولم تزل هذه شَنْشَنَته مع الصادر والـــوارد، حتى غدَت بغداد بأيامه كَعْبة القُصَّاد ومدينة الورَّاد، بـــها تحـــط رِحـــال الأماجد، وإليها يهرَع كل ماجد، من أقطارٍ نائية[٣]، وأمصارٍ قاصية.

---

[١] مجموع حساب الشطر، مع زيادة أربعة، ١١٤١هـ.

[٢] أولها ٢٧ تموز ١٧٢٩م.

[٣] في الأصل (النائية).

وكان- رحمه الله- يكرِّم العلماء غاية الإكرام، ويحترمهم نهاية الاحترام، دائما مشحون مجلسه ببث المسائل، ومُناظرة كل فاضل فاضل، فإذا ذُكِرَت عَوِيصَة كان مفتاحها، أو عَرَضَت دقيقة في الحال أبدى مِصباحها وأسفر صَباحها، وهذه هُجيراه[1] يعرفها كل أحد، ودَيْدَنه يدريها أهل كل بلد.

وممَّن امتدحه في هذه السنة بعض أهل العِلم[2] بقوله [من الخفيف]:

أشرقت شمسُنا فبان الضياءُ ... وبَدا بدرُنا فزالَ العَناءُ

<٣٠٠ب>

واختفت ظُلمةُ الشَّقاوة عنّا ... فغدا للقلوب منها هناءُ

وزهى زهرُنا بروضة سَعْدٍ ... حلَّ فيها من الجمالِ بهاءُ

بامتداح الوزير أحمد الوالي ... الذي فيه للكمال سناء

عالمٌ عارفٌ بليغٌ بديعٌ ... حار في حُسْنِ لفظِه الحكماء

عادلٌ مُشفِقٌ حليمٌ كريمٌ ... مُقسِطٌ صار دونه الوزراء

ذو حُسام جليلُ قَدْرٍ رزين ... العقل قد أذعنت له العقلاء

قد حوى في الوغى شجاعة ليثٍ ... إن سطا خاف بأسه الأعداء

أدهشتْ كل فارس وشجاع ... وقعة البدو إذ هي العُظماء

---

[1] هجيراه دأبه وشأنه وعادته.

[2] لم يسمه، وسيذكر الناظم في آخر قصيدته أنه (الأعظمي)، فلعله السيد حسين بن عمر الراوي، الواردة أخباره وأشعاره في هذا الكتاب، فإن حسن باشا قد ولاه التدريس في مدرسة الإمام أبي حنيفة، المسماة في عهده بالمدرسة الأعظمية. ينظر محمد سعيد الراوي: تاريخ الأسر العلمية ص٤٠.

مُذ غدا صائلاً عظيماً شديداً   قد شكّت عِظم وطئه الصحراء
ما رُؤي مَنْ يُبارز الأُسد كلاً   غير من دون عزمه الزّهراء
بقناةٍ حَكَتْ قوام قضيب   وحُسام ذابت له الأحشاء
ليس في الفُرْس مثله من شجاعٍ   ذي اقتحامٍ، أين الثرى والسماء!
بل هو المُرتجى المراد ليوم   ضاق في أهله فضاق الفضاء
من غدَونْا به نكفّ عدانا   عن حِمانا وخابت الأشقياء
سادَ أقرانه فها هو غيثٌ   بل سحاب زَهَت به الزوراء
مُقْسِط في العطا عظيم نَوالٍ   حارَ في عظم جوده الأسخياء
وابلٌ كفُّه جَوادٌ وبحرٌ   زاخرٌ منه تشرب الكرماء
فازَ من أمَّه بخيرٍ عظيمٍ   وحظي بالكرامة الشعراء
يا وزيراً له المكارم تُهدى   في البرايا وتُنْسَب العلياء
بامتداحي وافيتَ فضلك أرجو   نظرةً منك فهي نِعْم الرجاء
فعسى الأعظمي يحظى بخيرٍ   إذ حلّى فيك مدحه والثناء

<١٠٤أ>

وامتدحه السيد عبد القادر[١] ليسأله عمارة بيته بقوله [من الطويل]:

ووالٍ له في المُلك حُسن سيرةٍ   وللعدل منه آيةٌ تنسخ الظُلما
يفوق على كل الملوك لأنه   أجلُّهم قدراً وأغزرهم فهما
وأحسَنهم خُلقاً وأجملهم قِرى   وألطَفهم خِلقاً وأقواهم عزما

---

[١] لم نتأكد لنا هويته.

وأصدقهم قـولاً وفِعـلاً وهَمسـةً   وأكملهم فضـلاً وأوفرهـم عِلمـا
وأجودهم كفاً على المـال بالعَطـا   فأمـا أياديـه فبحـرٌ لمَـنْ أمَّـا
وأصفـاهم وِردا وأكـثرهم حَيـا   وأليَنَـهُم قَلْبـا وأشـدّهم حَزمـا
وإن له في المُلـك أعـلام رُتبـةٍ   له مَوْرِدٌ من أمِّه قـط مـا يَظمـا
إذا أشرقَتْ كالبدرِ أنـوارُ وجهـه   به يهتدى السارون في الليلة الظلما
إذا ما شياطين الأعـادي تمـرَّدوا   عليه بشهب العزم يَدحَرُهم رَجْمـا
ومن كان ذا جـهلٍ لـه ومعـاندٌ   يعود شنيقاً في الحِمى ثم لا يُحمـى
فيـا ربُ أيِّـده بنصـرِ مؤيـد   بجاه الذي لنبِّـي وحـج واحرَمـا
ووفِّقهُ للخيراتِ في كـلِّ مَوْكـبٍ   ويسِّر له البيت الشريف وزَمْزَمـا
وأرجوك يا نسلَ الكِـرام تسـرُّني   بتعمير بيتي إنّـه يشـتكي هَدْمـا

فصـــل

[استرجاع الشاه طهماسب لهمدان]

وبينما الناس في مَسَرَّة تامة، وأُنس مُؤنِس وراحة عامَّة، إذ نَجَـم[1] الشاه طهماز[2] من خلال بلدان فارِس، بكل بطلٍ مُقاوم وشجاع مُمـارِس، فاستولى على كَرْمان شاهان وهَمَذان، بعد اقتتال عظيم مع عمَّـال تلك البلدان، فهربت العساكر التي في البلدتين، وتفرقوا أيدي سبأ في الخافِقَين.

---

(١) نجم: طلع وظهر.

(٢) هو (طهماسب ميرزا) آخر سلاطين الدولة الصفوية. تولى العرش سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٧م وقتله نادرشاه كما سيأتي سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٠- ١٧٣٢م.

فلما بلغ الخُنْكار هذا الخبر، وطَرَقَ سمعه هذا النُّكَد والضُرَر، وجّـه في السنة الثالثة والأربعين بعد المائة والألف[1] بريـــداً <٤٠١ب> علـى العَجَلة إلى الدستور المذكور، ساق شَوكة هذه الدولة، يأمره بالسـفر إلـى إيران، وتخليص تلك البلدان، وشنّ الإغارة إلى أصفهان، لما عَلِمَ الخُنْكـار من نُصرة دولة الدستور المُكرَّم، وإعلاء رايته وإسعاد المتحلّيـن[2] مـن الأمم بشعار دولته، وما أولاه الله من العز والإظفار والغَلَبة والاسـتظهار حيثما سار في أرضه، وما خصه به من التأييد الذي لا يهتدي الأنام إلـى بعضه، حتى أن الوزير المذكور ضوعفت له الأجور لا يفتقر مـع ثقتـه بالله، واعتماده عليه، وتفويض أموره إليه، ومعرفته بأن دولتـه وصولتـه على تصرف الأحوال وتصرّم اللّيال، في كَنَف من الله تعـالى محروسـة محوطة، وبعين كلائه ورعايته منوطة، إلى الاستغاثة بأحد فيمـا يرومـه ويحاوله، والاستظهار بظهير فيما يطلبه ويزاوله.

فلما بلغه البريد ما جاءه، طَفِقَ في أُهْبة السفر فجاءه، وجمع جنـوده من المخاليف، ودعا بكل مسالم وحليف، فلم تمض إلاّ أيام قلائـل، حتـى اجتمعت الجنود العظيمة، وتراجعت العساكر العديدة العميمة، فسار تخفِـق بين يديه ألوية التأييد، وتحف به إمارات التسديد، بجموع مـلأت بطـون الصحاري، حتى ظُن لكثرة العدد أن المَهْمَه بهم جاري، فكأن الخميـس إذ ذاك سيل العَرِم، بكل قَرِم، إلى لحوم العِدا قرم[3].

---

[1] أولها ١٧ تموز ١٧٣٠م.

[2] في الأصل (المتحليين).

[3] القرم الأولى: السيد المعظم، والأخرى: الشديد الشهوة إلى اللحم.

فساروا بفلكٍ مُشْرِق بنجوم الأسِنَّة، مُنير بشموس الصِفاح وأطـراف الرِّماح اللَّدِنة، فكأنه <٥٠١أ> لفَلَك الأطلس حُلّي بكواكب الذُّنَب، أو جَـوْزَهر[1] البدر الأنفَس نزلت إليه من كُرَة النار نيازِك العَطَب. فلما بلغ بـهم إلى الدُّرة[2]، أتاه البريد بخبر جلوس السلطان بـن السـلطان، السلطان محمود خان[3]، وإنه يأمُره بالجُلُوس في مكانِه حتى تَنْتَظِم لـه الأمـور، وتَتّحِد كلمة الجمهور، فبقي في نواحي شَهْرَزُور قاطِناً، ولم يَبْرَح امتثـالا من الخُنكار طاعِناً، وأقام هناك ثلاثة أشهر[4].

وعلى رأس الأربعين[5] أُمِرَ بالمسير إلى الجهاد، واغتنـام الأجـر الكبير وتخليص هاتيك البلاد، فسار بذلك الخميس، يفـري[6] الصحـاصِح الطامسة الأعلام، ويمتطي الوِهاد والآكام. ولما أشرفَ بلِيـوث العَريـن

[1] الجوزهر، العقدتان في فلك القمر، لفظة فارسية معناها رأس التنين وذنبه. منصـور جرداق: القاموس الفلكي، بيروت ١٩٥٠، ص١٦٢.

[2] الدرة: العوج في القناة أو العصا ونحوهما، أو هي العوج مخلقاً.

[3] هو السلطان محمود الأول بن مصطفى الثاني، تولى العرش بعد خلـع السلطان أحمد الثالث في ١٥ ربيع الأول سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م ولبـث إلـى ٢٧ صفـر ١١٦٨هـ/١٧٥٤م.

[4] دوحة الوزراء ص٢٦.

[5] كتبت هذه العبارة بخط مختلف عن سائر الكتاب في الأصل، ويظهر أن موضعـها ترك بياضاً ثم كتبت في موضع البياض في وقت لاحق، وسياق الخبر لا يدل على أنه مما جرى في حوادث سنة ١١٤٠، خاصة وأن الحدث الذي يتضمنـه سـابق على سلطنة محمود الأول بثلاث سنوات. وفي دوحة الوزراء ص٢٦ جاء ضمـن أخبار سنة ١١٤٤هـ.

[6] أي: يقطع.

الفرسان، ودخل خانَقين حِمى كَرْمان شاهان، أطاعه أهلُها فرحاً وسروراً، إذ لم يحل بهم سابقاً ضرراً وشروراً، وسلَّموه مفاتيح البلدة[1]، ولم يستحسنوا كفَّه وَرَدَّه، علماً منهم أن نيِّر سَعْده مطالع فلك الإقبال، وكوكب مجده ساجمٌ طالع التغلبة على كل حال.

فلما دخل كرمان شاهان، جلس هُنَيئة[2] للاستراحة من وعثاء السفر، وأمر بالنزول جميع العسكر، ثم قفل بأبطاله وكُماته وأبطاله، وأُمّ همذان إذ قد حلَّ قريباً منها شاه أصفهان[3]، فلما قاربها رآها متأهبة للحصار، مُتَحَصِّنَةً بالرجال والنار، وإن الشاه قادم من ناحية أصفهان، وإنه لم يصل بعدُ إلى هَمَذان إلاّ أن بينها وبينه مقدار ثلاثة أيام <٥٠ ب> .

فحينئذ جمع الستور وجوه الأمراء، ورؤساء الجُند العقلاء، فأحدقُوا به وقوفاً، وصفُّوا حوله مئات وألوفاً، فقال: إني قد جمعتكم لأمر أستخيركم في تدبيره، إذ ما ندم من استشار، واستخيركم في حصوله وتيسيره، إذ ما خاب من استخبر واستخار، هذه همذان قد مُلئت رجالاً وأبطالاً، وإنها قد تحصَّنَت أشد من تحصنها بالأمس، وتأهبَّت أكثر من تأهبها الأول بالعُدَّة والنفس، وهذا الشاه قد أقبلت طليعتُه، وقَرُبَت عِصابته وكتيبته، فأي الأمرَيْن نبادِره، أحِصار هَمَذان وشَنّ الإغارة عليها، أم قتال

---

[1] سياق الخبر كما أورده المؤلف يشير إلى أن دخول أحمد باشا سلماً كان لخانقين، والصحيح أن المقصود هو كرمانشاه كما في دوحة الوزراء ص٢٥.

[2] كذا في الأصل: والصواب: هنيهَة، وهي القلة من الزمان.

[3] هو الشاه طهماسب الصفوي.

الشاه، فما رأيكم؟ فسكَت الجميع عن الجـــواب، إلاّ شـــيخٌ منـــهم بـــادَرَه بالخطاب فقال: الرأي أن نُحارِب الشاه أولاً، فإن نحن غلَبْنا استولينا علـــى همذان وجميع ما في إيران من البلدان، وإن غُلِبْنا لن نقدر على فتح قريـــة فضلاً عن أمصار أصفهان، وكون همذان تبقى خلفنا لا يضرُّنا ذلك، بـــل نجعلها في سيرنا يميناً، وإن كان كل من أهلها لنا كَميناً، فإن غُلِبنا هربنـــا من حيث أتينا ولم يظفر بنا أهل همذان، ولم ينالوا منا شيئاً في هذا الشان.

فقال الوزير: هذا الذي حاكَ في صدري، وانطـوى عليـه سـجف سرِّي، فسار بالجنود المنصورة، والعساكر المَجْبـورة المحبـورة، حتـى وصل بهم إلى لُولو كُرد فأنزل هناك عسكره، ونصب ثمَّةَ معسكره، وكـان منزِل الشاه كُورجان[1]، وبين منزل <٦، ١أ> الشاه ومنزل الإسلام سَـيْر ثلاث ساعات زمانية بالتقريب.

فلما نزل الدستور بمكانه، وجمع أصحابه وأخدانه، اقتضى الـرأي أن يرحل بالجنود صباحاً، ويوردهم نجاحاً وفلاحاً، ويُبقـي فـي مكانـه الأثقال والخيام، ويبادر عَدُوَّه بالاصطدام. فلما أصبح الصبـاح وأسـفَرَ، نُودي بالقُفول إلى النجاح في المعسكر، فقامت أسود الله قيام الليوث مـن الشرى، وطلبت جهة العدو طلـب القنَّـاص الفـرى، وخفقـت البنـود، واضطربت الكُبُود، حرصاً على الجزاء الموعود، من الرحيم الودود. وإذا بمكان فيه ديار بالية، وفي طلول خالية، ومياه جارية، قد عُنِيَـت بالرُّمـاة

---

[1] في البلدانيات الإيرانية (كوريجان): بلدة تقع في الشمال الشرقي من همذان، وتعـد من أعمالها. ينظر دكتر محمود بناهيان: فرهنك جغرافيائي ملـي تركـان إيـران زمين، ج٣ ص٦٧٢، تهران ١٣٥١.

الباغية، منعاً لضياغم الإسلام العادية من ورود تلـك الجـداول الجاريـة السارية. فلما بادَرَت جنود الله إلى الورود، أبصروا الكَمين خلال الطُلـول، بين هاتيك الرسوم نُزول، فشُلَّت أيدي الكامِنِين، وخُذِل راميهم، وصـاروا طُعْمَة للسيوف الهِنْدية، وأُكلة للدّان الخطِّية، حتى صار - كما أخـبر مـن شاهد الوقعة- ذلك الماء أشكل، حيث جرى بالدماء النهر والجدول[1].

ثم أن أسود الله سارت غير بعيد، وإذا بجموع الشاه صفوفاً في ذلـك الصفْصَف في كثرةٍ لم تكن قبل تُعرف، وإن عسكر الوزير المذكور - كما أخبر من شاهد الوقعة- كالشامة البيضاء في الثور الأسـود، وإن عِدَّتَـهم حينئذ- كما أخبر الأسارى منهم- <١٠٦ب> مائة ألـف فـارس، أكـثرهم بالدّلاص طامِس، من كُماة أصفهان، وشجعان لورستان.

فحين أبصر الوزير والجنود ذلك السواد الممـدود أيقـن الجميـع بالعطب، إذ لا سبيل إلى الهرب، إذ- كمـا قدّمنـا- إن همـذان مُفعَمة بالأبطال والفرسان، والكُماة والشجعان، وأنهم ربما يخرجون إلى طريقـهم يمسكونها، فاتّكل الجميع على الله تعالى، وتجرُّد الكُل عن طمـع هـواه، ورغَّب بعضهم بعضاً بالجنة، وجعل الكلُ اتّكالاً علـى الله وقـاء وجُنـة، وتأسُّوا بِغَزْوَة بدر، وتحققوا أن الكَثْرة لا تُجدي إذا عُدِم النصر. وكـانت طليعة عسكر الوزير الأكراد، إذ كما يُعهَد أنهم الكُماة الأجواد.

---

[1] يحدد المؤرخ العثماني سليمان عزي شمعداني زاده تاريخ المعركة في ١٣ ربيـع الأول سنة ١١٤٤هـ/١٣ أيلول ١٧٣١. تاريخ شمعداني زاده، مخطوط في مكتبـة جامعة القاهرة، الورقة ١٤٨.

(ثم أن الوزير المُكرّم، والدستور المُفخّم، المرحوم قَــرَه مصطفــى باشا[1]، كَمَن لهم مع جنوده في حَضيض جَبَلٍ هنــاك، ودارَ عليــهم مــن خَلْفِهِم، فحين أبصره الأعجام ولّت على أعقابـــها، فــأمر الشــاه برمــي الأطواب)[2] الرّعدية والبنادق النارية ما لو لم يكن جند الوزير في وهَــدَةٍ من الأرض لأهلكتهم، وجعلت بعضهم على بعض.

فحنقت حينئذ الأسود، واستغاثت بالرب المعبود، وضربــوا عليــهم الأطواب والبنادق، والقنابر الصّعاب والتُّفَك الحوارِق، واجتمعــوا بعدهــا وحَمَلوا عليهم حَمْلَة الرجل الواحد، وركضوا عليــهم رجــالاً وفرســاناً، وحملوا السيوف وتركوا اللدانا، فالتقى الجَمْعان، وتلاصقت الفئتان، وجَــنَّ الأبيض في المفاصل، وحكَّمت في أدبارهم المناصل الفواصل، وزاغـــت الأبصار، وعلا الغبار، وسالت الأحـــداق، ومــالت الأعنــاق <١٠٧أ> وعثَّرت الخيل بالرؤوس، وخاضت بالدماء وأُزهقــت النفــوس، ومــالت الرايات، وظهرت للنصر آيات.

فلم تكن إلاّ ريثما ساعة والعدو قد هَــرَب، بعــد مشــاهدة الوَيْــل والعَطَب، فاحتَوَشته الأسود، وتبعته الجنود، ولم يسلم حينئذ إلاّ الشاه مقدار

---

[1] هو صهره، وقد تقدم التعريف به.

[2] العبارة بين قوسين كتبها المؤلف على هامش الورقة، بدلاً من عبــارة وردت فــي المتن، وضرب عليها، هي (فلم تقف مع طليعة الشاه إلاّ ساعة، ورجعــت هاربــة على الجماعة، وأضربهم الشاه بالأطواب..).

عشرين فارساً[1]، يُرون رأي العين، قد خرجوا من تحت غبار الحَيْن. فحين شاهَدَه الوزير هارباً لم يرسل عليه طالباً، شُكْراً لهذه النعمة التي نَدَر أمثالها، وعزّ شبيهها ومثالها، بل تَرَكَه ونَزَل على المَتْرَس الذي يحملونه، واغتنم الجند المال الذي جلبوه، ورجع العسكر إلى همذان، فرآها خالية تشبه الأطلال البالية، قد هرب الذين تحصَّنوا فيها حين هَرَب الشاه، وأخلوا جميع نواحيها.

فصل

[خسائر الإيرانيين]

قد أخبرني غير واحدٍ من الكُماة الذين كانوا أول الحملة إنه قال:

قبلَ أن نصلَ إليهم نُشاهِد رؤوسهم تقع عن أبدانهم من غيرِ ضارب، ونُبصر قتلاهم قد ملأت المواطن والمضارِب. وقد أخبر غير واحد من الأسارى أن الذي أوْهَنَهم وأضعفهم هو رجال شجعان شعارهم البياض، أمامهم خمس[2] بنود خُضر، فَصَدَتَهم من يمين عسكر الإسلام، فاعملوا فيه الحسام، وإن صحّ هذا فهي كرامة للإسلام، وعلامة للفوز في دار السلام، وآية دالة على قبول جهادهم، حيث أمر الله الملائكة بإسعافهم

---

[1] في دوحة الوزراء ص٢٧ أن خسائر الجيش الايراني بلغت في هذه المعركة نحو العشرين ألفاً بين قتيل وجريح وأسير، فضلاً عن ٣٢ مدفع هاون، وعدد لا يحصى من العتاد والبنادق والخيم والذخائر. أما الجيش العثماني فبلغت خسائره ثلاثمائة شهيد وخمسمائة جريح.ويذكر صبحي، تساريخ صبحي ج١ ص٩٦، أن الشاه طهماسب فقد نصف جيشه ومعظم مدفعيته وذخائره.

[2] كذا والصواب (خمسة).

<١٠٧ب> وإسعادهم، وليس هذا بعزيز، إذ قد أمد الله جيش نبينا صلى الله عليه وسلم بالملائكة مراراً، وقاتلوا مع المسلمين خفية وجهاراً، وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو لأمته ما لم يرد النص على أنه من خاصته.

فصـــل

[الصلح بين الدولتين]

ثم أنه بعد استقراره في همذان، أتاه من الشاه الهدايا والتُحف، يرجو فيه الصُلح بين الدولتين، وحقْن الدماء من الجانبين[1]، فرأى الدستور الصلح خيراً، وأجابه على ما طلب، على شَرْطِ أن تكون كَرْمان شاهان وهمذان ومخاليفها تحت حكم الدولة العثمانية، وفي ظل الشوكة الخاقانية، كما كانتا سابقاً. وعُقِدَ الصُلح من الجانبين[2]، ورجع إلى بغداد قرير العَيْن، غزير العَيْن[3]. وقد امتدحه الشعراء تهنئة له بالقصائد الرائقة، والقوافي الفائقة، منهم المنلا سليمان البصري حيث يقول [من البسيط]:

---

[1] في الأمر الموجه إلى أحمد باشا بتاريخ الأول من ربيع الآخر سنة ١١٤٣ (دفتر مهمة ١٣٦ ص٢٢١) أن الشاه الإيراني بعث رسوله إلى استانبول برسالة فيها عقد اتفاقية الصلح والمسالمة بين الطرفين، وقد زوده السلطان ببعض الشروط لعقد الصلح، "وحتى الآن لم يرد أي رد من الشاه الإيراني عليها".

[2] عن نصوص هذه المعاهدة ينظر أحمد راسم: عثمانلي تاريخي ج٢ ص٣٨٤.

[3] العين هنا: النفيس.

سعدُ السُّعودِ ببِشــرٍ قــد بــدا وشَــدا بُشْرى فَقَد أنجز الإقبــال مــا وَعَــدا
هناك شـــمسُ العُــلا بــالعِزّ بازِغــةٌ وكوكبُ المجد في أفُق العلى صَعَــدا
دار السلام بـــه تــهتز مــن طَــرَبٍ فيهم من نور بدر السَّـــعد يــوم بــدا
غنّى الهزّار وماسَ الغُصن من طَــرب فالدَّوح يرقــص والفخــر فيــه شَــدا
والريح زمَّر حيــث الرعــد دَقَّ بــها طبولــه وحســام الــبرق مــا غُمِــدا
والسُّحب نَقَّطت الأغصان إذ رقصــت حيثُ الصَّبا ســحبت أذيالــها الجــددا
والأرض مخضرَّةٌ والزهــــرُ مُبتَسِــمٌ يفوح منه الشذا قــد عــطَّ منــه نــدا
والناس في هَرَجٍ والجِنُّ فــــي مــرح والضِّدُّ في تَرَحٍ مع مــن لــه حســدا

<١٠٨أ>

والعندليــب خطيــبٌ فــي أراكتـــه وقد شــدا البلبــل الصدَّاح مُجتــهدا
بكــل لحــن شــجا للقلــب نغمتـــه قد أعرب اللحن نحــوٌ منــه مطــردا
فــذاك بــالرَّفعِ منصــوبٌ بخفضـــه وذاك بــالجزمِ مجــرور بَـدا فغَــدا
فشـــنَّف الشَّــمع تغنيــن علــى فَنَــنٍ لها شروح لشرح الصدر مــا وجــدا
بشــائرُ النصــرٌ والرايــات خافقـــةٌ أعلامها فـــوق رأس المجــد إذ وردا
نصرٌ من اللــه بــالفتح القريــب لــه بحُسْنِ توفيق مَــنْ لــم يتخــذ ولــدا
سَلْ عنه شاه العجــم وانظُــر لدَوْلتــه لمــا رأوا الشــهاب الأحمــدي بــدا
راموا الفرار فكـــادوا يُغبَطــون بــه لكنــهم ذهلــوا مــن خشــيةٍ وردى
لمــا رأوا عســكر الإســلام يقْدُمـــه ليث الأســود الــهِزَبْر انتابــهم نكــدا
نحــا مليــك العلــى أعــداءه فغــدوا لما عدا مــا ثنــا للعــزم يــوم عــدا
والبيض مشـــرقة والشــمس لامعــة والأرض راجفة والشـــاه قــد شَــرَدا
وللخميــس مَجــال فــي مواكبِـــهم والهام في الأرض لم تَعرف له عــددا

والخيل تسبح في بحر الوطيس وما　　س النجيع وقد صامت بما وجدا

والأرضُ ترْتَجُ من تحت الجياد بها　　من هوانِ ذاك الوغى والضدّ صار فدا

وللهند خاطبةٌ والسهامْ راكعةٌ　　والضّد ساجدة ما عودُوا أبدا

ما لبّسط قرن لبازات وضَيْغمها　　فالبطُّ أعجامها والضيغم الأسُدا

تاج العلا والمعالي أحمد وكذا　　بازاتُه جُنده ألغِسم بها عسددا

أردى الأعاجم في باسٍ له وكذا　　في هيئةٍ لو تبدت دكدكت أُحُدا

تشتتوا في الفَلا أيدي سبا وغدوا　　صرعى ومنهزماً لم يدر اين غَدا

خلّوا الخيام وما فيها وما ملكوا　　من الذخائر حتى الأهل والولدا

أطوابهم مثل أجسام لهم طرحت　　فوق البسيطة ما راع لها نَشَدا

<٨٠ اب>

كذا تُفاكهم طَرحاً يلقُطُها[1]　　سؤاس دولته لخيامهم عَمَدا

خلّوا كُرَيْمان[2] كرهاً بعد ذا وكذا　　همدان قهراً وما عاجوا لمن فُقِدا

وبعد ذا الشاه رام السلم حين رأى　　بأس الوزير الذي يوم الهياج عدا

فراجع الملك المنصور سيدنا　　مولى السلاطين محمود الذي سَعَدا

ففوّض الأمر أمير المؤمنين له　　كل الملوك له في العالمين فِدا

فقيَّدَ الحدُّ بالستور ولا　　يخشى لمن رام نقض الحدُّ نكدا

ففاز بالحمد لما اشتق منه له　　اسم كاسم أبيه وافق الرَّشَدا

فذاك لا شك في أفعاله حَسَنٌ　　وأحمد فاز بالحمد الذي حمدا

حاز المكارم عنها الناس قد قصُرت　　ففيها طُوق الحُسن بدت جُدَدا

فأصبحا نيِّرَ العلياء مُبصرَها　　مثلهما في الورى طُراًّ فما وَجَدا

---

[1] جمع تفكة: وهي البندقية، وقد تقدم شرحها.

[2] يريد: كرمان شاهان.

صدر الوزارة بل عين العلى شرفاً إنسانها نورها عِزّ السها مَذدا

سَرْدار دولتها ضرغام صولتها حامي إيالاتها طول المدى أمَدا

ما قيصر مثله في كل منقبة ما اسكندر شبهه في الباس يوم عدا

ذو هِمَّة صَيِّرت كسرى بكسوته بالعدل والحُكم حتى كلُّ من وَلَدا

بحرٌ هو العذب رحب الصدر حبر ذُكَا ربحٌ لِراجٍ ومَنْ معروفه قَصَدا

قاموس فضلٍ ومجدٍ في محاسنه قابُوس فخرٍ وجُودٍ بل وشمس هُدى

بدر هو النيِّر الأسمى بطلعته تخفى الكواكب لمَّا أنْ علا فبَدا

لذاك نبصر أرباب التُّخُوت له تخشى وتَرهبُ بل والكُلُّ مرتعِدا

إن قيل فيه هو المهدي ما كَذَبوا دَع الغلو وقل ما شِئتَ مُعتقِدا

حاز السباق وللرايات رافعها بالفتح في كَسر ضد جزمه وجدا

أخباره عُنعِنت في كلِّ ناحيةٍ بمُبتَدَ الصِّدق تحقيقاً لها سَنَدا

<١٠٩أ>

بذِكْرِها سارَت الرُّكبان في طَرَبٍ والعيس حنَّتْ إذا الحادي بهن حَدا

خوفاً صفَت لصوتٍ منه حين سرى لذاك سارت تَرامي في الفَلا مَدَدا

قد طَبَّق الأرض أخبار له وثنا بين الأنام وسلْ من سار أو قَصَدا

بمدحه الجنُّ غنَّت صَبْوةً وشَدَتْ والإنسُ والوحش والطير الذي عهدا

فالجنُّ تَرتَع من منفوضٍ سُفْرَتِهِ[1] والأنس تجتار من إنعامه أبدا

هذي المكارم لا دار مشيَّدة وتاج دُرٍ بلا مجدٍ يُقيض ندا

إذا غزا فنُسُور الجوّ تابعه كذاكَ عِقبانُها تبغي غذاً وغَدا

---

[1] في ب: منضود، والمنفوض: ما طاح من حمل النخل متساقط من أصوله من التمر، أو لعله أراد: المنقض: وهو المنسف.

والوحشُ لم تخشَ جوعاً في مفازَتِـه   خلف العساكر لا يحتاج صيد يدا

هذا هو الفخر لا البدراتُ[1] من ذهب   ولا الغِناء بمالٍ لو نما نَفِدا

فضلٌ من الله يَخْصُصْ من يشاء به   مواهب لأولي الألباب ثم غَدا

مواهبٌ سَبقَتْ في عِلْمِ واهبها   في عالم الذَرِّ لا تُحصى لها عَدَدا

عنايةٌ من إلهِ العرش خُصَّ بها   كذاك والده المرحوم قد سُعدا

المُرهِبُ الأسد في الغاباتِ صولتُه   عزماً وبأساً وأردى الضيغم الأسَدَا

والواهب الخيل والبدرات تتبعها   ثم السهجان وسَلْ مَن أمَّ أو وَفَدا

ما جُودُ حاتمٍ إنْ عُدَّت مكارمه   وما ابن مامة أو معن بغير ردا

لو عاصروه لغطَّى جُوده كَرَما   أذكارهم ولأضحى الكُلُّ عنه فِدا

لا عيبَ فيه سوى أن المُلِمَّ به   لم يذكر الأهل والأوطان والولدا

سعد الزمان به الأيام قد طربت   وعصره فاخَرَ الأعصار ثم غدا

يختال بها على الأعصار من قِدَمٍ   من حيثُ أحيا الندى من بعدما فقدا

والأمن عمَّ على كل الممالك من   بأس الهُمام الذي ساد الملوك يَدا

صمصامُ عزٍّ له السلطان سَلْ فما   أمضاه من صارمٍ مذ سُلَّ ما غُمِدا

<١٠٩ب>

يا أيها الملكُ المَوْلى الذي سبقت   له العنايات من ربِّ السما وهُدى

بل يا سراجَ المعالي وابن بَجْدَتِها   ومن لغايتها القُصوى أمدُّ مدا

ويا همامَ الوغى يا ليثَ غابتها   وعينَ أعيانها يا كاملاً عددا

لأنتَ غاية آمالي ومُنْتَجَعي   من الأنام وسؤلي في عَطاً ونَدَا

خُذها إليك من الأبكار غانية   تختالُ في حُلَّة من عسجد ورَدا

قلدتها عِقد دُرِّ المدح فابتسمتْ   فرائد قد تواخى أناملها جُددا

---

(١) البدرة: الكيس تحفظ فيه الدنانير أو الدراهم.

واسلَمْ ودُم آمنـــاً مـن كـل حادثـةٍ   بطول عُمْـرٍ مديـدٍ لا تَـرى نكـدا

أحــاطك الله بالأســماء أجمعـها   حِفظاً ولا زلت ترضى الواحد الصَمَدا

ثم الصلـوة علـى المختـار سـيدنا   محمد المصطفى مـن للأنـام هَـدى

والآل والصحب ما هبَّت الصبَا سَحَراً   انهلَّ قطرٌ وزهرُ الروض فـاح نـدا

ومنهم السيد عبد الله أمين الفتوى في بغداد حيث قال [من الخفيف]:

قد أنــار الوجـودَ نُـورُ سـناكا   مذ توالـى النَّـدى أتـاك أتاكـا

أحمد المُصلـح المُضلِّيـن قسـراً   عم اصلاحـه الـثرى والسِّـماكا

فَـرَح النـاسُ بـالقدوم إليـهم   ودَنَـوا ينشـقون طيـب شَـذاكا

مرحبـاً مرحبـاً بخـيرِ قـدومٍ   سَـرَّ أهـل الصـلاح والنُّسـاكا

أنتَ روحُ البلاد أنتَ قَوامُ النـاس   لـولاك شـارفوا الإهلاكـا

أنتَ لـولاك ليـس يـأمن سـارٍ   بـل ولـم تُـهدَ سُـبْلنا لولاكـا

أنتَ نِعْـمَ الوالـي شَـفوقاً علينـا   طـوَّل الله عمـر مـن والاكـا

أنتَ للديـن حيـثُ كُنـتَ عمـادٌ   فبنصـرٍ منـه الإلـه حَباكـا

لا تَقِسْ ما مضى لنسـوع قُصـور   قـد جـرى للنبـي أحمـد ذاكـا

كـل أمـرٍ نـاب النبـيَّ ففيـه   الصعب والليـن يُحمـدان هُناكـا

<١١٠أ>

ليس يَسرى للتِّبرِ بالعرض في النار   هـوانٌ فافهمـه طـال بقاكـا

انما اختـير ذا التخليـصِ غـشٌ   منـه فـالتبر أنـتَ لا يخفاكـا

إنمـا كـان مـا جـرى فلأمـرٍ   رُفِعَتْ فيـه عنـكَ عيـنُ عِداكـا

ليس نُكراً قد جاءنا العين حقٌّ   شَرُّها الله ذو الجَلالِ وقاكا

مَنْ ربِّي بالصلح والصلح خيرٌ   وعلينا بالعَوْدِ حتى نراكا

فئة البغي قد أطاعت لأمرٍ   منكَ واستشفعوا وراموا رِضاكا

بعد أن سِرْتَ نحوهم بجنودٍ   ملأ الرَّهج منهم الأفلاكا

فبفضل مننْتَ بالعفو عنهم   وبهذا الصنيع طاب ثناكا

هذه خَصلةٌ فسُبحان مَنْ مَنْ   وأولاكَ فِعلها وهَداكا

هكذا شيمة الملوك قديماً   أنت فيها حقاً ورِثْتَ أباكا

يا كريم الآباء حُزت خصالاً   جُمعت فيك لم ينلها سواكا

كرم مع شجاعة توأمانِ   حسن خُلقٍ بشاشةٌ لازَماكا

راحة شأنها السَّخا فعجيبٌ   كيف أن لا تمِلُّه من عَطاكا

قَدَم منك أن تحِلَّ بأرضٍ   أجدبت زادَ خَصبُها بخُطاكا

أسَدٌ أنتَ في حروب شجاعٌ   ويح قوم تحيَّزوا للقاكا

يا حميد الخصال أعطاك طَولاً   حاكم العرش منذ قد ولاّكا

كيف أقوى أعدُّ بعض سجايا   ك واستطيع أن أفوه بذاكا

هِمَمٌ أم شجاعة أم ذكاءٌ   حسن رأي أمْ أمْ وأمْ اسخاكا

حِرتُ ماذا أقول فيك فعجزي   عن أدائي لذاك عين ثناكا

أنتَ في هذه الخِصال فَريدٌ   قطع الله إثْرَ من عاداكا

أنا حَسَّانك القديم عُبَيْدُ   الله أُدعى في الناس من سُعداكا

<١١٠ب>

نِلتُ عِزّاً ورفعة بمديحي   لك فاسلم ودُم جُعِلتُ فِداكا

حَسَدَتني لذي المناقب قومٌ   لا أُبالي بهم وقصدي رضاكا

إن مَنْ يخطب المديحة يوماً ... لم يَرَ المَهْرَ غالياً إذ ذاكا
لك حالي شرحتُ إني بمدحي ... لك في الاشتغال لا أنساكا
ما مُرادي جوائزاً أبتغيها ... لا ولا درهماً وقصدي بقاكا
فإذا كنتَ لي كفاني عزّاً ... وأنال العُلا بعزّ عُلاكا
مدّ في عمرك الإله دهوراً ... عدُّها يبلغ الحَصى والسِّماكا
كل فردٍ يهواك يدعو ولكن ... أنا وحدي بكل من يهواكا
دُم بعزٍّ ورفعةٍ أنتَ والآل ... وكذا الصَّحبُ ثم من والاكا

وممّا قيل وفي وصف المشار إليه مع تاريخ هذه الوقعة [من الكامل]:

السعد أقبل والإقبال والنِّعَمُ ... فالدهر يفخر والإسلام يبتسمُ
أنساً بعَوْدِ أبي الفتح الوزير إلى ... دار السلام فشمل المُلك منتظم
أقام سُنّةَ عدلٍ في البلاد بها ... ترعى مع الذئب في أكنافها الغَنَمُ
غزا الأعادي بآراءٍ مُسدَّدةٍ ... وعسكر ضاق عنه السهل والاكم
حتى أذلّ رِقاب الأعجمين كما ... ذُلّتْ لدى صقرها العُقبان والرَّخَمُ
وهدَّ منهم حصوناً ما بنى أبداً ... مثالها في القُرى عادٌ ولا إرَمُ
حتى غدتْ تبتغي عفواً ومرحمةً ... فماد يؤمّل عفو السيد الخَدَمُ
فمنّ فضلاً عليهم بعد قدرةٍ ... كالدهر يصفح أحياناً وينتقِمُ
وعادَ والنصر والتأييد يقدُمُه ... والعز والفخر والافضال والكرم
وخاطبه الملا طُرّاً مؤرخةً ... حَقّتْ بعزٍّ قواك العُرْبُ والعَجَمُ

ويقال أن الملا سليمان الكردي أنشده في هذه <١١١أ> الوقعة قوله [من الكامل]:

سعد السعود هلَّ على الأوطان ... فلذاك أشرق منه كل مكان

والنيِّر الأعلى ضياه قد بدا ... في سائر الأمصار والبلدان

فارتاحت الإسلام منه واغتدى ... أهل البسيطة في هَنا وأمان

والعندليبُ مُغرِّدٌ بلُحُونه ... والبلبل الصدّاح أعرب ثانِ

والورُق تسجع والهزار مُجاوبٌ ... بتفنن الألحان في الأغصانِ

وخطيبها فوق الأراكةِ شادياً ... يدعو بتأييد بعال الشانِ

والطير تدعو باختلاف لغاتها ... للمالك المنصور بالرَّحمانِ

فمُغرِّدٌ ومُرَجِّعٌ ومؤمِّنٌ ... ببقا الوزير ونصره في الآن

شمس المعالي والمفاخر أحمد ... جَمُّ المحامد صاحب الإحسان

للفاتح المَلِك الوزير أبو العلا ... عَيْن العُلى والنور للإنسان

ذو هِمَّةٍ حَسَنيَّةٍ عَلَويَّة ... ومَكانةً يعشو لها القَمَران

وعزائم ومغانم ومكارم ... أربَتْ على ساسان مَعْ قحطان

دانت لهيبته الملوك وأذعَنَتْ ... للسُّلْم كالأفغان في الإذعان

خوفاً لصطوة بأسه ولعِزِّه ... قد قلَّدوه الأمر بالإذعان

فاختار إصلاح البَرِيَّةِ كلَّها ... بالصلح توفيقاً مع المنَّان

مع ما له بالاقتدار على العِدا ... فعفا وعفَّ رَجا عظيم الشان

سار الوزير بدولةٍ قد حفَّها ... عِزٌّ وإقبالٌ من الديَّان

فارتجتِ الأرض البسيطة هيبةً ... من خيله وتزايد الفرسان

والجنُّ تنشد حين قام خطيبها ... هذا الوزير واصف السلطان

الرافع الرايات بالفتح الذي ... خفض العدى بالجزم في البلدان

<١١١ب>

والسابق الغايات في شأوِ العُلا ... والحائز القصبات يوم رِهان

ملك تُشَيِّعُه النسور إذا غدا ... حتى البُغاة وسائر العِقبان

إن عازَهُنَّ مخالِبُ فسيوفه ... تغني لهن ومخلب المسرآن

ساس الممالك فاستتمَّ نظامُها ... من بصرةَ الفيحا إلى همذان

بقدومه دار السلام تشرَّفتْ ... ولذلك افتَخَرتْ على الأوطان

والبصرة الفيحا به قد أبصَرَتْ ... وارتاح سُكَّان لها بتَهانِ

والشام مع مصر وسائر مُدْنِها ... قُزوين مع تبريز مع كَرْمان

لا بل تباشَرَتْ الممالك كلها ... يَمَنٌ وأرض حجازها عُمانِ

بالنصر والتأييد بالمَلِكِ الذي ... فَتَحَ الفُتوحَ بسائر البلدان

والمِلَّة الحنفية السَّمحا به ... ظهرت على الأديان في الأزمان

والسُّنَّةُ النبوية اخضَرَتْ به ... رَوْضاتها بأزاهر الإيمان

وأماتَ كل الابتداع فاصبحوا ... كل العباد بفَرْحةٍ وأمان

وثَنَّى العزيمة بعد ذاك بدولة ... عظماً بها يرتجُّ كل مكان

شمس لمطلع شمسها متقصِّدٌ ... سار إلى التسخير خوزستان[1]

دانوا لهيبته ضُحىً واستسلموا ... طوعاً وشمس العز في سلمان؟

فوفَّى لهم بأمانة وضمانة ... ثم اغتدى سارِ إلى العُربان

فلئن أطاعوا ثم زيدوا خِشْيةً ... من بأسه ورضوا بحظ ضَمان

نالوا السلامة واستقروا في الحِمى ... ولئن عتَوْا فمُخالف السلطان

تحت للوَبال مع النَّكال وبعدَ ذا ... قد باء بالخُسران والخذلان

والدولةُ المنصورةُ العُظمى التي ... سَرْدارها المَلِك العلي الشان

---

(١) في الأصل (خورمستان).

تحتاطهم وتحوز كل سوادهم   بمظفَّرٍ سامٍ على الأقران

<١١٢أ>

ألِفُ العُلى جاء الحكومة سعدها   ميم المعالي واحد الأزمان

للدولة العُظمى العلِّية دالها   سردارها هو صاحب العرفان

هو آصَف الثاني حَسْبُكَ إنه   نور الزمان ومعدن الإحسان

فإذا اعتدى اسكندر وإذا عدا   هو عنتر وإذا بدا خاقان

ذو راحة وكَفَّتْ ندى وكَفَّتْ رَدى   ووفَّت هُدى بالصِّدْق والإيمان

يُمنى تُهلُّ بالنوال كأنها   سُحُبٌ تَسَّح بوابل هَتَّان

يُمنى تُمدُّ بخمسة من أبحر   من كل أنملةٍ بوسط بنان

لكنه عذب فُرات سائغ   هذا وأنَّى يستوي البَحران

ومُقبِّل أفواه الملوك وإنها   ليمين من لا مانَ بالحلفان

لولا الغلو لقلتُ مهديُّ الورَى   لشمائل منه وحُسن معاني

هذا هو الفخرُ الذي ما ناله   من قبلُ ذا كسرى أنوشروان

كلا ولا للقوم الأولى من يَعرُبٍ   لا ابنُ ذي يَزنٍ ولا الصُّهبان[1]

قد أعجز البُلغاء حصْرَ مديحه   من لي بحصرِ مديحِ عالي الشَّان

بدرٌ نميرٌ في الفضائل والعُلى   صدرٌ مشيرٌ مُعدَّل الإيمان

من طاف كعبة جُوده من آملٍ   إلاَّ ونال مُناه بالإحسان

يا أيها المَلِك الذي من طَبْعِه   بَذْلُ الندى في سائر الأزمان

خُذها إليكَ من النظام خريدةً   خطَرت تميسُ بفاضل الأردان

---

[1] سيف بن ذي يزن من ملوك اليمن، صاحب الشهرة المستفيضة في تاريخ العرب قبل الإسلام، وصهبان بن سعد بن مالك، جد جاهلي، من النخع.

بكـراً عروسـاً زفَّـها لـك مـاهرٌ بفصاحةٍ تُـزري علـى سُـحبان[1]
أمَـةٌ إليــك هديــةٌ يقتادُهــا منّـي الرجـا ببلاغــة وبيــان
قلّدتُـها بجواهـرٍ مــن مَدْحِـه يـا خَجْلَـةَ الأغصـان والغِـزلان
ستَرَت فأخجلت المَـهات بحُسـنها وبكفـها أوْمَـت بحُسـن بيـان

<١١٢ب>

فاسمح لـها منـك القَبُـول ونظـرةً تُغنـي عـن الإكسـير للإنسـان
واسْـلَم ودُم بسـيادةٍ وسـعادة ومكانـةٍ تسـمو علـى كِيـوان[2]
بالسـعد والإقبـال دُمـتَ مُوفّقـاً والعِـز ثـم الحـظ والايمـان
ما شبَّت الريح الصبا سَـحراً ومـا غنّى الهَزار علـى غصـون البـان
ثـم الصلـوة علـى النبّـي محمـد خير الـورى سـيِّد بنـي عَدنـان
والآل والأصحاب ما انـهلّ الحَيـا واخضـرّ روض شـقائق النُعمـان

فصــــل

[تزويج عادلة خانم بنت الوزير أحمد باشا]

ثم أنه بعد رجوعه إلى دار السلام بِجُموعه، رُسِم في الألواح، وبـدا للوجود ما كان خافياً من عالَم الأشـباح، أن زوّجَ فـي السـنة الخامسـة والأربعين[3] ابنته دُرّة الغوّاص، وظبية القنّاص، صالحة وقتها وزمانـها، وزاهدة عصرها وأوانها، كريمة الشمائل، جميلة الخصائل، ذات الجمـال

---

[1] هو سحبان بن زفر الوائلي، خطيب يضرب به المثل في البيان، توفي سنة ٥٤هـ.

[2] كيوان: زحل.

[3] أولها ٢٤ حزيران ١٧٣٢م.

الباهر، والكمال الظاهر، والحِلم الوافر، والعقل المُتكاثر، والحَسَب الـــذي أربى على غمْدان، وناف على الخَوَرنَق وثَــهلان، العفيفــة الدَّيِّنــة، ذات الأخلاق الحَسَنة، عادلة خانِم[1]، من كتخُداه الشـــجاع الكاســـر، والليــث الجاسر، حاتم هذا الزمان، وعَدِي الكَرَم والاحسان، سليمان باشا[2]. وقـــد عمل لها عرساً عم الوجود السرور، وزاد كل موجود الفـــرح والحبـــور، والله أعلم.

فصــــــل

[الخروج إلى الصيد]

وفي هذه السنة[3]، خرج كما هو الأكثر من أحواله، والأشهر مـــن أفعاله عند أمثاله، إلى الاصطياد والقنص، ناهباً من دهره طيّبات الفـرص،

---

[1] هذه السيدة قدر لها أن تحكم العراق بيد من حديد من خلال حكم زوجـها سـليمان باشا الأول، المعروف بأبي ليلة، ولها مآثر جمة ومبرات، منها إنشــاء جـامعين، أحدهما ضم مدرسة وخزانة كتب، وخانات، ودار للمحكمة، وسقاية للماء، ومنشآت أخرى في خارج بغداد. وقد فصلنا القول في سيرتها في كتابنا: عادلــة خــاتون، صفحة من تاريخ العراق، بغداد ١٩٩٧، ص٨٤.

[2] هو المعروف بسليمان باشا أبي ليلة، وهو أول ولاة المماليك في بغداد، تولى حكـم البصرة متسلماً لها سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م، ثم صار والياً على بغـداد والبصـرة سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م واستمر حكمه، الذي اتسم بالقوة والنزاهة، حتى وفاته سنة ١١٧٥هـ/١٧٦١م، وخلفه كتخداه علي باشا.

[3] يتفق رسول حاوي الكركزكلي مع المؤلف فـي أن هـذه الحادثـة جـرت سـنة ١١٤٥هـ، بينما ذكر المؤرخ عبد الله الفخري المتخلص بنشـاطي (توفـي سـنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م) أن هذه الحادثة جرت سنة ١١٤٣هـ. وينقل الرحالة نيبـور=

فلما وصل بعبيده وحَشْده وخُدّامه، وبَلَغ هور عقَرقُوف[1]، وصار بين أغياله وآجامه <١١٣أ> أبصر بعض من تقدم في مسيره من الحشد عن قُرْبٍ وكَثب، لَيْثاً مفترساً على الرصد، فانخلع له فؤاده، ووجب إذ أبصره بارز الناب في الوصيد، مجتمع الإهاب ليختلس فيصيد، مع عِظَم جُثمان، ومتانة جِنان، قد طويت الشجاعة تحت لبدَته، ونُشِرت بين الجماعة أخبار شِدَّته، وقد تعود افتراس الفوارس، واعتاد اتخاذ الأبطال الفرائس. فقَبْل أن يقع نظر الليث عليه، رجع القهقرى، وهَرَب مولياً نحو الوزير ومدبراً، فأخبره بما أبصر، وأنذره وحذَّر، وقال: الرجوع عن هذا الطريق أسلم، وإذ لا قِبَلَ لجميعنا بهذا الأسد الغَشَمْشَم[2]. فَعَدَّ الوزير كلامه هَذَراً، ونَسَبه إلى كثرة الجُبن وكاد أن يكون دَمَهُ هَدَراً، وسار نحو الأسد بمن معه، وقصده مع من تبعه. فلما أشرفوا على العَرين، وشاهدوا كبر جثمانه

=عن أفواه أهل بغداد أن تزويج أحمد باشا ابنته من سليمان باشا حدث بسبب إسراع الأخير إلى إنقاذ سيده من أسد حاول البطش به في أثناء ممارسته صيد الأسود في هور عقرقوف قرب بغداد، ينظر رحلة نيبور إل العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة الدكتور محمود الأمين، بغداد ١٩٦٥، ص٥٧، بينما يضع عبد الرحمن السويدي، يؤيده الكركوكلي، دوحة الوزراء ص٢٨، حادثة خروج أحمد باشا إلى صيد الأسود في عقرقوف تالية لحادثة تزويجه عادلة خانم، ولا يشيران إلى دور سليمان باشا في إنقاذ حياته.

(1) تقدم التعريف به. وذكر العزاوي فيما نقله عن تاريخ نشاطي، أن الصيد كان في هور نمرود، قلنا: ومبعث هذه التسمية تصور الماضين أن برج عقرقوف من بناء الملك النمرود الواردة أخباره في الأساطير العربية القديمة.

(2) الغشمشم: الجريء الماضي.

المتين، تأخَّر جميع الخَدَم، وهرب الجميع على ساقٍ وقَدَم، لم يَبْــقَ غــير مُضارِعِه[1] ومُبارِزه ومُصارِعه. ولم يكن غير ليثٍ وليــث فــي المقــام الضَّنك، ولم يثبُت غير أسد وأسد تحت القَتام بلا شك، فأغار على جَــوادِه، وتقدَّم إليه بقوة جأشه وفؤاده، ورماه بحَرْبَـــة مــاءُ المنايــا يجــول فــي إفرِنْدِها[2].

وأرسل إليه عَنَزةً[3] تجلب الرزايا والبلايا من حدِّها، فزَلْزِلَت قُــواه إذ لم تُخْطِه، وأوْهَنَت أحشاه حيث مَرَقَت من تحت أبْطِـــه، لكنـــه تجلَّــد لمُمارسة الفوارس، وتصلَّد لتعوّده على الفرائس، ورجع إليه بحدِّه، ووثَــب عليه بشدِّه، لكن الحصان <١١٣ب> أراد أن يكفي الوزير شــرَّه، ويدفــع عنه نَكَده وضُرَّه، فجَمَع وأدبر، وثبَت بمكانـــه واسـتقر، وأعــدَّ للأســد حافِرَيْن، لو رَمَح بهما رَضْوى لطحنه، أو رَفَس بهما ثَهلان لعَجَنَه.

فلما وثَب الأسد على كَلْكَلِه، ليختطف الوزير من أسفله، رمَحَه علــى أُم رأسه، وكاد ان يقضي عليه بقطع أنفاسه، ونزل الوزيـــر مــن فــوق حصانه، وتسجَّى بفَرْوَتِه السَّمورية في مكانه، وبقي ســاكناً، ودام قاطنــاً ليحتال بالأسد، وليُميته عن كَمَد. والحيلة أنه فكَّر في نفســه إن صارَعــه ومارَغَه وقارَعَه وراوغه يُتعبه ويؤذيه بمُهارشَته لنحر فيه، لكنـــه قــال: سيظُن أني أُصبتُ وغُلِبتُ وميتٌ أو طُرِحتُ فيثِب عليَّ، وهذا خنجري فــي يدي، فأفري بطنه حالة الوثوب، وتُقضى حاجةٌ في نَفْسِ يعقوب.

---

[1] المضارع: المشبه.

[2] إفرند وفرند: جوهر السيف وماؤه الذي يجري فيه.

[3] العنزة هنا: عصا في قدر نصف الرمح أو أكثر شيئاً فيها سنان مثل سنان الرمح.

فلم يزل ساكِناً ينتظر وثوبه، ولم يَبْرَح مُفكِّراً له بكل عقوبة، حتـــى أعياه الإنتظار، وتيقّن أن الأسد فَطِن لهذه الأسرار، وأنه ربَــض ينتظـــر قِيامه، ليقِيم على رأسه القِيامة، فنهض سريعاً، وقام لحَذَبه وفِكره مطيعــاً، شاهراً سيفاً كلِسان الحيّات، ناظراً بسرعة إلى جميع الجـــهات، فلـــم يـــر للأسد أثراً، ولم يَدْر له خبراً، علم أن الحَرْبة قد أوهَنَت عزمــــه، وأذلّـــت حزمه، وأسالت دمه، فأرته النهار عتَمة، وأنه طلب النجاة برأسه، وهـــرب في الفلاة حِرصاً على أنفاسه، ولم يخطر بباله أن الحصان زَيّـــد إذلالــه، وأباد عزمه وخيّب آماله <ع ١١أ>

ثم أن الوزير المذكور ركب حصانه، ونادى أعوانه، فتراجعوا عـــن خَجَل، يهنُون بما فعل، فأمر أن يطُوفوا الآجام، وينظروا ما شـــأن ذلــك الضّرغام، هل اخترمت المنيّة أجلَه، أم قَطَعَت[1] الحَربة الجريّـــة أملــه؟ فأُبصِر مختفياً خلال الشّجَر، لم يقدر على نقل أقدامه، ولم يطــق الــهرب إلى عرينه وآجامه، قد قيّدته الطّعنة بأمراس، وفلّقت الرمحة منه الـــرأس، وانه لم يبق فيه غير هَرِيره، ولم يوجد فيه سوى زئـــيره، فقُتِـــل وسُـــلِخ إهابه، وقُلِع ظفره ونابه، وحُشي إهابه تِبْناً، وقدم بــــه بغـــداد، فأبصرنـــاه عظيم الخِلْقة كأنه طَوْد من الأطواد، وقد امتدحــــه بعـــض أهـــل الباديـــة بلسانهم، ذاكراً هذه الوقعة مفصّلة، فقال [من الطويل]:

يقـــول ســـليمان الفقيـــه مشـــــائل	مشائل عَـــدلات القَوافـــي وسُـــورها
أقوله وأنا في حصنٍ بغـــداد جـــالسٌ	على اثر شيخ من مَناهي صقورهـــا
أنـــا قـــايدٌ للقيـــل قَـــوْداً هميمـــــةً	مع العصر وإني جالس فوق كُورهـــا

[1] وردت (قطعت) في الهامش.

ونوّختها عقــب الســر عنــد خــير وقلت إن ذا امتِضاكَ إلــيَّ تزورهــا
حِمي الخيل أبو عَدْله إلى ما تقلوعت نِفاراً وعيدان القنـــا فـــي نُحورهــا
أحمد باشا صاحب الفضل والسَّـــخا لكنه غزير المــاء يســقى نُــهورها
سلطانُ قَـــوم يــا عزيــزُ مُشَــرَّف لو تاه رأي القـــوم عــدَّل أمورهــا
يا سلطانِم كم ديــــرةٍ قــد فلَّيتَــها[1] ومن قبلك الباشات ما يقدروا لـــها[2]
حليم كريم منبســع الجــود والسَّــخا كَسَّارُ عَبرات العدى في صدورهـــا
وكنَّك أبـــا زيــد الــذي يذكرونــه إذا قابلت خيـــل الأعــادي يديرهــا
عفاكَ قتلتَ السَّبْعَ يـــا شــائع الثَّنــا ومن قبلــك الباشــات مــا يقتلونــها

<١٤١ب>

عفاكَ الذي توماسكَ[3] اليــوم طــائل وصيورها[4] الدنيا تقضـــي أمورهــا
عفاكَ الذي طلّعك بعيدٍ علـــى المَـلا كما طَلَّع قـــد لقـــى مـــن بُحورهــا
أيا شــيخ إنـــا فـــارقت مـــا سـببته ورلحَتْ نِفاراً من تضـــايق أمورهـــا
ومـــن عقبـــها أنـــا ســفية وجـــاهِلٌ سفيه لكني شـــارب مـــن سُــكورها
عطايـــاكَ جَــزّلات كبـــار لِعَدّهـــن تحاكت بـــها حكـــام نجـد بدورهـــا
أعذتــكَ بـــالله والنبـــــي محمـــدٍ ومكة مع حجاجـــها إلــيَّ تزورهـــا
وصلّوا على خـــير البرايـــا محمـــد عدد ما تغنّـــى بالعَشـــايا طيورهـــا

هذا ما أخبَرَني به والدي حفظه الله.

---

[1] سلطانم، صيغة تركية عربيتها: سلطاننا.

[2] الباشات: جمع باشا، يريد ولاة بغداد السابقين ممن كانوا يحملون هذه الرتبة.

[3] هذا الذي في الأصل.

[4] هذا الذي في الأصل.

وحدثني بعض الجند: أن الوزير كان مع خَدَمِه، فأرسل طَيْرَه للصيد وقد تَبِعه والطير في جَوّ السماء يتجاذب مع قَطاة، ولم يزل يتبعه حتى انفرد عن خُدّامه، وقد وقع الطير بما صاد فوق بعض أشجار القَتاد، فَعَلَق منه الجَناح، وأشْغَلَه عن الذهاب والرَّواح. ولما قدم الوزير إلى إسعاده، وتخليصه وانجاده، أبصر الأسد كامِناً خَلْف تلك الشجرة، خافياً أثره وخَبَرَه، فكان كما قدّمناه، وصار ما أسلفناه.

فصل

[وفود الشيخ ابن عقيلة]

وفي أوائل هذه [السنة]، وَفَد عليه العالِم العلاّمة، والحَبْر الفهّامة، ذو التأليفات المفيدة، والتصنيفات العديدة، الشيخ محمد بن عقيلة المكّي[1]، فانتَجَ الوزير آماله، وحسَّن بالعطاءِ أحواله، وقد أجازني بحديث الرَّحمة، فهو أولُ حديثٍ سَمِعته منه، وأجازني بِمُسَلْسَلاته والكتب الستّة وجميع ما له فيه رواية. وأجازني بلبس الخِرقة، وأجاز والدي بها بالفعل حيث ألبَسَه <١١٥أ> إياها، وكانت حينئذ عَرَقيّة[2].

---

[1] هو الشيخ محمد بن أحمد بن سعيد المعروف والده بعقيلة، جمع بين علم الحديث والتصوف، ونبه أمره فيهما، وقصد العراق والشام، فتلمذ عليه كثيرون، ثم درس في بعض مدارس دمشق مدة، وعاد إلى مكة حيث توفي سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م، وله مؤلفات أكثرها في الحديث ومسلسلات الرواة والصوفية، كما وضع كتاباً في التاريخ. ينظر المرادي: سلك الدرر ج٤ ص٣٠.

[2] قال أبوه عبد الله السويدي في كتابه النفحة المسكية في الرحلة المكية (نسخة المتحف البريطاني، الورقة ١٠أ): ولبست الخرقة، وكانت عَرَقية، عن شيخنا=

[ظهور نادرشاه]

ثم لم تَزَل الناس تَرتَع في صحاصِح الأمان، وتَمْرَح على بِساط العَدل في وِديان أيِّ وِديان، قد عمَّهم السرور والهَنا، وذهب عنهم كل الشرور والعَنا، إذ قد ذُلَّت جميع الأعداء، وجادَتْ بما يَرُومُونه الأنواء، حتى غدَت بغداد في الهَناء والفرح والسرور، يتلو على أفنانها طائر الإسعاف والإسعاد: (بلدةٌ طَيِّبةٌ وربٌّ غَفُور)[1]، إلى سَلْخ هذه السنة، فنَجَم الظالِم الغَشُوم، والطاغي الباغي المَشُوم، نادرشاه[2]، من بطون بلدان أهل

-الشيخ محمد بن عقيلة، أيام إقامته في بغداد، عام ١١٤٥، وأخذت عنه تلقين الذكر وجميع مسلسلاته التي جمعها في تأليف له، وهي خمسة وأربعون مسلسلاً. قلنا: والعرقية: لباس للرأس يصنع من القطن أو الكتان، ويوضع على الرأس مباشرة، تحت العمامة، ينظر دوزي: المعجم المفصل لأسماء الملابس، ترجمة أكرم فاضل، ص٢٤٤.

[1] سبأ، من الآية ١٥.

[2] لم يلقب نادر نفسه شاهاً إلاّ في ٢٥ شوال ١١٤٨هـ/٨ آذار ١٧٣٦م، أي بعد حوادث هذه السنة بثلاث سنوات تقريباً، وكان قد ولد في خراسان سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م من قبيلة تركية تدعى (أفشار)، وكان والده راعياً وقيل خياطاً للفراء أو جمالاً، وتزوج هو ابنة زعيم قبيلته فذاع أمره، ثم ورث الزعامة عن صهره، وألف تحالفاً قوياً من القبائل، استطاع به مقاومة ملك محمود، حاكم مشهد، وحينذاك أرسل إليه الشاه طهماسب ميرزا، الذي لفتت نظره شجاعة نادر، يطلب عونه، فالتحق الأخير به، ولم يلبث أن شق طريقه بسرعة إلى المنصب العليا في الجيش قاضياً بذلك على منافسيه، ثم عين وزيراً للتشريفات ومنح لقب (طهماسب قلي) أي عبد طهماسب، وشرع بعد ذلك باستعادة أملاك الصفويين الضائعة، ففتح مشهد، وبدأ حرباً مريرة ضد الأفغان، حتى استولى على هرات، وواصل حربه ضدهم، باسم الشاه طهماسب، فاستولى على أصفهان العاصمة الصفوية التي-

فارس، وقصد العراق بكل بطل حارس ممارس. وسبب نُجُومــــه، وعِلَّــة قُدومه على العراق وهجومه، هو أن نادر هذا كان اعتمــاد دولــة الشــاه طَهْماسِب المتقدم ذكره، ولم يكن حين الوقعة المذكورة موجــوداً، وكــان مشهوراً بالشجاعة، معروفاً بطُول الباع في هذه الصناعة. فبعــد أن فــلَّ جَمْعُ طهماسب، قال الوزير المذكور: لو كان ذلك الكلب موجــوداً، لَكُنّــا خلّصنا المسلمين منه. فسمع ذلك الكلب هذا الكلام، وجمع جموعــه ذلــك العام، وأرسل إلى الوزير المذكور: أن قد ذكرتَ يوم كذا كذا وكذا، فها أنا قادم عليك، إثر الرسول المُرسَل إليك، فتأهَّبْ للحرب والقتــال، والطِّعــان في النزال[1].

-كانت بأيديهم، ثم استدار بقواته إلى الغرب ليسترجع ما كــان العثمــانيون قــد استولوا عليه من أقاليم كرجستان وأرمنستان وقسـم مــن داغســتان وشــيروان وكردستان ولورستان، وهكذا فإنه أعلن الحرب على العثمانيين، واستطاع بــالفعل أن يحقق قسماً من هذا الهدف، فاستولى علــى ميــاندوب وســاوجبلاغ ومكــري ومراغة، ثم دخل تبريز، وبذا أصبح خطره على المناطق التي كان يسيطر عليــها أحمد باشا في غربي ايران ماثلاً، وبداية للتداعي الذي سيؤدي بأحمد باشــا إلــى الانسحاب إلى بغداد على ما سيروي المؤلف فيما يأتي من هذا الكتاب. وأخبــاره في التواريخ الفارسية والعثمانية كثيرة، ففي الفارسية ألف ميرزا مهدي خان، وهــو مؤرخه المعاصر له، كتابين في سيرته هما (جهانكشاي نادري، تهران ١٢٣١) و (درة نادرة، تهران ١٢٤١) وألف محمد حســين قدوســي (نادرنامــه، خرامــان ١٣٣٩) وبالتركية وضع ابراهيم متفرقة كتاباً في سيرته عنوانه تــاريخ نادرشــاه (مخطوط في مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٥٠٢) وثمة دراسات حديثة عنــه منــها Lockhart في سيرته Nadir Shah London 1938.

[1] هذه الرواية وردت في دوحة الوُزراء أيضاً. ولكن يستفاد من الأمر الموجه إلــى أحمد باشا بتاريخ أوائل شوال ١١٤٢هـ (دفتر مهمة ١٣١ ص٦١) أن الأمــير-

ثم أن الوزير عرض بذلك إلى الدولـــة العثمانيـــة، فـــأُمِدَّ بأســـود إسلامية، وباشات خاقانيّة، لكنه لـــم يؤمَـــر بقِتالـــه، ولا بمقابلـــة رجالـــه برِجاله[1]، بل أُمر بحفـــظ القلعـــة، وأن يباشـــر كفَّـــه عنـــها ومَنْعَـــه[2]. <١١٩ب> فأرسلوا جنوداً لحفظ البلاد، لا للمكافحة والجِلاد.

=طهماسب الذي استولى على أصفهان (وكان ذلك بسعي قائده نادر) يطالب الدولة العلية بالانسحاب من المدن والمواقع الإيرانية التي احتلتها منذ سنوات، وإن هي لم تنسحب منها فإن القوات الإيرانية مصممة على تحريرها واستردادها مهما كلـــف الثمن.

[1] قول المؤلف أن السلطان لم يأذن لأحمد باشا بمقابلة جيش نادر قلي (نادرشاه فيمـــا بعد) تعوزه الدقة، فإن الأمر الصادر من الدولة إلى أحمد باشـــا بتـــاريخ أواخـــر جمادى الآخرة ١١٤٣هـ (دفتر مهمة ١٣٦ ص٣١٣-٣١٤) يؤكد إقراره بمنصب (سرعسكر) الجيوش العثمانية، وتزويده بكل ما يحتاجه من قوات ومهمات وذخائر ليقود حملة كبيرة ضد الإيرانيين، ويسترد منهم كل المناطق التي استولوا عليـــها، وأن السلطان ينتظر النتائج التي ستتمخض عن هذا الأمر. وأن أوامر مماثلة (دفتر ١٣٦ ص٣١٦) قد صدرت لمتصرفي الألوية في كل من ديار بكـــر وشـــهرزور والموصل ومرعش والبصرة وغيرها. وكان ثمة اجتماع قد عقد فـــي اســـتانبول حضره كبار رجال الدولة تمت فيه دراسة التصريحات التي أدلى بـــها طهماســـب قولي خان (نادرشاه) المعادية للدولة العثمانية بكل جديـــة، وفـــي ضـــوء نتـــائج الاجتماع جرى توجيه الولاة والأمراء، ومنهم أحمد باشا، بالعمل من أجل الدفـــاع عن البلاد بالتعاون والتعاضد.. وقتاله إذا اقتضى الأمر ذلك والوقوف بوجهه بكـــل شدة (دفتر مهمة ١٣٨ ص٢٥٨ أواسط ذي الحجة ١١٤٤). ويظهر أن ما ذكـــره المؤلف هو إشاعة أريد بها تفسير الانهيار السريع للجبهـــة العثمانيـــة فـــي هـــي النواحي بما مكن نادر من الوصول بجيشه إلى بغداد.

[2] في نسخة الأصل هنا عبارة ضرب عليها نصها (وسبب ذلك برودة جرت)، فيظهر أن المؤلف أراد أن يوضح سبب عدم صدور الأمر بالحرب ثم عدل عن ذلك.

وكان إذ ذاك الصدر الأعظم، والوزير الأفخم، ذو الصَدارة العظمى، والوزارة الكُبرى، علي باشا المعروف بابن الحكيم[1]، فأمدَّه بالعسكر المذكور، ولم يأمره بالقتال لأمرٍ ما من الأمور، وكان عِدَّته مائة ألف فارس[2]، وكان معه من الوزراء ثلاثة: قَرَه مصطفى باشا[3]،

---

[1] هو علي باشا حكيم أوغلي، ولد سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م، وتدرج في المناصب الإدارية والعسكرية، فعين أولاً بوظيفة (سلحشور) ثم أنيطت به مهام عسكرية، وعهد إليه بولاية حلب سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م، وكلف بفتح تبريز في أثناء الحرب العثمانية- الإيرانية التي نشبت في أعقاب انهيار الدولة الصفوية، ففتحها وسائر بلاد آذربيجان، ونال رتبة الوزارة في السنة التالية، وتولى ولاية أناطولي، نقل بعدها إلى ولاية شهرزور، ثم تولى قيادة الجيش الزاحف على تبريز مرة أخرى سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م فاستردها، وتولى ولاية البوسنة سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م وأبلى البلاء الحسن في الحرب ضد البلغار، ثم نقل إلى ولاية مصر سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م فوطد السلطة فيها، وبرز دوره في العراق قائداً في أثناء حروب نادرشاه، وتقلد مناصب مهمة أخرى، ولكنه أعيد ليتولى قيادة الجيش العثماني الذي كلف بصد هجوم نادرشاه على قارص سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، وتولى بعد ذلك ولايات عدة في الأناضول ومصر، وتوفي سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م ينظر سامي: قاموس الأعلام ص٣١٨٧-٣١٨٨.

[2] هذا العدد تؤكده الوثيقة الرسمية المؤرخة في أوائل ربيع الأول ١١٤٦ (دفتر مهمة ١٣٩ ص٢٩٠).

[3] ترجم له المؤلف فيما سبق من هذا الكتاب.

وصاري مصطفى باشا[1]، وحَمّال أوغلي أحمد باشا[2].

فدخل الخارجي المذكور حِمى دار السلام، وهرب أمامه أهل جميع القرى، واستأصل غالب ذراري الورى، وقابله بيك الدَّرَنَة[3] بعساكر الأكراد، فقُتِل وسُلِب منه الفؤاد، وتفرّقت ذراريه أيدي سَبَا، وغدَت شَذَر مذر على الوهاد والرُبى.

---

[1] قائد، تولى منصب (قبودان) أي قائد الأسطول العثماني سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، وأسندت إليه مناصب مهمة، ثم أعيد إلى قيادة الأسطول سنة ١١٥٧هـ، وتوفي سنة ١١٥٨هـ. قاموس الأعلام ص٢٩١٧.

[2] في دوحة الوزراء ص٢٩: تحرف لقبه إلى جمال زاده، بالجيم، واسمه أحمد علي باشا.

[3] أرض حدودية كانت تعد من أعمال بغداد، وكانت قديماً تعد جزءاً من كورة حلوان، وعدت في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) من أعمال درتنك، عند سربل زهاب، وعندما ضمت درتنك وأعمالها إلى الدولة العثمانية، ونظمت إدارة العراق، أصبحت درنة سنجقاً (لواء) من سناجق ايالة بغداد، وفي القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) أدمج هذا السنجق، بسنجق عراقي آخر، كان يتبع سابقاً ايالة الموصل، ويعرف بسنجق باجلان (باجوان)، وتولى حكم هذين السنجقين المدمجين (درنة وباجلان) متصرفون عراقيون من أسرة بابان الشهيرة، يعينهم في منصبهم والي بغداد، وفي سنة ١٨٢٠م ضمت ايران هذه المنطقة إلى أراضيها، وهي اليوم ضمن (شهرستان قصر شيرين). ينظر أوليا جلبي سياحتنامه سي، استانبول ١٣١٤، ج٤ ص٣٨٨ و الكركوكلي: دوحة الوزراء ص١٥١ و٢٢٩، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٨٦. ورحلة المنشي البغدادي، ترجمة عباس العزاوي، ص٤٣.

ثم أن الظالم الغشوم، والفاجر الظَّلوم، نَزَل فحــاصر بغـداد فــي الخامس والعشرين من رجب هذه السنة[1]، فعَمِلَت الأطواب من الجـانبين، وحنَّت حنين الثُّكلى ذات البَين. وكان نزوله محاذياً لقَصَبَة الإمام الأعظــم، بحيثُ تُرى خيامه من فوق السور، فضُرِب بالأطواب الكبار، ورُفِع عــن تلك الدار، ونزل فوق منزله بنصف ساعة، خَشيَة رُماة الجماعة، لكنه بنى ليلاً في مواضع شتى قريباً من السور، بحيث تصله بنــادق الزُنْبُــورَك[2] شيئاً يقال له الكُونكَره[3]، ووضَع عليه بعض الأطواب، يــروم بذلــك أن يجعل له من السور بعض الأبواب. فرفع الإســلام[4] بعضــها بــالطَّوب القالع، وبعضها بقيَّ لبُعده عن السور فليس بقاؤه للعدو بنافِع.

---

[1] ويوافق ١٠ كانون الثاني سنة ١٧٢٣م.

[2] للزنبورك، تصغير زنبور، الحشرة اللاسعة المعروفة، أريد به قديماً آلــة حــرب ترمي جملة من السهام دفعة واحدة، ثم أطلق في العصر العثماني على مدفع خفيف الوزن يحمل على دابة، وشاع استعماله في العراق في القرن الثامن عشر بوصفــه واحداً من أهم الأسلحة النارية المستعملة في الجيوش المتحاربة، وهو يتألف مــن اسطوانة دقيقة نسبياً تنتهي بموضع انفجار البارود، وتستند الاسطوانة على حــامل مثبت على ظهر الدابة التي تحمله، وشكل الزنبورك قريب من شكل مدفع الــهاون، إلاّ أنه أصغر حجماً وأخف حملاً. وربما تحرف اسمه إلى الزنــبرك، والزنبلــك. وسماه عبد الرحمن السويدي بالاسم الأخير في كتابه الآخر الذي عنونــاه (تــاريخ حوادث بغداد والبصرة).

[3] لفظة عامية عراقية، لعل أصلها من الفصيح: كنور، وهي العمامة الجافية، ومنــها العقال المكنكر، وهو المربع الذي تحليه. كرات، وقال الشيخ محمد بهجة الأثــري: إن أهل بغداد كانوا يعنون بها ما يشبه التل.

[4] يريد: أهل الإسلام، وقد تقدم هذا التعبير.

هذا، وأما بغداد <١١٦أ> فهي ذات سورٍ مكين، ذو بنـــاءٍ متيـن، راسخ في التُخُوم، شامخ إلى النجوم، وخندق عميق جداً، وقد بنى ســورها المهندسون، وفصَّلَه منهم الممارِسون، حتى غدا ذا خاصَّة لا يقبلها العقـل، ولا يُصَحِّحها النقل، حتى تُشاهَد عـــن كَثَـب، ويُنـادى إذ ذاك بالغرابـة والعَجَب، وهي أنه من مسير ساعة إذا نُظِر إليـــه لـم يُرمنـــه إلاّ رؤوس الشُرُفات، ولم يُبصر منه إلاّ بعضه من جميع الجُهات، وإذا تُقُـــرِّب إليـه أُبصر بناءً رفيعاً، وحِصنا حصيناً مكيناً فاحتار العدو فيه، ولم يقدِر علــى قلع حجر بِطَوْبه من أعاليه، بل أن طأطأ رأس طَوْبه ووقـــع بُنْدُقـه فـي التراب، وإن رفعه مقدار شَعيرة صار بُندُقه يخترق السَّحاب. ولم يزل فـي حيرة من ذلك، وعَجَب مما هنالك.

هذا، وأما الجانب الغربي فمعمور الجُهات، ومغمـــورٌ بـالخيرات، لحيلُولة دجلة بينه وبين ذلك الباغي، ومنعها من الوصول لذلك الطـــاغي. وقد وضع هذا الوزير عساكر في الجانب الغربي تُجاه العدو، تمنعه مـــن العبور، وتكُفُّه وتردَعه من نَصْب الجسور. والطَوْب أيضا يتراســل بيـن الشاطِئَيْن، وتترامى بنادِقُه من الجانِبَيْن <١١٦ب>

ولم يزل الجانب الغربي سالِماً عن الحصـــار، رخيـص الأثمــان والأسعار، منه يستمِدُّون أهل الجانب الشرقي ما أرادوا، ويستزيدون منـــه كَيْلهم وما استزادوا. وبسبب سلامته لم يتفطَّن للحصار، ولم يعرف كيــف الانحِصار.

ثم أن الوزير يومَ نزول هذا الظالِم، أرسل إلى الدولة بريـــداً مــن طريق الجانب الغربي، يُخبِرهم بالحصار، ويُحرِّضـــهم علـى تخليـص

الديار. فلما بلغ البريد إسلامبول، وسلّم العَرْض للصدر الأعظم، الوزير الكبير، المُشار إليه أولاً[1]، فَشَرَع[2] إذ ذاك يجمع الجنود من الأطراف والأكناف، لكن أين يلحق الدّرياق للملسوع، ومن أين يَتَأتّى للسليم[3] هُجوع؟.

فصل

[مقاومة أهل الجانب الغربي]

وفي غُرّة رمضان هذه السنة، عَبَرت الأعاجم إلى الجانب الغربي، قريباً من تَكْرِيت، ولم يشعر بهم أحد غير الخِرّيت[4]، لكنهم رَفَعوا أطوابَهم وخِيامهم اللّاتي كانت تجاه العسكر المتقدم ذِكره، فظَنَّ العسكر أنهم مَلُّوا من المُضاربة، وعجزوا عن هذه المُحارَبة، وأُخبر الوزير بما وقَع من رفع قنابِرهم وأطوابهم، وقلع خيامهم وقُشُوع سَحابِهم. فقال الوزير: إذا كان الأمر كذلك، فكل يومٍ يمضي نحو الألف فارِس، يحرِس الشّرائِع[5] <١١٧أ> ويقطع على العدو للعبور الوسائل والذّرائع. فبقى الحال كذلك حتى عَبَروا من ناحية دُجَيْل في الليل الحالك.

---

[1] هو علي باشا حكيم أوغلي.

[2] كذا في الأصل، والصواب حذف الفاء.

[3] السليم: الملدوغ.

[4] الخريت: الدليل الحاذق.

[5] جمع شريعة، وهي عامية بغدادية، فصيحها: المشرعة، وهي الفرض التي يشرع فيها الواردة، يعنون بها الأزقة التي تنفذ إلى شاطئ نهر دجلة مباشرة، ومنها يستقي السقاءون علاة. وحراسة هذه المشارع، على ما وصفه المؤلف، الغرض=

وأما أهل الجانب الغربي، فهم أهل نَجدة وشجاعة، وأصحاب هِمَّة وأحسن جماعة، قد بنوا سوراً من اللَّبِن، عَرْضة نحو الخمسة أذرع بذراع الكِرْباس[1]، وطوله ضِعف عَرضه. وحفروا خندقاً عميقاً، إلاّ أنه لم يتم بناء السور ولا حَفْر الخَندق، لأن الوقت ضاق، والعدو قد ضيَّقَ عليهم الخِناق، فطَفِقوا يحرسون في الليل على شُرفاته، ويَطُوفون حَذَر هجوم العدو على سائر جهاته، وأعدُّوا الخيل والسلاح، واستعدوا للقتال والكفاح، وقالوا: لا بد أن يَعبُرَ علينا هذا الغادر دِجلة، ويَدْهَمنا على غَفْلة ووَهْلة، فنَذَر الكُل القتَال، وعاهدوا الله على الحرب والنِّزال، وأصرُّوا على القتال دون عِيالهم وأموالهم وأطفالهم.

قال الفقير:

كنتُ ذلك اليوم ابن اثنتي عشرة سنة، وكُنا من أهل الجانب الغربي، وكنتُ أنام مع والدتي في الدار، ولم أخرج مع أبي وأقاربي ليلاً إلى الأسوار. فلم نشعر في نِصف[2] الليل الأخير من غُرَّة رمضان[3] إلاّ بأصوات جسيمة، وغَوْغاء عظيمة، ينخلِع لها قلب الجَبان، وترعد لها

-منه هو الحيلولة دون اتخاذ العدو لها (رأس جسر) له ليعبر منها إلى الجانب الغربي فيحكم من هناك تطويق محلات الكرخ.. وعبارة المؤلف هنا لا تخلو من غموض، فهو يذكر أن نادر عبر دجلة من ناحية تكريت، ثم عاد فذكر أنه عبره من ناحية دجيل، والصحيح الذي يتفق مع سياق الحركات العسكرية، إنه عبر من دجيل، وكانت الأخيرة معدودة في أعمال تكريت.

[1] تقدم شرحه.

[2] في الأصل: النصف. وأضيفت كلمة (الليل) فوقها.

[3] وتوافق ١٤ شباط ١٧٢٣م.

أكباد الشجعان. وسمعتُ أصوات تُفاك متوالية، وأبصرت ازدحام أقدام في الطُرُقات غادية عادية. فأيقظتُ <١١٧ب> والدتي حينئذٍ وعيوني تدمع، خوفاً مما قد أرى واسمع، فقلتُ: يا أمّاه! ما هذا الصخب الذي رَجّ الآفاق، وما هذا التجادل والشُقاق؟ فقالت: يا بُنيّ! الظاهر- والله أعلم- أن العَجَم قاربت الحصون، وعبروا على رجالنا من حيث لا يشعرون، فادع الله في هذا الوقت بتثبيت أقدام المسلمين، وسَل الله أن يحفّهم بالنصر المبين. فبعد هُنيئةٍ[1] طَرَق الباب زوج خالتي، وأسرج فَرَسه وَوَدّعنا، وسار إلى الجهاد.

ثم إنا بَقينا نسمع من فوق سطوح الدار، شعار المسلمين الله الله! ونسمع شعار العجم المنافقين هَيْهَوار هَيْهَوار![2] فتارة نسمع شعار المسلمين بعيداً فنفرح، ونقول: حَصَلت لنا الغَلَبة، وتارة نسمعه قريباً فنحزن ونقول: أُسِرنا وربِّ الكعبة، ولله دَرّهم من رجال، قاتلوا مع قلّتهم، وكَثرة عدد أعدائهم، من نصف الليل الأخير إلى قريب طلوع الفجر الثاني، وأجلَوا الأعداء عن مكانهم، وأبعدوهم عن أوطانهم، حتى أدركهم المَدَد من الجانب الغربي بالعساكر الكَواسِر، والليوث الجَواسِر. وبقي القتال إلى الظُهر، وكان رئيس العسكر حينئذٍ، الليث الجسور، والشجاع الغيور، صاحب الصَوْلَة والحَمْلة، والغَلَبَة في الجَوْلة، قَرَه مصطفى باشا. وأخذ أهلُ جانبنا ذات اليمين، وأخذ العسكر الأمام ذات الشمال.

---

[1] كذا في الأصل، والصواب: وقد تقدم صوابها.

[2] كلمة فارسية- كردية، تعني الغوث الغوث.

قال الفقير:

كنتُ على عِلّية في دارنا مُشْرِفَة على محل الوَقْعة، فانظرْ إلى الخيل تعثر في الرجال، وإلى السيوف <١٨١ أ> تَحطِب رؤوس الأبطال، حتى صار العدو أضعافهم، وكثّر فناؤهم، فأبصرت خيلَ عسكرنا[١] ولَّت على أدبارها، وجدّت في جَرْيها لفِرارها. وأبصرْتُ رجالنا ثبتوا ثَبات الرجال، وقارَعت الأبطال منهم الأبطال، وقاتلوا قِتال من لا يريد الحياة. وكثر الرَّهَج من جميع الجِّهات، حتى أحاط العدو بهم إحاطة الأوعال بالجبال، وعَلِمَ المسلمون أن لا فِرار ولا مجال، فقاتلوا رغبةً في الشهادة، ورجاءً لنيل الحُسنى وزيادة. فقُتِل الرَّجَّالة منهم جميعاً إلاّ ما قَلَّ، وسَلِمَ غالب الفرسان، وخرجوا من بين الصفوف بالسيوف واللِدان.

وحدثّني زوجُ خالتي أنه قال:

كنا قد أخذنا المَيْمَنَة من جهة العدو حتى أجلَيناهم من أمامها، وحكّمنا في مفاصلهم كل حُسام، فنظرنا ساعةً إلى وراء، فرأينا العسكر قد ملأ بفراره البيداء، وحالَ العدو بيننا وبينه، فقاتَلْنا قِتال مَنْ يُحِب الموت وبَيْنَه، فلما احتَرَّ فينا القتل، ودُمينا[٢] إذ رُمينا بالبُنْدُق والنَبل، وأبصرنا الرجّالة هلك أكثرها، ورأينا الخيّالة قد قُتل أصغرها وأكبرها، ونحن عائمون من الموت في بحرٍ لا يُدرك قَعْره، ولا ينال غوره، لم يكن لنا بُدٌّ

---

[١] في الأصل الروم، ثم شطب عليه وكتب في الهامش ما أثبتناه..

[٢] دمي وأدمي: ضُرب حتى خرج منه الدم.

من الفِرار، وإن قيل: النار ولا العار! ولم يكن لنـــا طريــق إلاّ البَيْــداء، فبالغنا بالهرب فوق كل نجيب عَدّاء.

وحدثني أيضاً أنه رأى شباباً من أولاد الأكابر، كلٌّ منهم عن مَتْــن شجاعته حاسِر، قد رجَّلُــوا شُــعورهم، وترجَّلــوا وتركــوا كُورَهــم[1]. <١١٨ب> قال: فقلتُ لهم: يا بَنِيَّ! أنتم من كَرَم الله ذو خيــول ســوابِق، ونُجُب لواحِق، فلِمَ تركتموها وسِرتم راجلين، وأمــامكم حَــرْبٌ عَــوان، وضربٌ يَمان، ومقارعة فرسان، ونهب أرواح وأبدان؟ فإن كنتم خرجتــم للفُرْجَة، فقِفوا فوق السور كما وقف البنادقية[2]، وانظروا إلى هذه الداهيــة الدهيَّة[3]. فقال أحدهم: يا عَمَّاه! إنما يفعل ما ذَكَرْتَ من له فــي الحيــاة طَمَعٌ، ومن يتشدَّق بالكذِب إذا صار إلى بنات عَمِّه ورجع! والله إنـــا لقــد تَرَكنا الدنيا خَلْفنا، وهذه الأخرى زُخرِفت أمامنا، ورَفَضنا الوَجَل وراءنــا، وهذه الجنَّة زُيِّنَت قُدامنا، فوالله لَنَضْرِبَنْ بسيوفنا هذه حتى نُقتَــل! وبلِّــغ أهلنا إذا رجعنا السلام. قال: فلم يرجِع منهم أحد. وقد أبْصَرت هذا القــائل قد فُلِقَت هامَته، مُحدِقة به خمسة فوارس من العجم، ولســيفه رنَّــة فــي المفاصل، وحَنَّة في الكواهِل.

---

[1] جمع كورة: المدينة والصقع.

[2] يريد حملة البنادق الرماة بها.

[3] الدهية صوابها الدهي وهو الضخم.

ثم أن العدو طلب المسلمين حتّى انتهى إلى مسجد بَراثا[1] المسمى المَنْطَقَة، فرجع القَهقَرى، وولّى متأخراً، ولو بَغَيَّ في طَلَبه ودخل البلد، لما أبقى في الجانب الغربي من أحَد، ولكن ألقى الله الخوف في روعِهم، وأمرهم برجوعهم، فيا له من يوم عَبوس، به أمسى الكميُّ بلون جاد[2]، ويالها من حرب بَسوس، دار قُطبها على أطواد. وقد اشتهر هذا اليوم في العراق والحيرة، ووُسم بين القوم بيوم الكَسيرة[3]، وفيه أقول من قصيدة يأتي <١١٩أ> ذكرها[4] [من الوافر]:

---

[1] براثا اسم آرامي النجار، عرفت به قرية قديمة ترقى إلى ما قبل الإسلام، كانت تقع على نهر كرخايا الآخذ من نهر عيسى، قال ياقوت 'براثا محلة كانت في طرف بغداد في قبلة الكرخ وجنوبي باب محول، وكان لها جامع مفرد يصلي فيه الشيعة، وقد خرب عن آخره، وكذلك المحلة لم يبق لها أثر' (معجم البلدان، مادة براثا) وحدد ابن عبد الحق استمرار إقامة الجمعة فيه إلى ما بعد سنة ٤٥٠ (مراصد الاطلاع ص١٧٤)، أما المنطقة فهي قرية قديمة سبق وجودها إنشاء المنصور مدينته بمدة غير معلومة، اسمها (سونايا) وكانت تقع على مصب الصراة وتعد مركزاً مسيحياً مهماً فقد أنشأ فيه بعض الأحبار ديراً سمي دير مارفثيون، ثم عرف موضعه بالعتيقة، وأنشئ في هذا الموضع مسجد وردت أول إشارة إليه في القرن الخامس للهجرة (الخطيب: تاريخ بغداد ج١ ص٨٨)، والمؤلف هو أول من عد الموضعين موضعاً واحداً. ولما يزل جامع المنطقة عامراً بزواره ومصليه حتى يومنا هذا، وبقربه مقبرة، وقد جدد وأقيمت له مئذنتان.

[2] الجاد والجادي اسمان للزعفران (يوسف بن عمر الغساني: المعتمد في الأدوية المفردة ص٢٠٢).

[3] تصغير كسرة، وهي الهزيمة.

[4] القصيدة في ديوانه ص٥٦.

وفي[1] يوم الكَسيرة كم كَسَـــرنا   لِجَبْرِ الدين شَوكة كـــلّ عـــادي
وفي أُحُـــدٍ بـــه كـــان انتسـانا   فيا بُشرى لنـــا يـــوم المَعـــادِ

ثم أن عِياد الله تراجعت إلى الديار، وقد رحَمَهم الوزيـــر المُســدَّد، والدستور المؤيَّد، بأن أرسل بنادقهم إلى الســـور تحرســـهم مـــن هجـــوم الأعداء، وأمرهم بالعبور إلى الجانب الشرقي، وأمَرَهم أن لا يُبقُـــوا لـــهم طارِفاً وتليداً، ولا يتركوا خَلِقاً ولا جديداً.

ثم استشار الوزراء الثلاثة الذين كانوا معه برَسم المحافظة في أمـــر الجانب الغربي، فقالوا له: أنتَ مأمورٌ بحِفظ القلعة، وما كان خارجاً عنـــها لَستَ مأموراً بحِفظه، على أنه لا معنى لحفظ الجُدران، ولا حاجة داعيـــة إلى حماية البُنيان. وأما أهلهم فهم للقلعة أجدر وأجدى نفعاً وأكـــثر، ففـــي ظَرْف ثلاثة أيام عبَّروا إلى القلعة العيال، وطَرَفاً من الذخيرة والمال.

(وصار ازدحامٌ عظيمٌ بحيث غَرِقَت المخَدَّرات، وهُتِـــك أســـتارهن حرصاً على العبور، وانكسَر من الجسر بعض السُّفن لكـــثرة الازدحـــام، وعَبَر أكثر الناس بالسُّفُن، وبعضهم بالطَوْف[2]، وبعضهم بالسباحة)[3].

وفي ظهر اليوم الثالث أخلَوا البَلَد، وهجم عليها العدو بكثرة العُـــدَّة

[1] في ديوانه: ففي.

[2] تقدم شرحه.

[3] هذه الفقرة لم ترد في متن الأصل، ووردت في هامشه.

والعَدَد، فقُطِع الجسر وأُغلقت بابه[1]، ومن بَقي لم يعبر فقد سُلِخ إهابه. ثم طَفِق العدو يُضاربنا من جميع الجهات بالبنادق الحارِقات، ونضاربه كلما ضارَب، ونُحاربه كما حارب.

ولم تَزَل جنود الوزير- رحمه الله- تخرج كل يوم خارج السور، أمثال الضَّراغِم والنسور، فيحصل لهم مع الأعداء الاصطدام والإقتِتال العام، فتارة تحصل الغَلَبة لنا، وتارة لعدونا. ونحنُ، معاشر الرَّجالة- من فوق شُرُفات الحِصن[2] ننظر إلى المُقاوَمة والمُطاولة <١١٩ب> والمُصادَمة. هذا، (وقد استُشهِد في بعض تلك الوقائع أُناس، منهم:

---

[1] هو الباب المسمى أيضاً بباب الشط، و (صوقابي) أي باب الماء، وسماه المؤلف في كتابه (تاريخ حوادث بغداد والبصرة ص٩٨) باسم (قره قابي) أي الباب الأسود، وهو غير الباب الشرقي المسمى بالاسم نفسه، وكانت عنده تابية (برج) راكبة على كرسيه، وفي صورة لطراز دجلة الشرقي، وردت في كتاب السائح Hubbard (القرن ١٣هـ/١٩م) نشاهد برجاً ذا أضلاع عدة (لعله على هيأة مسدس) تعلوه قبة مخروطية مستدقة، بين جامع الآصفية، والجسر، ومن المرجح أن يكون نفسه برج الماء المذكور (نشرت الصورة في كتاب بغداد، الذي أصدرته نقابة المهندسين العراقيين، بغداد١٩٦٨، ص٢٢٢). وهذا الباب هو الوحيد الذي ينفذ منه إلى النهر، حيث جسر بغداد الوحيد، أبان القرون المتأخرة، ذلك أن شاطئ دجلة الشرقي كان مسوراً بسور عال لحماية الجانب الشرقي من بغداد من أي هجوم يأتي عن طريق النهر.

[2] الراجح أنه يقصد القلعة الداخلية، حيث تقوم مباني وزارة الدفاع اليوم.

خَزِينَدار[1] الوزير أحمد باشا، فأرسل إليه رجالاً، وحملوه من مَصْرَعــــه، ودُفن عند باب بغداد المعروف بباب الإمام الأعظم)[2].

وأما الخارجي الدَّجَّال، والملعون المُحتــال، فقــد أمَــرَ بِــهدمِ دور الجانب الغربي ونَقْلِ أبوابه وأخشابه إلى معســكره، وبنــى بــها أمــاكن لعَسْكره، من حوانيت وبيوت وحمّامات وغير ذلك من أصنــاف البنــاء، حتى غدا معسكره كأحسنِ ما يكون من المُدُن، يَفُوق بزَخارِفــه وزينتــه المدائن، تُجبى إليه الميرةَ من جميع الجِهات، وتقصده الناس من الأقطــار الشاميات. وقد أخذ مخاليف بغداد وقراها، ونَهَب بحزبــة الفُسَّـاد مــن والاها.

[مقاومة أهل الجانب الشرقي]

وأما أهل بغداد فيبدون الجَلَد، ويُخفون الكَمَد، ويخرجون إلى قِتالــه كل يوم مَعيَّة العسكر بجأش رابط، وعقل ضابط[3]، والحرب ذات البَيْــن سِجال، حيث كان ضِرام الوطيس من الجانبين الأبطال. هذا والطَّوْب مــن البَيْن "أشغل من ذات النِّحيين"[4] رائح غادي، ونائحٍ وشادي. والقُنْبَر بيــن

---

[1] الخزيندار، والخزنه دار: اسم وظيفة مركب من خزنه، خزينـــة، ودار الفارسـية وتعني: ناظر، محافظ، فيكون معناها ناظر خزينة الولاية.

[2] هذه الفقرة وردت في هامش الأصل.

[3] في الأصل: حنابط، وفي ب ما أثبتناه وهو الصحيح.

[4] مثل قديم، يضرب للدلالة على شدة انشغال المرء، له قصة أوردها ابن منظور فـي لسان العرب، مادة لحي، والنحي: زق السمن.

الفريقين طائر، والعثير بين البَيْن ثائر. ولم يزل الأمر كذلك، إلى أن نَفَد الزاد وقلّت الميرة، وضالّت العباد ووقعت في حيرة، فأكلوا لحوم الخيل والبغال والحمير والكلاب والسنانير، وامتصُّوا الدم، ومَضغوا الإهاب، فحصل مَرَضٌ عظيم، وداءٌ عميم، ألا وهو الجُوع المُزمِن، والوَخم[1] المُحزن، فهلك غالب أهل الزوراء لما نابَهم من هذه اللأواء، وبيع الثمين بالثمن البَخْس، وقارن أهلَ بغداد طالع النَّحس، وبيعت الأبكار العَذارى بأرغِفَة الشعير. واستولى على الناس رديّ <٢،١٢أ> الأفكار فهم حَيارى بل سُكارى لهذا الأمر الخطير.

قال الفقير:

صلَّيتُ الجمعة في جامع القُطب الرباني، والهيكل الصَمَداني، سيدي عبد القادر الكيلاني. فلما خرجنا من الصلاة، أشرفنا في طريقنا على خَربَة فيها شِلْو[2] حمار منتِن، وحَوْلَه امرأة بلَغَت في الجمال الغاية، وحَصَّلَت من الحُسن على النهاية، وفي يدها سِكّين، وهي تقطع من ذلك اللحم المُنْتِن، وتَضَعه في عِلاقَة كانت حولها، فسُئلت عن ذلك، فقالت: الجوع أدّاني إلى ما رأيتم، حيثُ صار لي خمسة أيام لم يدخل في جَوْفي غير الماء ويانِع الخُوص، فتركناها ومَضَينا. وكانت الأكراد تصطاد الكلاب وتأكلها.

---

[1] وخم الطعام إذا ثقل فلم يستمرأ.

[2] الشلو: العضو من اللحم.

ومن كَرَم الله إنا لم ينلنا في هذا الحصـــار سَـغَب ولا وَصَـب لا نَصَب، بل كيّلنا وافي، واتكالنا على الكافي.

حتى أن الوزير إذا جيء بطعامه إلى مكانه في السور، تنهبه النـاس من شدّة السَغَب، والوزير المذكور لم يغضَب لذلك، ويَصبر على الجــوع. بل أنه تَجْري دموعه على خَدّيْهِ رحمةً على العِباد، مما نالهم من المَشَـاق والأنكاد.

ومع هذا الجوع العظيم، والهلاك العميم، أهلُ بغداد لـــم يُطَـأطئوا للملعون رأساً، ولم يُظهروا له حُزناً وبأساً، بل يُظهرون الغِنـى، ويَنْفُـون العَنا، محافِظون السور، مانِعون العدو من الدخول والعبور.

هذا، وأما الوزير المظفر، والشجاع الغَضنَنْفَـر، فمَسْـكَنه شُـرُفات السور، لم يُرِ عن المجاهدة والمحافظة بعض الفُتور، ولم يَعْرِف النـوْم ولا السِّنَة ولا الراحة في هذه السَنة، بل يركب جَواده ويطوف علـى الحُماة والرُماة، في جميع الأنحاء والجِّهات، ويُحرِّضهم على المقاومة، ويحثُّـهم على المجادلة والمخاصمة، (حتى إن الأعداء لما شَعَروا بمكانه، لم يرمـوا أطوابَهم ولا بنادِقهم إلاّ على جهتِه. فكان يَمُرُّ عليه حَجَر الطُوب الكبـير قريباً منه، فلا يتحرك ولا يتزلزل، حتى أن بعض جُلَسائه طأطأ رأسه عن حجرَ الطوب فزجره وعَنَّفَه وأقامه من مكانه)[1].

وكان يعلِّل الناس بأن يُخرِج ليلاً خِفية رجلاً رذيلاً، قَلَّ من يَعرفـه <١٢٠ب>، ويُوصيه أن يكمُن في بعض الأماكن خارج البلد، ويعود إليـها

---

[1] العبارة من هامش الأصل.

ضَحوةً على فرصة من الرصَد، فيدخل ويُخبر بأنه قد قَــدِم مــن المَــدَد السلطاني، والجَّحْفَل الخاقاني، وأنه صار اليوم في مكان كـــذا، فيحصـــل السرور للخاص والعام، ويَستروِحون رائحة الخَلاص من هذه الأقفـــاص. ثم تمضي على هذه مُدَّة فيُرسِل آخر، فيُخبِر بخبر غير خبر الأول، أقــرب مُدة من الأول، فكذلك يحصل السرور، وينتج الحبور.

ولم يَزَل الأمر كذلك إلى أن أيِّس أهل بغداد من مَدَد الإسلام، وأيقـن بالهلاك الخاص والعام، وتأهَّب الرُماة الحُماة الينكَجَرية[1] وســـائر أهــل بغداد للخروج إلى القتال زَحْفاً، وأن موتَهم تحت بـــوارِق الضُبــا، للعلَــة أشفى وأنفى. فلم يزَل الوزير ومن معه من الوزراء يُفنّدونهم، ويبدون لــهم المضرَّة في ذلك ويُفتِّرونهم، حتى أن الوزير المذكور مع وفـــور هيبتــه، وعظيم أُبَهته، يلَيِّن لهم المقال عند الباب، راجـــلاً فـــي ذلــك الازدحــام والاصطخاب، حتى رجعوا، ولقوله أطاعوا وسمعوا.

ثم أن الخارجي الخبيث أمر مُفتي معسكره أن يكتب لعلمــاء بغــداد كتاباً بأن يقولوا لأحمد باشا يُسلِّم البلد، لأن بغداد قُطر كبير، ويحتاج إلـــى عسكرٍ كثير، وقد هلك أكثر الناس من الجوع، وليس لـــهم حيلــة ســوى الإتيان بكلمتي الشهادة. فلما جاء كتاب المُفتي، قال الوزير: اكتبوا له إنـــي لا أسلِّم له حجراً من أحجار بغداد حتى تنفرد سالفتي، وأُقبَر فـــي مكــاني هذا وبُقعَتي. وأما موت الناس فلأن الوقت وقت غَيْبوبة الثُريّا، وقد جَــرَت

---

[1] تقدم شرحها.

عادة الله في العراق أنه [في][1] ذلك الوقت تكثر الأمـــراض والأوجـــاع. هذا، وذخيرتنا وافية وميرتنا كافية، ومددنا كثيرة العَدَد، متواصلة المَـــدَد. هذا معنى ما أمر الوزير <١٢١أ> الموما إليه بكتابه، فصَبَبْتُ والدي هـــذه المعاني، في قوالِب الألفاظ والمباني.

[مفاوضات مبعوث نادرشاه]

ثم أن المُحتال لما لم يُسمَع كلامه في تسليم البلد، ولم يَقبل مَقَالَهُ كـلى أحد، أرسل يريد السلم والصُلح ليَختَبِر بمَكره من أين تُوخَذ البلد، وليعـرف كيف يصنع[2] عليها الرَّصَد. فأرسـل بعـض أكـابره. فـأمر الوزيـر المرحوم- لكَثرة عقله وشدّة دهائــه- أن يُبـاع[3] المـأكولات بـأرخص الأثمان، وهو يعطي أهلها أرْش النقصان[4]، ليفهم العَجَم الذين أُرسلوا إليـه أن بغداد رخيَّة رخيصة، المأكول فيها كثير، فبيع رغيف الخـبز بأربعـة أفْلُس، مع أن ثمنه ذلك الوقت كان في الغاية من الغلاء. وعَمَـل الوزيـر لهذا الرسول ضيافة غريبة، جَمَع مؤونتها من جميع أهل بغداد، كل ذلـك ليُعَرِّفه أن بغداد فيها ميرة كثيرة. فأجابه الوزير إلى سؤاله، معتمداً ظـاهر حاله في إرساله، فعُقد من الجانبين الصُلح، وظنَّ أهل العراق نَيْل الرِّبـح. لكن الأبواب على حالها مغلقة، والرجال الرُماة بشُرُفات السور مُعلَّقة.

---

[1] الزيادة من ب.

[2] الصواب: يضع.

[3] كذا في الأصل، وفي ب: تباع، وهو الصواب.

[4] يريد: فرق النقصان.

ثم أنه طافَ بالبلد من خارج السور، كل عِلق[1] من الفُرس جَسور: أظهروا الفُرجة على المعاقِل، والتنزُّه على أولئك الجحافِل. ويُقال: إن الخبيث[2] كان معهم مُتَدَلِّساً[3]، وبلأمته عن عيون الناس مُتَرِّساً[4]، والقَصدُ كان اختبار السور، وأن هل يمكن منه الهجوم والعبور؟ فلما لم يَرَوْا منه إلى العبور طريقاً، بل لما أبصروه عالي البناء من كَثَب، مُسامِت الغَبراء من بُعدٍ، رأوا العَجَب، ورأوه مشحوناً بالأبطال الضَراغِم، ملآناً بالبنادق والصوارِم، وأن طَوَّبه تُرهِب صورتها، فضلاً عن مَنالها في مُضيِّها وقوّتها، أيِسوا من أخذ بغداد عَنوة، وعلموا أن قُدومهم كان إذ ذاك هَفْوَة.

فلما رجَعوا إلى المعسكر، أمَرَ أن يأتي إليه من أعوان الوزير أناس يَعقِد معهم الصُلح <١٢١ب> فأرسل الوزير لذلك محمد باشا، وراغب أفندي دَفْتَر دار بغداد[5]، فحين وصلا إليه أكرَمهما، وقال لهما: إن بغداد

---

[1] لعله يريد: علج.

[2] يريد نادرشاه نفسه.

[3] التدلس هنا التخفي. فكأنه أراد أنه جاء متنكراً.

[4] التترس: التستر بالترس، وهو ما يقي به المحارب نفسه عند القتال.

[5] الدفتردار، كلمة مركبة من (دفتر) بمعنى السجل، و (دار)، أي ناظر، مراقب، محافظ، فيكون معناها الحرفي (محافظ السجل)، واصطلاحاً اسم موظف في بعض الولايات الكبيرة رفيع المرتبة يكون مسؤولاً عن شؤون المال وتسلم الأموال وصرفها، وتسمي دائرته بالدفترخانه، وهو يرتبط بالدفتردارخانه المركزية في العاصمة العثمانية، والذي تعد المسؤولة عن مالية الدولة المركزية. ينظر جب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب ج١ ص٢١٢ وكانت بغداد مركزاً لدفتردار-

عذبة الهواء، وإني أتيتُ ببذر بطيخ من العجم، فزرعته، وقد أنتج، وأريد أن أرسل منه لأحمد خان، يعني بذلك الوزير.

ثم لما صار الليل بين العِشائيْن أمر أن يأتوه براغب أفندي. قال الأمير محمد باشا حين رجع الرَّاغب منه: أبصرته في غاية الوَجَل، فسألته عن ذلك، فقال: تغيَّر الخبيث عن حاله الأول، وقال لِمَ لا يُسلم البلد أحمد خان؟ أنا آخذها عَنوة، على أنها لم تكن مَقْصَدي، بل أن قصدي قَيْصَر الروم وديار إسلامبول. قال: فلما أصبحنا أرسل خلْفَنا جميعاً، فلما صرنا بين يديه، اعتَراه الغضب، وقال: قولا لأحمد خان يُسلِّم البلد! فقُلنا له خوفاً منه: يُسلِّمها لك إذا رجعنا إليه. وتكلَّم معنا كثيراً بالعُنف والتهديد، وأمرنا بالرجوع.

فلما رجعنا إلى بغداد، أخبَرْنا الوزير بذلك. فقال: لو قُطِّعتُ إرْباً إرباً، لم أسلمه حجراً من بغداد. ثم أمر بالأطواب فضُرِبت، وعاد الحرب كما كان. ثم عُلِم أن سبب نكوث صلح ذلك الغادر سماعه بقرب المَدد، فضاربوه كما ضارب، وحاربوه كما حارب، ونكثوا صلحهم وفوَّضوا إلى الله أصلحهم. ولم يزل الأمر كذلك حتى ضاق الخِناق، والتفَّت - للوصب والسَغب - الساق بالساق، وظَهَرت المُخدَّرات في الطرقات، وبدت المُحصنات الغانيات، وذلك من حرارة السغب، وعدم الملجأ والهرب. وتَصدّق الوزير المذكور بجُلِّ خَيله، وتابعه على ذلك من هو كمثله.

=خاص بها منذ أول عهد الدولة العثمانية في العراق، أما الدفترخانة فكانت تشغل الأرض الكائنة بين جامع الوزير ومباني القشلة، وهي التي شغلتها فيما بعد المحاكم المدنية.

واقتات غالب أهل بغداد- بعد نَفاد الكلاب والسنانير والبغـال والحمـير- بأقراص الشريس[١] اللَّزِيج، وحَب القطن الحَلِيج. وكثر الموت إذ ذاك مـن الجوع، بحيث يوجد في الطريق الواحد اثنان أو ثلاثـة رجـال < ١٢أ> ونساء مَوتَى مُنتِنون، وكثر المرض حينئذ لكثرة الهم والحـزن، والوخـم والنتن، وسائر الكدورات على أجسامهم المرتاضة وأفئدتـهم المِمْراضـة، فمات من الأغنياء- لا عن جوع- الجَمْع الكثير، والجم الغفـير، فتمنَّـى الناس- لسوء هذا الحال- حلول الرِّمس، ورضوا بالهلاك لقوة طالِع هـذا النَّحس.

فبينا الناس في هذا الإحتيار، وعلى ردِي الأفكار، وإذا بـالمَدَد قـد قَرب، وقلب الخبيث لِقُربه وَجَب[٢]، ولم يكن لأهل بغداد بقُربه خبر، ولم يعلموا أن سيُدرِكهم ما يدفع عنهم هذا الضرر، بل أيِسـوا مـن العسـاكر الإسلامية، وأخلصوا في التوكل على الله النيَّة، وأصرُّوا على أنهم إلـى أن ينفد جميع ما يمكن أن يُقتات به يخرجون إلى القتال، ويقـارِعون أولئـك الأبطال، ولا يُسلِّموا البلد عن إذلال، حتى ينقرض الجميع في القِتال. هـذا والوزير المذكور لم تزل عسـاكره تخـرج إلـى المصادَمَـة والمقاتلـة والمقاوَمَة، والحرب ذات البَيْن سِجال، شعراً:

---

[١] الشريس لغة: نبت بشع الطعم، وقيل كل بشع الطعم شريس، وقوله أنه لزيج، يـدل على أنه المادة اللاصقة التي تستخرج من بصل نبات يسمى عندنا بالكيلخ، أو مـن أصول النبات المعروف بالشريس، واسمه الحقيقي الخنثى، ويسمى البرواق أيضـاً. ينظر داود الجلبي: كلمات فارسية في عامية الموصل ص١٢١.

[٢] وجب: اضطرب.

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَـــــا ويَــــوْمٌ لنَـــــا ويـــوم نُســاءُ ويَـــــومٌ نُسَــــرُّ

ثم أنه- رحمه الله- احتال على عياله، وأظهَر لهم أن يُرسلهم إلــى البصرة، وأوصى أن لا تأخذ كل منهن شيئاً سوى ما يســـترها ويحجبــها فيغمرها دوماً، وحِرصاً على النفيس. وهُنّ- لاحتجابهم بحجاب الخــدور، واستِتارهن في المعاقل والقُصور، لم يعرفن كيفيةَ الحصار، ويَزْعُمنَ أنــه يمكن إلى البصرةَ الهَرب والفِرار. وكان قصد الوزير- رحمــه الله- أنــه أيِسَ من المدد، وخرج مع العسكر وأهل بغداد للخصام واللّدد، فإذا حصــل للعدو الاقتدار والغَلَبة على الإسلام والاستظهار، يأتي إلى دار الحكومـــةَ، ويَضعون هؤلاء النساء في زواريقَ أرساها تحت الدار وخَرقَها، ووضـــع على الخَرق شيئاً من القار، فيضع جميع عِياله فيها، ويُسيِّرها حتى تتوسـط دجلةَ، فيرفع الملاّح<١٢٢ب> ذلك القار ويغرق الجميع في دِجلـــةَ، ولا يُبَرِّد بهن الخبيث غُلةَ، ولا يُقال أن حَـــرَم الوزيـــر الأكـــبر، والدســتور الأشهر، أسرَهَ كَلب العجم حين أخذ بغداد وعليها هجم، وإنه- رحمــه الله- يُقاتِل حتى يُقتَل. ولم تزل هذه نيّته ونية أهل بغداد، وقد أخــذوا للخــروج إلى القتال الأهبة والاستعداد.

ثم أن الخبيث الغادر، واللئيم الفاجر، حين ســمع بقُــرب عســاكر الإسلام وضع جُملَةَ من عسكره في المعسكر، وأمرهـــم أن يَبقَــوْا علــى

حالهم من ضرب الطَوْب والقُنْبَر[1]، كيلا يُنكِر عليهم أهل بغداد، فيرسلوا من يجس خبرهم فيَخرُجوا إليهم على استعداد، ويأخذوا العُدَد، ويقتلوا هذا العَدَد.

[حملة طوبال عثمان باشا]

ثم أنه سار بسائر عساكره، ووجوه كَواسِره، وقصَد لُيوث الإسلام، وحُماة الإسلام، فلما وصل الى العُظَيْم[2]، خَتَل لهم في أسرابه، واحتجب في دُحُوله[3] بأحزابه. ولما قدم عسكر الإسلام، وصار بين تلك الآجام، ولم يكن إذ ذاك مُجتَمِعاً، بل كان غير متواصل منقطعاً، إذ يعلمون أن العدو غير قريب، وأنه لم يَخطِر ببالهم هذا الأمر العجيب، فصاح العدو بهم على غَفْلة، وبغتهم من أول وَهلة، فاختَلَّ لذلك النظام، ولم يمكن الائتلاف والانتظام، فمن كان متأخراً من الجنود هرب قافلاً، وصار إلى الموصل راجِلاً، وأخبروا أهل الموصل بأنّا قد هربنا من الأعداء، وأن

---

[1] القنبر جمع قنبرة، من الفارسية خمبارة، وهو مرمى كري من حجر، ثم من حديد، كان يرمى بالمدفع القديم لدك الحصون.

[2] هو النهر الذي يستمد مياهه من نهر خاصة، حيث تقع مدينة كركوك، ونهر داقوق ونهر آق صو ويصب في دجلة عند سامراء.

[3] جمع دحلة، وهو ثقب ضيق فمه ثم يتسع أسفله حتى يمشي فيه، وقيل: هو مدخل تحت الجرف.

الوزير[1] وبقية إخواننا سُفِكَت منهم الدمـــاء. ولا ريـب أنـهم أخـبروا <١٢٦أ> بما أبصروا، وحقّقوا ما شعروا.

وأما المُقدّمة فقد هربت غير بعيد، تنتظر فرصـة الائتـلاف مـع حزبها الشّريد، حتى تقاتل لا عن قِلَّة وتحارِب ليس عن ذلّة. وأما القلـب فقد كان فيه الليث الجسور، والشجاع الغَيور، والمجاهد الصالح، والشـهيد الفالِح، ألا وهو طُوبال عُصمان باشا[2] حين أبصر مـا حـل بأعوانـه، وشاهد مَصارِع إخوانه، أمر من معه من اليَنْكَجَرِيَّة، وسائر أهل الحَمِيَّـة، أن يأخذوا واجهة الماء، فأخذوها، ووضعوا على عجلة منهم الجَرْخ فلّك[1]

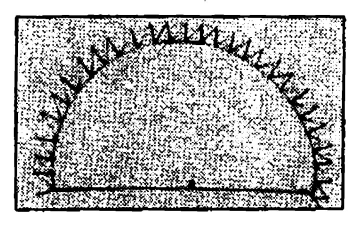
[1] يريد والي الموصل آنذاك ممش باشا، وكان قد تولاها أول مرة سنة ١١٤٦هـ، ويجب أن لا تفهم عبارة (سفكت منهم الدماء) على أنه قتل، لأنه أعيد إلى ولاية الموصل من سنة ١١٤٨ إلى ١١٤٩هـ. وكان ممش باشا قد اشتبك في ١٥ جمادى الأولى من سنة ١١٤٦هـ/٤٢ تشرين الأول ١٧٣٣م في معركة ضد جيش نادرشاه عند مضيق آق دربند، قبل أن يلتحق به طوبال عثمان باشا بقواته.

[2] كذا يكتبه المؤلف، بحسب اللفظ التركي، وهو عثمان باشا الملقب بطوبال، أي الأعرج، من كبار القادة العثمانيين، ولد في المورة سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م وتقلب في المناصب الإدارية، فتولى عدداً من الألوية (السناجق) في الروم ايلي (الولايات العثمانية في أوربا) ثم نال رتبة الوزارة، وعرف بقمعه أعمال الثورة هناك، وقلد منصب الصدارة العظمى، لكنه عزل عنها وولي تبريز، في مدة سيطرة العثمانيين عليها، ثم ارضروم وتفليس، وولي بعد ذلك قيادة الجيش الذي أرسل لتخليص بغداد من حصار نادرشاه، لكنه قتل في المعركة التي دارت في سهل العظيم على ما نوه المؤلف. ويذكر لونكريك أن نادرشاه أمر بارسال جثته إلى بغـداد برفقة أحد الأسرى العثمانيين (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص١٧٩) بينما يذكر شمس الدين سامي أنه دفن في شهرزور نفسها، حيث لقي مصرعه. ينظر قاموس الأعلام ص ٣١٢٧، ومحمد ثريا: سجل عثماني، استانبول ١٣٠٨، ص٤٢٨.

يأخذوا واجهة الماء، فأخذوها، ووضعوا على عجلة منهم الجَرْخ فَلَــك[1] وهو هيئة السور من الخشب، صورة قطعه هكذا: + + + فتوضع قطعــة عند قطعة، وتُغْرَز طَرَفاها في الأرض، ويُــهال الــتُّراب إلــى نِصفــها، وطَرَفاها الآخران برأسهما نِصال جَرِيَّة[2]، وأسِنَّة مَحمِيَّة، فيكون كــالدائرة هكذا:



ويوضع خلفه الطُّوب والفَلَك، وتَحدِق بــه مــن داخِــل البنادقيــة <٢٢٣ب> ، وسائر أهل الحَمِيَّة الإسلامية، لكن وضع هذا الجَرْخ فَلَك كــان على هيئة نِصف دائرة قُطرها ماء دجلة هكذا:



---

[1] مصطلح مركب من (جرخ) ويعني: دائري، وفلك العربية، فيكــون معنــاه الفلــك الدائري، ويراد به ضرب من الاستمكان في أثناء الحــروب علــى مــا ســيذكر المؤلف.

[2] تقدم شرحه.

وإنما يُفعل ذلك ويُتترّس به عند غَلَبة العدو واقتــداره، واســتئصاله واستظهاره.

ولا شك أن عَدَد الإسلام وعسكره في الغاية من القِلّــة، إذ جناحــاه ومُقدِّمته وساقته ذهبت شَذَر مَذَر، وتفرّقت بين الوِهاد والحُفَر، ولــم يبــق غير القلب، ولم يكن فيه إلاّ حامية الرئيس، واليَنْكَجَرِيَّة لُيــوث العرِّيــس. وأما العدو فهو يزيدهم بأضعاف، وينوفهم في آلاف. وقد أخذ العدو جهــة الهواء، وأخذت المسلمون جهة الماء.

ثم أن الإسلام[1] لما أخذت جِهة الماء، وتترّسوا بالجرخ فَلَك، ألقــى الله عليهم السَّكينة، وصاروا آمَن مِمَّن في مدينة، وشربوا المــاء البــارد النَّمير، والأعداء تصطلي حرَّ الهجير. وكان الوقت وقت القائلة في يــوم سامتت فيه الشمس القَدَم، وقُضي على جَبَابِرِيه بالهلاك <١٢٤أ> والعَدَم.

ثم أن عِباد الله طَفِقت تُضارب الأعداء بالطُّوب والبنادِق، والخَيَّالــة تقاتلهم باللُّتوت السواحق، وقد تراجعت من المسلمين غالِب من هَرَب مــن العسكر، واهتدت عباد الله الهاربون بصوت الطُّوب إلى المعسكر. وقــامت الحرب من الجانبين على ساق، ونَعَب على الأعداء غُراب البَيْن بالــهلاك والانسحاق، إذ قد أوْهَنَهم الظمأ وصيَّرَهم في عناء وعمى، بحيــث مــات أكثرهم من غير قاتِل، وهلك الباقون بشِفار المناصِل.

وحَفَّ الله الإسلام بنصره، وأظهر بين أعدائه الطغام غائلة قــهره، وهرب الخبيث بالشِّرذِمة القليلة، نادماً على عدم نتاج هذه الحيلة. وطَلَبــه

---

[1] يريد أهل الإسلام، وقد تكرر منه ذلك مراراً.

من الإسلام الضراغِم، ولَحِقه منهم كل مُبارِز ومُقاوِم، فلم يُدرِكوه مغـاره، ولم يقطعوا فراره. (ويقال أن الذي أوْهَنَـه هـو سـماعه بـأن الوزيـر الغضنفر، سمع بهذا الخبر، وخرج إلى قتاله من وراء، بعساكر ملأ بـهـا البَيْداء، وأنه نَهَب معسكره، وقتل هناك عسكره.

هذا، وقد بلغ خبر كسيرته معسكره، فهرب وجوه أعوانه، وتبعه من كان هناك من أخدانه، ففرَّ ليلاً بعض الأسارى إلى بغداد، وأخبر الوزيـر بهذه الخبر المُفاد، وذلك في يوم الأحد السابع من شـهر صفـر[1]. فمـا أصبح الصباح إلاّ ولُيُوث العرِيس من غاباتها خرجت، وفوارس الخميـس على وجه الغبراء دَرَجَت، وقصدوا المعسكر، فذبحوا بقية العسكر، ونـهبوا المتاع والسلاح، وخلّصوا من الأسر المُخَدَّرات المِلاح، وتركـوا مكانـه خالياً، ورفضوا[2] عمرانه طلولاً بوالياً.

ثم بعد ثلاثة أيام قدم عسكر المَدَد، ودخل<١٢٤ب> بأجمعه البلـد، ولكثرة القحط والجَدْب، رحل العسكر من بغداد، وقفل راجعاً بعـد رفـع الضرر والأنكاد، وزال عن أهل بغداد الشَغَب، وارتفـع عنـهم الوَصَـب والنَّصَب. وكانت مدة الحصار سبعة أشهر.

ورجع أكثر أهل الجانب الغربي إلى الأوطان، وسكَنوا تحت ظـلال الجُدران، إذ ديارهم تركها الخبيث بلاقع، ورسوماً بوالي رواكِـع، لكـن لحبهم الوطن، واشتياقهم إلى العطَـن[3]، سَـكَنوا فـي ذلـك الخـراب،

---

[1] من سنة ١١٤٦هـ وتقابل ٢٩ تموز ١٧٣٣م.

[2] كذا في الأصل، وفي ب: دفضوا، ورأى الشيخ الأثري أنها: وقوضوا.

[3] العطن للأبل: كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض.

واستشفوا بذلك التراب، ولاسيما الفقير فإني كنتُ مريضاً نحيف الجسم من شدة المرض وليس ذلك- والحمد لله – من جوع، بل لما تقدَّم كغيري من الهم والحزن والانحصار، وكثرة الشوق إلى الديار. فمذ أشرفت على رأس الجسر دبَّت العافية في جسمي دبيب الحُميَّا في الرأس، ولما بلغتُ دارنا احتَسَوْتُ الشفاء احتساء السُّلاف من كاس. لكن لشدة الفرح غلبني دمع العيْن، وطَفِق يجري جري الجِريال من عيْن.

وقد فضل عندنا، بعد الفتح، من كيْلِنا ثلاث وَزْنات من الحنطة، ولم يكن عندنا إذ ذاك دراهم نشتري كَيْلاً لو نفدَت، فاحتار والدي لذلك. ثم أنه فوَّض أمره إلى بارئ النَّسَم[1]، فوفَّقَ الله الوزير المذكور بأن جعله مُفتياً في قصبتَي المَشْهَدَين الشريفين: مشهد الإمام علي بن أبي طالب، ومشهد ولده الحسين رضي الله عنهما، فعَمِلنا من تلك <١٢٥أ> الحِنطة متاعاً، وأعطينا الباقي لبعض أقاربنا، وخَرَجنا إلى المَرقَدين المذكورين.

ثم إنَّا لم نَزَل هناك مسرورين بِقُرب أولئك الأكابر، مَغْبوطين بأولى الشَرَف الطَّاهِر، فَبَيْنا نحنُ في السرور والفَرَح، وزوال الشُرور والتَّرَح، وإذا بالخَبَر قد جاءنا من بغداد، بأن الخارجي الخبيث قد عاد، (وكان الوزير عُصمان باشا حينئذ في كركوك، فقابله واستشهد هناك وتفرَّق عسكره)[2] فَهَرَب والدي مع عسكر حِلَّة ابن دُبَيْس، ومع مُتَوَلِّي قَصَبَة

---

[1] في الأصل عبارة هنا ضرب عليها، ونصها (وخالق العالم من الوجود إلى القدم).

[2] ما بين قوسين من الهامش.

الحسين إلى الموصل على طريق شِفاثَة[1]، وأوْدَعني، وأوْدَع سائر أهلــي وأقاربي عند بعض السّادة، ولساداتهم شيمة حَسَنة، وأخلاق مُستَحْسَــنة.. فقال له والدي: إني قد وضَعتُهُم عِندك سُنّة وأريدُهم مِنكَ سُنّة، فتَعَهّد لــه بذلك. ووضَعنا جميعنا في بَيْت، واختَفَينا اختفاء المَيْت، لكني كنتُ أخــرج بعض الأحيان مُتَدَلّسا بزِيِّ العُربان.

وكان مِن خَبَر هذا الماكِر، واللئيم الفاجِر الغادِر، أنّه لمـــا وَصَــل هارباً إلى هَمَذان، واجتمعت عليه وجوه عساكره وجنوده، وخَفَقَــت علــى رأسه خوافِق راياته وبُنوده، نَدِم على ما فَعَل، ومالَ إلى الغَــدْرِ وعَــدَل، وأرسل من جَسَّ أخبار بغداد، فأُخبِرَ بــأن العســاكر تَفَرّقــت، ورايــات الاجتماع تَمَزّقت، وهي في قَحْطٍ عظيم، وجَدْبٍ عميم، فَفَرح لذلك، وســار من ساعته[2].

---

[1] بلدة قديمة، نشأت في واحة نخيل،عند نقطة التقاء الطرق التجاريــة فــي الباديــة الجنوبية الغربية، ترددت الإشارة إليها منذ القرن السادس قبــل الميــلاد، وأوردت ذكرها كتب البلدان العربية برسم (شفاثى). قال ياقوت: منها يجلب القسب والتمــر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جداً. وهي اليوم بلدة عامرة، وتعد مركــز ناحيــة تابعة لمحافظة كربلاء.

[2] في دوحة الوزراء ص٣٤ أن الجيوش العثمانية تفرقــت وعــادت إلــى مقراتــها المتباعدة اعتقاداً من أمرائها وقوادها بأن الجيوش الإيرانية لا يمكن أن تقوم لـــها قائمة بعد تلك الهزيمة النكراء لمدة طويلة، فلم يتركوا في بغداد إلاّ قوة قليلة تمكــن العدو من معرفة مقدارها بواسطة جواسيسه، وعرف أيضاً الغلاء الفــاحش الــذي ساد أسواق بغداد، وسار إلى العراق مستولياً على كل ما يمر به من قرى ومدن.

ولما قارَبَ جمى<١٢٥ب> بغداد، وسَمِعَ بقدومه الوزير المرحـوم، وقَعَ في تِيْهٍ وحَيرة، لِقلّة الجنود والميرة. فلم يَزَل يَستَنتِج الأفكـار وهـي عقيمة، ويستَوْلِد طَيِّب الأقدار وهي مَنُوطة عن الظهور في مَشيمة، فـأدّاه فِكره، وألجأه حَصْرُه- رحمه الله- وقَهْرُه، إلى قتاله، ولو كـان عسكره قليلاً، ولا يُسلِّم البلد لمَن طَلَب، فأرسلَ عياله إلى البصرة، وبقي مُنفَـرِداً، وخَرَج إلى بُستانِه المشهورة بِبُستان الباشا[١]، يُريد أنْ يَدْهَم سَرِيّة قَدِمَـت من الخبيث، فيها خانَهُ المشهور بالطغيان، المعروف ببابا خان[٢].

ثم لَبِث هُنَيْئة[٣] وندم على فِعلِه، وأنّه لا يَقْدِم عليه من هو كَمِثْلِـه، إذ بالجند القليل، لا يمكن مقابلة ذلك المَحيل[٤]، فعَوَّل على الرجوع، لكن قـد عَصاه جُلُّ حَشَدِه، وأكثر خدّامه وأرباب مَدَدِه، وهربوا من يومِهم، ورَجَـع مع من رَجَع وسَحابُ الوهم عن ذِهنِه وفِكرِه انْقَشَع. ونادى في البلد مـن قدر على الحِصار فَلْيَبْقَ، ومن لم يقدر فليخرج إلى القُرى، فَخَـرَجَ مـن بغداد جمعٌ كثير، وجَمٌّ غفير، لكن أكثرهم ظَفَر به الأعاجم، فقُتِل وسُـبِيَت نِساؤه، واستؤصِلَت عبيده وإماؤه. وغُلِّقَت الأبواب، وعاد الحصـار بـلا ارتِياب، لكن من لُطفِ الله تعالى على عِباده أنّه بقي أياماً قليلة، وأرسـل يُريد الصُلح من غير حيلة.

---

[١] سيسميه في كلامه على حوادث سنة ١١٥٣هـ ببستان الوزير، وسيصفه بتفصيـل هناك.

[٢] هو بابا خان جابشلو، وكان أمير لورستان. ينظر محمد حسين قدوسي: نادر نامـه ص٢٤٠. خراسان ١٣٣٩هـ.

[٣] يريد: هنيهة.

[٤] المحيل: الرجل الذي يأتي بالمحال ويتكلم به.

وسبَبُ ذلك أنّه أخبِر بأن البَلُوج خان[1] استولى على غالب البُلـدان، وأنّه خَرَج عن طاعته، وعصى مع جماعته، وأنه قد جَمَـــع عنـــده مـــن الجنود ما يَعْجِز عن عدّها الحِساب، ولا يُطيق ضَبْطَها قَلَمٌ وكِتاب، فأسرع على الرُّجوع، لتخليص بلدانه من تلك الجموع، وطَلَب من الوزير الصلــح فأجابه سؤاله، وعَقَد معه الصُّلحَ على أن يُرجِع إليه الأطواب التي أُخــذت يوم فَتْحِ هَمَذان، وصارَ على ذلك عقد الأيمان. <١٢٦أ>

ثم أنّه نَزَل مُعسكره، وذَهَب إلى زيارة الأعتاب، ورَجَعَ على فَــوْرِه بلا ارتياب، فظَعَن بِجَحافِله، وسار بعساكره ومحامِلـــه، وقَصَـد إيــران، وخَلّصَ الله من يَدِه بُغْدان.

وأما أهلُ بغداد، فقد لَقُوا ضَرَراً في هذا الحصار ما لم يَلقَـــوْه فـــي الحصار الأكبر، مع أنّ حصارهم كان عشرين يوماً أو أقل، وذلـــك لقِلَّـــةِ الكَيْل إذ كان كَيْلهُم الزّبيب والتين اليابس وأمثالها ما لا يَسُدُّ الرَّمَـــق، ولا يَدفَع من الجوع القَلَق.

ثم أنه رَجَع والدي إلينا، فَقَدِمتُ معه دار السلام، فـــامتَدَح الوزيـــر الشهير، والأمير الكبير[2] [من الطويل]:

دَهَتْني خُطُوبٌ والزَّمـــانُ مُعـــانِدي ودَهْرٌ طَوَى كَشْحاً بِغَـــدْرِي والبِـغُ
تَرامَتْ بِيَ الأقطارُ مِنْ كُلُ جـــانِبِ فها أنا عن مَغْنَى الأمـــاجِدِ شاسِــعُ

---

[1] هو محمد خان بلوج، وكان حاكماً لاقليم فارس. وقد قـــاد الثـورة باســم الشـــاه طهماسب الصفوي، ساعياً لاعادة الحكم إلى الأسرة الصفوية. ينظـــر درة نـــادرة ص٧٣٨.

[2] ديوانه، الورقة ٩-١٠.

وكم أزْمَةٍ مَرّتْ عليّ ولـــم يَكُـنْ ... لها كاشِــفٌ بَيْـن البريَّــةِ رافِـعُ

ولمَّــا رأتْ أُمُّ البَنيــنَ تَضَجُّـــري ... وإنِي إلـــى تلـك المَعَــاهِدِ نــازِعُ

فقالت: لعلَّ القَصْدَ نَحْوَ أبي النَّــدَى ... مُبِيدِ العِدى حيثُ السلامة ضـــارِعُ

يأمُونَهُ العـــافُونَ والدَّهْــرُ كـالِحٌ ... يحدُونَ سَـــيْراً والدِّيـارُ شواسِـعُ

فَيلقَوْنَ بَحْـــراً بالمَكـارِمِ طافِحــاً ... بَلى فاقَت الأبحارَ مِنــهُ الأصــابِعُ

هو الغَوْثُ إنْ عَزَّتْ إغاثة صــارِخٍ ... هو الغَيْثُ لكــنْ بالدَّنــانيرِ هــامِعُ

<٢٦ اب>

سَلِ الحربَ عَنْهُ يَومَ مَلْحَمةِ الوَغـى ... فهلْ صادَفَتْ مِثْلَ الوزيرِ مَعـــامِعُ

وسَلْ فتحه إيرانَ بالسَّـــيفِ عَنْــوَةً ... فَكَمْ ضُرِّمَتْ مِنــهُ عليــها وَقــائِعُ

وسَلْ عنهُ لُورستَانَ ماذا تَجَرَّعـــتْ ... مِن الحربِ هَوْناً والديـــار بلاقِــعُ

وسَلْ فتحه الأهوازَ إذ قادَ جَحْفَـــلاً ... مِن الشُّوسِ أبطالٌ كُمــاةُ زَعــازِعُ

وسَلْ وَقْعةَ الأحزابِ عنــهُ ونِفُــراً ... إذا البَطَلُ المِغوارُ بــالذُّعرِ ســاكِعُ

وكم غَزْوَةٍ يغزُو العِـــدى وسَـرِيةٍ ... بها الموتُ يُقْضى والدِّماءُ نَجـــائِعُ

هو الفاتِحُ الصِّنْديدُ ذو البأسِ سَطْوَةً ... هو الفارِسُ المِقدامُ مُذْ هُـــوَ يـافِعُ

فمَنْ يُبَلِّغُ الخُنكـــارَ عَنِّــي بـأنني ... أقولُ لــهُ حقّــاً ومــا هــو واقِــعُ

بأنَّ الوزيرَ بن الوزيرِ أبــا العُلــى ... له خِدْمَـــةٌ فيــها عليــكَ صنــائِعُ

فلولاهُ ما كانتْ حُصــونٌ تَشَــيَّدَتْ ... ولَوْلاهُ مـــا كــان القِــلاعُ تُمــانِعُ

ولا كان في أرضِ العِراقَيْنِ قَرْيَـــةٌ ... بها قَمرُ الأحكامِ والدِّيـــن ساطِعُ

فَجُرِّبَ مَحْصوراً و جُرِّبَ حـاصِراً ... فكانَ سَديدَ الرأي مـــا هُــو هـالِعُ

وحــافَظَ بَغــداداً وجـادَ بِنَفسِـــهِ ... فلا يخشَ رَيْباً لا ولا هـــو جــازِعُ

ولا حادَ عن طُرُقِ السَّدادِ مُحافِظــاً ... لِكَيْلا يَكيد الدين مَـــنْ هُــوَ خــائِعُ

ولا اكتحلت عيناه بالغمْض ساعةً ... ولا قامَ إلاّ وهو في الحالِ دارِع

وجاهَدَهم في الله حَقّ جهاده ... وحامى حِمى الإسلام والغيْر هلجِعُ

وعَمَّرَ نَواحي السُّورَ والليلُ أليَلٌ ... وهذا جهادٌ في الحقيقةِ رادِعُ

وحَصَّنَ حِصْنَ المُحْصَنات وطالما ... يُكافِح عن أعراضِنا ويُدافِعُ

ولولاهُ كانتْ في يَدِ الفُرسِ أزْمنَاً ... حَلائلنا تقتادُهُنَّ فَظائِع

ولولاهُ كانت في الوحوشِ قُبورنا ... وأطفالنا عند اللِّئامِ بَضائِعُ

ولولاه كادَ الدِّين تُمْحَى رُبوعُه ... وتُدرَسُ للإسلامِ صاحِ شَرائع

<١٢٧أ>

ولولاه ما سُور الزُوَيْراءِ مانعاً[1] ... ولا الطُوبُ عنّا للطوائِح دافِعُ

ولولاه مادامت على الأرضِ سُنّةٌ ... ولا ذَكَرَ الشَّيْخَين بالخيرِ خاشِعُ

ولا كان للصدِّيقةِ اليومَ ذاكِرٌ ... بخيرٍ ولا ذكر الصَّحابةُ ذائِعُ

ولا كانَ للنُعمانِ حَيٌّ نَزوره ... ولا كان في هذي الأقاليم جامِعُ

ولا كانَ للخُنكارِ دامَ عُلُوُّه ... من الناس في هذي الدِّيار مُبايِعُ

له مِنّةٌ عُظمى على الخَلْقِ كُلهم ... وذلكَ مَشهور الروايةِ شائِعُ

أبا عادلٍ إنـي حَثَثْتُ مَطيَّتي[2] ... إلى رَبْعِكَ السامي فما أنا صانِعُ

فقُل لي فماذا أن أقول لصِبيَتي ... إذا جِئتُهم والكُلُّ منهم جائِعُ

فلا زِلْتَ منصوراً وأمرُكَ نافِذٌ ... وخَصْمُكَ مخذولٌ وحُكمكَ قاطِع

---

[1] صيغة تصغير للزوراء.

[2] يكنيه بأبي عادل، وعادلة خاتون ابنته الكبرى.

فصــــل

[تحالف عرب الجزيرة]

ولما مُهِّدَت أراجي بغداد، وحُصِدَت شَوْكةُ الفَساد والعِنـــاد، وكـــان أكثرُ عَرَبِ الجزيرة حالَفَ الأعادي، وطَفِقَت تَمرَح في حُلَّة العِصيان فـــي البَوادي، وكانت أشَدَّ من الأعداءِ فساداً، وأكثَرُهم ضَرَراً وعِناداً، وقد دلَّـت العدو الغَشوم، واطَّلَعَت الغادِر الظَّلوم على أُمورٍ لم يعرفها غير الجـــان، ولم يَهتَدِ إليها إنسان. فأرادَ الوزير القُمقام أن يأخُذ منهم الانتقـــام، فَعقَـد الرّايات وظَهَرت للغزو آيات، ووَجَّه نحوهم سَـــرِيَّةً وشُـحِنَت بالأُسُــود، وكَتيبةً رُشِّحَت بالبنود. وأمَّر عليها كَتْخُداه الأفخم، ونائبه الأعظم، الشجاع القَسْور، والبطل المُظَفَّر، ذا الهَيْبَة التي تُفَلّ لها الكتـائب، والأُبَّهَـة التـي تُرْهِب المَسالم والمَحارِب، جريء الجِنان ثابت الجاش، مُجَندِل الفرســـان يوم النزال والطِّعان كالفَراش <١٢٧ب> ساعِد الدولةَ الأحمَديَّة، وعَضُـد الشوكة والصَّولة الحَسَنيَّة، مُفَرِّق شَمْل الأعادي، ومُمَـــزِّق كُماتــها فـي الصَّحاصِيح والبَوادي، ألا وهو الأمير المظفر محمد باشا[1].

فسار بذلك الخميس، وأمَّ حِلَّة ابن دُبَيس، بلُيــوث العريــس. ولمـا دَخَلها بأُولئك الفرسان، ومَكَث يوماً لاستِراحة الأبدان، وخَرَج منــها وقـد شَمَّرَ عن ساعِد الاجتِهاد، وقَصَدَ شَمَّر بكل بطلٍ ثابِت الفؤاد. ولما أشـرَفَ على أخبِيتهم، وصار بين ظَهْرانيهم في أيديهم، أضرَمــوا نــار الحــرب

---

[1] تقدم التعريف به.

والأبطال ضِرامها، وتأهَّبوا للطعن والضرب، وعَلا من الـهَيجاء قتامـها حتى غَشِيَت الفريقَيْن من الجانِبَيْن سَحابةُ عَجاج فهو يوم الغاشيَة.

وكَثُرَ الحَيْنُ من الطائفتين، وقُطعَت أباهِر وأوْداج من الفئة الباغيـة، ونازَلَت الأبطالُ الأبطال، وضارَعَت الرجالُ الرجال، ورَنَّمَت النِّصال فـي البَيْضات، وغنَّت الصِقال على الهامات، وعَثَّرَت الخَيْـلُ فـي حجالـها، وجالَت بأبطالها ورِجالها، وزاغت الأبصار، وخَشَعَت الأصوات، وإظلَـمَّ النهار، وقارَبَ الكُل أحوالَ الأموات، وسالت الأحداق، ومـالت الأعنـاق. والرايات نُكِّسَت، وأعلام النَّجاة طُمِسَـت، والكُمـاة فَزَعَـت، والأبطـال زُعْزِعت، واللُّيوث احرَنْجَمت والخيول هَمْهَمت. وقد حَـفَّ الله الإسـلام بالنصر، وأنزلَ عليهم السَّكينة والصبر.

فما انقشعت سحابة العَثْيَر، ولا فُلَّت جَمْعيَّة العسكر، حتـى غنَّـت الصَقال في هام الأعادي، وصَفَّق العَسَّال على ظهر كل <١٢٨أ> مُعـادي. وغدا أكثرُهم أكَلَة للسِّرحان، وطُعْمة للنسور والضِّبْعان، ونهِبت أموالـهم وسُبِيَت، فأُطلِقت عيالهم وأطفالهم.

وسار أيضا بهذه الجحافل والجند العديد، وقصـد بـهم آل قَشْـعَم وزَبيد، ففَرَّق جموعهم، وأخلـى ربوعـهم، وأذَلَّ أبطالَـهم، واستأصلَ أموالهم، وقَبَضَ على شَيْخَي آل قَشْعَم وزَبيد، وقَيَّدَهما بالأداهِم، وأرسـلهما مع الضَّراغِم والضَّياغِم، إلى الوزير المذكور- ضوعِفَت له الأجور- فَعَفـا عنهما بعد أن أخذ عليهما العُهود، أن لا يَرجع كلٌّ منـهما إلـى الفَسـاد ويعود.

ثم أن الكَتَخُدا المذكور، بعد تمهيده الجِّهات، وتأمينه السُبُل والطرُقات، رجع إلى بغداد، مُنشَرِح الصدر مسرور الفؤاد. وقد امتدحه الوالِد- حفظه الله- بقوله[1] [من الوافر]:

أأخشى في الدُنا الكُرَبَ الشِّدادا   أساءَ الدَّهرُ فينا أم أجادا

فلا أخشَ الحوادِثَ إن دَهَتْني   ولا رَيْبَ المَنُون وإنْ تَمادى

ولا صَرَّ النوائب كالحات[2]   ولا عَضَّ الزمان وإن أبادا

أأخشى والجَوادُ النَّدْبُ كَهفي   وإنْ جبتُ المَهامِه والبِلادا

مغيثُ المُعتفين إذا أتَوْه   ويفرحُ بالنَّوالِ إذا أعادا

كريمٌ مِنْ نَداه قد عَرَفنا   دنانيرَ الصِّلاتِ إذا أفادا

فَكَمْ مِن عسجدٍ سَحَّت يَداه   فلا تُلفى العُفاةُ له نَفادا

شجاعٌ باسِلٌ يُرْدِي كُماةً   فَيَروي في الوغى البِيضَ الحِدادا

تَرُدُّ الخَيلُ كَلْمى شارِداتٍ   إذا هَزَّ المُثَقَّفةَ[3] الصِّعادا

يَوَدُّ الحَرْبَ إن هاجَتْ لَظاها   ويهوى للكفاحِ بها الطِّرادا

<١٢٨ب>

(إذا صالَ الأميرُ أبو حُسَينٍ   تولَّت شُوسُها هزمى بدادا

فما العَبْسي في الهيجا اذا ما   مثار النَّقْعِ قد عمَّ الوِهادا

هناك تقدَّم الليثُ المُفَدى   إذا حمى الوطيس وقد تمادى

له الآراء أمضى من مواضٍ   يَقُد الصَّعْبَ لو رامَ العِنادا

---

[1] لا وجود لهذه القصيدة في ديوانه.

[2] صر هنا: عطش.

[3] جمع مثقف، وهو الرمح.

وأفكـارٌ لِـوَرْيِ الزَّنْـدِ قَدحـاً إذا جـالت فتتقِـد اتِّقـادا
حديدُ الذهـنِ نَـدْسٌ أريحـيٌّ[1] إذا أمـوا يحاولـه أشـادا[2]
يُدَبِّـر للحـوادثِ وهـي غَيْـبٌ فيمنحـها الإصابـة والسَّـدادا
ولم لا تَعْظُـمُ الأوصـافُ فيـه ومن خُلْق الوزيـر قـد استفادا
وزيـرٌ كَلَّـت الأقـلام عنـه ولو كـان البحـار لـها مِدادا
فـلا أسـطيعُ أن أوليـهِ شُـكراً ولا أحصـي مناقبـه عـدادا
فكان العجزُ منـي فيـه مَدحـاً بعجزي نِلْتُ في مدحـي مُـرادا
فطوبـى للوزيـر بِكَتْخُـداه فقد حـازَ الإصابـة والرَّشـادا
محلّي قـد رفعـتَ أبـا حسـينٍ وشـيَّدتَ المفـاخر لـي عِمـادا
أزَلْتَ البؤسَ عنّي وهـو ضُـرٌّ وأعدمـت المضـرَّة والفسـادا
ونلتُ مآربـاً لـو كـان تحتـي جـوادٌ يسـبق النُّجُـب الجيـادا
فـلا زالـت بـك الأيـامُ غـرًّا وتنقـاد السـعودُ إليـكَ انقيـادا

فصل

[عزل أحمد باشا عن بغداد]

وفي هذه السنة[3] ورد علينا الكتاب السُّلطاني، والخِطاب الخاقـاني بِعَزْلِه من الوزراء، وتَوْلِيَتِه مَنْصَب حَلَب الشهباء، فاستَسرَّ لذلك، ونالـه)[4]

---

[1] الندس: الفطن.

[2] كذا.

[3] يريد سنة ١١٤٧هـ.

[4] ما بين قوسين ورد في هامش الأصل، ونقله ناسخ ب إلى متنه.

جملة الحبور، حيثُ خلّصَ من غَوْغاء العـراق، ومُجادلـة أهـل البغـي والشِّقاق، لكنه لم يَرضَ بمَنصيب الشَّهباء مَنصِباً إذ لم يتحمّل كثْرةَ الجنـود، ولم يَفِ بما يمنحه للوقود، لكنه سكَتَ على ذلك امتثالاً لأمـير المؤمنيـن، وانقياداً لرئيس الخواقين[1]، فخَرَج من بغداد إلى المعسكر، ورحَل بعد أيامٍ مع ذلك العسكر.

ولمّا سَمِعت الأعرابُ بِعَزْله من العراق، دَرَّ في أبدانهم عِرْقُ البغـي والشِّقاق، وأن الغُرَيْر وآل شَهْوان[2] لم يَكْفِهم عَزْلُه، حتّى تـأهّبوا بجُموعهم، وأخلَوا كلَّ رِجالهم من رُبوعهم، وجَمَعوا معهم كـل عَشـيرة وفريق، ورَصَدوا له بِكَثْرتِهم الطريق. وقالوا: إن هذا مهما عُـزِلَ فإنـه يعود، ولم يَزَل، تارِكا لحماً على عُود، والرأي أن نَقتُـل بـهذا الجُحفـل رِجاله، ونأخذ بهذا العسكر أمواله، ونُخْمِد أنفاسه، ونُطفي نيْراسه، ونعيش كغيرنا في هذا القُطر رَغَداً، وتَبْقى الشَّوكة لنا، ما حَيينا أبداً، ومادام هـذا في الدُّنا، لم يَنَم مِنّا بَدَنا!

فأُخبِر الوزير بِغَدرِهم، وحُذِّر من مَكرهم، وأنهم أعدُّوا لـه عُـدَّة، وثَبَتوا له بِشِدَّة. فلما التَقى بِعَدَدهم، ونَظَر إلى خيولهم وعُدَدهم، أسنَدَ أمـره إلى ربِّه، وتأهّب لقتالهم بأعوانه وحِزبِه، فحميَ من الجـانِبَين الوَطيـس، وبَرَزَت من الطَّرَفَيْن ليوث العَرِيس، وكَشَرت المَنيّة عن نابِها وظُفُرِهـا، وبَدَت الأعرابُ في كَيْدِها وغَدْرِها، ودام فَلْقُ البِيض في الجماجِم، وهـامَ

---

[1] في الأصل: الخوانقين، وكذا في ب: ولا وجه له، والصحيح مـا أثبتنـاه: جمـع خاقان، وقد تقدم شرحه.

[2] تقدمت الإشارة إلى هاتين العشيرتين في حوادث سنة ١١١٧هـ.

كلُّ بطلٍ مُقاوِم. واشتدَّت الحربُ على أربابِها <١٢٩أ>، وهاجَت الـــهيجاء على أصحابها، وفُلَّت البيض ضرب البَيْضات، فأضحت شباتُها لم تقطــــع، واعتلَّت الشُّجعان من السِّهام المارِقات فأمست وثَبَاتُها لم تنفَع.

هذا وأما الأسَد المِغوار، والشجاع الكرَّار، فإنه يَنْظِم الأبطـــال فـــي طَعْنَاتِه، ويَفْلِق هام الرجال في ضَرَباتِه، يَجـــول بيـــن الصفَّيْـــنِ كالأســد المُفتَرِس، ويَصول ثابت الجأشِ كالطَّوْدِ المُنْغَرِس، ولم يَزَل غبار الـــهيجاء عاقداً، وشَطَن[1] الدماء هابطاً وصاعداً، حتى ظَـــهَرت علـــى الأعـــراب الذِّلَّة، وذمَّ كلٌّ رأيه وعقلَه، وهربوا هرب الخِنزير مـــن الأســـد، وتبِعَـــهم طالباً الجند والحَشَد، فشَبَعَت الصَّماصِم من الجماجِم، ورُوِيَت مـــن الأوداج اللّهاذم الأراقم[2]. وأغار الوزير على الأنْديَـــة، ونَـــهَب المُخَـــدَّرات مـــن الأخبِيَة، وأخذ خيلهم وجِمالهم، وأثاثهم ومالهم، ثم أنه أطلَقَ النساء كما هـــو المعهود من عاداته، والمحمود من سَجِيّاته. شعراً [من البسيط]:

قَـــد حلَّـــفَ الســـيفُ أيَّ داهيـــةٍ كبرى وصافَحَ يُمنى الموت خَنْجَـــره

كم قد أغارَ وشُـــهبُ الليـــل غـــائِرةٌ والفَجْـــرُ ينبـــث بالكـــافور عَنْـــبَرُه

فآب والأُسْدُ في الأغـــلالِ خاضِعـــةٌ وعـــادَ بـــالنُّجْحِ والأنفـــالِ عَسْـــكَرُه

والدُّهم كُمتٌ وسُـــمْرُ الخَـــطِّ تَحمِـــدُه والبيـــضُ صُفْـــرٌ مَصونـــاتٌ تُكَـــبِّرُه

والجَـــوّ كالغَسَـــقِ المُســـودِ أبيضُـــهُ والسيفُ كالشُّـــفَقِ المُحمَـــرِّ أخضـــره

هم العِدى بذهاب النـــورِ منـــه ومـــا يَطفُـــونَ نـــوراً يُريـــدُ الله يُظْـــهِرُه

---

[1] الشطن: الحبل الذي يربط به الدلو.

[2] جمع لهذم وهو كل شيء من سنان او سيف قاطع، والأراقم جمع أرقم، وهو الحية. شبه السيوف بالحيات التي تنهش ضحاياها.

يبغونَ مَحْوَ اسمِهِ من صُحف مَنْصِبِه   والله فـي لوحِـهِ المحفـوظ يَزْبُـرُه

<١٢٩ب>

بَغوا عليـه ومَـن يجعـل تِجارَتَـه   بِضاعةَ البَغي يومـاً خـابَ مَتْجَـرُه

وحاولوا الغـدرَ فيـهِ وهـو آمَنَـهم   وصاحِبُ البغي يكفـي فيـه مُنْكَـرُه

ودبَّروا الأمرَ سِـراً وهـو مُشْـكِلٌ   وربُّـهُ فـوقَ أيديـهم يُدَبِّـرُه

فأدركوا الويلَ والحربَ الطَّويلَ ومـا   رأوا من الأمرِ شـيئاً سَـرَّ مَنْظَـره

ثم أنه سارَ إلى الموصل، فعسكر خارجها، وأرسل بَرِيداً إلى الدولـة يرجو من صاحب الشَّوكة والصَّولة أن يُوَلِّيه غيرَ حلَب، وأن ينجز له مـا طلَب، فرَجَع البريد تَلُوحُ عليه سيماء البِّشارة، ويفُوحُ من أُردانـه طيـبُ الأخبار السارَّة، فأخبر أنه قد ولاك أمير المؤمنين أورفَـة[1]، وسـيقدِم رسولٌ عليكَ، ويَبُثُّ جليَّة هذا الأمر لَدَيك.

[توليه أورفة]

فبَعدَ أيامٍ قليلة، قَدِمَ رسولُ أمير المؤمنين السلطان، وأخبره بمـا كان، فرَحَل عن الموصل، وقَصَد أُورفة دار حُكْمِه، وسـار إليـها إذ قـد رُسِمَت باسمِه.

---

[1] سبق أن سماها المؤلف عند ذكر تولي أبيه حسن باشا حكمها للرها، والرهى، وقـد تقدم التعريف بها هناك.

ولما بَلَغ بحزبه المتين، وقارَبَ حِمى ماردين[1]، شَكَوْا إليه أهلُها صَوْلَةَ الجيجية[2]، وأنَّهُم قطعوا عليهم الطُرُقات، ونَهَبوا القوافل من سائر الجِّهات، وأن إغارتهم لم تَزَل تُقارِب البلد، ولم يَقْدِر على رَدِّهم ورَدْعِهم أحد. فسَمِع الوزير شِكَايتَهم، وباشَر لِرِقَّةِ قَلْبِه حِمايتَهم، وسار بجَحْفَلِه المنصور، وجيشه المحبور، نحو الجيجية، وقد بَلَغَهم خبر قُدومه، وأُنذِروا غائلة هُجومه. ولما أشرف عليهم، أبصرهم صُفوفاً في ذلك الصَّفْصَف، متأهِّبين للقتال كما هو من حالِهم يُعرَف، لكنهم لم يَلبَثوا إلاَّ زهاء نَبْهَةِ الأبيض من جَفْنِه[3]، وهزّ الأسمر إلى طَعْنِه، وغَدَوْا طُعمةً لِشَبات

---

[1] مدينة على جبل صخري عال، تقع في أطراف الروافد العليا للخابور، إلى الشمال من نصيبين، ولها قلعة على قمة هذا الجبل. ينظر ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٠٢، وقد أصبحت ماردين في عهد ولاة المماليك جزءً من ولاية بغداد، وهم الذين يرسلون إليها من يمثلهم في حكمها، وقد عرف حكامها عهد ذاك باسم (متسلمين) وربما عرف أحدهم بـ(ويوده) وهي كلمة روسية الأصل أصبح معناها الاصطلاحي قريباً من كلمة متسلم.

[2] بجيمين مثلثتين. وأصلها الكيكية، قبيلة كردية قديمة أشار إليها الأصطخري أول مرة في القرن الرابع للهجرة باسم (كيكان)، أمراؤها عباسيون من ذرية الأمير المبارك بن الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله، قال المؤرخ الكردي محمد أمين زكي: جيجي أو كيكي، عشيرة كردية نصف سيارة، تسكن الآن جبل قره جه داغ، وفي الشتاء ترحل إلى القرى التي حول نهر جاك جاك (جاغجاغ) وعلى زعمهم كان لهم أمير عباسي تسلسلت أمراؤهم من أحفاد هذا الأمير بعد زوال الدولة العباسية. خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة محمد علي عوني، ص٤٠١.

[3] أي إبراز السيف من غمده.

الصقّال، وأكلةً بين أنيابِ الأشبال، وكفى أهل <١٣٠أ> ماردين شَـــرْهُم، ورفع عنهم كَيْدَهم وضرَّهم.

ولما قارب حِماها، وأشرف على فِنَاها، خَرَجَت إليه وجـــوه البلـــد وأعيانها، وأكابرها الذين بهم شُيِّدَت أركانها، واستقبلوه بالهَدايا والتُّحَـــف، وقابلوه بسائر الطُرَف. ولما دخل البلد، وعلى بساط العـدل حَـل وقَعَـد، وفَدَت إليه أكابر الأكراد وأمراؤها وأعيانها ورؤساؤها، فأجزلَ العَطايـــا، واجْمَلَ لهم الهدايا، ورَجَعوا يَحمدون أفعاله، وأبوا يشكرون إفْضالــه. ثـــم بعد أيام وَفَدَت عليه عشيرة طي بكَهْلِها ووليدها، وطارِفِها وتَليدها، فرحَّـبَ بهم واكْرَم، ووقَّرَ أمراءهم وعَظَّم، وألْبَس رؤساءهم الحُلَل السَّنِيَّة، والــبُرَد البَهيَّة، وأنزلَهم في دار الضيافة أيّاماً، ولَيَّنَ لإكرامِـــهم جانبـــاً وكَلامـــاً، فرَحلوا عنه شاكرِين، وانقلبوا إلى أوطانِهم حامِدِين.

ثم أنه بعد ذلك، تَصدَّرَ لِبَثِّ الأحكام لَدَيْه، وعَرْضِ مظـــالِم الأنـــام عليه، وإغاثة الملهوف، وإعانة المظلوم وقِرى الضيوف، فرَعَت الرعيَّـــة بأيّامه يانِع العَيْش، ودامَت البَرِيَّة بمقامِه في فَرَحٍ وطَيْش. وعَـــمَّ نواحـــي أُورفة الأمان، وقد كان الخوف مُلازِمها منذ أزمان.

ثم إنّه بعد ذلك غزا البَقّارَة[1]، وهم أشَرُّ العشـــائر ضـــرَراً وأكـــثر

---

(1) قبيلة أصلها من أنحاء الشام، نوه بـــهم محمـــد بـــن حمـــد البســـام (المتوفـــى ســـنة ١٢٤٦هــ/١٨٣١م) فقال "لو لم يكن لهم إلاّ إكرام ضيفهم الطارق، لكفاهم هذا المجـــد الخارق، وأما فرسانهم فخمسمائة، وسقمانهم (حملة البنادق) ألف" (الدرر المفاخر فـــي أخبار العرب الأواخر، بغداد ١٩٨٩، ص٧٧) وقال عباس العزاوي: وهم من العشائر الزبيدية.

الناس مَكْراً وغدراً، وهم إذ ذاك نحو عانة[1] نوازِل، يَشِنُّون الإغارة إلى أورفة وينهبون القوافِل، فسار إليهم بِجَمْعِه المعهود، وقَصَدَهم بجيشه المحمود، وعساكره الضَّراغِم، وجنوده الضَّياغِم، مُمتَطين النُّجُب السوابِق، مُتقلِّدين <١٣٠ب> المُشرفِيَّة مُعتقِلِين اللُّتوت السواحِق، فطَوى إليهم الفَيافي والقِفار، وقَطَعَ عليهم الأنهار والأهوار، وفاجأهم على غَفْلَة، فأوهنَهم من أول وَهلَة، واغتنم العسكر الأموال والأنعام، وحَصَل للخُلَفاء الذين معه الإحسان والإنعام، ورَجَع إلى بَلَدِه مسرور الفؤاد، مَحبوراً بِزَوال الأنكاد.

ثم إنّه- رحمه الله- بعد أيام، غزا عشيرةَ قُوْجَه عِزِّ الدِّين[2]، وهم قبيلة أشرُّ قبيلة، طالما نَهَبوا القوافِل، وغصبوا الرَّواحِل، ورَوَّعوا السلام، وهَدَموا سور الانتظام، وقتلوا الأنفُس عمداً، وغَصَبوا الأنفَس قَصْداً، ولم تَزَل هذه عادتهم، ولم يَبْرَح على الفساد عُكوفهم وإعادَتِهم، مُتحَصِّنين

---

(1) البلدة المعروفة على شاطئ الفرات، الواردة في البلدانيات الإسلامية باسم (عانات)، وكانت في عهد المؤلف تحت سيطرة إمارة آل فضل الطائية، التي تمارس سلطتها منها على نواحي الفرات الأعلى، من بيرة جك شمالاً إلى هيت جنوباً، وقد اعترف العثمانيون بهذا الواقع فجعلوا عانة والحديثة سنجقاً واحداً منحوه لأمرائهم بصفة وراثية. كتابنا: الأسر الحاكمة ص١٣١.

(2) هي قبيلة عزيزان التي ينحدر أمراؤها من عبد العزيز بن سليمان بن خالد بن الوليد، على ما يصرح بذلك المؤرخ الكردي شرفخان البدليسي، وقد ألفت إمارة وراثية في جزيرة ابن عمر استمرت من القرن السادس للهجرة إلى القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد). ينظر محمد أمين زكي، المصدر السابق ص١٤٦.

بِجَبلٍ شامخٍ، وطَوْدٍ باذخٍ راسخٍ، ما بين أُورفَة وحلَب، وينهبون من جـــاء بالميرةِ وجلَب. وهذا الجبل معروف بكاوور داغي، معناه بالعربيـــة جبـــل النصارى، قد وضعوا فيه الطّارِف والتليد، والكَهل والوليد.

ولم تَزَل خيولهم تلعب في الطُرُقات، وتغير في تلك الجِّهات، ولـــم يقْدِر على رَدْعِهم أحد، ولم يُطِق كفَّهم ومنعـــهم ذو جلَـــد، قـــد عَجَـــزت الوزراء العِظام عن مُقاوَمَتِهم، وذلّت الأمراء الفِخام عن مُصادَمَتِهم، فسـار إليهم بجموع عادِيَة، وجحافل غادِيَة، متواصلـــة المَـــدَد، متكـــاثرة العُـــدَّة والعَدَد، فملأ بهم الأباطِح، وأسال بمَدِيَّهم الصحاصِح.

هذا وأما أولئك الأرجاس، فقد اعـــتراهم حيـــن ســـمعوا بقُدومـــه <١٣٢أ> الوسواس، وبقوا في الاحتيار، مُتَرَدِّدين بين الثَّبات والفِرار، لكن الشيطان نَفَثَ في عُقَدِهم، وكَثَّر في أعيُنِهم تفاقُم عَدَدِهم، ورغَّبَهم في المقام للقِتال والاصطِدام، وألقى في رَوْعِهم الغَلَبَة والاقتدار، وأنه ســيكون لـــهم الاستظهار، وإنهم في قِتالهم هذا إن غُلِبوا أُلْحِقوا بأهالِيهم، وصَعَدوا الجبـل وصاروا إلى ذراريهم، فَعَبَأوا جموعهم خيلاً ورَجْلاً، ومـــلأوا رُبوعـــهم بَنادِق ونَبْلاً، وأرسلوا نحو المائتي فارس عيونـــاً تحرســـهم مـــن ناحيـــة العسكر، ودامُوا من هُجوم اللُّيوث ليلاً أو نهاراً على حَذَر.

فبعد أيام التَقَت الرَّبيئة بالربيئة[1]، والعَيْن بالعَيْن، وصادَفَت الطليعـــة الطليعة، من الجانبين والفريقَين، فانعقد فيما بينهم الغُبـــار، وجـــالت مـــن الطَرَفَين الفُرسان، وكلٌ على صاحبه أغار، وحَفَّ الله طليعـــة المســـلمين

[1] الربيئة: الطليعة.

بالنصر، وعاملَ العُصاة الطغام بالذُل والقَهْر، فولّوا الأدبار، وهربوا نحـو الديار، وأنذَروا قَومَهم بما شاهدوا من ثَبات أُولئـك الضَيـاغِم، وحـذَّروا أهلهم مما أبصروا من ثَبات أُولئك الأبطال الأعاظِم. وقالوا لهم: الـرأي أن نَتَحصَّن في قُلَّة هذا الجبل، ولا يُضرَب بنا في الخُسران المَثَل، ففي هـذا المَقام يُحمَد الفِرار، ويُذَم الثَّبات للقتال والقَرار. ولكن قومهم لتَعوّدهم علـى افتِراس الوزراء وقَتْلِ رجالهم، والغَلَبَة على الأمراء ونهب أموالـهم، لـم يصغوا إلى هذه النصيحة، بل عدُّوا ما ذَكَره العُيون من جُملة الفضيحـة. وحقَّق إبليس آمالهم <١٣٢ب>، وزيَّن في عيونهم أحوالهم.

ولما تراءى عسكر الوزير المُعَظَّم، وقارَبَهم الجند المُفْعَـم، تـأهَّبوا للكفاح، وتقلَّدوا البيض الصِّفاح، واعتَقَلوا اللُّتوث والرِّماح، وكَـثُرَ بينـهم الصَّخب والصِّياح، وصاروا صُفوفاً مُتَتالية، وجُموعاً مُتواليـة، فبادرَتـهم جنود الله، يقدُمها الأسدُ الأشد، واحتَوَشَتْهم[1] عباد الله يؤمُّها العَلَم القَـرْد، وأُضرِمت ذات البَيْن نيران الحرب، وكَثُر من الجانبين الطَّعْن والضَّـرْب، فشاهد العدو جبالاً راسِخة لا يمكنه قلعُها، وأبصر أسوداً ضارِيَة لا يُطيعـه كفُّها ورَدعُها، فلم يثبت إلاَّ ريثما اختبار أحوالهم، وعَوَّل على الفِرار مـن أمامهم وقِبالِهم، حيثُ عَجَزَ عن مُصادمَتَهم وقتالهم، وكلَّ عن مُجادلَتهم في مجالِهم، فتَسنَّم الأعداء قُنَّة الجبل هاربين، وتَبَعهم كلُّ بطل شـديد متيـن،

---

[1] احتوش القوم على فلان جعلوه وسطهم.

فقُتِل جُلُّهم، وفُلَّ بعد بَرْمِ الطُّغيان حَبلُهم. ورَجَع الوزير المظفر إلى بلـــده بذلك العسكر[1].

فصل

[تهديدات نادرشاه وصلحه]

وفي غُرَّةَ السنة الثامنة والأربعين بعـــد المائـــة والألـــف[2]، حَــلَّ الخارجي الظَّلوم عقْدَ صُلْحِه، وآبَ إلى الروم بعد صفحه، لكنه لم يرجـــع

---

[1] يشير عبد السلام المفتي الماردیني في كتابه تاريخ ماردين، إلى أن أحمد باشا قتـل متسلم ماردين تقي بك سنة ١١٤٨هـ رداً على مؤامرة دبرها السلطان نفسه هدفها القضاء على أحمد باشا وهو في برية ماردين. يقول "إن السلطان فوض حكومـــة بغداد لتيمور باشا بأرض الروم، وعين له جملة من الوزراء ليعينوه علـــى عـزل أحمد باشا، وكان تدبير تيمور باشا أن يأتي إلى برية ماردين، وينتظـــر الـوزراء حتى يقدموا، ويتوجه بهم إلى بغداد، فاستمع بذلك (يريد: إلى ذلـك) أحمـد باشـا وتوجه بعسكره لاستقبال تيمور باشا، فصادفه بين أرزن الروم وديار بكر ومعـــه شرذمة من الجيش، فقتله وأرسل برأسه إلى السلطان وعاد إلى بغداد، فمر علـــى طريقه بتقي بك وقتله وأرسل رأسه أيضاً، لأن تقي بك كان قد امتنع عن طاعتـــه خوفاً من السلطان لأن أحمد باشا كان في غضب السلطان لادعائه أنه مـــن نمـل السلطان.. وكان حكمه شهرين" (تاريخ ماردين، الورقة ١٤١)، وفي قصيدة لعبـــد الله السويدي، سيوردها المؤلف في ما يأتي، إشارة إلى ما كان يحاك ضـــد أحمـــد باشا من دسائس في البلاط العثماني آنذاك.

[2] الموافق ٢٤ أيار ١٧٣٥م.

إليهم من ناحية العراق، لما رآهم ذوي[1] ثبات أدّاه إلـى الانمحـاق، بـل قَصَد الروم من ناحية أزْرُوم[2] <١٣٢أ>

ولما بلغ الخُنكار خَبَر ارتِداده، وكُفرانه الصُلْـح وإظـهار عنـاده، أرسل إلى أزروم سائر باشات على طريق الحاج، لكن لما عَلِم أنه لم يكـن له مقابل، ولا مُحاجِج ولا مقاتل، إلاّ الوزيـر المذكـور، ضُوعِفَت لـه الأجور، أرسل إليه وهو في أُورفة كتاباً يتضمن الإكرام والتبجيل، والثنـاء العام الجزيل الجليل، أمراً له بالرياسة على العساكر الإسلامية، مُرسِلاً لـه علامة تلك خِلْعَة سَمُّورية، وإنه يسير من حين ورود الخبر إلى أزْروم في الجند والعسكر. وفَوّضَه بين القتال والمُسالَمة، والجِدال والمُلاعمة، وأنـه يُخلِّص أزْروم من يد هذا الظَّلوم على حَسَب اجتهاده، وأنّه إن احتاج إلـى مَدَد يُمِدّه بإسعافه وإسعاده، فعقَد راياته وبُنوده، وجَهَّز عساكره وجنـوده، وسار من أُورفة بأسود ضارِيَة، وجنود غير متناهية.

هذا[3]، ولمّا بَلَغ بجَحفَلِه البلد المذكور، سار بِركابه أولئك الكتـائب المنصورة، فَطَوى بهم القِفار، وقَطَع إلى مقصده الأنجاد والأغوار، وفَـوى

---

[1] في الأصل: ذا.

[2] أزرزم، وتلفظ أيضاً: أرزروم، أرزن الروم، محرفة عن أرض روم، مدينة جليلـة، عرفها الروم باسم ثيودسيوبوليس وهكذا سترد في الأبيات التي سيذكرها المؤلـف فيما يأتي، ولاية في الشمال الشرقي من الأناضول، قريبة من البحر الأسود، وفيـها نقطة التقاء الحدود العثمانية بالدولتين الإيرانية والروسية. ليسترنج: بلدان الخلافـة الشرقية ص١٥٠.

[3] هنا أورد المؤلف في الأصل الجملة الآتية (وقد عين له الخنكار في آمـد عسـاكر التاتار) ثم ضرب عليها بخط.

المَهامِه الوَعْرة، وشقَّ الفيافي القَفِرَة، فأشرف على أزْروم، وهـــي علـــى شَرَف الهَلاك، قد تردّد أهلها بين إطلاق عِنان التسليم للعدو أو الإمســاك، إذ حِصنها- كما شاهَدَه من أخبر، وأخبر عنه من أبصر- لا يَرِدُّ الــهاجر، ولا يمنَع المُقاوِم. وكان بينهم وبين العدو ثلاثُ مَراحـــل، بِسَــير الأثقـال والرُّواحِل، وقد بلَغهم كَثرة عسكره، وأُخبروا بتفاقُم ضَـــررَه، وأن تسـليم البلد إليه لا يَدْفَع ضُرُّه، ولا يمنع غَدره. وأن أخذه أمانا كأخذه عَنوة، كمــا شاهد ذلك أهل المعرفة في هذه البَلْوَة، فبقوا في حيرة عظيمة، واعترتــهم هموم جسيمة، إذ حِصنهم غير حصين، وجندهم ليس بالكثير المتَيــن، وأن المَدَد <١٣٢ب> لا يأتي على استعجال، لإبطائه بتدارُكِه هذا الحال.

فبينما هم على هذا الحال الحَرِج، والقلب المُضطَرِب المُــنزَعِج، إذ قَدِم عليهم الغَوْثُ المُنْجِد، والعَون المُسعَد، فأبصروا جيوشاً تضيـــق بـــها الغَبراء، وتقِلُّ لديها نجوم الخضراء، فأمِنوا بها صولة أعدائـــهم، وحقَّقــوا سَلامة أموالهم ونسائهم، فبنى العسكر خارج البلد، مُحيطاً بها بذلك العَــدَد، وقال لأهل أزْروم: ناموا رَغَداً آمنين، هاأنا- بعون الله- أكفيكم صَولة هذا اللعين، فتَوَلّى الحِراسة بجنوده، فأمِنَت الرعية، وغدا مُترقِّباً قُــدوم العــدو لِيُقاتله، ويَرِد كَيْدَه ويجادله.

ولما سمع اللعين أن حامي العراق حَلَّ في البلد، وأنَّ معـــه العُــتْرَة والعَدَد، سقَط في يديه، ونَدِمَ على ما عَوَّل عليه، فأرسل إليه رسولاً معـــه كتاب مضمونه إنّا على ما عَرفتَ من الصُحْبَة، وعلى ما عَهِدتَ سابقاً مــن وُفور المَحبَّة، ولكن أردتُ أن أذهب إلى قِتال الهِند، وإذلال السند، فخَشيتُ صَولَتَكم على مُلكي إذا أخليتُه، وخِفتُ هجومكم على قُطـــري إذا ذَهَبــتُ

وخَلَّيتَه، فأتيتُ أُجدِّد قيمةَ الصُّلح، وأؤكد المَسألة وأعود على نَجْح، فأكون منكم أميناً، ويكون بعضُنا لبعضٍ مُعيناً.

فلما تُلي الكتاب بين يدي ذي الفِراسة، عَلِم أنه مُبَطِّن بالنِّفاق، مُزَخرفٌ بالأباطيل خوف الهَلاك والانمِحاق، وإلاّ كان يُغني عن مجيئه لما طلب رسولاً وكتاباً كما كان أولاً قد كتَب، لكن الوزير نَظَراً إلى أن الصلح أجمل، وأن حقْنَ الدماء من الجانبين أتم وأفضل، فأجابه إلى سؤاله، وأقرّ له سَلَمَه الأول على حاله[1].

ورجع عن أزْروه<١٣٣أ> خائباً، وآبَ إلى بلاده من ذلك الأسد هايباً. وحَصَل للوزير المذكور الفخر على أقرانِه، والمَنْقَبة على أمثاله وأخدانه، حيث كان هو السبب في الصُّلح بين الدَّولتَين، والأصل في حقْنِ الدماء من الجانبين، والعِلّة التامة في رجوع هذا الخبيث بلا قَضاءِ أوطار، مصحوباً بِعَدم إنتاج مراميه بالأفكار والأكدار، وحقٌّ للوزير أن يُخاطَب بما قيل. شعراً [من الكامل]:

بالفخرِ سادَ أبوكَ ساداتِ الورى	وأبوكَ لولا أنتَ لمَا يفخرِ
كالعَيْنِ بالبَصَرِ المُنيرِ تفضلَّت	والعينُ لولا الـم[2] تبصر
قَسَماً بِبارقِ مُرْهَفٍ قلَّدتَهُ	وبِعارضٍ من مُزنِ جُودِكَ مُمطِرِ
لولا إيابُكَ أرضُ رومٍ ما صفَتْ	منها مَشارِع أمنِها المُتَذكِّرِ
أسكَنْتَ أهليها النعيم وطالما	شَهِدوا الجحيم بها وَهَولَ المَحْشَرِ

---

[1] يريد بهذا أنه أقر ببقاء الحدود بين الدولتين على ما كانت عليه في معاهدة زهاب الموقعة بينهما في ١٤ محرم سنة ١٠٤٩هـ/١٧ أيار سنة ١٦٣٩م.

[2] في الأصل سقط حبر على ما بعد لولا فلم يظهر، فأكملناه من ب.

وكَسَوتَها حُلَلِ الأمان وإنّها   لولاكَ أضحت عَوْرةً لم تُستَرِ

ثم أن السلطان أرسل إليه كتاباً يَمْدَحه فيه على فِعله، ويثني عليه لوُفور عقْلِه، وأرسل إليه صُحبته الهدايا العِظام، مَنصيب بغداد دار السلام، خَشيَة هجوم ذلك الغادر عليها، وقدومه إليها، إذ هي خالية عن وزير جَسور، عَريَّةٌ عن شَهمٍ غَيور، إذ بعد الوزير المذكور ولّي عليها الوزير إسماعيل باشا، فلم يَقْدِر على شيء[1]، حتى فوَّضَ أمرَ البادية إلى رؤساء الأعراب، وطلب منهم حِفظها، وهل تُودَع الغَنَم عند الذئاب! .

وبعده ولِّي عليها محمد باشا[2] وهو رجل مُبتلى بِداء الفيل،

---

[1] تولاها في أواسط ١١٤٧ إلى سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٤-١٧٣٥م)، وكان قبل ذلك والياً في طرابزون، وقد فوض إليه السلطان نصب المتصرفين وعزلهم في الألوية الواقعة في كل من بغداد والموصل وشهرزور، مع منحه الاستقلال في التصرف بشؤون ولايته على وفق ما يرى فيه مصلحة (دفتر مهمة ١٤٠ ص٢٥٤ في أواسط ذي القعدة ١١٤٧هـ) كما أمره بالعمل من أجل تأليف قلوب العربان من العشائر والقبائل القاطنة بين بغداد والبصرة والأمراء الأكراد بالاتفاق والتعاون مع والي البصرة (دفتر مهمة ١٤٠ ص٢١٤ في أواسط جمادى الآخرة ١١٤٧هـ) ومن أعماله في بغداد أنه عمر جامع الوفائية ببغداد، وكان يعرف بمسجد الإسماعيلية. وموقعه في سوق الكبابجية في شرقي بغداد. ينظر محمود شكري الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها ص٧٧.

[2] صدر أمر تعيينه والياً على بغداد في أواخر صفر ١١٤٨هـ/٢٠ تموز ١٧٣٤م وتولى الصدارة العظمى قبل هذا، وينوه الكركوكلي بمقدرته وصفاته الحميدة، ولكنه يعود فيذكر أن أصابته بداء الفيل قد أقعدته ومنعته من إدارة هذه المنطقة=

مشغولٌ[1] بأمراضه عن حُكوماتِه وسائر أغراضه، فعاثَت الأعراب خارج البَلد المضر[2]، واليَنْكَجَرِيَّة داخلها عاملَت أهلها بالضُر، وكَثُرت الفِتَن، وظَهَرت المِحَن، ونُهِبَت المُخدَّرات من الأزِقّة، وهُتِكَت المُحْصَنات وظَهَرت كلُّ مَشَقَّة، فلم يُمكن خروج امرأة إلى طريق، ولا ذِهاب أمرَدٍ بلا رفيق. <١٣٣ب>

ودام هذا الحال حتى أنّ الفقير كُنتُ ذلك اليوم في طَلَب العِلم، وكنتُ أقرأ على شَيْخي الشيخ ياسين[3] المعروف بابن البَصير[4]، الأزْهَرِيَّة[5]، في الجانب الشرقي في المدرسة الأحْسَانية[6]، وكنتُ ذلك

=الهامة مما جعلها بحالة من الفوضى لا تطاق (دوحة الوزراء ص٣٨) وأول دليل على ضعفه أنه تأخر بالالتحاق بمنصبه والياً على بغداد مما استدعى تكرر توجيه الأمر إليه بالإسراع في الوصول إليها (دفتر مهمة ١٤١ ص٢٥ في أواسط ربيع الآخر ١١٤٨هـ).

[1] في الأصل: مشغولاً.

[2] المضر: الهلاك.

[3] في الأصل: يس.

[4] هو الشيخ ياسين الهيتي، ينظر عباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق، الطبعة الثانية، بمراجعتنا وتعاليقنا، بغداد ج٢ ص١١٢.

[5] يريد كتاب (موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب) تأليف خالد بن عبد الله الأزهري النحوي (المتوفى سنة ٩٠٥هـ)، وهو في شرح كتاب (الإعراب عن قواعد الأعراب) تأليف عبد الله بن يوسف ابن هشام النحوي (المتوفى سنة ٧٦٢هـ)، وكان من الكتب المعتمدة في تدريس النحو عهد ذاك.

[6] هي المدرسة المنسوبة إلى الشيخ محمد بن أحمد الأحصائي الحنفي (المتوفى سنة ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م) وفيها قبره، وقد أقام فيها الشيخ خالد النقشبندي مجدد=

اليوم أمرَد، لا نَباتَ بعارِضي، فخَشِيَ عليَّ والدي من اليَنْكَجَرِيَّـــة وقـتَ ذِهابي إلى الدَّرس، فَجَعلنـــي منــهم فــي القِشْــلَة[1] المُســمّاة بــأُونَنجي (سَكْمان)[2]، فكل يومٍ يذهب من رِجال قِشْلَتي اثنان معـــي إلـــى الــدرس

-الطريقة النقشبندية في العراق سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م فعرفت بالتكية الخالديـــة، وقد تحولت هذه التكية إلى مسجد جامع ما زال عامراً، ويقـــع فـــي محلـــة رأس القرية، على شاطئ دجلة. كتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة ص١٠٧.

[1] القشلة، من التركية قشلاق، وتعني حرفياً: المشتى، ويقصد بها اصطلاحــاً الثكنــة التي يبيت فيها الجند.

[2] الكلمة بين قوسين وردت في الهامش.وأُوننجي، لفظة تركية تعني العاشر، وسكمان كلمة تعني اصطلاحاً في هذا العصر حملة البنادق، أفواج عسكرية كانت أدمجـــها السلطان محمد الفاتح بقوات الينكجرية، وأصبح قـــائدهم (ســكمن باشــي) أكـبر مساعدي آغا الينكجرية وأهمهم، ولكن نتيجة اختلال نظام الينكجرية في القرنيـــن الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧-١٨م)، انضوى بعض سكان المدن فـــي الولايات ممن يجيد استخدام السلاح الناري إلى أفواج السكمانية، وأمسوا نوعاً مــن الجند المحلي في مدنهم. وقد ذكر المؤلف السكمانية فـــي كتابـــه الأخـــر (تـــاريخ حوادث بغداد والبصرة، ص٨١) بوصفهم من النوع المذكور. وواضح مما يذكـــره هنا أنهم كذلك فعلاً. ويظهر أنه كانت لهم ثكنة (قشلة) خاصة بهم عرفـــت بقشــلة فوج السكمانية العاشر. ولا نستطيع تحديد موقع هذه القشلة إلا بأنها كـــانت فـــي نطاق محلة راس القرية، من الجانب الشرقي. وفي الأمر السلطاني المـــؤرخ فـــي أواسط ربيع الأول سنة ١١٣١هـ الموجه إلى حسن باشا وغيره من الـــولاة مـــا يوجب إلغاء (السكبان) "لأنها أصبحت عنصر فساد وتخريب" (دفتر مهمـــة ١٢٧ ص٢١٠) والخبر الذي ساقه المؤلف يدل على أن الأمر لم يجد لـــه طريقـــاً إلـــى التنفيذ.

ويَرجعون معي إلى دارِنا، فإذا دَخَلتُ الدار تَرَكُوني وانصرفوا. إلى هـذه الغاية حَصَل في بغداد الفساد، إلى أن آبَ هذا الوزير فرفع الأنكاد.

رجـــع

[توليه بغداد]

ولما ورد عليه خبر بغداد، حَصَل له السرور، والفَـرَح والحبـور، وحَنَّ إلى أوطانِه، واشتاق إلى مكانِ إسكانه، ولَوى عِنان عَزْمِه إلى بغـداد دار حُكمِه.

ولما بَلَغ إلى ماردين عَزَل الشَّهم الباسِل، والشُّجاع الكـامِل، أمـير الأمراء، وكبير الكُبَراء، الأمير محمد باشا، كَتْخُداه- حفظه الله- لأمرٍ أدّاه إليه اجتهاده، فوَافَقَه قَصْدَه ومُراده، ووَضع مَكانـه زَوْج ابنتِـه المُكَـرَّم، سليمان باشا المحترم[1].

ثم دَخَل بغداد بزينة باهرة، وحُلَلٍ فاخِرة، وجنود متكاثِرة، وأسـود وافِرة[2]. وقد أنشَدَه الوالد حفظه الله مُهنئاً له بالقُدوم، مُشَـطِّراً ومُعَجِّـزاً أبيات صُرَّدر[3] الكاتب حيث يقول <١٣٤أ> [من الرجز]:

---

[1] تقدم التعريف به.

[2] وكان دخوله بغداد في ٨ رجب سنة ١١٤٩هـ/ ١١ تشرين الثاني ١٧٣٦م.

[3] القصيدة في ديوان عبد الله السويدي، الورقة ٩، وفيه "وقلت معجزاً أبيات صـردر الكاتب ومدحت بها الوزير ابن الوزير أحمد باشا ابن المرحوم حسن باشا وذلـك لما عزل عن ولاية بغداد وأعيد إليها" ولم يذكر أنه صدَّرها، وصردر هذا هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي، شاعر رقيق، مدح الخليفة القائم العباسـي، وتوفي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٣٥٩.

قــد رَجَــع الحَــقُّ إلــى نِصابِــه (وفَوَّضَ الأمرَ إلى الأخــرى بِــه)
(عادَ إليكَ المَنْصِبُ السامي الذُّرى) وأنتَ مِن دون الورى أولــى بِــه
ما كُنــتَ إلاّ الســيفَ سَــلَّتْهُ يَــدٌ (واختَــبَرَت إفْرَنــدِه ومــا بِــه)
(فحقَّقَته مُخذَمــاً مــاضي الشَّــبا) ثــم أعادَتــــهُ إلــــى قِرابِــه
هزَّتــهُ حتــى أبصَرَتــهُ صارِمــاً (كالأفعوان الحَتْــفُ فــي لُعابِــه)
(منظــرِه يُنبيــكَ عــن مَخْــبَرِه) رَوْنَقُــه يُغنيــكَ عــن ضِرابِــه
أكــرِم بــها وَزارةً مــا سَــلَّمَت (زِمامــها إلاّ إلــى أصحابِــه)
(فيــا لَــها أمينــةً مــا دَفَعَــت) مــا استودعَت إلاّ إلــى أربابِــه
مَشُــوقةً إليــكَ مُــذ فارَقتَــها (تشكو جَوىً قد زادَ في أوْصابِــه)
(فلــم تَــزَل مُلتاحــةً مُشــتاقةً) شوق أخي الشــيب إلــى شــبابه
مِثلــكَ محســودٌ ولكــن مُعْجِــز (ليثُ الشَّــرى يُــرام قَلْــعُ نابِــه)
(هل مُســتطاع أو تَــراه مُمكِنــاً) أنْ يُــدرِك البــارِق فــي سَــحابه
حاولَها قَــومٌ ومَــنْ هــذا الــذي (يدنو إلــى خيــسٍ سَــما وبابِــه)
(هل لابنِ آوى سَــطْوةٌ أو قُــدرةٌ) يُخرِج لَيْثاً خــادِراً مــن غابِــه[1]

وللوالد حفظه الله يهنئه أيضاً بقوله[2]:

لك الخيرُ والبُشرى وسَــعدٌ وسُــؤدَدُ ومجدٌ علــى هــامِ السِّماكِ مُوطَّــدُ
فَلِلــرَوْضِ ثَغْــرٌ بالبِشــارةِ باســمٌ وللغُصنِ من فَــرْطِ السرور تــأوُّدُ
وللسُحبِ فــي أُفْــقِ الســماءِ تدَفُّــق وللوُرْقِ فــي زَهْــرِ الأقــاحِ تَــردُّدُ

---

[1] أسد خادر: مقيم في عرينه.

[2] ديوان عبد الله السويدي للورقة ١٠-١١.

وللريحِ ما بين الغُصون تَرَنُّمٌ ... وطيرُ التهاني لا يزال يُغَرِّدُ

وعَمَّتْ نَواحي الخافقَيْنِ وسِيَّما ... العِراقَيْنِ بُشرى لا تزال تأبَّدُ

وزادَ بها للنَيِّرَيْنِ سَناهُما ... ونجمُ العُلا ما انفكَّ يَرقى ويَصعَدُ

<١٣٤ب>

وباهَتْ بكَ الزوراء مُخضلَّةَ الرُّبى ... فأينَ إذا مِصرُ العزيزِ وثَهْمَدِ

وقامت بها الأفراح من كلِّ جانبٍ ... وغنَّتْ مغانٍ إذ تعهَّدَ مَعهَدُ

وقَرَّتْ عيون الدِّين وازدادَ نورها ... ومن قبلُ كانتْ لا مَحالةَ تَرْمَدُ

أزلْتَ العِدى عنها بعَودِك واليًا ... فأنتَ لها دون البَرِيَّةِ أثمَدُ

وفي ظاهرِ الزوراء عاثَ بُغاتُها ... وباطنُها فيه لقد عاثَ مُفسِدُ

ولا رَيْبَ سُوق الشِّعرِ بَعْدَك كاسِدٌ ... فلم يلفَ في سوق المدائح مُنشِدُ

تَرأستَ إذ بالصُّلحِ كنتَ مُفوَّضاً ... لإصلاح ذاتِ البَينِ من حيثُ تُحمَدُ

فأصلَحتَ بين الدولتَين وربَّما ... إذا لم تكن شَمْلُ الورى يتَبَدَّدُ

فذي نِعمةٍ تَغشى الأنامَ لأجلها ... ملائكةُ الرحمن للشُّكرِ تَسجدُ

لكَ الحَسَب العالي على النَّجمِ شامخٌ ... تحلَّى به الشِّعرى العَبورُ وفرقَدُ

لكَ الهِمَّةُ العلياء شامخةُ الذُّرى ... وعزمٌ على كِيوانِ سامٍ مُشَيَّدُ

لكَ الرأي أمضى من مَواضٍ شَباتُها ... يُقَدُّ بها الصخرُ الأصمُّ وجلمَدُ

ولو باسمِكَ الدّاعي يَثوبُ ضارِعاً ... لولَّتْ كُماةُ الشُّوسِ في البِيدِ تَشرُدُ

تُدبِّر خَطبَ الأمرِ قبلَ وقوعِه ... كأنَّكَ تدري ما يجيء به غَدُ

وعَمرِكَ لا تُحصى صفاتُكَ كلُّها ... رُباعٌ ومَثنى أو ثُلاثٌ ومُوَحَّدُ

سَبقْتَ أباك الماجد الحَسَن الذُّرى ... فإن كان محموداً فإنَّكَ أحمدُ[1]

وتغشى عطاياكَ القريبَ محلُّهُ ... ومن هو ناءٍ عن ذُراكَ وابعَدُ

---

(١) في الديوان هذا البيت يسبق الذي قبله.

ولا عيبَ فيكَ العالَمون يَرَوْنَهُ … سوى أنَّه يشكو نوالَكَ عَسْجَدُ

خَرَجتَ بِحَزْمٍ والخميسُ كأنَّهُ … بعَزْمِكَ بحرٌ بالعَجاجةِ مُزْبِدُ

سُراةٌ كُماةٌ كالليوثِ عوابساً … لهم مَنهلٌ خَوضُ المَنايا ومَوْرِدُ

يَرَون ظُهورَ الخيلِ أطيَبَ مَوْطِناً … لهم فيها دِلاصٌ مُسَرَّدُ

<١٣٥أ>

ويُوفون للخطِّيةِ السُّمرِ حقَّها … إذا فُلَّ في الحربِ العَوانِ مُهنَّدُ(١)

فلا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ طَعينَهم … يروحُ بلا روحٍ وفي الحالِ يُفقَدُ

فيا خيرَ أربابِ الوزارةِ مَحتِداً(٢) … لكلِّ وزيرٍ أنتَ في المجدِ سيِّدٌ

أطَعتَ أميرَ المؤمنين وحبَّذا … انقيادٌ به الرأيِ السديد مؤكَّدُ

وكم أرجَفَ الأعداء جهلاً بزعمهم(٣) … بأنكَ تعصى في البلادِ وتُفسِدُ

وكم حاولوا أمراً عظيماً بأن سَعَوْا … بإطفاءِ نورِ اللهِ واللهُ يُنجِدُ

فَرَدَّ الإلهُ الكَيدَ قهراً بنَحرِهم … وكلٌّ رهينٌ بالذي كانَ يَرصُدُ

فدمَّرَهم حتى أبادَ جميعَهم … وهذا جزاءٌ للذي ظلَّ يَحسِدُ

فبعضٌ قضى نحباً فذاقَ وَبالَهُ … وبعضٌ له التَّنكيلِ والخِزيِ مَوْعِدُ

ولو عَلِموا أنْ سوفَ تبلغ رُتبةً … مَنَصَّتُها فوقَ السِّماكَيْنِ تُعقَدُ

لدانوا خُضوعاً صاغِرينَ لحضرةٍ … هي الغايةُ القُصوى لراجٍ ومَقصَدُ

وكم مَرَّةٍ تُؤذى فتَصفَحُ قادراً … وذو الصفحِ بالنصرِ العزيزِ مؤيدُ

---

(١) الحرب العوان: التي كان قبلها حرب.

(٢) في الديوان: محفداً.

(٣) هذه اشارة مهمة إلى ما كان يحوكه منافسو أحمد باشا وحاسدوه من دسائس ضده في البلاط العثماني، ولاشك في أن هذه الدسائس كانت وراء عزله عن ولاية بغداد في تلك المدة العصيبة من تاريخ العلاقات العثمانية- الإيرانية.

فجرّبتَ معزولاً وجرّبتَ والياً | فرأيكَ في الحالَين رأيٌ مُسَدَّدُ
عفوتَ وكان العفوُ منك سجيّةً | ولا غروَ ممن قد زكا منه محتدُ
ذهبتَ وفيكَ الحزمُ فردٌ مُؤرِّخٌ | وعدْتَ رفيقَ العزِّ والعودُ أحمدُ[1]

وهنّأه السيد عبد الله أمين الفتوى بقوله [من الرمل]:

طالع النصر بدا للمسلمين | مُذ أتى الزوراء ذو الرأي الرّزينْ
الشجاع القَرْم لَيثٌ في الوغى | مَن غدَونا في ذُراه آمنين
أحمد المنصور من ربّ العُلى | صاحِب التدبير والعقل المتين
أورَثَ الأقطار لمنّا صُلحه | يا له صُلحاً أراحَ العالمين
أيّدَ الإسلام بالسيف لذا | أصبحَ الخائفُ في الدنيا أمين

<١٣٥ب>

حصّن الأموالَ قهراً صيتُه | يا له آمن من درعٍ حصين
حازَ فعلاً حسَناً إذ أصلُه | حسَنٌ والحُسْنُ فيه مُستبين
حل في كفيه ود لم ينسل | حاتمٌ معشار ملحان اليمين
كم فقيرٍ مُعدمٍ أغنتْ وكم | بالعطا والمنح أحيت مُرملين
لا تسلْ عن سَيلِ جودٍ لو جرى | حسبما بالطبع أغنى المُعدمين
مَا سَمِعنا من أتاه قاصداً | أنه قد ردَّ في قلبٍ حزين
طوّقَ الأعناق فضلاً جُودُه | يا له طوقاً بجيدِ العالمين
وسِع العالَم لُطفاً حِلمه | تَركَ الأحنف فيه لا يَبين
حلّ في قلب الأعادي رُعبه | فأتوا من كُلِّ فجٍّ مُذعِنين
أظهروا الطّاعةَ وانقادوا له | ثم ولّوا عن فساد قالعين

---

[1] حساب الشطر مع الزيادة: ١١٤٨هـ.

لكن البعضَ لِخُبثٍ فيهمُ — نافقوا والخُبثُ في القلبِ كَمين

قد تَمادَوْا في فسادٍ خِفيةً — خوفَ أن يغتالهم لَيثُ العَرين

قد علا نجمٌ لهم حينَ بَغَوْا — وعتَوْا في الأرض ظُلماً مُفسِدين

غابَ نجمٌ قد علا في بَغيِهم — مُذ أراد الله قلعَ المُلحِدين

عادَت النَّجمُ أفُولاً في السَّما — نجمُهم هذا هوى في الآفِلين

حاقَ مكر السوء في العُقبى بهم — فَغَدَوْا بالحَرْدِ سَكرى حائرين

أدركَتْهم نِقمةُ الوالي الذي — طالَما أكرمَ منهم وافِدين

ذا شُجاعٌ ذَلَّت الفُرسُ له — وكذا الأعراب ذو البغي المبين

حازَ فِعلاً كُلُّه مُستَحسَنٌ — ثم بالتوفيق من ربٍّ مُعين

صلَبَ الخِبثَ شُبَيْلاً ثم مِن — بعده علَّقَ دَنْسدَن البَطين

فاستراح الناس من شرِّهما — واهتدى سُبلُ الورى للسالكين

<١٣٦أ>

كيف لي حَصرِ سَجايا حازَها — أفحَمَتْ في الضَّبْطِ جَمْعَ الحاسبين

أوَلا يُدعى له من مُهجَةٍ — أوَلا يُفدَّى بمالٍ وبَنين

مدَّ ربِّي مُدَّةً في عُمرِه — دائما يبقى على مَرِّ السنين

دامَ بالعِزِّ علينا والِياً — رَحِمَ الله فتىً قال: آمين

لستُ أرضى أن تَكُن واحِدةً — بل إذا ضُمَّ لها ألفُ مِئين

قالَ ذا حَسَّانُكم من قِدَمٍ — سبط عبد القادر القطب الرصين

خادِمُ العلم عُبيد الله قد — زادَ في بغداد وَصفاً بالأمين

وهنّأه السيد حسين الرّشيدي النّجفي[1] بقوله [من الكامل]:

هَـبَّ النسـيمُ مُعطَّـرَ الأردانِ سَـحَراً فعطّـر سـائر الأكـوانِ
وغَدَت ثغور الدهـرِ تَبْسِم فَرْحَـةً والأرضُ تلبَسُ أفخـر الألـوان
والأرضُ قد أهدى الأريج إلى السَّما مَنَحَتـه لؤلـؤ طَلِّـها الـهتّان
فتمـايلت فَرَحـاً قُـدودُ غُصونِـه مُـذ أطربتـها الـورقُ بالألحـان
وجَـرَت مُعطَّـرَةَ الشَّـذى نَـهاره مُـذ صافحتـها راحـة الرَّيحـان
وعلى الزمـان مسـرَّةٌ والبِشْـرُها راياتُـه خفَقَـت بكـلِّ مكـان
وأخو الوقارِ غـدا لفـرْطِ سـروره طَرِبـاً يُرينـا مِشْـيَةَ النَّشـوان
سـحَّت لنـا الدنيـا بعيـدٍ ثـالثٍ لاحَ الخِضـابُ بـه بكـل بَنـان
والدهـرُ جـادَ بليلـةٍ بتنـا بـها يخلـي الدُّجـا بالكـأسِ والنُّدمـان
والغانيـاتُ خَلَعـنَ أرديَـةَ الحَيـا طَرَبـاً وبِتْـنَ بفرحـةٍ وتَـهانِ
واستبشـرت دارُ السـلام وأهلـها مـن بعـد ذاك الـهم والأحـزان
بطلوع بـدرِ السَّـعدِ غِـبَّ أُفولِـه وسُفور صُبـحِ العـدلِ والإحسـان
بقـدومِ أحمدِهـا الوزيـر المقتَـدى ورجـوعِ واليـها إلـى الأوطـان

<١٣٦ب>

أبـت الـوزارةُ أن ينـوء بعبئِـها إلاّ أخـو حَـزْمٍ خطـيرُ الشَّـان
فغدَت تجوب الكَونَ تطلـب كفؤهـا ثـم انثنَـت تشـكو ذوي الحِرمـان

---

[1] هو السيد حسين بن السيد مير رشيد المرتضوي، شاعر أصله من الهند، قدم إلى العراق فدرس في النجف وكربلاء، شعره فيه ضعف، وله ديوان سماه (ذخائر المآل في نشر مدح المصطفى والآل)، وله أشعار في مناسبات مختلفة، وتوفي بعد سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م. ينظر عصام الدين عثمان العمري: الروض النضر ج٣ ص١٣٨-١٤٤، ومحمد بن مصطفى الغلامي: شمامة العنبر ص٢١٢-٢١٥ وعباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق، ج٢ ص٢٢٧.

حتى استقل بعينها طَوْدَ العُلى   ذو الحزم أحمدُ قُدوةُ الأعيان

فخرُ الملوك الصيِّد دُرَّةُ تاجِهم   إنسانُ عَين العصر والأزمان

الماجد الشهم الأريب أخو الحِجى   رَبُّ الفخارِ الشامِخ الأركان

الفارس النَّدْبُ الكَمِي الضَيْغَمْ   المقدام عند تقاعُسِ الفُرسان

المُوردُ الأعداء بالسُّمرِ القَنا   كأس الفَنا في حَوْمَةِ الجَوْلان

والمُلبِس الأبطال بالبيضِ الظُّبا   فوقَ العمائم أحمر الشجعان

بطلٌ اذا ما الحربُ شبَّ ضِرامُها   بشبا الصوارِم والتقى الجَمْعان

تأبى الجفون لدى الكفاحِ صِفاحه   حتى تصافح هامةَ الشجعان

وإذا الأعادي حارَبوه سلامةً   آبوا بقلبٍ دائمِ الخَفَقان

وإذا الكُماة رأَوْه قال كَمِيُّهم   والخيل تَسبحُ بالنجيع القاني

هَرَباً شياطين العِدى من بأسه   أوفى الحريقُ بأنْجُمِ الخُرْصان(١)

لم يلتقِ الأبطال يوم كَريهةٍ   إلاّ بألويةٍ من العِقبان

فتكادُ خَوفَ الحَتْفِ لم تَبرُز له   إلاّ بألويةٍ من الأكفان

لازالَ يصحَب جيشه يوم الوغى   طَمَعاً بأشلاء العِدى جَيْشان

فيبيتُ يَقري الطَّيرَ آساد الشَّرى   ويُعدُّ للسِّرحانِ غيرَ جَبان

حَمِدَت قِراه الطير حتى أنَّه   لتحوم فوقَ لوائه النِّسران

فلو اشتهى فتح البلادِ بأسرِها   من جُنده بالنسر والسِّرحان

لم يغزُ في شرقِ البلادِ قبيلةً   إلاّ وبات الغربُ بالأحزان

ملأت مَهابَتُه قلوب الإنسِ بل   ملأت قلوب الجن في الغيطان

<١٣٧أ>

ثَبَتَ الجنان له غَداةَ الغرب من   زُبَرُ الحديد آراؤه سَيقان

---

(١) في الأصل: الخرصاني، والخرصان جمع خرص، وهو الدرع.

إنْ يَنْبُ صارمُ ضَيْغَمٍ لم يَنْبُ مِنْ ... ماضي ظُباه ورأيه الخذْلان

أموالُه وعِداه تشكو فَتْكَه ... عند العَطا والطَّعْن في المَيْدان

هذا ويومُ البذلِ غيثٌ مُسْبِلٌ ... يُزري بأوطفِ هامرٍ هَتّان[1]

يَهبُ الألوفَ لوفدِه مُستبشِراً ... لم يُرضِه ألفٌ ولا ألفان

لم يجتمع بالمال قَطُّ ومن رأى ... الضدَّيْنِ قبلَ اليومِ يجتمعان

لولاه رَبعُ الجودِ أصبح دارساً ... والمَجدُ باتَ مُهدَّمَ البُنيان

يا من يقيس بجوده جود الأُولى ... أخطأتَ ليسَ البحرُ كالخِلْجان

مَن حاتمٌ مَنْ أحنفٌ وإياسُ بل ... ومَن السَّموْءل في عُلُوِّ الشان

بسخائه وبحِلمه وذكائِه ... ووفائه شَهِدَ العدوُّ الشّاني

يعفو عن الجاني ويُوسِع بِرَّهُ ... حتى وددتُ بأن أكونَ الجاني

من نورِ غُرَّته ونارِ قِراه قد ... شُبَّتْ لِطُلاّبِ القِرى نَساران

يا جامعاً شَملَ النَّدى ومُفرِّقاً ... جَمْعَ العِدى صالوا بكلِّ يمانِ

قد عمَّ نائلُكَ الورى إلاّ أنا ... عاقَتْني عنه نَوائبُ الأزمان

حتى إذا ما الدهرُ جادَ بفرصةٍ ... والدهرُ قد يحنو على الإنسان

أعرَضتُ عن زادي وعِفتُ مَطيَّتي ... وسَلَلْتُ نفسي من يدِ الحَدَثان

وركبتُ ظَهْرَ البيدِ أعتسِف الرُّبى[2] ... وأجوبُ سَبْسَبها بغيرِ تَوان[3]

حتى أنَختُ مَطيَّ آمالي بكم ... وأرحتُ نفسي من أذى الأشجان

يا من إذا ما أمَّه الرّاجي انثني ... يُثني عليه بخاطرٍ ولِسان

فضَح الكِرام ندى يَدَيْكَ فدَعْ لهم ... شَطْراً من المعروفِ والإحسان

---

[1] أي مطر مخصب كثير الخير.

[2] العسف: السير بغير هداية.

[3] السبسب: الأرض المستوية البعيدة، وقيل: الأرض القفر.

جاوزتَ الجودَ حَسْبُك فاتَّئِد ... بالبذلِ والقصدِ في قِرى الضِّيفانِ[1]

<١٣٧ب>

قد لَجَّ من طولِ النِداء إلى القِرى ... الداعي وكلَّت ألْسُنُ النِّيْران

يكفيكَ فخراً أنَّ دهرك لم يزل ... يومين يومَ عَطا ويوم طِعان

يا معشر الشعراءِ راجَ نِظامكم ... بعد الكَسادِ وشِدَّةِ الهِجْران

قد كان بعد مديحِ أحمد مَدحكم ... في غيرِه لَفظاً بغيرِ معاني

هُبّوا إليه فهذه أموالُه ... وَقفٌ على الوفّادِ كلَّ أوان

يا مَنْ يرى فضلَ السَّماحِ لحاتمٍ ... والعدلَ في كِسْرى أنو شَرْوان

دَعْ ما ترى وانزل حِماه مُجَرِّباً ... تعلَم فليسَ السَّمعُ مثل عِيان

إنَّ السَّماحَ نزيلُ ساحةَ أحمدٍ ... والعدلُ في بغداد لا الإيوان[2]

الله اكبر يا له من مَفْخَرٍ ... ضُرِبَتْ سرادقُه على كيوان

يا قادماً من بعد نَيْلِ مُرادِه ... بسعادةٍ وسلامةٍ وأمان

بكَ أخصبَتْ أرضَ العراق وامْحَلَت ... مُذ غِبْتَ عنها سائر البُلدان

بغدادُ لم تصلَح لِغَيْرِك منصِباً ... فيطيبُ فيها العيشُ للسُكّان

ألقى أزِمَّتَها إليكَ السعدُ مُذ ... نيطتْ عليكَ تمائمُ الصِّبيان

بقدومكم عزَّت وعَزَّ نزيلُها ... من بعد طولِ مذلَّةٍ وهَوان

وانبتَّها بعد الفسادِ فَصُنْتَها ... عن كلِّ رِجْسٍ ماردٍ شيطان

لو حَيَّت الأوطان قبلكَ فارِساً ... حيَّتكَ منها ألْسُنُ الجُدران

ووَرَدْتَ دجلة بعد أن فارقتَها ... وشربت منها فالتقى البَحْران

لكن بحرَ نَداكَ أطيبُ مَورِداً ... منها وأروى للفتى الظمآن

أكسَبْتَها يا بحرُ جُودَكَ فاغتدت ... منها المياهُ تجود بالطُّوفان

---

[1] الضيفان: جمع ضيف.

[2] يريد به إيوان كسرى.

قَسَماً بما أوليتَه من عَزْمةٍ ... ما أبصَرَتْها العينُ في إنسان
لولاكَ عقدُ الصلحِ لم يُعقَد ولم ... تَبِت الأنامُ براحةٍ وأمان

<١٣٨أ>

خَمَدَتْ نارُ الحربِ بعد وقودها ... بشَبا الصوارمِ والقَنا المرّان
دَبَّرتَ أمر الدولتين وذلك ما ... تَستطيعُ تدبيراً له الثَقَلان
وبِحُسْنِ رأيكَ كان ذا حتى لقد ... شَهِدَتْ بِجَوْدَةِ رأيكَ الفِئَتان
لا غَرْوَ إنْ حُزتَ النُّهى كهلا فقد ... فُقتَ الكهولَ وأنتَ في الشُّبّان
أَلَّفتَ بين ملوكها وأرَحتَ من ... طولِ الحروبِ عساكر السلطان
يا عينُ هذا الدهر يا بحر النَّدى ... تعداد حُسْنِ صفاتكم أعياني
فإليكَها بكراً عَروساً غادةً ... مياسةً فَضَحَت غُصونَ البان
ألبَستُها حُلَلَ البَها من مَدْحِكَ الأ ... سنى ففازت فيك بالرضوان
قُلِّدتُ من بحرِ المعاني جيدها ... لا مِنْ حَصى الياقوتِ والمَرجان
كم ليلةٍ قد بِتُّ في تجهيزها ... أرْعى النجوم بناظرٍ يَقْظان
حتى اذا زُفَّت إليك حَسِبتُها ... حَوْراء فرَّت من يَدَي رِضوان
فاسعد بها بَدَوِيَّةً ترتاح مِنْ ... ذِكْرِ اللّوا والجَزْعِ والكُثبان
ويَشُوقها ذِكْرُ العُذَيبِ وبارقٍ ... وملاعبِ الآرام من نُعمان
تصبو لنَشْرِ الريح ما هَبَّت صَبا ... وتحنُّ بالقَيْصوم والخُوْدان
ويَهيجُها نفحُ الخُزامى غَدْوةً ... فكأنها رتَعَت مع الغِزلان
كم راغبٍ فيها أتاه خاطباً ... فَيها فآبَ بأعظمِ الخُسران
لا ترتضي لا تبتغي لا تهتوي ... كُفْواً سواكَ ولو أتى الثقلان
لأنتَ مُختالٌ بثوبِ العِزِّ ما ... هبَّ النسيمُ مُعطَّر الأردان

وأنشده المُنلا عبد الله الحَريري الكردي[1] قوله [من الكامل]:

طيبَ الزمان بأشجَعِ الأُمراءِ مستأصل الجَبّارِ والأعداء
طارتْ قلوبٌ للعدى فكأنّما جاءت إليهم هلكة الشعواء[2]

<١٣٨ب>

ولئن نَظَرتَ إلى امرئ فكأنما غَشيته منكَ حَميَّةُ العَوزاء
وكأن نجم السَّعدِ قد طَلّعت على كلٌّ الورى في طالِعِ الجُوزاء
ما زال كل الخَلْق مُنذ قَدِمتَهم ظَهَرتْ عليهم مِثلةُ اللألاء
بل أنتَ حادي عشرةٍ لعقولهم لو صَحَّ ذا في حِكمةِ الحُكماء
ياءٌ ونونٌ كافُكم لِتَمَلُّكٍ جاءت ككن في مَشْهدِ السُّوداء
وتَجلَّت الألِفاتُ فينا مِنكُمُ عادت بها الأنقاطُ كالبَرْصاء
ما كان فردٌ للورى مُتحمّلاً للظلم طاحَت لَفتةَ التأساء
كالأنس كان الجن قبل بُدُوّكم في الأرضِ مُشتاتين بالأرجاء[3]
وبَدَت كما بعد الوجود سماتكم قبل الوجودِ وجُودكَ الدأماء
فلربما سألوكَ زَيقاً زُخرُفاً وأجَبتَهم بالناقةِ الكَوماء
لمّا طَلّبنا الله غيثاً واسِعاً ظَهَرَتْ لنا الأغيامُ في الزوراء[4]
لم نَغْنِ بالأغيام غير جَنابكم فطلولُكم تربو على البيداء
إحسانُكم عمٌّ العراق وغيرَهُ قطراتِ وَبْلِ الجود في الأحياء
ما كان ذاك الجودُ غير سَجيةٍ لكم وللأجداد والآباء

---

[1] لم تتحدد لنا هويته.

[2] شعواء: فاشية متفرقة.

[3] مشتاتين: متفرقين.

[4] جمع غمامة غيم وغمائم، فلا يعرف هذا للجمع.

من كان مظلوماً عليه حَرارةٌ ... للظُّلم أنتم أحسَن الأفياء

ولخمسةِ الأشياء مُذ بُلغتُمُ ... مازال نجمُ النصرِ يزهو على الأنواء[1]

أفزَعتُمُ قلبَ الأعادي حين صا ... رَت بُهمكم بطلاً على الهَيْجاء

أهزَمتَ أجنادَ الضلالِ وحزبِه ... إهزامَ جيشَ الشّرك بالحَصبْاء

شَرذَومكم رَضُ الصفوف فإنهم ... لسديد عزمٍ خِلقَةُ الفُقَعاء

قنطوا من العزّ الضّجيعِ قُنوطَ من ... من بعده التابوت في الفَلتاء

ما كان عيبٌ في العِدى بِسيوفِهم ... غير أنّها مُسَوَّدة بِدِماء

إنْ كَنْتَ في وَعدٍ فإنكَ مُنجِزٌ ... كالصادق المصَدوق في الإيفاء

ما كان مِنكم من وعيدٍ انكم ... اختَرتم الرُّجعى على الإمضاء

قد كان فيك الحِلْم حيث قد استوى ... الرضوانُ فيكم حالة البغضاء

لستُ إلاّ أن أراك بمظهر الـ ... ـعدل العزيز العالم الأسماء

نرجو ونطلبُ من إله العالمين ... دَوام دَوْلتكم مدى الشّحناء

<١٣٩أ>

فصل

[القضاء على فتن الينكجرية]

وفي ثاني يوم الدخول، ضُرِب طَبلٌ ورنّم مِزمار الحُبور، وأحْدَقَت بالوزير المُفَخَّم، والخليفة المعظَّم، أرباب المناصب، ووجوه الجُنود من كلّ جانب، فألبَسَهم الحُلل الفاخِرة، وجلَّلهم بالفِرا الغامرة، وجَلس على دَسْت الخلافة، ووطئ بنَعلِه بِساط القِيافة والعِرافة، وشرع في التفحُّص عن أصحاب الفِتَن، والتفتش عن أرباب الفساد وسائر المِحَن، إذ كما قدّمنا

[1] البيت مختل الوزن.

بغَيْبَة هذا الإمام، حَصلَت المعارك في دار السلام، والقتل والرَّهج، ودفَــع عن تعدِّي حدود الله الحَرَج، فأظفره برؤســاء اليَنْكَجَرِيَّــة فَخَنَــق منــهم الجبابرة المتمردين، وقتل منهم العُتاة المُنتهكين، حُرمة هذا الدين، ونفـــى بعضهم عن البلد[1]، وحصَل بذلك الفرح والسرور لكلٍّ أحَد، ولـــم يــترك منهم إلاّ القليل، ولم يترك منهم إلاّ الضعيف الرَّذيل، فذُلّــت أولاد الحــاج بَكْداش[2] بعد شُمُوسهم، وأفَلَت بعد اشراق نيران شُموسهم، فلله دَرُّه مـــن

---

[1] ذكر ياسين العمري في الدر المكنون (الورقة ٢٩٢) أنه في سنة ١١٤٢ "نفى أحمـد باشا والي بغداد فرقة الأوتزبير (الحادية والثلاثين) من الينكجرية فقدموا الموصـل، فأنزلهم محمد أفندي بن علي لفندي وأكرمهم، فنصبوا لهم خيمة علـــى عادتـــهم، وجعلوا يعملون صفة (أي عرض عسكري) على عادتهم لأهل باب العراق".

[2] يريد بهم الينكجرية، فإنهم كانوا منضوين، منذ عهد تأسيس جيشهم، تحـــت لــواء الطريقة البكتاشية، التي أسسها الحاج بكتاش بـــن إبراهيـــم بـــن موســـى الولـــي الخراساني النيسابوري (٦٤٦-٧٣٨هـ/١٢٤٨-١٣٣٧م) أحد كبار الصوفية فـــي عصره، وكان هذا قد قدم إلى الأناضول سنة ٦٨٠هــــ/١٢٨١م، فـذاع صيتـــه، وعرفت كراماته، وانتشرت طريقته، مما دفع بالسلطان أورخان مؤسس الينكجريـــة إلى أن يطلب منه الدعاء لجيشه الجديد، ففعل، ومنذ ذلك الحين اتخـــذ الينكجريـــة الحاج بكتاش شفيعاً لهم، وخصصوا لكل فوج من أفواجهم شيخاً (يســـمى: بابـــا) بكتاشياً يقيم معهم في التكية لارشادهم، وكان هذا الشيخ يتقدم الفوج شاهراً ســـيفه عند السفر للحرب، وقيل أن الحاج بكتاش هو الذي أعطى الينكجرية علمهم، وهـــو احمر يتوسطه هلال أبيض، وهو نفسه العلم العثماني فالتركي فيما بعد. وعند إلغاء السلطان محمود الثاني الينكجرية، أمر باغلاق تكايا البكتاشية بوصفها تمثل الغطاء الروحي لذلك الجيش الملغى. كامل باشا: تاريخ سياسي دولت عثمانيـة ج١ ص١٣ ودائرة المعارف الإسلامية، مادة بكتاش.

شجاع بلغ في الشجاعة غايتها، وحصّل من الفِراسة نهايتــها، حيث أذّل هؤلاء اليَنكَجريّة بعد قوتهم، وأوْهَن أصحاب الحَمِيّة <١٣٩ب> الجاهلية بعد شِدَّتهم، وهم إذ ذاك آلاف متعددة، وجنود مُجندَة.

[استطراد]

وقد أخبَرَنا الكهول: أن هؤلاء بأيديهم حُكم البلد فــي أيــام العُمّــال الأُول، لا يَقدر على إذلالهم كل عامِل بَطَل، غير هذا الوزير وأبيه، فقــد ضُرِب في هذا الشأن بهما المَثَل، وتَفَرَّدا في هذا الآن بهذا الأمر الأفضــل، وإلاّ فقد شاهدنا أفعال هؤلاء أيام إسماعيل باشا[1]، ومحمد باشا[2]- كمــا قدَّمنا[3]- بل شاهَدنا أفعالهم بعد موت هذا الأسَد، والبطل الأشــد، إذ قــد وُلِّيَ بعد موته الوزير الحاج أحمد باشا[4] المعروف بــ...[5] فــأخرجوه من البَلد مُكرَهاً مجبوراً، ونفوه عنها مقهوراً.

---

[1] تقدم التعريف به.

[2] تقدم التعريف به.

[3] لم يقدم شيئاً من أخبار الينكجرية في عهد هذين الواليين، ولكن ياسين العمري ذكــو أن إسماعيل باشا والي بغداد" نفى فرقة اليكرمي يدي، يعني السابعة والعشـــرين، الينكجرية، فقدموا الموصل، وأكرمهم إبراهيم آغا بن مصطفى الجليلي، وجعلــوا يعملون صفة للناس على عادتهم" (الدر المكنون الورقة ٢٩٤).

[4] هو أحمد باشا الصدر الأسبق، وقد تولى بغداد من ٢٤ شوال ١١٦٠ الى أواســط ذي القعدة من السنة نفسها. الأسر الحاكمة، ص٦٣.

[5] كلمة غير واضحة في الأصل وغير موجودة في ب.

وقصة ذلك باختصار: أنه لما دخل بغداد (طلب اليَنْكَجَرِيَّة منه وظائفهم[1])، فاعتذر بأنه يُرسِل إلى السلطان، ويأتي لهم بوظائف، فلم يقبلوا ذلك منه، فثارت الفتنة بينه وبينهم، فضاربوه بالبَنادق والأطْواب، وحاصَروه في دار الإمارة[2]، وهو أيضاً يضاربهم بجنوده من الصُبح إلى المَساء، فوقّع الصُلح بينه وبينهم أنه يرسل إلى الدولة لتُعيِّن وظائفهم، فلما صار وقت العِشاء الآخرة، دخل المنافقون في البَيْن، فقال بعضهم للوزير المُوما إليه: إيّاك أن تأمَن هؤلاء اليَنْكَجرِيَّة، فإن صُلحهم على وَضَن[3]، ومُرادَهم أن يهجموا عليك في الليل، فالصواب أن تملأ الجامع المقابل للسَّراي[4] بعَسْكَرِك وجنودك حتى تأمن غائلتهم. ففعل الوزير بما أُشير عليه.

---

[1] الوظائف هنا: الرواتب.

[2] يريد للسراي، حيث مقر الوالي والدوائر المهمة التابعة لإدارته. وقد تقدم التعريف به.

[3] في الأصل: دخن، ولم نر لها وجها، وفي ب: وضن وهو ما يوصف بالخفة وقلة الثبات، فأثبتناه لأنه أقرب للسياق.

[4] هو جامع السراي الذي جدده حسن باشا أبو أحمد باشا، في أثناء ولايته، فسمي بجديد حسن باشا، تمييزاً له عن جامع آخر، بناه والٍ سابق، اسمه حسن باشا أيضا في مفتتح القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م)، وكان هذا الجامع يعرف قبل ذلك بالجامع السليماني نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي أمر بتجديده عند دخوله بغداد سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م، وسماه المؤلف في كتابه (تاريخ حوادث بغداد والبصرة ص٩١) بجامع للباشا مطلقاً، ونرجح أن يكون هذا الجامع هو نفسه مسجد السلطان الذي أنشأه الخليفة الناصر العباسي في أواخر القرن السادس للهجرة (١٢م) واستمر توارد أخباره حتى نهاية القرن السابع للهجرة (١٣م). وكانت للجامع أهمية خاصة بين جوامع بغداد ومساجدها، نظراً لموقعه المقابل للسراي، فهو مصلى كبرائها ولأمرائها وباشواتها طيلة العصر العثماني، وشهد- لذلك- تعميرات مختلفة قام بها ولاة عديدون، منهم-

وأما اليَنْكَجريَّة فقال لهم بعض أهل النفاق: إن هذا الوزير لا نأمنه على أنفسنا، فينبغي أن نَحْذَر منه كِلانا، فلما أصبح الصباح رأى الينكجرية الجامع مملوءً بالعسكر، فتحققوا أنه يريد المكر بهم، فذهب بعضهم إلى بعض للمَشورة وضبط حُصون الحذر منه، فعند ذلك قيل للوزير: انظر هؤلاء اليَنْكَجَرِيَّة! يريدون الهجوم عليك، فارسِل من يأتي بصِحَّة الخَبَر. فأخبره [أنهم مجتمعون متحزبون، فتحقق عند الوزير ما قاله أولئك المنافقون، فثارت الفتنة ثانياً.

ولم يزل يضربون الأطواب، حتى هدموا دار الإمارة، ولم يزل الشر قائماً إلى اليوم الثالث، فأرسل إليهم الوزير: ماذا تريدون حتى أفعله؟ فقالوا بأجمعهم: لا نريدك، واخرج من البلد! فخرج منها. هذا هو القول الصحيح. وبعض الناس افتروا وكذبوا وأشاعوا أشياء كثيرة لا أصل لها. وعلى كل حال فالباشا والينكجرية] لا عهد لهم في [ذلك، وإنما هو مراد الله تعالى إنفاذه، فسلط المنافقين عليهم، فارجفوا] بالمكر والخديعة)[1].

=إبراهيم باشا سنة ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م ونامق باشا الصغير سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م وغيرهم، وما زال الجامع قائماً، وقد عمرته وزارة الأوقاف سنة ١٩٧٣ تعميراً شاملاً. كتابنا: مساجد بغداد ج١ ص٢٣٠-٢٧٠ (مخطوط)

[1] ما بين قوسين نقلناه من حاشية الأصل، إلاّ ما بين عضادات فهو من ب أكملنا بسبب نقص في حواشي النسخة المصورة من الأصل، وقد كتب عليه في هذا الأصل (قف على هذا الاستطراد) وقوله أنه استطراد، يقوم على أساس أنه يخرج عن سياق الأحداث كما هو ظاهر للقارئ، وفي المتن من الأصل كلام طويل ضرب عليه، هذا نصه: (انتسب إليه من أهلها بعض الناس فامتثل قولهم وقفى أفعالهم وأنهم تعهدوا له أن يَعرّفوه بسيرة المرحوم، وأنهم يَجرون على متَن ذلك المرسوم، للحكم كحكمه، وليتعين بعدله لا بظلمه، فقالوا: إن أردتَ أن تحكم في الرعية فاكسر أولاً شوكة=

-الينكجرية! فشرع في أذاهم، ويبالغ في إضرارهم، حتى نسَبهم إلى الرفض والعصيان، وأنهم قوم كفّار لا يصلحون لخدمة السلطان. فلما شاهدوا أفعاله، وسمعوا مقاله، ذرّ في أصاغرهم عِرق الغيرة، وحصل لأكابرهم من ذلك حيرة، وقالوا: نحن أُولو قوة وشدة، وشجاعة وحدّة، مَنْ هذا حتى يتعرَّض لنا بضرر، او يشوب صافي مشرعنا بكدر، وكأنه يريد أن يتخلق<٢٤١أ> بأخلاق المرحوم، تربت يداه! إن لم ينزجر قطعنا منه الحلقوم، إذ المرحوم مع قوة ساعده، وكثرة مساعده، فله علينا اليد الطولى لا نقدر نجازيه، وللنعمة الوافية لا أحد في تلك يجاريه، حيث كان السبب في خلاصنا وخلاص عيالنا من يد العجم ثلاث مرات، والعلّة التامة في إنقاذنا من هلتيك المُهلكات، ونحن وإن كنا ذوي شجاعة ومتانة في هذه الصناعة، فلا نقدر لولاه نحفظ بلد[ا]، ولا كان لولا تدبيره يسلم منّا أحد، فنحن وإن كنا في الحقيقة جند الخنكار، لكننا والحالة هذه عبيد ذلك الأسد المغوار، وأرقّاء أخلاقه الزلكية، وأُسراء سجاياه الوافية، فلو قتّل جميعنا أو نفى أكثرنا لا نقدر نحاربه، ولا نطيق نحاصره ونضاربه، إذ مع شجاعته التامة له هذه الحقوق علينا وعلى العامة، فمن يكون هذا حتى يروم أن يتخلّق بأخلاق ذلك الباسل، او يسير بسيرة ذلك الكامل؟ فحملت الأصاغر على دار الحكومة، وقامت بينهم الحرب وازدادت الخصومة، وبقي القتال من الصبح إلى الظهر، فأرسل إليهم القرابين كما هو العادة بينهم عند إرادة الصلح، فأبوا وقالوا: لا بد لنا من إخراجه، وعدم إقراره في لجاجه، فعاد الحرب بينهم ميجال، ثم كسرهم وفرقهم حتى صالحوا عن ذلة، وسالموا حينئذ من أول وهلة. هذا وأما الأكابر منهم فلا رضى لهم بأفعالهم، ولم يَصغَوا قبل إلى مقالهم، لكنه لما كسر شوكة الأصاغر، قال في مجلسه: لا ذنب إلاّ <٢٤١ب> من الأكابر، فأريد أن أقتلهم أولا وأبيدهم رجلاً رجلاً، وذلك كان بتزوير بعض أهل النفاق، كذبوا على رؤساء الينكجرية، وتركوهم في هذه الحمية، فبلغهم الخبر مغرب ذلك اليوم، فحرضوا بقية القوم، واخبروا بحيله وغدره، وأنذروا بغائلة مكره. وقيل لهم: إن السلم لا يجديكم بعد إضرام نار المصادمة، والصلح لا يقيكم بعد هذه المحاربة والمقاومة. ثم أنهم عاونوا وتعاضدوا واقسموا وتعاهدوا على أنهم لا ينفكون عن قتاله حتى يخرجوه، ولا ينكفون عن مضاربته ونزاله حتى ينفوه. فسمع الوزير الوالي مشاورتهم، وما تعاهدوا عليه من معاضدتهم ومناصرتهم، وبُلّغ بأنهم رجال شجعان، وأبطال فرسان، وأن عددهم ريث الحصى، يعجز عنه الحشد في الاحصاء، وأُخبر بأن الذين قاتلوه بالأمس لم يكونوا معشارهم،-

-وكان بعض السفلة ولم يكونوا أخيارهم، فجمع في تلك الليلة أعوانه، وأحضر أصحابه وإخوانه، وجعلهم من تحت الظلام في دار الحكومة، وأعدّهم للجدال والخصومة. ثم أن الينكجرية قالوا: لا نتعرض له بضرر حتى يبادئنا فيه، ولا نشوب صافيه كدر حتى يبادر إلى تلافيه، لكنا نكون منه على حذر. فلما أصبح الصباح، تأهب الباشا للكفاح، فأشار عليه بعض الناس بأن يأخذ من أيديهم إيج قلعة، وهي حصن محكم داخل البلد، بها الأطواب وسائر ما يصلح للحرب من آلات البنادق والحراب، وهي مقر سلطان الينكجرية، ومَغرَس شوكتهم القوية. فقيل له: إن ضبطتها حكمت عليهم، ولك الخيار حينئذ بين قتلهم وبين نفيهم بذراريهم. <٢٤١أ> فقال الباشا: كيف السبيل إلى ذلك وهؤلاء الخدم يخبرون بأنهم قد أصبحوا مجتمعين، واضحوا شاكي السلاح أجمعين؟ فقيل له: تُرسل مقدار مائتي رجل منا ندلسهم بزيهم، فإذا دخلوا القلعة سكرُوا بابها، ومسكوا سداتها وأعتابها، وأفنوا من يسكنها ويحلها، ولا يمكنهم أن يأتيهم المدد من خارج لتسكير الأبواب، ولا يطيق أن يتداركهم العدد لوجود الأصحاب، فإذا فعل أصحابنا المرسلون ما ذكرنا، ودبّر خدامنا المتداركون ما دبّرنا، يبقوا في القلعة، ونحن نخرج حينئذ من مكاننا، ونشكّ أفئدة أولئك الأعداء بطرف سناننا، وليس لهم حصن يأوون إليه، ولا ملجأ يعولون عند الضيق عليه. قال الفقير: لَعَمري كان رأي هذا القائل مفسافاً، وما حدث كان أحاديث ضعافاً، بل كان مثله مثل الباحث عن حتفه بظِلْفِه، ومآله مآل من قطع ندامةً إبهام كفه، إذ لما أرسل الوزير المذكور أولئك المتدلسين الى القلعة، عُرِفوا في الأسواق والأزقة وأغلق في وجوههم الباب، ورمُوا بالبنادق والحراب، واشتعلت من حينئذ نار الهيجاء، وسُفِكت من الجانبين الدماء، وقامت ليوث أولاد بكداش قيام مضرة، قائلين: ما كل مرة تكسر الجرة! ولم يكن ذلك اليوم منهم أحد إلاّ وقد تأهب للحرب، واستعد للطعن والضرب، فكسر عسكر الباشا وانحجز الجميع في دار الحكومة، وحاصروا ودامت بينهم الخصومة. ثم أن الينكجرية أخذوا <٤٣١ب> سطوح الأسواق والبيوت التي تقرب من دار الحكومة، وشرعوا يضاربون الباشا بالتفاك والطوب الكبير، وركبوا عليه الأطواب من أعالي إيج قلعة، وطفقوا يضربون يحاولون خروجه من البلد وقلعه، وقطعوا عنه كل مأكول، ووصلوه بحبل عن النجاة مبتول، ولم يزالوا يضاربونه حتى هدموا غالب جدران القصر، [و] رموه في ليلة واحدة نحو مائتي طوب. ولما أصبح الصباح ضرب بأضعافها، حتى لم يبق في القصر جدار إلاّ وقد بقره الطوب، ولا-

فصـــــــل[1]

[عزل وتولية بعض الولاة]

وقد عاضَدَ هذا الوزير في حِصاره عَضُد الوزير المنصور، وساعد النّدب الجَسور، الأمير محمد باشا، والأمير سليمان باشا[2]، فبَذَلا جُـهدهما في الواقعة الأولى، ولكنهما في الثانيـــة حَصَرُوهمـــا[3] اليِنْكَجَرِيَّـة فـي

=حجرة إلاّ وقد أوهنها هذا. وأما الباشا فيبدي الجلـد، ويخفـي الكمـد، ولـم يـزل يضاربهم، ولم يبرح يحاربهم، إلى قبيل ظهر [الـ]يوم الثالث من حصاره، فلاح عليه خوف انحصاره، فأرسل إليهم بعض خواصه يطلب منهم الصلح على شرط أن ينقـاد لأوامرهم، ويحكم على مقتضى ما يجري على خواطرهم، فأبوا إلاّ إخراجه، وقـالوا: إن بقي اليوم، قطعنا منهم الحلقوم، وأخلينا رأسه من العمامة، وأقمنا عليــه القيامـة، فرجع رسوله إليه، وخبره بما عولوا عليه، فأرجعه إليهم بأني أجيبكم على الخـروج، لكن أعطوني تماماً على أنكم لا تؤذونني إذا خرجت في طريقي. لكن أرسلوا إليـه أن لا يخرج من طرفهم، بل يجعل نفسه في زورق ويذهب إلى بستان الباشا، وكان نـازلاً بها تلك اليوم الحاج أحمد باشا الإيلجي والي بغداد الآن، وتعهد له بإرسال أثاثه وخيله ورجاله وسائر عساكره <١٤٤أ> من على الجسر. قال الفقير: كنت ولنا عمي (كـذا ولعله: أنا وعمي) تلك الوقت على شاطئ من ناحية الجانب الغربي نتفرج كما يتفـرج الناس، فأبصرناه قد نزل في الزورق، وسُير محاذياً شاطئ الجانب الغربي خوفاً مـن الينكجرية حتى وصل إلى البستان المذكورة، فأضافه الوزير إيلجي باشا، وآواه إليـه هو وحرمه، حتى اجتمعت عساكره لديه فعبر بهم من الشريعة البيضاء إلى الجـانب الشرقي، وتأنّى بعض الأيام يرجو أن يصـالحوه، وأن يسـالموه، فـيرجعوه، فـأبوا ووضعوا مكانه رجب باشا، وكان تابعاً لإيلجي باشا في الذهاب إلى العجم، إلى أن يأتي الخبر من الخنكار، حيث كتبوا إليه هذه القضية، وأخبروه بهذه الواقعة الجلية).

[1] هذا الفصل داخل في نطاق الاستطراد، كما سماه في هامش الأصل، لأنه يخرج عـن السياق الزمني للأحداث.

[2] وصفه كل منهما بالأمير يريد به أنهما كان يحوزان رتبة (مير ميران).

[3] يريد: حصرهما، أو حصرتهما.

بيوتهما، وغلّقوا عليهم الأبواب، ووضعوا عليهم الحُجّاب، ولم يُمكّنوهما من الخروج حتى رَحَل هذا الوزير من بغداد.

فبَعْدَ أيام ورد البريد من السلطان بتَوْلِيَة منصب بغداد لإيلْجِي أحمد باشا[1]، ورحيل رجب باشا[2] إلى الدولة. وقد كان- كما قدّمنا- صُحبةَ الوزير المذكور رسولاً إلى العَجَم، فلما <٤٤١ب> دخلا بغداد وتوجها إلى أراضي فارس، مات النادرشاه[3]، فرَجعا إلى بغداد، وأرسلا إلى الدولة بخبر وفاته، وإنهما ما يَفعلان بالهدايا التي معهما وقد صادَفَ قدومهما إلى بغداد قدوم رسول من نادر شاه إلى الدولة معه هدايا أيضاً. فأرسل الوزير المذكور المرحوم بخبره، فأتى الخَبَر بإبقائهما في بغداد، وإبقاء رسول العَجَم إلى أن ينتظم أمر الفُرس ويُنَصِّبوا شاهاً، فنقبَل هديتهم، ونُرسِل إليهم هديتنا.

فحصل بعد موت الشاه المذكور اختِلال عظيم في بلاد العجم، ولم يَستَقِر شاه منهم على كُرسي الحُكم، حتى تُرسَل الهدايا، فبقي الأمر كذلك

---

[1] هو الوزير الحاج أحمد باشا الكسريه لي، تولى البصرة أولاً ثم تولى بغداد في أول سنة ١١٦١هـ وعزل عنها في ١١ ذي الحجة من السنة نفسها. وكان يتصف بالمقدرة العلمية ورجحان العقل، إلاّ أن عهده اتسم بتمرد الينكجرية، على ما وصفه المؤلف. وقد صدر فرمان نقله بعد ذلك إلى مرعش، لكنه توفي في بغداد قبل سفره سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨م. عرف بإيلجي، بجيم فارسية مثلثة، وهي كلمة تركية بمعنى سفير مفوض، أو مبعوث فوق العادة. وينظر دوحة الوزراء ص٩٩.

[2] سيعرف به المؤلف فيما يأتي.

[3] كذا كتبها، والصحيح: نادر شاه. وكانت وفاته في ١١ جمادى الآخرة سنة ١١٦٠هـ/١٩ حزيران ١٧٤٧م.

حتّى مات هذا الوزير العظيم، وحصل هذا الاختلال المذكور، فحَصَل ما قدمنا ذكره.

ثم بعد أيام وَرَد البريد من السلطان بتولية الأمير محمد باشا مَنْصب شَهْرزور، وقد هنّأه الفقير بأبيات، قَولي[1] [من الطويل]:

لكَ البِشْرُ في فَخْرٍ وعِزٍّ وسُؤدَدِ ... ومَجدٍ على العَيُّوق سامٍ مُوَطَّدِ

لكَ البِشْرُ هذا طالعُ السَّعد قد بَدا ... يَلوحُ بأفق المجد كالمتَوَقِّدِ

لكَ البِشْرُ هذا الدهر وافاكَ طائعاً ... والقِبَلَ مُنقاداً بفَخْرٍ مُجَدَّدِ

وجادَ بما قد كنتَ ترجو وقُوعَه ... وانصَحَ فيما جاد عن كلِّ مقصَدِ

ونلت رِضا الخُنْكار من حيثُ لم تَزَل ... تفوق كمالاً سيِّداً بعد سَيِّدِ

فولِّيتَ كَركُوكاً ولو كنتَ والياً ... على الشام أو مِصْر العزيز وثَهْمَدِ

لكان حقيراً جَنْب قَدْرك إذ له ... منَصَّةُ مَجدٍ وُطِّدَت فوقَ فرقَدِ

ولكن بُشْرى إنها الطليعة لل ... وزارةِ فحقاً ستأتيك في غَدِ

<١٤٥أ>

وتَلبس منها حُلَّةَ الفَخْرِ مارِحاً[2] ... وتَسكُنُ مِنها مَحْتِداً أي مَحتِدِ

لقد أَمِنَتْ كركوك صَولَةَ غادِرٍ ... بكم وغدَت مِنكم بِحُصْنٍ مُشَيَّدِ

وصينتْ عن الأرجاس مُذ حلَّ عَدلُكمْ ... [كأنْ] اعترَتْها نَشْوةَ المُتَعَرْبِدِ

وتاهت فِخاراً حَيثُ باهَتْ وقد غَدَتْ ... كبغداد في أمن بأيام أحمدِ

فأمسَت ونور العَدل يجلو ظَلامَها ... ويقضي على ظُلْم الوَرَى بالتبَدُّدِ

فغرَّد قُمْري السرور لدى الهنا ... على فَنَنِ الأفراح أبْهَى تَغَرُّدِ

وصار على الآفاق يتلو مُغَرِّداً ... لَفي شَهْرَزُور مجد عدل محمدِ

---

[1] ديوانه ص٧٧.

[2] كذا في الأصل، وفي الديوان (صادحاً).

وهنّأه أيضاً أخي الشيخ محمد سعيد[1] بأبيات هـي مذكـورة فـي ديوانه، وقد ذهب إلى الحج، فلم تحضرني.

ثم بعد أيام، أتى البريد من السلطان أيضاً بتَوْلِية مَنصب البصـرة للوزير سليمان باشا[2].

رجـع

[وفود القبائل]

ثم أن الوزير الأكبر، والشهير الأشهر، بعد استيلائه علـى بغـداد، وَفَدَت عليه الوفود من الأعراب والأكراد، فأجزَلَ لهم العَطيَّة، واخلَـع[3] عليهم الخِلَع البَهيَّة، لكن الخائن من أكابر الأعراب لم يفد عليه، بل تَعـذَّر بأعذار، فمنهم من أرسَلَ ولده، ومنهم من أرسل أخاه، ومنهم من لم يُرْسِل شيئاً.

---

[1] هو أخو المؤلف الأوسط، ولد سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م، وأخذ العلم عن والده الشيخ عبد الله السويدي وغيره من أعلام عصره، ثم قصد الشام ومصر، فاستجاز بعض علمائها، ومنهم السيد مرتضى الزبيدي صاحب تـاج العـروس، وكـان حافظـاً للحديث، له شعر، وكتب. توفي سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م. تنظر ترجمته في محمود شكري الآلوسي: المسك الأذفـر ص٧١-٧٣ والبغـدادي: هديـة العـارفين ج٢ ص٣٥٢ وعبد الحميد عبادة: العقد اللامع في المساجد والجوامع، الورقـة ١١٧، ومحمد سعيد الراوي: تاريخ الأسر العلمية في بغداد ص٢٦٢-٢٦٣.

[2] في دوحة الوزراء ص٣٩: المير ميران سليمان باشا، ومير ميران رتبة عسـكرية اقطاعية مأخوذة من العربية ومعناها أمير الأمراء، وبالتركية بكلربكـي، أي بـك البكوات.

[3] في الأصل: أخلع.

فمن جملة من وَفَد عليه مَوْح بن شيخ عبد القادر شيخ بني لام مُقدِّماً عُذْرَه في عدم مجيء والده بأنه مريض لا يستطيع الركوب على ظهر الفَرَس. فقال الوزير: أما إنه مريض القلب فنَعَم! وأما انه مريض الجسد فلا. وألبَسَ مَوحاً حُلّة فاخرة، وقال: اذهَبْ إلى أبيك، دعه يأخذ حِذْرَه! وسبب ذلك أن هؤلاء العشيرة بعد عَزل الوزير المذكور، لم ينقَد أحدٌ منهم إلى طاعة، ولم يسلك على صراط أهل السُنّة والجَماعة، بل أبَوْا إلاّ العِصيان <٤٥١ب>، ومعاملة أهل القُرى بالهَوان، حتى إنّ أهل القرى التي في الجانب الشرقي من دجلة سلّموا إليهم زُروعهم كي يَسلَموا على بعضها، من قَبيل استيداع المتاع عند اللص خشية أن يَسرقه.

ولم يَزَل يَسمَع الوزير بهم هناك، حتى أنه لَيَوَدّ أن تَطْوى له الأرض حتى يَكْسِر شَوْكَتهم، ويَردُّ عن المسلمين صولتهم، فرَكَب عليهم بخَميسه المشهور، وقَصَدَهم بحِزْبِه المنصور، مُضيفاً إليه بعض عشائر الأكراد، وبعض الحُلفاء من أطراف بغداد، وهم إذ ذاك نُزول في مكان يقال له علي الظاهر[1]، سُمّي باسم صالح قُبِر فيه قريباً من البصرة، أو بينها وبين بغداد، وكانت البصرة تحت حُكْمه ذلك اليوم.

---

[1] هكذا ضبطه المؤلف، ويرى المرحوم عباس العزاوي انه المرقد المسمى دفينه اليوم بعلي الغربي، (تاريخ العراق بين الاحتلالين ج٥ ص٢٥١). ويقع هذا المرقد في مقاطعة الهورة والشمريات على ضفة نهر دجلة الغربية، ويبعد عن مركز مدينة علي الغربي، التي نسبت اليه، بمسافة كيلومترين، وقد شيد مرقده عام ١٩٥٧م، وقيل انه علي الغراب بن يحيى بن علي بن محمد من ذرية زيد الشهيد بن علي السجاد بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ع). ينظر: عقيل عبد الحسين المالكي: ميسان وعشائرها، بغداد ١٩٩٢م، ص٤٧.

وقد أُخْبِر بأن أمير السُّفُن موسى باشا المُعَبَّر عنه بقَبـدان باشـا[1]، حصلت منه بعض الخيانة، فأراد عَزْلَه[2]، ولكن خَشي أن يَعصي بالسـفن والمراكب، ويهرب إلى البحر، فأرسَل إليه كتاباً مضمونه يشـكره علـى حُسن تدبيره أمر السُّفُن، ويحمِد جميع صنيعه بعده، وأنه يأتي بالسفن التـي في البصرة يقابِل الوزير، والوزير بها لحَمْل الأمتعة وآلات الحرب. فلمـا بلغ ذلك الخَبَر، فَرِح بذلك الكتاب واستبشر، وسار بالفلك على عَجَلة مالئـاً

---

[1] قبودان تركية معربها: قبطان، يقصد به قائد الأسطول، وقد ذكر الرحالـة نيبـور الذي زار البصرة سنة١٧٦٦ أن القبودان كان يعين من السلطان مباشرة، وهو مـن ذوي الرتب الكبيرة، ولديه ما يتراوح بين ٥٠ إلى ٦٠ تكنة، وهي سفن عسـكرية، وأن واردات المقاطعات الكبيرة في كل من بغداد والبصرة تخصص لـه لتـأمين نفقات هذا الأسطول وما يلزمه من الأفراد، ولكنه أصبح فيما بعد تابعاً لوالي بغداد مباشرة، وسياق ما ذكره المؤلف هنا يدل على أن القبودان أصبح في عهده تابعـاً بصفة مطلقة للولي أحمد باشا، فهو الذي يعينه ويعزله في الوقـت نفسـه. ينظـر مشاهدات نيبور من البصرة إلى الحلة، ترجمة سعاد هادي العمري، بغداد ١٩٥٥، ص١٣. وتضيف الوثائق الرسمية العثمانية المعاصرة إليه لقب (باشـبوغ) وهـي لفظة تركية تعني رئيس العسكر (معجم الدراري اللامعات ص١٠١) وفي دوحـة الوزراء أن موسى باشا كان والي البصرة، والصحيح ما ذكره المؤلف.

[2] لم يذكر وجه خيانته، وفي الواقع فإن أمر القبض عليه لم يكن لأحمد باشـا، كمـا ذكر المؤلف، وإنما كان صادراً عن الدولة مباشرة، ففي الأمر الموجه إلى أحمـد باشا المؤرخ في أواسط شعبان ١١٥٠هـ نقرأ أنه يتوجب عليه إرسـال موسـى المذكور، الموجود آنذاك في بغداد، إلى الترسانة العامرة باستانبول (دفـتر مهمـة ١٤٣ ص٢١٠). وكان موسى هذا قد أبلى البلاء الحسن ممـا اسـتحق أن يقـره السلطان غير مرة في منصبه، وأن يلطفه بسبب "حسن تدبيره بأعباء مهمته" (دفتر مهمة ١٤٠ ص١٢٣ في أوائل ربيع الأول ١١٤٧هـ).

واسع دجلة. فلما أتى إلى الوزير قَبَض عليه وسَحَبه، وعَزَله من مَنصبه، ووضع مكانه القَبِدان إبراهيم باشا. <١٤٦أ>

ثم أنه سار في البَر، والسفن تَجري على سَيْره في البحر، لتكون حاضرةً عند الحاجة إليها للعبور، وحمل الأمتعة والذخيرة والأسلحة. وهذه السفن ليست كغيرها، بل هي على هيئة مَركَب صغير فيها الأطواب والتُّفاك وسائر آلات الحرب، ولها إناس مُعيَّنون يُقال لهم الفَرقَنْدجيَّة[١]، ولكل سفينة كبيرة مُوَظَّفة لهم الوظائف من الخُنْكار، مُهيَّأة للحرب لكنها ربما تحمل التجار بإذن الوالي. فلما سمع بنو لام بسَيْر الوزير، وإنه قَرُب وكاد أن يبلغ أخبيتهم، وقارب أن يَصِل أنديتهم، أبعدوا عيالهم وأموالهم، وقصدوه على ظهور الخَيل، وقابَلوه بسَواد يَنُوف على سواد الليل، قائلين: إن عيالنا قد بَعُدَت في البَيْداء، فنحن مُخيَّرون بين الفِرار وبين الثبات في وطيس الهيجاء، فقابلوه راجعين إليه عن مكانهم مِقدار ثلاثة أيام.

فلما تقابل الجمعان، وقارَب أن يبرز من الجانبين الشجعان، ابتَدَرهم الوزير بالنِّزال، وقابلهم في المجال، وهو إذ ذاك مُتَلَثِّم بلامتة، مُتقلد عَقَبه، مُعتقل بصَعْدَته، فكَرَّ وقَرَّ وثبت وما فَر، وقابله كما هي العادة فارس في الدِّلاص غاطِس، فجال معه جَولة، ثم حَمَل عليه حَملة، فطعنه بلِيِّنَة، وقضى عليه بالموت من ساعته. ثم نَزَل إليه آخر، فهرب من بين يديه هَرَب ابن آوى من بين يَدَي الأسد. ثم حمل عليه اثنان فارسان على

---

[١] جمع فرقندجي، وهو البحار، لفظ تركي مركب من (فرقته= سفينة ذات ثلاثة صوار، أو بارجة) وأداة النسبة (جي).

استعداد للطِعان، فجال معهما وصال، وحاول أن يَحُـــول بينـــهما وبيــن الآجال، فقتل أحدهما، وطعن الآخر، فرجع هارباً وأدبر.

هذا، والعسكر صُفوف ينظرون، والجنود وقوف يُبصرون. ثم بعــده حَمَل من العدو المَيْمَنة، فقابلتها إعانةً للأسد المَيْمَنـــة أيضــاً. ودام فَلْــقَ البَيض في الجماجِم، وطعن اللدان اللهاذم، حتى جـــالت مــن <٤٦ ب> العدو الميسرة، فقابلتها من العسكر الميسرة أيضاً. ثم صـــال مــن العــدو القلب، وصال من العسكر القلب أيضاً. ثم صـــالت مــن العــدو السَّــاقة، فقابلتها من المسلمين السّاقة. ثم التحمت الجموع، واحتَكَم في الهام البــارِق اللَّمُوع، وحميَ الوَطيس، على لُيوث العرّيس، وبَطَل عمل الأسمر للتقارب والإتّصال، واشتغل إذ ذاك الخَنجَر، وكُسِرَت من الجانبين النّصال والنّبال، فحفَّ جُند الوزير بنَصره، فهَرَب الأعداء من بين أيديهم، بعد أن قُتِل منهم الجَمْع الكثير، والجَم الغفير.

ثم أن الوزير تَبِعَهم بجنوده، وقَصَدَهم بضَيَاغِمه وأسُوده، حتى بلـــغ الخيام، فأحسُّوا بالبَوار أولئك اللِئام، وأرسلوا إليـــه رجـــالاً يســتَرحِمونه، ويُبدُون التَّوبة ويستعطِفونه، ويَرجُون منه أن يَرجع عن عيالِهم، ويَتُـــوب عن أموالهم، وهم يُؤَدُّون الخَراج أجمع، والمَصْرَف الذي صَرَفَـــه علــى العسكر من يوم خروجه إلى أن يَؤوب إلى بغداد. فأجابهم الوزيـــر إلـــى ذلك، ووَضَع عِندهم كاتب الخِزانة، ومِقداراً من العَسكَر يتَسلَّمون الخَــراج، والذي شَرَطوه على أنفسهم.

ورَجَع بالبقية من الجنود إلى بغداد، وقد بَرَّد بما فعـل بـهم غُلّـة الفؤاد. وكان رجوعه عنهم غرّة السنة الخمسين بعد المائة والألف[1]، وقد هنّأه السيد عبد الله[2] بقصيدة فيها تاريخ الرجـوع، وهـي قولـه [من الخفيف]:

فرِحَ الكَونُ واستفاض سُرُورا ... وغدا الهمُّ مُبْعَداً مقهورا

<١٤٧أ>

حلَّ قُطرَ العراق بِشرٌ وأمنٌ ... تَركَ البَرَّ مُخصَباً معمورا

بعد أن كان بالكآبةِ والحُزنِ ... وبالخوفِ والجفا مَغمُورا

من حُفاة عُراة أعراب سُوءٍ ... قاطعين الطريق قَهراً وزُورا

ناهبين الأموال من غير حقٍ ... مُرهِقي نَفس من يَروم سُرورا

هؤلاء الأعراب أعظَمُ كُفراً ... ونِفاقاً من غيرهم وشُرورا

هم لِئام بنو لِئام ولكنْ ... كُفرهم ثابتٌ شهيرٌ دُهورا

هم طُغاة بُغاةٌ أهلُ ارتدادٍ ... ما ترى مُسلماً لهم بل كَفُورا

ركَبَ الفاتح المُغازي عليهم ... جُندُه العِز لم يَزل منصورا

كاسِر الفُرس قامِع الرفض قَهراً ... صيتُه في الأقطار أنشا قُصورا

الوزير الهِزَبْرُ لَيثٌ عَرينٍ ... جُودُ كفَّيْهِ قد غَدا مشهورا

عالِم فاضلٌ خبيرٌ بصيرٌ ... ذكره قد ملا الفَلا والبُحورا

فرَماهم بالكَتْخُذاء سليمان ... شجاعاً مُدَبِّراً وغَيُورا

فجاءَ القوم بَغتَةً وأتاهم ... بجنود تَرَى الغَزاء سُرورا

---

[1] الموافق الأول من أيار سنة ١٧٣٧م.

[2] هو عبد الله أمين الفتوى، وقد تقدمت بعض قصائده.

فأحاطوا بالقوم من كلِّ فجٍّ   منعوهم إلى النّجاة عُبورا
وسقاهم كأسَ المنايا فأضحَوا   لم ينالوا من الأراجي قبورا
تركوهم في الأرضِ صرْعَى فكانوا   بعد ذاك الطُّغيان قوماً بُورا
نَزَل الغَيْثُ إثْرَ ذا بَعدَ حَبْسٍ   زَهَت الأرض منه أبدَتْ زُهورا
لم يُصابوا بمِثْلها منذ دَهرٍ   لم تُشَفْ الولاة منهم صدورا
هاتِ مثل الوزير أحمد مَولَىً   حاكماً حاسماً شجاعاً جَسورا
فمحمد أتى بفيء سليماً   كان حقّاً في ذا الغَزا مأجورا
دامَ في دولةٍ تُسامي الثُّرَيَّا   وعِداه في الأرض تَدعوا ثُبُورا

<٤٧١ب>

كان غَوثاً ربّي له ومُعيناً   وحبَاه عُمراً طويلاً دُهورا
لينال الورى بظلٍّ جماه   خَفْضَ عَيشٍ وراحةً وحبورا
قال حَسّانه القديم وسِبْطُ الشيخ   قُطب الورى غدا مشهورا
جاء في ذا الغَزاء والفتح بُشْرى   حيثُ تاريخه: أماتنا شرورا[1]

فصل

[توطيد الأمن]

ثم إنه بعد رجوعه إلى بغداد، ذُلّتْ جميع العَرَب، وقَلْب كلٍّ من سَطْوته وهَيبته وَجَب، فرعى الذئب مع الشاة، حيث أمن الناس بحلوله صَوْلة الإعراب والشاه، ووَقَف الشُّعراء على بابه، ومشى الدهر بركابه،

---

[1] مجموع أقيام العبارة: ١١٥٠هـ.

فامتدحه مُتَرَفِّداً إياه، راجياً الالتفات إليه- وقد كان مُعرِضاً عنه- بعض الشعراء بقوله [من البسيط]:

يا مَن أتى غُرَّةً في الأعْصرِ الدُّهُمِ وفاقَ أهلَ النُهى في الحُكْم والحِكَمِ
يا أحمد الجُود والإحسان يا أملي يا كعبةَ الفضلِ والإفضالِ والنِّعَمِ
يا عِقدَ جُودٍ وجود الخَيْرِ أجمعهِ يا قُطب دائرة الحاجات للأُمَمِ
يا والياً عَمَّ بالألطاف قاطبةً الخاصَ والعامَ ثم العُربَ مَع عَجَمِ
يا بحر جُودٍ تَغارُ المُزنُ مِنه ومَن يَسْتَرفِدِ الجود منه الجود مع كَرَمِ
يا طَرْفَ طَرْفَ ذوي الإحسان مَع نَسَبٍ يا ناصِح الخَلْق في الأفعالِ والكَلِمِ
يا من إذا السُّحبُ لم تَسمَح بِدَرَّتِها فاضَتْ أنامله أندى من الدِّيَمِ
ان اخلف النوء لم تخلف نوالته يا من إشارتُه تُشفي من اللَّمَمِ
يا جَهبذاً مَدَّ من إحسانه كَرَماً ظِلاً على مَفرق الأيام والأُمَمِ
من حاتِمُ الجُود مَنْ مَعْنُ بن زائدةٍ؟ أنتَ الجَوادُ وباقي القوم كالعَدَمِ
يا أحلمَ الناس ما حِلم ابن ساعِدةٍ يا زاكي الأصلِ والأفعالِ والشِّيَمِ

<١٤٨أ>

يا من سجيته بالجود قد جُبِلَت في صُلبِ آدم بل في عِلم ذي القِدَمِ
إني تَجَرَّعتُ مُرَّ الصدِّ مع غُصَصٍ المَوتُ أهون منها يا جلا الظُّلَمِ
وقد أويتُ إلى الرُكن المنيع ولن يخيب من يقصد الإحسان من عَلَمِ
ما لي إليكَ شَفيعٌ أستعين به إلاّ الشفيع وحُسن الوَجْهِ مَع رحِمِ
وقد توسَّلتُ بالمختار من مُضَرٍ ثم ابنه سَيِّد الأقطاب والأُمَمِ
فامنُن عليَّ بما عَوَّدتَ من سَلَفي فإن ذُلِّي غَطّى ذِلَّة الصَنَمِ
هَبْني اقترفتُ ذنوباً لا عِدادَ لها فقد أتيتُ جَواداً عَمَّ بالنعم
يعطي المُؤمِّل ما يرجوه من كَرَمٍ سَحّاً وراحته أندى من الدِّيَمِ

فاســـأل الله أن يَختَصَّــهُ كرَمــاً بمــا يؤمِّلــه مــن فضلــه العَمِــم
من كل لطـــفٍ وخَــيْرٍ عَــمَّ نفعـهما على البَرِيّة من عُــربٍ ومــن عَجَــم
ثم الصلاة على أصــلِ الخلائــق مَــن مِن نوره العَرش والكرسي مــع القلــم
والآل والصَّحـبِ والأتبــاع قاطبــةً أهل التُّقى والتقــى والجــود والكــرم

وامتدحه شاعر سُرَّ مَن رأى[1]، وقد وَفَدَ عليه يَستَمنِحه فَرَساً، بقوله [من البسيط]:

طابَ امتِداحي بِمَنْ جَلَّــتْ مكارِمُــهُ ومَنْــهلٌ مُــترَع عَــذبٌ مطاعمــه
مُمَــيَّزٌ بوَقــارٍ زانــه نَظَــرٌ وفضلــه عَجَــزَتْ عنــه تراجِمــه
فــي كــلِّ أفعالــه يسـمو أماثلــه ونَيلــه غــامرٌ مَــن جــاء قادِمــه
أنى أشرَفُ مَدحي فــي حِمــاه كمــا يَشرِفُ الــدُّرُّ زَهــراً حــلَّ ناظِمــه
سخيُّ طَبعٍ بحُسن الخُلْــق مُتَّصِــفٌ إذا جَريــحٌ أتــى جــادَتْ مَراهِمــه
قد كان حاتمٌ في عَصرٍ لــه ومَضَــى وعَصرُنا غَــير شَــكٍّ أنــتَ حاتِمــه
وصُبح وَجــهٍ بَــهِيٍّ منــك مُبتلِجــاً يشــفي برؤيتــه مــن كــان يألَمُــه

<٤٨ ب>

مُتَمِ الإعالة مــع نَكَــد الزَّمــان اذا تأجَّجَ الطِّيــب نفحــاً فــهو ناسِمه
يكفيك شــأوٌ علــى العَليــاء فاقتــها بحُســن رأيٍ وتدبــيرٍ مُلازِمــه
وفــي الحَرْبيّــةِ فتّــاك لــه هِمَــم وكــلُّ حِــزبٍ قــويٍ فــهو ثالِمــه
حتى أطاعَ له مــن خَــوفِ سَطْوته وذَلَّ من بَعــد عِــزٍّ كــان راغِمــه

---

[1] سيأتي في قصيدته أن اسمه هو (مصطفى)، وأنه كان يعمــل خادمــاً للحضــرة العسكرية في سامراء. ولم نقف على ترجمته.

قَـرَّتْ بــه عيــن بغــداد وســاكِنها إذ كان شمسُ كمـــالٍ هُـمْ نواجِمــه
جَمّلتُ قَــدرَ مديحــي فيــه مُرتَجِيــاً بفضلِـه تَنعُـمُ البركـــاتُ قائمـــه
هذا ذليـــلٌ أتـــى وفــداً إليــك وقــد يرجــو نجاحــاً وقيامـــاً يُلائمـــه
فمصطفى خادم الأطهار من صِغَـــرٍ للعســـكريين قَادَتـــه عزائمـــه
في حالةِ الكِبْر راجــل مـــن مَنازِلــه مـــن شِــدَّةِ العُســر دلّتــه فَواهِمــه
إلـــى وزيـــرٍ جليــلٍ زاد مُرتَقيـــاً لا ســيما عَمَّــت الغَــبْرا مَراحِمــه
فـــأحْمَدُ الله شُــكراً فـــي وَلاهُ لنــــا ســـميُّ أحمــد مَرضـــاةٌ مَحاكِمـــه
يا ربِّ بالمُصطفى المختار من مُضَـرٍ خير الأنـــامِ ومَـــن عَـزَّت خَواتمــه
والآلِ والصَّحبِ جَمعاً هُــم وســيلتنا تَهِبُهُ في كـــلِّ مـــا تَــهوى مَرائمــه
تَقيه من غَدَراتِ الدهـــر فـــي دِعَــةٍ وفي رقاب العِدى أحكـــم صوارمــه
وتلقــه فـــي مقـــامٍ عـــامرٍ رَحِـــب وشـــأنه بصَـــلاحٍ منـــك عائمـــه
ثم الصلاة بمحمـــودِ الســـلام علـــى خـــير البريـــة لا تُحْصَـــى معالمـــه

ولم يزَل- بقيةَ هذه السنة- مَغموراً بالمســـرَّات، معمـــوراً قَصْـــرُه بالخَيرات. ولِطيب خاطره، يَخرُج ليسرِّح ناظره، كل يوم اثنين وخميـــس، بجمعِه الخميس إلى صحارى بغداد، ذات الكلأ الأخضر، والنور الأصفـــر، والربيع المُريع، والماء الصافي النمير من أنهار، وغدير فينصب له خيمـــة ويلعب أمامه تارة على الخيل وتارة بالنبل وتارة بالبنادق إلى وقت الظـــهر فيعود إلى مكانه ويرجع مع أصحابه وأخدانه.

فصـــل

[تبادل أسرى الجانبين]

وفي هذه السنة، قَدِم عليه من طَرَف النادِرشاه رسولٌ[1] إلى الدولة العثمانية، صُحبتَه كتاب إلى الوزير المذكور، وكتاب إلى السلطان، مضمونهما أن الصُلح- والحمد لله- قد تَمَّ نِظامُه، وأُحكِم التئامه، ولكن بَقِيَ فينا وفيكم شيء واحد، إن رُفِع مِنّا ومنكم كنا إخواناً، لكلٍ منا ومنكم ما للآخر، وعليه ما عليه، ألا وهو إطلاق الأسارى منا ومنكم، لِتَتِمَّ الألفة والصُحبة، وتُحكَم المودة والمحبّة، فأجابه الوزير إلى ذلك.

ثم أنه لما قَدِم بغداد، خرج الوزير إلى استقباله، ونَصَب له الخيام من الجانب الغربي، وعبَّرَه إليه بالسُّفن والمآخِر[2]، وعمل له الضِّيافة، ودَخَل به بغداد ظهر يوم الخميس العاشر من شهر مُحرَّم هذه السنة[3].

فصـــل

[ثورة البلباص]

وفي هذه السنة، ظَهَر- كما قيل- من البلباص[4] العِصيان. وأُخبر الوزير بأنهم تحصّنوا بالجبال الشامخة، واعتقَلوا في كل قُنَّةٍ[5] باذِخة، وأن

(1) في الأصل: رسولاً، والصواب ما أثبتناه.

(2) يريد المواخر، وهي السفن التي تمخر عباب الماء.

(3) ويوافق ٩ أيار ١٧٣٧م.

(4) البلباس عشيرة كردية بمنطقة أوشنو- رواندوز- رانية. ينظر محمد أمين زكي: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص٣٧٠.

(5) قنة الجبل: قمته.

خيلهم ورجالَهم ينهبون القوافل، ويقطعون السُبُل في المراحِل، مع قتلهم النَّفس، وأخذهم النفيس. فشقَّ هذا الفعل النَّحس على المَلِك الرئيس. هكذا نُقِل.

والصَواب: أن الوزير غزاهم لأمرٍ أدَّاه إليه اجتهاده، وإلاَّ فهم رجال شافعية <٤٩ ب>، ذوو غيرة في الدِّين وحَميَّة، أكثرهم طَلَبةَ عِلم وأصحاب جوامع ومدارس، وأماكن أعدُّوها للضيفان، وكل تلك أخبِيَة تُحمل معهم حيثُ ساروا، ولكن كما قال أهل التصَوُّف: في الحاكم سِرٌّ من أسرار الله لا يُعتَرَض عليه بشيء، لعَدَم الاطلاع على حقيقة الأمر.

ثم أنه سار إليهم بخَميسٍ مُرعِب، وجَحفَلٍ مُرهِب. ولما بَلَغَهم خَبَر قدومه، أحكموا حِصنَهم، وقابَلَهم الفرسان منهم للجهاد، فلم يلبثوا إلاَّ شيئاً قليلاً وهَرَبوا. وحاصر الباقين[1] في قُلَل الجبال، يَضربون العسكر بالبُنْدُق والنِّبال، لكن الوزير مُعَوَّدٌ على هذه الأمور، لم تَرْدَعه الحصون، ولم تمنعه دون مقصوده قصور، بل أغار عليهم خَيْلاً ورَجْلاً، ولم يَهَب بُندُقاً ونَبلاً، وصعد بعسكره الجبل، وقَصَم منهم كلَّ بَطَل. ويُقال: أن النساء قاتلن قتالاً شديداً بضَربِ البُندُق والنَّبل، بحيث حَمَوا أنفسهم من غائلة العسكر.

ثم أنه حين دخل بغداد، أُخبِر بأن عرب الجانب الغربي شَرَعت في الفَساد، لكنهم مُتفرِّقون في الضِّياع والقُرى، وفي الليل يخرجون فينهبون قوافِل الوَرَى، وقد حالَفوا أهل الضياع على أن يُشْرِكوهم بما يغتنمونه من

[1] في الأصل: الباقون.

المَتاع، فوَجّه سَرِيَّة أمَّر عليها كَتْخُداه سليمان باشا، فقَتَل من ظَفِر بـه، ونَهَب القُرى أجمع. وأغار على زَبيد[١]، فهَرَبوا منه في البِيد.

فصـــل

[ثورة بني لام]

وفي السنة الحادية والخمسين <١١٥٠أ> بعد المائة والألف[٢]، ظَهَر من بني لام بعض الشِّقاق، وبدا منهم النِّفاق، فأراد الوزير أن يُفاجئهم بخَيله ورَجْله، ويَبْغتَهم، فلم يشعروا إلاَّ بالماء قد أدرَكَهم في سَيله. فَورَّى بخروجه، وأظهر أنه خارج إلى الصَّيد، ولم يُخبر أحداً من جنوده بأنه ذاهِبٌ بهم إلى غَنيمة وَفَيْء كَيلا يَفْطِن بذلك من يُرْسِل لهم الخَبَر تحت الظلام، من المُلحدين المُنافقين الطَّغام. لكن الخائن خائف، والخائف للهَرَب والحَذَر مؤالف، فمُذ أحَسُّوا بخروجه من بغداد، تَفَرَّقوا على الرُّبى والوِّهاد، وذهبت كل فِرقة منهم إلى مقْصَد، وهَرَبَت كل عشيرة منهم إلى بَر، والكل في هَرَبه مُبْعَد، مع إظهارهم الانقياد، وتَدَرُّعهم بدرع العُبودية لا العِناد.

فلما وَصَل الدستور إلى الجَوازِر، وضَع معيَّة ضابطها[٣]

---

[١] كذا شكلها في الأصل: بفتح الزاي، بخلاف ما هو معهود أنها بضمها.

[٢] أولها ٢١ نيسان ١٧٣٨م.

[٣] الضابط في المصطلح العثماني، قبل عهد التنظيمات، هو قائد الحامية العسكرية الموجودة في مدينة أو ناحية ما.

باش آقا[1]، ووضع معه بعض العسكر، على أن يأخذوا من قبيلة رَبيعة الخَراج الذي رُسِم عليهم. فلما شَرَعوا في إحصاء الخراج، عصى على الأداء رجل من أكابرهم يُقال له أبو سَوْدَه، فسَجَنه أميرهم علي بيك.

ثم أن عشيرة ذلك الرجل هجموا على أميرهم ليلاً وقَتَلوه، وأخرجوا أبا سَوْدَه من سِجنه، وهربوا في ذلك الليل إلى بُطون الأهوار، وتَبِعَتهم بقيَّةُ الفِرَق، إذ من كان مجبولاً على الفساد، وناشِئاً على ارتضاع ثَدْي العِناد، يميل إلى البَغي المَيْل الكُلّي، وينسى عاقبته، ويشتاق <١٥٠ب> إلى الفساد، ولا يَرُدُّ عنه التَّولي، ويَستَرْوِح مَدى الزمان رائحته. ويدُلُّك على ذلك قضية النفس في انجِبالها على حُبِّ الشَّهَوَات، وبيان سِر قَوله تعالى ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكتَسَبَتْ﴾[2] فقد ذكر الفاضل الجاربَرْدي[3] في هذا المقام بحثاً عَريضَ الذَّيل، مديد السَّيل، لا يَسَعنا ذكره في هذا الكتاب، إذ هو غيرُ محلِّه.

---

[1] مصطلح عسكري تركي، من باش: رئيسي، وآقا: مقدم، آمر. اسم يطلق على بعض القادة في القوات الينكجرية، وينكجري آغاسي، هو قائد قوات الينكجرية في مدينة مثل بغداد، وهو يتولى فوق عمله العسكري، أمر الشرطة وحفظ النظام أيضاً. ينظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة آغا، وإنكشارية.

[2] البقرة، من الآية ٢٨٦.

[3] هو أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي، مفسر، فقيه، نحوي، له مؤلفات عدة، منها حواش على تفسير الكشاف في عشر مجلدات، وتوفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. ينظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج١ ص١٢٢ وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٦ ص١٤٨.

ثم أن الجند الذين كانوا هناك أرسلوا إلى الوزير يُخبرونه بهذه القضية، فلما ورد عليه الخبر، أرسل جنده على الأثر. وأمَّر عليهم كَتْخُداه سليمان باشا، فساروا مُرْمَغِلِين، واندفعوا متفرّقين مُشْمَعلين، حتى [إذا] وافوا مكان حُلولهم، أُخبروا بهَرب الجميع وقُفولهم، فضمَّ ذلك العسكر إليهم، واندفع الكُلُّ عليهم، فإذا هم متَحصّنون بجزيرةٍ مُحيطٌ بها الماء من جميع الجوانب، لا يَصِل إليهم المُسالِم ولا المُحارِب، إلاّ أن الماء من بعضها قليل العَرْض، سائحٌ على وجه الأرض، لكن فيه من الطِّين ما يَسوخ فيه الفارس بجَوَاده، ويَبْتَلِعُ عَوْجاً إلى فؤاده. فوضعوا على ذلك المكان بِنادِقَهم، ووَضَع العسكر البَنادِقيّة أمامهم، ووَضَعوا تِجاههم خيامهم، وحاصروا الأعداء في وَسَط ذلك الماء، وطفقا يُضارِبون الجند، وهم يُضارِبونهم ذلك اليوم كله.

ثم لما صار الليل، وأسبَل على الجانبين الذّيل، أبقى جند الوزير البَنادِقية مَكانهم، وساروا حتى صاروا وراء الأعداء، فعبروا عليهم ذلك البحر الزاخِر، وطلبوا <١٥١أ> الأعداء بكل قاتل وجازِر. وهذا الماء ماءٌ عظيم، وبحر عَميم، لا يُدرك غَوْره، ولا يُدْرَى للغَوّاص قَعره، أمواجه متلاطمة كالجبال، لا يُمكن أن يُخيِّل الذِّهن عُبوره بالمراكب، فضلاً عن قطعه بأولئك المَواكِب. ولكن الوزير- رحمه الله- قد عَوَّد عسكره على أمثال هذه المهالِك مِراراً، ومَرَّنَهم على قَطعهم أنهاراً وأهواراً، حتّى غَدَوا لا يَسلَم من بأسهم أحد، ولو صَعَد إلى العَيُوق هَرَباً، أو جَعَل قَعْو الأرض لخَلاصِه سَبَباً، ولا يَرْدَعهم عن عَدْوِهم عَدَد، ولا يمنَعهم عن مقصدهم

تواصل مَدَد، فلذلك قطعوا ذلك السَّيل، على ظهور الخَيـــل، فلــم يشــعر الأعداء إلاّ والعسكر معهم في الجزيرة، وأبقَوا أجمعهم في حيرة.

ورَبيعة هذه قبيلة معروفة بالشَّجاعة، مشهورة بأنها أقـــوى وأجلَــد جماعة، ذا[ت] ثَبات في القتال، ودِراية بمقارَعة الأبطال[1].

ثم أن قوم ربيعة لم يكن لهم حينئذ بُدّ من القتال إذ الهَرب والفِـــرار من الجند- ذلك الوقت- عَيْن المُحال، فقاتلوا ذلك الليل قِتال من أيِس مـــن الحَياة، وثبَتوا ثَبات من لم يتيقَّن السلامة والرجوع إلى حياه، فاشتَبَك القَنـــا في ذلك المكان الحَرِج، وشاهدوا من الجند ما لم يكن قبلُ في صدورهـــم يَختَلِج، حيث أبصروا جبالاً راسية، لا يُوهنها نَطْحُ وَعَل، وشاهدوا آســاداً ضارية لا يقابلها كَمِي ولا بَطَل، ونَظَروا إلى عِباد الله في ثبـــات وجِــدِّه، وكَثْرة وشِدَّة، فندموا على ما عوّلوا <١٥١ب>، وتَلاوَموا على ما فعلــوا، ولكن لم يَنْفع اللَّوم بعد وقوع المحذور، ولم يُجدهم العَذْل نَفْعاً بعد عبـــور النُّسور، فحقَّقوا أن لا نَجاة إلاّ بالقتال، ولا سَلامة حينئذٍ إلاّ بالنِّزال، فجَـدُّوا في القتال، وحَرَصوا في هذا المَجال، ونَشَبت بينهم حَربٌ عَـوان، وعــلا من الجانبين ضرب اليَمان، وكلما حاولوا الحَمْلَة على العســكر بأجمعـهم تَردَعهم السيوف البارِقة، وكلما أرادوا الالتحـــام بـــهم تَمْنَعـــهم البنــادِق الحارِقة، فلم يزالوا في ذلك المُعتَرك في ازدياد الذِّلَّة وقلـــة العَــدَد، ولـــم يبرحوا في ذلك المُزْدَحَم في تكاثر القِلّة وعَدم المَدَد.

---

[1] حدد محمد بن حمد البسام منازل ربيعة بأنها من واسط إلـــى بغـــداد. ونكــر أن "مقاتليهم (حملة البنادق) ألفان، وفرسانهم مائة وعشرون". ينظر الـــدرر المفـــاخر ص٧٠.

ولما أصبح الصباح، ومُيِّزت اللُّدان من بيض الصِّفاح، هَرَب من هَرَب سابحاً، ونَجا من نجا بنفسه وأنفاسه رابحاً، وذلك أقلُّ قليل، إذ من سَلِم من القتل لم يَسْلَم من الماء، ومن حاولوا الهرب لم يُطق لعدَم البَيْداء. واغتنم العسكر خيولهم النَّجائب، وافترس نساءهم الكواعِب. ثم رجع أمير السَّرية بعسكره المَديد، وجَحْفله العديد، إلى ناحية الحَسَكة، بأمرٍ من الوزير، يصلح منها بعض الشؤون، حيث في أطرافها بعض أهل الفَساد مُقيمون.

ولما وَرَد الحَسَكَة، وأمَّنْ طُرُقاتها، وحَصَّنها من جميع جهاتها، وانقادَت إليهم عشائر البدو من كل فَج، وقَصَدَهم الأعراب يطلبون الأمان كما يَقصَد البَيت للنُسْكِ وللحَج. وكان من جُملة من قَدِم عليه أمير المُنْتَفِق سَعْدُون[1] الذي له في الحيلة والدُّهاء فنون، بجُملة من أحزابه وشِرْ ذِمة من أعوانه وأصحابه <١٥٢أ>، لكن أمير السَّرِيَّة وسائر العسكر يعلمون قدومه خوفاً من صَوْلَة الأسود، وأنه إن حَصلَت له فرصة إلى عصيانه يعود، إذ في دَعْواه أنه سلطان العرب، وأنه لا يطيع الولاة إلاَّ لأمرٍ وسَبَب. فقبض عليه وعلى رِجاله، وأثقله أمير السَّرية بأداهمه وأغلاله،

---

[1] هو سعدون بن محمد بن مانع بن شبيب، تولى زعامة اتحاد قبائل المنتفق بعد عمه مغامس بن مانع، وإليه نسبت أسرته من بعده فقيل لها آل سعدون، وهو الاسم الذي اشتهرت به في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة (١٩ و٢٠م) وما زالت تعرف به حتى اليوم، وكانت قبله تعرف بآل شبيب، نسبة إلى جده شبيب الذي عاش في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م). الأسر الحاكمة ص٤٢٣.

وجاء به إلى بغداد قهراً، ووضع في إيج قلعة[1] ليموت صبراً، ويتأدب من تأمّر بعده، ولا يتجاوز في الفساد حدّه. لكن بعد بقائه في إيج قلعة زمَناً، ومُفارقته على هذا الحال الحَرِج أهلا ووطَناً، وكاد أن يقضي نَحبه، وقارَب أن يفارِق من أحبّه، وأوشك أنه يضاجع تُربَه، وحقّق عدم إنقاذه من هذه المُوبِقات، وأيقَن بعدَم خَلاصه من هذه المُهلكات، أرسل إلى الوزير المذكور يَستَعْفيه، ويَستنجده بما حلّ فيه، فرَقّ الوزير الشفيق لِحاله، وعفا عن أفعاله، وجعله رئيساً كما كان، بشرط أن لا يعود إلى عِصيان، وألبَسه حُلّة الرِّضاء، وسيّره في البَيْداء.

فصـــــل

[أماديح الشعراء]

وفي هذه السنة امتَدَحه بعض الشعراء، يَستَرفِده، بقوله [من الطويل]:

صَفَا وقتُنا باللهِ فَمنذ أمدّنا[2]	بأحمد ذي الرأي السّديد وعِرفانِ
وزيرٌ رئيس للعساكر كُلّهم	طويل نِجاد، شامخ المجد نُوراني
لقد فاق أقرانَ المَعالي بأسرِهم	وجاء بنصرِ الله مفتاح بلدان
وزيَّن أحكام الوزارةِ جُسودُه	رزينٌ شَديدُ البأس في كلّ مَيْدانِ
ويَدعونه حين الوَطيس إذا حَمي	فيرعَبُ من ذِكر اسمه كُلّ شَنآنِ

<١٥٢ب>

---

[1] أي القلعة الداخلية، ويقصد بها قلعة بغداد التي شغلت أرضها مباني وزارة الدفاع.

[2] في الأصل: فمن، والصواب، ما أثبتناه.

لبيبٌ أديبٌ ذو وقارٍ وهيبةٍ وإقبالُه سَعْدُ السُّعودِ برجحان
جزى الله عنا كلَّ خيرٍ إمامَنا إمامَ نظامٍ يا لَهُ فضلُ سلطانِ
بأن ألحقَ الزَّوْرا بأحمد والِيا عليها فصارت كالعَروسِ بها باني
ومَهَّدَها قَسْراً بتدبيرِ رأيِه وأكثرَ سَفْكاً في الدِّماءِ بعُربانِ
هم العَربُ الأعرابُ لا شكَّ أنَّهم يموتون كفاراً بتشديدِ قُرانِ
وأثنى عِنانَ الصافناتِ مُجاهِداً وجرَّدَ صَمْصامَ الفِقارِ بِهَمْدانِ
فأخمدَ كُفْرَ المُلحدين بِسَبْيِهِم وفرَّقَ مثواهم كما في ابنِ قَحْطانِ
وأثخَنَهم قتلاً وشدَّ وثاقَهم وللمَنِّ والإفداءِ أفتى بِحِرْمانِ
حَوَى فَضْلَ من سادوا وشادوا إلى العُلى عفيفٌ بلا رَيْبٍ بالطافِ رحمنِ
سَموحٌ بَشوشُ الوَجْهِ لم يُرَ عابِساً مُجيبٌ لمُضطرٍ مُغيثٌ لظمآنِ
له مَبسَمٌ قد زيَّنَ في نَظْمِ لؤلؤٍ فريدٌ نضيدٌ بل كنَظْمِ ابنِ وَهْبانِ
ومنطقُه عَذْبٌ رحيقٌ وانّه بليغُ كلامٍ في فصاحةِ سَحْبانِ
وذو منظرٍ يسبي العقولَ جمالُه فسُبحانَ خلّاقٍ فسُبحانَ مَنّانِ
رفيعٌ ترى الجَوزاءَ منطَقةً له وذو قامةٍ حسنا تَميسُ كأغصانِ
وتوَّجَه للرحمنِ تاجَ مهابةٍ بإكليلِ بدرِ التِّمِّ في أوجِ ميزانِ
رؤوفٌ له نُبْلٌ عَطوفٌ لقاصِدٍ ويصفَحُ عن حِلْمٍ لمن جاءه جاني
مُقيمٌ على مَرِّ الجَديدين بالعَطا وأضحى لمَعْنٍ في الأنامِ له ثاني
ولم أبغِ في نَظْمِ امتداحي لكم سوى يكون لنا ذكرٌ بمجموعِ ديوانِ
وأسألكَ اللهمَّ تحرُسَ أحمداً بأحمدَ المختارِ من نَسْلِ عدنانِ
وبلِّغه آمالاً يرومُ نجاحَها ووفِّقه للحُسنى وصحبةِ رضوانِ
ولم أنسَ ذا الخيراتِ ونَجلَكم له جزاءٌ من الرَّحمنِ جنّاتُ عدنانِ
وبعد فإني في الدُّعاءِ لكم على دوامٍ بتوفيقٍ من اللهِ ربّاني

عُبَيْدُكُم في الشعر واهٍ كحالِهِ   ثمانون من عمري انقضى ثُمَّ حَولانِ
ختامي لها صلى الإله على أحمدٍ   وأصحابه والتابعين بإحسانِ

فصل

[تجدد ثورة المنتفق]

وفي هذه السنة، أُخبِرَ الوزير المذكور بأن سعدون قد جمع عليه مِقدار عشرة آلاف مُقاتل، وأنه ما بين الكوفة والنجف نازِل، وأنه تَغَلَّب على بعض القُرى، وأنه منع من الانتفاع الزُّراع وسائر الورَى، قائلاً: أنا السلطان الثاني في هذه الدِّيار، وما أحمد باشا وما الخُنْكار! وإني إن شاء الله آخذ بغداد، وأحكم بالعدل بين العِباد. وأنه حاصرَ الحِلّة وبقية الضِّياع، وأنه نصَبَ بيوت الحِلة للفَساد في تلك البِقاع. وأنه حاصر البصرة قائلاً: إنها مِلكنا معاشِر المُنتَفِق، ليس للروم فيها شيء، وإنّا في كل عام كنّا نأخذ من أهلها الغنيمة والفَيْء. وقد صدَق هذا..، فإن هؤلاء المُنتَفِق هم أعراب البصرة، وأنهم أكثر العرب مَضَرَّة، قد عَجَزَت الباشات العثمانية عن كسر حَمِيَّتهم، وذُلَّت الوزراء الخاقانية عن دَرءِ أذيتهم.

وحَدّثني والدي- حفظه الله- أنه قال:

كانت (قبل)[1] تَوْلِية المرحوم حسن باشا في بغداد تأتي من قِبَل الدولة العساكر الكثيرة، والوزراء الغزيرة، ويخيِّمون في الكَرْخ عِندنا، ويأخذون صُحبتهم والي بغداد إلى قِتال هؤلاء، رؤساء الفساد، فيَرجِعون

---

[1] وردت في هامش الأصل.

خائبين، ويَزْويون نادمين، من فتك أولئك الأرجاس، وقوة أولئك الأنحـــاس. وإن أهل البصرة يؤدون الخراج إليهم، وإن واليها لا يَسلَم <١٥٣ب> مــن ضَرّهِم، حتى يُفوِّض الأمر إليهم. ولكن مُذ حلَّ والِد هذا الضِّرغــام، فــي بلد السلام- كما تقدَّم- كسر شَوكَتهم، وردَّ عن أهل البصـــــرة صَولَتــهم. وبعدَه هذا الأسَد جرى جَرْيَ أبيه، وسار سيرةَ أهل النجدة كمالك[1] أيـــــها الناظر نبِّه ونَرْويه.

رجـــــع

فحين طَرَق سَمع الوزير هذا الخَبَر، عَجَّل بالسير وما استقر، وســار إلى عَدُوه تخفِق بين يديه أعلام النصر والبُنود، وصُحبته الأكراد، وســـائر إيالة بغداد. فحين سَمِع الخبيث بقُدوم الوزير عليــــه، قَفَــل إلـــى ناحيـــة البصرة، ونَدم على ما استند إليه، فتَبعه الوزير تَبَع الليث الإنسان، وقصــده قَصْد الفرسان، ولكن الخبيث احتَجَب في بطون الأهوار، وكَسَر السدّ مـــن جميع الجهات، حتى غدا ذلك البَر كالبحر الزَّخار.

ولما قَدِم هذا الأسد، كانت طليعة عسكره الأكراد، وكـــان رئيســـهم عثمان باشا الكُردي[2]، وهو رجلٌ موصوفٌ بالشجاعة، معروفٌ بالفِراســة

---

[1] كذا في الأصل.

[2] ذكر العزاوي في فهارس تاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص٢٥٧ أنه عثمان باشـــا البابانى، وفي وثيقة عثمانية تاريخها سنة ١١٤٧هـــ إشارة إلى متصـــرف بابـــاني لمنطقة كوي، أحدى قواعد الإمارة البابانية، اسمه عثمان، فلعله هـــو (الأرشـــيف العثماني، دفتر مهمة ١٤٠، ص١٤٠).

من بين الجماعة، فعبَرت عليهم من خيول المُنتفِق الشجعان، وقَصَدَتهم منهم الفرسان، فالتقَوا على وَشَلٍ[١]، واعتركوا على طينٍ وعَجَل، وتكاثرت عليهم خيول المنتفق حتى صاروا أضعافهم، وازدحَم عليهم المَدَد حتى فاقهم ونافَهم، فقاتل ذلك اليوم عثمان باشا قتالاً يَصغر لديه قِتال عنتر، ونَظَم في طعناته رِجالاً يَحقر عنده نظم رُستم فلا يُذكَر، حتى ظنّ أولئك الأكالب، أن هذا الرجل هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فتَعجبُوا من قُوة جَنانه <١٥٤أ> وانذَهلوا لِقلَق يَمانه، ووَلّوا الأدبار، مَقرونين بالنُّحوس والعار، وانحدروا في أهوارهم، وبادَروا إلى حِصارهم.

ولما قَدِم الأسد الغُضنفَر، وشاهد تحَصنُّهم وأبصر، عَلِم أن الوصول إليهم مُحال، وأن قتالهم صعب المَنال، فنَزَل أمامهم يُضاربهم بالأطواب، قائلاً: لا أبرَح حتى لأقتُل جوعاً هؤلاء الكلاب. فاستمرّ هذا الحالُ أياماً، ووقَع بين أولئك الأعراب الجَذب والجوع، ونَدِموا على ما فعلوا، ووَدّوا القِتال والنِّزال، ولكن لا تُمكّنهم من العبور هاتيك الجموع. ولم يزالوا في حالٍ عَسير، وزمانٍ كَدِر، حتى كَثُر بُكاء وَلَد سَعدون، وكان صغيراً، من الجوع، فأرسله إلى الدستور، وقال: اذهَبْ إلى عَمّك، فإنه سيُشبِعك! فحين قَدِم وَلَدُ سعدون على الوزير، قال: له يا عمّاه! إني جائع فأشبِعني، وإن أهلي وأقارِبي كادوا أن يموتوا جوعاً، فإن عَفَوتَ فلَكَ الفضل، وإن لم

---

[١] الوشل: الماء القليل.

تَعفُ فلا تُرجِعني إلى أهلي فأهلِكَ معهم. فضحك الوزير لذلك، وعَفا عن سعدون، ورجَع عنه.

ولما آب الوزير إلى بغداد، كان الشقِيُّ إلى فَسادِه- على الأثَر- عاد، فأرسل إليه سَرِيَّة، وأمَّر عليها كَتْخُداه سليمان باشا. ولما وَصَلوا البصرة، أبصروه بالمِرْصاد، ينتظر قدوم العسكر من بغداد. وإن الشيطان سوَّل له أنه لو كان يُقاتِل في الواقعة الأولى لكان رابحاً، ولو يُنازِل لكان جازِراً ذابحاً. وخَيَّلَ له إبليس كَثْرة أعوانه، وزَوَّق له فِكْره الفاسد، وقوَّى له عزمه البارد. فحين التَقَت الفِئتان صُبحاً، وظَهَر الجَمْعان على العادِيات ضَبْحاً، واشتعل بينهما <٥٤١ب> الوَطيس، وطَفِق للطِّراد لُيوث العَريس، وقامت الحرب بينهم قيام الجُموع، وأنَّت الأوتار من الجانبين أنين من وقَع بعد الفِراق على الربوع، وغَنَّت الصِقال طَرَباً باللحوم، وصفَّق العسّال على ظهور الكُماة القُروم، وابتدرت جنود الله القتال كالجبال، وأسرعت إلى النزال منهم الكُماة والأبطال.

ولم يَزَل السيف في بريق، والبُنْدُق في تَحْريق، حتى حفَّ الله جند الوزير بإعانته، وزفَّهم بإغاثته وحِمايته، فحَكَّموا الأبيض والأسمر، في مَفْرِق كل بطل من الأعداء قَسْوَر. ونَثَروا الهام بنَظْمِهم الأبطال، وأيَّدوا الإسلام بالبيض الفوالِق والسُمر العَوال، فألبسوا الغبراء من حُلَل النجيع القان، ولم يَبْرَحوا حتى تركوا الأعداء فُلاناً غائثاً بفلان، فلم تَتَقَشَع سحابَة القَتام، حتى ولّى العدو الأدبار وتَرَك الخِيام، وأخلى للمسلمين الدار.

وقُبِضَ على سعدون وقت المُعتَرَك فأُخمِدَت أنفاسه، وطُفِئ نبراسه، وأُرسِل إلى الوزير رأسه[1].

ولما قَدِم البشير على الوزير بالرأس، وضعه في المَجلِس بين الجُلاس، وأنعم عليه وأجزَل، واستَرَّ لذلك فكَبَّر وهَلَّل. ثم أنه أكرم قاتله غاية الإكرام، وأنعم عليه الإنعام العام. وسَلَخ جِلد رأس سعدون، وعَبَّاه تِبناً، وجَعَله في صَنْدَق، وأرسله إلى الدولة لما شاع عندهم وذاع، من قوة هذا الخبيث وفساده في تلك البِقاع.

مُهِمَّة

ما ثَبَتَ في هذا الكِتاب، هو رواية الأكثر.

وحَدَّثني بعض الجند- وهو الأصح عندي- أن غَزْوَة سعدون كانت بعد غَزْوَة البَلْبَاس، وأن نائب الوزير في بغداد حين سَمِع بفساد سعدون خاف <١٥٥أ> أن تَمتَن شَوْكَته إذا أُهمِل أمره، فأرسل إلى الوزير- وهو في البَلباس- بريداً يُخبِره بذلك، فحين سَمِع بذلك ألوَى عِنان العَزْم، وسار إليه، فصار ما قدَّمنا.

وحدَّثني أيضاً: أن غَزْوَة ربيعة، وقَضِيَّة قَبْض سَعدون كانت

---

[1] هذا ما يؤكده ياسين العمري، قال "وظفر بأميرهم سعدون وقتله" (زبدة الآثار الجلية، ص٢٢٩) وأوردته روايات أخرى ذكرها حميد حمد السعدون (إمارة المنتفق، عمان ١٩٩٩، ص١٠٢) لكن رسول الكركوكلي يذكر أن الجيش قبض على الشيخ سعدون، ثم سفره مقيداً إلى بغداد (دوحة الوزراء ص٤٤).

قَبل البِلْباس، وهذا هو الصحيح عندي[1]، والله أعلم بالصواب.

فصـــــــل

[ثورة عشائر قشعم وأحلافها]

وفي السنة الثانية والخمسين بعد المائة والألف[2]، عَصَت عشيرة القَشْـعَم، وانضمّ إليها عشيرة السَّرْحان وعشائر أسلم، وبعضُ بَنـي صَخْـر، وقـد تَحصّنوا في أرضٍ سُبْرُوت[3] مَهْمَهٍ قَفْرٍ لا ماء فيه ولا نبت، وذلك فـوق شُفَاثي بمراحل، فعَزَم الوزير المنصور على غَزوهـم، وجعـل عسـكره فِرقتين، فرقة أمَّر عليها كَتْخُداه سليمان باشا، وأرسلها من طَرَف هيـت، تَحذو بسَيْرها شاطئ الفرات من جانِب الشاميَّة، وفِرقة سار هو بـها مـن طَرَف قَصَبة سيدنا الحُسين.

---

[1] أرخ ياسين العمري في كتابه زبدة الآثار الجلية، بتحقيقنا، النجف ١٩٧٤، ص٢٢٨ حادثة غزو المنتفق وقتل سعدون بسنة ١١٤٢هـ بينما أرخها في كتابـه الآخـر عمدة البيان في تصاريف الزمان، مخطوط، بسنة ١١٥٣هـ. ويؤيـد التـاريخ الأخير ما ورد في مجموعة عمر رمضان. تـاريخ العـراق بيـن احتلاليـن ج٥ ص٢٥٨. وكان المؤلف قد تكلم على حادثة غزو البلبـاس فـي حـوادث سـنة ١١٥٠هـ.

[2] أولها ١٠ نيسان سنة ١٧٣٩م.

[3] في دوحة الوزراء ص٤٥ أن سبروت اسم علم لمكان بذاته قرب شفاثة. وواضـح من النص الذي أورده المؤلف هنا أن سبروت صفة لمكان، لا اسـم لـه، وهـي الأرض القفر.

فسار إليهم في وقت بُجْران[1] القَيْظ، والصَّيف قد شَبَّ ضِرامه، والحر قد نُشِرَت أعلامه، والسَّموم تَرَكت للنبات هَشيماً، والفَلاة جحيماً، وأورث الحر ناراً، وأقلقَت الضَّبَّ أواراً، ومَقَطَت[2] جِلْد الحَرباء، وسَجَّرت عَصَب المِعزاء، وأثارت النَّعامة من أراجيها نافِرة، وأخرجَت الظَّبي من كُنيسها[3] حائرة، ونَضَبَت النقائع فلا يُرى فيها أثر الماء، وأعمَت الجنادِب فلا تُبصر إلاّ بالعِشاء. فالأصيل من احتدام الجو هَجير، والمَقيل سَعير، والسائر حَرَص بِريقه، والمسافر غُمَّ عن طريقه، والأرض من سَناء الشمس تَتَوقَّد وَهَجاً، والحَرور تلفَح للوجوه فتحيل الروم زُنجاً، والنفوس تكاد تَسيل من ضَعفها وفُتورها، <١٥٥ب> والأنفاس من وَهَج القَيْظ تختبئ في صدورها.

فشَنَّ- رحمه الله- الإغارة، وأمامه الشَّهباء، ألا وهي البادية البَيداء، التي تَضل فيها الرياح، وتذهب دونها الأرواح، ويَسقُط الطير قبل اخترامِها قَوادمُها وخَوافيها، وتفزع قلوب السَّعالى من المُقام فيها، ويَرتَدّ طَرْف الدليل عنها كليلاً، ويكون أكبر حِدائه فيها تسبيحاً وتهليلاً. مَسالِكها مَهالك، ومَناهِلها مجاهل، وسُبُلها عواطل. فلو رآها امرؤ القيس لما استصعب عَرعَر، ولو سكَنها ابن مَقيل لما استَوعَر سَرْوَ حِمْيَر. وقد دخلتها الأعراب، واستحقرت أرضَ وَبار[4]. وقد جاورَتها الأحزاب، حيث

---

[1] البجر خروج السرة ونتوها وغلظ أصلها، يريد اشتداد الحر.

[2] مقط هنا: هزل هزالاً شديداً.

[3] الأصح: الكناس، وهو مولج الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر.

[4] وبار: أرض كانت لعاد غلبت عليها الجن، فلا يقربها أحد من الناس.

أبصرت أنها من الضرّغام جوار. لكن الأسد المِقـدام لـم يردعـه دون مقصوده حَرٌّ، ولم يَمنعه عن مُراده سِعَة بَر، بل شَنَّ الإغارة مـن غـير تأويب ولا تعريس، مِقدار أربعة وأربعين فَرْسَخاً[1] بذلك الخميس، حتـى وافاهم ضُحىً في يومٍ ولَيلَتَين، وقد هلك من الجند الخَلْق الكثـير، ومـن الجياد الرِّعال[2] الغزير، لكثرة الحَرّ هنالك، ولَفْح السُّموم في ذلك. لكـن الأسد الضرّغام كان مُتقدماً على العسكر بِخَدمه مقدار فرسَخين[3].

ولكثرة النَّصَب من هذه الإغارة، عَرَّس[4] العسكر في الطريق، ولما أبصرهم قد انقطعوا عَرَّس هو أيضاً، ولم يكن معه من الجند غير حَشَدِهِ- كما تقدَّم- فنام الجميع ولم يَنتَبِه منهم أحد، حتّى لَحِقَت بهم الأثقال، ومـن العادة أنها تسير أمام الجنود، ولكن لِكَثرة جَرْيِ الوزير تركها خلفه، كمـا ترك العسكر. <١٥٦أ> فانتَبه الوزير لِدَنْدَنة الأجراس، وقد بَزَغت الشمس وارتفعت مقدار رمحَين عن الأرض، فابصر الوزير لا جنـد ولا عسـكر ولا خيام ولا مُعَسكر، فأُخبِر بأنهم إلى الآن لم يَلحقوا به، والظاهر أنـهم إلى الآن نائمون.

فلما ركب جواده وعزم على المسير أبصر جموع الأعداء بـالعير والنَّفير، وأنهم كانوا نائمين قُربَهم لم يكن بينهم وبينه إلاّ رُتبَة تَحجِزهم من الرُّؤية. فحين أبصر الوزير ذلك السَّواد، صَفَّ الجِمال بأثقالـها، والبِغـال

---

[1] في دوحة الوزراء: ٤٤ ساعة.

[2] جمع رعلة وهي القطيع من الخيل.

[3] في دوحة الوزراء: مسافة ساعتين.

[4] عرس: نزل في السفر في آخر الليل.

بأحمالها، صنوفاً مُتوالية، بحيث تُرى سَواداً عظيماً، وتُبصَر شَبَحاً هـائلاً جسيماً. ثم أغار على الأعداء بِخَدَمه، وقصَدهم بِحَشده وحَشَمه، وهذه عادة لأبيه أيضاً، فإنه قَلَّ مُقدِمة زَبيد بأربعة فوارِس، وذلك كما حدَّثَنيه والـدي عن أبي عبد الله بيك شاوي[1] أنه قال: كنتُ مع الوزير الحَسَن في غَزْوتـه زَبيد، وكان معنا أيضا فارِسان آخران مع الوزير، نَسير أمـام العسكر، فاشتَغَلتُ بالصُّحبة، وأملينا أحاديث المَحبَّة، حتى بَعَدنا عن العسكر، بحيث لا يُدرِكنا البصر. ولم نَزَل سائرين حتى أشرَفنا على كثيب من رَمل مُمتَـد أمامنا، فلما صِرنا فوقه أبصَرْنا مُقَدِّمه الأعداء خَلْفَه جاثِيـة، وجُموعـهم وراءها عادِية، فألويتَ عِنان فَرَسي، فَزَجَرَني الوزيـر. وأغَرْنـا علـى المُقَدِّمَة إغارة من يُظَن به أن قومه قَريب منه، فشَتَّتنا جمعيةَ المقدمة، بعـد أن كانت مجموعة مُلْتَمَّة، واشتغل بيننا الأسمر، وجَرى منهم الدَّم الأحمـر. ولم <١٥٦ب> تتلاءم الأعداء بعضها على بعض إلاّ والعسكر أدركـهم، فَفَرَّق شَملهم بعد الاجتماع، وتَركهم صَرْعى في تلك البِقاع.

ثم قال لي: أوصيك وَصيَّةً فاحفظها! إذا أبصَرْتَ عَدوك وأبصَـرَك، فأسرِع إلى قتاله، وعَجِّل لِنزاله، ولا تُبدي الذِّلَّة فيطمع فيك. انتهى.

رجع: ثم أن الوزير المذكور حين إغارتِه علـى آل قَشْعَم ومـن حَالَفهم، أضرم للحرب ناراً، وأظهر من حُسامه لـدى الضـرب شَـراراً.

---

[1] هو شاوي بن نصيف بن شاهر بن حمد بن مشهد بن حازم. شيخ قبيلة العبيد فـي العراق. وابنه عبد الله بك، تولى زعامة قبيلته، وتوفي سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م. ينظر دوحة الوزراء ١٤١وعباس العزاوي: آل الشاوي، مجلة لغـة العـرب ج٨ ص٦٧٩.

وقامت الحرب من الجانبَين على ساق، وحمَي الوطيس وكـــان ضِرامــه أوداج الأعناق. لكن آل قَشْعَم حين أبصروا سَواد الأثقال، لم يَشُـــكُّوا فـــي أنها كُماةٌ وأبطال، فبَدا فيهم الخَوف، وهربوا بعد أن قُتِل أكــــثرهم، ومـــن جُملة من قُتل منهم ابن عم كبيرهم صقْر[1] المُسَمّى بِسَعْد، وكانت إحـــدى عينيه عمياء. وقد أشار الوالد- حفظه الله- إلى ذلك في قصيدته الآتية.

ثم أن الوزير استَولى على أخبيتهم، وعلى نِســـائهم فـــي أندِيَتـــهم، لكنه- رحمه الله- مَنَّ على النساء فأطلَقَـــهن، وأعطـــاهن مـــالاً كثـــيراً، ولاسيما زوجة الشيخ صقْر (المُسمَّاة بنُورَة)[2]، فإنّـــه غَمَرهـــا بالعَطـــاء، وهذه منه- كما تقدّم- سَجيّة في كل وَقْعـــة، يَحفَـــظ النِّســـاء ويصونَـــهن ويَحْميهن ويُسَيِّرهن إلى مآمِنِهن.

ثم أمر بالخيام فنُصيت، ولم يأتِ العسكر إلى وقت الظهر، فأبصروا العسكر، ونَظَروا إلى العدو قد انكَسَر، ورأوا القَتْلى في طريقهم كـــالفَراش، وأبصروا الأعداء تُراوِغ في البَيْداء هَرَباً مُراوَغة الخُفّاش، فتعجَّبوا مـــن ذلك، وقالوا: ما هذه إلا بإعانة الملائكة أو الجِنّ <١٥٧أ> إذ كَسْر هـــؤلاء الصِّعاب لا يُمكن بهذه الشِرذَمة القليلة، وفَلُّ أولئـــك الأحـــزاب لا يُطـــاق بمُجَرَّد حيله.

---

[1] هو صقر بن حمود. ينظر عنه دوحة الوزراء ٤٧ ومؤلفات ياسين العمري: غايـــة المرام ١٨١ وزبدة الآثار الجلية ٩٣ والدر المكنون الورقة ٥٤١.

[2] ما بين قوسين ضرب عليه في الأصل، ولم يثبته ناسخ ب.

هذا، وأما العسكر الذي وَجّهه من ناحية هيت، فلم يَظفر بمــا رام، ولكنه ظَفَر بغيره من الأعادي فشتتهم في البوادي[1].

ثم أن الوزير المنصور، عاد إلى بغداد بالحزب المذكور، وقد هنّــأه الوالد بقصيدةٍ فيها تاريخ الوَقعَة وقد أجاد، حيث قال[2] [من الرمل]:

للمعــالي عنــد أهــلِ المجــد مَــهرُ	لا يُوَفّــى حقّــها مــن فيــه ذُعــرُ
إنمــا خَــوض المَنايــــا مَــــهرُها	وارتكابُ الصّعــب والأخطــارُ بُجَـرُ
مِثــل فِعــلِ المــاجِدِ القَــرمِ الــذي	زانَــه بيــنَ الــوَرى مَجــدٌ وفَخــرُ
لا يَمَسُّ الطّيـــب فـــي الـهَيْجاء بَــل	عنــده نَقْــعُ الوَغــى طيــبٌ وعِطــرُ
مــا صليــل السّــــيْف إلاّ عنـــده	نغمــةٌ لــم يَحكِــها عُــودٌ وزَمْــرُ
ليــس يصبــو نحــو غيــدٍ خُــرّدٍ	إنمــا يصبــو لعَضــبٍ فيــه بَــتْرُ
لــم يَنــم إن حــلّ خَطْــبٌ حــادثٌ	في الرّعايــا أن يَمَــسّ النــاس ضَــرُّ
طالمــا يلقــى حروبـــاً أجّجــت	نارهــا كــي يكتفــي زيــد وعمــرو
مــا تَــراه حيــن ألقــى نَفْسَــه	في عُباب الــهَولِ لــم يَرْدَعــه أمــرُ
حيــن مــالَت نحــو بَغْــيٍ قَشْــعَمٌ	عَزْمُهــا فــي مكْــرِه الخَــوانِ صقْــرُ
ســار والأعــداءُ أعــدادَ الحَصــى	فــي جنــود جَمْعُــها إذ ذاك نَــزرُ
فــوقَ طِــرْفٍ ســابحٍ لــم يثنِــه	عَــذْلُ عُــذّالٍ ولا يَلْويــه عُــذرُ
فــارتدى للحَــربِ عَزْمــاً بــاتراً	ما حَكَتْه في الوَغــى بيــضٌ وسُــمرٌ
هِمّــةٌ لــم يَجْرِهــا ذو سَــطوةٍ	غــيرة بــل دُونَــها يــا قَــومُ دَهــرُ

---

[1] وهذا ما ذكره ياسين العمري في الدر المكنون الورقة ٢٩٥، ولكنه ذكر في كتابه الآخر الآثار الجلية أن الذي ظفر بسعدون وقتله هو سليمان باشا. زبدة الآثار الجلية ص٢٢٩.

[2] ديوان عبد الله السويدي، الورقة ١١-١٢.

داسَ أرضاً لم تُدمِثها خُطى   لم يدسها قبله ليثٌ ونمر

<٥٧أب>

يا له من مَهْمَهٍ في فجّهِ   طامِسِ الأعلام لم يُوضحه فِكرُ

حَيّرَ الخرّيتَ في عِرفانه   والقَطا لم يَدرِ ما سَهلٌ ووَعْرُ

ما سَمِعنا غارةً مِلْحاحةً   في سُموم دونه في الحَرّ جَمْرُ

يا له يوماً عَبوساً صائفاً   هَيْقُه قد ذاب من أدناه صَخرُ

يومَ لا تَضحى حَرابيه ضُحَى[1]   بل تَسودُّ الحتفَ والغيران قبر[2]

هانَ لَفْحُ الريح في مَطلوبه   والرئيس الحُرُّ لا يَثنيه حَرُّ

غير بِدْعٍ كونُها نَزّاعَةً   للشوى من بعدِ ما قد عَمَّ قَشْرُ

مستحيلٌ في سُمومٍ عادَةً   غارةٌ فيها على الأعداء نَصرُ

كل هذا لم يَجِدِ فيه عَناً   بل يَرى الإقدام عَذْباً وهو مُرُّ

عنده هَيْفُ الفلا ريحُ الصَّبا   أو نسيمٌ فاحَ في مَسْراه نَشْرُ

خاضَ في غَمَراتِ نَقْعٍ مُظلِمٍ   ليس للمغوار في مَجراه خُبْرُ

ينظِمُ الأبطال في طَعْناته   وانبرى للهام في البَيداءِ نَثرُ

يا له نظماً ونثراً في العِدى   والذي يجريهما سَجْعٌ وشِعرُ

من عجيبٍ يأكلُ السِّرْحانُ   جيفةِ السِّرحان هذا منه نُكْرُ

أرهبَتْ شُجعانَهم صَوْلاتُهُ   واستباهم في الثَّرَى كَرٌّ وفَرُّ

فاغتَدَوا هَزْمَى بِداداً في الفلا   ما لهم ان يثبتوا طَوقٌ وصَبرُ

أذعنَتْ عُرْبُ البَوادي رَهْبَةً   منذُ لانَت من شَميمِ الفَتْكِ صَخرُ[3]

---

(1) الحرابي: لحم المتن.

(2) كذا في الأصل، وفي ب: النيران.

(3) الشمم الدنو من العدو، وفي الديوان: شيم.

لم يُحامُوا عن عيالٍ ساعةً | حينما مَسَّ البَنات الغيد أسرُ
وارتضوا عاراً شنيعاً فاضحاً | هل دَرَوا يَحمي ذَوات الخِدْرِ خِدْرُ
كيف يحميها وهذا سَعدُهم | عَيْنُهُ مطموسةٌ والطَّمسُ كَسْرُ
جَدَّ في حفظ النِّساء اللاّت في | أسره والحِفْظُ للمكسورِ جَبْرُ

<١٥٨أ>

مَنَّ جُوداً شِبهه غَيثٌ هامِعٍ | من نَوالٍ ما له عَدٌّ وحصرُ
أحمد الأفعال والمحمود في | كلِّ وَصْفٍ جُوده غَيثٌ وبَحْرُ
شيمةٌ خُصَّت به دون الأولى | هم ملوكٌ نعتها أسْرٌ وبِرُّ
يلن بالإذلال عِزّاً شامخاً | رُبَّ ربحٍ أصلُه ذُلٌّ وخُسرُ
كانت الشامية السِّبريتُ في | غابر الأزمان حِصناً فيه حَجْرُ
فاغتدى غير حصين حِصنُها | لا يَقى منها من الكَرّار فَقْرُ
ما وَقتْهم من خُطوبٍ وقعها | يجعل الولدان شيبا وهي غبر
حاذَروا إذا بعدوا في دوها[1] | حيث لا يُغني من الفتّاك حِذْرُ[2]
إن يضق رحبُ الصحارى أرْخوا | هل لِصَقرٍ في صحارى الهول وَكْرُ[3]

وهنأه أيضاً السيد عبد الله، المعروف بفَخْري زادَه[4]، فقال [من الطويل]:

---

[1] في الديوان: دوحا.

[2] في الديوان: حيث لا يغني عنها لفتاك حذر.

[3] حساب الشطر: ١١٥٢هـ.

[4] هو السيد عبد الله بن فخر الدين، المعروف بالفخري، من الأسرة الأعرجية التي تولت النقابة والإفتاء والقضاء في الموصل حيناً من الدهر، ولد في الموصل،=

أغَرْتَ مَغــــاراً فيــه أكــرمُ مَغنــمِ　　وحزْتَ فَخـــاراً فيـــه كـــل التكـرُمِ

عَلَوتَ مُتون السابحات علــى الونــا　　وخضت غماراً دونها عِطـرُ مَنشِـم

وكم حاولوا ردّاً لما كنــتَ عازمــاً　　فلــم تنثــنِ والعــزمُ أكــرمُ مُلــزِمِ

فجرّدت عَضباً من عُلائــك ماضيــاً　　بعــزمٍ كبيــض الــهند لــم يتثلّــمِ

سَبَقْت إلى الهيجاء جيشــاً تعـوّدت　　قِراع العِدى مِــن كــلِّ قَــرمٍ مُلثّــمِ

إذا ما دَجى ليلٌ من الخَطْبِ دامِــسٌ　　ففي البدر مَغْنىً عن مَســارِج أنجُــمِ

فإن كنتَ قَــد لاقَيْــتَ فَــرْداً فإنمــا　　وجودك يُغني عن خميــسٍ عَرَمــرَمِ

أتيتَ وبيض السُمرِ تَقْــرَع بعضَــها　　فطــاحوا حَيــارى لليَدَيْــنِ وللفَــمِ

وكحَّلْــت جَفنــاً بالسُّــها مُجــالداً　　واوأبت جسماً لم يــزل فــي تنعــم

ومثلك من يَبغي فخــاراً وســـؤدداً　　يبيتُ ويَضحي فوق أشهب شَــيْظَم[1]

نَعَم! هكذا نَيْــلُ العُــلا واكتســابها　　فــإن المَعــالي لا تُبــاعُ بِدرهَــمِ

=وتلقى العلم على كبار علمائها، اتصل بخدمة والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي، ثم ارتحل إلى بغداد حيث نال حظوة لدى واليها أحمد باشا، ثم لدى خلفه سليمان باشا أبي ليلة، وصار كاتب الإنشاء في عهده، وكانت له الوجاهة والكلمة المسموعة لدى الولاة التالين، حتى وفاته سنة ١١٨٨هـ، وكان أديباً منشئاً شاعراً رقيقاً، عالماً بالفلك ومؤرخاً، وله تاريخ نشاطي (مخطوط) ورسالة في شرح رسالة البهاء العاملي (طبعت). قال محمد أمين العمري "وكثرت الخيرات عنده، فقصده الفضلاء، ومدحه الشعراء، فكانت داره مأوى أرباب المقاصد، ومحط رجالهم، ومرمى مآربهم". منهل الأولياء ج١ ص٢٤١. وينظر عصام الدين عثمان العمري: الروض النضر ج١ ص٢٦٢، وياسين العمري: غاية المرام ص٣٥٥، وزبدة الآثار الجلية ص٩٣، وديوان العشاري ص٩١، وعباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي ج٢ ص٣٦ وتاريخ علم الفلك في العراق ص٣٦١، وكتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني ص١٢٣.

[1] الشيظم: الطويل الجسيم الفتي من الناس والخيل والإبل.

قطعتَ إليهم كلَّ بَهماء مَقفرٍ ... وجُبتَ فَلاةً بالمَعاطب تَرتَمي

فَلاةٌ يذيب الصَّخرَ وقْدُ هجيرها ... وحَرٌّ به نار الغَضا في تَضرُّمِ

بَرارٍ بها ألٌ يَموجُ تَلامعاً[1] ... يَحارُ بها الساري كبَحرٍ غَطَمْطَمِ[2]

حَرورٌ كنار الوَجدِ يعلو اضطرامه ... بقلبِ مُحِبٍ مُستهامٍ متيَّمِ

فصبَّحتَهم كالمَوتِ يَنزلُ خافياً ... فضلُّوا حَيارى بينَ نَصْلٍ ولِهذَمِ

وشاموا بُروقاً من سيوفك أمطَرَت ... سيولُ المَنايا من رَواعدِ مخذَمِ

عُقابُ الوَغى لما بدا طار صقرهم ... "إلى حيثُ ألقتْ رَحلَها أمُّ قَشْعَمِ"[3]

فخلُّوا لكَ الأموال من كلِّ تالدٍ ... ومُكتَسَبٍ من كل شاءٍ ومِنسَمِ[4]

تركتَهم رَهْنَ الهَوان بقائمٍ ... شديدَ الثَّوى في شَرِّ عَيشٍ مُسَخَّمِ[5]

ولم تترك شيئاً غير بها أنفسٍ ... تسيل على آماقهم مثلَ عَنْدَمِ

أُتيتَ بما يُولي السَّميع تعجُّباً ... ويدهش عقلَ الفارس المتقدِّمِ

فلا زلتَ منصورَ اللِّواء مُظفَّراً ... تدينُ لك الدنيا بعُربٍ وأعجَمِ

---

(١) جمع الآله وهي الحربة العظيمة النصل.

(٢) أي عظيم كثير الأمواج.

(٣) أم قشعم ناقة ألقت رحلها في النار فصارت مثلاً. وعلق ياسين العمري على هذا البيت بقوله: وهذا من أحسن الاتفاق، لأن صقراً هو أمير قشعم، وأم قشعم هي الحمارة. زبدة الآثار الجلية ص٩٤، والدر المكنون، الورقة ٢٩٥.

(٤) المنسم: خف البعير.

(٥) المسخم: المسود.

فصـــل

[ورود المقرر]

في السنة الثالثة وخمسين بعد المائة والألف[1]، إمتدحه السيد عبد الله أمين الفتوى في بغداد، ويهنيه بعيد النحر، وورود المقرر[2]، والسلامة حين سقط البناء من تحته[3]، بقوله [من الطويل]:

أرى النصر مجنوباً بطلعتك الغرا فسر حيثما إن شئت بحراً وإن برا

فتوفيق مولانا لديك مصاحب لذاتك فاحكم ما تشاء تنل أجرا

وأنت بهذا العصر لا زلت سالماً رئيساً حقيق أنك الآية الكبرى

أدامك ربي حامياً لعباده تحوطهم من كل من يقصد الشرا

محاسنك العليا وإن رامها إمرؤ قرين لكم في الحكم لم يبلغ العشرا

<١٥٩أ>

فسبحان من أعطاك نصراً تهابه ملوك لهم بأس شديد ولا فخر

لأنك أخلصت الضمير لواحد فكافاك مجداً أثمر العز والنصرا

وقاك إلهي أمس إذ سقط البنا فكان وقي للناس كي يكثروا الشكرا

حياتك فيها للأنام حياتهم تزيدهم طولاً وتفضلهم عمرا

تأدب أعراب العراق لهم فلا يرى لهم عاص وطوعتهم قسرا

سلكت بتأديب العصاة طريقة إذا رمت منهم فرقة فرت الأخرى

فقر إلهي بالمقرر أعيناً وافرغ في عيني معاديكم قطرا

---

[1] أولها ٢٩ آذار سنة ١٧٤٠م.

[2] يريد ورود الفرمان الخاص بتجديد ولايته.

[3] هذه إشارة إلى حادثة تعرض لها احمد باشا، ولم تتوضح لنا تفاصيلها لسكوت المصادر الاخرى عنها.

وأعقَبه عيد الضحايا تفاؤلاً بأنَّ الذي عاداكَ يَستوجب النَّحرا
عُبَيدك عبد الله حَسَّانك الذي به نال عِزّاً بينَ أقرانه طُرّاً
مُقيم على صِدْقِ المحبَّة قائمٌ على قدم الإخلاص داعٍ لكم جَهْراً
فدُم بالهَنا والعِزّ والنصر سَرْمَداً أمينا قَريرَ العَيْنِ مُنشرِحاً صدرا
وأعداؤك الحُسَّادِ لم يبْق منهم بقايا ولا أعلا الإله لهم ذِكرا

فصل

[ثورة اللزك على نادرشاه]

وفي هذه السنة، استعمل الخبيث الشاه نادر التَّقيَّة، فأرسل إلى حضرة الإمام الأعظم أبي حنيفة الهديَّة، ألا وهي دراهم كثيرة، ودنانير غزيرة، مع رسولٍ من خاناتِه، وسَفيرٍ من أصحابه وأقواتِه. وأرسل أيضاً إلى سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وولَده الحسين، وإلى موسى الكاظِم- رَضي الله عنهم- دراهم لا تُعَد ولا تُحصى.

وسبب هذه التَّقيَّة، هو أن اللَّزك، وهم كُردٌ من أكراد العَجَم[1] في ناحيةٍ من أرضهم على حِدَة، أهل سُنَّة وجَماعة، وقد عَصَوه، فأوهنوا قُواه، وفتّتوا غيظاً أحشاه، إذ لم يطيعوا أمره حين رَجَع من أرزوم

---

[1] الصحيح أنهم من الأقوام التركية الأولى التي استوطنت القفقاس من داغستان، اضطروا تحت ظروف اقتصادية إلى هجرة مواطنهم الأولى جات شروان وجورجيا وايران، لغتهم التركية، وقد عرفوا بالشجاعة والميل إلى الاستقلال والحرية. يرى بعض المؤرخين أنهم يمتون بصلة القربى إلى الأقوام التترية التي غزت أوربا في العصور الوسطى ينظر سامي: قاموس الأعلام ص٣٩٩٠.

<٥٩ب> إلى صحراء مُوغان، وبايَعَه الناس على أنه الشاه على الحـق. وكان تاريخ البيعة حينئذٍ (الخَيرُ فيما وَقَع)، ومن لـم يَـرْضَ بـها قَلَـب التاريخ، وقال: (لا خيرَ فيما وَقَع)[1]. هكذا رأيتُـه فـي الرِّحلـة المَكيَّـة والنَّفحَة المِسكيَة[2] للوالد- حفظه الله.

وهؤلاء الأكراد لم يُبايعوه على ذلك، ولم يَرْضَـوا بكونـه شـاهاً عليهم، فمن حينئذٍ اشتعلت بينه وبينهم نار حَرْب. ولـم يَـزَل يحاربـهم ويحاربوه، وهم مُتَحصِّنون خَلْف جبال وَعِرَة المَسالك، لا يمكن فيها السَّير للسالِك، غير طريقٍ واحدٍ حَرَسوه بالسلاح، من النِبال وبيض الصِّفـاح، إلاّ أنهم هذه السنة كانت الغَلَبَة لهم، حيث أنهم دَهَموه ليلاً، فقتلوا أكثر رجالـه، ونَهبوا جُلَّ أمواله، فخَشِيَ أن تَسمع بذلك آل عثمان، فربَّما يَنقضون منـهم ما كان، فأرسل ما ذَكَرنا. وأظهر في مكانه أنه صار سُنيًا، وأمر في بـلاد العجم أن لا ينادي بحَيَّ على خير العمل في الأذان، واحتال على علمـاء العَجَم بأن أرسل إلى كل بلدٍ رسولاً يُحصي العلماء، ويأتي بهم إلـى بلـد ملكه، ليبذل لهم الصَدَقة. فجاءوا إليه من كل فَجٍّ يَهرَعون، وقصدوا ديـاره يتسارَعون.

ولما قَدِموا بأجمعهم إليه، وصاروا بجميعهم لديه، جَعَلَـهم فـي دارٍ واسعةٍ، وكتب أسماءهم وأعطى كل واحدٍ ورقـة مكتـوب فيـها عـددٌ مخصوصٌ من الدراهم، وإن هذا العَدَد يؤديه ذلك العالم. وجَعَل مع كـل

---

[1] كلا العبارتين مجموع أعيام حروفها ١١٤٨هـ.

[2] الورقة ١٣ من نسخة المتحف البريطاني.

واحداً من أولئك العلماء واحدٍ من أعوانه على تحصيل ما كتب لـــه فـــي الورقة من النقود. وكانت الدعوة لسعادتهم فانقلبت لشقائهم، فابتاعوا جميـع كُتُبهم ومُدَّخَرهم من كلٍّ <١٦٠٠أ> نفيس، وأدّوه لذلك العلـج الخَنيـس[1]، فكَثُرَت كُتُبهم في العراق، حتى ملأت المدارس وحوانيت الأسـواق، مـن نحو وصَرْف ومعاني وبَيان ولُغة وتفسـير وعَـروض وحِكْمـة وهَيْئَـة وهندسة واسطر لاب ونحوها.

فصـــــل

[إكمال بستان الوزير]

وفي هذه السنة، كَمَلت في الوجود بُستان الوزير المذكور، الكائنـة على غربي شاطئ دِجلة[2]، غربي قَصر الخُلْد[3]. فكَمُلَ بناؤها، وأنتَجَـت

---

[1] الخنيس القريب من الفطس وهو لصوق قصبة الأنف بالوجنة وضخم الأرنبة.

[2] هي البستان الذي عرف فيما بعد ببستان المتولية، وتقـع فـي الجـانب الغربـي (العطيفية الثانية حالياً)، آلت إلى ابنته عادلة خاتون فوقفتها على جامعيهما اللذيـن أنشأتهما في الجانب الشرقي من بغداد، وذلك بموجب وقفيتها المؤرخـة فـي ١٩ ربيع الآخر سنة ١١٧١هـ/٣٠ كانون الثاني ١٧٥٧م، ثم أصاب الإهمـال هـذه البستان، مما دفع بأحد المتولين على وقف عادلة خاتون إلى اسـتبدالها ببسـاتين عامرين في قضاء مندلي. ينظر كتابنا: عادلة خاتون ص٥٣.

[3] قصر الخلد أمر ببنائه الخليفة العباسي المنصور سنة ١٥٧ وأتمه سنة ١٥٨هـ، واتخذه الرشيد مقراً له، ثم أصابه الخراب بسبب النزاع المسلح الذي جـرى بيـن الأمين والمأمون، ولبثت أطلاله ماثلة حتى أواخر القرن الثالث للهجرة، وقربه شيد عضد الدولة المارستان العضدي، أحد أكبر مستشفيات بغداد في العصور العباسية. وكان هذا القصر يقع عند مصب نهر الصراة في دجلة، وإذ ذكر المؤرخـون أن-

أزهارها، حتى غدَت جَنَّة الدنيا في البلاد، تفوق بزُخرُفِها إرَم ذات العِماد، محفوفةً بمغانٍ عامرة، ومبانٍ زاهية زاهرة، مع أنهار متدَفِّقة من الـزُّلال، وجداول مُنهَمِرة أصفى من الجِريال، تَجري على حَصباء كَـدُرٍّ منثـور ومنظوم، ولا سيما إذا جَرى على لُجَيْنِ الماء ذَهَبُ الأصيـل الـذي هـو بالإشراق مَوْسوم. وقد نُثِرَت الصَّبا عليه دنانير الأوراق، فلولا صُفرَتـهـا لخالَتها نُجوماً ساقِطة النُّواظِر والأحداق، فإذا لَعِـب الرِّيـح، وتحرَّكـت عِيدانها، صَفَّقَت للأفراح بأوراقها أغصانها، ورَقَصَت أشجارها، ومـالت عليها طَرَباً أطيارها، وتَساقَط نِثار لآلئ الطَّل المنثورة، على بِساط حديقـة هي بالأفراح مشهورة، وقد حَوَت من أصناف الريـاحين مـا لا يُحيـط بوصفه كِتاب، ولا تُطيق لضَبْطِ مدائحه كُتّاب.

ولله دَرُّ الوالد- حفظه الله- حيث يقول في مَقامته: فالورد قد بَـرَزَ من أكمامه، من حَرِّ الغرام، وأُوامه[1]، قد شقَّ حُلَّته الفاخرة، وكادت تَذبَـل من الوَجْد ذاته الناضِرة، ودَمُه على أثوابه مطلول، وجَنِيه مما به مَحلـول،

=مشهد العتيقة، وهو مشهد المنطقة اليوم، كان يقع عند هذا النهر، تـأكد لنـا أن القصر كان يقع في نطاق مقتربات جسر الصرافية الحالي، وربمـا احتـل أرض المارستان العضدي مستشفى الكرخ الجمهوري اليوم. ومن المؤكد أن هذا القصـر زال تماماً في العصور التالية، وقد أطلق المؤلف، أو أهل عصره، اسـمه علـى أطلال أحد القصور القديمة التي كانت ماثلة حتى عصره، ولكننا لا نعلم أي قصـر أراد، وعلى أية حال، فإن كون بستان الوزير بموقعه الذي حددناه يقع على غربـه، يفيد بأنه كان يقع في جنوبي محلة العطيفية، على شاطئ دجلة، وهي الأرض التـي تشغلها مقتربات جسر الأعظمية الحالي، الواصل بيـن الأعظميـة وشـارع ١٤ رمضان.

[1] الأوام: الحر والعطش الشديد.

فلم تُفِده شَوْكته القوية، ولم تُسعِده <١٦٠ب> رائحته الزَّكيـــة، والـــنَّرْجِس من لواعِج أشواقه ساهِرٌ لم يَستَطِع غَمضَ أحداقه، مُنَكَّـــس الـــرأس مـــن السُّهاد، مشدود الوَسَط للخِدمة لينال المُراد، والياسمين قـــد علَّـــل نفسَـــه بالوِصال، وأطمَعَها جهلا منه بالمُحال، ونَسِيَ الصدود والإعراض، فكُسِيَ لذلك حُلَّة البَياض، والبان يميل من ألم الوَجد، فيظنه الجاهل اهتزاز قَـــدّ، وتَرمَّد وجهه كلَوْن السِّنجاب، واقشعرَّ جلده كأنـــــه ســـنانير رأت بعـــض الكلاب، فنَفشت الأذناب. والنِّسرين قد خضَّب بصُفـــرةَ النحـــول بَنانـــه، واختار على عِزِّه ذُلَّه وهَوانه. والبَنَفسَج من الجَوى تلـــوح عليـــه زُرقـــة كزُرقة الغَضبان، أو كأعناق الفَواخت إذا ناحت على أهـــل الـــهَوان، قـــد احترَق من الكآبات والأشجان، فكأنه أطراف كِـــبريت اشـــتعلت بـــأوائل النِّيران. والآس لم يَحُل بسُلوان عن أسياده، بل هـــو بـــاقٍ علـــى وفائـــه ووِداده. والرَّيحان حاسر الرأس حُزناً على أيام الوصال، وشوقاً إلى عَـــوْد هاتيك الليال، لم يَزَل رفيق مواثيق وعهود، ولذا لم أعـــرف اســـمه، ولا أتحقَّق حَدَّه ورَسمه.

وفيها من أشجار الفواكه والثِّمار ما يُدهِش بنضرتها النـــاظر، ولـــم يُجد في وصفها إلاّ المَثَل السائر، فهي ذات ثِمار مختلفة الغَرابـــة، وتُربـــة مُنتَجَبة وما كلُّ تُربة توصف بالنَّجابة، ففيها المِشمِش الذي يســـبق غـــيره بقُدومه، ويَقذِف أيدي الجانبين بنُجومه، فهو يسمو بطيب الفَرع والنِجـــار، ولو نُظِم في جِيد الحسناء <١٦١أ> لاشتبه بقلادة من نُضار. وفيها التُّفـــاح الذي رَقَّ جِلده، وتوَرَّد خَدُّه، وعَظم قَدُّه، وطابت أنفاسه، فلا بان الـــوادي

وَرَنْدَه[1]. وإذا نُظِر إليه وُجِد من حظ الشمّ والنَظَر. ونِسْـبته إلـى سَـرْوِ الغِزلان أولى من منابِت الشَّجَر، وفيها العِنَب الذي هو أكرم الثمار طينـة، وأكثرها ألوان زينة، فقَطفه يُميل يَدَ قاطِفـه، ويُغـري بـالوَصف لِسان واصِفه. وفيها الرمان الذي هو طعام وشراب، وبه شُبِّهت نُهود الكِعـاب، ومن فَضلِه أنه لا نوى له فيُرمى نواه، ولا يُخرِج اللؤلؤ والمَرجـان مـن فاكهةٍ سواه.

وفيها التّين الذي أقسم الله به تنويهاً بذكره، واسـتَتَر آدم إذ كَشَـفت المَعْصية عن سِرِّه، وخُصَّ بطول الأعناق، فما يُرى بها من مَيْل فذاك مـن نَشْوة سُكره، وقد وُصف بأنه راقَ طعماً، ونَعُم جِسماً، وهو كُنَيْـفٌ مُـلِئَ شَهْداً، لا كُنَيْف مُلئ علماً. وفيها من ثمرات النخيل ما يزهو بلونه وشَكلِه، ويَشْغَل بِلذَّة منظره عن لَذَّة أكله، وهو الذي فَضَّل ذوات الأفنان بِعرجُونـه، ولا تماثُل بينه وبين الحلواء، فيُقال: هذا خلق الله فأرني ماذا خلق الذيـن[2] من دونه؟ وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها، وكلها مَعدودة مـن أوساطها لا من أطرافها.

وقد دَخَلْتُها أيام ارتحال الوزير عنها إلى قَصر الخِلافة[3]، فرأيـتُ قصورا ما فيها قُصُور، بل تَقْصُر دون وَصفِها ألسِنة واصفيها. أرفع مـن رَضْوى وثَهْلان، ودونها الخَوَرْنَق وغمْـدان، فيـها أواويـن <١٦١ب> كَسْرَوية، ومقاصير قَيْصَرية، نمارقها من أرفع الديباج، وزرابيها منسوجة

---

[1] الرند: الآس.

[2] في الأصل: ماذا خلق الله، ولا يستقيم بها المعنى.

[3] يريد السراي، وقد سبق أن سماه قصر الإمارة. وتقدم التعريف به.

بالنُّضار الوهَّاج، وأرائكِها مصفوفة مَوْضوعَـــة، وسُـــرُرُها مـــن اللؤلـــؤ الرَّطِب، على قوائم الياقوت، مَرفوعة مُزَخرَفة الجُدران، مُمَوَّهة الأركـان، والجداول في رِحابها، كأنها الأفاعي في انسيابها. وفيها من أنواع الزينـــة ما لا عَينٌ رأتْ، ومن أوصاف نَغْمات الأطيار ما لا أُذن سَمِعَت، كما قـال الوالد في المَقامة، فالشُّحرُور خطيب على منــابر الأفنــان، يَعِـظ ذوات الجناح ويَحُثُّ على الأشجان. والعندليب مؤذِّنٌ على العَذَبات، يُنادي حَـــيَّ على الصَبابات. والبُلبُل يُغرِّد بالألحان والنَغَم، ويُبَلبِل بالبِلبال بـــالَ أولـــي السَّقم. والحمائم على يانِع الأغصان، تَصدح بالنُّوح على ذوي الأحـــزان، انتهى. فهي مكان الوزير لأيام الربيع، وداره أوقات الكَلأ المُريع.

ومن لطائف ما اتَّفَق له فيها، أنه حين كَمُل بناؤها، جَلَس فوق قصر من قصورها، مُشرِف على جهات الأربع، بحيث يَرى منه من هـــو فـــي هَوْر عقَرقوف. وكانت في يده مَنْظَرَة- ويُقال لها فـــي اللغـــة التُركيَّـــة: الدُرْبين[١]- فأبصر رجلاً وامرأةً فوق رأس كلٍّ منهما إناء من لَبَـــن، قـد خَرَجا من هَوْر عقَرقوف يريدان بغداد، الامرأة أمام الرجل، وهما يسيران في ذلك البَر الأقفر، فأبصر الرجل أوقف الامرأة، وأنزل الإناء من علـــى رأسها، وواقَعَها، ثم سارا غير قليل ففعل ما فَعَل، ثم سارا <١٦٢أ> كذلـك فَفَعَل ما فَعَل ثلاث مرَّات.

---

[١] كذا كتبها في الأصل، وصوابها- كما كان يكتبها الترك- دوربيـــن، وهـــي لفظـــة فارسية الأصل، اسم فاعل من (دور) أي البعيد، فيكون معناهـــا النـــاظر بعيـــداً، واصطلاحاً: آلة فيها عدسات تقرِّب البعيد وقد لبثت هذه اللفظـــة مســـتخدمة فـــي العامية العراقية إلى وقت قريب.

فقال الوزير لأخدانه: إني رأيتُ كذا وكذا! وإني مُرسِلٌ لهما رسولاً يأتيني بهما، فأسأل كلاً منهما على حِدَه، فإن لم يَتَوافق كلامهما، وتلعثَما، علمتُ أن معهما خيانة، أما الرجل فاقتُله، وأما الامرأة فألقها من فوق هذا القصر. وإن أجابا بما يَقْبَله العقل من أنهما زَوْجان، أسألهما عن السبب الداعي لذلك وأُخلي سبيلها.

فأرسل رجلاً من خُدّامه فأتى بهما جميعاً، فلما شَخَصا بين يديه، أمر بإبعاد الرجل فأُبعد، وأبقى الامرأة فسألها: من هذا الرجل؟ فقالت: هو ابن عمّي وزَوْجي، فأرسلها ودعا بالرجل، فقال له: من هذه الامرأة التي كانت معك؟ فقال: هي ابنة عمي وزوجتي. فقال له: تَرِبَتْ يَداك! ما يُقال لما فعلت؟ فقال: أطال الله بَقاء خليفة أمير المؤمنين، إني قريب عهد بها، وكانت تسير أمامي، فأبصرتُ منها كَفْلاً[1] مُتَرَجْرِجاً كالكثيب، وساقاً غضّاً خدلجاً وقَدّاً كالقضيب، ففعلتُ ما فعلتُ، ولم أملك نفسي إلى الرجوع!، فضحك الوزير ومن معه، وأعطاه دنانير. وقال له: اذهب، لا تَبِع اللبن، وابقَ مع ابنة عَمّكَ حتى تَروي منها وتَروي منك.

---

[1] الكفل: العجز.

فصـــل

[وصول هدايا من نادرشاه]

وفي هذه السنة[١]، قَدِم من طَرف الشاه نادر رسول[٢] إلـى الدولـة العلية، صُحبتَه هدايا عظيمة، لا تُعَد ولا تُحصى، ومن جُملتها اثنا[٣] عَشَر فِيلاً، واحد للوزير المذكور، وأحد عشر فيلاً للسلطان، ومعه من الأعـوان <٦٢١ب> ألف وخمسمائة فارس[٤].

---

[١] يريد سنة ١١٥٣هـ.

[٢] كذا، والصواب: رسولٌ.

[٣] في الأصل: اثني عشر.

[٤] الخبر تؤكده الوثائق الرسمية العثمانية المعاصرة، ففي الأمر الموجه إلى أحمد باشا بتاريخ أوائل ربيع الآخر (دفتر مهمة ١٤٧ ص١٦٥) أن عليه اسـتقبال السـفير الإيراني حاجي خان لدى وصوله بغداد "بالحفاوة وكرم الضيافـة حيـث أرسـله نادرشاه الجالس على كرسي الأكاسرة في إيران، أتم الله مقاصده ومناه. وقد شـمل الحكم على تعليمات خاصة بالاهتمام به وتأمين أمنه وراحته خلال طريقـه إلـى استانبول". وينظر دوحة الوزراء ص٤٧، وفي الدر المكنون، الورقة ٢٩٦ وزبـدة الآثار الجلية، ص٩٩، أن وصول هدية نادرشاه كـان سـنة ١١٥٥هـ وليـس بصواب، ولكنه ذكر أن عدد الأفيال كان عشرة" أخذهم من بلاد الهند، فقدموا بـهم إلى الموصل، وعبروا نهر دجلة فغرق واحد مهم ومات، وسـلم منـهم التسـعة، ورحلوا بهم إلى اسلامبول ، فإذا طرحنا فيلاً واحداً من العدد الكلي للأفيال، وهـو المخصص لأحمد باشا، يبقى ثمة نقص فيل آخر به تمام العدد. ومما يؤيد روايـة العمري بشأن عدد الفيلة، ما نقله المرادي في ترجمة يعقوب باشا الوزير بحلـب، قال: وفي أيامه وصل سفير طهماسب قولي المدعو نادرشاه من مملكة إيران لحلب مجتازاً لدار السلطنة، واحتفلت له الدولة العلية، وإظهاراً لأبهة السـلطنة، ومعـه تسعة من الفيلة على ظهورهم التخوت، وهم أمام السفير كل هنيأة يقفون لسلامه،=

فخرج الوزير إلى استقباله من قصر الخِلافة إلى نهر نَيالَة[1]، لابساً من ملابس العزّ أفخره وأعلاه، ومن نفائس الجُوْهَر أزهَره وأغلاه، في طبقات الأولياء، ووجوه الأشراف والأمراء، والأعيان والعبيد والقوّاد، وأصناف العَسكَر والأجناد، ومواكب حَسَدَت السماء الأرض لِزينتها وعِظَم أقدارها، وغَبَطت النجومُ التُّرب لجَلالةِ أخطارها. فزُيِّن البَرُّ بأنواع الحُلي والحُلل، وبدائع الديباج والوشي والثياب المُذَهبة، والأنماط اللطيفة المستغربة، حتى لم يبقَ من الأرض شبر إلاّ وهو مُزيَّن، ولا فِتر إلاّ وهو مُستبدع مُستحسن. ووقع الإجماع على أن هذا اليوم المذكور أجَلُّ يوم أُرِّخَت بمثله الأيام، وعَجَز عن وصفه الأنام، وتَزَيَّنَت بجماله بطون الدفاتر، وتشَرَّفت بذكره رؤوس المنابر. وقد عمل له الوزير غَداءً في صحراء الكرخ الشرقي[2] من بغداد.

ثم عاد إلى قصر الإمامة، ومَقَرّ العز والكرامة، مؤيداً منصوراً، سالماً موفوراً، مخصوصاً بصنيع الله وإقباله، محفوظاً بالملائكة من على

=ويأمرهم الفيال فيطأطئون خرطومهم، وكان وصولهم لحلب ثامن شوال سنة ١١٥٣، وكان يوماً مشهوداً حضر أهل القرى كلها لمشاهدة الفيلة، واسم هذا السفير حاجي خان" (سلك الدرر ج٢ ص٢٣٧).

[1] كذا كتبه المؤلف، ومثله في كتابه الآخر (تاريخ حوادث بغداد والبصرة)، والمشهور: ديالى، بدال مهملة، على ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ج٢ ص٤٩٥) وهو النهر المعروف في شرقي دجلة، ومصبه في جنوب بغداد.

[2] يريد الفضاء الذي كان في جنوبي محلات الكرخ عهد ذاك، وكان باب الحلة (حيث علاوي الحلة) وباب الكريمات يقعان في القسم الجنوبي من ذلك السوق، فلعله قصد ما وراءهما جنوباً من الأرضيين.

يَدَيْهِ وشِماله. وقد أنزلَ الرسول، إكراماً له، في تلك البُستان، وأنْزَلَ عَسكَره في بيوت الجانب الغربي مُدَّةَ إقامته. ثم ارتحل وقصد إسلامبول، محفوفاً من الوزير بالمنح الجزيلة، والعطاء المحمود المقبول.

قد التَمَسَ مني بعض الأصدقاء [أن أنظم على] لسانه قصيدةً إلى الوزير [في] صَداق امرأةَ هَواها، وأن تكون ألفاظها فصيحة منطقة، لاعتقاده أن البلاغة في الألفاظ المُتنافرة، لا جَزالة المعاني الباهرة، فأجبته إلى سؤاله، فَشَرَعتُ في تلك الليلة بالإنشاد لشرح حاله، فقلت [من الرمل][1]:

بضّةٌ كحلاءُ أزْرَت بالغزّال   قدُّها كالغصن لِيناً واعتِدال

لا تضاهيها مَهاةٌ بالفلا   وكذا في الخَضْنَرِ ربّات الدلال

إذ لها وجهٌ كَبدْرٍ لائحٍ   ولها شعرٌ كمُسْوَدِ الليال

صار يحكي طولُهُ عن جيدها   وعن القُرْطَيْن مصحوبَ النِّعال

ولها خدٌّ أسيلٌ ماؤه   لو تخليه يد الوَجَنات سال

ولها خالٌ على وَجْنَتها   عن جميع النَّقصِ في الأوصاف خال

فهي كالمِجْمَرِ والخالُ البُخورُ   أو كَزُنْجي على النِّيرانِ صال

أو كلِصٍ فوقَ نُطْعاة النّماء   والعيونُ الدعْجُ تَرميه النِّبال

كاعبٌ هيفاءُ، أما رِدْفُها   جلَّ عن دِعْصٍ عظيم في المِثال

أبصرَتْني يومَ عيدِ عَصْرَهُ   وأنا إذ ذاك منها في وَبال

فرنَتْ نَحْوي بطَرْفٍ ساحرٍ   جاوزَ الحدَّ بتعذيب الرجال

---

(1) القصيدة في ديوان عبد الرحمن السويدي، ص٦٨-٧٠، عدا الأبيات العشرة الأولى منها.

ثـم قـالت: رُحْ سـليماً لا تكـن كالذي مـات بحسـرات الوصـال
مَعشَـر الغيدِ غـدت عادتُنـا كلـها هَجـرٌ وعنْـا لا تَسـال
ثـم سـارت كغـزالٍ نـافرٍ من يدِ الصيّـاد مفلـول الحبـال[1]
فـاقتفى قلـبُ المُعنّـى إثرهـا وتسلّى الكـفُّ فـي نَتْـفِ السَّبال
وجرَت من عَيْنـيْ اليُمنـى عيـونٌ ومـن اليسـرى سَحابٌ مُتـوال
وزمـانٌ فيـه قـد قـلَّ الظـهيرُ وأنـا البـائس معـدومَ النْـوال
لم يكـن لـي فيـه خـلٌ صـادقٌ وصديـق لـودادٍ مـا أقـال[2]

<١٦٣أ>

وكريـمٍ أرْتَجـي مِنـسه الغِنـى كَيْ أرومَ الرّيـم أخـذاً بـالحَلال[3]
غيرَ رَبُّ المجـد مِعطـاء النّـوالْ أحمد الأفعـالِ محمـود الخِصـال
حاتَمٌ في الجُودِ بَحـرٌ فـي الكَـرَم ملْجأ الوَفدِ إذا مـا الخَطْـب جـال
كـم فقـيرٍ بـاتَ منـه حـامِداً مُطمَئـن القلـب مسـرور العيـال
كيف لا وهو الجَـواد اللـذْ حكـى حاتَم الطـائي فـي حُسْـنِ الفِعـال
وحكـى العَبْسـي واللائـي غـدَوا مثله في كـلِّ ضَـرْبٍ مـن قِتـال
فهو في الهَيْجاء مُسَـعِّر حَرْبـها[4] كم على الرَّمضاء ألقى مـن جِبـال
سلْ عـن الضرْغـام إيـران فكـم جرّعت من بأسـه كـأس الـزوال
يوم حـربِ الشـاه تَلقـى ضَيْغَمـاً منه يسـطو بسـلاحٍ فـوق رال[5]
شَـزرة الأذنيـن أمسـا نسـرها فـهو دامٍ مـن قِتـال للرعـال

---

[1] في الديوان: مغلول.
[2] أقال: فسخ.
[3] لم نشرح معاني ألفاظ هذه القصيدة لأن الشاعر سيقوم بذلك فيما يأتي.
[4] صدر البيت فيه خلل عروضي.
[5] الرأل: ولد النعامة.

قُبَّة الأبطـــال مـــن خَيـــل العِـــراب لا تَرى الركـــل كَوَرقـــاء الزجـــال
فـــي خميـــسٍ أرْهَبَـــت راياتـــه وجنـــودٍ عدُّهـــا ريـــث الرمـــال
دأبُـــهم فـــي الحـــربِ كَـــرٌ دائمـــاً لا مَفَـــرٌّ بـــل مَقَـــرٌ لا محـــال
مرمغلّـــون إذا اشـــتدَّ الوغـــى للأعـــادي فـــي ســـيوفٍ ونبـــال
فـــهناكَ السُـــمر يُوفـــى حقُّهـــا منهم والبيض منـــهم فـــي اشـــتغال
يا لَهم كـــم جَندلـــوا مـــن فـــارسٍ كاشـــرٍ عـــن نابـــه ممـــا ينـــال
شِـــلْوُهُ فيمـــا يُـــرى كـــالزنديبل أو كَطَوْدٍ من علـــى الغـــبراء مـــال
في نجيع الحَتْفِ مطروحـــاً وديـــن هكذا دين الذي عـــادى الرِّجـــال
لا يَرَوْنَ الرَّدع عن جـــزْبِ العـــدى بل يَرَون الرَّصْع بالسُّـــمر العَـــوال
مُشـــمْعِلون إذا حـــلَّ العِـــدى شمعلٌ مِمـــا يلاقـــوا مـــن نِصـــال
كيف لا والسِـــجلُ أضحـــى ربُّـــهم وهو في الهَيْجاء محمـــود الشَـــمال
كاشف الصِيِّبل إن حَـــلَّ الـــورى يوم فيه الرَّوع في الرّوع اســـتحال
كعبـــة القُصّـــاد أضحـــتْ داره منزل الوَفْـــد بـــها حَـــطُّ الرِّحـــال
يـــا أبـــا عَـــدلٍ أبـــا عـــادلٍ لا تردد الكَـــفُّ مـــن الأصفـــر خـــال
وأشـــبلَن يـــا شـــبل إنـــي مُرمِـــلٌ وكن المِـــزْدعَ فـــي بَـــذْلِ النـــوال
دُمـــتَ فـــي خـــيرٍ وعِـــزٌ وهَنـــا وعـــلاءٍ وســـرورٍ واعتـــدال[1]

<١٦٣ب>

ثم أن الكئيب نَهَكَته الحُمَّى عند الصَباح، واحترق وَجْـدُه وعِشـقه، فتسلَّى بمَحبَّتها عنها، ولم يعط هذه القصيدة للوزير.

[1] في الديوان: وسرورٍ وعلاء واعتدال.

فصـــــل

في بيان ما تضمنته هذه القصيدة من الألفاظ الخفية المعاني

الدِّعص بكسر الدال المُهملة فسُكون العَيْن: كثِيب الرَّمْل

السِّبال بكسر السين وتُفْتَح: الشارِب

الظُّهير: الناصِر

أقال البيع: فَسَخَه

اللَّذ بسكون الذال المُعجمة: لغة في الذي

الضَّيْغَم: الأسد

الرَّال: ولد النَّعَام

الشُّزْر: المُرتَفِع من كل شيء

النُّسر لَحْمة تكون في حافر الفَرَس

الرِّعال بكسر الراء: القطيع من الخَيْل

الرَّكْل: ضربك الفرس بالرِّكاب

وَرقاء الزَّجال، والزَّاجل: والزجّال الورقاء الطـــير ذات الألـــوان، والزاجل الذي يرسلها من مكان إلى آخر، ولهذا الفِعل زِجال

الرَّيْش: القَذَر

الخميس: العسكر. سُمِّي بذلك لكونه خمس فِرق، مقدّمة وجناحـــان وقلـــب وساقَة

أرمَغلَّ الرجل: أسرع

الزندَبيل: الفيل

ودين، المنقوع الدين: الجَزاء

الرَّدْع الكَفّ

الرَّضع: تغييب السِنان في المطعون

إشْمَعَل القوم في الطلب: بادروا فيه وتفرّقوا <١٦٤أ> والغارة في عدو انتشرت

الشُمعَلّ: التفرّق

السِّجل: بكسر السين المُهملة: الرَّجل الجَواد

الرَّدع بفتح الراء: الخَوف، وبضمنها القلب

الضئبَل، كزَبْرَج، وتُضَم الباء: الداهية

شبل عليه: عَطَف

الشبل: ولد الأسد

الزَّدع: السريع الماضي في الأمر

فصل

[قمع قطاع الطرق]

وفي السنة الرابعة والخمسين بعد المائة والألف[1]، وُعِرَت المَسالك، وخُوِّف منها السالك، وذلك أن رِجالاً تَغْصِب من المارَّة أثقالهم، وتأخذ أحمالَهم، ولم يعرفوهم من أي قبيلة، فيشكونَهم إلى الوزير فيعاملهم بسوء الكيلَة.

---

(1) أولها ١٩ آذار ١٧٤١م.

ولما كَثُر هذا الاختلال، ودامت الطُرق على هـــذا الحـــال، أُخـــبِر الوزير بذلك، فأرسَلَ عُيوناً، وفرَّقَهم في البوادي والقُرى، كي يَســـتَخبِروا عن أولئك الأرجاس فيُريح بإبادتهم الورى. فبعـــد أيـــامٍ قلائـــل، جاءتـــه العُيون، وأخبروه بأن هؤلاء الذين يقطعون السُبُل من عشـــائر مُتفرِّقـــة، وقبائل غير مُتَفِقة، قد حالفوا أهل القُرى على أن يَعطوهم ممـــا ينهَبونـــه، ويُواسوهم فيما يأخذونه، على أن يؤووهم نهاراً، ولا يذيعوا لهم أسراراً.

فحين سَمِع الدستور الغَيور، والشجاع الجَسور، بفِعل أهل المَخـــالِيف والضَيّاع، من إيوائهم أهل الفَساد، ومُشاركتهم لهم في نَهْبِ المِتاع، أرســـل سَرِيَّة سَرِيَّة، وكَتيبة عَنتَرِيَّة، مؤمِّراً عليها كَتْخُداه سليمان باشا، إلى أولئـــك الأرجاس، على شرط أن يُخمِدوا منـــــهم الأنفـــاس، ويـــأخذون الأمـــوال <١٦٤ب>، ويتركونهم في أسوء حال.

ولما خَرَج العسكر من بغداد، فرّقه أمـــير السَّـــرِيَة فـــي الأغـــوار والأنجاد، وأرسل كل فِرقة منهم إلى قرية، وأوصى كُلاً منهم أن يَرى فـــي القتل والنهب رأيَه، فنَهَبوا جميع القُرى التي في الجانب الغربي، ما عــــدا الحِلَّة والغَرِيٍ وكربلاء، ولكنهم نهبوا ما حولها مـــــن أخْبِيَـــة الأعـــراب، وشَفَوا صدور الورى بما فَعَلوه في أحزاب الخَراب.

ثم اجتمعوا في الحِلَّة المِزْيَدِيَّة، وتضامنوا مع رئيس السَرِيَة، فأغـــار بهم على زَبيد، حيث فَسَقوا في هاتِيك البِيد، فلم يُدرِكـــــهم الطَّلَـــب، ولـــم يقضوا منهم الأرَب، بل حين سَمِعت زَبيد بحُلولهم في الحِلّة، شَدَّ كلٌ منـــهم

للهَرَب رَحْله، وامتَطَوا الأينُق[1] الذوابِل، وحملوا منهم على مُتون اليَعمَلات[2] الكلّ والراجِل. وفرّوا بطون البراري والقِفار، وشَقُّوا قلوب البوادي نائين عن الأمصار.

ولما رجع أمير السَّرِية، نَهَب القُرى في طريقه مرّة أخرى، حتى جَعَلها كمدائن عاد وثَمُود، كيلا يكون أحد من أهلها إلى هذه المفاسِد يَعود[3].

فصل

[الحملة على بني لام]

وفي هذه السنة، تحَصَّن بنو لام في الجِبال الراسِية الشامخة، واعتَقَلوا في الأطواد العاصية الباذخة، وشنُّوا غارات الفَساد، ونَشَروا رايات البَغي والعِناد. ولما سَمِع الوزير بمكرِهم، وأحسَّ بخيانتهم وغدرهم، وعَلِم أنهم فرّقوا أهلهم فوق الجبال، وأن أخذَهم ونهبِم مُحال، إذ هم على ظهور خيول سوابِق، ونُجُب <١٦٥أ> لواحِق، ينتهزون الفرصة، ويُجرِّعون الرَّعية من ماء الهَوان كل كأسٍ ذا غَصّة، وإنه إن سار إليهم هَرَبوا في البِيد، ونَفَروا كما يَنفِر الضَّبيّ عن من يصيد، فأعرَض عن فِعلِهم، فكأنه لم يسمع بما أدّاه سيئ جَهلهم، لكنه احتال بهم، فأرسل إليهم

---

(1) جمع ناقة.

(2) جمع يعملة وهي الناقة السريعة.

(3) ينظر دوحة الوزراء ص٤٨.

الشيخ ثامر[1] يستنجدهم في غَزْو المُنتفِق، وصَحبته كِتاب الوزير، يَحثُّهم على الإتيان إليه، ويُخبِرهم بأنه قد جمَعَ سائر القبائل والعشائر، وحاز عنده من الأعراب الأمراء والأكابر، فأعمى الله بصيرتهم، وطَمَس على العُقول، وخَذَل الله عشيرتهم، والخائن- كما قيل- مخذول، وقدِموا مع الشيخ ثامر عليه قُدوم الفَرِيسة على أسد غَرْثان، وصاروا كلهم لديه بين الجُدران والعِمْران، وغدا كلٌّ منهم لرأي مُفسِده عن القدوم مُسَفَّه، وغَدَوا- كما قيل- كالباحث عن حَتْفِه بظِلفه.

فحين حلَّ الجميع في دارٍ واسعةٍ، قريبة من مرقد الإمام محمد أبي الفَضل[2]، أخذ خُيولهم غَصبْاً، وجَرَّد لأكابرهم عَضْباً، وفرَّ كلٌّ منهم راجِلاً، وصار إلى رعي شِياهِه راحلاً، فافتقروا بعد الغِنى، وعقِب الرَّاحة

---

[1] هو الشيخ ثامر بن سعدون بن محمد بن مانع، وقد تولى زعامة اتحاد المنتفق في تاريخ غير محدد لنا، بعد سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، وقتل في واقعة الخزاعل سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م. ينظر دوحة الوزراء ص١٤١، ١٦٧.

[2] من المراقد المعروفة ببغداد، وإليه تنسب محلة الفضل من محلات الجانب الشرقي، ولا تعرف هوية محمد الفضل هذا على سبيل اليقين، والمرجح أنه الفضل بن سهل بن بشر الأسفرائيني الواعظ البغدادي المشهور (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) إذ جاء في ترجمته أنه دفن في مقبرة باب أبرز، وهي المقبرة القديمة الواسعة التي تعد محلة الفضل الحالية جزءً من أرضها. ترددت الإشارة إلى جامع الفضل في القرن الحادي عشر، إذ وقف عليه بعض المحسنين مزارع في قرية خرنابات من أعمال ديالى، وعمره سليمان باشا الكبير، وأضاف إليه مدرسة سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م. وما زال الجامع عامراً.

والسرور النَّصَب والعَنا. وقد استمنح الوزير السيد عبد الله[1] فَرَساً من أفراسهم مُتَشكِّراً له على إرساله الثلج إليه وهو في الحُمى، بقوله [من البسيط]:

مولاي أحمد يُهنيكَ الفتوح فَدُم بِرِفعةٍ وبنصر يَفْلق الحَجَرا
والله لولاكَ كان الشرُّ مُنتصِباً لولا وجودك شبَّت نارُه وسرى

<١٦٥ب>

أقامكَ الله حِصناً للورى فلذا تَذُبُّ عن ديننا ما ضَرَّ أو خطَرا
مولاي هذا فتوحٌ لم يَقَع أبداً نعم! أقول فُتُوحٌ شِبه بَدْرا
لو نالَ هذا الأعادي فُرصَةً لبَغَوا وأفسدوا وأبادوا الجِنَّ والبَشَرا
هم شرُّ قومٍ من الأعراب قاتَلَهم رَبُّ العِباد ولا أبقى لهم أثَرا
بنو لِئام غُلاة الرفض أدَّبَهم ربِّي بِصَمْصامك الماضي لِمَن فَجَرا
إنْعِم لعَبديكَ سلمان الزمان أجلْ فَحلٌ شُجاعٌ تَهابُ الأسْد إن زأرا
فسَعْدُك العالِ إن أحلَته رَجلاً يسمو ويعلو فهذا السعد منك يَرى
أنتَ الشُّجاع الذي ذَلَّت لِهَيْبتكَ الأقطار فارتاح من بالمُدنِ بل وقُرى
أنتَ المُؤيَّد والله العظيم على هذا اعتقادي ولا ألْوي ولن أذرا
ألستَ صالب شِبلٍ ثُمَّ متبعه بدَنْدَن الخُبْث أطغى فاجرٍ كَفَرا
ألستَ مانِعَ جَمْع العَرَبِ حين طَغَوا واستجمعوا ظَنَّ أن السد قد كُسِرا
ألستَ كاسِر كِسْرى في تجمّعه ألستَ حامي حِمى بغداد إذ حُصِرا
ألستَ مُصلِح هذا القطر أجمَعه أليسَ صيتكَ[2] في أقطاره غَمَرا

---

[1] هو عبد الله أمين الفتوى، وقد تقدمت بعض قصائده.

[2] لعلها: صيتك.

هذي المنـــاقب لا تُنســـى محاسـنها   من ينسَ ذا الفضل والإحسان ما شَكِرا

لا أسـتطيع سَـجاياك الجسـام بـأن   أُحصي مَحاسِنها هل أنـزّح البحـرا

أعلِمُك الزاخِـر التيّـار زدتَ ذَكـا   أم جود كفّيك أغنى البَـدْو والحضَـرا

العجز عن ذاك عَيْنُ المدحِ زِدْتَ عُـلاً   لو أحصر الفضل أعيا كلّ من زَبَـرا

حُسْـنَ مدحـك عبـد الله مـن قِـدَمٍ   يدعو لحضرتِكـم ليـلاً كـذا سَـحرا

بـأن يَمُـنَّ عليـه فـي سـلامَتِكم   وأن يَقِي ذاتكم مـن كـل مـا كَـدَرا

كان اعتمادي بأنْ لو مِتّ من مَرَضي   على مروّتـك العُظمـى بغـير مَـرا

إن تَجـبر الآل والأولادَ مَكرُمـةً   وإن أكُن في الدرارى لم أخـز ذكَـرا

<١٦٦أ>

لكن مُذ حلَّ جَوفي الثلج أذهَـبَ مـا   أشكو وإن كان ذا قد صـادَفَ القَـدَرا

أُريد من فيْء ذا الكُفّـار لـي فَرَسـاً   حَسَناً ذَلولاً تفوق الريـح إن خَطَـرا

أعلو على ظهرها أدعو لأحمـد مـن   صميم قلب بـأن يُبقيـه لـي دُهُـرا

مولاي قد قلت هـذا لسـتُ قـاصيده   لا أبتغـي إبـلا لا ابتغـي بَقَـرا

لا زِلـتَ بـالعزّ والإقبـال مُرتقيـاً   تسمو وتعلو على الأعيـانِ والـوُزرا

كذا قيل، والظاهر أنه قالها في غزوة بني لام الأولى[١].

---

[١] يريد تلك التي حدثت في سنة ١١٥١هـ/١٧٣٨ وقد سبق أن أورد المؤلف أخبارها.

فصــل

[خروج الوزير للصيد]

وفي هذه السنة، خَرَج- كما هو هِجِّيراه القديمة، وعادته وشَنْشَــنته المستقيمة، إلى الاصطياد في بعض نواحي بغداد، لكنــه خــرج بجميــع عساكره وجلوده، وكل حَشْده وحَمَلَة بُنوده، آخِــذاً معــه أُهبَــةَ الحــرب والكِفاح، مستعداً بالسُمر والبيض الصِّفاح.

وكان خروجه إلى ناحية مَهْرُوت[1] من العراق، الشرقي من بغــداد، فظنَّ الناس أن هذا الخروج إنما هو للجهاد، لأنه خِلاف المُعتــاد، إذ لــم يخرج إلى الصيد قبلُ على هذا الاستعداد، وإنما الوزير أعجبــه ذلــك، إذ الوقت- كما قيل- وقت ربيع، والزمــان إذ ذاك زمــان غَيْــثٍ مُريــعٍ، والرّياض متأنقةَ الأشجار والأزهار، والغِياض مُتدفِّقةَ الجداول والأنــهار، قد سقى مرابعها الغَمام، من غُصونِ بانِها وأصول البَشام، وتَــأوَّدَت فيــها أغصان النَّقى، وتصافَحَت فيها أفنان الشَّقيق مصافحة مُحب بمــن أحــب التّقى، وحكت أرضها السَّماء في نُجومها، وغَدَت منــها الأنــواء أصــول شيحها ورَنْدِها في غُيومها، وكثُرت خلال أزهارهــا الأطيــار المُغــرِّدة، وسَكَنَت خلف أشجارها ضباؤها اللاّتي لِلَّذَّة مُحدثه مُجدده. <١٦٦ب>

---

[1] بلدة قديمة ورد اسمها في كتب الفتوح الإسلامية بلفظ مهروز، ثم عرفــت باســم مهرود، فمهروت، وأبدل اسمها رسمياً إلى كنعان، يخترقها نهر مهروت الآخذ من ديالى، وتبعد عن مدينة بعقوبا بنحو ١٥كم. وتتميز أراضي هذه الناحية بخصوبتــها وخلوها من الأهوار والمستنقعات والأملاح إلاّ نادراً، مما يجعلها صالحة لاتخاذهــا مجالاً الصيد.

وحَسُنَ إذ ذاك الاصطياد بين هاتيكَ الرُّبى والوهاد، فاشتهى الوزيـر أن يَخرج إليها بوجوه أكابره ورؤساء جنوده وعساكره، كي يَنال الكُل هذه اللّذّة، ويغتنموا فُرصة الزمان، بين تلك الوديان، وينفوا عـن خواطِرهم جميع الأحزان.

فحين أبصرَت خروجه عيون العجم، حقّقوا أنه إلى بلادهم قد عَزَم، إذ لا عَدو له في تلك الناحية، إلاّ تلك الفئة الباغية، فذهبوا إلـى كَرْمان شاهان، وأخبروا أهلها بما قد كان، فحَصَل لـهم الاضطـراب والخـوف العظيم، وكَثرت الأراجيف في تلك الإقليم. وهَرَبوا إلـى أصفـهان لِما شاهدوا من فَتْكِ هذا الضِرْغام، وأبصـروا فِعْلَ هـذا الـهُمام، وقـتَ الاصطدام، وأن حُصونهم ليست واقية من صَوْلَتِه، وأن معاقلـهم ليست حامية من حَمْلته. فبقيت كَرمان شاهان وهمدان خـاليتين عـن الأنيـس، مُجَرَّدتين عن المتاع النَفيس.

ثم أن الوزير، برجوعه إلى بغداد، بعد قَضاء وَطَره من الاصطيـاد، حصل فيها الاضطراب، وشاع بين أهلـها مجـيء نادرشـاه المُرتـاب، فارتَفَعت الأسعار، وبادَرَ الكُلُ إلى الادّخار، والأُهْبَة للحصـار، حتـى أن الوزير غَلَب عليه الوَهْمَ لاضطراب القوم، فادَّخَر لجنوده في إيج قلعـة[1] إحقاقاً من البُرّ[2] والشعير، وآلافاً من أمنان الأرز والسَّـمن بـلا تَـوانٍ وتأخير. وفرّق جنوده على القُرى خَشية احتلال الأعراب، إذ لـم يزالـوا

---

[1] هي قلعة بغداد، وقد تقدم التعريف بها.

[2] البر: الحنطة.

يَنْتهِزون فُرَص الخراب. وأرسل عيوناً إلى العجم تُخبِره عن هذا الخَطْـب الأدهم. فرَجِعتِ العيون، وأخبرته بما <١٦٧أ> كان.

وذلك أنّ النادرشاه حين بلّغه قدوم الوزير على بلدانه، وأُخبِر بنقض عَهدِه وخروجه من مكانه، لم يُصدّق هذا الخبر، لما علِم من وثاقة عـهد هذا القَسْوَر، ولكنه احتاط وعبّأ كَرمان شاهان وهمـذان جنـوداً وافِـرة، وعساكر مُتكاثرة، وأوصاهم أن لا يَتَعرّضوا إلى حمى بغداد، بشيء مـن الفساد، بل يكونون هناك حُراساً، ويَبقون في مكانهم لأهل البلـد إيناسـاً، ولكن بعض المنافقين حين بلغه هذا الخبَر، أشاع في بغداد ما قد كَدَّر.

فصـل

[سلم وسرور]

وفي السنة الخامسة والخمسين بعد المائة والألف[1]، عَمَّ أهل بغـداد السرور، حيث أمِنُوا صَوْلة ذلك الفاجر الكَفور.

وقد ختَن الوزير المذكور، ابن الأمير محمد باشا، حيث كـان ابـن بنتِ أُختَه صفيّة خانم، ألا وهو الولد السعيد، والشاب المجيد الحميد، أبـو المحاسن حسين بيك، قد حوى ما حواه هذا المَلِك من الشَّـرَف والفِخـار، وحاز ما قد حازَه من الأُبّهة والوِقار. قد نشأ في بيتِ أهله المعمور، مُنـذ ولادته، الهَناء، وشَبَّ مع شبابه السرور، وزالَ بوجوده العناء، فهو النجـم الذي تَولّد من نَيِّرَين، فوَهَبا السَّناء. وهو الغُصن الذي فَرّع بين دوحتَيـن،

---

[1] أولها ٨ آذار سنة ١٧٤٢م.

فأكسَباه البَهاء منذ خلَع القِماط، فازَ في خِلَعِ العلاء، ومنذ دبّ وسعى أدرك غايةَ العُقلاء، ريْحانة النادي، وشمعة الندماء، ومَغناطيس الأُنس، وسُلوانة الجُلَساء. فيالله ما أكرَم شَمائله، وأجمل خَصائله، وأحسن سِيرته، وأسلم سريرته. <١٦٧ب> وتَنَجُّب بنَجابةِ هذا الحَسيب الحميد، وتَشَرَّف بِشَرف هذا المجيد، فقد أُوتي بالمَهدِ الكمال. وإنما غَلَبت عليه عادةَ الأطفال، ويلوح عليه نور المجد وهو عَهْده، وقد تراءت منه علامات الشَّرف الدَّالة على كَماله في حَدّه. وكيف لا؟ وقد حَمَلته من قَمَر الدُّجى شَمس الضُّحى، فأتَت به نَجْماً فاقَ أقمار التَّم في الجمال والبَهاء، فطَهَّره الطاهر بالخِتان، وأنّى يُطَهَّر صبيُّ قومٍ، هم ماء السَّما، وأنّى يُشَرَّف بالتطهير طفلُ أُناسٍ يَشرف بهم من إليهم قد انتَمى. قد شَهِد لهم الفضل بأنهم مُطَهَّرون منذ الولاد، مُنَزَّهون عن الأرجاس، فائقون سائر العِباد. فعَسى أبوه وأُمُّه أن يَطْهر أولاده، وأن يَبقَيا مدى الدهر من المكارم على الزيادة.

وقد عَمِلَ له هذا الشهم البَهلول[1]، عُرساً يَخرُس اللِّسان عن وصفه، ويعجز البَيان عن بيانه في صِنفه، أسال فيه جداول النُّضار على الشعراء وأهل الطَرَب، ونَثَر فيه كل دينار على أهل الخلاعة وأرباب اللَّعِب. وقد زَفَّه يوم الخِتان بوجوه أمرائه، وأعيان عساكره، ورؤساء كُبَرائه، وأجلاّء أكابره، وقد ألبسهم للزينةِ العُدَد الفاخِرة، وكَساهم البُرَد الفارِهة، وأركبهم النُّجُب المُسَوَّمة، والخيول المُلأمة. وأحدَق بهم رجاله اليَنْكَجرية شاكِي السلاح، فطافوا به بغداد، وساروا به مَثْنى مَثْنى وآحاد آحاد. وقد خَتَن

---

[1] البهلول: العزيز الجامع لكل خير.

معه من أطفال أهل بغداد من لا يُطيقُ يَضبُطُهم رَقْـمُ حاسِـب، <١٦٨أ> ولا يُحصيهم قلم كاتب، مع كِسْوةٍ تامةٍ لجميعهم، ونُقودٍ لأُجـرةِ الجَّراحـة لصغيرهم وكبيرهم، وقد أرَّخ الوالد- حفظـه الله- خِتانـه بقولـه [مـن البسيط]:

بشـائرُ السَّعدِ تُنبينـا بـه زَمنـاً　　واليوم أبدَت لنـا أسـرارها عَلَنـا

وأنجزَت لا بمَطلٍ بـالذي وَعَـدت　　فاستَوْجَبَت كلَّ حَمدٍ إثـر ذا وثَنـا

والكونُ من نَشوةِ الأفراح ذو طَـرَبٍ　　عمَّت مَسَـرَّته الأقطـارَ والمُدُنـا

لله درُّ خِتـانٍ جَـلَّ مَوْقعـه　　أبدى بِشُـهرته للمصطفـى سُـننا

ورائد الخيرِ نادى: ابْشِـروا فلقـد　　أضحى حسين بهذا العصر مُختَتِنـا

وشُيِّد المَجـدُ والإقبـال فابتَـهِجوا　　وجالب الأمن من دار السـلام دَنـا

وقائد الشر ولّى فـامرحوا فرحـاً　　فها حسين بذا التـاريخ قـد خُتِنـا

وفي هذه السنة أيضاً، شُفِع هذا البدر الأنور، بمولد شقيقه الأصغـر، أبي المَكارِمِ علي بيك، فبدا للوجود قَمَرَ تم، لا يزال ساطع النور، ونَجـم سَعدٍ لا يبرح مُحالِفاً السرور، قد عَلَقَ العُلا في ذيول أقماطـه الفـاخرة، ونشأ السَّماح بِحُجور تمائمه الطاهرة. نجم أُفُـق الـهُدى، وقَمَـر غسـق الأحزان على طول المدى.

وقد عم بغداد بمَولده الهَنا، وزال عنها بقدومه العَنا، فقد غـدا هـو وأخوه كالسِّمطين في جيد العُلا، بل كالقُرطَين والشَّفَّين لعـروس أفـراح المَلا، بل كموضع العَيْنين للإنسان، بل كالقَبَسين من نورين لجـلاء ظُلَـم الزمان، بل كالفَرقَدَين تلابَسا وتشاكَلا، بل كالنَّيِّرين تجانَسا وتماثلا. وقـد

أرخ ميلاده الوالد– حفظه [الله]– بعشرة أبيات، كل ثاني شــطر تــاريخ، فقال <١٦٨ب>[1] [من الطويل]:

لكَ الخيرُ يا من خُصَّ بالجُودِ والــبِرِّ تَهَنَّ بمولود حــوى سَــرْمد النَّجْــرِ
عنادِل دَوْحِ السَّــعدِ يَســجعن بالــهَنا ووُرقُ المُنى يَصدَحْنَ دَوماً بلا نُكــرِ
لك الحَسَب العالي على النَّجمِ شــامخٌ به المجد يسمو قارِناً طَيِّــبَ النَّشــرِ
بنِسبتِه للفــذِّ نِلــتَ كَرامــةً وكنتَ على أوجِ السَّــماكين والنَّسْــرِ
فبُشــرى بــه يــا ذا المفــاخرِ أنــه حوى سؤدداً ينمو مدى مُنتهى العصرِ
ومَنْ عَدُوُّ الديــنِ والأنــفِ راغــمٌ بميلاده جُهدٌ بمــا حــلَّ مــن فخــرِ
وتاهت علــى الأيــام ليلــةُ وضعــه وباهَتْ به الزوراء مجداً على مِصــرِ
ولا غَرْوَ أن دام السرور على الــورى ففي طالِع الإسعاد وفَيَّ على البِشــرِ
ولا زالَ مَرُّ العصرِ يخدمــه المُنــى ويقدِمــه الإقبــال تهنِيَــة الدهــرِ
فخُذ ثاني الأشــطارِ تَلــفَ مؤرخــاً عليّــاً علــى ميــلاده بَــهْرَة البَــدرِ

وقال الفقير مؤرخاً أيضا[2] [من الكامل]:

بشراكَ يا مِفضالُ يــا ذا الرِّفعــةِ يا شهمُ يا مِعطــاء يــا ذا الهمِــة
يا من سمى أقرانَــه فغــدا علــى دَستِ الإمــارة ضيغمــاً ذا البِــدَّةِ
أفرَدْتَ بــالنصرِ العميــم وربمــا خُصَّ المؤيد وهو عَيْــنُ النُّصــرة
ومُنِحتَ مِــن ربِّ العبــاد بمنحــه مقبولةً أكــرِم بــها مِــن مِنْحــةِ
بمجــيء مولــود بــه زال العَنــا عنّــا ففيــه عصرنــا بِمَسَــرَّةِ

---

[1] ديوان عبد الله السويدي الورقة ١٧.

[2] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٣٨.

قَد جاء فـــي أحــدٍ ليـؤذِن أنــه أحــدٌ بكـلّ فضيلــةٍ ومديحـــةِ
تاهَتَ به بغـــداد إذ صــارت بــه جَنَّــات عَــدْنٍ بالمَكــارم حُفَّــت
أمِنَــت بمولــده نِكالــةَ غـــادرٍ قــذر العقيــدة نَحْسـها ذي نَكبــة
لا غَرْوَ في ذا إذ إلى الملك انتمــى تاج الملوك فيا لــــها مــن نِسْــبة
يا شهرَ مَولِــــده حَوَيْــتَ فضيلــةً كل الشهور لمــــا حويَــتَ تَمنَّــت

<١٦٩أ>

وجمعتَ في ذا الشان عِزّاً مُفَــرداً بُشراك في التاريخ (يا ذا الحِجةِ)[١]

١١٥٥هـ

فصــل

وقَد أنشده مُسترفِداً السيد سَعْدي المَوْصِلي[٢] حين وُفوده عليه، قوله [من الكامل]:

شمسُ المعالي في سَــما الــزوراءِ بَزَغت فَـــزال ظَلامُــها بضيــاءِ
وتنــوَّرت أُفــق العــراق بــأحمدٍ بــدر الكَمــال وسـيِّد الـــوزراء

---

(١) مجموع أقيام الحروف: ١١٥٥هـ .

(٢) هو سعدي بن أحمد بن الشيخ مصطفى البصير الموصلي، ترجم له ياسين العمــري (غاية المرام ص٣٨٣) وأثنى عليه، فذكر أنه أخذ علم القراءات عن أبيه، وكـــان شيخ القراء في مدينته، وله اليد الطولى في قراءة المولد الشريف، حسن الصــوت، عارفاً بالموسيقى، جيد الغناء، سافر إلى بغداد وحظي عند أهلها إلى أن حدث فيــها الطاعون سنة ١٢١٧ فقدم إلى الموصل. وذكر أن "له أشعاراً على وزن الموشــح تسميه العامة تنزيلة". وسكت عنَّ تاريخ وفاته، مما دل على أنه كان حياً سنة تأليفه كتابه.

وأرى زَمانَ الجَوْرِ أصبح مُنصفاً يتبدّل الضرّاء بالسّراء[1]

وأرى القُصور بلا قُصورٍ شُيِّدت وبها السرور مؤانِس الجُلساء

وأرى حِمى الزوراء مَحمياً وقد أمِنَتْ من الآفات والأعداء

وأرى طيور السّعد تُنشِد فرحة وكذا الذُّواء يكون بعدَ الداء

فتَباشَرَت أحزابه في فتحهِ وتَفاخَرَت فقراؤها بجَزاء

نَصَب القَضا جرماً برفع مفاسد عنا فجابرُ كسرنا بعطاء

السيد السنَد الذي ذُلّت له في عِزّها الأبطال في الهيجاء

فيمينه يُمنٌ لِمَن خاف الرَّدى ويَساره يُسرُ بغيرِ مِراء

من مثله وهو الفريد بقصره ذو هِمَّةٍ ونَجابةٍ عليَاء

إن حلَّ مَجْدَبَة تَخَصَّبَ عَيْشُها فالكَفُّ منه سَحابةُ اللألاء

هو عينُ أعيانِ الزَّمان وقَدْرُه عالٍ على الوزراء والأمراء

بَحْرُ النَّوالِ وكَعبةُ الآمالِ بَل لَيثُ الرِّجالِ وقُدوة الكُرَماء

قَطْرٌ هَمى بَحرٌ طَمى بَدرٌ سَما وإذا حمى ما الأسُد في الأجْماء

خَضعَت له أرْقابُ أربابِ العُلا إذ لاحَ أكملهم بعَين الرّائي

لا عيبَ فيه سِوى العَفافة والتُّقى والابتهاج بصُحبةِ العُلماء

أكرِم به يَرعى الذِّمام ولم يَخُن رَعْيُ الذِمام سجيةُ الفُضَلاء

قالوا شَديدُ البأس! قلتُ على العِدى قالوا: ويخضَعُ! قلتُ: للصُلَحاء

قَرمٌ يُجَندلُ كلَّ لَيثٍ كاسرٍ إن خاضَ عَثْيرَ غارةٍ شَعواء

بحرٌ إذا ما ماجَ يقَذِفَ جَوْهَرا عَذْبُ الوُرُودِ فما زُلال الماء

---

[1] الصحيح السراء بالضراء، لأن الباء تدخل على المتروك بالتبديل.

أمُجَنْدِلَ الأبطالِ يا بَحـــرَ النَّـــدى سَعْدي يَوْمُكَ من حِمـــى الحَدبـــاء
وافى إليكَ وقد أضرَّ بـــه السُّـــرى حتـــى أعـــارَ السُّــقْمَ للسُّــــقَماء
يحـــدو بـــه ذِكراكُـــمُ ودليلُـــــه أرَجُ النسيمِ سَرى مـــن الـــزوراء
مولايَ قد وافتْ رِكـــابي قَبـــلَ ذا وحَطَطْتُ عِند ذُراك رَحْلَ رجـــائي
وأتيـــتُ ثانيـــةً أحُـــثُّ رِكـــائبي لأفـــوزَ مِنكـــم بـــاليَدِ البيضـــــاء
يا مُنقِذاً مُهَجَ الأنام مـــن الـــرَّدى يا حـــاملاً للنصـــر خَـــيرَ لـــواء
بكَ أستجيرُ من افتِقـــاري للـــوَرى بكَ أحتمي مِـــن سَـــطوةِ البُخَـــلاء
إن لم أُلُـــذْ بجنـــابِكم فمَـــن الـــذي أرجـــوه يُنقِذُنـــي مـــن البَلْــــواء
سَبَقَت هِبـــاتُكَ للعُفـــاةِ فمـــا لـــهم دأبٌ سِوى مـــدحٍ وحُســـنِ ثنـــاء
أتقِذُ فَدَيتُك مُـــهجَتي مـــن فَقرِهـــا أنـــتَ المُؤمَّـــلُ ســـاعةَ الضَّـــرَّاء
لكَ فـــي المكـــارِمِ رُتْبَـــةٌ عَلَويـــةٌ خَفَضَتْ مَحلَّ كواكـــبِ الجَـــوزاء
وشـــجاعةٌ وبراعـــةٌ وفَصاحـــــةٌ وصَباحـــةٌ تَبـــدو بغـــير خَفـــاء
أنتَ الفريدُ علـــى الزمـــانِ بِهِمَّـــةٍ شَـــهِدَتْ بذلـــك ألْسُـــنُ الأعـــداء
ها قد أتيتُكَ ســـيِّدي يـــا مـــن رآ هُ الحاســـدون بِمُقلـــةٍ عَميـــاء
أرجو نَداكَ وأنـــتَ بَحـــرٌ طـــافحٌ يـــا بحـــرَ تَـــمٍ حُـــفَّ بـــالآلاء
لا زِلـــتَ مُمتَـــدحَ الأنـــامِ مُوفَّقـــاً بِمحمـــدٍ وبصحبِـــــه النُّجَبـــاء
من كان أحمدُ في الأنـــامِ مُعينَـــه لا شـــكَّ ذلـــك أســـعدُ السُّـــعداء

فصـــــل

[أعمال نادر شاه ومطالبه]

وفي السنة السادسة والخمسين بعد المائة <١٧٠٠أ> والألف[1]، فَـرَغ النادرشاه الخبيث من قتال اللُّزك[2]، حيثُ قاتَلَهم أربَعَ سنين ولـم يحصـل على طائِل، ولم تُجْدِ معهم كَثْرة الجُحافل، ولم يُطِعه منهم أحد، فَعَجَز عـن قِتالهم، وتَرَكَهم بحالهم.

وفي مدة إقامته هذه لم تنقطع سفراؤه ورُسُله عن الدولة العثمانيـــة. فتارةً يَطلِب منهم من حَدِّ الرُّها إلى ما وراء عَبَّادان، وإن هذه مِلكه إرْثـــاً وقانوناً وشَرْعاً وعُرفاً، قائلا: إنها قد ضَبَطها تَيمور[3]، وأنا وارثه! وتـارةً يطلب منهم التَّصديق بأن هذا المذهب الذي نَتَعبَّدُ عليه هو مَذْهَب جعفـــر الصَّادِق، وأنه حَقٌّ، وتَقُولون مذاهب الإسلام خمسة لا أربعة. وتارةً يَطلب منهم أن يكون له رُكنٌ خامِسٌ في الكعبة تُصلِّي فيه الشيعة. وتارةً يَطلـب منهم أن يكون هو الذي يُباشِر طريقَ الحَج الذي سَنَّته زُبَيْـدَة[4]، فيُصلِـح البِرَك والآبار وغير ذلك. وتارةً يَطلُب أن يكون أمير الحاج إذا ذَهَب مـن

---

[1] أولها ٢٥ شباط سنة ١٧٤٣م.

[2] تقدم التعريف بهم.

[3] استولى تيمور، المعروف بتيمور لنك، في أواخر القرن الثامن للهجرة، على شمال إيران وعلى أرمينية ثم على بغداد وبلاد الجزيرة وديار بكر ومنطقة وان، ثم على بلاد الأناضول جميعاً، وتوفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م.

[4] هي السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد، وكان المؤلف قد أشار فيما تقدم من كتابه إلى قيام والي بغداد حسن باشا بتعمير هذا الطريق والإنفاق عليه سنة ١١٣١هـ.

طريق العراق واحداً من طَرَفِه يحُجُّ بالناس ويَرجِع. وتارةً يَرجِــــع عــن بعضٍ ويَطلب بعضاً.

ولم يَزَل- لعَنَه الله- هذا دأبُه ودَيْدَنه وشـــأنه، وهــو يَســعى فــي الأرض فَساداً، قد خَرَّب الهند وسخَّرَ ممالكها إلى أن وَصَل إلـــى جِـهان آباد، كُرسي مملكةَ الهِند[1]، فضَبَطَها بعد قِتالٍ كثير. ثم أنه صالَح سـلطانها شاه محمد[2]، وأخَذَ من الهند أموالاً كثيرة لا تُعَد ولا تُحصى، ورتَّبَ علـى شاه محمد كل عام أن يُرسِل له خزينةً من الأمـوال، مَعلومــة الأجنــاس والعَدَد[3] <١٧٠ب>

وارتَحَل عنها، وتَوجه نحو التُّرْكُستان، واستَولى على بلْخٍ وبُخـارى، فأطاعه جميع الأفغان في تُركُستان، وأهل إيــران. وتَزَعــم العَجَــم: أن الهنود- حتى شاههم شاه محمد- بايَعوه، وأن الشاه محمـــد وكيــلٌ عنــه، ولأجل ذلك لَقَّبَ نَفْسَه بشاهينشاه، وأمر- لعنه الله- أن لا يُسَمّى إلاّ بـــهذا الاسم، وأوعَدَ من يُطلِق عليه غيره.

---

[1] الصحيح أن كرسي المملكة كان دلهي، ولم يكن (جهان آباد) غـير اسـم القصـر الخاص بمحمد شاه.

[2] هو محمد ناصر الدين روشن لختر، آخر الأباطرة المغول المستقلين فـي الـهند، تولى العرش سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ، وفقد استقلال بلاده اثر غزو نادرشاه سـنة ١١٥٢هـ، ولكنه لبث متمتعاً بمظاهر الحكم حتـى سـنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٥١، ص٤٤٢.

[3] أفاض المؤرخون في وصف المجزرة البشرية الهائلة التي ارتكبها نادرشـاه فـي السكان المدنيين في دلهي، بعد أنْ كان محمد شاه قد أعلن خضوعه الكـامل لـه. ينظر مثلاً ما كتبه لوكهارت: Lockhart, Nadir Shah.

ثم تَوَجَّه إلى داغِستان، ففعَل مع اللَّزْك ما فَعَل[1].

[حصار نادرشاه لمدن العراق]

ثم قَصَد الروم، لكنه- قبَّحه الله- يُظهِر لوالينا الصَّداقة والصُّحبـــة، والألْفَة والمَحبَّة، فأرسَل إليه بأني قد قَصَدتُ الروم، وكان القَصد بغــــداد، ولكن لِكونِك فيها لم أكدِّر خاطرك، ولم أقدَم عليها، ولكنـــي ذاهِــبٌ إلـــى تسخير مَمالك الروم. وهذه ملْعَنةٌ منه- لعنه الله- يَعلَم أن جلوســـه علـــى بغداد لا يُجْدِيه نَفْعاً مادامَ فيها هذا الحـــارِس، وأن المُداهَنـــة خـــيرٌ مـــن المُضاغَنَة.

ثم أرسَل إلى الدُّستور المذكور يَستَمْنِحه جميع مزارع بغداد، فأجابـه الوزير إلى ذلك بِحُكم "إذا كُنتَ مأكول الطَّعامِ فَرَحِّبْ". فأرسل- لعنـه الله- إلى تَحْصيل ما ذُكِر نحوَ سبعين ألفاً. لكنه منه- قبَّحَه الله- دَهـــاء، ومـــا قَصْده إلاّ حِصار بغداد، لكنه ليسَ كما نَعْهد، بل مَنعاً لوالِينا- رحمــه الله- من الخروج، إذ ربَّما يَخرَج إعانةٌ للمَوصل ونحوها. فأرسَلَ هذه الفِئـــات وأحدَقوا ببغداد من جميع الجِهات، لكنهم عن بغداد مِقدار فَرْسَـــخ. وأمـــا الوزير وأهل بغداد، فقد تأهَّبوا للحِصار، واحتاطوا له، فـــنزَلوا بأجمعـــهم الأسوار.

وارتحلنا معاشِر أهل [الـــ]جانِب الغَرْبي إلـــى الجـــانب الشـــرقي، وأخلَيْنا البيوت والعِمران والمَساكِن والأوطان، وتأهَّبنا للحِصار، وبَقِينا فـــي

---

[1] لم تؤد أعمال نادرشاه في داغستان إلاّ إلى هزيمته، وهو ما أثر في سمعته القتاليـــة إلى حد بعيد.

هذه <١٧١أ> المُدَّة نُعاني كُرَب الفِراق، ونُقاسي شدائد المَشـاق، ونَتَعـهَّد الدُّور في النهار، ونَحِنُّ إلى الأيام الماضية حنين الثَّكْلَى بـإجراء الدَّمـع، ونَئِنّ على الأوطان الخالية أنين الحُبْلَى وقتَ الوضع.

وقد انتبهتُ سَحَر بعض الليال، فاشتَقْتُ إلى الكَرْخ وصـلاة الفَجْـر بين هاتيك الأطلال، فجرى دمعي تَوأماً، وكاد أن يكون دَماً، فأنشَدتُ بَديهاً قَولي[1] [من البسيط]:

عَرِّجْ على الكَرْخِ وانزل في مَغانيـهِ واسألْهُ: كيفَ خَلَتْ مِنـه غَوانيـهِ؟

عَهْدي به وهـو مَعمـورٌ بِسـادتِه وجُمْلة الصَّحْبِ كانوا فـي نَواديـه

عَهْدي به وهو مَحفوفٌ بكـلِّ هَنـا والشَّمل مُجتَمِـعٌ والسَّعدُ ثاويـه

والنُّور والنَّور في أرجائِـه سَطَعا والوَرْد والآس تاهـا فـي نَواحيـه

وللصَّبا أرَجٌ تُحيـي النفـوس بـه مما على الأرض عِطْرٌ كـامِنٌ فيـه

والطَّيْرُ فوقَ أصول البان في طَـرب والغُصنُ بالخُود يُزْري فـي تَثَنِّيـه

فما لَـه ذَهَبَـتْ أصحابـه وعَفَـتْ آثـاره وهَـوتْ منـه أعاليـه

لَهْفي على الجانِب الغربـي أجمعِـه فجـانب الشـرقِ طيبـاً لا يُدانيـه

بـالله قِـفْ بَدَلـي فيـه كَسـاريةٍ ولم تَزَل من صَدى التَّفْريق تَرويـه

وقِف وُقوفي به يوم الرَّحيلِ ضُحـىً حيثُ العَقيقُ على الخَدَّيـن أُجريـه

وقد كنتُ أُريد الهَرَب، مع بعـض تَلامِذَتـي إلـى حَلَـب، لشِـدَّة اضطراب أهل بغداد، وعموم الأكدار فيهم والأنكاد، حيث حقَّقوا أنَّـه إن جاءَ لحِصارها يأخذَها عَنْوَة، ولا يدع فيها وَهْدَة ولا رَبوَة، لكثرة أطوابـه

[1] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٣٤-٣٥.

وقَنابِره، ووُفور جنوده وعساكره. لكن الغِيرة على الأهل والأخوة والأخَوات <١٧١ب> قَيَّدَتْني بأداهِم، وأوثَقَتني بِقَيدٍ مُحكم لازِم. وفكَّرتُ أن قَتْلي في الازدِحام، أولى من حَياتي وأهلي وأقاربي في أيدِي الأعجام. وصمَّمتُ على هذه النِّية، ووطَّنتُ النفس على هذه المُصيبة والرَّزِيَّة. ولشدَّة الحَصْر والإشتياق، شَطَّرتُ وعَجَّزتُ أبياتاً رأيتها مكتوبةً على ظَهر ثَمَرات الأوراق[1] [من البسيط]:

بجانب الكرخ من بغداد عنَّ لنا ... مُهَفْهَفٌ أبْلَجٌ قد زانَهُ خَفَر

بَدر المُحَيَّا بِه يحيا مُواصِلُه ... ضَبْيٌ تُنفِّره عن وَصلِنا نَفَر

ضَفيرتاه على قَتلي تَضافَرتا ... وكم بعيني من أجفانه سَهَر

وقد تَهوَّلتُ من ظَفْرِ الضفائرِ بي ... يا مَن رأى شاعراً أودى به الشَّعر

وقد جلَستُ في هذه المُدَّة في حُجرة إمام جامع العاقُولية[2]، مع أخي الأوسط الشيخ محمد سعيد، فأخَذْنا بأطراف الحديث، وجَرى بيننا قولُ بعضهم في ذَمِّ الدَّهرِ شِعراً [من مجزوء الرجز]:

---

[1] كتاب من تأليف تقي الدين أبي بكر ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م.

[2] جامع ينسب إلى دفينه الشيخ جمال الدين عبد الله بن محمد بن علي العاقولي، مدرس المدرسة المستنصرية ببغداد، المتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وكان الجامع في أصله داراً له فوقفه على عشرة صبيان يقرأون القرآن، فتحولت الدار، مع مرور الزمن إلى مسجد جامع، وممن قام بتعميره سليمان باشا كتخدا أحمد باشا في مفتتح ولايته سنة ١١٦٣هـ/١٧٤٩م . وما زال الجامع عامراً حتى اليوم، وتنسب إليه محلة العاقولية التي حوله، وكانت تعرف في عهد الواقف المنكور بدرب الخبازين. ينظر محمود شكري الألوسي: مساجد بغداد وآثارها ص٤٦-٤٨.

تَبَّتْ يَداكَ مِثلما   تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبِ

فأرَدنا أن نُضَمِّنَه من كلِّ شَطرٍ، فقال الفقير[1] [من مجزوء الرجز]:

وذاتَ طَرْفٍ ناعِسٍ   فقال أخي   يَرمي بنَبلٍ من لَهَبْ   فقلت

كأنه سيفٌ إذا   فقال   ما سَلَّ أراك العَطَب[2]   فقلت

من ذاتِ ثَغْرٍ باسمٍ   فقال   قد زانَه ذاك الشَّنَب   فقلت

ويْلي فكم أغرَتْ بنا   فقال   وكم رَمَتْنا من عَطَب   فقلت

وكم لهجرٍ أظهَرَت   فقال   فكم لها فيه أرَب   فقلت

يا ويحَ دَهْرٍ كم له   فقال   من حَدَثانٍ ونُوَب   فقلت

كنا بعيشٍ راغدٍ   فقال   فهل لتفريقٍ سَبَب   فقلت

آه لأيام مَضَت   فقال   في الكرخ في تلك الصُّحَبْ   فقلت

<أ١٧٢>

وكم قضينا مأرباً   فقال   وكم نفينا من كُرَب   فقلت

تَبّاً لدهرٍ خاننا   فقال   قد نالنا منه التَّعَب   فقلت

كأنه في غفلةٍ   فقال   مُذ نحنُ كنا في طَرَب   فقلت

يا دهرُ يكفيك الذي   فقال   أرَيْتَنا منه العَجَب   فقلت

تَبَّتْ يَداكَ مثلما   تَبَّت يدا أبي لَهَب

---

(١) ديوان عبد الرحمن السويدي ص١٨٢.

(٢) في ديوانه (العجب).

ثم أن أولئك الأعجام سَخّروا جميع قُرَى بغداد، وأطاعـــهم جميـــع الأعراب أهل الفَساد. وقد أرسل الخبيث إلى البصرة نحو تسعين ألفـــاً[1]، فحاصَروها، مع إضرام نار الحرب بين البَيْن، واشتعال الأطواب والقَنـــابر من الجانِبَين[2].

وأما الخبيث فقد تَوَجَّه ببقية عسكره إلى شَهْرَزُور، فأطاعه أهلـــها، وكذلك أطاعه عشائر الأكراد. ثم تَوَجّه إلى قلعـــة كركـــوك، فحاصَرَهـــا ثمانية أيام، ضَرَب عليها في هذه المُدَّة عشرين ألف طَوْب، ومثلها قنـــابر، فماتَ فيها خَلْقٌ كثير، وخُرِّبَت أكثر البُنْيان، ولم يكن لأهلها بُدٌّ من التَسليم، فسلَّمُوا وأطاعوا، ولكنهم نَدِموا على ما فعلوا، حيث آذاهم أذيَّة عظيمـــــة،

---

(1) هذا الرقم لا يخلو من مبالغة، لان معظم المصادر الإيرانية تهمل الإشارة إلـــى حملـــة البصرة عند تفصيلها بشأن حملات نادرشاه الأخرى، مما يدل على عدم مكافأة هـــذه الحملة من حيث الاهمية والحجم لتلك الحملات. كما ان السائح اوتر Otter الذي مـــر بالبصرة آنذاك، قدم لنا تقديراً اقل، حيث نص على ان القوات المهاجمة كـــانت تبلـــغ نحو ٣٠,٠٠٠ جندي.
Voyage en Turquie et en Perse, Paris 1743, Tome II, P. 330.
في حين تذهب يوميات معاصرة، كتبت في أثناء الحصار، إلى ان عدد تلك القـــوات كان يتراوح بين ١٢٠٠٠ و١٥٠٠٠ جندي. Lokhart, Nadir Shah. P. 236
ويظهر ان سبب الاختلاف في تقدير عدد القوات المذكورة متأت مـــن عـــدم تميـــيز المعاصرين بين القوات النظامية فيها، والقوات القبلية التابعة لها، او الموالية، اذ يبـــدو ان معظم تلك القوات كان يغلب عليه الطابع القبلي. وكان قائدها العام (السردار) مـــن قوات نادرشاه البارزين، هو قوجه خان شيغانلو من عشيرة جمشكزك الكردية، وكـــان نادرشاه يعتمد على هذه العشيرة في عملياته العسكرية.

(2) تفاصيل هذا الحصار في بحثنا: صمود البصرة في أثناء حصار نادرشاه ســنة ١٧٤٣، مجلة الأستاذ، تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد، العدد١، ١٩٧٨.

وأسَر منهم نساءً عميمة. وقَبَض على علمائها، وأخذ منهم دراهم كثيرة، حتى باعوا دورهم وأثاثهم وجميع ما عندهم، ووَفُّوا ما أراد منهم، إلاّ أن ابن المُفتي، وبعض أهل كركوك، لم يَفُوا بما طَلَب، لكثرة ما أراد منهم، فأسَرَهم وجاء بهم إلى بغداد. وبذِهاب الوالد إليه -كما يأتي- تَشَفَّع لهم، وجاء بهم إلى البلد.

ثم أن الوالد- حفظه الله- حين سَمِع بِفِعْل هذا الخبيث <١٧٢ب> مع أهل كركوك اضطرب كثيراً، وقال: أخشى أن يأخذ بغداد، ويفْعَل بنا معاشِر العلماء ما فعل بأولئك الفُضَلاء الصُلَحاء، من الضَرْب بالسِّياط والحَبْس المُؤبَّد. ولم يَزَل إذا تذكَّر هذا، يقول: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، على الله تَوَكَّلنا.

ثم تَوَجَّه إلى إربِل، فسَلَّم أهلُها وأطاعوا (وفعل بهم ما فعل بأهل كركوك)[1].

ثم توجه إلى الموصل، وكان معه من العسكر نحو مائتي ألف مُقاتِل. ونَصَبَ على دِجْلَة جِسْرَين، وعَبَّر عسكره وحاصر الموصل نحو أربعين يوماً، لكن في ظَرْفِ سبعة أيام رَمَى عليهم نحو الأربعين ألف طَوْب، ومِثْلها قَنابِر؛ فثَبَتوا وأسلموا الأمور لِمُدَبِّرها، وهو الله تعالى. ثم حَفَرَ لُغُوماً، وملأها بارُوداً ورَصاصاً، وأشعلها بالنار، فكانت وَبالاً عليه. وأغار على السور بالسلالم، فرَدَعه من الارتقاء الضياغِم، وقُتِل منه كل

[1] ما بين قوسين من هامش الأصل.

مُقاوِم[1]. فلما عَلِم أنه لم يَحْصَل من الموصل على طائل، ارتَحل عنـــها، وتوجَّه بِعسكره إلى بغداد.

ثم أن الفقير أرسل إلى أهل المَوصـــل كِتابــاً، وقَصيــدةً، يَهنئـــهم بالسَّلامة. أما الكتاب فلم تبقَ بالبالِ ألفاظه ومعانيه، إلاّ أنه كهذه الألفـــاظ

---

(1) تقدمت جيوش نادرشاه على ثلاثة محاور لاحتلال مدن الموصل وبغداد والبصـــرة، وكان هو على رأس القسم الأعظم من جيشه الذي استهدف الموصل، وقد ضـــرب الحصار في منتصف تموز من تلك السنة، وبدأت مدفعيته بقصف الموصل فـــي ٦ شعبان ١١٥٦هـــ ٢٥ أيلول ١٧٤٣م، واستمر القصف من كل الجـــهات ٨ أيـــام كاملة، ألقي خلالها- بحسب الروايات المحلية- ما بيـــن ٤٠ و٥٠ ألـــف اطلاقـــة مدفع، وبعد أن فشل نادرشاه في حمل أهل الموصل على الاستسلام، نقل مدفعيتـــه إلى شمال المدينة لضرب مقر القيادة الموصلية، التي كان يتولاها الوالي الشـــجاع الحاج حسين باشا الجليلي، وبعد قصف مدفعي عنيف فشل الجيش المـــهاجم فـــي اقتحام المقر، كما فشلت محاولات لنسف السور بواسطة البارود، ومحاولة لمنـــع سكان المدينة من الشرب بتحويل إحدى شعبتي نهر دجلة، وتمثلت الصفحة الثالثـــة من الحصار بما عرف بمعركة السلالم، إذ هجم الجنود الإيرانيون، وهم يحملـــون نحو ألف سلم، على أسوار المدينة، لاقتحامها، ولكن نتائج المعركة جـــاءت وبـــالاً عليهم، واضطر نادرشاه، بعد مفاوضات قصيرة لـــم تســـفر عـــن شـــيء، إلـــى الانسحاب. وأخبار هذا الحصار مستفيضة في المصادر التاريخية، منـــها التقريـــر الرسمي العثماني، والوثائق العثمانية، والتواريخ الرسمية العثمانيـــة، والمصـــادر المحلية، وأراجيز الشعراء، والمصادر الأوربية، وتقلل المصادر الإيرانية من حجم فشل نادرشاه. وقد جمع سعيد الديوه جي ما ورد في المصادر المحلية، والتقريـــر الرسمي، في ملاحق كتاب (منية الأدباء)، الموصل ١٩٥٥، ص٢٢٣-٢٩١ وألـــف أولسون دراسة مستقلة عن هذا الحصار، ودوافعه، ونتائجه، في كتابـــه Olson, The Siege of Mousul and Ottoman Persian Relations 1718-1743, 1975. وثمة بحوث منشورة في مجلات عديدة لا مجال لذكرها هنا.

والمَعاني: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ الله عليكُم، إذ جاءتْكُم جُنُــودٌ، فأرسَلْنا عليهم رِيحاً وجُنُوداً لم تَرَوْها، وكان الله بما تَعمَلــون بصـيراً، إذ جاؤوكم من فَوقِكُم ومن أسفلَ مِنكُم، وإذ زاغَت الأبصارُ، وبلَغَتْ القُلــوب الحناجِر، وتَظُنُّون بالله الظُّنونا، هُنالك ابْتُلِيَ المؤمِنون، وزُلْزِلُــوا زِلْــزالاً شَديداً﴾[1].

أما بعدُ، فإن أحَقَّ الرَّعايا بأن تُفاضَ عليه ملابِس الإنعام، وتُضــاف <١٧٣أ> إليه نَفائس الإحسان والإكرام، ويُمَيَّز من بين أمثالــهم بالإدنــاء والإزلاف، ويُخَصُّوا بين اشكالهم بالارعاء والاكناف، ويُؤثَــروا لِجَميــل الأثَرَة والإقتفاء، ويُشهروا بِجَليل الحَبْوَة والاصطفاء، ويُقبَض عنهم أيــدي النُّوائب والنَوازِل، ويُرفَع إلى أجلِّ المَراتِب والمنازِل، رَعيَّةٌ حَسُــنت فــي الإخلاص أسرارهم وسَـــرائرهم، وسَـلِمت مــن الانتقــاص أبصــارهم وبصائرهم، وأُحْمِدَتْ في المُشايَعة والوَلاء عُقُودهم وعقــائدهم، وشَــهِدت بالثِّقَة والوفاء عُهودُهم ومَعاهِدُهم، وثَبَتَت على مواقِــف الحَــقِّ أقدامــهم، وأنبأ عن صحائف الصِّدقِ إقدامُهم، مِثْلُكم يا أهل المَوْصِـــل، سـلَّمَكم الله تعالى، فإنكم صَفَوتُم حينَ المَوارِد تَكَدَّرَتْ، واشتَدَدتُم حينَ المَعاقِد تَفَــتَّرَت، وأخلَصتُم في اعتقادكم حين القُلوب تَغَيَّرَت، وحَرَصتم علـــى الجـهاد إذا الخُطوب تَوَعَّرت، واستَمْسَكتُم- فيما أصابكم- بعُرى الاصطِبار، وســلَكتُم فيما نابَكم سُبُل المُهاجِرين والأنصار، وصُنتُم حَرَمَكُــم بــأيْدٍ مُتَنــاصرة، وَرَبَطتُم نِعَمَكُم بقلوب مُتَظافرة، وعَرَفتم ما في التَّسليم من العار، فَعَدَلْتُـــم

---

[1] الأحزاب، الآيات ٩-١١.

عن طَرُقه، وتحقّقتُم ما في الثَبات مــن الفَخــار، فتَســابَقتُم إلــى لَحَقِــه، وتَناصرَتُم على المحاماة عن دِياركم مرّةً بعــد مــرّة، وتوازرتــم علــى المُناضلَة بنفوس مُرَّة، وعلِمتم أن الباغي حيثُما قَصَد مَخْذولٌ، وإن اتَّفَقَــت له جَوْلَة، والمَبْغي عليه أينما أمَّ وألَمَّ منصورٌ، وإن لم تظهر منه صَولَــــة، وأنِفتُم لأنفسكم في القِتال من قَلَق مُستغيث الصَّارِخ، وأرفَعتم عند الــنِّزال كالجِّبال الرَّواسِخ، وكَسَبتم- بما أبديتموه مــن الشــجاعة- ثَــوابَ أهــل الطاعة، وكَسَبتم من الصَّرامةِ مَلابِس <١٧٣ب> السَّلامة، ونَشَــرتُم مــن حميد أخباركم ما يُخلِّدُ جَماله في الأعقاب، وشَهَرتم من سَديد آثــاركم مــا يَرُدُّ أقوالَ الحُساد على الأعقاب، حتى أصبحتم بِنِعْمَتِه إخواناً ، ولأوليــاء الدَّولةِ المَنصورة أنصاراً وأعواناً، ﴿وَرَدَّ الله الذين كَفَروا بِغَيْظِهم لم ينــالوا خَيْراً وكَفَى الله المُؤمِنِينَ القِتال، وكان الله قَوِيّاً عَزيزاً﴾[1] فجزاكم الله عــن رَضيِّ أعمالكم جزاء المحسنين، وأثــابَكم عــن جميــل أفعــالكم ثَــوابَ الصابِرين، ورضيَّ عن مساعيكم الحميدة في الطاعة، ومَناحيكم الرَّشــيدة من بين الجَماعة، ووفَّقكم لشُكر ما أنعمَ به عليكم حتى اكتَسِيتُم من احمــاد أمير المؤمنين ما استَقَلَلْتُم معه كل كثير، واجتَلَبتم من رِضاه ما استَصغَرتم من اعتداده بكم كل كبير، ما يَحلُ عاجلاً، وفي أفواهِكم ثَمَرتــه، ويلــوح على صفحات أحوالكم قريباً بِمِنِّه وبَرَكَته، ويَجبُر ما كَسَرته أيْدي أشــياع الباطل من أحوالِكم، ويُبَلغكم نهايةَ ما تسمو إليهِ نَواصي آمالِكم، وكأنِّي بــه وقد تصوَّر بِحَضرته ما دَهَمَكم من المِحنة التي هَدَمت بِنــاكم، وفَصَمَــت

---

[1] الأحزاب، الآية ٢٥.

عُراكم، وأضعفَت قُواكم، وعَظَّمَت بَلْواكم، وحلَّت حِماكم. وكأني به عَلِمَ عِلماً يقيناً لا يتعَرَّض الرَّيْب ليَقِينِه، ولا يُفْرَض النَّقص على براهينه، ما جَرى عليكم من مُنازِعي الحَق وأعداء الدولة، ومُنابذيه ومُخالِفي المِلَّة، حينَ تحالَفوا على مُنازَلَتكم، وتوافقوا على مُقاتَلَتكم، وما استحلُّوه من تخريب الضِّياع والعقار، وقطْع الأشجار وقَلْع الثِّمار، وإخلاء الضُّعَفاء من مساكنهم <١٧٤أ> ومنازلهم وأماكنهم، فحاقَ الله بِهم حتى تَكَدَّرتْ حَواسُّهم، وضاقَت عليهم نفوسهم وأنفاسهم، ودَفَعَكم في نُحورهم حتى انقلبوا صاغِرين، وهَرَبوا حائرين، وطاروا شَعاعاً حَصائد السيوف، وحارُوا وزاعاً طرائد الحُتُوف، وولَّوا مُوَلِّين على الأذناب، ورَضُوا من الغنيمة بالإياب، ﴿فأذاقهم الله الخِزْيَ في الحيوة الدُّنْيا، ولَعَذاب الآخِرة أكبَر لَوْ كانوا يَعْلَمون﴾[1] فيجب علَيكم أن تُعَظِّموا قَدْرَ هذه النعمة، فيما كَشَفَ الله عنكم من سَحائب الظُّلْمِ والظُّلْمَة، وأراحَ قلوبكم من نوائب الغَمِّ والغُمَّة، وتَداركَ جماعتكم به من الرأفة والرحمة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وأما القصيدة فهي هذه [من الكامل][2]:

بُشْراكمُ بِسعادةٍ وهَناء	يا أهل تلك المَوصِل الحَدْباء
بُشْراكُم يا أهل مَوْصِل إنكم	نِلتُم من الرحمن خَيْرَ جزاء
مَن حَيٌّ منكم في الغُزاة نَصيبُه	ونصيبُ مَنْ قد ماتَ في الشُّهَداء
جاهدتُم في الله حَقَّ جِهاده	وصَبَرتم لِحَوادث الأنواء

---

[1] الزمر، آية ٢٦.

[2] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٣٩-٤٤.

ودَفَعتُم عـن بَيْضِكـم بـل سُمْرِكم	بالبيضِ بَـل بالسُّـمرة الصُّعـداء[1]
وحَمَيتم العِرضَ المَصون عـن الأذى	حيـث الـتزمتم شيـمة الأبـاء
تـالله إنكـم فـوارس كَـهمَسٍ[2]	تـالله أنتُـم عُـدةُ الـهيْجاء
لله دَرُّكُـم ودَرُّ رئيسـكم	مَلِكٌ تولّـى قُنّـة العليـاء[3]
بَطَـلٌ إذا حَمِـيَ الوَطيـس رأيتَـه	وَرَدَ الدمـاء مكـانَ وِردِ المـاء
قَـرمٌ، إذا اغـبَرَّ السَّماءُ بمهمـه	قـد ألبَـسَ الغَـبْراء ثَـوبَ دمـاء
شـاكي السـلاح مُقَـذَّفٌ فكأنّـه	ليثُ الشرَى يَسـطو علـى الأعـداء
يـا صـاح، إن هَـزَّ القَنـا لعِداتـه	تلقـاهُمُ سَجَدوا علـى الغَـبراء

---

[1] الصعدة: القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف.

[2] هو كهمس بن طلق الصريمي، أبو حي من العرب، شبههم بأصحابه في قوتهم وشدتهم ونصرتهم.

[3] يريد والي الموصل آنذاك الحاج حسين باشا بن إسماعيل باشا الجليلي، وكان أحد أبرز القادة العسكريين الذين أنجبهم العراق ابان القرون المتأخرة، وإليه يعزى الفضل في قيادة المدينة بحكمة وشجاعة بالغتين في أثناء تلك الظروف الصعبة. ولد في الموصل سنة ١١٠٧ وقيل ١١٠٦، وفيها تعلم، وحج شاباً، وتولى الموصل أول مرة سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠، ومنحته الدولة العثمانية رتبة وزير، لما أبداه من عون في أثناء الحرب العثمانية- الإيرانية سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، ثم تولاها بعد ذلك سبع مرات، منها الخامسة في المدة ١١٥٤-١١٥٩هـ/١٧٤١-١٧٤٦م وفيها أبلى البلاء الحسن في أثناء الحصار الذي فرضه نادرشاه، على ما يذكر المؤلف، وله أعمال ومآثر إدارية وعمرانية كثيرة، وتوفي سنة ١١٧١هـ/١٧٥٧م. تنظر ترجمته في عصام الدين عثمان العمري: الروض النضر ج١ ص٥٠٥-٥٣٦، ومحمد أمين العمري: منهل الأولياء ج١ ص١٤٤-١٤٩ وياسين العمري: منية الأدباء ص٨١-١٨٥ و٢٠٧-٢٠٩، وغاية المرام ص٣٢٢-٣٢٤، وزبدة الآثار الجلية ص٨٨، ٩٣-٩٩، ١٠٢-١٠٣، ص١١٥.

<١٧٤ب>

يـا كَـمْ لـه نَظْـمٌ ونـثر فيـهمُ ... فَـهمُ إذن منـه بكُـلّ عَنـاء

لا يَرْعَوي عنـهم لِحَتْـفِ نفوسِـهم ... حتـى تفيضَ بقاعـةِ الوَعْسـاء[1]

عَرَبـيٌّ أصـل فـاتِكٍ ذو نَجـدَةٍ ... ذو شـيمةٍ محمـودةٍ وسـخاء

من كَفّه الحَتف المُبين لـدى الوغـى ... وبِكَفّـه الإحيـاءُ عنـد عَطـاء

تـالله قـد ضَـنَّ الزَّمـان بمثلـه ... إذ جـادَ بـالصفراء والبيضـاء

لا عيـبَ فيـه غـير أن نُقُـوده ... مَقبوضـةٌ بأنـامِلِ الفُقـراء

تُلقـى دنـانير الصِّـلات بكفّـه[2] ... مـن خَزنِـها فـي حُلّـةٍ صفـراء

مـا حـاتِم الطـائيُّ عنـد عَطائِـه ... إلاّ كقَطـرٍ وهـو كـلُّ المـاء

ليـثٌ لأعبـاء الـوزارةِ حـامِلٌ ... فلقد سَما قَـدْراً علـى الجَـوْزاء

قد جادَ في حِفْـظِ النِّسـاء بِجِـدِّه ... وبحفـظِ أطفـالٍ وحفـظْ إمـاء

لولاه ما (طَوْبُ) الحُدَيبـا نـافع[3] ... كـلاّ كـذاك قنـابِرُ الحَدْبـاء

إن لم يكن نارُ البَنـادِق لـم تَكُـن ... تحمي الديارَ صيالـةَ الأعـداء[4]

لولاهُ كانت في الوحوشِ قُبُورُكـم ... ونسـاؤكم يُدعَـوْنَ بالأُسـراء[5]

لولاه كادَ الديـن يُمحـى رَبعـه ... وتزول عنكـم نِسْـبَةَ الغـرّاء[6]

---

(١) القاعة: الأرض المطمئنة عما يحيط بها من الجبال والآكام والوعساء: صفة للأرض اللينة.

(٢) في النسختين: الصلاة، والصواب ما أثبتناه.

(٣) الحديبا، تصغير الحدباء، من أسماء مدينة الموصل.

(٤) الصيالة: السطو والقهر.

(٥) من هنا إلى آخر القصيدة، لم ترد في أصل الديوان، وقد أثبتناها هناك من حديقة الزوراء.

(٦) يريد: نسبة الشريعة الغراء.

لولاه ما ذِكْـــرُ الصّحابـةَ شـائعٌ   فـي حيّكـم إلاّ علــى اسـتهزاء
ألبا مراد قـد مدحتُـكَ حِسـبةً[1]   من غيرِ ما مَيْـلٍ إلـى إعطـاءِ
ألبـا مـرادِ إنْ جَـهِلْتَ حقيقتـي   فـاعلم بـأنّي شـاعِرُ الـزّوْراء
خُذْها فريدةَ عصرِها من خِدْرِهـا   بِكْرَ المعسـاني لـم تَـزلْ بِخيـاء
يا راكبَ الوَجْنـاء يمّـم مَوْصِـلاً   وانزِل بها يا راكـبَ الوَجْنـاء[2]
واقرا السلامَ على الأُلى قد جـاهَدُوا   فـي الله لا عـن سُـمعةٍ وريـاء
وقل: ابن عبد الله[3] ودّ لـو أنّـه   معكـم بتلـك الوَقْعـةِ الدَّهْمـاء
ولكم بـأحمدَ[4] أسـوةٌ محمـودةٌ   أكرِم بـها مـن أُسْـوةٍ حَسـناء
في غزوة الأحزاب غزوة خَنْـدَقٍ[5]   حيـث العـدوّ أحـاط بالأحيـاء
قَصَدَتْ أعـاديكم بلـوغ مُرادهـم   منكـم بـأن يرموكـم بِدَهـاءِ

---

[1] أبو مراد كنية الحاج حسين باشا الجليلي.

[2] الوجناء: صفة الناقة الشديدة،أو العظيمة الوجنتين.

[3] يريد نفسه.

[4] يريد والي بغداد أحمد باشا.

[5] إشارة إلى المعركة التي دارت عند أسوار الموصل في آخر صفحـات الحصـار، ففي يوم الخميس ١٦ شعبان سنة ١١٥٦هـ زحف الجيش الإيراني بنحو ألف سلم محمول فوضعوها على أسوار المدينة بهدف اقتحامـها عنـوة، إلاّ أن المدافعيـن ردوهم وأزاحوا سلالمهم، ثم انقضوا عليهم، حيث دارت عند خندق المدينة معاركة ضارية، قتل فيها من المهاجمين عدد كبير، وتزامن ذلك مع فشل خطة نادرشـاه في نسف السور بالمتفجرات، على ما سيشير إليه الشاعر، فأدت تلك المعركة إلـى أن يجنح نادرشاه إلى السلم والانسحاب إلى بلاده. وقد شبه الشاعر هذه المعركـة بوقعة الأحزاب، أو الخندق، التي فشل فيها المشركون في احتلال مدينة الرسـول (ص) في السنة الخامسة للهجرة.

رَفَعوا قنابِرَهم لِخَفْضِ نُسورِكم	لكنّها نُصيبَت على الإغراء[1]
بَقَرَوا بأرضكم اللّقومَ[2] لِضَيْرِكم	رَجَعت إليهم نارها بِرَداء[3]
أوْدَتْ بهم كَسيُوفكم إذ جُرِّدت	حين ارْمَعَلّوا نحوكم لبلاء
فَقَرَيْتُم طير الفلاة ووحشها	فعليكُمُ منها عَميمُ ثناء
أنجبتمُ يا قومُ حيثُ جَعَلْتُمُ	جَوْفَ الوحوش مقابر اللؤماء
الله أعلمُ كانَ هذا منكُمُ	قصْداً لأجل طهارةِ الصحراء
لم يتّفِق في الكَوْنِ مثل ثَباتِكم	حيث الرؤوس تُبَثُّ في البَيْداء
ولكم بِبَدْرٍ أُسْوةٌ، بُشراكمُ	عنكم أُزيلت جُملَةُ الأسواء
تبّاً لكركوكٍ وتَبّت أهلُها	جلَبوا لأنفسهم جميع إساء
إذ لم يحامُوا عن عيالٍ ساعةً	مع أنَّ حِصْنَهم لخيرُ بِناء[4]

---

[1] الإغراء هنا: التحريض على الشيء.

[2] اللّقوم: الألغام. وكان نادر شاه قد أمر بحفر أربعة أنفاق أرضية تلتقي بأسس سور الموصل بغية نسفه بكميات من البارود، هي التي يسميها الشاعر ألغاماً، إلاّ أن آبار الخنادق بددت قوة تأثير البارود، وانفجر لغمان فآذيا المهاجمين أكثر من المدافعين، وتعطل آخران فلم ينفجرا.

[3] رداء: بفتح الراء: الردى، جعلها الشاعر ممدودة.

[4] دافع أهل مدينة كركوك عن مدينتهم ما وسعهم الدفاع، إلا أن افتقدوا في دفاعهم هذا دور القائد المحنك، فكان واليها حسين باشا حمال أوغلي، ومحافظها أحمد باشا الحلبي، لا يتمتعان بما تمتع به والي الموصل الجليلي من عزيمة وقدرة على الكفاح، قال محمد أمين العمري "فلما تحققوا بأنه (نادرشاه) قد أتاهم بجنود لا قبل لهم بها، فما قدروا على الثبات، ولا أمنوا على القرار لمقابلته، فهربوا من كركوك إلى الموصل، ومنها إلى بلاد الروم، فلما وصل اللعين القلعة المذكورة حاصرها يومين، وأزعج أهلها بكثرة ضرب المدافع، وأحرقها بنار القنبرات، بحيث ما-

يا أهلَ مَوْصلَ فاخِروا مَنْ شِيئتُمُ   فلأنتم أحرى بكلِّ علاء
لا زِلْتُمُ بِسَعادةٍ أبَدِيَّةٍ   يا أهلَ تلك المَوْصِلِ الحدباء

وفي هذه الأوقات ورَدَتْ من الحافِظ البَصير المَوْصِلي[1] أرْجوزة

-بقي لأهلها خلاص، من صعوبة ما هالهم وما قابلهم به إلا التسليم وطلب الأمان، وسلموه القلعة وما يليها، فأخذها عنوة وقتل من قتل فيها، وأسر أكابرها، وضبط أموالها، وأخذ رجالهم وجعلهم جنوداً معه، وازداد غروره، وتوجه إلى الموصل" (منهل الأولياء ج١ ص١٥٠). وكان المؤلف قد أشار سابقاً إلى أن نادرشاه حاصر كركوك "ثمانية أيام، ضرب عليها في هذه المدة عشرين ألف طوب، ومثلها قنابر، فمات فيها خلق كثير، وخربت أكثر البنيان، ولم يكن لأهلها بد من التسليم..". وفي الأمر الموجه إلى أحمد باشا في أواسط صفر سنة ١١٥٧ ما يوجب عليه "تأديب بعض الطوائف العسكرية العاملة في حراسة كل من قلعة كركوك وأربيل وترتيب جزائهم، وذلك لخيانتهم للدين الحنيف والدولة العلية أثناء هجمات قوات نادرشاه على الاقطار العراقية" (دفتر مهمة ١٥٠ ص٢٢٥).

(١) هو السيد خليل بن علي بن إسماعيل الأعرجي، المعروف بالبصير، من أشهر شعراء الموصل في القرن الثاني عشر للهجرة (١٨م)، ولد فيها سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م ونشأ كفيف العينين، لكنه أوتي من الذكاء ما أمكنه من الأخذ من علماء عصره وأدبائه، فكان ينظم باللغات الثلاث الشائعة في عهده، وهي العربية والتركية والفارسية، وكانت له مع أدباء العراق مراسلات نثرية وشعرية تنم عن أدب رائق، وأخلاق رفيعة، وربطت الصداقة بينه وبين محمد راغب باشا الصدر الأعظم، فأهداه أرجوزته المطولة في أحوال حروف الجر وسماها "الدرر المنظومة والصرر المختومة" (حققناها، ونشرناها في مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٧٥) وكانت وفاته في الموصل سنة ١١٧٦هـ/١٧٦٢م. ينظر عصام الدين العمري: الروض النضر ج١ ص٢٤٧-٣٥٥، ومحمد بن مصطفى-

إلى السيد عبد الله المَوْصلي المعروف بفَخْري زَاده[1]، فيها تفصيل الوقْعة المذكورة[2]، وهي:

الحمد لله السلام المؤمِنِ ... المَلِك المقتدر المُهيْمِنِ

وهو الذي أيّدَنا بِنَصرِهِ ... على العدو منقذاً من حصرِه

ثم الصلوة والسلام الدائمُ ... على الذي حلَّت له الغنائم

مؤيِّدِ الحَقّ نبي المَلحَمة ... محمدِ الماحي ظَلام المَظلَمَة

<١٧٥ب>

وهو الذي أباد جيش الكُفرِ ... قلَّدَه المَولى بسيف النصرِ

والآلِ والصَّحبِ الذين جاهدوا ... في الله والجَمالَ منه شاهدوا

ما لُسرج الدُّهمُ وجالَ الغُرُّ ... وجُرِّدَ البيضُ ومالَ السُّمر

وبعدُ فالأنمى من السلامِ ... يُهدى إلى ابن سيد الأنامِ

الفاضلِ المُحقِّقِ العَلاّمة ... والكامِلِ المُدقِّقِ الفهّامة

أخي ومُؤنسي بلا اشتباهِ ... السيِّدِ النِّحريرِ عبد الله

لا زالَ خافِضاً أولي الضَلالِ ... بنَصبِهِ ألْوِيَةَ الكَمالِ

يا مَن هَداهُ الله للفَواضِلِ ... وخَصَّهُ بالعِلمِ والفضائلِ

وحَفَّهُ بالرُّشدِ والكِياسة ... والفَهمِ والفِطْنَةِ والفِراسَة

=الغلامي: شمامة العنبر ص١٢٥-١٣٣، ومحمد خليل المرادي: سلك الدرر ج٢ ص١٠٢، وعبد القادر الشهرباني: تذكرة الشعراء، بتحقيقنا، بغداد ٢٠٠٢، ص٧٣، ومختصره، بتحقيق الأب أنستاس الكرملي، بغداد ١٩٣٦، ص٢٣.

(1) تقدم التعريف به.

(2) نشر هذه الأرجوزة الأستاذ سعيد الديوه جي في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ١٣ (بغداد ١٩٦٥) ص٢٤٧-٢٦٤.

كيفَ طِباعُكم وما حالاتُكم ... بأيِّ شيءٍ تَنقضي أوقاتُكم؟

إنِّي إلى جَمالِكم مُشتاقُ ... أنحَلَني الفِراقُ والأشواقُ

بحيثُ لو قُسِّمَ عُرْضُ الشَّعرةِ ... عَشرةَ أقسامٍ حَكَتْه بِقْتي

واللهَ أسألُ المُلاقاةَ التي ... تَشفي من الغَرامِ كُلَّ عِلَّتي

فإن تُجيزوا الفَصْحَ عن حالِ البلدْ ... وما من الشِّدَّةِ والضيقِ وَجَدْ

فالحمدُ للهِ مُعينِ الضُّعَفا ... مُفَرِّجِ الكَرْبِ مُعجِّلِ الشِّفا

على انكِشافِ الضُّرِّ والآلامِ ... وصَوْنِ عِرْضِنا عن الأعجامِ

إذ دَخَلوا القُرى وأفسَدُوها ... آذوا ومَزَّقوا و شَرَّدوها

واستَهلكوا الشُّبانَ والفِتيانا ... واستأسَروا النِّسْوانَ والصِّبْيانا

وغادروا الشُّيوخَ والأطفالا ... وحَمَّلوا الأحمالَ والأثقالا

ثُمَّ توجَّهُوا لِيَحصُرُونا ... ويستفزُّونا ويَكسِرُونا

جاؤوا (كأنَّهم جَرادٌ مُنتَشِر)[1] ... فحاصَروا (في يَوْمِ نَحْسٍ مُستَمِر)[2]

<١٧٦أ>

أخبَرَنا مُفتيهِمُ[3] أن الفِئةْ ... خَمْسٌ وسَبعون تَليهما مائةْ[4]

وإنَّما تَمييزُ ذا الأعدادِ ... ألفٌ بِلا نَقْصٍ ولا ازديادِ

---

(1) القمر، من الآية ٧.

(2) القمر، من الآية ١٩.

(3) هو مفتي كركوك السابق حسن أفندي بن رضا الكركوكلي. وقد عثرنا على نص هذه الرسالة بخطه في مجموع مخطوط في مكتبة مدرسة يحيى باشا الجليلي في الموصل، وللدكتور محمود الجليلي الفضل في إرشادنا إلى هذه الوثيقة، ومن الجدير بالذكر أن الرسالة المذكورة وردت في مصادر أخرى، ولكن مع اختلافات طفيفة في بعض الألفاظ بسبب النسخ. وقد حققناها ونشرناها كاملة في ملاحق كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي ص٥١١-٥١٣.

(4) هذا هو عدد جند جيش نادرشاه المتوجه إلى الموصل لحصارها.

دَنَـوْا فـأمْطَروا علينـــــا نــــارا   لـم يَـهجَعوا ليـــلاً ولا نــــهارا

فبـانَ بيننَـــا سِـــمات القَحْـــطِ   حتى حُرِمنـــا شُـرْبَ مـاءِ الشَّـطِّ

وكُلُّنـــا نرتَقِـــب القِتــــالا   مُمْتَثِـــلاً بقولِـــــه تعـــــالى

(يا أيُّـــها الذيـن آمنـوا اصـبِرُوا   وصابِروا ورابِطـــوا) لِتُنْصَـروا[1]

سـطا خَميسُـهُم علينــا الجُمُعَــــة   بنِصـفِ شَـعبانَ بِفَـرْطِ المَنَعَــه

فخادَعونــا خُدْعــةً لـم تُكتَــمِ[2]   كحَفـرِ ألقـــامِ ونَصْـــبِ سُـــلَّمِ

فضرُّهم مـــا صنعـوا مـن اللَّقَـمْ   إذ ردَّه الله عليـــــهم فقَصَـــــم

خِفْنـا احتيالَـهُم وسـوء مَكرِهـــم   فلـم يَحِـق مَكْرُهــم إلاّ بـــهم

فقَـــارَبوا السُّـــور المُبارِزونــــا   وإنَّـــهم لنـــا لَغائظونـــــا

لمـا رأونــا حـــافِظين السُّـــورا   (ولَّـوا علـى أدْبـارِهم نُفُـــورا)[3]

والجُـهدَ فـي كِفاحِـــهم بَذَلْنــا   مـا قَتَلـوا مِعْشـارَ مـــا قَتَلنـــا

فأصبَحوا في ذلـــك اليـوم العَسِـرْ   (كأنَّــهم أعْجــازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِـــر)[4]

لمـا أُريقَـتْ منـهم حُمـرُ الدِّمَـــا   ببيضِنــا، ألقـوا إلَينــا السَّـــلَما

فأرسـل النّـادِر سُـلطان العجــم   يُحـاوِلُ الصُّلـحَ ويَبتَغـي السَّــلَم

---

[1] آل عمران، الآية ٢٠٠.

[2] هذه اشارة مهمة إلى أنه كان للقيادة الموصلية علم بما أعد الجيش الإيرانـي مـن خطة معركة السلالم، وينفرد طه الكردي الباليساني (في رحلته التي دونـها بعـد الحرب بسنة واحدة) بالقول أن أفراداً من داخل جيش نادرشاه "أرسلوا خفية إلـى أهل الموصل الخبر أن طهماس (يريد نادرشاه) مراده غداً وفي وقت كـذا يـأتيكم كذا، اصحوا واعملوا جهدكم" (رحلة طه الكـردي الباليسـاني، بتحقيقنـا، بغـداد ٢٠٠٢، ص١٤)

[3] الإسراء، الآية ٤٥.

[4] القمر، الآية ٢٠.

إذ كلّما أوقدَ نارَ الحَرْبِ   أطفأها الله بغَيْثِ الغيْبِ
فصالَحَ الصَّدرَ أميرَ المَوْصِلِ   أعني حُسَيناً صاحبَ القَدرِ العَلي
بأنْ يُرسِلَ الرُّسُلَ على أن يُرسِلا   من خَيْلِهِ إليهِ عَشراً كمَّلا[1]
فجادَ والينا بضِعْفِ ما طلَبْ   ومثلهُ أتحَفَ حاكمَ الحَلَبْ[2]
فكَفَّ عَنَّا أيدي الأعداءِ   مُحافِظاً الحَدباءِ والشَّهباءِ[3]

<١٧٦ب>

بقُوَّةِ الله وأنبيائِهِ   وأوْليائِهِ وأصفيائِهِ
لكِن تجلُّدُ الوزيرِ المَوْصِلي   الباسِلِ الشَّهْمِ الشَّجيعِ المُقْبِلِ
تِبيانُهُ أكثرُ مِن أن يُذكَرا   لله دَرُّهُ جَريئاً أجْسَرا
إذ لَم تَرُعْهُ كَثرةُ القبائلِ   منهم تأسِّياً بِقَولِ القائلِ
(لا أقعُدُ الجُبْنَ عن الهيجاءِ   ولو تَوالَت زُمَرُ الأعداءِ)[4]
الحمدُ الله الذي عزَّزَنا   بِهِ وقَد أذهَبَ عنّا الحَزَنا
قلتُ لهُ في هذهِ القَضيَّةْ   قصيدةً جيدةً تُركيَّةْ[5]

---

(١) إشارة إلى أن نادرشاه طلب أن يهدى عشرة خيول. ينظر منهل الأولياء ج١ ص١٦٠ ومنية الأدباء ص ١٨٢.

(٢) هو حسين باشا القازوقجي، والي حلب، الذي عينته الدولة العثمانية محافظاً للموصل للمشاركة في الدفاع عنها في أثناء الحصار.

(٣) المحافظ هنا وظيفة عسكرية بحتة، بمعنى قائد الموقع العسكري للمدينة بحسب مصطلح هذه الأيام.

(٤) البيت من ألفية ابن مالك.

(٥) يشير إلى قصيدة أخرى له، بالتركية، في وصف حصار الموصل هذا، قدمها إلى الحاج حسين باشا الجليلي والي الموصل.

وفَصَّلَ الوَقْعةَ بالوَجْهِ الحَسَن ابن أخي المرحوم داعيكم حَسَن[1]
أحاط بالخُطوبِ علماً وكَتَبْ أتحَفَها إلى الوزير المُنتجَبْ
فاستحسن الصدر مُحَسَّناتها وما قد استشهدَ من أبياتها
لأنها فائقة المباني رائقة الألفاظ والمعاني
[أما الشقيّ الخارجي نادرُ المعتدي الباغي الظَّلوم الغادر][2]
فكان يُبْدي الودّ والمُخادَنَة[3] غِبَّ انعِقاد الصُّلْحِ والمُهادَنة
معاهِداً شَخصاً إليه أُرسلا من صَوْبِ والينا على أن يَرْحَلا
ونحن طائفون عاكِفونا في السور حاضِرون حاذِرونا
إذ لم نكن نأمن بالمُعاهدة بطشةَ مَخافة المُعاوَدَة
أقام في ديارنا أيّاما ثم نوى النهضةَ والقِياما
فغابَ مع عسكره المشؤومِ وأصبحَ النادِر كالمعدوم
وخاب الأعجَمُون أجمعونا فانطلقوا وهم يُسارِعونا
صالوا فصالحوا فولّوا الدُّبُرْ (وكل شيء فعلوه في الزُّبُر)[4]
هذا ولله جزيلُ الشكرِ على النَّجاة واندفاع الشَّرّ

---

[1] هو السيد حسن النقيب الأعرجي الموصلي، ترجم له محمد أمين العمري (منهل الأولياء ج١ ص٢٤٣) بقوله "عالم ماهر، أخذ العلم عن الشيخ عبد الله، ورحل إلى بغداد وإلى القسطنطينية، وجمع علوماً جمة، وفضائل شتى، وناظر وباحث، وقرأ على شيخ الوقت صبغة الله الحيدري، وتضلع بأنواع الفنون، وولي منصب الفتوى بعد ابن عمه عبيد (عبد الله) بن فخر الدين، فانتفع به الخاص والعام" وذكر له نماذج من شعر رقيق، لكنه لم يشر إلى أرجوزته التاريخية التي نوه بها عمه.

[2] هذا البيت لم يرد في النسختين، وورد في النص الذي نشره سعيد الديوه جي.

[3] المخادنة: المصاحبة.

[4] القمر، الآية ٥٢.

ثم من الصلاة أزكاها على جدّ الذين حوصروا في كربلا
محمد وآله الدُعاةِ إلى الهُدى وصَحبِهِ الغُزاة
ما اشتدت الفِتنةُ والمُخاصَمة وامتدَّتْ الهُدْنَةُ والمُسالمة
إنّي أنا المُقِرُّ بالتقصيرِ المُستَهامُ الحافِظُ البَصيري[1]

<١٧٧أ>

قال الفقير: أحبَبَتُ أن أُعارضها بأُرجوزة مُشتَمِلة على حِكاية الوَقْعَة أيضاً. وقد ضمَّنتُها جُلَّ شُطور الألفيّة[2]، لِتَحصل لها بها المَزِيَّة، وتُزَيَّن بها الطُروس، وتكون كالعِطْرِ للعروس، مُصدِّرها ببيتٍ هو للوالد- حفظه الله- امتثالاً لأمره، فقلتُ[3]:

(الحمد لله المُعِزِّ الخافِضِ إذ باتَ ذو التقوى بعيشٍ خافِضِ)
المُؤمِن المُهَيْمِنِ الستّارِ والمَلِكِ المُقتَدِرِ القهّار
أحمَدُه وهو حَرٍ بكل ما[4] يحمَدُه العبد على ما أنْعَما
فهو[5] الذي أنقذنا من كلِّ شَر ومن ظَلومٍ بأسُه قد انتشر
ثم الصلاةُ والسلامُ الأسنى على الذي ربِّي عليه أثنى

---

[1] البصيري: تخلص الشاعر، وهو الاسم الأدبي الذي كان يتخذه في شعره، أخذه مما عرف به من لقب، وكان شعراء عصره يتخذون لهم أسماءً أدبية يوقعون بها أعمالهم من منظوم خاصة، عرفت باسم (مخلص) أو (تخلص)، مثل: حلمي، ذهني، وهبي... الخ.

[2] هي الأرجوزة المشهورة في علم النحو، التي نظمها محمد بن مالك النحوي (المتوفى سنة ٦٧٢هـ).

[3] ديوانه ص ٤٤-٥٤.

[4] حر: خليق وجدير.

[5] في الديوان (فهو).

مَنْ بالعَطايـا قـد غـدا محبـورا | مـن ربّـه وبالصِّبا منصـورا
كذاك بالرُّعبِ إذا الخَطْبُ هَجَم | وعَثيرُ الوغى عـلا ثـمّ أزدحـم
محمـدٍ ذي المُكْرُمـاتِ والوفـا | (وآلـه المُسـتكمِلين الشـّرفا)[1]
وصحبـه الذيـن فضلـهم أتـى | (في النظم والنثر الصحيح مثبتـا)
قـد جـاهدوا لنصـر ديـن الله | ودافعـوا عنـه بـلا اشـتباه
في وقعة الأحزاب يوم الخنـدقِ[2] | كم تركـوا عدوَّهـم فـي حَنَـق
وهو إذاً بكـل بلـوى قـد بُلـي | (مُـرَوَّع القلـبِ قليـلَ الحيَـل)
كـم حـافَظوا وشـيّدوا الثغـورا | فالدين لم يَـبرَح بـهم منصـورا
وسَهَّروا الأعيـن فـي الحنـادسِ | حتى أبانوا قَبَسـاً عـن قـابس[3]

<١٧٧ب>

فعُـم فضلُـهم علـى الـترتيب | ونـافَ قدرُهـم علـى القريـب
فلم يكن في الخَلْـق مـن رفيـق | أولى به الفضـل مـن الصدِّيـق
وفضلـه لمـن تصـدّى للإبـا | (ميِّزْ، كـأكرِم بـأبي بكـرٍ أبـا)
كذلـك الفـاروق ذو الشـجاعة | والمَنطـق العـدل وذو البراعـة
فـاق علـى أمثالـه إفضالُـه | وقـد مضـت محمـودةً أفعالـهُ
إنْ كنتَ ترجو يا فتـى أن تَغْنَمـا | (فلـهما كُـنْ أبـداً مُقَدِّمـا)
كـذاك ذو النُّوريْـنِ والإحسـان | زاكـي النِّجـار جـامع القـرآن
وكـل لفـظ صيـغ للمفـاخر | كطـاهر القلـب جميـل الظـاهر

---

[1] الشطر تضمين من ألفية ابن مالك، وسيرد في القصيدة تضمين لأشطار عديدة من الألفية.

[2] تقدم التعريف بهذه المعركة.

[3] الحنادس: لليالي المظلمة، والقبس: النار، أو شعلة منها.

فهو به يا صاح أولى وأحَق كما لسان فضله بذا نطق

كذلك ابن عمّ خير الرُسُلِ الباسل الصنديد مولانا علي

أثبتُ في الهيجاء يا ذا من أُحُد أردى كُماة الكفر كابن عبد وُد[1]

فكن على غيرهمُ مفضلاً (وزكّه تزكيةً وأجمِلا[2])

كذاك باقي الصَحْب والقَرابة أهل الثبات صاحبي الإصابة

فَفَضْلُهم لقد أتى وهو العلي (في الخبر المُثْبَتِ والأمر الجلي)

ما بقي الإسلام في ظهورِ كذا مدى الأحقاب والدهور

بعد السلام الوافر الغزير على النجيب الحافظ البصيري

أشعَر أهل العصر والأوان أفصح من (قسّ) ومن (سحبان)[3]

إنّي قد اشتقتُ إلى لقاهُ وقد وددتُ أنني أراهُ

حتى بَدَت لفضله أوصافُ يعجز عن إحصائها الوُصّافُ

وقائل: تسمع بالمُعيْدي خيرٌ من الرؤية يا سُوَيْدي

فقلتُ: ما تعني بذا؟ وفضلهُ محقّق عندي وهذا قوله

<١٧٨أ>

قد صرتُ أنهي مدحه مفصّلا للَمح ما قد كان عنه نَقَلا

يا أيها البارِع يا مَنْ قد سَما وقد حوى الأفضالَ والتقدُّما

ما هذه الأرجوزةُ السَّنيّة؟ ما هذه الرائقة البَهيْة؟[4]

---

[1] هو عمرو بن عبد ود العامري، قتله الإمام علي عليه السلام يوم الخندق.

[2] أصلها: وأجملَنْ، وقد خففها الشاعر بحذف النون.

[3] هما: قس بن ساعدة الأيادي، وسحبان وائل، وهما من كبار خطباء العرب وفصحائهم.

[4] في الديوان: الشهية.

تكــاد أن تكــون فــي ذا الرَّبْــط (فائقةً ألفيــة ابــن مُعْطــي)
نافَت على أشعار مصقِاع العَــرَب كَذا على أنثــار أصحــاب الأدب
والحشوَ فــي بيانــها لــم تُحــرزَ (تقرّب الأقصــى بلفــظٍ موجـزِ)
فكــلُّ لفــظٍ مفــردٍ معنــاه عَــمْ (وكلمــةٍ بــها كــلام قــد يــؤم)
وهــي لــدى بيــان ذي القضيّــة (مقــاصد النحــو بــها محويّــة)
فهي إذاً عــن فضلــها لــم تُفــرد يحــقُّ أن نكتبــها بالعَسْــجد
ذُكــرتَ فيــها وقعــةَ الأحــزاب فــهي تُحاكيــها بــلا ارتيــاب
وأنــتَ فيمــا قلتَــه مُصــدَّق فذاك عنــدي مــا هــو المحقّــق
نعــم أتتكــم الجنــود الباغيــة ويّممتكــم الفئــات الطاغيــة
ودخلــوا بعزمــهم قُراكــم وأسَــروا نســاء مَــن والاكــم
لم يــتركوا مــن آخــرٍ وســابق (وشَــدقَم وهَيْلَــةٍ وواشِــق)[1]
وحــاصروكمُ جصــاراً اشْــتَهَر (ناوينَ معنى كــائنٍ أو اسْــتقَر)
ودامَ ضَرْبُ الطّــوبِ[2] والمَدافِــع بينَكمُ مــن غــيرِ[3] مــا مُدافِــع
وأرســلوا قُنــبُرَهم مثــل المَطَــر ولــم يكــن عَــدَدُه قــد انحصَــر
تصــدُق إذ أخبرتَنــا جــهاراً (دنَوا فــأمطَروا علينــا نــارا)[4]
وبَقَــروا بــأرضِكم لُقومــا[5] ليَــهتِكوا عِرضَكُــم المَكتومــا

---

[1] شدقم اسم فحل من فحول إبل العرب، كان للنعمان بن المنذر، وهيلة، عنز كــانت لامرأة في الجاهلية، وواشق اسم رجل، واسم كلب.

[2] الطوب هنا: القنابل والقذائف.

[3] في الديوان (بغير).

[4] الشطر تضمين من أرجوزة البصيري.

[5] اللقوم جمع لقم، وقد تقدم التعريف به.

ورفعوا إليكمُ السَّلالما[١]   ووجَّهوا إليكمُ الضَّياغِما
ورَطَنوا ما بينهم وحاصوا   وبالدِّلاص المسْرَدات غاصوا[٢]

<١٧٨ب>

ثم دَنَوْا منكم ليَبْتَغوا الظَّفَرْ   وكانَتِ (السَّاعةُ أدْهَى وأمَرّْ)[٤]
وأنتم أثبتُ من ثَهلانِ[٣]   مُرابطين ذروَةَ الجُدرانِ
قد حَرَضتكم غِيدُكم على المقَرْ   (في يا ابن أُمِّ يا ابن عمِّ لا مَفَرّْ)
فقُمتم كالأُسد من شَراها   تالله أنتم كَهْيَ في حِماها[٥]
ودام فَلْقُ البيضِ في الجماجِمِ   وهامَ كُلُّ كافرٍ مُقاوِمِ
(واشتدَّت الحرب على أربابِها   وأنتمُ دونَ الوَرَى أدرى بها)[٦]
أزلْتُم الكُفَّار بالرَّواصِعِ[٧]   وبالمُهنَّد الصقيلِ القارِعِ
أزلتم الهامَ عن الجُثمانِ   من العِدى في لُجَّة المَيدانِ
في قاعة جَرت بها الدِّماءُ   جداولاً عيونها الأعداء
(ومهمهٍ مغبَرَّةٍ أرجاؤه   كأن لونَ أرضه سَماؤه)[٨]
والله قد حفكم بالنَّصر   فزالَ عنكمُ جميعُ الضُّرّْ

---

[١] إشارة إلى معركة السلالم وقد تقدم التعريف بها.

[٢] الممردات: الدروع.

[٣] ثهلان: جبل في أرض العرب.

[٤] القمر، من الآية ٤٦.

[٥] كهي: مثلها.

[٦] هذا البيت لم يرد في الأصل، وورد في الديوان.

[٧] الرواصع: الرماح. وفي الديوان (صرعتم).

[٨] البيت للراجز رؤبة بن العجاج.

فولّوا الأعداءُ عنكم هَرَبا   وما قضوا من الدنوّ أرَبَا
وأشتد حزنُ الشاه عن قليلِ   ولم يَزَل مُستَتِراً بالفيل
قد كان قبلاً في الحروب حقّاً   يَغلِب لكن ليس مُستَحِقّا
والآن أهل الدينِ والأغرفُ به   (بعكس ذاك استعملوه فانتبه)
ظَنّ الخؤون الغادر اللئيمُ   الفاجر المُحارِب الظلومُ
أنْ يَغلِب السلطان قدراً وعُلى   ويأخذ البلاد حتى المَوْصِلا
ويأسر النساء والصّبيانا   ويقتل الرّجال والشُّبّانا
قد خابَ ظنّه مدى الزمان   ما دلّه إلاّ على خُسران
يا أيها الأعاجم الزّعانِفُ   والمُعتَدون الأرذلون أنصِفوا
هل أنتمُ مثل بني عُثمانا   أو تعرفون الضّربَ والطِعانا

<١٧٩أ>

حتى ترومُوا منهم المبارزة   في لجّة الهيجاء والمُناجَزة
تحكّكتْ عقربُكم بالأفعى   واستنّت الفِصال حتى القَرْعى[١]
هذا وأهلُ المَوْصِل الحَدْباءِ   قد جلَبوا لكم جميع الداء
وسكن الأكثر منكم في الحُفَر   أكتَعُ و(النادر) منكم في ضَرَرَ[٢]
فكيفَ لو جاءتكم الجحافل   كأنها الأطواد والمعاقل
كأنهم في الحرب والمُصادَمة   لُيُوثُ غابٍ خَرَجت لمغنَمَة
خميسهم يوم الوغى لا يُغلَبُ   وجمعهم منه الأعادي تهربُ

---

[١] الفصيل: ولد الناقة، والقرعى: جمع قريع، وهو الذي به قرع، مثل يضرب للذي يفعل شيئاً ليس بأهل لفعله.

[٢] كتع: أجمع.

أولئكم قومٌ لدى الهيْجاء ... كم سَفَكوا من أحمرِ الدماء

أيّدهم ربّ العباد بالظفَرْ ... ولم يزل حافِظَهُم من كلِّ شَرْ

فالسيفُ إنْ تَسْألهُ فضلَهم نَطَقْ ... (والغرَضُ الآنَ بَيانُ ما سَبَق)

أحسنتمُ يا أهل تلك المَوصِلِ ... في قصّكم جناح هذا الأخْيلِ

قَرَيْتُم الطيرَ بأشلاءِ العِدى ... والوحشُ لم يَبْرَحْ شَكوراً أبدا

أحسنتُم في جَعْلِكم قبورا ... لهم وحوشَ الأرض والطيورا

حفظتمُ طَهارةَ الصحراءِ ... عن جُثَثِ البُغاة والأعداء

بُشراكم قد نِلْتم من ربّكم ... جزاء أخبارٍ بهذا فعلكم

حَمَيْتم الإسلام بالأسلام[١] ... بل بالرُّدَيْنيّ وبالحُسام

وصنتمُ عِرضَكمُ عن الأذى ... فلم يزل منزّهاً عن القَذى

حفظتم بالرُّمحِ والصقيلِ ... نَحْرَ[٢] فتاةٍ أو فتىً كَحيلِ

لله درّكم ودرّ قَرْمِكم ... رئيسكم أبي مرادٍ شهمكم

كم جرّع الأعداءَ كأس الحَتْفِ ... حين دَنَوْا منكم بلا تخفّي

ولم تَرُعْه الحادثات والنُوَب ... بل لم يزل جَلْداً مُكابِدَ الكَرْبِ

<١٧٩ب>

كذاك يَربُه الوزير الكاملُ ... الفاتك اللُّيْث الجَسور الباسل[٣]

توافقا شجاعة بل أسما ... وحَسَباً من النجوم أسمى

وأقترنا في الحِفْظِ والحراسة ... والجِدّ والحزم كذا السياسة

---

[١] الأسلام الثانية: الكومة من الحجارة، يشير إلى أسوار الموصل.

[٢] بالأصل: نحو. والصواب ما أثبتناه.

[٣] يريد الوزير حسين باشا القازوكجي.

فلا يزالان مجاهَدين	(ويعملان الخفض مَصْدرين)

جدّا بحفظ الغانيات الهيّفِ	بكل بتّار صقيل مُرْهَف

فما هما إلاّ كَلَيْثٍ ذي لِبَد	محافظاً شَراه عن كلّ أحد

ولا يزالان على الطّعان	بالسّمهريّ الأسمر السّنان

وبالبنادق الشّداد الحارقة	وبالسيوف الفالقات البارقة

إلى أن اشتدّ الوغى وامتدّا	(وقائلٍ واعَبد يا واعَبدا)

تولّيا الميدانَ، والأعداءُ	قد هَرَبوا إذ سُفِكَ الدماء

خُصّهما بالفضل والمباهلة	(وما سواهما فوَسْطُهُ صِلَة)

فَضلَهما ذكرتَ يا أبا النَّظَرْ	لكن ما ذكرت عَشر ما أشتهر[1]

بشراكمُ قد حُمِدت عقباكمُ	وقد أزيلت عنكم أسواكمُ

وافتخروا فخراً مدى الزمسانِ	على جميع المُدُنِ والبلدان

إلاّ علينا يا أولي الشجاعة	لا تفخروا في هذه الصناعة

لأنكم منّا لقد عُلّمِتم	حسنَ الثبات بل قد استفدتم

نحن فتحنا لكم ذا البابا	لا شكّ في هذا ولا ارتيابا

وقد يُخَصّ في أناس لم تجد	(ذا البابَ وهو عند قومٍ يطّرد)

حُزنا الفَخار بل جميع الشّيم	لأن كل الفضل للتقدّم

ثباتُنا يوم الحصار الأكبر	أرَيْتُم أمثاله في الأعصر[2]

حيث العدوّ قد أحاطَ بالبَلَدْ	وطَوْبه حامَ علينا ورَعَدْ

<١٨٠أ>

(١) يخاطبه يا أبا النظر لكونه كفيفاً وعجز البيت مختل الوزن.

(٢) أصلها: أرأيتم، وقد أخذ الشاعر بتسهيل الهمزة.

فصدْرتـه سُـمرنا عـن بيضنـا ... وردَعَتْه البيض عـن حضيضنـا
والطوبُ والقُنْبُر منـا لـم يَـزَلْ ... يَقْصِمُ مـن أعدائنـا كـل بَطَـل
وكـلُّ يـومٍ نحـنُ فـي قتـالِ ... معـهم بفارسَـين أو رِجـالِ
ونحنُ في الهيجاء تحـت العِثْـيرِ ... في عَزْمـةِ الـهِرقِل والإسـكندر
ونحنُ في هذا الحِصـارِ الأعسَـرِ ... محافظون السـورَ سـبعة اشـهرِ
ونفـد الـزّادُ ومـاتَ الأكـثرُ ... جوعاً ولم نَـذِلَّ بـل لا نَضجَـرْ
وقـد عَدِمنـا حُقنتيـنِ بُـرّا ... (ومنَوَيْـن عسـلاً وتَمْـرا)
فأكلُنـا للخيـلِ والجِمـالِ ... كـذاك للحمـيرِ والبِغـالِ
هذا وأمّا في الحصـارِ الأصغـرِ ... فقـد رأينـا فيـه كـل الكـدَرِ
ولـم نـرَ الخُمـولَ والفتـورا ... بـل دائمـاً محـافِظون السُـورا
وكيف نخشـى صَوْلـةَ الأعـادي ... وعندنـا الشـجاع ذو الأيـادي
وكيف نخشـى سِـربَهم وإنْ دنـا ... (ورجلٌ مـن الكـرام عندنـا[1])
وكـم بـأقوال نفـاخر العِـدا ... فمـا[2] لنـا إلاّ أتّبـاع أحمـدا
ثباتكم فـي ذا الحصـار الـهائلِ ... وحربكـم لجملـة القبـائلِ
سـنّة خـير الـوزراء أحمـدا ... وكـل قَـرْمٍ بخِصالـه اقتـدى
وشهمكم في فعله الفعـلَ الحَسَـن ... راعى في الاتباع المحـلُّ فحسـن
لأِحمَـد الأفعـال فيمـا أسّسـا ... فهو به في كـل حُكـمٍ ذو اتِسّـا
قـد فـاق كـلُّ ملـكٍ وزيـرِ ... في حُسـن سـيرةٍ وفـي تدبـير
لِذلـك السـلطانُ راعـى فضلَـهُ ... وفـوّض الأمـر إليـه كُلّـه

---

[1] يقصد والي بغداد أحمد باشا.

[2] في الأصل (كما) وما أثبتناه من الديوان وهو الصواب.

واختار ما يختاره أبن الحَسَنِ   أحمدُ أفعال، فريدُ الزمن

من سِلْمٍ أو حربٍ على الذي يجب   (وكونه أصلاً لهذين انتُخب)

<١٨٠ب>

حوى ثلاثَ شِيَمٍ لا توجَدُ   في غيره فهو بها منفرد

السيفَ والتدبيرَ والمكارِما   (ثلاثهنّ تقضي حكماً لازما)

فكُنْ لَهُ في فضله موَحّدا   (وثَنِّ واجْمع غيره وأفردا)

وإن عَدَدْتَ الصيد في حُسْنِ الشيم   والحَسَب العالي الرفيع والكرم

فابدأ بذكر الملك المفضالْ   (وقَدِّمِ الأخصَّ في اتّصالِ)

فهو الذي بنفسه حَمانا   قِدماً، وعادى كلَّ من عادانا

وهو بحفظه لنا عن الأذى   لقد سَما على العدى مُسْتَحوِذا

فاقبل حديثي قد أتاك مُثْبَتا   (وما روَوا من نحو رُبَّهُ فتى)

سطا على أعدائِه في جَحْفَلِ   وشُغِلَت يمينُهُ بالأَسَلِ

في يوم حربِ الشاه غزوة العَجَم   فكم أباد بطلاً وكم قَصَم

وقامت الحربُ على ساقٍ حُسِرْ   (لا تَقِس على الذي منه أُثِرْ)

فكم له نظمٌ ونَثرٌ في العِدى   وكم سَقاهم كأسَ حتفٍ وردى

كم راعَهُم حين أتاهم يُرعِدُ   (في نحوِ خيرِ القول إني أحمدُ)

إذ ولّج الميدان كالطَّوْدِ انغرس   ولّوا وظلَّ الشاه يحمى بالفرَس

وهَرّب الكلّ بلا تواني   (كالفَضلِ والحارثِ والنُّعمانِ)

كم غزوةٍ غزا الطُّغاة فنُصِر[1]   وكم سَرية بها الباغي قهر

---

[1] في الديوان: البغاة.

حكى أباه في الوغى وفي الكـرم[1] (ومن يشـابه أبَـه فمـا ظلـم)[2]

تـاهت بـه إذ أمِنـت بغـدادُ وحَسَـدتها المـدن والبـلاد

إن كنتَ تبغي وصـف ذا الإمـامِ مـن هـذه السـطور والأرقـام

فعُشرُ عُشرِ فضلـه مـا حصَّلـتْ (وإنْ نعوتٌ كـثرت وقـد تلـت)

لكنْ أردتُ دون أظـهاري النعـم (تبيينيَ الحـقِّ منوطـا بـالحِكَم)

<١٨١أ>

فكـلُّ مسـالك وكـل أصنـدِ بنسـبةٍ إليـه هـم كالحَشـد

ونادرٌ وذو اضطـرارِ غـير مـا (قدَّمْتـه أو لأنـاسٍ أنتمـا)

لا زال محفوظـاً مـدى الزمـان من شـرِّ كـل حاسـدٍ مِعيـان[3]

ثـم مـن الصـلاة والسـلام أزكاهمـا علـى النبـي الإمـامِ

محمـد المحبـور بالسـكينة وكل مـن حـاصرَ فـي المدينـة

وتابعيـهمُ علـى التوالـي كـذا علـى نـاظم ذي اللآلـي

راجـي ثـواب الملـك المنَّـانِ نَجْـلِ السُّـوَيدي عـابدِ الرَّحمـن

مـا قـامت الفُرسـانُ للمُجادَلـة لنصـرِ ديـنِ الله فـي المُباهَلـة

---

[1] يريد بأبيه: والي بغداد حسن باشا، وقد سبق أن قاد جيشه في إيران فافتتح كرمنشاه ووصل إلى أسوار همدان، حيث توفي هناك، وخاض في أثناء ذلك معارك كثيرة.

[2] الشطر لرؤبة بن العجاج. وأوله (بأبهِ اقتدى عَديٌّ في الكرم).

[3] المعيان: شديد الإصابة بالعين.

ثم رأيتُ، بعد ان عارَضتُها بأيام[1]، السيد عبد الله[2] المذكور قد عارَضَها بقوله [من الرجز]:

الحمدُ لله العزيزِ الغالبِ النّاصِرِ المُمِد ذي المَواهِبِ
المانِح الجَزل، العميم الطَّولِ الدافِع الضُّرَّ الشديد الحَولِ
تبارك الله تعالى شأنه وعَزَّ جاراً، وعلا سُلطانه
سبحانه! يفعل ما يشاءُ هَيْهات أن يُحصى له ثناءُ
هو اللطيف في البرايا سَرْمَدا حاشاه أنْ يَترك أمرَهم سُدى
يختصُّ بالرَّحمةِ من عبادِه من شاءَ فضلاً منه في إسعاده
ثم من الصلاة ما قد كَمَلا على نبي السيف سيِّد المَلا
الهاشِمي، هازِمِ الأحزابِ محمدٌ مقسّمَ الأسلاب
وآله فرسانِ مِضمارِ الوَغى وصحبه سُبّق حَلَبَة الهُدى
ما قامتِ الحربُ وثار الرَّهجُ وسُلّتِ الضُبا وسالت مُهَجُ

<١٨١ب>

ثم السلامُ من مُحِبٌ نائي وأكملُ الثَّناءِ والدُّعاء
إلى النّقابِ الفاضل الهُمامِ العالِم الحَبر الرِّضا القُمقام[3]
عَفّ الإزار طاهرِ الأثوابِ سُلالةِ الأطهارِ والأطياب
السيد السَّمَيْدَع الجليلِ خلّي وخِدْني صاحِبي خليلي[4]

---

[1] أعيدت (رأيت) هاهنا في الأصل.

[2] هو السيد عبد الله الفخري الموصلي، وقد تقدم التعريف به.

[3] النقاب: العلامة البحاثة الفطن.

[4] السميدع: السيد الكريم السخي، والخدن: الصديق.

علامـةَ الدنيـا قريـعِ دهـــرهِ   من لا يُبارى من وحيدِ عصـرهِ[1]

لا زالَ قارعـاً ذُرى الكمـــال   مُقتَعِداً غـــوارب الآمــالِ[2]

وبعد عَرْضِ صـــورةِ الأشـواقِ   وبَــث بَــثِّ البَيْــنِ والفِــراقِ

فالغرضُ الأصلي فَحْصُ الحــالِ   والبحثُ عــن كيفيـةِ الأحـوالِ

فكيـفَ ذاكَ العُنصـرُ اللطيــفُ   الطيِّـبُ المُطَـهَّرُ الشـــريفُ؟

لا زالَ في حِفْـــظِ الإلــه دائمـا   وفي مقامِ الفضـلِ طَـوْداً قائمـا

ثــمَّ أيـا مــن بُعـده أوْدى بــي   ومن حوى أقصى مـدى الآدابِ[3]

فإن تعطَّـــفَ الجنــابُ السـامي   بالفحصِ عن أحـوالِ ذي الـهيام

فإنـــه فـــي غمْـرةٍ لا تنجلـــي   إلاّ إذا شــاءَ المُـهَيْمِنُ العَلـــي

وكيفَ لا؟ والوَجْــدُ قــد عَنــاني   يَثْني كما يريـــد مــن عِنـاني[4]

وفرقــةُ الأحبـــابِ والدِّيـــارِ   أخنَت على جسمي واصطيـــاري

والله مـــأمولٌ لجمــــعِ الشَّـــملِ   فإنّــه ولـــــي كـــلِّ فَضْـــلِ

وبينمــا أفحـصُ عــن آثــــارِ   وأتلقّــى جَلَـــب الأخبـــارِ[5]

إذ وَرَدَ الكتــابُ أســمى الكُتــبِ   من سيِّدٍ حـــوى فَخــار العَـرَبِ

---

[1] القريع: السيد، وفلان قريع دهره: سيد دهره؛ وقريع الكتيبة: رئيسها.

[2] استصوب الشيخ الأثري أن تكون: فارعاً من فرع الشيء يفرعه فرعاً وفروعاً، اذا علاه.

[3] أودى بي: أهلكني.

[4] عناني الأولى: أهمني. والعنان الثانية: سير اللجام الذي تمسك به الفرس.

[5] الجلب: ما جلب من شيء والبغداديون يطلقون (الجلب) على المتاع الرديء.

أيُّ كتـابِ عِقْـدُ دُرّ نَظَمـا ورَوضُ آدابٍ غدا مُنَمْنَما![1]
أيُّ كتـابٍ عَقَلـةُ المُسْتوفِزِ قُرَّةُ عيـنٍ، عِـدَّةُ المُستَنجِزِ[2]
يحكـي الـهواءَ رِقَّـةً والماءا لطافـةً، وقـد سـما سـناءا

<١٨٢أ>

مضمونه يُعرِبُ عن خَفضِ العِدى وما اصابُوا من عوامِـل الـردى
ومـا أتـاحَ الله مـن تـأييدِ والظَّفَـرِ البـاهرِ والتسـديدِ
فهزٌّ من عِطْفِ النشـاطِ والجـذلِ وفرَّح القلب الكئيـبِ المَختبـل[3]
فصـارَ للأنـامِ عيـداً آخـرا كـلا تـراه حـامداً وشـاكرا
علـى انجِـلاء غمْـةِ البـلاءِ بفضـل ذي الألطـاف والآلاء
وذاك أنَّ صـاحب الأعجـامِ حـاصرَهم بجيشـه اللُّـهامِ
بـاللَّجِبِ العَرَمْـرَمِ الكُمـاةِ يَطلـب بـالذحول والـتِرات[4]
فأعضَلَ الأمـرُ وأعيـا الرّاقِيـا وبلغـت مـن غمِّـها التَّراقِيـا[5]
جـاؤهم مـن فوقـهم والأسـفلِ بجَحْفـلٍ كَظِـلِّ ليـلٍ ألْيَـلِ[6]

---

[1] العقد: القلادة. منمنما: مزخرفا مرقشا.

[2] عقله المستوفز: قيد للعجلان الجالس على هيأة كانه يريد القيام. المستنجز: طـالب الانجاز، أي قضاء للشيء.

[3] العطف: الجانب الجذل: الفرح. المختبل: الذي فسد عقله وجن.

[4] الذحول: جمع الذحل، وهو الثأر. الترات: جمع الترة، وهي الظلم في الذحل وقيل: هي الذحل عامة.

[5] للتراقي: جمع الترقوة، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان وبلغت الروح التراقي: كناية عن مشارفة الموت.

[6] ليل أليل: شديد الظلمة.

شَبُّوا ضِـرام البـأسِ والكفـاحِ	ما غادَروا ضَرباً مِـن النِّفـاحِ[1]
رموهـــمُ بنــارِهم أُســبوعا	وهجمـــوا عليـــهمُ جُمُوعـــا
نارٌ، وما أدراكَ صـــاح ماهِيَــةٌ؟	نارٌ لَظى تَضـــرَّمُ، نــارٌ حامِيــةٌ
صواعـــقٌ قَـــوارِعٌ قَواصِيـــفُ	رَواعِـدٌ طـــوارِقٌ رواجِـــفُ
فاضطربَ الحبلُ وجــلَّ الخَطْــبُ	واستفحل الـــدّاءُ وحـلَّ الكَـرْبُ
وإنّـــه ســـبحانه جلاّهـــا	إنَّ (إلـى ربِّـكَ مُنْتَــهاها)[2]
رُدُّوا بغيــظٍ لـم ينـالوا خــيرا	نَعَمْ! أصـــابوا ضَــرَراً وضَــيْرا
إذ بــادَ بــاللغمِ لــهم أُلـــوفُ[3]	وذا سِـوى مـا نــالتِ السـيوفُ
وكانت النيرانُ مِثلَها علــى الـــ	خليلِ برداً وســلاماً لـم تَـزَلْ[4]
كفـــاهُمُ ســـبحانه القِتـــالا	وكفَّ عنـــهم مـــا دهـــى تعـــالى
هذا، وما قد دفـــع الله مـــن الـــ	بلاءِ قـــد كـــان عظيمـــاً وأجَــلّ
ونســـأل الله تمـــام النِّعمـــة	من طَوْلِـــه، ودفـــعِ كــلِّ نِقمــة

<١٨٢ب>

فـــهو ولـــيُّ الفضـــل والإنعـــامِ	ذو العِـــزِّ والإجـــلالِ والإكـــرامِ

---

[1] الضرام: لهب النار. النفاح: الدفاع والمكافحة.

[2] جلاها: كشفها. منتهاها: انتهاء علمها.

[3] اللغم، كذا في الأصل، وفي ب: اللقم، وقد تقدم القول في شرحه بلفظيه.

[4] الخليل: إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام. يشير إلى خبر النار التـــي أوقـــدت لإحراقه، فأطفأها الله تعالى كما في الآية الكريمة: (قلنا: يا نار كوني بردا وســـلاما على إبراهيم) (الأنبياء آية ٦٩).

والحقُّ إن هــذه إحدى الكُـبَر	وأبـدع البِـدع، وأمّ للعِــبَر[1]
فيا لها مـن وَقْعـةٍ لـم تُسبَقِ	إلاّ بـأحزاب بيـومِ الخنـدقِ
وكـان رَمْـيُ تلـكَ بالأحجـارِ	وصـارَ رَمْـيُ هـذه بالنـارِ
لله قَوْمـي مـن رجـال صُـبُّرِ	على المَضاضِ في البلاء الأكبرِ[2]
ما ريـعَ منـهم أحـدٌ كـلا، ولا	عَرَتْهُم الفَشْلَةُ من بـأسِ العِـدى
كـلٌ يقـول: حبّـذا يـومُ اللّقـا	ونِعم ما يوم لنـا يـوم الوغـى
تَلْفيـهِ مُنشـداً لـدى الـبرازِ[3]	أبلغ مـا قيـلَ فـي الارتِجـازِ:
(أنا (أبو بَرْزَة)، إذ جـدَّ الوَهَـلْ	وليس فينـا زُمَـلٌ ولا وَكَـل)[4]
(نحنُ بنو الموتِ إذا الموتُ نَـزَلْ	والموتُ أحلى عندنا من العَسَـل)

---

[1] الكبر: جمع الكبرة، وهي الاثم العظيم. البدع: الامر الذي يفعل اولاً.

[2] المضاض، بكسر الميم: الملاحاة والملاجة.

[3] البراز: المبارزة.

[4] ابو برزة: قال الشيخ الأثري- رحمه الله- في تعليقة له على هذا الموضع من مقتبساته: لم اعرفه- الوهل: الفزع- المزمل: الضعيف يعرف به غير واحد، والظاهر والله اعلم انه نضلة بين عبيد بن الحارث الاسلمي: صحابي، غلبت عليه كنيته. شهد قتال الازارقة، ومات بخراسان سنة خمس وستين. له ستة واربعون حديثا. وهذا الرجز بلفظ لم يذكره الطبري في حوادث وقعة الجمل، وانما ذكر شبيها به، ينسب إلى وسيم بن عمرو بن ضرار الضبي تارة، والى عمرو بن ضرار الضبي تارة، وغير معزو تارة اخرى، ولجمع رواياته.

نحن (بنو ضبة) اصحاب الجمل   ننازل الموت اذا الموت نزل

والموت احلى عندنا من العسل   ننعى (ابن عفان) باطراف الاسل

ردوا علينا شيخنا، ثم بجل

وبعض هذا الرجز في (لسان العرب) وغيره، غير منسوب.

إذ وَطَنوا الأنفسَ للحتوفِ وأخذوا قوائمَ السيوفِ[1]
يجاهدون في سبيل الله بالمال والنفس بلا إكراه
يقونَ بالبيضِ وأطرافِ الأسَلْ عِرْضاً مَصوناً ليس فيه من خَلَلْ
محاذرينَ خِطةَ الهوانِ وسَوْمِ خسفٍ من ذوي العُدوان
حتى قضى الله لهم بالفَرَج وعاجِل الفَلْجِ ودفعِ الحَرَج[2]
رَدُّوا وجوههم بِحَرِّ الضَّرْبِ وأرثُوا لهم سعير الحَرْبِ[3]
فقهقروا نَكْصاً على الأعقابِ على احتذاءِ غَزوةِ الأحزاب
بصفقةٍ خاسرةٍ ويأسِ وحنيةٍ من ظفرٍ ببأسِ
إذ رَتَعوا في مَرتَعٍ وبيلِ وطمعوا في مَطْمَعٍ ثقيلِ
غرَّتهم الآمالُ والأماني إذ جعلوا القاصي مثل الداني
ما كلُّ سوداءَ بتَمْرةٍ، ولا حمراء جمرةً، اذا جدَّ البلا[4]

<١٨٣أ>

لله دَرُّهم على ما فَعَلوا! وأيُّ مجدٍ وطَدوا وأثَّلوا[5]
ناهيكَ من ذخرٍ أتمَّ الذُّخرِ! وحسبُهم ذا الفخر أنمى الفخرِ

---

[1] قوائم السيوف: مقابضها، الواحدة قائمة

[2] الفلج: الظفر.

[3] حر الضرب: شدته. ارثوا: اوقدوا.

[4] قال الشيخ الأثري: في امثال العرب: (ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة) يضرب في اختلاف اخلاق الناس وطباعهم، ويضرب في موضع التهمة، قاله قيس بن ثعلبة في خبر طويل في (فرائد اللآل) (٢/٢٤٤).

[5] وطدوا: أثبتوا وقووا- أثلو: اصلوا.

لاسـيما قـائدهمُ حسـينُ ... ذاك الذي ما فيه قطُّ شَينُ[1]

ذاك الوزيـر الأصيـد المُشيـع ... البطل الضَّربُ الـهِزَبْرُ الأشـجع

الرابـط الجـأش لـدى اللقـاء ... عند اشتجار السُّمرِ في الـهَيْجاء[2]

فإنـه الأصـلُ لـهذي المَفخَرةْ ... بل تنتهي إليه هـذي المـأثرة

لأنـه رئيسـها وراسـها ... ونجمها الوضّـاح بـل نبراسـها

لله دَرُّه! يَـهُونُ الحَتْـفُ ... عليه إنْ لاحَ عليه خَسْـفُ

بجَـدّه أنقـذَ أهـلَ الموصـلِ ... من فَتْكِ ذي ضغـائنٍ مُسـتأصِلِ

قلَّـم عنـهم ظُفـرَ الأعـداءِ ... وفلَّ عنهم غَـرْبَ ذاك الـداء[3]

عليه عيـنُ الله مـن أمـيرِ ... صـاحبِ رأيٍ صـائبٍ خبـير

ذو غِيَرٍ يحمي الذِّمـار كـالعَرَبْ ... يسطو بِعضْبٍ قاضبٍ بلا رَهَـبْ

فيا لـه مـن ذي غَنـاءٍ كـافِلِ! ... أخلق به قَرْماً بقـولِ القـائل:[4]

(نفسُ عصـامٍ سـوَّدت عِصامـا ... وعلَّمتـه الكَـرَّ والإقدامـا)[5]

رَعياً له! إذ جدَّ فـي دَفْـعِ الأذى ... وقد سَما على العِـدى مُسـتحوِذا

فهو- لعَمْري!- حـائزٌ تفضيـلا ... (مُسـتوجِبٌ ثَنـائي الجميـلا)

---

[1] يريد حسين باشا الجليلي والي الموصل في أثناء حصار نادرشاه، ومـراد: ابنـه. وسيأتي التعريف به فيما يأتي في هذه القصيدة.

[2] اشتجار السمر: تداخل الرماح بعضها في بعض. الهيجاء: الحرب.

[3] غرب الداء: حدته.

[4] الغناء، بفتح أوله: النفع والكفاية.

[5] نفس عصام: مثل يضرب في نَباهة الرجل من غير قديم له، وعصام: هـو ابـن شهير لحاجب النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

فزكـــه تزكيـــةً، واجمِـــلا (اجمــال مــن تجمُــلاً تَجمُّــلا)
منا لـــه الدُّعــا بنفــسٍ صــاغرةْ (الله يقضــي بـِـهِبات وافـــرةْ)
وهكـــذا ســـليله (مُـــــراد) مــن مِثلــه لمثلِـــه يُـــرادُ[1]
شمَّر عن ســـاعِدِ جِــدٍ، وســطا يحمي الحِمـــى لســيفِه مُخترطــا
(به قد اقتدى (عَديٌ) فـــي الكَــرَمْ ومن يُشــابِه أبَــهُ فمــا ظَلَــم)[2]

---

[1] هو مراد باشا الجليلي، استبسل مع ابيه في قتال جيش نادر طهماسب قلــي دفاعــاً عن (الموصل): وتوفي قبل ابيه.

[2] قال الشيخ الأثري: البيت من شواهد النحو واللغة. وقد نسبه محمود العينـــي فــي (شرح الشواهد الكبرى) (١/١٢٩) هامش خزانة البغدادي إلى رؤبة بن العجـــاج، وليس في ديوانه المطبوع في ليبسيغ ١٩٠٣م. ولكن ناشر الديوان- وهو وليم بــن الورد البروسي- اورده في ملحقه (ص١٨٢) في جملة ابيات. وجملة ملحقه هــي ما وجده منسوباً إلى رؤبة والى ابنه العجاج في كتب مخطوطة واخرى مطبوعــة. من غير عزو صريح يعين القائل. وارى ان نســبته إلــى رؤبــة لا تصــح. لان الممدوح به- وهو عدي بن حاتم الطائي فيما راى العيني- توفي قبل رؤبة بســبع وسبعين سنة. توفي عدي في سنة ثمان وستين للهجرة، وتوفي رؤبــة فــي ســنة خمس واربعين ومئة، وعلى هذا يمكن ان يكون البيت لابنه العجاج المتوفى فـــي نحو سنة تسعين. غير انه لم يذكر في ديوانه بطبعتيه الالمانية والبيروتية. وعــدي بن حاتم الطائي الجواد المضروب به المثل في الجود: صحابي جليل، وفــد إلــى النبي- صلى الله عليه وسلم- سنة تسع او عشر فاسلم، وكان نصرانياً. ولما التحق النبي- صلى الله عليه وسلم- بالرفيق الأعلى، قدم على ابي بكر الصديق- رضي الله عنه- في وقت الردة بصدقة قومه وثبت على إسلامه وشهد فتـــح (العــراق) ووقعة (القادسية) ووقعة (مهران) ويوم (الجسر) مع ابي عبيدة بن الجراح رضــي الله عنه (والصحيح: أبي عبيد بن مسعود الثقفي)، وسار مع سيف الإسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى (الشام). وشهد معه بعض الفتوح. وأخباره فـــي كتــب الصحابة والتواريخ المفصلة.

<١٨٣ب>

كذا الوزيـــر صـاحبُ الشـهباءِ ذو الحـزم والآراء والدهـــاء[١]

فإنــه لــم يُلْـــفَ ذا تقصـــيرِ أصابَ في الرأي وفـــي التدبيـرِ

جُـوزي بـالخير عـن الأنـــامِ لِبَذْلِـهِ للمجـهود فـي الإسـلامِ

بشرى بذي الفتحِ المُبيـــنِ البَيِّـنِ والنصر إذ جـاء مـن المُـهَيمنِ

بُشـــراكم أيتـــها الدُهـــــاةُ أيتـــها الحُمــاة والكُمــــاة

بُشراكم، يا أهـــل ذيَّـالكَ الحِمـى على احتيازِ الفوز من ربِّ السَّـما

فمــن لنــا بشُـكرِهِ والحمـــدُ؟ اذ فضلُــهُ جـاوزَ حـدُّ العــدِّ

يا ليتني كنـــتُ مـع الأصحـابِ ففِـزتُ بـــالنُصرةِ والثَّــوابِ

وإن تَسَـل عــن هـذه الأرجـاءِ وما تُعاني مــن عُضـال الـداءِ

فإنــها منــذُ شـهورِ لـم تَـزَلْ محصورةً، ضاقت بأهلها الحِيَـلْ

حَسبُك من شـرِّ سـماعهُ، كمــا قد قيل في الغـابر ممــا قدمـا[٢]

وذاك أنَّ الشــاه شـاه العَجَـــمِ أمَّ دِيـار الـروم فـي تَـهَجُّمِ[٣]

فدلَفَــت مــن جُنـده سَـــوالِف رَواجِـــف تتبعـــها رَوادِف[٤]

---

[١] الوزير صاحب الشهباء: هو حسين باشا القازوقجي (ت/١٥٧، ١٥٨، ٢٠٣).

[٢] حسبك من شر سماعه: مثل يضرب عند العار والمقالة السيئة وما يخـاف منـها، قالته فاطمة بنت الخرشب الانمارية ام الربيع بن زياد العبسي لما أراد قيـس بـن زهير أخذها براحلتها ليرتهنها بدرع كان ابنها اخذها منه.

[٣] ديار الروم: بلاد الاناضول.

[٤] دلفت: مشت رويداً ، سوالف: اراد بها الجماعة المتقدمين، من قولهم: سلف يسلف سلوفاً، أي تقدم وسبق.

جحافلٌ تطاولُ الجبالا   قنابلٌ تُكاثرُ الرِّمالا[1]

تموجُ مَوْجَ زاخرِ البحارِ   غَصَّ بها القِفارُ والبراري

دُكَّت لها شواهقُ الأطوادِ   وبسَّ منها هُضُبُ الأعضاد[2]

جاسوا خلالَ هذه الديارِ   يبغونَ ضبطَها على اقتِسارِ

فعَجَّل العُربانُ والأكرادُ   في طاعةِ الأمرِ لهم وانقادوا

أهلُ القُرى كذاك والضِّياعِ   نعَم، وأهل سائر الرِّباع

لم يَستَرِيْث أحدٌ في الطاعة   بادَرَ في شَقِّ عصا الجماعة

وذاك ابقاءٌ على العيالِ   والأهلِ والأولادِ والأطفالِ

<١٨٤أ>

ولا يُلامونَ لدى الإنصافِ   بما أتوا ألاّ على اعتِسافِ

إذ لم يكن في طاقةِ الأغنامِ   دفعُ أُسُودِ الغابِ والآجامِ

فَمَلَكوا ما كان من ضياعِ   ما تَرَكوا فِتْراً من الأصقاعِ

فلم يكن بُدٌّ من الحِصارِ   لِقِلَّةِ الأعوانِ والأنصارِ

فاقتَصَرَ الهَمُّ على التحصينِ   وحِفْظِ نَفْسِ الحِصن في تَمتينِ

وغَرَّبَ الشاه يَروم الرُّوما   ويَنتحي الأطلالَ والرُّسوما

فأولاً اناخ في كركوكِ   غادرها كالقَتَبِ المَفكوك[3]

وآخِذاً كالقابِسِ العَجلانِ   لم يتلوْم قَربَ الأزمانِ[4]

---

[1] القنابل: الطوائف من الناس ومن الخيل، واحدها قنبل وقنبلة.

[2] بس: فتت وفرق.

[3] القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

[4] لم يتلوم: لم يتمكث وينتظر.

ومثـل كركـوك غـدتْ اربيـلُ　ووَطْـؤه عليـهما ثقيـلُ
ثم غـدا يسـير نحـو المَوْصِلِ　بذلكَ الجيش الثقيل الكَلْكَـلِ
وكان ما كان مـن امرِ شَجَرا　مـا بينـهم ثَمَّـةَ ممـا سُـطِرا
و الشاهُ إذ عَـنَّ لـه أن يَرجِعـا　وذاكَ لابـد لأمـرٍ وقَعـا
عاد من المَوْصلِ بالجيش اللَّجِـبْ　يقصد بغـداد ببحرٍ مُضطَـرِبْ
جـاء يقـود الجُحفـلَ الجـرّارا　بـالطِمّ والـرّمِ يـرومُ ثـارا[1]
بالقَضِّ والقضيضِ مـن أوشـابه　بجُنـدِهِ الجِـلاد مـن أنيابِـه[2]
خيلٌ، ومـا خيـلُ صِـلادُ صُـمّ　مُنقـذةٌ مـن الجِبـال الشُـمّ[3]
أبنـاءُ مَـوتٍ يحرِقـون الأرَمـا　إذا رأوا يـوم الـهِيَاج البُـهما[4]
بنـو كرائـهِ فحـولُ حـربِ　أسودُ هَيْـجٍ ورجـالُ ضَـرْبِ[5]
حُتوف قِـرنٍ يقضمـونَ الزُبَـرا　من الحديـدِ قـاحِمينَ الخَطَـرا[6]

---

[1] جاء بالطم والرم: اتاهم بالشيء الكثير والقليل.

[2] القض: الحصى الكبار، والقضيض: الحصى الصغار. يريد انهم لم يتخلـف منـهم احد. الاوشاب: الاخلاط من الناس والاوباش، الأنياب: جمع الناب، وهو سيد القوم وكبيرهم..

[3] صلاد: جمع صلد، وهو الصلب الاملس الشديد.

[4] يقال: حرق نابه يحرقه ويحرقه، اذا سحقه حتى يسمع لـه صريـف، أي صـوت والارم: الاضراس، كانها جمع ارم، وفلان يحـرق عليـك الأرم: تغيـظ فحـك اضراسه بعضها ببعض. البهم: جمع البهمة، وهو الشجاع.

[5] جمع: كريهة، وهي الحرب.

[6] القرن للإنسان: مثله في الشجاعة والقتال. الزبر: القطع الضخام من الحديد الواحدة زبرة قحم الخطر: رمى بنفسه فيه.

أيُّ رجـــالٍ ثكلتـــهُم أمُّـــهُمْ   ومثلـــهُ، ويـل أمّـــه، يؤمـــهم

فـــارتجَّت الجبـــال أيَّ رَجَّـــةٍ   ومـــادت الأرضُ لثقـلِ الوَطْـــأةِ

<١٨٤ب>

والناسُ حيثُ شـــاهدوا ذا الحـــالا   تضعضعـــوا وزُلزِلـــوا زِلْـــزالا

توجّسُـــوا وزاغـــتِ الأبصـــــارُ   وارتـــاعَتِ النُّفـــوسُ والأســـحار

وارتَعَـــدَتْ فرائـــصُ القلـــوبِ   شُـــقَّ لـــها كمـــائمُ الجيـــوبِ

وهم علـــى القُنـــوطِ مـــن حيـــاةِ   يغتبِطـــونَ راحـــةَ الأمـــواتِ

وحـــقَّ للقلـــــوب أن ترتاعـــا   وللحَشـــا مـــن ذاكَ أن تلْتاعـــا

إلاّ الرِّضا حامي حِمـــى الـــزوراءِ   ذو الفَتْكَةِ البِكْـــرِ لـــدى اللّقـــاءِ[1]

الـــهِزبريُّ الصـــاحب المُعظَّـــمُ   المـــاجدُ القَـــرمُ الوزيـــر الأفخـــمُ

مُنتَشِـــرُ الصِّيتِـــةِ فـــي الآفـــاقِ   مُقـــدَّمُ الكُـــلِّ علـــى الاطـــلاقِ

ذو الجَدِّ والجِـــدِّ المُعِـــمُّ المُخْـــوَلُ   ذو الغَمَرات الأوْحَـــديُّ المُقبِـــلُ[2]

الســـابقُ الأنـــام وهـــو قـــاعِدْ   مَـــنْ هَمُّـــهُ الفِخـــارُ والمحـــامِدْ

رَبُّ العِتـــاقِ والرِّقـــاقِ والقَنـــا   المُقْلِـــقُ الـــهامَ إذا القَـــرْمُ دَنـــا[3]

يَرْبُ المُصاعِ ضـــارِعُ الشُّـــجعانِ   إذا تلاقَـــت حَلْقتـــا البطـــانِ[4]

---

(١) هو الوزير احمد باشا بن حسن باشا. فتكة بكر: لا مثيل لها.

(٢) المعمم المخول: ذو الأعمام والأخوال الغمرات: الشدائد.

(٣) العتاق، من الخيل: النجائب. الرقاق: السيوف المرققة.

(٤) المصارع: المجالدة بالسيف ونحوه. البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعـــير مشدوداً بالقتب، ويقال: التقت حلقتا البطان، للامر اذا اشتد.

ذو الـــهَبَوات السُّـودِ والحـــروبِ مُجتَمِعُ الرأيِ لــدى الخُطــوبِ[١]

كــافي الكُفــاة حــارسُ العــراقِ الطيِّــبِ الأخــلاقِ والأعــــراقِ

غَيْــظُ العِـدى مُقتَحـمُ الأهــوالِ ليثُ الشَّـــرى مُجنــدِلِ الأبطــالِ

مضــرَّسُ الخُطـوبِ والنوائـــبِ ذو دُرْبــةٍ مُحنَّــكِ التجـــارِبِ[٢]

بكـلِّ خـــيرٍ مبتَـــدٍ مُعَـــوِّدُ وعَـوذُه، مثــل سُـماه، أحمـــدُ

لم يتتعتـــع فـــي مـــواردِ الـــردى ولم يكن يرتاع من خيلِ العِـــدا[٣]

مــا راعــه تكــاثُفُ الأعـــــداءِ ولم يُهَل مـــن صخَّـــةِ البــلاءِ[٤]

فواطــأ الــرأيِ علــى القَــرارِ ووَطَّنَ النفــسَ علــى الدَّمــارِ[٥]

<١٨٥أ>

مُحارِســاً محافظـــاً مجـــاهدا مُصــــابراً مرابطـــاً مجـــالدا

يَرْمُقُــه المـوتُ بلمــحَ شَـــزْرِ والحتفُ قد أنـــاخَ حــولَ الأمــرِ

لم يتضعضع من مَضاضِ الـــهَوْلِ والموتُ أدنى من شِيـــراك النَّعـلِ

تمثُّـــل الدَّمــــارَ والصَّغـــارا خارَ علـــى صِغـارِه الدَّمـارا[٦]

يـــزأرُ زَأرَ الأســـدِ الـــهَصورِ لم يَســـتَكِن للجَلَـلِ المَحظـورِ[٧]

---

[١] الهبوة: الغبرة.

[٢] ضرسته الخطوب: جربته واحكمته. النوائب: النوازل.

[٣] لم يتتعتع: لم يتردد.

[٤] لم يهل: لم يفزعه الهول. الصخة: الصيحة تصم الأذن لشدتها.

[٥] في الأصل:فواطيء.

[٦] الصغار بالفتح: الذل والضعة.

[٧] استرجح الأثري أن تكون: المحذور.

وكــان ذا الشـــاهُ لـــه مُختَـــبِرا مُجرِّبـــاً أحوالَـــــهُ مُســـــتَبرا[1]

جرَّبَـــه فـــي خَلْـــــوِهِ وخَمْــــرِه وذاقَــه فـــي حُلْـــــوِهِ ومُــــرِّه

وكـــان قَــد حـــاصرَ مرَّتَيــــنِ وفيــــهما آبَ بـــــــاصدَرَينِ[2]

فظــنَّ أنْ لا نــافعٌ ثَــم عَمَــــلْ وشَرٌّ ما رامَ امرؤٌ مــــا لـمْ يَنَــلْ

فمـا رأى إلاّ الجُنــوحَ للسَــــلَمْ ودَفْعِ ضِغْنٍ كان في البَيْنِ ألـــم[3]

واختارَ كونَ الصُلحِ وهــو يَطمَــعُ وانكفَّ وهـــو يشــتهي ويجـــزَعُ

أرسَلَ مـــن لَدُنـــه يبغــي سَـلَما وسدَّ ما قـــد كـــان قبـلُ أثلمـــا[4]

يقـــول: قصـــدي راحـــةُ الأنـــامِ والصُلْـحُ خـيرٌ ســيد الأحكـــامِ

(ورغبةٌ في الخيرِ خــيرٌ، وعَمَــلْ بِرٌّ يزينُ، وليقِس مـــا لــم يَقُــلْ)

ومـــالَ، حتـــى أنَّـــه تـــنزَّلا عـــن الــذي كَلَّــف كــــان أوَّلا

مــن الــذي لــم يــكُ يُســـتطاعُ كـــالأبلَقِ العَقـــــوقِ لا يُطـــاعُ

وقبلُ قـــد كــان علـــى الرَّواسِـخ يعطس من زهـــوٍ بـــأنفٍ شــامِخ

وحيثُ كـــان الصـــاحبُ المُفخَــمُ الحـــازمُ الاســبهبُد المُعَظّـــمُ[5]

مــن طَــرَفِ الدولـــةِ ذا اختيـــارِ خُــيِّرَ فــي الايــرادِ والاصــدارِ

---

[1] معتبر: مختبر، يقال: سبره واسبره واستبره: أي خبره ليعرف ما عنده.

[2] آب باصدرين: أراد رجع خائبا خاسرا.

[3] ضغن: حقد. ألم: نزل.

[4] أثلما: يقال: ثلم الجدار غيره، وثلمه بتشديد اللام: احدث فيه شقا ولا يقال أثلمه.

[5] شرح الشيخ الأثري هذه اللفظة بقوله: الاسبهبذ: صوابه (اصبهبذ) ويقال (الصبهبذ) قال الجواليقي؛ فارسي معرب وهو في الديلم كالامير في العـــرب، وفـــي كتـــاب الألفاظ للفارسية المعربة: ان (اسبهبذ) بالفارسية معناه قائد العسكر، وهو أيضا اسم وعلم لملوك طبرستان.

مُرَخِّصاً في الصُّلحِ والقِتالِ   مُفوِّضاً في جُملةِ الأحوالِ

<١٨٥ب>

قيل له: افعلْ ما ترى فيما صلَح   وما أُبيحَ افعلْ ودَعْ ما لم يُبَحْ

ففكَّرَ الأمر برأيٍ صائبِ   وكرَّرَ الفِكر بفهمٍ ثاقِبِ

قدَّمَ رِجلاً تارةً وأخرى   آخر ينتحي الجديرَ الأحرى

مدبراً مقتضياتِ الحالِ   مُلاحظاً للأمرِ في المآلِ

مُفكِّراً مفهوم قولِ الشاعر   من أبلَغِ الشِّعرِ الشرودِ السائر:

(ألْبسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها   أما نعيمها وأما بُؤسَها)[1]

وبعدما استشار واستخارا   واجتهد الأصلَ افتِكارا

ألهمه الله صلاحَ الناسِ   ودَفْعِ عاجلِ البَلا والباسِ

فاختار للشِّقاق أن يَمُوصَه   إنَّ دواءَ الشِّقِّ أن تَحوصَه[2]

وإذ رأى الصَّلاحَ في المُسالَمة   أرسل من لَدُنهِ للمُكالَمة

ثلاثةً من الرِّجالِ الكُمَّلِ   عليهم أقصى مَدى المُعَوَّل:

الكَتْخُدا يومئذٍ، والسابِقا،   وكاتِبَ الديوان يتلو لاحِقا،[3]

فأبرموا الأمرَ بضربٍ لازبِ   وشيَّدوا الصُّلحَ برأيٍ ثاقِبِ[4]

وأسَّسوا مباني المُهادَنة   ومهَّدوا قواعد المُخادنة

فأُغمِدَتْ صوارِمُ الكِفاحِ   فتحاً لبابِ الصلحِ والصلاحِ

وجُملةُ الشروطِ والأركانِ   أنْ يرجع الشاه إلى إيرانِ

---

[1] اللبوس: ما يلبس، والبيت لبيهس الفزاري الملقب بـ (نعامة).

[2] يموصه: اراد يزيله، والموص: غسل الثوب غسلا لينا. تحوصه: تخيطه.

[3] كتخدا: تقدم شرحه.

[4] ضرب لازب: ثابت.

يَمكُثُ ثم يرقبُ الأخبارا   من طَرَفِ الدولةِ إنتظارا[1]
وذاكَ بعد العزمِ والإيابِ   من الغريِّ مَعْهدِ الأحبابِ
مشهدِ مَولانا الفتى عليِّ   أخِ النبيّ الطاهرِ الزكيِّ
ثم إلى الزّيارةِ السّبطِ الأجلْ   ريحانةِ الرسول ذي القدرِ الجَلَلْ[2]
وكلما كان من الأساورة   تَكُفُّ من هذي البلادِ سائرة[3]

<١٨٦أ>

وتُرجِعِ الرّقاعَ والأصقاعُ   وتُسلِّمُ البلادَ والقِلاعُ
والحمد لله ! عفى الغوائلُ   واندفع الشرور والطوائلُ[4]
وانقمع البأسُ وحَلَّ الفَرَجُ   وانشَعَب الصدْعُ وزالَ الحَرَجْ[5]
له تعالى المِنّةُ الغرّاءُ   على العِبادِ مثلَ ما يشاءُ
وبعد ذاك للوزيرِ الحازمِ   ذي الرأي والتدبيرِ والمَكارمِ
فإنه شادَ أساسَ الصلحِ   برأيهِ مُجاهِداً للنجحِ
فقد غدا ذا مِنّةٍ على المَلا   لدفعِهِ بالتي مِثلِ ذا البَلا

---

[1] انتظارا: همزته همزة وصل، صيرها همزة قطع لاقامة الوزن.

[2] كذا في الأصل، وفي ب: زيارة، وهو الصواب

[3] الاساورة: جمع الاسوار، بضم اوله وكسره، وهو قائد (الفرس) وقيل: هو الجيد الرمي بالسهام وقيل: الجيد الثبات على ظهر الفرس ويجمع على اساور ايضا.

[4] عفى: قال الأثري: وصوابه: عفا اراد عفت الغوائل أي زالت وامحت، فلم يسعفه الوزن. والغوائل: الدواهي. الطوائل: العداوات والثارات.

[5] انشعب الصدع: يقال شعب الصدع، إذا لمه واصلحه فانشعب.

فيا لـه مـن ذي دهـاءٍ مُنتَجبْ   من واضعِ الهِناء موضعَ النُّقب[1]

لله درهُ ! أصاب المَفْصَلا   وقَطَعَ المَحزَّ فيما فَعَلا[2]

فأولـه المديـح أيـاً كـانَ، لا   (تعدِل بهِ فهو يُضاهي المَثَلا)[3]

والحمـد لله علـى نوالـه   على خَفيِّ اللُّطفِ من أفضالـه

مواهـبٌ منـه توالـت زائـدةْ   (فالله بـرٌّ، والأيادي شاهِدةْ)[4]

ثـم صـلاةٌ وسـلامٌ كُمّـلا   على الذي على السموات عَـلا

محمـدٌ خيـرُ الـورى الـرؤوفِ   السيد الطُّـهُ الرِّضـا العَطـوفِ

وآلـهِ الغُـرِّ مصـابيحِ الـهُدى   وصَحبِه لُيـوثِ حَوْمـةِ الـردى

مـا أُغمِـدَتْ قَواضِـبُ الكِفـاحِ   بين الورى في السِّـلمِ والصـلاحِ

من المُحـبِّ المُخلِـص المُبـاهي   بِحُبِّ أهـل الفضـلِ: عبـد الله

---

(1) الهناء، بكسر الهاء: القطران، النقب: جمع النقبة، وهي الجرب، او اول مـا يبـدو منه، والمعنى انه ماهر مصيب.

(2) المفصل: كل ملتقى عظمين من الجسد. المحز: موضع الحز، أي القطع ويقال تكلم فأصاب المحز، اذا تكلم فاقنع.

(3) يضاهي: يشابه.

(4) البر: المحسن. الأيادي. النعم.

فصـــــل

[تكليف عبد الله السويدي بمناظرة العجم]

وبعد أن ارتحل عن الموصل خائباً، رجع إلى بغداد- كما قدمنا- آيباً، فزلزلت الأقدام، وارتاعت لقدومه الأنام، وحققوا أنه سيحاصرهم كأهل الموصل.

ولما بلغ قرب قصبة <١٨٦ب> سيدنا الإمام أبي حنيفة نعمان بن ثابت- رضي الله عنه- أرسل رسولاً إلى الوزير، يريد الصلح من آل عثمان بلا شرط من شروطه المتقدمة، وانه راغب فيه عظيم، وذلك لما شاهد من ثبات أهل بلدان الإسلام وقوة عزمهم، وتصلد أكباد أنصاره وتوقد حزمهم، فأجابه الوزير إلى ذلك، وأرسل إليه عضديه وساعديه، الأمير محمد باشا والأمير سليمان باشا، وعززهما بكاتب الديوان ولي أفندي، فعقدوا الصلح وشرطوا عليه أن يرحل إلى أرضه، ويرسلون بذلك إلى الدولة، فإن رضوا بهذا الصلح فبها، وإلا فقد عاد الحرب ورضي بذلك[1].

---

[1] جنوح نادرشاه للسلم بعد حروبه المتكررة ، على ما يصفه المؤلف هنا، جرى سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م فهو تال على طلبه من أحمد باشا ارسال عالم من طرفه للتفاوض بشأن الأمور الدينية في مؤتمر النجف، وايفاد الشيخ عبد الله السويدي لهذا الغرض سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م لا متقدم عليه. يذكر الكركوكلي (دوحة الوزراء ص٧١-٨٩) أن نادرشاه لما أيقن عجزه عن حرب الدولة العثمانية، أعلن رغبته في الصلح واحلال السلام، وأوفد القائم مقام اعتماد دولته فرزند شاه رخ إلى الصدر الأعظم، كما أوفد رئيس علماء إيران الملا علي أكبر إلى شيخ الإسلام، وسافرت هذه الوفود إلى الآستانة عن طريق بغداد، وأرسل رسالة=

ثم ذَهَبَ[1] إلى زيارة سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وليَرى قُبَّتَه، حيثُ أمر أن تُبنى بالذهب[2]، وإلى زيارة ولَدِه الشهيد الحسين رضي الله عنهما. وفي هذا الأثناء أظهَرَ نَفْسَه سُنِّياً، وأرسل إلى الوزير يريد منه عالِماً من علماء السُّنَّة، ففُهِمَ منه ظاهراً أنَّه يُريده للمناظرة مع علماء العجم.

=خاصة بيد سفيره فتح علي بك التركمان إلى والي بغداد أحمد باشا ليساعده، وليكون إلى جانبه واسطة خير وصلاح، وقد استجابت الدولة العثمانية للطلب، فأرسلت وفداً إلى بغداد على رأسه نظيف مصطفى أفندي ، وفتح علي بيك السفير الإيراني، فقام الوزير أحمد باشا من ناحيته بانتخاب كاتب الديوان ولي أفندي ليكون بمعية الوفد المذكور، ثم واصل الوفد سفره نحو إيران، حيث جرت المفاوضات مع نادرشاه وجرى توقيع وثيقة الصلح بموجب شروط الدولة العثمانية على أن يوقع الوثيقة أحمد باشا أيضاً. وفي التقرير الذي أرسله مدير البريد محمد لوالي بغداد أحمد باشا (خط همايون ١٢٢، بتاريخ ٢٨ رمضان ١١٥٨) أنه رافق ولي أفندي حتى وصوله منزل قره تبة، كان خروجه من بغداد قد جرى قبل ١٧ يوماً.

(١) يريد نادرشاه، وهذا يؤكد تقديم سفر الوفد العثماني برئاسة نظيف مصطفى أفندي، على مؤتمر النجف وإيفاد أبيه عبد الله إليه، والصحيح أن الحادثة الأخيرة تتقدم على الأولى بنحو سنة.

(٢) وكانت القبة قبل ذلك مكسوة بالآجر المزجج، وقد أمر نادرشاه بقلعه عنها، وعن الإيوان والمئذنتين، وتذهيبها، وبلغ ما أنفق على ذلك نحو ٥٠٠٠٠ تومان، عدا قيمة الذهب والنحاس، وقام بالتذهيب أكثر من مائتي صائغ ونحاس، كتبت أسماء أكثرهم على الطابق النحاسي وراء الذهب، وقد طليت كل قطعة بمثقالين من الذهب. ينظر جعفر محبوبه: ماضي النجف وحاضرها ج١، ص٦٤-٦٧.

قال الوالِد- حفظه الله- في النَّفْحَة المِسكية والرِّحلة المَكِّيـــة[١] مـــا مَصْدَرُه:

بيناً أنا جالِسٌ قُبيل مغرب يوم الأحـــد، الحـــادي والعشـــرين مـــن شوّال[٢]، إذ جاء رسول الوزير أحمد باشا يدعوني إليه، فَذَهبتُ بعد صـــلاة المَغرب، ودخلتُ دار الحُكْم، فخرج إليَّ بعضُ نُدَمانه وسُمَّارِه، أحمد آقـــا، فقال: أتدري لما طُلبتَ؟ فقلتُ: لا، فقال: إن الباشا يريد أن يُرسِـــلَكَ إلـــى الشاه نادر، فقلتُ: لِمَ ذلك؟ فقال: إنه <١٨٧أ> يُريد عالماً يبحث مع علمـــاء العجم في شأن مذهب الشيعة، .. فلما قَرَع سَـــمْعي هـــذا الكـــلام وقَـــفَ شَعري، وارتَعَدَت فرائصي، وقلتُ: يا احمد آغا.. أرجو من جَناب الوزيـــر أنْ يَرفَع هذه المِحْنَةَ عنّي، وليُرسِل المُفتي الحنفي والمفتي الشافعي، فإنهما الأنسَب في مثل هذه الحادثة، فقال: هذا أمرٌ لا يُمكِـــن! وجنـــاب الباشـــا اختارَك لذلك، فما يَسَعَك سوى الامتثال، فلا تُحرِّك لسانَك بخلاف مُراده.

ثم اجتمعتُ بالوزير أحمد باشا صبيحة تلك الليلـــة، فتَذاكَـــرَ معـــي بخصوص هذا الأمر كثيراً، وقال: أسأل الله تعـــالى أن يُقَـــوّي حُجتَـــك، ويُطلِق بالصواب لسانك، لكن أنتَ مُخَيَّر بين المباحثة وعَدَمِها، فإن رأيـــتَ منهم العِناد وعدم الإنصاف، فقُل: إني لستُ بمأمورٍ بالمباحثة من طَـــرَف الباشا، لكن لا تترك البحث بالكُلِّيَّة، بل أُورِد بعض الأبحاث فـــي خـــلال

[١] عنوان الرحلة كما سماها مؤلفها (النفحة المسكية في الرحلة المكية) وما نقله يشغل الأوراق ١١٥أ- ١٣٤أ من نسخة المتحف البريطاني ذات العدد ٢٣٣٨٥.

[٢] ويوافق ٨ كانون الأول سنة ١٧٤٣م.

الصُّحبة بالمناسبة ليَعلَم العجم أنكَ ذو علم، وإن رأيتَ منهم الإنصاف، وإنهم يريدون اظهار الصواب، فابحث معهم، وإياك أنْ تُسلِّم لهم.

ثم قال: إن الشاه في النجف، وأُريدك صبيحة يوم الأربعاء تكون عنده. فأُتيَ لي بِكُسْوة فاخرة، ودابَّة، وخادِم. وأرسل الباشا معي بعض خُدَّام رِكابه، وواجَهنا مع العجم الذين جاءوا في طلَبنا، فَخَرَجنا يوم الاثنين، قُبيل العصر، الثاني والعشرين من شوال، فلم أزَل في الطريق أُصوِّر الدلائل من الطرَفَين، وأُخيِّل الأجوبة إذا وقَع اعتراضٌ في البَيْن. ولم يَزَل هذا دأبي ودَيْدَني، لا فِكر لي إلاّ في تصوير الدلائل ودفع الشُّبَه، حتى أني صوَّرتُ أكثر من مائة دليل خيَّلتُ جواباً أو جوابين أو ثلاثة على حسب الشُّبَه ومظنَّتها.

وحصَل لي في الطريق ضيقٌ وحَصَر، حتى أن <١٨٨أ> بَولي كان دماً عبيطاً، فَدَخَلنا حِلَّة دُبَيس بن مزيَد، وهي إذ ذاك في يد الأعجام، فلقيتُ فيها بعض أهل السُّنّة والجماعة، فأخبروني أنَّ الشاه جَمَع لهذه المسألة كل مُفتي في بلاده، وقد بلغوا الآن سبعين مُفتِيّاً، ..فلما طرق سَمْعي ذلك حَوقَلتُ واستَرْجَعتُ، وزورتُ في نفسي كلاماً، وقلتُ: إن قلتُ لستُ بمأمور في المباحثة فأجد نفسي لا تطيب بذلك، وإن باحثتُهم أخشى أن ينقلوا للشاه خلاف ما وقَع، فعزم رأيي، وجَزَم فكري، بأني لا أباحثهم إلاّ بحضور الشاه. وأقول إن مباحثتي مع هؤلاء يحتاج إلى حَكَم عالِم لا يكون سُنياً لئلا يُتّهم في أنه يريد مناصرَتي، ولا يكون شيعياً لئلا يُتهم أنه يريد مناصرتهم، فيُحتاج حينئذٍ إلى عالِم أما يهودي أو نصراني أو غير ذلك ممن لا يكون سنياً ولا شيعياً، وأنَّى بذلك! فأنتَ الحَكَم بيننا، والله

سائلك يوم القيامة، فاسمع مقالتي ومقالاتهم لكي يظهر لك الحق. ثم إنـــي خَيَّلتُ أنه لو مالَ رأيه إليهم أُخاصيمه وأُكالمه ولو أدّى ذلك إلى قتلي. هــذا كلُّه أجريتُه في مُخيِّلتي. فخرَجنا من الحِلَّة المذكورة العشاء الآخـرة ليلـة الأربعاء، الرابعة والعشرين من شوال. وكـــانت ليلـة كثـيرة الـدُّث[1] والضباب لا يبصر الإنسان فيها يده، بل هي أشدُّ وأبرد من الليلة التي قـال فيها الشاعر وهي [من البسيط]:

في ليلـــة مـــن جُمـادى ذاتَ أنْديَـــةٍ لا يُبصرُ الكَلْبُ في أرجائها الطُّنُبـا[2]

فلم نَزَل نسير تلك الليلة، إلى أن جِئنا المَشْهَد المنســوب <١٨٨ب> إلى ذي الكِفل- على نبينا وعليه الصلوة والسلام- وهو نِصــف الطريــق الذي بين الحِلَّة والنجف. فنَزَلنا خارج البناء واســترحنا قليـلاً، وسِـرنا، وصلَّينا الفَجْر عند بئر دَنْدان، فلم نشعر إلاّ والبريد يَعدو عَــدْواً شــديداً، فقال لي: أسرِع فإن الشاه يَدْعوكَ هذا الوقت! وكانت المسافة بيني وبيــن مُخيَّم الشاه فَرْسَخين، فقلت للبريد: كيفَ عادة الشاه إذا أُرْسِل إليه رســولٌ من طَرَف بعض الملوك يَطْلُبه كَطَلَبي هذا من الطريق، أم يبقى مُــدة ثــم يَطلبه؟ فقال: ما يَطلب أحداً من الطريق، ولا طَلَــب سِـواك! فتحرَّكَــت السوداء، فقلتُ في نفسي: ما طَلَبَكَ الشاه مُستَعجِلاً إلاّ ليلجئك على الإقـرار والتصديق بمذهب الإمامية، فأقلاً يُرغبكَ في الأمــوال، فــإن أجَبْتَــه وإلاّ أكْرَهَكَ على الإقرار والتصديق، فما رأيك؟ فجَزَمْتُ على أني أقول الحــقَّ

---

[1] الدث: أضعف المطر وأخفه.

[2] الطنب حبل الخباء والسرادق ونحوهما.

ولو كان فيه تلَف نفْسي، ولا يُميلْني ترغيب، ولا يُزعِجُني ترهيب.. وقلتُ: إن الإسلام وقَف يوم تُوفّي النبي- صلى الله عليه وسلم- فمشى بسبب أبي بكر الصديّق رضي الله عنه، ووَقَف ثانياً في مِحْنة القول بخلْق القرآن، فدَرَج بسبب أحمد بن حنبل رحمه الله. وفي هذا اليوم وقَف الإسلام ثالثاً، فإن توكّفتُ وقَف وقوفاً أبدياً- نعوذ بالله من ذلك- وإنْ درجتُ دَرَجَ دَرْجاً سرمدياً، ووقُوفه ودَرْجُه بسبب وقوف أهله ودَرْجِهم. ولا ريب أن أهل تلك الأطراف لهم بهذا الفقير حُسن ظَن فيقتدون بيَّ إن خيراً فخيرٌ <١٨٩أ> وإن شرّاً فشَر. فجَزَمت نيّتي وحَسُنَت طَويّتي، ووطَنتُ نفسي على المَوت حتى استَسْهلتُه، وقلتُ: آمنتُ بالله وملائكتَه وكتُبه ورسُلِه واليوم الآخر، وبالقَدَر خَيره وشَرّه من الله تعالى، أشهدُ أن لا اله إلاّ الله واشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فَسِقْتُ دابتي وأنا أكرِّر الشَهادتَين. فتراءى لي عَلَمان كبيران رَفيعان كالنّخلَة السَحُوق[1]، فسألتُ عنهما، فقيل لي: إنهما عَلَما الشاه، يَغْرِزهما ليَعلَم أكابر الجنود كَيْفيّة نزولهم في المُخَيَّم، فمنهم من ينزِل عن يمين العَلَمَيْن، ومنهم من ينزِل عن شِمالهما إلى غير ذلك من الأوضاع.

فَسِرنا حتى رأينا الخِيام، وخَيْمتُه على سبعة أعمِدة كِبار دقيقة، فجئنا إلى محل يُعبَّر [عنه] عندهم بالكُشُك خانة، وهي عِبارة عن خِيام مُتَقابلاتِ في كُلِّ طَرَف خَمْسَ عشرة خَيْمة، على هيئة القُبَّة التي لها إيوان، لكن ذلك بلا عَمود. وبَيْنَ رأس الخِيام مما يلي خيمة الشاه رِواقٌ

---

[1] السحوق: الطويلة.

مُتَّصِل، وفي وسَطِه بابٌ عليها سَجافٌ[1]، ففي الخيام التي على اليمين نحو أربعة آلاف بَنادِقي، يَحرِسون ليلاً ونهاراً، والتي على الشمال فارغة فيها كراسي لا غيْر. فلما دَنَوْتُ إلى الكُشُك خانَة نزلتُ، فخرَج لاستِقبالي رجلٌ، فرَحَّبَ بي وأكرَمَني، ولم يَزَل يسألني عن الباشا وعن خواص أتباعه، وأنا أتعجَّبُ من كثْرَةِ مَعرِفته بأتباع الباشا، فلما شَعَر ذلك منّي قال: كأنّك لا تَعرِفُني؟ فقلتُ: لا أعرِفُك! فقال: أنا عبد الكريم بك، خَدَمتُ في باب <٨٩ ب> أحمد باشا مُدَّة، وفي هذه الأيام أُرسِلتُ من طَرَف الدولة الإيرانية (إلى الدولة)[2] العثمانية ايلجياً[3].

فبيناً هو يُحدِّثني، فإذا نحو تسعة رِجال أقبلوا، فلما وَقَع نَظَرَه عليهم قام على قَدَمَيْه، فسلَّموا عليَّ، فرددتُ عليهم السلام وأنا جالِس لا أعرِفُهم، فَشَرع عبد الكريم بك يُعَرِّفهم واحداً واحداً، فقال: هذا مِعيار الممالك حسن خان، وهذا مصطفى خان، وهذا نَظَر علي خان، وهذا ميرْزا زَكِي، وهذا ميرزا كافي، فلما سمعتُ بذِكْرِ مِعيار الممالك قمتُ على قَدَميَّ وصافَحَني هو ومن معه ورَحَّبوا بي. ومِعيار الممالك هذا هو وزير الشاه، كُرْجِي الأصل من مَوالي الشاه حسين.

ثم قالوا لي: تَفَضَّل لمُلاقاة الشاه. فرَفَعوا السَّجَف الذي في وسط الرِواق، فبانَ وراءه رِواق آخر بينهما فُسْحةُ ثلاثةِ أذرع، فأوقَفوني هناك، وقالوا: إذا وَقَفنا تَقِف، وإذا مَشَينا تَمَشى. فأخذنا ذات اليسار فانتهى

---

[1] السجف: الستر.

[2] وردت في الهامش.

[3] تقدم التعريف بهذا اللفظ.

الرّواق، وإذا ببَرٍّ أفْيَح واسع يُحيط به رِواقٌ يُرى من البُعد، وفيه خيامٌ كثيرة لنِسائه وحَرَمِه، في صدرها خيمة الشاه، وإذا هو عنّي مِقدار غَلْوَةِ سَهْمٍ، جالِسٌ على كرسي عالٍ، فلما وقَع نَظَره عليَّ صاحَ بأعلى صوت: مَرْحَباً بعبد الله أفندي! أخبَرَني أحمد خان باشا يقول: إني أرسلتُ إليكَ عبد الله أفندي.

ثم قال: تَقَدَّم. فتقدّمتُ نحو عشرِ خُطى، وعن يميني جميع الخانات، وعن يساري عبد الكريم بك. ثم قال: تقَدَّم، وأنا أتقدم خُطى صِغاراً مثل الأوّل، ووَقَفْنا. ولم يَزَل يقول لي تقدّم، وأنا أتقدّم خُطى صِغاراً حتى صِرتُ منه <١٩٠أ> قريباً نحو خمسة أذرع فوَقَفْنا، فرأيته رجلاً طويلاً كما يُعلم من جِلْسَتِه، على رأسه قَلَنْسوة مُرَبَّعة بيضاء كقلانِس العجم، وعليه عِمامة من المِرْعِزي[1] مُكلّلة بالدُّر واليواقيت والألماس وسائر نفائس الجواهر، وفي عُنُقِه قلائد الدُّر والجَوْهَر، وعلى عَضُدَيْه كذلك الدُّر والألماس واليواقيت مُحيطة على رُقْعةٍ مَربوطةٍ بعَضُدِه، ويلوح على وجهه أثَرُ الكِبَر وتقدُّم السّن، حتى أن أسنانه المُتقدّمة ساقِطة، فهو تقريباً ابن ثمانين عاماً[2]، ولِحيتُه سوداء مصبوغة بالوَسْمَة لكنها حَسَنة، وله

---

[1] المرعزي، صفة عني بها اللين من الصوف، وقيل: المرعزي الصوف يخلص من بين شعر العنز، أو هو الزغب الذي تحت شعر العنز.

[2] هذا التقدير انفرد به المؤلف، لان اكثر التواريخ الايرانية تذكر ان نادر ولد سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م، ومعنى هذا ان عمره كان، حينما رآه الشيخ عبد الله السويدي، يناهز السابعة والخمسين سنة قمرية (أو ٥٦ سنة شمسية).

حاجِبان مُقَوّسان مَقرُونَان، وعَيْنان تميلان إلى الصِّغَــر قليــلاً إلاّ أنــهما حَسَنتان. والحاصِل أن صورته جميلة.

فحينما وَقَع نظري عليه زالت هَيْبَته عن قلبي، وذَهَب عني الرُّعب، فخاطبني باللغة التُّركُمانية كخِطابه الأول، وقال لي: كيف حال أحمد خان؟ فقلتُ: بِخَيْر وعافية. فقال: أتدري لِمَ أردتُك؟ فقلــتُ: لا. فقــال: إن فــي مملكتي فِرقَتَين: تُركستان وأفغان يقولون للإيرانيين أنتم كُفّار، فالكُفر قبيـح ولا يَلِيق أن يكون في مملكتي قومٌ يُكَفِّر بعضُهم بعضاً، فالآن أنتَ وكيــلٌ من قِبَلي ترفع جميع المُكفِّرات، وتشْهد على الفِرَق الثلاث بما يلتزمونــه، وكل ما رأيتَ أو سَمِعتَ تُخبِرني وتنقله لأحمد خان.

ثم رخّص لي بالخروج، وأمرَ أن يكون دار ضيافَتي عنــد اعتمــاد الدولة، وأن أجتَمِع بعد الظُّهر مع المُلاّ باشي علي الأكبر. فخرجتُ وأنــا في غاية الفرح والسرور، <١٩٠ب> لأن حكم العجم صار بيديّ. وأتيـتُ دار الضّيافة، فجلَستُ قليلاً، فجاء الاعتماد إلى خيمتِه فدَعاني إلى الطعـام، وكان المَهمَنْدار[1] نَظَر علي خان وفي صُحبته عبد الكريم بك وأبو ذَر بك كانوا هؤلاء في خِدْمتي. فلما أقبلتُ على الاعتماد سلّمتُ عليه، فردَّ علــيّ السلام وهو جالس، فانفَعَلْتُ ووَجَدْتُ في نفسي حيثُ لم يَقُم علــى قَدَميـه، فقلت في نفسي: إذا استقَرَّ بي الجلوس أقول للاعتماد إن الشاه أمر برفــع المُكَفِّرات ووكّلني على ذلك، فأول كُفرٍ أرفَعُه الكُفر الصادر منــكَ حيـث قَصَدْتَ تحقير العلماء وإهانتهم، ولا أرضى بِرَفْعه إلاّ أن يكون بقَتْلِك! ثــم

---

[1] لفظة فارسية بمعنى: المضيف، ومهمة صاحبــها اسـتقبال السـفراء والـترحيب بوفادتهم، وتيسير الأمر الذي قدموا من أجله. واستعملها العثمانيون بالمعنى نفسه.

أقوم من مَجلِسه فأذهبُ إلى الشاه أُخبره بالواقِعة. هذا كله صورتُه في نفسي فجلَستُ، فلما استقر بي الجُلوس نَهَضَ على قَدَمَيْه ورحَّب بي، وإذا هو رجلٌ طويل جداً، أبيض الوجه، كبير العينين، لِحْيَته مصبوغة بالوَسْمة، إلاّ أنه رجلٌ عاقِل يفهم المحاورات ويَعقِل المذاكرات، في طَبْعِه لِينٌ ومَيْلٌ إلى السُّنّة والجماعة، فلما قام عَلِمتُ أن هذه عادتهم، يقومون بعد جلوس القادم. فأكَلْتُ عِنده الغَداء.

فجاء الأمرُ باجتماعنا مع المُلاّ باشي، فرَكِبتُ دابّتي، والجماعة المَهْمَنْدارية يَمشون أمامي، فعارَضَني في الطريق رجلٌ زِيُّهُ زِي الأفغان، فَسَلَّم عليَّ ورحَّب بي، فقلت: مَن أنت ومن تكون؟ فقال: أنا المُلا حمزة الصحابي مُفتي الأفغان. فقلتُ: يا حمزة أتُحسِن العربية؟ فقال: نعم. فقلتُ: إن الشاه أمر برفع كلّ كُفرٍ عند <١٩١أ> الإيرانيين، فربما يُنازِعون في شيئٍ من المُكفِّرات، أو أنهم لا يَذكُرون بعض المُكفِّرات، ونحن لا نَعرُف أحوالهم ولا عباداتهم، فكلما اطلعتَ على مُكفر فاذكُره حتى أرفَعهُ. فقال: يا سيدي! اِيّاك أن تَغتَرَّ بقولِ الشاه، وإنما أرسلَكَ إلى الملا باشي ليبلجئوك في أثناء الكلام وفي خلال المُحادثة فاحتَرِز منه، فقلتُ: إني أخشى عدم إنصافهم. فقال: كُن أميناً من هذا، فإن الشاه جعل على هذا المجلس ناظراً، وعلى الناظر ناظرٌ آخر، ثم على الآخر آخر، وكل واحدٍ لم يدرِ بحال صاحبه، فلا يُمكن أن يُنقل للشاه خِلاف الواقع.

فلما قَرُبْتُ من خيمة المُلاّ باشي خرَج لاستقبالي راجِلاً، فإذا هو رجلٌ قصيرٌ أسمر، له أصداغ إلى نصف رأسه، فنزلتُ من دابّتي، فرَحّب بي، وأجلَسَني فوقه على المَنَصّة، وجلس كهيئة التِّلميذ، فدار الكلام

بيننا[1].. ثم أن الشاه أُخبر بهذه المُباحثة طيْقَ ما وقَعَت، فأمر أن يجتمع علماء إيران وعلماء الأفغان وعلماء ما وراء النـهر، ويرفعوا جميع المُكَفِّرات كلها، وأكون ناظِراً عليهم، وكيلاً من الشاه، وشاهِداً على الفِرَق الثلاث بما يتفقون عليه.

فخرَجنا نَشُقُّ الخيام حتى خيام الشاه، والأفغان والأزْبَـك والعجـم يشيرون إليَّ بالأصابع، وكان يوماً مشهوداً. فاجتمع في المُسَـقَّف الـذي وراء ضريح الإمام علي– رضي الله عنه– علماء إيران، وهم نحو سبعين عالماً ما فيهم سُنِّي إلاّ مفتـي أردلان، فطلبـت دَواةً وقِرْطاسـاً <١٩٥أ> وكتبت المشهورين منهم، وهم:

المُلا باشي علي الأكبر

مفتي الرُّكاب آقا حسين

الملا محمد إمام لاهِجان

آقا شريف مفتي مشهد الرِّضا

ميرزا برهان القاضي بشِروان

---

(١) أقحم المؤلف هنا رسالة قائمة برأسها كان قد وضعها أبوه عبد الله السويدي، فـي وصف ما دار من محاورات عقائدية فقهية دارت بينه وبين علماء الإيرانيين فـي المؤتمر المذكور، وقد نقلها، إي عبد الله، إلى كتاب رحلته (النفحة المسـكية فـي الرحلة المكية)، ونشرت مستقلة بعنوان (الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسـلامية) وطبعت مراراً وترجمت إلى اللغة التركية، فلم نر وجه فائدة تاريخية مـن ادراج هذه المحاورة، فهي مقحمة أصلاً على سياق الحوادث التي يرويها الكتاب، ومـع ذلك أبقينا على الجانب التاريخي منها، ويمكن لطالبها أن يرجع إليها في الأصـل، الورقة ١٩١ب-١٩٤أ.

الشيخ حسين المفتي بأورمِيَة

ميرزا أبو الفضل المفتي بقُم

الحاج صادق المفتي بجام

السيد محمد مهدي إمام أصفهان

الحاج محمد زكي المفتي بكَرْمان شاه

الشيخ محمد التمامي المفتي بشيراز

ميرزا أسد الله المفتي بتبريز

الملا طالب المفتي بمازِنْدَران

محمد مهدي نائب الصدارة بمشهد الرِّضا

الملا محمد صادق المفتي بخَلخال

محمد مؤمن المفتي بأستراباد

السيد محمد تقي المفتي بقزوين

الملا محمد حسين المفتي بسَبْزَوار

السيد بهاء الدين المفتي بكَرْمان

والسيد أحمد أفندي المفتي بأردلان الشافعي

وغيرهم من العلماء

ثم جُملة من علماء الأفغان فكتبت أسماءهم، وهم:

الشيخ الفاضل الملا حمزة الغلجائي الحنفي مفتي الأفغان

الملا أمين الأفغاني الغلجائي بن ملا سليمان قاضي الأفغان الحنفي

الملا عبد الرزاق الأفغاني الغلجائي الحنفي

الملا إدريس الأفغاني الأبدالي الحنفي <١٩٥ب>

ثم بعد زمان، جاء علماء ما وراء النهر، وهم سبعة، يقدمهم شيخ جليل عليه المهابة والوقار، عليه عِمَّة كبيرة مُدوَّرة، فخُيِّل للناظر أنه أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة- رحمهما الله تعالى. فسلَّم وأجلسوه جهة يميني، إلاَّ أن بينه وبينه خمسة عشر رجلاً. وأجلسوا الأفغان جهة شمالي، بينهم وبيني نحو خمسة عشر رجلاً، وذلك من مكر العجم ودهائهم، خافوا أن ألقنهم بعض الكلمات أو أشير إليهم، فكتبتُ أسماءهم وهم:

العلامة هادي خواجة الملقب ببحر العِلْم ابن علاء الدين البُخاري القاضي ببُخارى الحنفي

مير عبد الله صدور البخاري الحنفي

قَلَندر خواجه البخاري الحنفي

ملا أُميد صدور البخاري الحنفي

بادشاه مير خواجه البخاري الحنفي

ميرزا خواجه البخاري الحنفي

الملا إبراهيم البخاري الحنفي

...

ولما جاء الاعتماد من الشاه، وكان قد مضى من الليل أربع ساعات كما هي العادة، قال لي: إن الشاه شَكَر فِعلك، ودعا لك، وهو يُسلِّم عليك، [و] يرجو منك أن تحضَر معهم غداً في المكان الأول، لأنِّي أمرتَهُم أن يكتبوا جميعَ ما قَرَّروه والتَزَموه في رُقعةٍ، ويضع كلٌّ منهم خاتمه تحت اسمه، وأرجو منكَ أن تكتب شهادتك فوق الرقعة في صدرِها بأنك شهدتَ

على الفِرق الثلاث بما التزَموه وقرَّروه، وتَضَع خـــاتَمك تحـت اسـمك.

فقلتُ: حُبّاً وكرامة.

فقبلَ ظُهرِ يوم الخميس، الخامس والعشرين من الشـــهر المذكـور، جاء الأمر بأن نَحْضَر كلّنا في المكان الأول، فاجتمعنا كلُّنـا فــي مكاننـا الأول، والعجم مُتَّصِلة من خارج القرية إلى باب الضريح على القَدَم، أقدامٌ كثيرة بازدحامٍ عظيم يَبلغ عدَدُهم نحو الستّين ألفاً.

فلما جلسنا أتَوْا بجريدة طولُها أكثر من سبعة أشبار، سطورها إلـى ثُلثَيها طِوال، والثُلث الثالث مُقسَّم أربعة أقسام، بين كُلِّ قِسمٍ بيـاضٌ نحـو أربعَ أصابِع أو أكثر، لكن السطور أقصر من السطور الاول بكثير. فـأمر المُلاّ باشي مفتي الرُكاب آقا حسين أن يقرأها قائماً على رؤوس الأشـهاد، وكان رجلاً طويلاً بائناً، فأخذ الجريدة وهي مكتوبة باللغة الفارسية، فكـان مضمونها: إن الله تعالى اقتَضَت حِكمتُه إرسال الرُسل، فلم يَـزل يُرسِـل رسولاً بعد رسول حتى جاء نَوْبةُ نبينا محمد المصطفى صلّـى الله عليـه وسلم. ولما توفي، وكان خاتِم الأنبياء والمُرسَلين، اتّفَق الأصحاب- رضي الله عنهم- على أفضلهم وخيِّرهم وأعلمهم أبي بكر الصدِّيـق بـن أبـي قُحافة- رضي الله عنه- فاجمعوا واتّفقوا على بيعته، فبايَعوه كلهم حتـى الإمام علي بن أبي طالب بِطَوْعِه واختياره من غيرِ جَبْرٍ ولا إكراه، فتمّـت له البيعة والخِلافة وإجماع الصحابة- رضي الله عنهم- حُجَّة قطعية. وقـد مَدَحهم الله تعالى ﴿والسَّابِقون السابقون من المُهاجِرين والأنصار﴾[1] الآيـة

---

[1] الواقعة، الآية ١٠.

وقوله تعالى ﴿لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايعونَكَ تحت الشَّجَرة﴾[1] الآية، وكانوا إذ ذاك سبعمائة صحابي كلهم حضروا بَيْعة الصدِّيق. وقال صلى الله عليه وسلم: أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقْتَدَيْتم اهتَدَيْتم. ثم عَهَد أبو بكر الصديق بالخلافة لعمر بن الخطاب، فبايَعَه الصَّحابة كلُّهم حتى الإمام علي بن أبي طالب، فكانت بَيْعَته بالنُّصبِ والإجماع، ثم أن عمر جعل الخلافة شُورى بين ستةٍ أحدهم علي بن أبي طالب، فاتَّفق رأيهم على عثمان بن عفّان. ثم أنه استُشهد في الدار ولم يَعْهَد، فبَقِيت الخلافة شاغِرة، فاجمع الصحابة في ذلك العصر على علي بن أبي طالب. وقد كان هؤلاء الأربعة في مكان واحدٍ، في عصر واحد، فلم يَقَع بينهم تَشاجُر ولا تَخاصُم ولا نِزاع، بل كان كل منهم يُحِب الآخَر ويمدحه ويُثْني عليه، حتى أن علياً سُئل عن الشَيْخَين، فقال: هما إمامان عادلان قاسِطان كانا على الحَقِّ وماتا عليه. وإن أبا بكر لما وُلِّي <١٩٨أ> الخِلافة قال: أتُبايعوني وفيكم علي بن أبي طالب. فاعلموا أيُّها الإيرانيون أن فَضْلَهم وخِلافتهم على هذا الترتيب، فمن سَبَّهم أو انتَقَصَهم فإنه وولده وعِياله ودَمُه حَلال للشاه، وعليه لعنة الله وملائكته وكُتُبه ورُسُله والملائكة أجمعين. وقد كنتُ شَرَطْتُ عليكم حينَ بايَعْتَموني في صحراء مُغان، عام ثمانية وأربعين ومائة وألف، فشَرَطْتُ عليكم رَفْع السَّب، فالآن رَفَعتُه، فمن سبَّ قَتَلْتُه وأسرتُ أولاده وعِياله وأخذتُ أمواله، ولم يكن في نواحي إيران ولا في أطرافها سَب، ولا شيءٌ من هذه الأمور الفَظيعة، وإنما حَدَثَت أيام الخبيث

[1] الفتح، الآية ١٨.

الشاه إسماعيل الصفَوي، ولم تَزَل أولاده بعده تَقْفُو أثره، حتى كَثُر السَّب، وانتَشَرَت البِدَع، واتَّسَع الخَرق، وذلك عام ثمانمائة وسبعة وخمسين[1]، فيكون لظُهورِ هذه القبائح ثلاثمائة سنة. ثم أنَّه تكلَّم كثيرا في هذه الجريدة لا دخلَ لذِكْرِه هنا. إلى هنا انتَهت السُّطور الاوَّل.

أقول: قد اعترضتُ على بعضِ ألفاظ هذه الرُّقعة، منها إنـي قُلتُ للمُلا باشي: لَفْظَةَ النَّصب المذكورة في خلافة سيدنا عمر، ضَعْ بَدَلها لَفْظَة العَهْد، لأن في لَفْظَةِ النَّصب شائبة أنَّهم ناصية، وأنتم تُفَسِّرون النَّاصبية بِمَن نَصَبَ نَفسَه لبُغْضِ علي، فعارضني بعض الحاضرين، وهو السيد نصر الله[2]، وقال: هذا خِلاف ظاهِر اللَّفظ، والمعنى الذي ذكرتَه لم يَخطِر

---

[1] الموافقة لسنة ١٤٥٣م.

[2] هو السيد نصر الله بن الحسين بن علي بن يونس بن جميل بن علم الدين بن طعمة الفائزي الحائري، أديب فقيه، عاش في كربلاء، وإليها نُسب، وأخذ العلم عن علمائها، ثم تولى التدريس في مدارسها، وكان ولوعاً باقتناء الكتب، ترجم له عصام الدين العمري وأثنى على أدبه (الروض النضر ج٣ ص١٣٠) ونوه الخوانساري بحادثة قتله، فقال ولما دخل النادر (يريد: نادرشاه) المشاهد المشرفة في النوبة الثانية (سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م) وتقرب إليه السيد (يريد نصر الله) أرسله بهدايا وتحف جليلة إلى الكعبة المعظمة، فأتى البصرة ومشى إليها من طريق نجد ووصل إليها، فأتى عليه الأمر بالشخوص سفيراً إلى سلطان الروم (يريد السلطان العثماني) لمصالح تتعلق بأمور الممالك والملة، فلما وصل إلى قسطنطينية وشي به إلى السلطان وذكر أنه قتل هناك، ولم يحدد تاريخ قتله، ولكنه ذكر أنها تقع فيما بين ١١٥٠ و١١٦٠ (روضات الجنات، طبع حجر ايران، ص٧٣٤) وفي مصادر ترجمته الأخرى أنها حدثت سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٤م (سلمان هادي طعمة: شعراء من كربلاء، النجف ١٩٦٦، ج١ ص٣٢)، وله ديوان مطبوع، نشره عباس الكرماني (النجف ١٩٥٤) ورسالة في تحريم التتن، وسلاسل الذهب، وغير ذلك.

ببال أحد، ولا أحد يقصده وأخشى عليك أن تثور الفتنة بسببك، ووافقه الملا باشي <١٩٨ب> على ذلك فسكت. ومنها إني قلت للملا باشي: إن قول علي في مدح الشيخين: هما إمامان، إلى آخره، أنتم تحملونه على معانٍ لا تليق بحق الشيخين، فعارضني في ذلك الرجل الأول مثل ما مر. ومنها إني قلت له: إن قول أبي بكر في حق عليّ حين المبايعة لم يثبت عندنا، بل هو موضوع، فأنا أذكر لكم قول عليٍّ في مدح الشيخين غير ما ذكرتموه مما هو صريحٌ في تعظيمهما، وأذكر لكم مدح أبي بكر بعلي غيرَ ما ذكرتموه مما هو ثابتٌ، فعارضني الرجل بمثل ما تقدم، ووافقه الملا باشي على ذلك.

هذا والسطور القصار التي تلي كلام الشاه مضمونها عن لسان الإيرانيين وهو: إنا قد التزمنا رفعَ السب، وإن الصحابة فضلهم وخلافتهم على هذا الترتيب الذي هو في هذه الرقعة، فمن سبّ منا أو قال خلاف ذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وعلينا غضبُ نادرشاه، ومالنا ودماؤنا وأولادنا حلال.

ثم أنهم وضعوا خواتيمهم في البياض الذي تحت كلامهم.

والسطور القصار التي تلي هذه عن لسان أهل النجف وكربلاء والحسكة والجوازر، ومضمونها عين الأول، ثم وضعوا خواتيمهم تحت ذلك في البياض المذكور، ومنهم السيد نصر الله المعروف بابن قطة، وهو

الذي أكثر في المُعارضة في نَصرِ مَذهَب الشّيعة، والشيخ جَـواد النُجَفــي الكوفي[1] وغيرهم.

وفي السطور القِصار التي تلــي ذلـك عــن لِســان الأفغــانيين، ومضمونها إنّ الإيرانيين إذا التزموا ما قرّروه، ولم يَصدُر عنهم خِـلاف ذلك فهم من الفِرَق الإسلامية لهم ما للمسلمين وعليــهم مــا عليــهم. ثـم <١٩٩أ> وضعوا خواتيمهم في البَياض الذي تحت.

وفي السطور التي تَلي ذلك عن لِســان علمــاء مــا وراء النّــهر، ومضمونها عَيْن ما قاله الأفغانيون، ووضَعُوا خواتيمهم تحت أسمائهم.

ثم أنَّ هذا الفقير كتَبَ شهادتَه فوق في صدر القَيّمة[2] بأني شَــهِدتُ على الفِرَق الثلاث بما قرّروه والتزموه، وأشْــهَدوني عليــهم، ووَضَعــتُ خاتَمي تحت اسمي فوق.

وكان هذا الوقت وقتا مشهوداً من عجائب الدنيا، وصار لأهل السُّــنَّة فَرَحٌ وسرور لم يَقَع مِثْله في هذه العصور، لا تشبهه أعــراسٌ ولا أعيــاد

---

(1) هو الحاج محمد جواد بن عبد الرضا آل عواد البغدادي الحائري، شاعر، له ديـوان فيه قصائد منها في مدح الوزير حسن باشا لما أجراه من إصلاحات عديــدة فــي حضرة الإمام علي (ع)، ومنها وضــع الشباك الفضــي علــى مرقـده سـنة ١١٢٦هـ/١٧١٤م، ومنها قصيدة في مدحه عند تعميره مسناة جسر بغــداد ســنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م، وله مراسلات مع السيد نصر الله الحائري المذكـور، وكــان حياً سنة ١١٦٣هـ/١٧٤٩م. ينظر: سلمان هادي آل طعمة: شعراء من كربــلاء، النجف ١٩٦٦، ج١، ص٢٤-٣١.

(2) كذا في الأصل، ولعله يريد القائمة التي أودع فيها أسماء العلماء المذكورين.

والحمد لله على ذلك. ثم أن الشاه بعثَ حلويّات في الصُّواني والخُنْجات[1]، ومع ذلك مَبْخَرة من الذهب الخالص مُرَصَّعة بجميع نفائس الجَّواهر مما لا يُتَقَوَّم، وفيها من العَنْبَر ما هو قَدَر الفِهر[2]، فتَبَخَّرنا وأكلنا. ثم أن الشاه وَقَفَ تلك المبخَرَة على حضرة سيدنا علي، فخرَجنا وإذا الناس من العجم والعرب والتُّركستان والأفغان ما لا يُحصي عدَدَهم إلاّ الله تعالى. وكان خروجنا بعد الظهر، يوم الخميس، بساعة.

ثم أتِيَ بي إلى الشاه مرّة أخرى، فدَخَلتُ عليه على تلك الحالة الأولى، ولم يَزَل يأمرني بالتقدُّم حتى قرَبْتُ منه أكثر من الموقف الأول، فقال لي: جَزاكَ الله خيراً، وجزى أحمد خان خَيْراً، فوالله إنّه ما قصَّر في إصلاح ذات البَيْن، وإطفاء الفِتْنَة وحَقْنِ دماء المسلمين، لكنّا لا نصدّكه وآل عثمان لا يُصدّكونه، فهو متّهَم بين الفَريقَين، جَعَل الله عِزّه ورِفعتَه أكثر من ذلك. ثم قال لي: يا عبد الله أفندي! لا تَظنّ أن الشاهِنْشاه يفتخِر بمثل ذلك، وإنما هذا أمرٌ يَسَّره الله ووَفّقني له، حيثُ كان رَفْعُ سَبِّ الصَّحابة على يديّ مع أن آل عثمان، منذ سُلطان سليم[3] إلى يومنا هذا كم جهّزوا عساكر وجُنوداً، وصَرَفوا أموالا، وتلَفوا أنفساً، ليرفعوا السَّب فما تهيّأ لهم، وأنا بحمد الله وعونه رفعتُه بسهولة، وهذه القبائح نشَأت من

---

[1] الخنجات جمع خنجة، بجيم فارسية مثلثة، قال الشيخ الأثري: هي صينية من خشب.

[2] الفهر: الحجر.

[3] يريد السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م).

الخبيث الشاه إسماعيل[١]، أغواه أهلُ لا هِجان[٢]، ولم تَزَل إلى يومنا هـذا. فقلت له: إن شاء الله، تَرُدُّ العجم كلهم إلى ما كانوا عليه أولاً من كَونِـــهم أهل السُّنة والجماعة. فقال: إن شاء الله تعالى، لكنْ علـــى التَّدريـــج أولاً فأولاً. ثم قال: يا عبد الله أفندي! أنا لو افتَخِر لافتخَرْتُ بأني في مجلســي هذا عبارة عن سلاطين أربعة، فأنا سلطان إيران، وســـلطان تُركسـتان، وسلطان الهند، وسلطان الأفغان، لكن هذا الأمر من توفيق الله تعالى، فأنــا لي مِنَّة على جميع الإسلام حيث إني رَفَعتُ السَّب عن الصحابة، وأرجــو أن يَشفَعوا لي. ثم قال: كنتُ أُرسِلُك لعِلْمي أن أحمد خان بانتظارك، لكــن أرجو أن تبقى عندنا فإني أمرتُ أن نُصلّي الجمعة فـــي جـامع الكوفـة، وأمرتُ بأن تُذكر الصحابة على المِنبَر على الترتيب، ويُدعى لأخي الكبير حضرة الخُنكار[٣] سلطان آل عثمان قَبلي، ويُذكر بجميع الألقاب الحَسَـنَة، ثم يُدعى للأخ الأصغر- يعني نفسه- لكن يُدعى لي أقلّ من دُعاء الخُنكار لأنَّ الواجِب على الأخ الأصغر أنْ يُوَقِّر أخاه الأكبر. ثم قال: وفي الحقيقـة والواقع هو أكبر وأجَل مِنّي لأنه سلطان بن سلطان، وأنا جئتُ إلى الدنيــا ولا أب لي سلطان ولا جد.

---

[١] الشاه إسماعيل الصفوي، مؤســس الدولــة الصفويــة (٩٠٧-٩٣٠هـــ/١٥٠٢-١٥٢٤م)

[٢] مدينة من أكبر مدن كيلان في شمالي ايران، تقع في شــرق مصــب سـفيد رود، جنوب بحر قزوين.

[٣] تقدم التعريف بهذا اللفظ.

ثم أذِنَ لي بالخروج، فخَرَجتُ من عنده، فصار ذِكْرُ الصحابة ومناقِبهم ومفاخرهم في كل خَيْمة، وعلى لِسان الأعاجم كُلِّهم بحيث يذكرون لأبي بكر وعمر وعثمان <٢٠٠أ>- رضي الله عنهم- مناقب وفضائل يَستَنبطونَها من الآيات والأحاديث ما يَعْجَز عنه فُحول أهل السُّنة، ومع ذلك يُسَفِّهون رأيَ العجم والشاه إسماعيل في سَبِّهم.

وصبيحة الجمعة ارتحل إلى الكوفة وهي عن النجف مقدار فَرْسَخ وشيء، فلما قَرب الظُّهر أمر مُؤذِّنيه فأعلنوا بأذان الجمعة، وجاءني الأمر بحضورها، فقلتُ لاعتماد الدولة: إن صلاة الجمعة لا تَصِحُّ عندنا في جامع الكوفة، أما عند أبي حنيفة فَلِعَدَم المِصر، وأما عند الشافعي فَلِعَدَم الأربعين من أهل البلد[1]. فقال: المُراد حُضوركَ هناك حتى تَسْمَع الخُطبة، فإن شئتَ صلّيتَ وإن شِئتَ لا. فذهبتُ إلى الجامع فرأيتُه غاصًّا في الناس، فيه نحو الخَمْسَة آلاف رجل، وجميع علماء إيران والخانات حاضرون. وكان على المِنبَر إمام الشاه علي مَدَد، فصارت مَشُورَة بين المُلا باشي وبين بعض علماء كربلاء، وهو السيد نصر الله الذي أكثر من المُعارَضة، فأمر الملا باشي بإنزال علي مَدَد، وصَعَدَ الكربلائي على المِنبر، فحَمَدَ الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: وعلى الخليفة من بعده على التحقيق سيدنا أبي بكرٍ الصدِّيق- رضي الله عنه- وعلى الخليفة الثاني، الناطق بالصِّدق والصَّواب، سيدنا عمر بن

[1] خربت الكوفة منذ القرن الثامن للهجرة، ولم يعد منها إلاّ مسجدها الجامع قائماً وحده وسط البرية، ولم تنشأ حولها المساكن والأسواق إلاّ في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد).

الخطّاب- رضي الله عنه- لكِنّه كَسَرَ الرّاء من عمر، مع أن الخطيب إمامٌ في العربية، قَصَدَ دسيسة لا يهتَدِي إليها إلاّ الفُحول، وهي أن مَنْع صَرف عمر للعَدْلِ والمَعرفة، فَصَرَفَه هذا الخطيب قصداً إلى انه لا عَدْلَ فيه ولا مَعْرِفة.. ثم قال: وعلى الخليفة الثالث، جامع القران، سيدنا عثمان بن عفان <٢٠٠ب>- رضي الله عنه- وعلى الخليفة الرابع، لَيْثِ بني غالب سيدنا علي بن أبي طالب، وعلى وَلَدَيْه الحَسَن والحسين، وعلى باقي الصحابة والقَرابَة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. اللهم إدم دولة ظل الله في العالم، سلطان سلاطين بني آدم، رِفْعَتْ ومِرِّيخ جَلادَتْ، ثاني اسكندر ذي القَرْنين، سلطان البَرَّين، وخاقان البَحْرين، خادم الحَرَمين الشريفين، السلطان محمود خان بن السلطان مصطفى خان، أيَّدَ الله خِلافته وخَلَّدَ سَلطنته، ونَصرَ جيوش المُوَحّدين على القوم الكافرين بِحُرْمَة الفاتحة. ثم دعا لنادرشاه دعاءً أقلّ من ذلك، بعضه باللغة الفارسية، وبعضه بالعربية، ومضمون الفارسي: اللّهم أدِمْ دولةَ من أضاءت به الشْجَرة التُرْكُمانية، قاآن الرِّياسة، وجنكيز السياسة، هذا معنى الفارسية، وأما العربية فهو: مَلاذ السلاطين، ومَلجأ الخَواقين، ظل الله في العالَمين، صاحِب قَران نادِر دَوْران. ثم نَزَل وأُقيمت الصلاة، فتقدّم الخطيب وهو مُسَبِّل يَدَيْه، وجميع من وراءه من خَوانين وعلماء واضِعون أيْمانهم على شمائلهم. فقرأ الخطيب الفاتحة وسورة الجمعة، فقَبْلَ الرُكوع رَفَعَ يَدَيْه وقَنَت جَهْراً، ثم رَكَعَ وجَهَر بتسبيحات الرُكوع، ثم رَفَعَ رأسه قائلاً: الله أكبر، بلا قد سَمِعَ الله لِمَن حَمِدَه، ورَبَّنا لكَ الحمد. فقَنَت في اعتداله ثانياً جَهْراً، ثم سَجَدَ فقرأ تسبيحات السُجود ومعها شيء آخر جَهْراً بسأعلى

صوته في كُلِّ ما يَجْهَر به. ثم رَفَع رأسه وجَهَر بين السَّجْدَتَيْن، ثم سَجَد ثانياً وجَهَر بتسبيحات السُّجود مع ما ضَمَّ إليها من الأدعية. ثم قام إلى الرَّكْعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة المُنافِقين، وفَعَل كَفِعلِه الأول، وجلَس <١٠٢أ> للتشهُّد فَقَرأ شيئاً كثيراً ما فيه من تشهُّدِنا إلاَّ السلامُ عليكَ أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته، وهذا أيضاً جَهَرَ به، ثم سلَّم على اليمين فقط واضِعاً يَدَيْه على رأسِه.

ثم جاءت من طَرَف الشاه حَلَوِيَّات كثيرة، وحَصَلَت إذ ذاك عليه غَلَبَة وازدِحام بحيث وقعت عمامة الملا باشي من رأسه، وجُرِحَت سَبَّابته، فسألتُ لِمَ هذا الازدحام والمُغالَبَة؟ فقيل لي: إن الشاه إذا سَمِعَ بأن زِحامَهم ومُغالَبَتهم يحصل له انبساط وسرور، فلهذا تَرَى الخوانين والعلماء يَتَزَاحَمون ويتغالَبون. ثم خَرَجنا، فقال الاعتِماد: كيفَ رأيتَ الخُطبة والصلاة؟ فقلتُ: أما الخُطبة فلا كلام فيها، وأما الصلاة فهي خارِجة عن المذاهب الأربعة على غيرِ ما شُرِطَ عليهم من أنَّهم لا يتعاطون أمراً خارِجاً عن المذاهب الأربعة، فينبغي للشاه أن يُؤدِّب على ذلك، فأُخْبِرَ الشاه وغَضِب وأرسَلَ مع الاعتماد يقول لي: أخْبِر أحمد خان إنِّي أرْفَع جميع الخِلافيَّات حتى السجود على التُّربة..

ثم أذِنَ لي بالعَوْدِ إلى بغداد، وأرسل معي صورة الجريدة وصورة الخُطبة، فلأجل هذا الذي حَدَث عَزَمتُ على الحج، اللهمَّ يَسِّر لي المقصود فأقول:

كان استِئذاننا لأجل للحج من الوزير المحترم، والدستور المُكَرَّم، حضرة أحمد باشا- أدام الله نصره- يوم السبت الثامن عشر من ربيع

الأول عام سبعةٍ(١) وخمسين ومائة وألف من الهجرة. وإنما احتَجْتُ إلى الاستئذان لأن العادة في بغداد إذا كان لأحدٍ جِهَةَ تدريس أو خِطابة أو إمامة لابُدَّ له من أن يستأذن من والي بغداد.

وقدَّمتُ في صدر الاستئذان <٢٠٢أ> قصيدة دالية وهي [من البسيط]:

كَم للهَوَى من رياقٍ فوقَ أجيادِ ... شَوقاً إلى ساكِني أكنافَ أجيادِ

وللجُفُونِ إنهمالٌ لا يُشابِهُهُ(٢) ... من السَّواري هتُونٌ رائحٌ غادي

صَبٌّ يبيتُ على فُرُشِ الضَّنى ولهُ ... قَلْبٌ ثَوى بينَ أعوادٍ وعُوّادِ

يَهيمُ وَجْداً إذا سارَ الحَجيجُ ضُحىً ... وتَسْتَحِثُّ قَواه نَغْمَةَ الحادي

تَزيدُه شجناً ورَقْاءُ إن صَدَحَت(٣) ... وذَكر تَنَغُّمات الشادنِ الشادي(٤)

إذا تَذَكَّرتُ والذِكرى تُهيجُ جوىً ... مَهابِطَ الوَحي شَبَّت نارُ إنكادي

من لي بكَوْماء مِرسال تُبَلِّغني ... أرضَ الحِجاز لتُطفي نارَ أكبادي

مُوافياً مَكّةَ الغَرّاء ذا جَذَلٍ ... بُشراى إذ ذاك في عُرسٍ وأعيادِ

مَتى أراني للأكوارِ مُمتَطياً ... أفرِي فيافِي أغوارٍ وأنجادِ

وكلما نَهَضَت آمالُ مُكتَئِبٍ ... فالعجز يقعدها قهراً بأقيادِ

وكيفَ يَبرُد قَلبٌ باتَ مُضطَرِماً ... وجَذوةٌ في حَشاه ذاتُ إيقادِ

وكيفَ يهدأ طَرفٌ ظَلَّ مُنسَجِماً ... والقَلبُ ظمآنُ وَجدٍ شَيِّقٌ صادي

يَئِستُ لولا رَجائي بالذي سَطَعت ... به وسائر آباء وأجداد

---

(١) في الأصل سبع.

(٢) في الديوان (يشابههما).

(٣) في النفحة المسكية (وجداً)

(٤) في الديوان (فذكرت).

هو الوزيرُ الذي عَمَّـــت مَواهِبُــــه   داني الحَواضِرِ والقاصي من البـــادي

هو الغِيـــاثُ إذا مـــا أزمَــةٌ فَدَحــت   وهـــو المَـــرامُ لِقُصَّـــادٍ ووُرّادِ

كَهفُ العُفاةِ مَـــلاذُ المُسـتَجيرِ بـــه   غَوثُ الصَريخِ بـــه غَيـثٌ لِمُرتـادِ

مُجَندِلِ الشُوسِ والهَيجاءُ فـي سُـعُرٍ   مُـردي الكُمـاةِ ببَتّـــارٍ ومَـــدّادِ

يُدَبِّرُ الأمرَ والأخطـــارُ مُعضِلَـــةٌ[١]   جِـداً فَيُلبِسُـها أثـــوابَ إرشـــادِ

بحـرٌ ولكنَّمــا عَـــذبٌ مَذاقَتُـــه   يُولي الوَرى غَرفَه من قبـلِ ميعـادِ

<٢٠٣ب>

ذَلَّت لِسَـــطوَتِه صُـمّ العُتـاةِ وقَـد   كـانَ الجميـعُ أبيـاً غـيرَ مُنقـادِ

له التدابيرُ أغنَـــتْ عـــن مُضاعفَـــةٍ   من العَساكِرِ قـــد مُـدَّت بأجنـادِ[٢]

لا سيّما ثالثُ الوَقَعـاتِ حيـنَ أتَـى   ديارَنا الشاهُ يَبغي ضَبْـطَ بغـدادِ[٣]

في محفلٍ كالحَصى والرَمـلِ عِدَّتُـه   تَكِـلُّ عـن جَمعِـه أرقـامُ أعـدادِ

تَوَهَّـمَ الشــاهُ أن الجُنـدَ كَثرَتَـــها   تُـرَوِّع أحمـدَ أو تَقضـي بأنكـادِ

ظَــنٌّ القنـابِرَ والأطـوابَ تُفزِعُــه   أو من صواعِقِها يَخشَــى وإرعـادِ

فمـالَ للسَّـلمِ إذعانـاً وذا نـادِرٌ[٤]   لمـا رآه ثَبوتـاً طَـودَ أطـوادِ

واختارَ مِن بَعدِ رَفضٍ رَفضَ مَذهَبِهم   فصار فـي الحـالِ سُـنّياً بأشـهادِ

وشدَّد النَهيَ عن سَبِّ الصَحابَةِ بَـلْ   قـد شـابَ هـذا بتَـهديدٍ وإبعـادِ

ورتَّـبَ الخُلَفـاءَ الراشـدين علـى   عقـائدِ السُـنَّةِ الأولـى بإرشـادِ

---

[١] في الديوان (مدبر).

[٢] في الديوان (بأجياد).

[٣] يريد بثالثة الوقعات حصار نادرشاه لبغداد سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م، والوقعتان السابقتان هما حصاره لها سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م وسنة ١١٤٦هـ/١٧٣٣م.

[٤] في الديوان (بلا جدل).

فكم خِلافٍ[1] وكم كُفرٍ وكــم بِــدَعٍ أزالَ وهــو علــى كــلٍ بمِرصــاد
وحَتّــمَ الأمــرَ أن يدعــو خطيبُــهُمُ على المنابر للخُنْكــار فــي النــادي
وقــد علمْنــا يقينــاً إنمــا فَعَــلَ الذي ذكَرنا حِذار الضَيْغــمِ العــادي
واللهِ واللِــــه أيمانــــاً مُغَلّظَــــةً لولا أبــو عَدلَــةَ والمَفْخَــر البــادي
لكان أطفالُنا أســرى الأعــاجِمِ بَــل كُنّــا رَهــائنَ أجــداثٍ وألْحــادِ
فــالله يكلــؤه والســـعدُ يَخدِمــه والنصــرُ يَقدُمُــه فَــوزاً بإســعادِ
فيا أبــا عَدلَــة لا زِلْــتَ ذا ظَفَــرٍ إذنــاً ومَنّــاً بإحســانٍ وإرفــادِ

والاستئذان الذي كانت هذه القصيدة في صَدْره هو هذا:

اللّهم يا ذا المَن الذي لا يَنْفَد إمكانُه، والإحسان الذي لا يُحَدّ إحسانه، إنّا نَتَوَسّل إليك بِجَلالِ ذاتِك، وكمال صِفاتك، أن تُديم على الأنام،ولا ســيما سكان مدينة <٢٠٤أ> السلام، ظِلّ الوزير الذي ألبَسْتَه الهَيْبَــةَ والجَلالــةَ، ومَنْطَقْتَه السؤدد والعَدالة، وقَصَمَت بِسَطوته ظــهور القُســاة المُتَمرّديــن، وأحيَيْت برأفته العُفاة المُقِلّين، ونَشَرت بأوامره أعــلام العــدل والأمــان، وطَوَيت بِزَواجره كل بَغي وعُدوان، آمين. فالمَعروض على السُــدّة التــي سَمَت على السِماكين قَدْراً، ونَمَت على النَيّرَين رِفعة وفخــراً، لا زالَــت لِجِباه الأمَراء الأفاخِمِ مساجِد، ولا بَرِحَت مُقَبَّلَةً بِشِفاه الأعاظم الأماجد.

بَقيتَ بقاء الدّهــرِ بــأكْف أهلِــه وهــذا دُعــاءٌ للبَريــة شــامِلُ

---

[1] في الديوان (خلاق).

هو أنه من الأمور المقَرَّرة، والأحكام المُحرَّرة، مِمَّا هو معلوم لديكم، وغير خفي عليكم، أن النُطَف أجابَت من كل فَجّ سيدنا إبراهيم حين أذن بالحَجّ، فصمَمَت نَفْسُ هذا الداعي على أن تُتبع القول بالعمل، وتَجمَع بين جوابي الأرواح والأشباح، ليُطابق الحال في الأزَل، فَنَزَعتْ نُزوع الطِفل بعد فِطامه إلى الرّضاع، إلى أن تُعفّر مُحَيّاها مَهابط الوحي من تيك البِقاع، لتَرْمي من أشواقها جَمَرات، وتَرضع من ثَدي زَمْزَم رَضَعات، وتَقِف على عَرَفات الغُفْران، وتَسعى بِحَطِّ الأوزار باستلام الأركان، وتَطوف حول حِمى المَلِك الغفّار، قائلةً: هذا مقام العائذ بك من النار. ولمّا تَيَقَّنتُ أن العُمر قد ذَهَب أطيَبُه، وغَبر أعذَبُه، وأن الجِسم قد وَهى وَرَقّ، والعَظمُ قد وَهَن ودَقّ، والبَدَن كشَنّ[1] بالية، <٢٠٤ب> وعصا يُصلِحُها عارية خالية، وتَذَكّرتُ حديثاً سَمِعتُه من الثِقات الجَهابِذة الأثبات، أنه صلّى الله عليه وسلّم قال، أو كما قال: اغتَنِم خَمساً قبل خمس، شَبابَك قبل هَرَمك، وصِحّتك قبل سقَمك، وفَراغك قبل شغلك، الحديث. سارعت بالاستئذان مُستَدراً عوائد الإحسان:

وفي النَفْسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانــة   سُكوتي بيــانٌ عندهــا وخِطــابُ

ولله عليّ إذا شاهَدْتُ تلك المَشاهِد، وتَعَهّدتُ هاتيك المَعاهِد، أن تكون هِجّيراي المُستمِرّة، وشَنْشَنَتي الدائمة المُستَقِرّة، خير الدُعاء لكم في

---

[1] الشَن: القربة الخلقة اليابسة.

تلك الأماكن الشريفة، والبقاع السامية المُنيفة، فلا زِلْتَ مَغموراً بالنِعَم،مدفوعاً عنك النِقَم، آمين. انتهى.

ثم إنّه رَجع من الزِّيارة، وتَوَجّه إلى أرضه، وانقشعَت سَحابته وبَعُدَت عن العراق عِصابته.

فصل

[منظومة في مقاومة أهل البصرة]

وحين سَمِع أهل البصرة بمَدْحي لأهل الموصل، حَنَقُوا لذلك، وعَمَل بعضُهم قصيدةً هَجاني في آخرها، فكتبتُ إليهم لجَلْبِ خواطرهم، وعِتاب من هَجاني بقولي[1] [من الوافر]:

ألا بُشرى على رغمِ الأعادي	ولا زالَ السُّعود على ازديادِ
لأهل البصرة الفيحاء من قد	قَضَوا بثباتهم فرض الجهاد
بني الفَيْحاء أنجبتم وسُدتم	على أهل المدائن والبلاد
بني الفَيْحاء قد نِلتم جزاءً	من الرحمن في يوم المَعاد
فأجْر الحيِّ منكم في غَزاة	وأجر المَيْتِ في الشهداء غادي
ألا بُشرى بأسوتكم ببدر	وغزوة خندقٍ وبخير هادي

<٢٠٥أ>

إذ الأعداءُ قد قَصَدَتْ حِماكُم	فجاءتكم سِراعاً في أساد
وقد حَفّوا بسُوركم جميعاً	وهم إذ ذاك أكثر من جَراد
فقمتم كالأُسود لدى شَراها	بكل مُقَذَّفٍ ماضي الفؤاد

---

[1] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٥٤-٥٧.

وقد حَمِيَ الوطيسُ وحان حَين ... ونار الحرب تَسْعَر باتّقاد
ولم تزل القنابر طائرات ... إليكم في هبوط واصطعاد
فأرسلتم بنادقكم عليهم ... تروع القلبَ كالسُحب الغَوادي
كأن البُنْدُق الزعّاج عيسٌ ... سَرَتْ والطوب في الهيجاء حادي
ولا بَرِحت بنادقُكم عليهم ... وقنبرُهُمْ عليكم بازدياد
إلى أنْ قام (رُستم)[1] في رجالٍ ... وخير عِصابةٍ صيدٍ هُساد[2]
لديهم عِثْيَرُ الهَيْجا عبير ... وعندهُمْ صليل السَيفِ شادي
قضوا حقَ الرماح إذا ارمعلّوا[3] ... وحقُّ المَشرفيات الجِدادِ
فللهندي تفليقٌ بِهامٍ ... وللخطّي رَصْعٌ في الأعادي
وللأبطال في الأعداء نظمٌ ... وللأرواح نثرٌ في البوادي
بيوم حارت الأبصار فيه ... لما قد حاز من كُرَبٍ شِداد
فيا للناسِ من يوم عَبوسٍ ... به أضحى الكميُّ بلون جاد[4]

---

[1] رستم أغا، أحد رجال احمد باشا والي بغداد، ولعله من مماليكه تسلّم البصرة نائباً عن أحمد باشا، وبرز دوره في تعبئة أهل البصرة والدفاع عنها في حصار نادر شاه سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣، وورد أسمه في الرسائل المتبادلة بين الجانبين البصري والإيراني، وقد عثرنا على شاهد من الرخام لقبرٍ نسب إلى حماد الدبلس، وهو في الحقيقة قبر الخليفة المستعصم بالله، ملقى في صندوق الضريح في مشهد (أبي رابعة) في الأعظمية، نقش فيه أسم (رستم أغا) كتخدا سليمان باشا (والي بغداد) سنة ١١٦٦هـ.

[2] هساد: الأسد.

[3] ارمعلوا: بالعين المهملة وبالغين المعجمة: تتابعوا.

[4] الكمي: لابس السلاح، والجادي: الزعفران، أي اصفرت وجوههم وجلاً.

وربُّ العرش أيّدكم بنصرٍ ... يَعُمُّ القلبَ كالمطر العِهاد[١]

فيا لله دَرُّكم ودَرُّ الـ ... رئيس القَرم (رُستُم) ذي الأيادي

شجاعٌ باسلٌ غَوثٌ هِزَبْرٌ ... لدى الهيجاء مثل الطَود طادِ[٢]

له التدبير يغني عن جموع ... وعن جندٍ مضاعفةِ العِداد

فلولا (رستمُ) المغوار كُنتم ... أسارى سِربِ شدّاد بن عاد

وربْعُ الدين عنكم كاد يمحى ... وتخفى عنكمُ سُبُلُ الرشاد

<٢٠٥ب>

فلا تفخرْ بنو الحَدْبا عليكم ... وإنْ فخروا على بعض العباد

وذلك لاعتضادِهمُ بأهل الـ ... قرى وبِسورِهم وأبي مُراد[٣]

وأهل قراكم طُراً عَصَتْكم ... ودانت للطُغاة ذوي الفساد

بني الفيحا مَدَحتُكم احتساباً ... وليس سواه قصدي أو مرادي

بني الفيحاء عُذراً في مديحي ... فما المرئيُّ كالخبر المفاد

هجاني شاعرٌ منكم بمَدحي ... بني الحدباء أصحاب العُداد

وهل يُهجى فتىً مثلي أبوه ... أبي وفؤاده الماضي فؤادي

فصيحٌ لا يقاس عليه قُسٌّ ... كريم النَّجر ذو حَشْدٍ ونادي

وإنّي يا كرام لِمنْ سَراة ... لهم دان المسالِمُ والمعادي

ليوثُ الحرب أنْ نُدبوا إليها ... بنو الزوراء فرسان الطِّراد

يَرُوعون الكُماة إذا استقلّوا ... على النُجُب المسوّمةِ الجياد

بضربٍ تُقْلَقُ الهامات منه ... وطعنٍ بالمثقّفةِ الصِّعاد

---

[١] العهاد: مطر أول السنة.

[٢] طاد: مستقر وثابت.

[٣] أبو مراد: هو الحاج حسين باشا الجليلي.

وعندهم[1] التضمخ في دمــــاء الــــ   أعادي في الوغـــى مثــل الشــياد[2]
وفــي دار الحفــاظ لســـدّ ثغــــرٍ   أقمنــا دونـــــه خَـــرْط القَتـــاد
ولا نخشـــى المنايــا بــل مُنانــــا   يكــون لِقــا الكمــاة بــلا تمـــادي
سَــلُوا عنّــا الأعــاجم أن جـــهلتم   حقيقــةَ عَزمنــا يـــوم الجـــهاد
ففــي يــوم الكســيرة كــم كَسَــرنا   لجبر الديــــن شــوكةَ كــل عــادي
وفـــي أُحُــدٍ بــه كــان ائتســـانا   فيــا بشــرى لنــا يــوم المَعـــاد
فإنْ أُهجى فهل أُهجى بقومـــي الــــ   أفــاضل أم بجِــدّي واجتـــهادي
فــأنّى مثلُـهم فـــي الكــون يُلفــى   وفضلُـــهُمْ كنــور الشــمس بـــادي
فــلا زالــوا بـــإعزاز ونصـــرٍ   وإجــلال إلــى يـــوم التنـــادي

<٢٠٦أ>

مهمـــة

لم يبقَ في هذه المُدة عِند الوزير جَوادٌ ولا مال ولا عُدَّة مُذَهَّبة، بــل أهدى الكُلَّ للشاه وأتباعه. وأضافَ وزيره المُسمَّى عندهم بمِعْيار المملكـــة ضِيافة حَسَنة، وأعطاه العطايا المُستَحسنة.

---

(1) في الديوان: التتضمّخ

(2) الشياد: ما يطلى به الحائط من جص أو طين ونحوه ويطلق على الطيب أيضاً.

فصل

[مقامة]

وفي أواخر هذه السنة، توَّجه الوالد - حفظه الله - إلى الحج، وبعد ذهابه تَغَلَّبَ علينا ضابط قَصَبَة سيدنا الحُسين، فمَنَعَنا ما رَسَم الوزير للوالد من إفراز ميري جوَق[1] من الزَرع هناك، نأخذه كل سنة، فأنشأتُ مقامةً للوزير في إرجاعِ ما رَسَمَ لنا، وقصيدة دالية[2].

أما المقامَة فهي هذه:

قال الفقير: حَدَّثني عام السنة السابعة والخمسين بعد المائة والألف، الذِّهنُ ابن سيَّال، ونحنُ في أعلا حِصْن الدِّباغ، قال: حَدَّثَنا أبو الزِّناد الشِّهاب، واقِدي الأفكار، ونحنُ في حِصن القوة المُفكِّرة، قال: حَدَّثنا الحافظ الجامع أبو الحَسَن عَطاء الله الخيال ابن طارق بأعلى قلعة القوة الحافظة ح.

وحدَّثنا أبو بَراعَة فضل الله الإنشاء، قال أخبَرَنا أبو الإعجاز الإيجاز، قال: حَدَّثني أبو المعاني المُهَذَّب الطِّراز المَجاز، قال: أنبأنا ذو الجَناب الرَّفيع الجمال البديع، <٢٠٦ب> قال: كُنا في مَجلِس أدب مُتَشَعِّب الفنون، والحديثُ كما قد قيل ذو شُجون، يفُوحُ أرَجُ التحقيق من أرجائِه، ويَضوعُ نَشْر التدقيق في نواحي فِنائه، نَتَعاطى من كل عِلمٍ أحْسَنَ ما فيه وأعذَبْ، ونَكْرَع من حُمَيَّا المُذاكَرة بكؤوس الأدب، فلم تكن فريدة

---

[1] ميري جوق ضريبة زراعية تستوفى من الأراضي الأميرية

[2] والصواب انها رائية كما سيأتي.

إلاّ وعَرَضناها للمحاورَة، ولا مُعضلة إلاّ فَكَكْنا خِتامها بأبحاث المُحاضرة، وكانت شَنْشَنَتنا وهَجِيرانا نَجْني من كلِّ نوع أعذبه، ونَقْطِف من كل فنٍّ أطيَبَه، فقُلنا: لو كان مَعَنا في هذا المكان أبو الفضل عناية الله البيان لتمَّ سرورنا، وتَضاعَف حُبُورنا، وقد غَابَ عنا غَيْبَة القارظين[1]، وانقطع خبَرُه من البَيْن.

ولم نَزَل نناشِد عنه الرائح والغادي، والحاضِر والبادي، ونجُوب الأغوار والأنجاد، والرَّوابي والوِهاد، فلم نَعثُر له على خَبَر، ولم نَقِف له على رسم ولا أثَر، ونَحْنُ نَحِنُّ إليه حَنِينَ الإبل للحادي، ونشتاق إليه شَوْقَ الزُّلال للصادي. فَبَيْنا نحنُ في هذا الكلام، إذ طَلَع علينا طلوع البدر من الغَمام، فزادت لنا به الأفراح، وزالَت بقُدومِه عنا الأتراح، وصارَ عَيْشُنا غضّاً رَطيباً، بعد أن كان هَشِيماً قَشِيباً. وأخَذْنا ثأرنا من البَيْن، وقَرَّت به لكلٍّ مِنّا كلُّ عَيْن فكانت ليلةً ما تضاهيها ليلة السَّفْحِ عند الشَّريف، ولا تُحاكيها في وفور الأفراح لَيالي الأعياد والتعريف، فهي المُشار إليها بالمَثَل عند كل أحَد، خيرُ ليلةٍ بالأبَد، ليلةٌ بين[2] <٢٠٧أ> (ليلة بين الزباني[3] والأسد.

---

[1] القارظان: رجلان خرجا يطلبان القرظ (شجر يدبغ به) فلم يرجعا.

[2] إلى هنا تنتهي الورقة ٢٠٦ب، ولا تتمة للكلام في الورقة التالية، وذلك للخلل الذي أحدثه مجلد النسخة الأصل في ترتيب أوراقها، وقد أتممنا النص، وهو الذي حصرناه بين قوسين، من نسخة ب، الورقة ٢٢٩أ، فيظهر أن ناسخ الأخيرة قد أتم عمله في نسخها قبل أن يتولى مجلد النسخة الأصل تجليدها على النحو الذي فعل.

[3] الزباني قرون العقارب.

ولما قضينا من لُتيّاء[1] لذة الوَطَر[2]، وأدينا بالتملّي بمُحيّاه من النظر، قلنا له: إيه يا أبا الفضل! جئت بالضح والريح[3]، أم جئت على غبراء الظهر، أخلبت أم أملبت؟ فاخبرني بعَجَرك وبجرك وشَقورك وسَقورك[4]. فقال: اعلموا يا إخوان الصفا وأرباب الوفا، الحق أبلج، والباطل لجلج[5]، والحمد مغنم، والمَذَمّة مَغرَم، أما أنه لا تخضل[6] روضة إلاّ وأنا لها عندليب، ولا تُزهر دوحة إلاّ وأنا فضها[7] الرطيب، ولا تعصى عويصة إلاّ وأنا جذيلها المُحَكّك[8]، وغديقها[9] المُرَجّب، ولا تعرض نادرة إلاّ وأنا ابن بَجْدَتها[10]، وأبو عذرتها، وجُهينة أخبارها، وعَيْبَة[11] أسرارها، ولم يزل ذلك دأبي ودَيْدَني، ولهوي ودَدَني[12]، حتى

---

[1] اللتيا الداهية الصغيرة

[2] الوطر: كل حاجة كان لصاحبها فيها همة.

[3] من أمثال العرب: جاء بالضح والريح، ز لضح هنا: ضوء الشمس على الأرض.

[4] بثه شقوره وسقوره اي شكا غليه حاله.

[5] للجلج المختلط غير المستقيم والابلج المضيئ المستقيم

[6] تخضل: تبتل.

[7] الفض: يريد الفم، وإلاّ فالفض الكسر، وقيل: لا فض الله فاك، أي لا كسر الله أسنان فيك.

[8] في الأصل: المحنك، والصحيح: الجذيل المحكك: الأصل من الشجرة تحتك به الإبل فتشفى به.

[9] الغديق: المطر العظيم.

[10] أي العالم بالشيء المتقن له المميز له.

[11] العيبة: وعاء من أدم.

[12] الديدين والددن: اللهو واللعب.

طرق سمعي قصائد رائقة، وقوافي فائقة، دلائل الإعجاز تفوح من تراكيبها، ومحال الإيجاز تضوع من أساليبها، أسرار البلاغة في تلخيص مبانيها، ونتاج الفصاحة في إيضاح معانيها، خطوط البيان بالإضافة إليها مختصر، لا تبقي من بديع اللطائف ولا تذر، تشهد لناظمها بأنهم البلغاء المصاقع، وإن كلاً نسيج وحده من غير مدافع، وإن عنوانها قد طرز بنفائس المديح، ووشي بفرائد التوشيح، تعرب عن مدح وزير لا تقرع صفاته، ولا تدرك صفاته، وإنه تفرع من روضة الوزارة، وترعرع في روضة الإمارة، فشب في مهاد المناصب، واستوى على صهوات المراتب، فكان صدر الصدور الأعاظم، وخلاصة الوزراء الأكارم، <٢٠٧ب> وإنه المتفرد بين أفذاذ الزمان، وأنه المخصوص بفتح أقاليم إيران، وإنه عضد الدولة العثمانية، وركن الخلافة الخاقانية، بل أنها جسد وهو لها روح، وأنه أول ما دعي ظل الله بأبي الفتوح، وإنه يدعى بالوزير، وإنه العلم الممنون، إلى غير ذلك من المناقب التي لا يضبطها قلم ولا يجمعها في الحساب رقم حاسب، فكان يدور في خلد ذهني، ويجول في معارف ظني، أن هذا الممدوح من الملوك المتقدمين، وإنما انفرد عنهم بهذا المجد الرصين، وإن أرباب هاتيك القصائد لشعرائه الأماجد، فأقول: يا الله! ما أكثر مادحيه،وأوفر مستمنحيه، حيث ملأت أمداحه أقطار الآفاق، فيا للعجب! كيف تسعها بطون الأوراق، وكنت وأواني في زمانه الباهر، أتملى بمحيّاه الزاهر، وأحط رحالي ببابه الذي يسمو على النيّرين، ويعلو على أوج السماكين، فيتم لي شرف المأوى، وسعادة المثوى، وأتوق عند ذاك منشداً ما هنالك، هذه دولة المكارم

والرأفة والمجد والندى والأيادي. فلم أزل للأماني حليفاً، وللتخيلات أليفاً، حتى حدثني بعض الثقاة، من الحفّاظ الأثبات، ممن جاب البلاد حديثاً صحيح الإسناد، قد سُلسلت رُواته بتمام الضبط في الرواية، وتعتعنت رجاله بالحديث عن أهل الدراية، فلذلك الأمر والسبب، تُرجِم بسلسلة الذهب، قال: إن مدينة السلام هي الآن محط رحال الأعلام، <٢٠٨أ> تضرب إليها أكباد الإبل من الأقطار القاصية، وتُشد إليها الرِّحال من الأصقاع النائية، فهي مشحونة بالجهابذة النحارير، والفضلاء المشاهير، ممن جمع بين المعقول والمنقول، والفرع والأصول، ودَرّس فأفاد، وألف فأجاد، فهم المشار إليهم في التحقيق بالبَنان، والحائزون في التدقيق قَصَب الرّهان، فقلت بنفسي بعد[1] استبعاد لهذه الأخبار، ويلك جئت بالضلال ابن السيهل، وليضربن بك في وضع الأحاديث المثل، فهل لبغداد فضل مشهور، بعد وقعة تيمور[2]، فإني رأيتها منذ أحقاب عديدة وأعوام مديدة، ليس فيها من يعرف الحَوّ من اللّو[3]، ولا الهز من البز[4]، وإن العلم فيها اندرست رسوم مدارسه، واستؤصلت أصول مغارسه، وصَبِرت وِطابه[5]، ودُكت آكامه وهضابه، حلّقت به عنقاء مَغْرِب فلم يلف من ينحو نحو

---

[1] في الأصل: تيمي جعاد.

[2] يريد تيمور لنك، الذي تكرر احتلاله لبغداد غير مرة في مقتبل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد).

[3] الحو: الحق، واللو: الباطل.

[4] الهز: تحريك الشيء، والبز: الثياب، والسلب.

[5] أي: فرغت وخلت.

قواعده، فيعرب تركت ربوعه على مثل ليلة القدر، فلا عين له إذ ذاك ولا أثر، كأن لم يكونوا حمى نبتغي، إذا الناس إذ ذاك من تمربنوا الوصل[١]، ثكلتك الجِثّل[٢]، ومن أين حلّ فيها طالع السعود في الحمل، وصار سماكها رامحاً بعد أن كان أعزل، وعهدي بها متداعية البنيان، منقوضة الأركان، فالعلم اسم بلا مُسَمَّى، والطريق <٢٠٨ب> إليه كالألغاز والمُعمَّى، وأما البدل والأباز[٣] فهما لم يخطرا على بال إنسان، فقال: اعلم أيها البيان، إنه نبغ في دوحة آل عثمان، الوزير ابن الوزير، عديم المثل والنظير، فإن ذُكِرت الوزارة فله القدح المُعلّى، أو عُد الوزراء كان التاج المُحلّى، عضد الدولة، وسند ركن الصَولة، ذو الشجاعة التي لا تُجارى، والبراعة التي لا تُمارى، آراؤه صائبة، وأفكاره ثاقبة، وهامة هِمّته فوق السماكين، وغوماته[٤] تسمو على النيّرين، كما وصفه شاعره السويدي أبو البركات[٥] بهذه الصفات الجليلة، من قصيدة غراء طنانة طويلة، حيث قال:

له الحَسَبُ العالي على الناسِ شلمخٌ ... تَحلّى به الشّعْرى العَبُور وفَرْقَدُ

له الهِمّة العلياء شامخة الذُرى ... وعزمٌ على كيوان سامٍ مشيَّد

له الرأي أمضى من مَواض شبلتها ... يتد بها الصخر الأصم وجلْمَد

ولو باسمه الداعي يثوب ضارعا ... لولت كُماةٌ شُوس في البيد تشرد

---

[١] كذا في الأصل.

[٢] الجثل هنا: الأم، وقيل: الزوجة.

[٣] كذا في الأصل.

[٤] كذا في الأصل.

[٥] يريد الشيخ عبد الله السويدي والد المؤلف وقد تقدم التعريف به.

يُدبِّر خَطْبَ الأمـر قبـل وقوعـه   كأن كان يدري ما يجيء به غَـد

كيف! وهو الفاتح للبلاد، المُعَوَّد على الغزو والجهاد، نشأ بين أسـنَّةَ العَوالي، وتربَّى بين بوارِق المواضي للجدال، فكم حِصن حصين للعـدى هَدَم بُنيانه، وكم سور متين قوَّض أركانه، وكم كتيبـة فرَّقـها، وجمعيـة مزَّقها، ولقد أنصف السويدي شاعره حيث يقول [من الطويل]:

هو الغَوثُ إن عَزَّت اغاثة صـارِخ   هو الغَيْثُ لكن بالدنـانير هـامِعُ)

<٢٠٩أ>

سَلْ الحَرْبَ عنهُ يَومَ مَلْحَمةِ الوَغى   فهلْ صادَفَتْ مِثْل الوزير مَعـامِعُ
وسَلْ فَتْحَهُ إيرانَ بالسَّـيْفِ عَنْـوَةً   فكَمْ أضرَمَتْ منه عليـها وقـائِع
وسَلْ عنه لُورستان ماذا تَجرَّعَـت   من الحَربِ هَوْناً والدَّيـارُ بَلاقِـع
وسَلْ فَتْحَه الأهواز إذ قادَ جَحْفَـلاً   من الشُوسِ أبطالٌ كُماةٌ زَعـازِع
وسَلْ وَقْعَةَ الأحزابِ عنـه ونَفْـراً   إذا البَطَلُ المِغْوار بالذُعرِ سـاكِع
وكم غَزوةٍ يغزو العِـدى وسَـرِيَّةٍ   بها المَوتُ يَقضي والدماء نَجـائِع
هو الفاتِحُ الصِّنْديد ذو البأسِ سَطْوَةً   هو الفارِسُ المِقْدامُ مُذ هو يافِـع

وكان من شَنشَنَتِه المُستقرَّة، وهَجِيراه المُستَمِرَّة، أن أفنان العلوم فـي ناديه مُورِقَة، وشُموس الفنون في حضرتِه مُشرِقَة. لم يَزَل مَجلِسه للعلمـاء مأوى، وللفُضلاء مَثْوى، تُعرَض فيه المُعضلات على الأذهان، وتُقَيِّد أوابِد المُشكِلات بالإتقان، فيَغمُر أرباب العلوم بِهِباتِه، ويُفيض علـى مُتعـاطي

المَنظومِ سَحائِب صِلاته، فاشتَهَر العِلم في تلك الأقطار، وظَـــهَر ظـــهور الشمس في رابعة النهار. واقتَفى العامَّةُ إثْره في سُلوكهم، والنـــاسُ- كمـــا قيل- على دين مُلوكهم، فقلتُ، وهذه الأبيات التي أنْشَدتُها، وعلى حَسَـــبِ ما روَيْت سرَدْتُها، أهي منظومة في سِلك مَدائِحِه، مُفصِحةٌ عـــن عظيـــم منائحه. فقال: أي ومَنْ خَصَّ الإنسان بمَزايا البَيان، إنَّ هذا حديثٌ مُتَّفـــقٌ عليه، لا يتطَرَّق الوَضْعُ إليه، فحينَ تَحقَّقتُ صِحة روايته، وصِدق مقالتـــه، وأن حديثه مرفوع، مُتَّصِل الإسناد عن نَقْلِ عَدْلٍ ضابِط الفؤاد، لا شُـــذوذ فيه ولا <٢٠٩ب> اضطراب، ولا هو مُرسَل عن ذِكرِ الأصحاب، بَيْنَـــهُ وبَيْنَ الوَضْع والتدليس بَوْنٌ بائن، كيف وكلٌّ من رُواته غـــير كـــاذب ولا مائِن، [فــ]كدتُ أطير من الأفراح، بغَيْرِ جَناح، وقُلتُ: هذه طلبتي، وهـــي دون غيرها بُغيَتي، لأن هذه الأبيات الحِسان، طَرَقت مسامِعي فَـــهام بـــها الجِنان.

ولم أزَل منها في فِكرة، إذ لم يَكُن لي بها خِبرة، وأظهرتُ لـــه مـــا جَنَنته الطَّوية، وحَدَّثته الحديث المُسَلْسَل بالأوليَّة. وجلســـتُ معـــه ريثمـــا استقصيتُ أخباره، واستظهرتُ أسراره، حَثَثتُ مَطيَّةَ العزم والتَّرحال، إلـــى كَعْبة الآمال، وحَسَمتُ إليها عَرَقَ القِرَبَـــة، واستَســـهَلتُ مَشَـــقَّة الغُربَـــة، وجَرَّبتُ كالقابِس العَجلان، أسرع من حُداجة في غابر الأزمان، لا أُلـــوي إلى تَعريس وتأويب، ولا انفَكُّ عن تصعيدٍ وتصويـــب، أقطـــعُ الرَّوابـــي والوِهاد، والأغوار والأنجاد، إذا قَطَعتُ علَماً بدا عَلَم، وإذا هَبطْتُ واديـــاً تَرى إلى أكَم، إلى أن بَدَت أعلامها المأنُوسة، وصارت بِمَرأى مِنِّي آكامـــها محسوسة. فَدَخَلتُ تلك المَغاني، ووَلَجتُ هاتيكَ المباني، وشَمَلَتني الســـعادة

إذ صادَفتُ المَلِك بجَحافل كالسَّيل، يَقصِد ملاعِب الخَيل، وهو في جَلالةٍ لا يَصِفها اللّسان، وهَيْبَةٍ تَرْعَدُ منها لُيوث خَفّان، تَلوح الرِّياسة على أسارير مُحيّاه، وينبئكَ عن مَخبَرِه حُسن مَرآه، فسبحان الذي أودَعَه مَحاسِن الأوصاف، وحَباه رِياستَي العَدل والإنصاف، فإذا هو فَوقَ ما وصفه الواصِفون بكثير:

وإنْ قَميصاً حِيكَ مِن نَسْجِ تِسعةٍ وعشرينَ حَرفاً في عُلاه قَصير

<٢١٠أ> ثم بعد أن استَوْفَتِ النَّفسُ من أوطارها، وزال عنها ما أشْجاها من أكدارِها، رأيتُ مدينة السلام، شامخة الأعلام، فإذا هي أحْسَن من بَيْضةٍ في بَحبُوحة، رَوْضةٌ تزهو بِسُكّانها، وتسمو بأوطانها، مُحتَوِيَة على أكابِر أجواد، وفُضلاء أمجاد، ومشايِخ زُهّاد، وكُماة آساد، تَتَجلّى بزِينة الأوصاف، كالعَروس الحَسناء ليلةَ الزِّفاف. اكتَنَفَت شاطئ دجلة من الجانِبَين، ولها بذلك المُنافَرة على مدائن الخافِقَين، زانَها السَّعدان، العَدلُ والأمان، فهما ثاوِيانِ في ساحاتها، مُقيمان في باحاتها.

ثم بعد أن قَضَيتُ من بغداد أربي، ونَفَيتُ برؤيتي هذا المَلِك لُغوبي ونَصَبي، وشَفَيتُ الفؤاد بمُذاكرتي مع أولئك الأعلام، وبللتُ الصَّدى بمباحثتي مع كلِّ فاضِلٍ إمام، خَرَجتُ أطوفُ قُراها، وأجولُ حِماها، فيما صَمَّمتُ عليه النِّية، زيارة أكابِر آل سيِّد البَرِيَّة، إلاّ وهم الإمام الرابِع، سَيْف الله القاطِع، مَولانا أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، ووَلَداه الشهيد أبو عبد الله الحُسين، والشهيد أبو الفضل العَبّاس، فشَدَدْتُ الرِّحال، وقَدَّمتُ مَطِيَّة التَّرحال، وطَفَقتُ أشقُّ البَيْداء، قاصِداً أرض كَربلاء. فلما قارَبْتُ

القَصَبة وصارَتْ بمَرأى مِنّي قِبابها، وقَرُبَت في النَظَــر للنــاظر أفنِيَتــها ورِحابها، أشرقَت على نهرٍ أصفى من الجريال، وألذُّ للصادي من الــزُّلال، غَرِيقه سابِح، وعَنْدَليبه صادِح، وبُلبُله غادٍ ورائح، وحَمامَه شادٍ ونائِح، قــد شَقّ زَرْعاً حُلّي بالأثواب السُنْدُسية، وكُسِي من الطَّــراوة الحُلَــل البَهِيَّــة، <١٠٢ب> وحَقّ له الفخر والبَهاء، حيثُ كان ابن ماء السماء، قــد شــقّ الثور حَرْثَ أمِّه، وارتَضَع ثَدْيَ الدَّلْوِ قبل فَطْمِه. حُلّي بالسُّنْبُلة رأسه، فغـدا يتأوَّد طَرَباً، وكَمُلَت في النَّفسِ النَّباتية حَواسه، فازدادَ تَيْهاً وعَجَباً، وكيــفَ لا يَحقُّ له الفِخار، وقد هُيِّئ لِخِدمته ميكائيل في عُلُوِّ شأنه، وأجابه الغيــث طَوْعاً له من مكانه، وخَدَمه الرَّعدُ بِزَئيره وهَديره، وأجابه الرِّيح لإثــارة السَّحاب في جَرْيه ومَسيره إلى غير ذلك من فَلّاحٍ وباذرٍ وساقي ونــاطِرٍ، حتّى غدا قُوتاً لبني آدم بل لجميع الحيوانات، وإنه في هذا الأُلــم أجــدى وأنفع نَبات، وقد أبصرَتُه يَتأوَّد تأوُّد العاشِق، ورأيتُه في نُحــول الكئيــب المُفارِق، وإنه يَنْشد [من الوافر]:

أضــاعُوني وأيَّ فتــىً أضــاعوا ... لِيــومِ كَريهــةٍ وسَــدادِ ثَغْــرِ[١]

فسألتُه عن حالِه، وعمَّا نابَه دونَ أمثاله، فقال: قد كُنتُ فــي غــابرِ الزَّمان مملوكاً للوزير المُعَظَّم، والخليفةِ المُفَخَّم، حامي العراق بالاتفــاق، فأنْعَمَ على السُّوَيدي أبي البركات بأن جعَلَني له قوتاً بي يَقْتــات، فبَقِيــتُ بُرهَةً من الزمن، أدفَعُ سَغَبَه، وأنفي نَصَبَه ووَصَبه. والآن قد ذَهَــب إلــى

---

[١] البيت لعبد الله بن عمر العرجي المتوفى سنة ١٢٠هـ.

بيتِ الله الحرام، وقد تَرَكني قُوتاً لصبيته، وقُوَّةً للضعيف من عَيِلَّتِه، وقد تَغَلَّب على أولاده ضابط هذه القَصَبَة، فمَنَعَهم عنّي، وأنا أعلمُ أنَّ مالكي لا يَستَرِد العَطِيَّة، ولا يَمِن بالنِعَم ولو كانت جليلة جَلِيَّة، وعارٌ عليَّ أن أرُدَّ بعد خروجي إليه، وأن أكون لا أُقيمُ بالخِدمة لما عُوِّل عليه. على أنه لا عِلْمَ له بإرجاعي، ولا رِضى له بخُلُوِّي من أماكِني وبِقاعي، وكيف لا أحزن والسويدي قد اعتمد على الله ثم عليَّ، ووَكَّل أمَر أهله إلى الله ثم إلَّي، <٢١١أ> فلَيْسَ من المروءة أن أُخَيِّب ظَنَّه، وأوقِعه ،وهو في غُربَتِه- إذا سَمِع- في مِحنةٍ، فتعجَّبتُ من وفائه العُهود، واستغربتُ من طَبْعِه المَحمود، وقُلتُ له: طِب نفساً! أنا أُخبِر الوزير إذا رجعتُ إلى بغداد، وأنا الزعيم بأن أرفع عنكَ عن هذه الأنكاد، وأما القصيدة فهي [من البسيط]:

إلامَ أمزِجُ صفوَ العَيشِ بالكَدَرِ ... وحادِثاتُ زماني خالَطت عُمُري

وفيمَ أكرَعُ من عَيْنِ المَصائبِ في ... كأس الهموم بدا في راحةِ القَدَرِ

كأنني وصُرُوفُ الدَّهرِ تَركُبُني ... فريسةٌ بين حدِّ النَّابِ والظُفُرُ

مَن للمُعنّى وقد قلَّ النصير وخا ... بَ المستجير، فلا واقٍ من الضَّرر

مَن مُسعِدي مَن مُعيني اليومَ من سَنَةٍ ... أخنت عليَّ فلم تُبقِ ولم تَذَر

لا مالَ لا ثروةً عندي أُحار بها ... إلاّ أبا عادلٍ ذا النصر والظَّفَر[1]

غَوثُ الصريخِ مَلاذ المُستجير به ... غيثُ المساكين من أُنثى ومن ذَكَر

مُغني الوفود إذا حَلُّوا بساحته ... بكَثْرة الجود من خيلٍ ومن بِدَر

لو أنّ في البَرِ مما حلَّ راحتَه ... عُشراً لأغناه عن سَيْحٍ وعن مَطَرِ

---

[1] يريد أبا عادلة خاتون، وهي الابنة الكبرى لأحمد باشا، على ما تقدم.

وكان زهرُ رُباه دائماً نضراً[1] وظلّت الطيرُ تثنيه على الشجر

فاقت أناملهُ البحر المحيط كما حُسنُ الشمائل منه غير مُنحَصِر

لم تلقه الدهرَ إلاّ باذلاً صِلَةً موصولةَ الحمد من بادي ومن حَضَري

كأنما هو مجبول على كرمٍ إذ لا تطيق عطاه عادةُ البشَر

قد سادَ آباؤه الغرُّ الكرامُ فإن سادوا الورى فبه سادوا بلا نُكُر

في قُنّة النجم معقود منصبُه إذ قدره كان فوق الشمس والقمر

تاهت به بلدة الزوراء إذ أمِنَت به من البؤس والأنحاس والكَدَر

من آل عثمان أضحى ساق شَوكتها لولاه ما فضلها العالي بمُشْتَهِر

<١١٢ب>

له الوزارة إذ قد حازها قدَرٌ (كما أتى ربّه موسى على قَدَر)[2]

شهم هِزَبْر شجاع باسل ملك في جحفل حين تلقاه وفي نَفَر

في السلم خاطرهُ ذو رقة أبداً وفي الحروب هو الأقسى من الحَجَر

سل الأعاجم والأعراب ما لقيا من حربه فهما أولى بذا الخبر

كم غزوةً قد غزا والليل مُعتكر فأورد الحتفَ أعداه مع السَحَر

في فتية لجّة الهيجاء تطربُهم من رنّةِ السَّيْفِ أو من نَغْمَة الوَتَر

لن يرعَووا عن قتالٍ في الوغى أبداً حتى يسيلوا دم الأعدا على العَفَر

كأنهم حين يلقاهم مُبارِزهم في قوة الجبل الراسي وفي العَجَر[3]

شمُّ الأنوفِ مَصاليت إذا نزلوا الـ هيجاء وفّوا حقوق الصارم الذكَر

---

(1) بالأصل: نظراً، والصواب بالضاد كما أثبتناه.

(2) البيت للشاعر جرير بن عطية وأوّله: (نال الخلافة إذ كانت له قدراً). نظر شرح ديوان جرير، للصاوي ص ٢٧٥ طبعة بيروت.

(3) العجر: بفتح العين والجيم، الحجم (للشاعر).

تحت العَجاجَةِ فوق الخيل قد ردعوا بالبيض والسمر عن بيضٍ وعن سمر

فمن مواضيهمُ بل من أسنَّتهم من العِدى كل منظوم ومُنتَثِر

غُرٌّ الوجوهِ ميامينٌ بهم أمِنَت بغداد من كل ذي شرٍ وذي ضرر

ففاخَرَت بهم كُلُّ المدائن من نحو المدائن من مصرٍ ومن زغر[1]

حازوا جميع معاني العزّ من صِغَرٍ فأكّدوا حَوزَها في حالة الكِبَر

فاقوا جميع الورى طرّاً بخدمتهم تاجَ الملوك سليلَ السادة الغُرر

حامي الذِّمار حُسام مُصلَتٌ ذمِرٌ[2] ذو مُرهَفٍ في الوغى أمضى من القَدَر

محافظٌ رامَ في دار الحِفاظ على سدّ الثغور مُستَوجِب الشُّكُر[3]

ما قلتُه صاحِ عُشرٌ من فضائله وليس مَديحَي عن لغوٍ وعن كدر

أنىّ أحوزُ سجاياه وأجمَعُها ولو بذلتُ على تحصيلها عمري

خُذها أبا عادلٍ من عند شاعرِكم بكراً تُزَفُّ إليكم وابنة الفِكَرِ

فأجعلْ فدَيتُكَ (ميري الجوق) جائزتي أو الثلاثين من هاتيكم الصُفُرِ[4]

<٢١٢أ>

فالدهرُ أكثر أعساري وقد تَرِبَتْ يداي فاغسلهما بالأصفر النَّضِرِ

وإنّني ذو عيالٍ مسَّهُمْ سغب وصِبيَةٍ لم يزالوا منه في ضجر

فأمنن عليهم بما يشفي غليلهم وحَلِّهم بالعطا فالعُدْم كالصبْرِ

لا زالت السبعة الأفلاك تغبطكم على العُلى فعُيون النجم في سَهَر

ولا بَرِحتُم بأمنٍ والسرور لكم ودامَ أعداؤكم منكم على حذر

---

[1] زغر: بلدة بالشام (للشاعر).

[2] الذمر: الشجاع.

[3] عجز البيت مختل الوزن.

[4] قوله في عجز البيت: أو الثلاثين.. الصفر، يوضح مقدار حصته من تلك الضريبة.

فصـــــل

[معاقبة شيخ زبيد]

وفي السنة السابعة والخمسين بعد المائة والألف[1]، إحتال الوزيــر بشيخ زَبيد غَصيبَة فصلَبَه في حِلَّة ابن دُبَيْــس، وصَلَــب معــه رؤســاء عشيرته. وسَبَبُ ذلك أنه قد حالَف العجم في هذا الحصار، فــآذى النــاس كثيراً، فلما ذَهَب الخارجي المذكور أرادَ أن يأخذ منه الانتقام، فلم يَتَّفَق لــه ذلك، لعدم قَراره في مكان من البادية، فأرسل إليه كتاباً ليِّنَ له في المقَــال، فغَرَّه بالباطل والمُحال، وأنه يأتي إلى حِلَّة ابن دُبَيْــس بجميــع فرســانه، وأكثر شُجعانه، ليَسير مع العسكر الى قِتال شَمَّر، فقَدِم الحِلَّة المذكورة.

ووَجَّه الوزير إلى الحِّلة سَرِيةً أمَّرَ عليها كَتْخُداه سليمان باشا، فلمــا صارَ الجميع فيها قَبَضَ على غصيبة ومن معه من أكابِر العشيرة، فصُلِبوا عند رأس الجِسر، وأخَذَت خيول من معه أجمَع، وخَــرَج أعوانــه منــها رَجَّالةٍ كَبَهِيم رُتَّع[2].

[مسألة في الأدب]

وفي هذه السنة قُلتُ حين وقَع الســؤال بحضــرة الوزيــر الكبــير الرئيس الشهير أحمد باشا- أيدَّه الله- عن قول الشاعر: كــم تَــرَك الأولُ للآخِرِ؟ فرَدَّ القاضي على المُفتي قوله: تَــرَك معلومــاً، وصَحَــحَّ تَــرَك

---

[1] أولها ١٥ شباط ١٧٤٤م.

[2] الخبر في دوحة الوزراء ص٦٣-٦٤.

مَجهولاً. وصنَّف على تلك رسالة تؤيِّد دَعْواه، وتنفي قول من سِواه. فأمر الوزير المذكور، والدي المشهور، أن يَنظُرَ في هذا الباب، <٢١٢ب> ويُمَيِّز خَطأ القَولَين من الصواب. فعَمَل الوالد رِسالةً في الرّد على القاضي في قوله الماضي، فأحببْت ، حين كتابة الوالد الرسالة، أن أُخاطِب ذا الجلالة والبسالة، بتشطيرٍ وتَعجيزٍ، أبيات هذا الشَّطْر، تكرُّماً بمَدْحِ ذلك الصدر، وهي [من السريع][1]:

(لا زِلتَ من شُكري في نِعْمةٍ) مَغبوطة البادي مع الحاضِرِ
ولا عَداك الحمدُ عن حُلَّةٍ (لابِسها ذو سَلَبٍ فاخِرِ)
(يقول من تقرَع أسماعه) ما مِثلُ هذا المَفْخر الناضِرِ
لا غرْوَ إذ قالَ من قَبْلَنا: (كم تَرَكَ الأول للآخِرِ)

فصل

[سجن رئيس بني لام]

وفي السنة الثامنة والخمسين بعد المائة والألف[2]، سُجِنَ عبد القادر رئيس بني لام وابنه في القلعة، فمات عبد القادر فيها صَبْراً. وسبب ذلك أن الوزير قد أَقْطَعَه قَصَبة السَّماوة، وجَعَله من أتباعه، فطَفِقَ بنو لام في الفَساد. فاستخبر الوزير عن ذلك، فقيل له: إن هذا كله بإغْواء وإغراء

---

(1) ديوان عبد الرحمن السويدي ص١٩٢-١٩٣.

(2) أولها ٣ شباط ١٧٤٥م.

عبد القادر. فأرسل إليه يأمره بالقدوم لأجل المُحاسَبة من طَرَف المِيري الذي أقطَعه إياه، فلما قَدِم بغداد، سَجَنه في القلعة مع ابنه، فكان فيها أجَلَه.

وفي هذه السنة امتَدَح الوزير أخي الأوسط الشيخ محمد سعيد، بقصيدةٍ بَليغةٍ من لِسان بعض الأصدقاء، يَستَمنِح الوزير بها، حين أخنى عليه الدَّهرُ بكَلْكَلِه، وسَطَا عليه بخَيله ورَجِله، والتمس منه أن يُضَمِّن فيها قول الشاعر:

ولابُدَّ من شَكْوى إلى ذي مُرُوءةٍ ... فيواسيك أو يُسَليكَ أو يَتَوجَّع

فأجابه أخي إلى ذلك، فقال <٢١٣أ> [من الطويل]:

إلامَ خُطوب الدَّهرِ للقلبِ تَصْدَعُ ... وفيمَ فؤادي للحوادث مُوقَعُ
فهل زَمَنٌ قد كُنتَ فيه منعِما ... يعود وأوقاتُ المَسَرَّة تَرجِعُ
زمانٌ به قد عِشْتُ في رَوْضَة الهنا ... وَوَرْقُ المُنى بالسَّعدِ تَشدو وتَسْجَع
زمانٌ إذا ما إن دَعَوتُ به فَتَى ... أتاني مُطيعاً للإجابةِ يَسرَعُ
زمانٌ به أُدعى كَريماً وسَيِّداً ... وأبناؤه لي طَوْعٌ وهو أطوَعُ
زمانٌ به صَحبي يؤمون مَنْزِلي ... وكَفي لهم منها الدَّنانيرُ تَهمَعُ
عليه سلام الله ما زار في العَنا ... وما دامَ خَطْبُ البَيْنِ للقلبِ يَفجَعُ
وقد حلَّ بي من بعد غَيْبَته التي ... زَمانٌ لِقلبي بالنوائب يَقلَعُ
ولم أرَ فيه طِيب عَيْشٍ ولَذَّة ... ولا أحَدٌ للخَطْبِ عني يَدفَعُ
ولم أرَ صَحْباً غير أن وفِيُّهم ... إذا مرَّ ذِكري عنده فهو يَجزَع
ولما رأيتُ الناسَ مَلُّوا مَكانتي ... تيَقَّنتُ أن العِزَّ بالفَقرِ يَدْقَعُ
دَهَتني خُطُوبٌ بتُّ منها على لَظَى ... يَسامِرُني هَمٌّ وكَرْبٌ وأدمُعِ
وأصبح جِسمي للحوادِثِ مَنزِلاً ... وقَلبي من كأسِ المَصائب يَكرَعُ

وجاءتْ إلى الفارسيَّةِ تشتكي   حُلول الرَّدى والعَيْنُ تَهمي وتَدْمَعُ

تَق الله ما هذا التَّواني فما تَرى   وعِندَك أطفالٌ فِطامٌ ورُضَّعُ

فلابُدَّ من أمرٍ تُدَبِّر حالَنا   به وتُزيل الكَربَ عنّا وتَرْفَعُ

ولابدَّ من شكْوى إلى ذي مُروءةٍ   يُواسيكَ أو يُسلِّيك أو يتَوَجَّعُ

فقلتُ لها إن الشِّكاية دونَها   خُطوبٌ دَهَتني فهي للقلبِ أصدَعُ

فمن يَشتَري ماءَ الوجوه ومن له   حقيق ومن للقولِ يُصغي يَسمَعُ

إلى من ترومي يا ابنة الفُرسِ إنني   أَبُثُّ له الشِّكْوى فيُولي ويُقْنِعُ

أجابتْ إلى بحر المكارم ذي النَّدى   فالجود إلاّ عن سِواه مُمَنَّعُ

<٢١٣ب>

إلى من تُنال المَكرُمات برِفْده   أبي عادلٍ للعُسرِ باليُسرِ يَدْفَعُ

يأمُونه الرَّاجون من جَهدِ فاقةٍ   فيلقون غَيثاً بالدنانير يَهْمَعُ

أخو هِمَمٍ ذو نجدةٍ غَوثِ صارِخٍ   مُعين ضعيفٍ بالنَّوالِ مُولَعُ

كريمُ يدٍ تَخشى الدنانيرُ بَذْلَها   ويأبى نَداه مَنْعَ من فيه يَطمَعُ

تجمَّع في يُمناه جودٌ وسَطوةٌ   فآناً به يُرضي وآناً يُزَعْزِعُ

هو البحرُ يومَ الجودِ يَعذبُ وِردُه   ويومُ الوَغى نارٌ من الحَزْمِ تَسفَعُ

هُمامٌ تَهابُ الأُسْدُ صَولةَ عَزمِه   وبالسُّمرِ والبيضِ البَوارقِ يَردَعُ

بوارِقُه من لُجَّةِ النَّجيعِ ترتَوي   وسُمر عَواليه من الحَتْفِ تَكْرَعُ

سَلِ السيف عنه والقَنا في لَظى الوغى   فكم بهما فيها يُبيد ويَقْمَعُ

وسَل عنه إيراناً وسَلْ شاهها وسَلْ   كُماةً بأكناف الصَّعيد تَصَرَّعُ

له الجودُ طَبْعٌ والنزال سَجيّةٌ   وللغَيرِ جُهْدٌ فيهما وتَطَبُّعُ

حسيبٌ له مَجدٌ رقى ذروة العُلا   فأنوارُه فوقَ السماكَيْنِ تَسطَعُ

به شَرُفَتْ بغداد إذ شَمسُ مَجدِه   على سوحِها من قُنَّةِ السَّعدِ تَطلَعُ

به باهَتْ الدنيا ولا غَرْو أنه ... له همَّةٌ من رُتبةِ الشمس أرفَعُ

إلى جودك الفياض وجَّهتُ وِجْهتي ... أبا عادلٍ داري من الفقرِ بَلْقَع

فهل أنا أخشى الفقر والندب مقصدي ... وهل انا أظمى والندى لي مطمع

ولا زالتِ الأيّام تَخْدِمُ سَعْده ... ودامَتْ لعُلْياه الأساطين تَخْضَعُ

ولا انفكَّ عنا جُوده منتهى البَقا ... ولا بَرِحتْ حُسناه للكرب ترفع

وفي هذه السنة، التَمَسَ مني بعض الأصدقاء، ممّن هو من أولاد الأكابر، يَستَمنِح الوزير ويستعطفه حين افتقر بعد غِناه، فلم تتم القصيدة لحصول المُراد قبل التَّمام، وقد كان عملتُ منها هذه الأبيات، وهي: <٢١٤أ> [من الكامل]:

أكذا يكون جزاءَ صَبٍّ مُوجَدِ ... أم هكذا شِيَمُ الحسان الخُرَّدِ

أسعادُ حسبي ذا البعاد وذا النوى ... أسعادُ عهداً بالرصافة جدِّدي

أسعاد إن كان الزمان مغيِّري ... عن حالةٍ غيري به لم يعهدِ

فلطالما صرَّفت آمالي إلى ... أربي ومقوده وثيق في يدي

والناس أطوع من شراك النعل لي ... إذ كنتُ سيِّدَهم وغير مسوَّدِ

والعيش غضٌّ غصنه وغديره
صافٍ عن الأكدار عذب المورد
والسعد يخدم سدّتي والجدّ يعـ
ضد شدتي والوفد يبغي منحتي والمجتدي[1]
والآن دهري بالشماس معاملي[2]
عاصٍ عليّ أطاع أمر الحُسَّدِ
فأتى عليّ بخيله وبرجله
هدماً لركنٍ بالجميل مشيَّدِ
وأحاط بي يرمي بكلّ ملمَّةٍ
من كل داهية وصرفٍ منكد
فأباح مني ما استباح معوّضي
ذُلُّ العديم مكان عزّ الأصيَد
حتى ضعفت فلا فتىً أقوى به
لخصامه فيعاضدي أو ينجدي[3]
قلّ الظهير فلا نصيرٌ صادقٌ
غير الوزير أبي الفتوح الأحمد
غَوثَ الورى كَهْفَ الضعيف لدى الردى
سمّ العِدى فيه هلاك المعتدي

---

[1] البيت مختل الوزن فيه زيادة تفعيلة.

[2] الشماس: العناد.

[3] حذف الشاعر نون الوقاية في (يعاضدني أو ينجدني) وهي ضرورة غير سائغة.

الباسلُ المقـــدام مـــاضي الفـــاصل آلـــ

صمـــام يـــوم كريهـــة ذو مشـــهد

نـــدب إذا الـــهيجاء هـــاج فطامـــها

أسَـدٌ يصـول علـــى جـــوادٍ جيِّـــد

فالســمهريّ اللـــدن يرعـــد متنـــه

فـــي كفّـــهِ والســيف يـبرق فـــي اليـــد

هـذا يصفّـق فـــي الظـهور وذا لـــه

أبـــداً علـــى الـــهامات نغمـــة منشـــد

وهَـــنَ الكتـــائبُ عنـــد قـــوّة عزمـــه

وثباتـــه فـــي حزمـــه المتصلّـــد

كـالطّود جـــاد لا يـــزول لـــدى اللقـــا

فـــي خـــاطرٍ إذ ذاك قطعـــة جلمـــد

<٢١٤ب>

فَلكَـــمْ كمّـــي بالدمـــاء مُســـربلٍ

منـــه وآخـــر بـــالنجيع مُمَـــدَّدِ

سَل عنه يـــوم الشـــاه ليلـــة أُخمِـــدَت[1]

نـــيران فـــارسَ بعـــد جّـــمٍ تَوَقُّـــدِ

وسَـــل الأعـــارب فالمحـــارب منـــهم

يُنبيـــك عـــن حمَلاتـــه فـــي المَطْـــرَدِ

---

[1] لعله يريد بيوم الشاه إحدى المعارك الفاصلة التي جرت بين أحمد باشا ونادرشـــاه في أثناء الحملة العثمانية على إيران، أو في أثناء محاصرة نادرشاه بغداد.

فـــالفُرْس والأعـــراب قـــد دَرَيـــا شـــجا

عنْـــه لمـــا لقيـــا بُجـــزء مُســـــــــنَدِ

أغنـــى لـــه التدبـــير عنـــد تفـــاقم الــــ

خَطْبِ الخطـــير مـــن الخميـــس المُنجـــد

قَـــرَّت عيـــونُ الديـــنِ فيـــهِ ولـــم تـــزلْ

مكحولـــةً منـــــه بأحســـــــن إثمـــــد

مَلِـــكٌ تتـــوَّج بالجلالـــــة والبَـــــها

فمحلّـــه فـــــوق الســـــُهى والفرقـــد

فـــاقَ الملـــوك عدالـــــةً وشـــــجاعةً

ولـــه علـــى كـــلِّ شـــــهامةُ ســـــيّدِ

ذو همَّـــةٍ عليـــــاء يقصـــــر دونـــــها

ثَـــهْلانُ شـــامخة الـــــذُرى والمَحتِـــدِ

شَـــهمٌ علـــى مَتْـــنِ الـــوزارة قـــد رُبـــي

فبـــه الـــوزارة لـــم تَـــزَلْ فـــي ســـؤدد

فـــهو الوزيـــــر ولا وجـــود لمِثْلِـــه

الأوحـــدُ ابـــن الأوحـــدِ ابـــن الأوحـــدِ

فصــــــل

[إهداء فرس إلى والد المؤلف]

وفي السنة التاسعة والخمسين بعد المائة والألف[1]، أعطى الوزيـــرُ والدي فَرَساً، فأراد أن يتشكَّرَه بأبيات، فلم يَتَيَسر لـــه النظـم لأمــرٍ مـا، فأمَرني، وأمر أخي الشيخ محمد سعيد، أن نُهَيِّئ له قصيدة عـــن لســانه، فأخذتُ أنا في وَصْفِ الفَرَس، وأخذَ أخي في وصف الوزير، لكن البيـــت الذي هو مطلع القصيدة للوالد- حفظه الله تعالى- هو [من الطويل][2]:

مطالع آمالي أنَرْنَ علـــى حـــالي ومَيَّزْنَني فَضلاً على كُلِّ أمثـــالي

فما نَظَمتُه أنا، وهي:

ولِي البِشر أن سُوِّدْتَ غـــيرَ مســوَّدٍ ولي الفخر إذ قد نلــت غايــة آمــالي

<٢١٥أ>

وذلك إذ جـاد الوزيــر أخــو النــدى علــيٌ بمـا أولاه مــن جَـمِّ أفضــال
بِطِرفٍ سَبوحٍ يسبق الطَّــرفَ جريــها فلا الريح تحكيـــها، كورقــاء زجّــالِ
ضَمور هَصور شَزْرَةَ الأذن قبّــة الــ أيــاطلِ مطــواعٌ لــها خلــقٌ غــالِ
تَحار عيــون النــاس فيــها لحُسـنها ويذهب بالأبصـــار رونقــها العــالي
معــوَّدَة تحــت الأســـــنَّة والظُبــــا (ومسنونةٍ زُرقٍ كأنيـــابِ أغــوالِ)[3]

---

[1] أولها ٢٤ كانون الثاني سنة ١٧٤٦م.

[2] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٦٠-٦١.

[3] الشطر لامرئ القيس وأوله: (أيقتلني والمشرفي مضاجعي) ديوان امــرئ القيــس، تحقيق حسن السندوبي (القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) ص١٠٩.

من الغاديات الناجحات لــدى الوغــى بــل العاديــات الضابحــات لإقبـــال
إذا طُلِبتْ وافــت وإن طُلِبــتْ نَحَــت ولا الركل تدريــه علــى أيمّــا حـــالِ
وأن ســـابقت فـــهي المجلّـــي وربُـــها يحوز ثناهــا لا المصلّــي ولا التـــالي
مُقَنَّفـــة دهمـــــاء كـــل خِصالـــــها جميل فلا تحتـــاج وصفـــي وأمثـــالي
فلا عيبَ فيــــها غــير كـــثرة أكلــها وأن دام هذا الحال يـــا خيبـــة الحـــال
كـــأنّ حَشـــاها والشـــــعير تذيبــــه سَعيرٌ لذاك التِّبْن فـــي قعــره صـــالي
فشكراً لمن أعطى (سَــكاب) وإنـــها[1] لمن بدَرٍ أحـــرى لــديَّ ولولـــى لـــي
رفَعتَ مقـــامي إذ خَفَضْــتَ معيشــي وأحســنتَ حـــالي بـــالكرائم والمــــال
وتوّجتَنـــي بـــالمجد فـــالمجد عِمّتــي وحلّيتَي بـــالفضل فـــالفضل سِــربالي
وأشهرتَ ذكري بين عُـــرب وأعجُـــمٍ وأوليتني فخري علـــى كـــل أمثـــالي
فلا زلتَ ركُــن الديــن كَــهفاً لأهلــه ولا زلــتَ محفوفـــاً بنصـــرٍ وإقبـــال

وما نظمه أخي:

وزيرٌ له الجـــودُ الغَزيـــرُ ســـجيةٌ فليْسَ بمحتاج إلـــى قـــول ســـؤالِ
جَوادٌ أذل البيض والصُفْر بالعَطـــا فلم يَثنِه عن جـــوده عَـــذل عُـــذَّال
إذا رامَ حربـــاً أو أرادَ عطيَّـــــةً فيا خَيْبةَ الأبطالِ أو خَيْبـــةَ المـــال
تُسابِقُ يُمناه الشـــمال إلـــى النَّـــدى فلم يُعرَف المتلو جُوداً من التـــــالي

<٢١٥ب>

وحـــازَت يَـــداه سَـــطوةً وســـماحةً ففي الحرب تسطو بالحُسام وعَسّـــالِ
وفي الجـــود للمُســـتَمنحين تَعمُّـــهم وتمنحُهم من جُودها سحب أمـــوالِ

---

[1] سكاب: اسم الفرس.

شجاعٌ هِزَبــــر باســل ذو شَــهامةٍ وعِزّ ومجـــدٍ وامتِنــانٍ وافضــال
أخو هِمَمٍ ذو نجدَة غَــوث صــارخٍ مُعينٌ ضعيف القلب والعَزْم والحــلِ
ثَبات العِدا منـــه بخــوفٍ ورَهبــةٍ ويَصبح راجي حفظه خالي البـــال
ومن بِحِماه ليس في الأرض ظــالمٌ له والذي يَعصيه ليــس لـــه والــي
ومن في مَقامِ القُرب منـــه مُقَــرَّبٌ لدى الخَلْق مرفوع له شَرفٌ عــالي
أبــا عــادلٍ أكرَمْتنــي ورفعتَنـــي على جُلّ أقراني وأخْيــار أمثــالي
وذاك بمـــا أولَيْتَنــي ومَنَحتَنـــي وخصصتَني من بين تُربي بإقبـــالِ

وكيفية جمع النَّظمَيْن، أن أبيات أخي وُضِعَت بين قَولي: وذلـــك إذ جادَ الوزير، إلى آخره، وبين قَولي بِطَرْفٍ، إلى آخره.

فصـــــل

[الغارة على شمر]

وفي هذه السنة، خَرَج- كما هو عادته- إلى الصَيْــد نَحْــوَ هَــوْرِ عَقَرقُوف، وكان معه جميع أتباعه، وكان معه بكر آل حَمام شيخ شَـــمَّر. فحَصلَ من شَمَّر في هذا الأثناء بعض تَعَــدِّي، فــأراد أن يَقْبِــض علــى شيخهم، ويشن الإغارة عليهم. فبَلَغ بكر هذا الخـــبر، فــهرب مــن بيــن العسكر.

[كتاب في أسماء الطيور]

وقد أنشأتُ كِتاباً عن لسان الوالد، إلى الأمير محمد باشا[1]، وهو مع الوزير، يتضمن غالب أسماء الطيور وبعض الوحوش، لمُناسبَة الصيْد:

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أجدى ما تَقْنصته الأفهام في المصادِر والمَوارِد، وأجل ما تَفَحصتّه بلابل الكلام من كل طريف وتالِد، وأجدَرَ ما افترَسه شاهين البَراعة في صَحارى <٢١٦أ> الدفاتر، وأحرى ما اختلَسه بازي البَراعة على أعالي المَنابِر، تحيّاتٌ طارت بمُضاهيها عَنْقاءُ مَغرِب، وحلّقت بمَوازيها بين مَشرِقٍ ومَغْرِب، وتَسليماتٌ سالمةٌ من الرِّياء في الطويَّة والمَقال، فهي في الصفَاء كعَيْنِ الدِّيك في المِثال، مُمتطيَّة قُدامى النَّسرين الطائر والواقِع، مُزرية نَجوا في مَزايا القَصرَين على الحقيقة والواقِع، ودَعواتٌ تحفُّها ملائكة الإجابة، وتَحفُّها كَرُوبي[2] الإنابة، فخَفَقت راياتها على رأس النَسر، وحقّقَت آياتُها انتظام الأمر، ودَوام النصير لِمَن سَجَعَت له عنادل الثناء على فروع المحامِد، وغَرَّدت له بلابل النَّعماء على أصول الأماجد، فَعَلا طائرُ فَخرِهِ في الآفاق، وزَهي بطاووس ذِكْره في رياضِ الدفاتر والأوراق.

---

[1] تقدم التعريف به.

[2] جنس من الملائكة.

كيف لا؟ وهو الأعز من عُقَابِ الجُو على الحقيقة، ولم يَزَل بـــازي السّعد أليفه ورفيقه. فطائر مجده الأجدل، لا طـــيرُ العَراقيــب والأخيــل، فاستخدم الأماثل والأفاضل، وجمع الفضـــائل والفواضِــل، فـــهو الحـــائز للشجاعة والقِرَى، والصَّيْد كل الصَّيْدِ في جَوف الفِرا، فَفَضَل الأنـــام فـــي الحال والمال، وناف الأماجد الأعلام في كل الأحوال.

شعراً:

فإن تَفُــق الأنــام وأنــتَ مِنــهم   فإن المِسْــكَ بعض دم الغَــزالِ

أقامت شمائله دلائل الإعجاز، فاعتَرَفَ مباهِلُه بأنه على شفا جُـرْفِ المَجاز. شعراً:

وكم طيـــبٍ يَفــوحُ ولا كَمِسْــكٍ   وكــم طَــيرٍ يطـير ولا كَبــازِ

<٢١٦ب> فأذعَن له حاتَم الجُود، بأنه محمود، وأقــرّ لـــه عَنْــتَرَة الشجاعة بأنه أمير نُسور هذه الصّناعة، فقرَّت لكثرة نداه أنواعُ الطير فـــي أوكارها، وسُرَّت لجميل قِراه أصناف الوَحْش في آجامها بزوارها، فضــلاً عن تزايد حُبور الأنام، وابتهاج نُور الأيام، فـــالحمد يحمـــده، والراعـــي والحَجَل يشكره على هذه المَساعي، وذَلِق بثنائه لسان الشَقِر والشُّـــمغُوا، وحَدَّثَ بمحاسن أنبائه الطُّوطي والسُّغوى، وأتى الهُدهُد بخـــبر افضالـــه، مُستوفياً محاسن كَماله. وصار من محاسنه الحَوْصَل مُمتلِـــئ الحَواصيـــل، وأحسَّت أم حَسِيسٍ بأحاسين هاتيك الشمائل، فحُبِرتْ به الحُبـــارى، وازداد لها الحُبور، وأنِس به النهار في الظلام، وأمِنَ به الظليم ظَلامة النُّسُـــور،

فالكُل به آمن من ظَبي الحَرَم وحَمامَه، وإن جادَ الكُل بحتَفه وحِمامه، فدَرَج الدُرَّاج إلى تقبيل أياديه، وهَرْوَل القَطا النَهَّاج إلى ناديه، وودُوا أن يكونوا لغَدائه وعَشائه، وأن تُهراقَ دماؤهم في فنائه، علماً منهم بأن الاستسلام أسلم، والإنقياد أحزَم، وأنه خَيْرٌ من النجاة إذ كان فيه بعض المُكافآت، فاقبَلت نحو شَواهينه مُنقادة، وصارت تحت براثنها مُصطادة.

وفي ذلك أقول شعراً [من الطويل]:

وما قَصدَتْكَ الطَّيرُ من كَبَدِ السَّما خُماصاً ولا جَهْلاً بما أنتَ قاصِدُه

ولكنها رامتْ مكافاةِ بعض ما عليَها استقرّت بالذّي أنتَ صائده

لا زالت حَضرتَه تَستَنسِرُ البُغاث على سُدَّيها، وتَستَجمِرُ <٢١٧أ> الأُتُن في فِناء رَحْبَتها، ولا بَرِحت محطّاً لرِحال الأفاضل، وملجأً لكل ماجِدٍ فاضل، ولا زال بُلبُل الأفراح بها مُقيماً، ولا انفكّ شحرور الفَلاح لها نديماً، آمين.

أما بعدَ هذا الثناء الوافر، والدُعاء المُتكاثر، فالمملوك يُقبّل الأرض، مؤدّياً من شَرَف الخِدمة بعض الفَرْض. ثم إنه إليكم أشوَق، وبقول المتقدم أحرى وأليَق. شِعراً:

يا مَنْ له بين الضلُوعِ مَرابِعُ أنا شَيّقٌ أنا شَيّقٌ أنا شَيّقُ

طارَ خاطِف ظِلّه بِصبره، وأطلعه غُراب البَيْنِ على حُلْـوه ومُـرّه، فمقامي بعدكم مقام الحَرْباء بعد الشمس، وتذكر الجَرباء صِحـة الأمـس، شعراً[1]:

فِيمَ الإقامةُ بـالزَّوراء لا سَـكَني فيها ولا ناقَتي فيـها ولا جَمَلـي
ناءٍ عن الأهل صِفْر الكفُ مُنفَـرِدٍ كالسَّيْفِ عُرِّي متناه عـن الخلَـل

فالله أسألُ أن يجمعنا اجتماع العِمْاني والوِرْشان، وأن يَضمَّنا ضـم المِفْحَصِ القطاة مكان، إنه ولي كل افضالٍ وإحسـان، والسـلام عليكـم ورحمة الله وبركاته.

فصـــل

[في تزويج عائشة خانم]

وفي رأس الستين بعد المائة والألف[2]، زوّجَ اِبنَتَهُ الدُّرّةَ المَصُونـة، والجَوْهرةَ المَكنونة، عيشة خانم[3]، من الرجل الكامل، والـهُمام الباسـل،

---

(1) البيتان للطغرائي، من قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم.

(2) أولها ١٣ كانون الثاني سنة ١٧٤٧م. وفي تاريخ نشاطي (كما في العزاوي: تـاريخ العراق بين احتلالين ج٥ ص٢٧٨) أن تاريخ العقد هو في ٢ ربيـع الأول/١٣ آذار ١٧٤٧م، بينما وقع الزفاف في ١٢ منه.

(3) هي الأخت الصغرى لعادلة خاتون، تزوجت أولاً من أحمد آغا، علـى مـا ذكـر المؤلف، وبعد اعدامـه، تزوجـت مـن والـي بغـداد علـي باشـا (١١٧٦-١١٧٧هـ/١٧٦٢-١٧٦٣م)، ثم من خلفه عمر باشا (١١٧٧-١١٨٩هـ/١٧٦٣-١٧٧٥م) ومن مآثرها أنها جددت جامع قمرية الواقع على شاطئ دجلـة، فـي-

أحمد آقا. وقد عَملَ لهما عُرْساً يَعجَزَ اللِّسان عن وصفه، ولا يقدر البيان بإحاطة ثُلثه أو نِصفه[1].

وقد هنأ الرجل المذكور بذلك الشعراء بالقصائد الرائعة، والتواريخ الفائقة، فمِمَّن هنأه مُؤرخا الفقير، حيثُ قلتُ[2] [من البسيط]: <٢١٧ب>

بُشـراكَ هُنِّيـتَ يـا ذا المجدِ والظفـرِ
ولا بَرِحـتَ بإقبـالٍ مـدى العُمُـرِ

بُشـراك هُنِّيـتَ فالأيـام مقبلـةٌ
والدهر وافـاكَ طَوْعـاً غـير ذي عـذرِ

وعندليـب الـهَنا غنّـى لنيـل منـى
علـى غصـون مـن الأفـراح والبِشَـرِ

وطـالع النصـرِ معقـود منصَّتُـه
فـوقَ المجَّـرة مرفـوع بـلا نُكُـرِ

بشراكَ قد نِلتَ فـي ذي الشـأن مَكرُمـةً
مضبوطةَ الفَضلِ من بـادٍ ومـن حَضَـرِ

سـبقْتَ أقرانـك الغـرّ الكـرام وقـد
خطبتَ بـالمجد شـمس الفخـر فـافتَخِرِ

=الجانب الغربي من بغداد، سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٥م. وأضافت إليه ميضأة. وقـد أرخ المؤلف هذه الأعمال في أبيات كتبت على الآجر المزجج ثبتت على جـدران الجامع، ينظر ديوانه ص١٤٦-١٤٧ ومحمود شكري الآلوسـي: مسـاجد بغـداد وآثارها ص١١٤.

[1] الخبر في دوحة الوزراء ص٩٣.

[2] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٧٥-٧٦.

واختارك الليث صِهْراً حيث كنتَ له
دون الورى في محلّ الناب والظُفُر

وُصِلْتَ بالشرف العالي وصرتَ على
متن المكارم مخدوماً بكلّ سَري

أكرِم بها لُحْمَةً منسوجة بيد الـ
إقبال موصولةً بالعزّ والظَّفَر

واغنم بعرسٍ عظيم جلّ موقعه
أبان عن حِكمةٍ عظمى لمفتكر

قد زَيَّنَ الكون فازداد الورى فرحاً
وعَمَّمَ البِشْرُ منه جملة البَشَرِ

أمْسَتْ به بلدة الزوراء فائقة
على المدائن في كِبْرٍ وفي فَخَرِ

كأنّ غبراءها الخضراءُ إذ نُقِشَتْ
بأحسن الشكل من تبرٍ ومن دُرَرِ

يا طيبَ عُرسٍ به الأرجاء نيِّرةٌ
لم يتفقْ مثله في سالفِ العُصُرِ

سُرَتْ به السبعة الأفلاك فانبعثت
عليه دائرةً في أحسن الدَوَرِ

والسعد يرقص تحت النجم في طرب
والقطب إذْ ذاك ساهي الطرفِ في سَهَرِ

والمشتري قال للمريخ حين رأى الـ
شعرى العَبورَ مع العَيوقِ في سَمَرِ

إذهـبْ فلعـت رفيقـي إنّنـي جـــذلَ

ولم أجد مثل ذي الأفــراح فــي عمــري

فسار تحتَ السُّهى يرجــو القــران بـــه

فاصطاده النســر بيـن السـبعة الزُهُــر

وسائر النجم أمســى وهــو فــي شـغلٍ

مــن المسّــرة لــم يُبْـق ولــم يَـذَرِ

فيالَـها ليلــةً جـــاد الزمـــان بـــها

كانت من العمر بل مـــن أحســن العُمُــرِ

<٢١٨أ>

إذ كان ما حـــار فيــه ذو النــهى ولقــد

أرّختُ رَوْمَ ازدِواج الشمس فــي القَمَــر(١)

وممَّن هنّأه، مؤرخاً أيضاً، أخي الشيخ محمد سعيد حيثُ قال [مــن البسيط]:

بُشرى فقد نِلْتَ في ذا العُرْسِ كلَّ هنـا وزالَ عنك بمـــا أوْليـتَ كـلُّ عَنـا

بُشرى فعُرْسُكَ محمــودٌ وإنـكَ مــن بهاه أحمد إذ قـــد نِلْـتَ كـلَّ منـى

عُرْسٌ به الكَوْن أضحى زاهياً فَرِحـاً والأرض قد مُلِئتْ مــن نَشــوِه دَدَنـا

وبُلْبُل المجد فوق الـدَّوْحِ غَــرَّدَ فــي روض السعود وغُصنُ السَّعدِ قد زَفَنـا

والوُرْقُ تَصدَحُ في الأسماءِ من طَـرَبٍ والورد أزهَرَ والنَّســرينُ قـد حَسُـنا

وعَطْرَ الأفْقَ عِطــرٌ منـه مُنتشِــرٌ فيـه ونــورٌ لــه مــن نيِّريــهِ سَــنا

---

(١) حساب حروف العبارة: ١١٦٠

والأرضُ تاهتْ وعمَّتْ بالبشارة إذ ... غيثُ السرور عليها منه قد هتَنا

ومِنْ سَنا نوره الأسنى قد ابتهجَتْ ... وعمَّ بغداد والأقطارَ منه هَنا

وحلَّ فيها وفي سُكّانِها فَرَحٌ ... والهمُّ عنها وعنهم فيه قد ظَعَنا

بُشرى لبغدادَ فيما شُرِّفَتْ فلقد ... فاقَتْ بمَفْخَرِه الأقطارَ والمُدُنا

فالخَلْقُ تَحمدُ والغبْراءُ تَمْدَح والـ ... ـخضراء تُسدي إلى عَليها كُلَّ ثَنا

والنجمُ يرقص والمِرِّيخُ يُنشده ... بشرى لأحمد في ذا الدهرِ حيثُ بَنى

بربَّةِ المَجد ذاتَ السَّعدِ والحَسَب ... السامي الذي بذُرى عَلْيائها اقترنا

عقيلةُ الفضلِ تِربُ الأكرمينَ لذا ... قد سار منشأ زاكي أصلِها حسَنا

حَييةٌ ذاتَ عقلٍ عمَّها أدب ... كأنَّ فيها الحيا والعقل قد خُزِنا

زُفَّتْ إلى أحمد الأفعال فاتَّفَقا ... سَعداً ومَجداً وفي أوجِ العُلا سَكَنا

بشراه نالَ الذي قد كان يطلبه ... دهراً ويرقُبُه من ربِّه زَمَنا

زُفَّتْ إليه فوافى رِفعةً وهَنا ... وخَفض عيش وعِزّاً معْ بلوغ مُنى

وقتَ الزِّفافِ بهذا العصر حين بدا ... ونوره في سماء العِزّ قد علَنا

<٢١٨ب>

نجمُ السُّعودِ بأفق المجد أرَّخَه ... بَدْرٌ زَهى وبِشَمْسِ المجد قد قُرِنا

فصل

[في تبادل الهدايا بين العثمانيين ونادر شاه، ومصرع نادرشاه]

وفي هذه السنة، قَدِمَ من الشاه نادر رَسولٌ إلى الدولة العليّة، ومعه هدايا إلى الخُنْكار، من جُملتها فيلان يُجيدان المُصارَعة واللَّعِب العجيب، وخَيْمة من الدِّيباج مُحبَّرة بالذهب، أعمدتها بعضها فِضَّة وبعضها ذهب،

وأوتادها فِضَّة، وأطنابها من الإبْرِيسم المُحلّى بالذهب، وطِرازها محبـــوكٌ باللؤلؤ الجيِّد.

وفي هذه السنة، قَدِم الدولة العلية رسولٌ إلى النادر شـــاه كِبـرلي حاج أحمد باشا- والي بغداد الآن[1]- ومعه هدايا عظيمـــة أيضـــاً، مـــن جُملتها نحو المائة حِصان برُخوتها[2] وحُلِيِّها، فـــاجتمع الرســولان فـــي بغداد. ثم أن رسول الخُنْكار توجَّه إلى إيران، فلما وَصَل إلى كَرْمان شــاه أُخبِر بموت الشاه نادر، وبِكَثْرَة الإختلال في بلاد العجـــم، فأرســـل إلـــى الوزير المذكور يُخبِره بذلك، وإنه لا يطيق الرجوع ولا الذَّهاب خوفاً مـــن أهلِ الفَساد، فأرسل الوزير إليه سَرِيَّةً أنقذته من تلك المـــهالك، وســيَّرَته على أوضح المسالك، وأتت به إلى بغداد. وقد قَدَّمنا بعض هذه القضية في الاستطراد[3]، فتَفَطَّن!

---

[1] تولاها من أول ١١٦١ إلى ١١ ذي الحجة من العام نفسه (١٧٤٨م).

[2] الرخوت جمع رخت، وهو ما يوضع على الفرس من سرج ونحوه.

[3] أشار إليها في حوادث سنة ١١٤٨هـ.

فصـــــل

[فتـــح قمجوغســـة]

وفي هذه السنة أرسل سَرِيَّةً إلى كُرْدِ العِمادِيَّـــة، حيـــنَ بـــدا منـــهم الخِلاف، وظهر بينهم شَقُّ عصا الائتلاف[1]، فأمَّرَ عليها كَتْخُداه ســـليمان باشا.

وبعدَ أن أرسَل هذه السَّرِيَّة جاءه خبر سليم بيك الكُرْدي[2]، وقد كان متابعاً للعجم أحقاباً عديدة وسنين مديدة.

---

[1] كانت العمادية عهد ذاك عاصمة إمارة بهدينان التي اسمها وتولى حكمها الامـــراء العباسيون من ذرية الامير المبارك، الأبن الاصغر للخليفة الشهيد المستعصم بـــالله، ومن اعمالها دهوك وعقره وزاخو، وجلية ما يشير إليه المؤلف هنا هو ان أحمـــد باشا اراد ضم هذه الإمارة إلى سلطته المتنامية، واضطر في سبيل ذلـــك إلـــى ان يخوض صراعاً ضد اميرها بهرام (أو بايرام) باشا الثاني بن زبير باشا العباســـي (في أثناء إمارته الثانية من ١١٣٠ إلى ١١٨٢هـ/١٧١٧-١٧٦٨م)، وحرض احد ابناء الامير وهو عالي خان بك على مناوأته، واعداً اياه بالتوســـط لـــدى الدولـــة العثمانية لتعيينه أميراً، واخذ يمده بأسباب القوة، ومن ذلك انه ارسل كتخداه سليمان باشا لمناصرة الثائر المذكور بحجة ان بهرام باشا يسعى للاستقلال عـــن الدولـــة العثمانية، ولكن بهرام باشا صمد ازاء الحصار، فاضطر كتخداه إلـــى مفاوضتـــه بالصلح، على ان يعين عالي خان حاكماً على دهوك. ينظر: انور المائي: الاكـــراد في بهدينان، الموصل ١٩٦٠، ص١٥٢-١٥٤.

[2] هو سليم باشا بن بكر بك بن سليمان ببه (البابانى) أحد أمراء البيت الحـــاكم فـــي الإمارة البابانية في شمالي العراق، وكان قد تمكن من الحكم في قاعدة الامارة (قلا جولان) منتهزاً فرصة انشغال أحمد باشا والي بغداد بحرب نادرشاه، ثـــم صـــدر حكم سنة ١١٤٧هـ باعفائه من منصبه والإقامة الجبرية في لواء (كانغري)، دفتر مهمة ١٤٠ ص٣٥٥ في أواسط ذي القعدة ١١٤٧) والظاهر أن ذلك الأمـــر لـــم-

وكان من خبره أنه لما سَمِع بمَوتِ الشاه نادر، أرسل إلى العجم أن أمِدُّوني بعساكر وآخذ لكم بغداد، فحين سمع الوزير هذا الخبر، <١٩٢أ> خرج إلى قتاله وما استَقَر، وأرسل إلى كَتْخُداه سليمان باشا أن إعْدِل بمن معك نحو سليم. ولما بَلَغ سليم خبر قدوم اللَّيْث عليه، هَرَب وتحصَّن، هو وأخوه شير[1]، في حِصنَين بنوهما بين جبالٍ شاهقة، أعدُّوهما للتَحصُّن عند الغَلَبَة، يُقال لإحدهما قَمْجُوغَة، وللآخَر سَرُوجَق.

أما شير فقد تحصَّنَ في الأول، وأما سليم فقد تحصَّن في الثاني. فلما قَدِم اللَّيث إلى قَمْجُوغَة، أبصرها شاهِقَة في النجوم، راسِخَة في التُّخوم، مُفْعَمَة بالجنود الضَّارِيَة، مَحفوفة بالبُنود البادِيَة، فأحدَقَّها بعَساكِره، وحَفَّها بأكابره. ولم تَرُعه كثرة أطوابِها، ولم يَهَب بنادق أصحابها، فافتَضَّها من أول وَهْلَة، ودَخَل المدينة لا على حين غَفْلَة، وهَرَب شير مُتَخفِّياً، واحتَرَّ القَتلُ في أصحابه، وطَفِئت بماء الصَّوارِم فايِرة حِرابه.

-يجد طريقه إلى التنفيذ، لأنه لما انقضت صفحة هذه الحرب، قاد أحمد باشا حملة عسكرية على سليم المذكور، فاضطر هذا إلى أن يتحصن في قلعة (سروجق). وازاء فرض أحمد باشا الحصار عليه، لم يجد بداً من التسليم، فأوفد ابنه إلى الوالي المذكور، طالباً العفو والأمان، وقد أمنه أحمد باشا بعد أن أخذ عليه المواثيق بعدم العودة إلى أفعاله السابقة.

[1] كان شير بك بن بكر بك البابانى، قد عاضد أخاه سليم باشا في حركته المذكورة، فلما توجه أحمد باشا للقضاء عليها، اضطر هو إلى الإلتجاء إلى حصن (قمجوغة) الحصين، قرب (سروجق)، وعلى الرغم من حصانته، فإن قواته لم تقو على الثبات ازاء هجوم جيش أحمد باشا، فاستسلمت له، أما شير بك فقد فر بنفسه بطريقة غامضة. وقد أورد هذهِ الحادثة أيضاً الكركوكلي: دوحة الوزراء ص٩٣-٩٥.

وقد أرسل عبد الله بيك[1] إلى الوالد كتاباً يُخبِره بهذه القضية، فكَتَب له الوالد كتاباً هو إنشائي، صُورته:

سلامٌ زاهٍ زاهِر، وثناءٌ بادٍ باهِر، على من تحلّى بالصفات الجميلة، وتَجلّى بالسِّمات الجليلة، واتَّسَم بالخِلال الحَسَنة، ووُسِم بالطباع المُستَحْسَنَة. أكرَم من في البَيْداء طَنَباً، وأفخر من جرَّ في الصحراءِ سَبَباً، حائز المَكارم السَّنية، جامع المغانِم السَّميَّة. النَّدْبُ الذي لمَحاسِن الأفعال حاوي، الأكرم الأمجد عبد الله بيك بن شاوي، حفِظه الله من طوارئ الزَّمَن، وكلأه من بوائق المِحَن.

أما بعدُ، فقد ورد علينا كتابكم في أبْركِ ساعة، فتأمَّلْناه فإذا هو مَشحون بأنفس بضاعة، ألا وهي قضية فتح القَلْعَة التي هي بالعِصيان

---

[1] هو عبد الله بك بن نصيف بن شاوي، أمير قبيلة العبيد في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) ورأس أسرة آل الشاوي التي تمت بنسبها إلى فخذ آل شاهر من قبيلة العبيد. وصفه المؤرخون بأنه كان بعيد النظر، ذكياً غيوراً عربياً قحاً شجاعاً صنديداً ديناً زاهداً، وقد منحه ولاة بغداد لقب (أمير) بصفة رسمية، ثم ولاه سليمان باشا أبو ليلة منصب (باب العرب) أي أنه جعله وسيلة الحكومة للاتصال بالعشائر العربية آنذاك. ولكن سعة نفوذه، أثارت حسد عمر باشا والي بغداد، فأمر بقتله، فقتل في مكان يسمى (أم الحنطة) سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م. وساق المؤلف بعض أخباره المهمة في بغداد في كتابه الآخر، الذي عنوناه (تاريخ حوادث بغداد والبصرة) ص٨٧، وينظر الكركوكلي: دوحة الوزراء ص١٤١-١٤٢ وياسين العمري: زبدة الآثار الجلية ص٢٢٣، وإبراهيم فصيح الحيدري: عنوان المجد ص٨٩ وغير ذلك.

<١٩٢ب> مَرْدوغَة[1]، المشهورة المعروفة بين الناس بقَمْجُوغَة، وما وقَع لأفنْدينا- حفظه الله- من الثبات العظيم، والتثبيت القَويم، وأنه تَرَجّل أمـــام الجُند كاللّيث المفترس، والهِزَبْر المُختَلِس، وثَبَـــت علـــى مَضَــض نــار البنادق، وأقام تخفقُ على رأسه البُنود والبَيارِق.

وأحدَقَ الجند بالقلعة إحْداق الضيوف بالوليمة، وأحاطوا بها إحاطـــة الملْهُوف على النَّفَل والغنيمة، وتَدَرَّعوا الحَزْمَ لا الحديد، وحمى الوَطيـــس على كل بطل صِنديد، فارْمَغَلوا نحوها رِجالاً، واشــمعَلّوا إليــها أبطـــالاً، فتَسنَّموا غاربَها، وقَصَموا مُحاربها. ولم تَردُعهم البنـــادق المُحرِقـــة، ولـــم تمنعهم البَوارِق المُقْلقَة، بل حَمَلوا عليها حَمْلَة الرجل الواحـــد، واحتملـــوا لديها هذه الأخطار الشدائد، فافتضوُا بُكارتَها، وافتضُّوا عَذارتَها. ودخلـــوا المدينة لا على حين غَفْلَة، وأُيِّدوا بالنصر والسكينة من أول وَهلـــة. هـــذا ومولانا الهُمام، ومولانا الأنعام، وإمام الإسلام، وهُمام الإســـلام، وملـــك الأنام، وخليفة الخُنْكار في دار السلام، يقْدُمهم إقدام الأسَد الأشبال، ويثَبِّتهم على المُجاهدة والقِتال، ولم ترُعه حِيالهم وعصيِّهم، ولم يَرْدعـــه عاتيـــهم وعَصيهم، بل كَرٌّ وفَرٌّ، وحَمَل فأفر. شعراً:

يَلْقَى الرِّمـــاح بِنَحْـرِه وبِصَـدْرِهِ   ويقيــمُ هامَتَــهُ مقَــامَ الخِفْـــــرِ

---

[1] مردوغة: موحلة.

ثابت الجأش وافر الانتعاش، ولم يزل أمـام الخميـس ذا رَوَغسان، يتَلَقَّى شَرَرَ النيران بالأبدان، حتى أظهرَ الله الإسلام وأعلاه، وقمـع كَيْـدَ الطَغام وأفناه <٢٢٠أ>.

هذا وقَمْجوغَة راسِخة في التُخوم، شامخة إلى النجـوم، وتسـامَت على السَّحاب المُرتَفِعة بعلوِّها، يَحار فيها الناظر، ويعجز عـن وصـول أبراجها العقّاب الكاسِر.

هذا وإنه لما جاء خَبَرُ هذا الفتح السَّـار، عَمَّـت الأفـراح جميـع الأقطار، وصَدَحَت بلابل البَشائر على أفنان السُرور، وسَـجَعَت عَنـادل الهَنا على أغصان الحُبُور، فكُنّا في عيدٍ أعظم الأعياد، وفـرحٍ لا يَشُـوبه أكدار ولا أنكاد. فالحمد لله الذي شَدَّ به أزار الإسلام، وأضحَـتْ بقُدُومـه عَروساً مدينة السلام. فرفع أهلها أكُف الدعاء والابتهال، وبَسَطوا راحـات التضرع إلى ذي الجَلال، بأن يُديم عليهم هذا الوزيـر حِصنـاً للإسـلام، وكَهفاً للأنام، ومَعْقِلاً للشريعة المحمدية، والمِلَّة الأحمديـة، ويَقصِـم بـه ظهور المُفسِدين، ويُروِّع به صَوْلَة المُعتَدين، ويُرغِـم معـاطِس البُغـاة، ويكسر شَوْكة الطُغاة.

[تحرك بني لام]

وكان قبل وصول هذا الخبر المُنيف، أرجَفَ البَدو ،ولا سـيما بنـو لام، بعض الأراجيف مما لا يَجري به لسان، ولا يَمُرُّ على أوْهَم إنسـان، فعَشَّشَ الشيطان في هامتهم وبـاض، وتحرَّكَـت فـي قلوبـهم عُـروق

الأمراض، ونَجَم نِفاقهم، وتحرَّكَ شِقاقهم، وراموا لإزالة غصتهم انتهاز فُرصتهم.

فبَيْنا هم على هذه النِّيَّة الشنيعة، والطوية الخبيثة الفظيعة، إذ جاء البريد بهذا الفتح العظيم، والنصر الجسيم، فتقَطَّعت عُروق فسادهم، وأُخمدت نيران عِنادهم، وأطفأ الله ثائرة شرورهم، وردَّ كَيْدَهم في نُحورهم، والحمدُ <٢٢٠ب> لله لا نُحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

فصل

[تهنئة المؤلف بفتح قَمجوغة وسروجق]

وبعد أن أخَذَ قَمْجُوغة، سار إلى تسخير سَرُوجَق، فأدركَه المَرَض هناك، واعترَى جميع العسكر المَرَض، ومات منهم خَلْقٌ كثير لعُفونَة تلك المياه وثِقَلِها، وعدَم طِيبِ هواء تلك الأرض، فأرسل سليم ولَدَه إلى الوزير يُرِيد منه الصُّلح، على أنَّه يُؤدي إلى الوزير دراهِمَ كثيرة، ويتُوب عن فِعْلِه، فأجابه الوزير إلى ذلك، لكَثْرةِ مَرَضه ومَرَض غالب الجُند.

ولما بلَغنا خبَر فَتْح قَمْجُوغَة، وذهابه إلى سَرُوجَق، ومُحاصرته سليم، عملتُ له قصيدةَ تهنِئةٍ، وعملَ أخي الشيخ محمد سعيد كذلك لتكون حاضرةً عند قُدُومه علينا. فأما قصيدتي فهي هذه، ذات تاريخين، واحد لقَمجُوغَة والآخر لسَرُوجَق [من البسيط][1]:

---

[1] ديوان عبد الرحمن السويدي ص٦٤-٦٧.

لــكَ البِشــارةُ فـــاغنَم غايَـــةَ الأمَـــلِ

فَشَـــأنُ شَـأوِك قـد أربـى علـى الحَمَـلِ

واليــومَ أضحَـت لــكَ الأيـــام طائعـــةً

والدهــرُ وافــاكَ مُنقــاداً علـــى وَجَــلِ

وليــومَ حُــزتَ مكانــاً لا يحـــلّ بـــه

إلاّ الـــذي كــان فــوق الشــمس أو زُحَــلِ

واليــومَ نِلْــتَ فخــاراً باذخـــاً وعَــلا

ءً شــامخاً لــم تَنَلــهُ الصّيــدُ فـــي الأزل

واليــومَ أفــردتَ حقّــاً لا اســتعارة بـــل

ولا كِنايـــــــة بالإقبـــــال والقُبَـــــلِ

واليــوم قَــرَّتْ عيــون الديــن فـــاكتحلت

بــإثمد النصــر فــازدانت علــى المُقَــل

ولليــوم أصبحــتِ الإســلامُ فــي شُــغُلٍ

مــن الــهَنا وأخــو الإســلام فــي جَــذَل

فابشــر فَدَيتُـــك أن لا عـــزٌ بعـــدُ ولا

نبــلاً لمــن كــان قَبْــلاً أعصُـــرَ الأوَل

هل بعــد رَدْعِــكَ إخــوانَ الخــلاف لمــن

نــاواكَ مــن شَــرَفٍ بــادٍ ومــن نُبُــلِ

وهــل تَركــتَ لــورّاد المكـــارم مـــن

مجدٍ ســوى الآل أو ضَحْضاحــةِ الوَشَــل

تَعُــوم فــي أبحـــر بـــالمجد مُفعمـــةٍ

وشــانئوك ارتَضَـــوْا منـــهنّ بـــالبلَل

<221أ>

فَسِرْتَ والنصرُ يَسري حيثُ سَـرتَ ولِلْـــــ

ـإقبـال جـريٌ لـدى حَـلٍّ ومُرتَحَـــل

تَـؤمّ جيشــاً لــه الرايــات خافقــةٌ

كطــائرِ القَلْـبِ عــن سُـكناه فـي شُـغُل

فيالَــه مـــن خميـــسٍ جـــامعٍ أُسُــداً

تُـردي وتـردع أُسْـدَ الغيـل والدّغَــلِ

من فــوقِ مَتْــن الجِّيــاد الصافِنــات لــهم

تحت العَجاجَــةِ طَعــنُ البَهْمــةِ الرَّجَــلِ

فكـم لــهم طَعْنــةٌ نَجـلاء غــابَ بــــها

نَصْـلُ السّــهام (فَتِلَــة) الزيـتِ والفُتُــل

قومٌ مـــن الــتُرك فــي الــهيجاء عادتــهم

تركُ المُصابِرِ دامــي الظَّــهرِ ذا خَجَــل[1]

لا يَرْعَــوونَ ولـــم يلـــووا أسِـــنَّتَهم[2]

عن نَيْلِ ما أمّلوا فــي الحــرب مِـن أمَـلِ

بـل دأبــهم فـي الوَغـى كَــرٌّ يَفِــرُ

مـن الــورى كـل ذي صَمْصامـةٍ بَطَــلِ

وليـس يُلهيـهمُ عــن خصمــهم سَــلَبٌ

بـل دأبــهم طَلَــبٌ أنفـــاسَ ذي نَكَــلِ

---

[1] بالأصل: ذي خجل، والصواب ما أثبتناه، منصوبة على الحال.

[2] بالأصل: ولا يلووا، ويجب إثبات النون، وما أثبتناه أولى بالصواب.

كأنّهم وإله العَرْشِ يكلؤهم
ملائكٌ جِنسَ هذا الحَيْنِ بالأجل
فَقُدتُّهُم جحفلاً سالت بِمدّته
أباطح الكُرد ذات السهل والجبل
ورُمتَ حِصنَي بني ماء السماء لما
عَصَوك واستعصموا بالخَيْلِ والرَّجَل
فلم تُفِدْهم غداة الرَّوع كثرتهم
مذ أصبحَ الرُّوعُ مخلوعاً من الوجل[1]
بل اهْرَعُوا هَرَباً نحو الحصون لكي
ينجوا بهنّ حذار السيف والأسَل
وظنّ زَعماً بنو ماء السماء بأن
ينجوا (بقَمْجُوغة) من حادث جَلَل
إذ حِصنها مُحكَم البُنيان مُرتفعُ الـ
أركان شاهقٍ أربى فوق كل علي
خَرقَاءُ راسِخةٌ في الأرض شامِخةٌ
في الجوّ ناجمتَ العيّوق في الحَمَلِ
كأنها البُرْج إذ حَقّتْ بها شُهُبٌ
ترمي بذي ذَنَبٍ كالقَصْرِ في المَثَل
قد أصبَحَتْ وهي في سوريْنِ مُحدَقَةٌ
أقواهما البُنْدُق الناريّ ذو الشعل

---

[1] الروع: بفتح الراء، الرعب والخوف، وبضم الراء: النفس والقلب.

فعالجَتـها جنـود الله يَقْدُمُـها

ليـثُ العَريـن فوافوهـا علـى عَجَـلِ

وأمَّـها الليـث والأشـبال تتبعـه

واقتضَّـها غـير هَيـابٍ ولا نَكِـلِ

<٢٢١ب>

وقد شدا السيف في الـهامات مـن طَـرَبٍ

واللَّدنُ يَرقُص فـوق الظَّـهرِ مـن جَـذَلِ

والنبل رنَّـمَ ترنيـم المَشُـوقِ إلـى الـ

أوطان والطَّوبُ أمسـى وهـو فـي زَجَـلِ

وشـارَ (شير) علـى أعـوانِ نجدتـه

بـأن نعجّـل سـيراً لا علـى مَـهَلِ

فليـس يجـدي إذن غـير الفِـرار فمـا

لجُنـد أحمـد فـي ذا اليـوم مِـن قِبَـلِ

ولم يزدهم سوى ضُـرٍّ يبيـد وفـي الـ

تـاريخ (قـد زاد شـيراً حينـة الأجـل)

١١٦٠هـ

يـا يـوم قمجوغـة أنسَـيْتَ مـا سـلَفَت

من الفتـوح الأُلـى فـي الأعصُـرِ الأوَلِ

قـد شـيّد الله ركـنَ الديـن فيـك كمـا

أو هـي معـاقل أهـل النُّـوك والنُّكَـلِ

وقد علَـتْ شَـوكةُ الإسـلامِ إذ خفِضَـت

قَمْجُوغَـة بـأهل الجَـهلِ والخَبَـلِ

أمست خلاءً بقيد الأسرِ مثقلة

..................................[1]

والعزّ فارقها والذلّ قارنها

والبُوم يَنْدِب فوق الرَّسمِ والطَّلَلِ

فقُمتَ عنها قيام الليث عن رشأ

لم تُبقِ فيها لمن يَتْلوك من أُكُلِ

وسرتَ والسعدُ حفَّ الجند في ظفرٍ

وزفَّك النجحُ والإقبال في رسلِ

وأنت ترفُل في ثوبين قد نُسِجا

ما بين نقْتَيْ الإقبال والقُبَلِ

تبغي (سَرَوْجَق) إذ كانت شقيقتها

في البغي والجَور في فِعْلٍ وفي عَمَلِ

أختان قد رضَعا العِصيانَ في نَهَلٍ

وغُذِّيا بلبان الظُّلم في عَلَلِ

وقد تحصَّنَ فيها خوف صولتكم

(سليم) إذ لم يزل منكم على وَجَلِ

عَضُدُ الخوارج بل ساقٌ لشَوكَتِها

رأس الخِلاف قوام البغي والجَدَلِ

لقد أُبيفَت بماء الغَدْرِ طينته

من أن خِلْقتِه والمكرِ والحِيَلِ

---

[1] لم يرد هذا الشطر في الأصل، وأثبتناه من الديوان.

يا ويحه أيـن ينجـو مـن مصادمـة الـ
مغـوار فـي كـل بـادي لبـدة خـدل[1]
وهـل (مَـرُوجَق) تُنْجِيـه مَعاقلـها
وعَزْمُ أحمدَ يُوهـي الصَّخـر فـي القُلَـلِ
وهـل يظـنُّ بـأن ينجـو بمَعْقِلـها
من صَوْلة الليـث أو مـن جولـة البطـلِ
كلا! فلـم ينـج مـن ليـث العَريـن ولـو
قد غاب في سَـرَبٍ فـي الأرض أو دَخَـلِ
<۲۲۲أ>

واما قصيدة أخي فهي: [من الطويل]

لكَ البِشْـرُ إذ وافـاكَ نَصـرٌ مُؤيَّـدُ ... وقارنـه بالسَّـعد فتـح مخلـد
فبُشْرى بفَتْحٍ عَمَّنـا البِشـر والـهَنا ... بـه فَغَـدا ممـا يُجَـل ويُحمَـدُ
وما هـو إلاّ فتـح قَمَجُوغـة التـي ... علا حِصنُها فـوق السِّماك مُشَـيَّدُ
مُسَـوَّرَةُ الأرجـاء شـاهقةُ الـذُّرى ... مُمَنَّعـة عصْـن يَـروم ويَقْصـد
لقـد ظَنَّـتِ الأعـداءُ أنَّ سُـمُوَّها ... يدافِعُ سَـطْوَ اللَّيـث عنـها ويَطْـرد
وظنَّ بنـو مـاء السـماء بزعمـهم ... بـأنك تثنيـك القنـا والمُـهنَّد
ومـا علِمـوا أن الوزيـر إذا بـدا ... لهَيْبَتـه الطَّـوْدُ المشـيَّدُ يَسـجُدُ
وقـد جَـهلوا أن الـهِزَبْرَ إذا سَـطا ... تخرُّ لــه الأبطـالُ خوفـاً وترعـد
فمـا قتلـهم إلا كطَرقـة مُقْلـةٍ ... لَدَيْـكَ إذا البِيـض الصِّفـاح تُجـرد

---
[1] في حاشية للديوان الخدل: الممتلئ الضخم.

وما فَتْحُك الأمصارَ إلا سَجيةٌ ... فأنتَ على قهر العدو مُعوَّد

وما شير إلاّ شيرٌ في حفّ حصنه ... يدافع عنه من له فيه مَقصَد

ولما أتى بَدْرُ العُلا نجمه هَوى ... فطالعه نَحْسٌ إذ البدر أسعد

وأصبح مهزوماً وفَرَّ وإنه ... من الرعب في قَيْدِ الفِرار مُقيد

سَرَيتَ إليهم في أسُود تقلدُوا ... صِفاحاً ومن سُمر القنا قد تَزوّدوا

كِرامٌ مَصاليتٌ شِداد ضَراغم ... لقتلِ العِدا في الحرب قَهْراً تَعوّدوا

يرَون صليل السيفِ أحسن نغمةٍ ... لهم وطَنين الرّمح صَوتٌ يُغرّد

ورنّة قوس النَّبْلِ ألْطفُ مُطرِبٍ ... ينادمهم طَوْراً وطَوْراً يُردّد

<٢٢٢ب>

إذا نَزلوا حَرْباً يَوَدُّ عدوُّهم ... تَسوّى به الغَبراء خَسْفاً ويُفقَد

هم الأُسْدُ لولا بيضُهم فرماحهم ... وإنهم الأطوادُ لولا التَّموّدُ

قد اتخذوا قَتْل العُصاة تعبُّداً ... فبُشرى لهم فيه ونِعْمَ التعبُّد

بنَجدةِ طَوْدِ المجد أحمد اسندُوا ... وبالحَزْمِ منه والشجاعة أيّدوا

سَرَيْتَ بهم والنصر أرخى سُدُوله ... عليكَ بذا ربّ الورى لك منجد

سَرَيْتَ إلى قَمْجُوغة فَفَتَحتها ... وأوقَعْتَ قتلاً بالذي كان يُفْسِد

وأيْتَمتَ أطفالاً وأيّمت نِسوةً ... ودَمّرتَ أبطالاً فهم منكَ سُجَّد

وقَرَيتَ وَحْشَ الطيرِ والطير منهم ... فكلُّهم يُثني عليكَ ويحمد

لقد نِلتَها بالسيف فابْشِر بأختها ... فليسَ لها من فَتْحِ سُمْرِكَ مُسنَد

فلو رُمْتَ كل الأرضِ قَهراً فتحتَها ... فإنك بالنصرِ المؤيَّد مُوعَد

وإنكَ في الخضراء مَلْكٌ مؤيدٌ ... وإنكَ في الغَبْراءِ قِيلٌ مُمَهَّد

وطالعُ مَن عاداكَ نَحسٌ وذِلّةٌ ... وطالعُ مَن والاك سَعْدٌ وسؤدد

وفتحُكَ محمودٌ وإنك أحمد ... وإنك بالمجد المؤثَّل مُفْرَدُ
وباهَتْ بذا الفتح البسيطة إذ غَدَتْ ... عليها مصابيح السَّنا تتوقد
وسَرَتْ به الخضراء فالنَّجْمُ راقصٌ ... وبدر الدُّجى بالسعد يَشْدو ويُنْشِد
وبغداد عَمَّتْ بالسرور كأنه ... إلى شَهمِها ذا الفخر يُسدى ويُسند
وعمَّ جميع العالمين سروره ... وحلَّ بهم فيه أمانٌ مؤبَّد
ودولةُ صيد آل عثمان أيِّدَت ... بأحمد فيه فهو فيها مؤيد
وذلك إذ لم تَحْكِهِ فتح عكَّةَ ... ولا سائر الأمصار أذ هو أحمد
ولا فتحُ ما نباعت[1] عَمُوريَّة ولا ... برلغاد[2] إذ ذا الفتحُ أسنى وأمجد
فطالِعُه في قُنَّة السَّعدِ طالعٌ ... وذابِحُهُ فوق المَجرَّة مُصعَد

<٢٢٣أ>

ومصباحه لا انفكَّ بالعِزِّ ساطعٌ ... ونبراسه لا زالَ بالنصر يُوقَد
وشيَّدتَ رُكن العدل والأمن للورى ... بهَدمِك ما فيها من الجَوْرِ شيَّدوا
واغلقتَ باب الشرِّ بالخير مُذ لها ... فتحت ففيها زال ما كان يوجد
واطفأتَ في ذا الفتحِ نارَ الذين هم ... على ظلم أهلِ الأرضِ بَغْياً تعوَّدوا
لقد نِلْتَها قَهراً لكل معانِدٍ ... وأوليتها رَغْماً لمن لك يَحسِد
ونِلْتَ اختها الكبرى سَرُوجَق طاعةً ... وأربابها قد سلَّموا لكَ واهتدوا
لما قد رأوا ما قد فعلتَ بأختها ... وما حلَّ في حال الذين تمرَّدوا
وقد علموا أن ليسَ يُغني قتالُهم ... وليسَ لها عن فتحِ عَزْمِك مَسْنَد

---

[1] كذا هي في الأصل، وفي ب: ما شاعت.

[2] كذا في الأصل، وفي ب: بزلناد! ولعلها: بلغراد.

[وفاة الوزير أحمد باشا]

ولكن الوزير لما بَلَغ بِمَسيرِه راجعاً إلى بغداد، أرضَ كُبْرِي عَبّاس[1]، تَوَفّاه الله برحمته، وأسكنه بَحْبوحة جَنّته، فأدمى بوفاته جروحاً لا تلتئم فُطُورها، وأماتَ بموته قُلوباً لا يُرْجى نُشورها. فيا لها من مصيبةٍ عَمَّت وخَصَّت، وكَدَّرت على الرْعِية وتَغَصّت، وفتحت للأحزانِ أبواباً، وصارت بين الرَّعية والسلوان حِجاباً، فقد وَجَب أن نتجرّع لِفَقْده كأساً من الحُزن صِرْفاً، ونعتَب على الدهر فلا نقبل منه عَدْلاً ولا صَرفاً، فلقد أخذ من كان مُحتشماً في المجالس فلم يُوقَف منه على زَلَل، ومُحتَمِلاً للمصاعب فلم يَبِتْ منها على وَجَل.

فيا لَهفاه على بغداد، ووأسَفاه على فَقْدِه، وما أعظم المصيبة فيمن كان سَيْفاً للدولة العثمانية فانثلَم، ورُكناً من أركان الصَّوْلة الخاقانية فانهَدَم، وبدراً استضاء المؤمنون بنور هِدايته، فتَدَرّج كُسوفاً، وسماءً فَزَع المُخالفون من عادِيته، فتجرَّع حُتُوفاً، وغريباً في شجاعته، فماتَ غريباً ومُتعصّباً <٢٢٣ب> في ولاته وولايته، فلاقى يوماً عصيباً، فقد نَقَله الله إلى جِواره، واختار له الدار الآخِرة فيطَهِّره من أوزاره، فمَضَى وطَعمُ الموت في فَمِه أحلى من الشُّهد مَذاقاً، ورأى إنفاقَ عُمره في طاعة مولاه نَفاقاً، واعتَدَ وُرود المَنِيّةِ في ابتغاءِ مَرضاته عِزّاً، وبلوغ الأُمنية في مخالفته أمره عَجْزاً، فلَقِي الحِمام بِعَزْمٍ غير مُنْتَشِر، وجَأشٍ غير مُنكَسِر،

---

[1] بلدة من أعمال الخالص، وتعد ادارياً ناحية من نواحيها، وتسمى اليوم (ناحية المنصورية).

وعقيدة بِحُسْنِ المُوالاة معقودة، وسَريرة في ذات الله محمودة، ففارَق دُنياه مُشتاقاً إلى ربِّه، لِما تحقق في عُقباه من السعادة في قُربه، وباذلاً روحه في الخِدْمةِ ليؤدي بها حقوقَ النِّعمة، وساعياً في مَصالح الدين، سعي الناصح الأمين، فرَضِيَ الله عنه رِضا يُعلي دَرَجَته، ويَقبَل منه حُجَّته، وغَفَر له مَغفِرةً يُسكِنُه بها جنّاته، ويَرفع فيها مكانه، ورَحمه رَحمةً يُقدِّس بها روحه، ويُفسِّح عليه ضريحه، آمين.

فغُسِل وكُفِّن، وجيء به إلى قَصَبَة سيدنا الإمام الأعظم نُعمان بن ثابت- رضي الله عنه- فَقُبِر قُرب مَرقَد أبيه- رحمهما الله رحمةَ الأبرار، وأسكنَهما الجنَّةَ دار القَرار- وذلك يوم الجُمُعة قبل الظُّهر، من شوّال هذه السَنة[1]، فرثيتُه مؤرِّخاً بقَولي [من المتقارب]:

إلى الله أشكو مُصابَ الورى ... فرَنْد النَّوائب فيهم وَرَى

وقد حلَّ خَطْبٌ جسيمٌ عظيمٌ ... يُزَعْزِعُ رَضوى ويُوهي حِرى

فيا دهرُ قد نِلتَ ما تَرتَجي ... ظَفَرت- لَعَمري- بكنز الورى

فعَهْدي وقد كنتَ من حَشدِه ... فمِمَّ العقوقُ وماذا جَرى؟

وكيفَ لكَ الويلُ حَجَّرْتَه ... وقد كان يَنْهَرُ من حَجَّرا

وقد كانَ في الأمسِ ذا قوةٍ ... مُقاوِمُ ثهلان بل عَسْكَرا

<أ٢٢٤>

---

[1] توفي في اليوم الرابع عشر من شوال، ويوافق ١٨ تشرين الأول سنة ١٧٤٧م، ودفن في اليوم التالي، وعين الحاج وليد الأعظمي مكان دفنه بأنه "في الممر المؤدي من رواق المسجد إلى حجرة ضريح الإمام الأعظم" (أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران ص٩١).

عليه تَشَحَّبَ وجه العُلا   وعَيْنُ المراتِب لن تُبصِرا
فحقٌ علينا نَشُقُ القلوب   مكان الجُيوب وأنْ نَضْجِرا
فقد قَبُحَ الصبر والإتساء   ومن ذا يُطيقُ لأن يَصبِرا
ويا عين إن غاضَ بحرُ الدموع   فسِحّي عليه دَماً أحمرا
ويا مُهجةَ القلبِ ذُوبي أسىً   ويا قلبُ قد آن أن تفطرا
ويا ظُلمةَ الليل لا تَبرَحي   فقد غُيِّبَ الفَجرُ تحت الثرى
فمن ذا يُخبِرَ عنّي جَريراً   ويُنبئ الفَرَزْدَقَ والشَّنفَرى
بأن القَريض وهي سُوقه   فليس يُباع ولا يُشترى
وإنَّ المديح غدا كاسِداً   فلن يُنظَمَ اليوم أو يُنثرا
وإن البيانَ عَفَت داره   وبابَ البَلاغة قد سُكِّرا
فقد ماتَ من كان يروي النظام   ويهوى المديح ولن يَضجُرا
وغُيِّب من كان يُولي البليغ   مكان مدائحه الجَوْهَرا
فقوما لِنَنْعاه في مِنَى   وعَبْس ونَبْكيه في حِمْيَرا
بأنَّ الكريمَ أخا حاتَمٍ   وعنترةَ الحربِ والأجْسَرا
وتاج الملوكِ أبا عادلٍ   دَعَتْه المَنونُ فلن يُدبِرا
ونادته طُوبى إلى وصلها   فلبى النِدا وإليها سَرى
وعانَقَ في الخُلدِ حُور الجنان   وبالمَكرمات لقد بُشِّرا
ونال من الله احسانه   وخيرَ الجزاء وحُسْنَ القِرى
فما صارَ حقّاً إلى حُفرةٍ   ولا حلَّ فيها ولا أُقبِرا
ولكنه مُنذُ تاريخِه   إلى رحمة الله قد صُيِّرا

<٢٢٥أ> ورثاه أخي الشيخ محمد سعيد مؤرِّخاً بقوله [من الكامل]:

يا دهرُ حَسْبُكَ من عظيمِ المَكْرِ ... ومن الرزايا في شَديدِ الضُّرِ
ما قد غَدَرْتَ بنا بفَقْدِ مليكِنا ... يكفيكَ ما نِلْناه في ذا الغدرِ
فالمجد أمسى بعد أحمد كامناً ... في التُّرب لم نسمَع له ذكر
والجود غُيِّبَ في جوانب لَحدِهِ ... وكذا الشجاعة في زوايا القبر
والعدلُ كُفِّنَ معه في أكفانه ... والفضل معه مختفٍ في الأزر
مات السخاء بموته وفَتَتْ به ... العلياء واندرست ربوع الخير
وتكدَّرت لُجَج الفضائل بعده ... ويدُ العُلى من بعده في صِفر
حقٌ على أهلِ البلاد وراكبي ... السُّبعِ البحار ومن بِقعر البَر
أن يسكبوا ماء العيون ويُكثروا ... ما قلَّ منه بالدماء الحُمر
أسَفا على حامي حِمى الإسلام من ... أهل الفساد ومن جنودِ الكفر
وعلى المعالي أن تَشُقَّ جيوبها ... حُزْناً على المَولى الرفيع القَدْر
قد كان مأوى للعُفاةِ وملجأً ... للمُستغيث وكاشفاً للضُّرِّ
فعليه يُثني كلُّ صاحبِ نِعمةٍ ... وعليه يَبكي كل من في عُسر
آليتُ لا أُثني على مَلِكٍ أتى ... بعد الوزير ولم أُفُه من شعر
إذ لا أرى شِبهاً له كلا ولا ... يحلو سواه دائما من مصر
بل أنظم الأشجان في قلبي ومَن ... دَمْعي أجُود له بفَيْضِ النثر
وأودُّ لو كنتُ الفِداء مكانه ... والعبد لا يُجزي مكان الحُرِّ
يا قلبُ صبراً لا تؤمل راحةً ... إنَّ الزمانَ مُولَعٌ بالغَدر
أشكو إلى الله القدير زماننا ... قد خاننا في كَسفِ هذا البدر
فلقد أحَلَّ بنا بتاريخ الرَّدى ... ولقد رمانا في العَناءِ والضَّير

وأصابَ منا في الوفاة برميهِ ... ما رام فانهدمت مباني الظَّهر

وعنا فأمضى حُكمه في أحمدٍ ... ورمى فأشعلَ ناره في صَدري

تبًّا لجَورِكَ يا زمانٌ عليه مُذ ... غَيَّبتَ طَلْعةَ مجده في القبر

ما كان ضَرَّك لو مَنَنتَ على الورى ... فمنحته طولاً لِقَصر العُمر

أترى هل استحيتَ منه حين ما ... قابلتَ بَغْياً عدلَه بالجَور

كيفَ استطعتَ إلى الهجومِ عليه أمْ ... كيفَ اقتَدَرتَ على نَفاذِ الأمر

بالله فافعل ما استطعتَ من الرَّدى ... من بعده ومن الأذَى والشَّرُّ

قد مات من كان الحدا عليه من ... أسبابِ رزئكَ والعنا والمُكر

ولقد تُوفِّي من يُؤمل في الردى ... ومُزيل عُسر أُمورنا باليُسر

ولقد مضى خَلْفَ الكرام ومجدهم ... ربُّ الشجاعةَ والندى والبِرّ

حاوي الفضائل تاج أرباب النُّهى ... طوق الجلالة والعُلى والفخر

حامي الذِّمارِ مَلاذ من يشكو الوُدى ... من جائرٍ أو حادثٍ أو فَقر

بحرُ النَّدى كهف الورى بَدْر العُلا ... ليثُ الوغى مُجلي الأذى والضُّر

قد حل في حِصنِ الحفيظ وحِرزِه ... يُجلى عليه من نور البشر

وحظي بما يهوى لدى ربُّ الورى ... وحباهُ مولاه جزيلَ الأجر

فعليه رحمةُ ربِّه تُتلى إلى ... وقت النُّشورِ وبعد يوم الحَشر

ولدى الجزاءِ مِنَ الكريم مؤرخاً ... ومأواه عدن لاحِقاً بالخير

خاتمـــــــة

مات- رحمه الله- عن بِنتَين تقدَّم ذِكرهما، وعن جنين جـاءت بـه أمه بعد موته بأيام، فسُمِّي أحمد، رَجاء أن يَخلُف أباه في سيرته الحَسَـنة، وأخلاقه المُستَحسَنة <٢٢٦أ>، والله أسأل أن يحقق ذلك.

ثم اعلم أيها الناظر، أن ما ذكرتُه هو عُشر عُشر الثُّمُن من شـمائل هذين الوزيرين، وفضائل هذين الـهمامين الكبـيرين، وإلاّ فلـو جمعـت قراطيس الدنيا لم أطق أحوز نصف شمائلهما، ولا ثُلث خصالهما، ولا كـل غَزواتهما، وجلّ سَريّاتهما، ولكن ما ذكرتُه هو كأنّـــة مصـدور، ونَفثَـة مقهور، حيث شاهَدنا العراق بعدهما ذَهَب أمانه، واندَرَست مـن الـهناء ربوعه وأوطانه، ويُغنيك عن الاستشهاد، مـا قدَّمنـاه فـي الاسـتطراد، فرحمهما الله رحمةً تدفّقت حياضها، وتأنّقت رياضها، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمـد لله رب العالمين.

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والمواقع



فهرس الأسر والقبائل

فهرس بالمصطلحات والألفاظ

فهرس الموضوعات

٢ر٩٢٣

س٩٩٤ السويدي ، عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي

حديقــــة الزوراء فــــي سيــــرة الوزراء /

عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي ، حققه

عماد عبد السلام رؤوف . بغداد – مطبعة المجمع

العلمي ، ٢٠٠٣ .

ص ، ٢٤ سم .

م ٠ و

١٧٩/ ٢٠٠٣ ١- الوزراء – تراجم أ. عماد عبد السلام

رؤوف (محقق) ب : العنوان

المكتبة الوطنية (الفهرسة اثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٧٩) لسنة ٢٠٠٣